مُعْتَرَكُ الأَقْرَانْ

فِي

إعْجَازِ القُرآنْ

للشيخ الإمام العلامة حافظ عصره ووحيد دهره

أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي

الشافعي المتوفى سنة ٩١١ هجرية رحمه الله

ضبطه وصححه وكتب فهارسه

أحمد شمس الدين

المجلد الثالث

دار الكتب العلمية

بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
هاتف: ٣٦٦١٣٥
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حرفُ الفاء

﴿فسق﴾ : أصله الخروج، وتارة يرد بمعنى الكفر، وبمعنى العِصْيان؛ وكلُّ خارج عن أمر الله فهو فاسق. يقال فسقت الرُّطَبَة إذا خرجت عن قشرها.

﴿فما فَوْقَها﴾ [البقرة: ٢٦]: الضمير راجع للبعوضة. ولما ذكر الله في القرآن الذباب والنمل والعنكبوت عاب الكُفّارُ ذلك. فأنزل الله: ﴿إنَّ الله لا يستحْيِي أن يضربَ مَثَلاً ما بعوضةً فما فوقها﴾ [البقرة: ٢٦].

قال قُطْرب: الحروف المقطعة والأمثال وضعها الله لإطفاء شغَف الكفار حيث قالوا: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه﴾ [فصلت: ٢٦]؛ فوضع الله هذه الحروف والأمثال يسمعونها، لأنها عربية لم يسمعوها قبل ذلك، ثم يبلغ الرسول رسالته بعد ذكرها ذلك.

﴿فأَزَلَّهما الشيطانُ عنها﴾ [البقرة: ٣٦]؛ أي عن الجنة أو عن الشجرة؛ والزلل متعد من زلل القدم. وأزلهما بالألف من الزوال، وضمير التثنية لآدم وحواء؛ وكذا فأخرجهما مما كانا فيه.

والصحيح كما قدمنا أن آدَم أكل منها نسياناً، وحلف له إبليسُ، فظنّ أنه لا يحلفُ أحدٌ بالله كاذباً، فجعل الله له الأكل من الشجرة سبباً في إخراجه من الجنة؛ لِحكَمٍ؛ منها:

أنه كان في حكمةِ الحكيم أن يكون خليفةً في الأرض، ويقوم فيها؛ فأراد

آدمُ أن يقيم في الجنة، فجعل الله بأكل الحنطة وتناولها سبباً لخروجه من الجنة؛ لينفذَ ما قضى وقدّر.

وكذلك النبي ﷺ أراد أن يكونَ مقامه بمكة، وكان في حِكْمَة الحكيم أن يمكث في المدينة مدةً، ويعلي كلمتَه فيها، فجعل جفاء المشركين سبباً لخروجه منها؛ لسَبْقِ مقاديره إلى مواقيتها.

كذلك العَبْدُ المخلص يريد أن يكون في طاعة ربه، ولا يقع في مخالفته؛ وكان في حكمة الحكيم أن يكون غفوراً وغافراً وغفّاراً؛ فجعل خذلان العاصي سبباً لخروجه عن أمره، ثم يمنّ عليه بالتوبة، فيتداركه برحمته، فيُظهر حكمته وتقديره، ويُبدي للعالمين غفرانه.

ومنها لكون الكفّار في صلبه إذ لم تكن الجنة محلاً للكافرين؛ وكذلك المؤمن يخرجه من النار لكون المعرفة في قلبه؛ إذ ليست النار محلاًّ للعارفين.

ومثال المؤمن والكافر في صلب آدم كتاجر أَخفى المسك في وسط الْبُحْدُق حتى لا يحسّ به قاطعُ الطريق، فإذا بلغ الْمَأْمَن كان المسك قد أخذ بطرف من رائحة البُحْدُق، وكذلك البُحْدُق تعلق به شيءٌ من رائحة المسك، فيبسطها على بساطٍ فتهبّ الرياح فتتلاشى الروائح المستعارة، كلّ رائحة تعود إلى أَصْلها، فيبقى الأصلُ على ما خُلق عليه. فكذلك الكافر والمؤمن في صُلْب آدم؛ فأصاب الكافر رائحةً من المؤمن، فيعمل منها الحسنات، وأصاب المؤمنُ رائحةً من الكافر فيعمل منها السيئات؛ فإذا كان يوم القيامة يجمعهم اللهُ في بساطٍ واحد، فتهبّ رياحُ القيامة، فترجع حسناتُ الكافر إلى المؤمن، ويرثُ بها منزله في الجنة، وسيئات المؤمن إلى الكافر ويرث بها منزلَه في النار فتتلاشى العواري، وتبقى الأصول على ما قدّر وقضى؛ قال تعالى: ﴿ليميز الله الخبيثَ من الطيّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]. وقال: ﴿وليَحْمِلُنَّ أَثقالهم وأثقالاً مع أَثْقالهم﴾ [العنكبوت: ١٣].

ومنها أنه كان في خروجه من الجنة رحمة من الله له وإكراماً بالنبوة

والتكاليف. والفائدةُ فيه أنه يرحم مَنْ عصاه في جواره، فالأوْلى ألاّ يعاقب مَنْ عصاه في جوار إبليس.

قيل: إنه قال: يا رب، إني أستحي من ولد محمد. فقال له: سأُمَهّد له عُذْرك؛ فقال: ﴿ولم نَجِدْ له عَزْماً﴾ [طه: ١١٥]؛ أي لم يعتقد الذنب، ولم يثبت عليه؛ بل اعتذر وندم. وكذلك مهّد الله عُذْر هذه الأمة المحمدية بقوله: ﴿للذين عَمِلوا السُّوءَ بجهالةٍ﴾ [النحل: ١١٩]. وقال: ﴿وخُلق الإنسان ضعيفاً﴾ [النساء: ٢٨]. ﴿خُلق الإنسان من عَجَل﴾ [الأنبياء: ٣٧]. أدبك بأوامر ولم يرض أن يعاتبك غيرةً منه إليك، فاعتذر منك إليك.

﴿فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، أي أخذ، قيل، على قراءة الجماعة. وقرأ ابنُ كثير بنصب آدم ورَفْع الكلمات؛ فتلقى على هذا من اللقاء، والكلمات هي قوله: ﴿ربَّنا ظلَمْنا أنْفُسنا﴾، بدليل ورودها في الأعراف. وقيل غير ذلك.

وهذه إحدى الخصائص التي خصّ الله آدم بها؛ خلقه الله بيده، ونفخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته، وأمرهم بحَمْله إلى الجنة على أكتافهم، وعلّمه أسماءَ كلّ شيء، ثم عرضهم على الملائكة، وأدخله الجنة بغير عملٍ إلا أَمْره بالصلاة على رسول الله ﷺ، وكلّمه مواجهة. ولما عطس قال: الحمد لله، فأجابه الله بقوله: يرحمك الله؛ يا آدم لهذا خلقْتُك. فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربّكَ﴾ [هود: ١١٠].

﴿فإمّا يَأْتينّكم مني هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]: إن شرطية، وما زائدة للتأكيد. والهدى هنا يرادُ به كتابُ الله ورسالتُه.

﴿فمن تَبع﴾ [البقرة: ٣٨] شرط، وهو جواب الشرط الأول. وقيل: ﴿فلا خوف﴾ جواب الشرطين.

واعلم أنَّ الكتابَ كتابان: كتاب من الله إليكَ، وكتاب منكَ إليه بيد الْحَفَظَة؛ فإذا قبلتَ كتابه الذي فيه الأمْرُ والنهي، والوَعْد والوعيد، ونزول

البلاء عليك، ووجود الرضا منك؛ وإن كان فيه ما يخالفُ هواكَ؛ أفتراه لا يقبل كتابك في يوم القيامة وإن كان مملوءاً زَلاّت؛ وهي لا تضرّه؟ ألا تراه يقول في إبراهيم: ﴿ولقد اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنيا وإنَّه في الآخِرةِ لَمِنَ الصّالحين﴾ [البقرة: ١٣٠] واصطفاك أنتَ بكتابه، قال تعالى: ﴿ثم أَوْرَثْنا الكتابَ الذين اصطَفَيْنا مِنْ عبادنا﴾ [فاطر: ٣٢].

والاصطفاءُ فعْلُ الله، وفعلُ الله مبنيّ على الابتداء؛ قال تعالى: ﴿كما بدأكُمْ تَعُودون﴾ [الأعراف: ٢٩].

والصلاحُ فعل العبد، وفعلُ العبد مبني على الخواتم؛ قال ﷺ: الأعمال بالخواتم.

واعلم أنَّ مَنْ سأل الله شيئاً سأل اللهُ منه، فمن لا يقومُ لله فيما سأل منه لا يعطيه ما يسأل، ومَنْ قام للهِ فيما سأل منه أعطاه بلا مؤونة؛ ألا ترى أن الله أعطى لإبراهيم المالَ في الدنيا والولد والمعجزات بغير سؤال، فلما سأل إبراهيم بقوله: ﴿إنِّي ذاهبٌ إلى ربّي سيهْدِين﴾ [الصافات: ٩٩] ـ سأل منه الكلّ، فقال له: أسلم، أي الكل إلى الكل، إنْ أردْتَ الوصول إلى الكل. ولما سأل منه إحياء الموتى سأل الله منه إماتة الحي؛ ألا ترى أنه قال: ﴿فلمَّا أَسْلَما﴾ [الصافات: ١٠٣] ـ يعني وضع السكّين على حَلْقه قال: إلهي بكَ ولَكَ وإليْكَ؛ أي بك الصبر على فراقه، ومنكَ إعطاؤه، ولكَ الحكم فيه، وإليك يرجع الأمر كله.

فإن قلت: ما الحكمةُ في جزَع إبراهيم وصَبْر إسماعيل؟

والجواب: إسماعيل عَرف ـ برؤية المعرفة ـ أن إبراهيم إنما ابْتُلي بذبحه، لأنه التفت بقلبه عن الله، فلو أنّ الولد التفت بقلبه لابْتُلي كما ابتلي إبراهيم. وأيضاً جزع إبراهيم على مفارقة حبيبٍ لم يكن له وصلة في ذلك الوقت إلى مَنْ هو أحبّ إليه منه. وإبراهيم لم يجزَعْ؛ لأنه وصل إلى الحبيب المجازي.

وقيل لما وضع السكين على حَلْقه أراه اللهُ نوراً من أنواره أنساه ما يجِد من الألم لوجود لذة ذلك النور؛ كنساءِ مِصْرَ اللواتي قطّعْنَ أيديهن برؤية يوسف.

وقيل إن اللهَ قال له: يا إبراهيم، جزعتَ على مفارقة حبيب زائل عنك، وضاق ذَرْعك به، فكيف بمفارقة الحبيب الباقي؟ فكان جزعه لهذا السبب لا لِلْوَلد.

﴿فضَّلكم على العالمين﴾ [الأعراف: ١٤٠]؛ أي عالم أهلِ زمانهم؛ لأنه يجب الاعتقادُ بتفضيل هذه الأمةِ المحمدية لفَضل نبيهم.

قيل: أَعطى اللهُ الكليمَ عشر معجزات، وأَكْرَمَ قَوْمَه بعشر كرامات، وشكى عليهم بعشر شكيات، وعاقبهم بعشر عقوبات:

أما المعجزات: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم﴾ [الأعراف: ١٣٣]، والعصا، واليد، والحجر، والألواح، والصّحف.

وأما الكرامات: وإذ أنجيناكم. وإذ فرقنا بكم البحر. ثم بعثناكم من بعد موتكم. وظللْنا عليكم الغَمام، وأَنزلْنَا عليكم المنَّ والسَّلْوَى ثم عفونا عنكم مِنْ بعد ذلك فتاب عليكم. يغفر لكم خطاياكم. قد علم كلُّ أناس مَشْرَبهم. وإذ آتينا موسى الكتاب.

والشكِيَّات: ثم اتخذتم العِجْل. قالوا أَرِنَا الله جَهْرة. فبدّل الذين ظلموا قَوْلاً. ادْعُ لنا ربَّك. ثم يحرّفونه. ثم قست قلوبكم من بعد ذلك. فبما نَقْضِهِم ميثاقَهم، وكُفْرهم بآيات الله، وقَتْلهم الأنبياءَ بغير حق.

والعقوبات: ﴿ضُربت عليهم الذلّةُ والمسكنة﴾ [البقرة: ٦١]. والجِزْية. ﴿وباءُوا بغضبٍ من الله﴾ [آل عمران: ١١٢]. ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾. ﴿يذَبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾. ﴿كونوا قردةً خاسئين﴾. ﴿فأرسلنا عليهم رِجْزاً من السماء﴾. ﴿والله مُخْرِج ما كنتم تَكْتُمون﴾.

﴿فَرقْنا بكم البَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]؛ أي جعلناه فرقاً، اثني عشر طريقاً على عدد الأَسْبَاط. والبحرُ المراد به القلزم.

﴿فاقتُلوا أنفسكم﴾ [البقرة: ٥٤]: رُوي أنّ من لم يعبد العجل قتل من عبده حتى بلغ القتل فيهم سبعين ألفاً، فعفا الله عنهم.

﴿فتاب عليكم﴾ [البقرة: ٦٠]: قبله محذوف لدلالة الكلام عليه، وهو فَحْوى الخطاب؛ أي فعلتم ما أُمرتم به من القَتْل فتاب عليكم.

﴿فانفجرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]: قبله محذوف تقديره: فضربه فانفجرت، أي سالَتْ. ومنه انفجر؛ وكان هذا الاستسقاء في فحص التِّيه، وكان الحجر من جبَل الطور، وهو المشهور؛ لأنه أبلغ في الإعجاز؛ ولهذا كانوا يجدونه في كل مَرْحلة.

ولا خلاف أنه كان حجراً مربّعاً منفصلاً له أربع جهات كانت تنبع من كلّ جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى عليه السلام، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفَّت العيون.

وقيل إن هذا الحجر هو الذي وضع موسى ثوبه عليه ففرَّ بثوبه، ومرَّ على مَلأ من بني إسرائيل حين رموه بالأُدْرَة، فلما وقف أتاه جبريل عليه السلام، فقال له: إن الله تعالى يقول لك: ارفع هذا الحجر، فإنَّ لي فيه قدرةً، ولك فيه معجزة؛ فرفعه ووضعه في مِخْلاته. وكان موسى ضربه اثنتي عشرة ضربة، فيظهر بكل ضربة مثل ثَدْي المرأة فيعرفه فتنفجر الأنهارُ منه، ثم يسيل الماء.

فإن قلت: هل الانفجارُ والانبجاس بمعنى واحد؛ لأنه اختلف التعبير بهما؟

والجواب أنَّ الانبجاس أقلُّ من الانفجار؛ لأن الانفجار انصباب الماء بكثرة؛ والانبجاس ظهور الماء. فالواقع هنا طلب موسى عليه السلام من ربه؛ قال تعالى: ﴿وإذ استَسْقَى موسى لقَوْمِه﴾ [البقرة: ٦٠]. فطلبهم ابتداء فقيل - إجابة لطلبه: فانفجرت، مناسبة لذلك. وفي الأعراف طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام السقي؛ قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استَسْقَاه قَوْمُه﴾ [الأعراف: ١٦٠]؛ فقيل - جواباً لطلبهم: فانبجست؛ فناسب الابتداءُ الابتداء والغايةُ الغايةَ.

واعلم أنَّ اللهَ تعالى وضع الدولة على ثلاثة أحجار، والقدرة في ثلاثة أحجار، والملك في ثلاثة أحجار؛ أما الدولة فوضعها في الكعبة، وجعلها موضعَ طواف

المؤمنين. وجعل مقامَ إبراهيم قبلةً للمؤمنين. والحجر الأسود جعله بينه وبين خَلْقِه عَهْداً وشهيداً.

وأما القدرة فوضعها الله في حجر موسى، وحجر ناقة صالح، وحجر موسى الذي برّأه اللهُ بسببه مما قالوا.

وأما الملك ففي خاتم سليمان، وصخرة بيت المقدس، وحجر داود.

وبالقدرة يخرج من الحجر الماء والذهب والنار.

﴿فكُلُوا﴾ [البقرة: ٥٨]: خطاب لبني إسرائيل؛ وجاء هنا بالفاء التي للترتيب؛ لأن الأكل بعد الدخول فيها، وجاء في الأعراف بالواو بعد قوله: ﴿اسْكُنوا﴾ [الأعراف: ١٦١] لأنَّ الأكلَ مقارن للسكنى.

﴿فارض﴾ [البقرة: ٦٩]: مُسِنَّة. وبِكْر: صغيرة.

﴿فاقِعٌ﴾ [البقرة: ٦٩]: شديد الصفرة.

﴿فادَّارَأْتُم فيها﴾ [البقرة: ٧٢]؛ أي اختلفتم، وهو من الْمُدارأة؛ أي المدافعة.

﴿فذَبحوها﴾ [البقرة: ٧١]، من الذبح الذي هو قَطْع الْحُلقوم والوَدَجين. وبهذا استدل مَنْ قال بذبح البقرة ولا يجزىء غيره.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٤]: يعني وَفَى بهن. ولما ادَّعَى محبةَ الله تعالى ابتلاه بعشر: خمس في الرأس، وخمس في الجسد؛ فأتمّهن؛ أي وفى بهن.

وقال بعض: هو على الظاهر، وتحت كلّ واحدة منهن إشارة.

وقيل أراد بالكلمات الدعوات؛ وهي قوله: ﴿رَبَّنا إني أسكنت﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ولا تُخْزِني.

وقيل ابْتُلِي بالنار، فقال: حسبي الله.

وقيل: لما وضع السكين على حَلْق إسماعيل قال: منك ما أرى، ومنّي ما ترى؛ فأنجاه الله بهذه الكلمات.

وقيل غير هذا .

قال بعضهم: ابتلى الله خليلَه بعشرة أشياء ، ثم أَثْنَى عليه بعشرة؛ ثم أعطاه عشرة.

أما الابتلاءُ فهو مناظرةُ النُّمْرُود ، والكوكب والقمر والشمس ، وبكسر الأصنام ، ومناظرة الأب ، وبالهجرة ، وبنار النُّمْرُود ، وبذبح الولد ، وبالإخلاص في قول الله له: أسلم. وبالعشر كلمات ، وبالملائكة الذين بعثهم الله إليه شبه المجوس يعرض عليهم الإيمان.

وأما الثناء عليه فسمّاهُ أُمَّةً قانتاً للهِ حَنِيفاً ، شاكراً لأنْعُمه ، وفيًّا صديقاً نبيئاً قِيَماً ، أَوّاباً مُنيباً .

واصطفاه بالاجتباء والاهتداء ، والبركة والبِشارة بإسحاق ، والحجة على قومه ، والإمامة والمقام ، ونسبة الأمة المحمدية ، على جميعهم السلام ، والخلّة في قوله تعالى : ﴿واتَّخذ الله إبراهيم خَلِيلاً﴾ [النساء : ١٢٥] .

﴿فمن عُفِي له من أخيه شيء ...﴾ [البقرة : ١٧٨] الآية . فيها تأويلان .

أحدهما أنّ المعنى مَنْ قتل فعُفِي عنه فعليه أداء الدية بإحسان؛ وعلى أولياء المقتول اتّباعه بها بمعروف؛ فعلى هـذا « من » كناية عن القاتل ، وأخوه هو المقتول أو وَليّه . وعُفي من العَفْو عن القصاص . وأصله أن يتعدى بعن ؛ وإنما تعدّى هنا باللام ؛ لأنه كقولك : تجاوزت لفلان عن ذنبه .

والثاني أنَّ المعنى إنّ مَنْ أعطيته الدية فعليه اتباعٌ بمعروف ، وعلى القاتل أداء بإحسان؛ فعلى هـذا « منْ » كناية عن أولياء المقتول ، وأخوه هو القاتل أو عاقِلَتُه ، وعُفي بمعنى يسر ؛ كقوله : ﴿ خُذ العَفْو﴾ ؛ أي تَيَسَّر .

ولا إشكال في تعدّي عُفِي بإلى على هذا المعنى .

﴿فمن اعْتَدَى بعد ذلكَ فَلَهُ عذَابٌ أليم﴾ [البقرة: ١٧٨]؛ أي قتَلَ قاتِلَ وليِّه بعد أخذ الدية منه فله القصاصُ منه. وقيل عذاب الآخرة.

﴿فمن تَطَوَّع﴾ [البقرة: ١٨٤]؛ أي صام ولم يأخذ بالفطر والكفارة. وذلك على القول بالنسخ. وقيل تطوّع بالزيادة في مقدار الطعام، وذلك على القول بعدم النسخ.

﴿فمن شَهِد منكم الشّهْرَ فلْيَصُمْه﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ أي كان حاضراً غير مسافر. والشهر منصوب على الظرفية. والمراد به شهر رمضان المتقدم.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ أي فيما دعوتهم إليه من الإيمان والطاعة.

﴿فاعْتَدُوا عليه﴾ [البقرة: ١٩٤]: تسمية العقوبة باسم الذنب؛ أي قاتلوا من قاتلكم، ولا تبالوا بحرمة صدّكم عن مكة.

﴿فما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْي﴾ [البقرة: ١٩٦]: وأقلُّ ذلك شاة تذبحونها.

﴿فمَنْ كان مِنْكم مَرِيضاً﴾ [البقرة: ١٩٦]: نزلَت في كَعْب بن عُجْرَة لما رآه رسول الله ﷺ فقال: لعلك تُؤْذيك هوَامُّ رأسك؟ فقال: نعم. فقال له ﷺ: احلق رأسك، وصُمْ ثلاثة أيام، أو أَطْعِم ستة مساكين، أو انْسُك بشاةٍ؛ فمعنى الآية: إنَّ مَنْ كان في الحج واضطره مرضٌ أو قمل إلى حَلْق رأسه قبل يوم النَّحْر جاز له حَلْقُه؛ وعليه صيامٌ، أو صدقة، أو نسك، حسبما فسّر في الحديث.

وقاس الفقهاء على حَلْق الرأس سائرَ الأشياء التي يمنع الحج منها، إلا الصيد ووَطء النساء.

وقاس الظاهرية ذلك على حلق الرأس؛ ولا بد في الآية من مُضْمَر لا يستقلّ الكلام دونه؛ وهو المسمى فَحْوى الخطاب؛ وتقديره: فمن كان منكم مريضاً أو به أذًى مِنْ رأسه فَحَلَق رأسه فعليه فِدْية.

﴿فَٱذْكُـرونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]: قد قدمنا مراراً أنَّ منزلة العبد من الله حيث أنزله العبد؛ ولهذا لما قال داود: يا رب، كُنْ لسليمان كما كُنْتَ لي. فأوحى اللهُ إليه: قل له يكون لي كما كُنْتَ لي أكون له كما كنتُ لك.

وقد أمرنا الله بهذا في آياتٍ من كتابه؛ قال تعالى: ﴿وأَوْفُوا بعَهْدِي أُوف بعهدكم﴾. فافسَحُوا يَفْسح الله لكم. إنْ تَنْصُروا الله ينصركم. يحبُّهم ويحبُّونه. هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان.

وقد اختلفت الأقاويلُ في قوله: اذكروني أذكركم ـ نَحْواً من أربعين قولاً؛ فإن ذكرته بالإيمان يذكرك بالجنة؛ لقوله: ﴿وعد الله المؤمنين﴾. وإن ذكرته بالاسترجاع يذكرك بالرحمة. وإن ذكرته بالاستغفار يذكرك بالمغفرة. وإن ذكرته بالإنفاق يذكرك بالْخَلَف. وإن ذكرته بالشكر يذكرك بالزيادة. وإن ذكرته بالصبر يذكرك بالأجر. وإن ذكرته بالتقوى يذكرك بالفرج. وإن ذكرته بالتوكّل يذكرك بالكفاية. وإن ذكرته بالتوبة يذكرك بالقبول. وإن ذكرتَه بالدعاء يذكرك بالإجابة. وإن ذكرته بالمجاهدة يذكرك بالهداية. وإن ذكرته بالطاعة يذكرك بالمودّة. وإن ذكرته بالسجود يذكرك بالقرب. وإن ذكرته بالإحسان يذكرك بالرحمة. وإن ذكرته بالاستقامة يذكرك بالأمْن. وإن ذكرته بالقَرْض يذكرك بالتضعيف. وإن ذكرته بالفرائض يذكرك بالفلاح. وإن ذكرته بالخشية يذكرك بالفوز. وإن ذكرته بالاعتصام يذكرك بالنصر. وإن ذكرته في نفسك ذكرك في نفسه. وإن ذكرتَه في مَلَأ ذكرك في ملأ خير مِنْ ملَئك. وإن ذكرته بالنوافل ذكرك بالمحبة. وإن تقرَّبت إليه شِبْراً تقرّب منك باعاً. وإن أتيته مَشْياً أتاك هَرْوَلة. وإن أتَيْتَه بقِرَاب الأرض خطيئة ولم تُشْرِك به أتاك بمثلها مغفرة؛ وهو الغفور الرحيم.

وفي التوراة: يا ابن آدم أظهرت الذنوب معي وأخفيتها عن الخلق، وأبديت الحسنات لِخَلْقي ولم تُخْلِصْها لي، وأكلْتَ رزقي ولم تشكرني، وبارزتَني بالمعاصي ولم تَسْتَحِ منّي، ولم تحذرني؛ أمّا ما أَظهرت من الذنوب فقد غفرْتُها لك، وما

أتيْتَ من الحسنات بغير إخلاص فقد قبلْتُها منك، وما أكلت من رزقي ولم تشكرني فلم أَحرمك الزيادة، وما بارزتني به ولم تستح مني فأنا أستحي أن أعذِّبك بعد شهادتك لي بوَحْدانيتي، وأنا الغفور الرحيم.

فتأَمَّلْ أَيها العاصي هذه الكرامات التي أكرمك بها، دعاك أولاً بنفسه بقوله: واللهُ يدعو إلى دار السلام؛ من دارٍ أَوَّلُها بكاء، وأوسطها عَناء، وآخرها فَناء، إلى دارٍ أولها عطاء، وآخرها لقاء؛ وهي أحسن البنيان المسدس؛ فإن اللهَ خلقك مُسَدَّساً؛ فخمسة منها يدعوك إلى خمس جهات والله سادسهم: يدعوك من تلك الجهات كلِّها إليه؛ فالأمَلُ يدعوك من بين يديك، والشيطان يدعوك من خَلْفك، والهوى يدعوك عن يسارك، والشهوة عن يمينك، والدنيا تَحْتَك؛ والله من فوقك؛ فذلك قوله: ﴿ولا خمسة إلا هـو سادِسهم﴾ [المجادلة: ٧].

فإن كانت همتك في دار الأشجار والبساتين والأنهار فقد دعاكَ لذلك بقوله: ﴿جنات عَدْن تجري مِنْ تحتها الأنهار﴾. وإن كانت همتك الطعام والشراب فقد دعاك لذلك بقولـه: ﴿كُلـوا واشْـربـوا﴾. ﴿يُطَـافُ عليهـم بصِحافٍ مِـنْ ذَهَـب﴾. [الزخـرف: ٧١]. ﴿ولَحْـمِ طَيْـرٍ مما يشتهـون﴾ [الواقعة: ٢١]. وإن كانت همتك التمتع بالنسوان فقد دعاك لذلك بقولـه: ﴿وحُورٍ عِينٍ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾، لو تفلَتْ إحداهنّ على البحر لعَذُب، ولو اطلعت إحداهن على الدنيا لأَضاء ما فيها. وإن كانت همتك اللباس فقد رغّبك بقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فيها من أَساوِرَ من ذهب ولؤلؤاً ولباسُهم فيها حَرِير﴾ [الحج: ٢٣]. وإن كانت همتكَ الغلمان والولدان فقد رَغَّبَك بقوله: ﴿ولْدَان مُخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]. ﴿غلمان لهم كأنّهم لُؤلؤ مَكْنُون﴾ [الطور: ٢٤].

وإنْ كانت في المشرب والخمور فقد ذكر لكَ أنّ فيها أنهاراً من خَمْرٍ لذة للشاربين. وإن كانت همتك رضاه والنظر إليه فقد دعاك في مواضع من كتابه، وحرّضكَ عليه، فما ظنُّك بربّ كريم يدعوكَ للضيافة وتقبُّل دعوته؛ أتراه لا يرضيك، وقد بعث إليكَ الملائكة تبشِّرك حين نَزْعك، وأعطاك في حياتك

مراكب الجمال إلى بيتك، وأعناق الرجال إلى قَبْرِك، والبراق إلى حَشْرك، قال تعالى: ﴿يوم نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إلى الرحمن وَفْداً﴾ [مريم: ٨٥].

﴿فعِدَّةٌ من أيام أُخَر﴾ [البقرة: ١٨٤]: هذا من رحمة الله بهذه الأمة؛ حيث أباح لها التفريقَ في قضاء رمضان، وهو من خصائص هذه الأمة، قال تعالى: ﴿يأَيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِب على الذين من قبلكم﴾ [البقرة: ١٨٣].

فإن قلت: قد قلتُم: إنَّ هذا الصيام من خصائص هذه الأمة، فما معنى الصيام على غيرها؟

فالجواب أنه اختلف: فقِيلَ ثلاثَة أيام مِنْ كُلِّ شهر. وقيل: عاشوراء؛ ففي هذه الآية الشريفة نرى عُذْرَين ونهيين ونسْخَين ورحمتين وكرامتين.

أما العُذْران فقوله: ﴿كما كُتِب على الذين مِنْ قَبْلكم﴾. والثاني: ﴿أَيَّاماً معدودات﴾؛ أي قليلة تمضي سريعاً.

وأما النَّسْخان فقوله: ﴿وعلى الذين يُطيقُونه فِدْيَةٌ طعام مسكين﴾، أي في بَدْءِ الإسلام إنّ مَنْ لم يصم ثم أطعم لم يكن له بذلك.

والثاني أن المجامعة كانت حراماً في ليالي رمضان، فأباح الله لهم بسبب عُمَر قوله: ﴿أحِلّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائكم﴾ [البقرة: ١٨٧] - يعني الجماع.

وأما الأمران فقوله: ﴿ولتُكْمِلُوا العِدّة﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ وقوله: ﴿ولتكَبِّرُوا اللهَ على ما هَدَاكم﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأما النَّهْيان ففي المؤاكلة والمجامعة بالنهار؛ وهو قوله: ﴿ثم أَتِمُّوا الصيامَ إلى الليل﴾ [البقرة: ١٨٧].

وأما الرحمتان: ﴿فمَن كان مِنْكُم مَرِيضاً أو على سَفر فعدَّةٌ مِنْ أيام أُخر﴾؛ فرخّص له في الإفطار والقضاء بأيام أُخر.

وأما الكرامتان فقوله: ﴿شَهْر رَمَضان﴾. وليلة القَدْر التي هي خَيْرٌ من أَلْفِ شهر؛ فالصيامُ أَفضلُ الطاعات؛ لأنه يصوم بأمر، ويُفطر بأمر: كُلوا واشْرَبُوا. والجوع والعطش وغير التمتّع مِنْ عذابِ أهل النار، والله لا يجمَعُ على الصائم عذابَيْن، ويعطون الغرف في الجنة بصبرهم؛ قال تعالى: ﴿أولئك يُجْزَون الغُرْفَة بما صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]. وكلٌّ عمل لا يخلو من وجهين: إما طاعة مع الغَفْلة، أو مَعْصِية مع الشهوة؛ فجعل الله قبول الطاعة بالصوم قوله: ﴿فمن تمتَّع بالعُمْرَة إلى الحج فما استَيْسَرَ من الْهَدْي﴾، وجعل غُفْرانَ المعصية بالصوم؛ قال تعالى: ﴿ومَنْ قتل مؤمناً... فصيام شهرين...﴾.

وانتهاء المناهي أفضلُ من ائتمار الأوامر؛ ألا ترى أنه قال: مَنْ جاء بالحسنة فله عشر أمثالها. قال: ﴿ونهى النَّفْس عن الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]. والصومُ من انتهاء المناهي؛ والزّهد في الحلال أفضل من الزهد في الحرام، والصوم من الزّهد في الحلال؛ وفي نداء عباده تعالى بالإيمان من اللطائف والفضائل ما لا يحيط بها إلا هو، كأنه سبحانه يقول: يا مَنْ أَقْرَرْتُم بوَحْدَانيتي، وعرفْتُم دَيْمُوميتي، لا تَقْنَطُوا من رحمتي.

قال بعضهم: النداء على عشرين وجهاً:

خمس من الله في الدنيا، وخمس للآدميين في الدنيا، وخمس من الملائكة في الدنيا، وخمس من الملائكة في الآخرة.

أما الذي من الله فنداء الجنس: يأيها الناس. ونداء النسبة: يا بني آدم. يا بني إسرائيل. ونداء المدحة: يـأيها الذيـن آمنـوا؛ لأنَّ الله جمع أوصـافَ المؤمنين ونُعوتهم ومعانيهم في هذا النداء؛ لأنه لم تَبْقَ حسنةٌ إلا دخلت تحته، كما أن الله عَلَم على ذاته القدسية؛ ومَنْ ذكره فكأنما ذكر جميع أسمائه التي هي ألفُ اسم: ثلاثمائة في التوراة، وثلاثمائة في الإنجيل، وثلاثمائة في الزَّبور، وواحد في صُحف إبراهيم، وتسع وتسعون في القرآن؛ فأوّل جميع الكتبِ اللهُ.

ونداء المذمّة: يأيها الذين كفروا لا تَعْتَذِرُوا اليوم.

ونداء الإضافة: يا عباديَ الذين آمَنُوا. يا عبادي الذين أَسرفوا.

وأما الذي للآدميّين: نداء الشريعة، وهو لإبراهيم حيث قال له: وأَذِّنْ في الناس بالحجّ. ونداء العتاب ليوسف: ﴿يـأيها العـزيـزُ مَسَّنَـا وأَهْلَنـا الضرّ﴾ [يوسف: ٨٨]. ونداء الإيمان لمحمد ﷺ قوله: ﴿ربّنا إنّنا سمِعْنا منَادِياً...﴾ الآية. ونداء الجمعة للمؤمنين: ﴿يـأَيُّهـا الذيـن آمنـوا إذا نُـودِي للصلاة مِنْ يَوْمِ الجمعة﴾. ونداء الجماعة للمنافقين.

وأما الذي للملائكة في الدنيا: فملك ينادي في كل صباح: يا أبناء الثلاثين، لا تَغْتَرُّوا بالشباب. يا أبناء الأربعين، لا تجترئوا. يا أبناء الخمسين، أَلاَ تستحيون. يا أبناء الستين، قد دَنا حصادُكم. يا أبناء السبعين، الرحيل الرحيلَ.

ومَلك ينادي بالمقابر كل يوم: يأَهْلَ القبور، من تغبطون اليوم؟ قالوا: نغبط أَهْلَ المساجد الذين يذكرون اللهَ ولا نَذْكُر، ويصلّون ولا نُصلي، ويصومون ولا نصوم، وملك ينادي عند رأس قَبْرِ النبيّ ﷺ: ألا مَنْ زال عن سنّة صاحب هذا القبر فقد بريء من شفاعته. وملك ينادي في الموقف: مَنْ حَجَّ وكسْبُه حرام ردَّ اللهُ حجّهُ.

وأما الذي من الملائكة في الآخرة فأوّلُه عند البعث: أيتها العظام البالية، والأجساد النَّخِرة، هَلمّوا إلى الحساب عند ربّكم. وملَـك عند الحساب: أبشروا يا أمة محمد! فإنَّ رحمة الله قريبٌ منكم. وملك عند المحاسبة يقول: أَيْنَ فلان ابن فلان؟ هلمّ إلى العَرْض على الرحمن. وملك ينادي عند الفراغ من الحساب: أَلاَ إنَّ فلانَ ابن فلان سعِدَ سعادة لا يشقى بعدها أبداً. وملك آخر على أَهل الشقاوة ينادي: ألا إن فلانِ ابن فلان شقي شقاوة لا يسعَدُ بعدها أبداً. أعاذنا الله من ذلك بمنّه.

﴿فـإني قَـرِيـبٌ أُجيـبُ دَعْـوةَ الدَّاعِ﴾ [البقـرة: ١٨٦]: يعني بقبـولهم ورحمتهم، لا بِقُرب المسافة.

وسببُ نزول هذه الآية أنه عليه الصلاة والسلام سُئل أين ربُّنا؟ فَوْقنا أو

تحتنا، أو بيننا أو يسارنا، أو خلفنا أو قُدّامنا؟ فأنزل الله: ﴿وإذا سألكَ عبادِي عَنّي فإنّي قَريب﴾. يعني وحاجتُكم أنا، لا المكان؛ فإن وجدتموني فما تصنعون بالمكان وأنا منَزَّهٌ عن المكان.

وفي رواية: إن اليهود سألوه عليه السلام أقريب ربُّنا فنُنَاجيه أم بعيد فنُنَادِيه؟ فأنزل الله: ﴿ونحن أقربُ إليه مِنْ حَبْلِ الوَرِيد﴾ [ق: ١٦]؛ يعني بالعلم والقدرة والإجابة لا بالذات، فادْعُوني سِرًّا أو جَهْراً؛ فإني قريب أجيب؛ إنْ سألني العاصي غفرتُ له، وإن سألني المحسنُ أعطيتُه سؤلَه.

فهنيئاً لكم أيتها الأمة المحمدية، نسبكم إلى آدم في قوله: يا بني آدم. وبالشريعة إلى نوح في قوله: ﴿شرعَ لكم من الدِّين ما وصَّى به نُوحاً﴾ [الشورى: ١٣]. وبالملّة إلى إبراهيم. وبالأمة إلى محمد ﷺ، وبالعبوديّة إلى نفسه، والحكمةُ فيه حتى يشفع آدم فيكم، فيقول: يا ربّ، هم أولادي، ويقول نوح: أهل شريعتي. ويقول إبراهيم: أهل مِلّتي. ويقول محمد: أُمّتي. ويقول الله: عبادي وخواصّي؛ فالذي نسبك إليه أَترى أنه يُريد مُعاقَبتك. وقد قال لنوح لَمّا أراد عقوبة ولده: إنه ليس من أَهْلِك. أو الرسول الذي بُعِث إليك يريد تعذيبَ أُمته، وهو لم يَنْسَهم في الأربعة مقامات: مقام التحية لمولاه في قوله: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. ومقام الشكر في قوله: والمؤمنون كلٌّ آمَنَ بالله وملائكته. ومقام الحاجة سأل من الله عشر حاجات، فأعطاه ما سأل قوله تعالى: ﴿غفرانَكَ ربَّنا وإليكَ الْمَصِير...﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى آخر السورة. ومقام الشفاعة: ﴿ولسوف يُعْطِيكَ ربُّكَ فَتَرْضَى﴾.

أفترى أنه يرضى بقاء أمته في النار وهو في الجنة؛ ولذلك يقول له جبريل: أنت منعَّم، وأُمّتك في النار، فيستأذن في الشفاعة فيهم في حديثٍ طويل.

وقد عاتبه الله يوم بَدْر لما كان في العَرِيش وأصحابه في الشمس، فقال: يا محمد، أنْتَ في الظل وأصحابك في الشمس؛ أهكذا هي الصحبة! فسبحان اللطيف بعباده وخصوصاً بهذه الأمة.

وفي الحديث: أن جميع الأنبياء قالوا ربَّنا، كما قال آدم: ربَّنَا ظلَمْنا أَنْفُسَنا. وإبراهيم: رَبّنا واجْعَلْنَـا مسْلمَيْن لك. وغيرهما. فلما بلغ الأمرُ إلى أمة محمد هانُوا أن يُضيفوه إلى أنفسهم، فيقولوا: ربنا، فسكتوا؛ فأضاف الله نَفْسَه إليهم بقوله: وقال ربكم ادْعُوني أَسْتَجِبْ لكم. وكان جميع الأمم لم يكن لهم جراءة على أن يدعوا ربَّهم، ولكن كانوا يقولون: ادْعُ لنا ربَّك. هل يستطيعُ ربُّك.

وهذه الأمةُ رفع الله الواسطةَ بينهم وبينه، وأمرهم بالدعاء؛ فإن لم يدعوه فهو يدعوهم ليغفر ذنوبهم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿فإنّي قَرِيب﴾، ولم يقل هو كما قال: يسألونك ماذا ينفقون قل العَفْو. قل هو أَذًى. قل إصلاح لهم خير. وقال: فلْيَسْتَجِيبوا لي إذا دعوتهم إلى المغفرة، فإن دعوني بلا غفلة أَجَبْتُهم بلا مهملة، وإن دعوني بالصفاء أجبتهم بالعطاء، وإن دعوني بلسان الشهادة أجبْتُهم بإعطاء الولاية. وإن دعوني بالنعمة أجبتهم بالشهادة، وإن دعوني بجميع الجوارح أجبتهم إجابةَ ناصح، وإن دعَوْني بالإخلاص أجبتهم بالخلاص، وإن دعَوْني بالمغفرة أجبتهم بتبديلها بعشرة، وإن دعَوْني بالخوف والرجاء أجبتهم بالرحمة والجزاء. وإن دعَوْني بالاضطرار أجبتهم بالافتخار. وإن دعوني بأسمائي الْحُسْنَى أجبْتهم بالعطية الكبرى.

فانظروا أيها الأمة ما أَرْحَمه بنا! وقد رآيناه أجاب الذاكرين بقوله: أذكركم. وأجاب المتفكرين: بل الله يَمُنُّ عليكم. وأجاب الداعين: أستَجِبْ لكم. وأجاب الخائفين: ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا. وأجاب المقربين بالوصلة: ﴿فقد استَمْسكَ بالعُرْوَةِ الوثقى﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وأجاب المستغفرين بالمغفرة: إنه كان غَفّاراً. وأجاب المتضرّعين بقوله: ﴿يوم لا يُخْزِي اللهُ النبيّ﴾ [التحريم: ٨].

فإن قلت: قد رأينا مَنْ يَدْعُو ولا يستجيب له.

والجواب إذا وقع الدعاءُ من المضطرّ حصل جوابه على كل حال. ومَنْ وُفّق

للدعاء لم يُحرم الإجابة. ومن وفّق للتوبة لم يحرم القبول. ومن وفّق للشكر لم يُحْرَم المزيد. ومن وُفق للصبر لم يُحرم الجزاء. ومن وفق للتوكّل لم يحرم الكفاية. ومن وفق للعمل الصالح لم يحرم المودةَ عند الله وعِنْد خَلْقه. ومِصداقُ هذا كله قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المضطرَّ إذا دَعَاه﴾ [النمل: ٦٢]. وهو الذي يقبلُ التوبةَ عن عباده. لئن شكرْتُم لأَزِيدَنّكم. وجزاهُمْ بما صَبَرُوا. ومَنْ يتوكَّلْ على الله فهو حَسْبُه. ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيَجْعَلُ لهم الرحمنُ وُدّاً﴾ [مريم: ٩٦].

فإن قلت: بيِّن لنا الاضطرار وشروط الدعاء.

فالجواب: أنّ الاضطرار ألاَّ تبقى فيك علاقة مع غيره سبحانه، وإن أخلصت له في الدعاء وتضرعت، ورجوتَ وخِفْتَ، واستغَثْتَ به، فلا بد من إجابتك إمّا عاجلاً فتبلغ سُؤْلك أو يكفّر لك به من ذنوبك، أو يُؤَخّر لك لمصلحتك، أو يرفع درجتك، ولعلّهُ يعطيك سُؤْلك فتغفل عنه، وهو يحبُ الْمُلِحّين في الدعاء. ألاَ تسمعه سبحانه يقول لبعض الداعين: أعطوه سُؤْله؛ فإني أكره صوته، فإجابة الدعاء في الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد؛ ورحم الله القائل:

اللهُ يَغْضَبُ إن تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وابنُ آدَمَ حين يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وقد وعدنا الله تعالى بالكرامة على أنواع من الطاعات؛ فأكْرم الساجد بالقُرْبة، ودخول البيت الحرام بالأمن. والجهاد بالجنة. والصدقة بأضعافها. والزكاة بالفَلاَح. والدعاء بالإجابة؛ لكن العلّة منّا وإلينا، وشُؤْمَ نفوسنا عائدٌ علينا، كما قال إبراهيم بن أدْهم لما قالوا له: يا أبا إسحاق؛ الله يقول: ادْعُوني أَسْتَجِبْ لكم؛ ونحن نَدْعوه ولا يَسْتَجِيبُ لنا؟ فأطْرق ساعة وقال: لأنَّ قلوبَكم ماتَتْ في عشرة أشياء؛ فقالوا: هاتها. قال: عرفْتُم الله ولم تؤدُّوا حقّه، وقرأتم كتابه ولم تعملوا به، وعرفتم رسولَه وتركتم سُنَّتَه. وقلتم الشيطان لنا عدوّ فَوَافَقْتُموه، وادعَيْتُم حُبّ الجنة ولم تعملوا لها. وقلتم نخافُ النار ووهبتم لها

أبدانكم. وقلتم: الموت حقّ ولم تتهيئوا له. وانتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب إخوانكم. وأَكلْتُم رزْقَه ولم تشكروه. ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم؛ فأنَّى يُستجابُ لكم!

وفي الحديث ما يعضده قوله: مَطْعَمه حَرامٌ، وملْبَسه حرام، ويقول: يا رب، يا رب؛ فأَنَّى يُستجاب له!

وصدق الصادق المصدوق؛ فإن الدعاء مثل الطائر، وكيف يطير مقصوصُ الجناح.

فاجتهد في إخلاص المطعم والملبس، وتَخَيَّرْ أوقات الإجابة وأماكنها المفضّلة في الحصن الحصين لابن الجزري؛ وخصوصاً بعد الأذان، وقبل الإقامة، وبعد الصلوات، وخصوصاً صلاة الجمعة؛ والسَّحَر أسرع إجابة لخلوّك بالمحبوب.

وبعضهم ترك الدعاءَ لِعِلْمِه بأن الله لا يغفلُ عنه، واشتغل بذكره، للحديث القُدْسي: من شغله ذِكْري عن مسألتي أعطيته أَفضلَ ما أُعطي السائلون؛ ولهذا أشار ابن عطاء الله بقوله: طلَبُك منه اتهامٌ له... الخ. وبعضهم لم يرفع رَأْسَه للدعاء حياءً منه. وبعضهم قال: الدعاءُ تحكّم على الله، وقد سبق تقديره قَبْل وجودي؛ فإن سبق سعادتي فأناله، وإن لم يسبق فكيف أَطلبُ منه ما لم يُرد. وبعضهم دعاه في الشدة، وأعرض عنه في الرخاء؛ وهذا حالنا كما قال سبحانه: ﴿فإذا مَسَّ الإنسانَ ضرٌّ دَعَانَا﴾ [الزمر: ٤٩]. وبعضهم قال: لا أقولُ نحن؛ لأن الملائكة قالت: نحن نسبِّحُ بحمدك، فلم يرْضَ الله منهم، وإبليس قال: أنا، فلعنه الله. وفرعون قال: أَليس لي مُلْكُ مصر؛ فأغرقه الله. وقارون قال: عندي؛ فخسف الله به الأرض.

وأعلى من هؤلاء من امتثل أَمْرَ ربه في الدعاء، ورأى نفسه عَبْداً مملوكاً لا يقدر على شيء؛ وإنما قام بحقّ الربوبية، فطلبه لمحبّته في الطلب، وفوّضَ الأمر له؛ كما قال بعضهم لما قيل له: سَلْ تُعْطَ، فقال: عالم من جميع الوجوه يقول لجاهلٍ من جميع الوجوه: سَلْ تُعْطَ، لا أعلم ما يصلح بي؛ ولكن يختار هُوَ لي؛

ولهذا قال ابن عطاء الله: لا يكن طلبك تسبّباً إلى العطاء منه، فيقلّ فَهْمُك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية.

فإن قلت: إذا سبق العطاء منه فما فائدةُ الطلب؟ وقد أعطانا بغير سؤال؟

فالجواب إذا سبق في أَزَلِه العطاء وفَّق عَبْدَه لطلبه، فيجيب؛ ويفرحُ العبد بذلك، ولو أعطاك بغير سؤال لطمع الكافر والمؤمن.

وهذه أسباب ووسائط يوفّق الله العبدَ إليها في أي وقت شاء على يد من يشاء لا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يسألون.

والكلامُ هنا طويل، وقدْ أَلَّفت فيه تأليفاً عجيباً سميته مفاتح الطلب، فانظره إن ظفرتَ به، وإلا ففي هذه النبذة كفاية إن شاء الله.

﴿فإذَا أَمِنْتُم﴾ [البقرة: ١٩٦]: الخطاب للمُجْرمين مِنْ أهل مكة وغيرهم، ومعناه: إذا كنتم بحال أَمْنٍ، سواء تقدَّم مرضٌ أو خوف عدوّ، أو لم يتقدم.

﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بالعُمْرَة﴾ [البقرة: ١٩٦]: والتمتّع هو أَنْ يعتمر الإنسان في أشهر الحج ثم يحج من عامه؛ فقد تمتّع بإسقاط أحد السفَرين للحج أو العمرة.

وقال عبد الله بن الزبير: التمتُّع هو أن يُحْصَر عن الحج بعدو حتى يفوته فيعتمر عُمْرةً يتحلل بها من إحرامه، ثم يحج مِنْ قابِلٍ قضاءً لحاجته، فهو قد تمتّع بفعل الممنوعات للحج من وقت تحلله بالعمرة إلى الحجّ القابل.

وقيل: التمتع هو قِران الحجّ والعمرة.

﴿فمَنْ لم يَجِدْ فصِيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجّ وسبْعَةٍ إذا رجَعْتُم﴾ [البقرة: ١٩٧]: يعني من لم يجد الشاةَ فليصَمْ ثلاثة أيام، وقْتُها من إحرامه إلى يوم عرفة؛ فإن فاته صام أيام التَّشْريق وسبعة إذا رجع إلى بلاده.

﴿فمَنْ فَرض فيهنَ الحجّ...﴾ [البقرة: ١٩٧] الآية؛ أي أَلزم الحجّ نفسه في شوال وذو القعدة وذو الحجة.

﴿فلا رَفَثَ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهو الجماع، ﴿ولا فُسُوقَ﴾ [البقرة:

١٩٧]، وهي المعاصي؛ إذْ علامةُ قبول الحج ترك المعاصي، ولا جزاء له إلا الجنة، كما صح.

﴿فإذا قَضَيْتُم مَناسِكَكم فاذكُروا اللهَ كذِكْرِكُم آباءَكم أو أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]؛ لأن الإنسان كثيراً ما يذكر أباه. والعارفُ يذكر الله أكثر؛ لأنه مخترعه وخالِقُه كيف شاء، ورازِقُه من أين شاء، ومُميته متى شاء، ويحييه إذا شاء؛ فكيف يغفل عمن هذه صفته، وقد دعا الْخَلق إلى نفسه؟ فالسابق منهم همّه اسمه، فدعاه بلفظ الرب، وقال: ﴿وأَنِيبُوا إلى رَبِّكم﴾ [الزمر: ٥٤]. ﴿فَفِرُّوا إلى الله﴾ [الذاريات: ٥٠].

والمقتصد منهم همُّه الرزق؛ فدعاه بقوله: ﴿واللهُ يَدْعُو إلى دارِ السلام﴾ [يونس: ٢٥] وقال: ﴿يرزق مَنْ يشاء بغير حساب﴾ [البقرة: ٢١٢].

والظالم همُّه غفران ذنوبه، فدعاه بقوله: ﴿سارِعُوا إلى مغفرةٍ مِنْ رَبِّكم﴾ [آل عمران: ١٣٣]. فعلى كل حالٍ العبد لا يغفل عن سيده.

ولما كانت العربُ تذكر أباها كثيراً مفاخرة عند الجمرة أمر الله بذكره عوضاً عن ذلك؛ لأنه الضارُّ النافع.

﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكُم﴾ [البقرة: ١٩٨]: التجارةُ في أيام الحج أباحها الله لعباده، ولا يضر نيّتها، ولا تفسد العبادةُ بها خلافاً لبعض الصوفية.

والصحيح أنّ النيةَ الصحيحة تقلِبُ القبيح حسناً، والحسن قبيحاً. وتشريكُ النية الصالحة جائزة، بل مطلوبة في الأفعال، ورضي الله عن السيد الذي دُقّ عليه، فقال لبعض التلامذة: قُمْ حلّ له الباب. فقام، فقال بعد رجوعه: بأي نيّةٍ قمْتَ له. فقال: نيّةَ فتْح الباب. فقال: هلاّ نوَيْت قضاء حاجته إن احتاج، والسلام عليه ومصافحته؛ وصار يعدّد لهُ سبْعَ نيّات. هكذا كانوا رضي الله عنهم يُشركون أفعالهم لتضعيف حسناتهم، ونحن بالضدّ مِنْ هذا؛ فليس لنا نية البتّة.

فلا تتحرك أيها الأخُ حركةً إلا لله تكثُّراً بنيتك؛ كلبْثِك بالمسجد بغية

الزيارة لله، وانتظار الصلاة، وكفّك عما نهيت، وعكوفك على الطاعة وسلامةِ الناسِ من شرِّك، وتعَلّم وتعليم واستفادة أخٍ، ونحوها.

وبدخولك الأسواق: ذكر الله تعالى، والسلام على إخوانك، وشهادة البقاع لك، ومَنْع الشيطان وطَرْده، وتغييرُ ما رأيتَ من المناكر إن قدرت صيانة، وأمرك بالمعروف صدقة، ورؤية نعمة فراغك وتوفيقك. وقد علمت ذاكراً الله في الغافلين كالمجاهد خَلْف الفارّين؛ ولا تشغلك رؤية شهوةٍ؛ فتصدَّقْ بقدميْك لزيارة إخوةٍ لئلا تحوجهم لزيارتك، وقضاء حاجتهم؛ ورد السلام على مَنْ سلّم منهم، وسماحاً في بَيْع، ورؤية صالح، ورؤية آياته تعالى: من تصرُّف الخلق في معايشهم وحركاتهم وألوانهم، وما جبلوا عليه من حُبِّ الدنيا، واختلاف أغراضهم، وتَصَرُّفهم في المأكل والملابس، واختلاف السلع.

والكلام هنا طويل. والمقصد منه أنه يجب علم حقيقة النية، وتخليصها من كل حظّ دنيوي حتماً، ومن كل حظٍّ أخرويّ نَدْباً؛ وهي تمييز الأغراض بعضها من بعض؛ وما يَعْقِلها إلا العالمون.

ومتى حصلت الحركةُ وعَقَبها باعثٌ واحد فنيَّةٌ خالصة، وإيثارُ الراجح اختيار، واقترانها بحكم فقضاء وبما لَهُ مقدار، أو عني بشيء خاص فعناية، وتصميم الإرادة عَزْم وهَمّ ومشيئة.

وللحنفية: إنَّ المشيئة مشتقّ من الشيء، وفي كتب اللغة أنها إرادة لا فعل، صح: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى. ومَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهوَ في سبيل الله، ومن هَمَّ بحسنةٍ ولم يعملها كتبت له حسنة؛ وإن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم؛ ونظرُه تعالى إلى القلب للنية، والنيةُ والعلمُ وغيرهما مما ينسب للقلب، وهو قائم بالنفس، والعقل في القلب.

وتأمَّل قوله تعالى: ﴿لَهمْ قلوب يَعْقِلُونَ بها﴾ [الحج: ٤٦]. ﴿إنَّ في ذلك لذِكْرَى لِمَنْ كان له قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد﴾ [ق: ٣٧].

فتأمَّل أيها الأخ صُنْع الله في هذا المؤمن، حيث جعل له داخل ضميره شمساً ساكناً في وسط الأحشاء أَضْوَأ من الشمس اللامعة، حتى جاز الهوى، وملَك طريق السماء؛ فلم يسكن على شيء دون الرّبّ جَلّ جلالُه؛ فصار حاله في الضمير كعُود نُصِب له في الأرض، فإذا اتَّصل بالأرض، والأرض به، نبتت المعرفة به، فصارت نزهةً للعارفين، ثم الشهادة عطاء المحبين، ثم المحبة على السابقين.

﴿فمن تَعَجَّلَ في يومين فلا إثْمَ عليه﴾ [البقرة: ٢٠٣]: قد قدمنا أنّ هذه الآية أباحت التعجُّل والتأخّر. وقيل: إنه إخبار عن غُفْران الإثم؛ وهو الذنب للحاجّ، سواء تعجّل أو تأخر. وعلى الأول فيكون لمن اتَّقَى أنْ يَأْثَم في التعجُّل والتأخر لا إثم عليه. وعلى الثاني أنّ الغفران إنما هو لمن اتَّقَى الله في حَجِّه؛ للحديث: مَنْ حَجّ هذا البيت فلم يَرْفُث ولم يفسق خرج من ذُنوبه كيوم ولدَتْه أُمّه، فاللام متعلقة إما بالغفران أو بالإباحة المفهومَيْن من الآية.

﴿فحَسْبُه جَهَنَّم﴾ [البقرة: ٢٠٦]: الضمير يعود على مَنْ لا يطيع من يأمره بالتقوى تكبّراً وطُغْياناً، وهو الذي يُقال له: اتَّق الله، فتأخذه العزَّةُ بالإثم. والباء يُحتمل أن تكون سببية، أو بمعنى مع. وقال الزمخشري: هي كقولك: أخذ الناس الأمير بكذا؛ أي ألزمهم إياه. فالمعنى حملته العزةُ على الإثم.

﴿فاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حكيم﴾ [البقرة: ٢٠٩]: تهديد لمن زَلّ بعد البيان. ويحتمل أن يكون الخطاب بقوله: ﴿ادخلوا في السِّلْم﴾ [البقرة: ٢٠٨] ـ لأهل الكتاب، على معنى الأمر لهم بالدخول في الإسلام. ولما سمع بعضُ الأعراب قارئاً يقرأ: فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم ـ قال له: أخطأت. فقال: من أين علمت؟ قال: أيُغْريهم على المعصية؟

﴿فلِلْوَالدين والأقربين﴾ [البقرة: ٢١٥]: بيان مَصْرف نفقَة التطوّع. وتقدّم في الترتيب الأهمّ فالأهمّ؛ وإن أُريد بالنفقة الزكاة المفروضة فذلك منسوخ.

﴿فاعْتَزِلُوا النساءَ في الْمَحِيض﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ أي اجتنبوا جِمَاعَهُنّ في

الفرج، لا فيما عداه من أعكانها وبين فخذيْها، والاستمناء بيدها. وقد فسر ذلك الحديث بقوله: لتشدّ عليها إزارها وشأنك بأعلاها.

﴿فاءُوا﴾ [البقرة: ٢٢٦]؛ أي رجعوا إلى الوطْء، وكفّروا عن اليمين؛ فإن الله يغفر ما في الإيلاءِ من الإضرار بالمرأة.

﴿فنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، يعني من الصَّداق لمن طلّق قبل الدخول؛ فإن كان لم يفرض لها صداقاً، وذلك في نكاح التفويض، فلا شيء عليه من الصداق، ويؤمر بالمتعة؛ لقوله: ﴿ومَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

﴿فإذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُروا اللهَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]: قيل المعنى إذا زال الخوف فصلّوا الصلاةَ التي عُلّمتموها وهي التامة. وقيل: إذا أَمِنتم فاذكروا الله كما علّمكم هذه الصلاة التي تجزيكم في حال الخوف؛ فالذكر على القول الأول بمعنى الصلاة. وقد ذكر اللهُ للصلاة اثني عشر اسماً: القرآن: ﴿إنَّ قرآنَ الفَجْرِ كان مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨]. والأمانة: ﴿إنّا عَرَضْنا الأمانةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. والحسنات: ﴿إنَّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السيئات﴾ [هود: ١١٤]. قال ابن عباس: إن الصلوات الخمس يكفِّرْنَ الخطايا. والتوبة: ﴿ذلكَ ذِكْرَى للذَّاكِرين﴾ [هود: ١١٤] - يعني توبةً للتائبين. والبقاء: ﴿والباقياتُ الصالحات﴾ [الكهف: ٤٦]. والذكر: ﴿الذين يذكرون الله﴾ [آل عمران: ١٩١]. والاستغفار: ﴿والمستغفرين بالأَسْحار﴾ [آل عمران: ١٧]. والتسبيح: ﴿فَسُبْحانَ الله حين تُمْسون﴾ [الروم: ١٧]. والركوع: ﴿وارْكَعُوا مع الراكعين﴾ [البقرة: ٤٣]؛ أي صَلّوا مع المصلّين. والسجود.

وعلى القول الثاني فمعنى الذكر الشكر، وعلى كِلاَ القولين فالواجب على الإنسان أن يذكر الله على كل حال.

والذّكر على سبعة أوجه: ذِكْرُ اللسان، وهو الحمد لله والثناء، وذكر الْجَنان وهو التسليم والرضا، وذكر الأبْدَان وهو الجهد والعناء. وذكر العينيْن، وهو

العبرة والبكاء، وذكر اليدين وهو السخاء والعطاء، وذكر الرِّجْلين وهو المشي إلى الحج، وثبات النفس لِلِّقاء. وذِكر الروح وهو الخوف والرجاء.

﴿فإنْ خَرَجْنَ﴾ [البقرة: ٢٤٠]: الضمير يعود على الْمُعْتَدّات اللواتي يُتَوَفَّى أزواجهن ألاّ يخرجن من ديارهنَّ أربعة أشهر وعشراً، وليس لأولياء الأزواج إخراجهنّ، فإذا كان الخروجُ من قِبَلهن فلا جناح على أحد فيما فعَلْنَ في أنفسهن من تزوُّج وزِينة.

﴿فمَنْ شَرِب مِنْهُ فليس مِنّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]: هذا من قول طالوت لَمّا جاز على نهر فلسطين اختبر طاعتهم بمنعهم من الشرب.

﴿فشَرِبُوا منه إلاّ قليلاً منهم﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وكانوا ثمانين ألفاً، ولم يشرب منهم إلا ثلاثمائة وبضعة عشر عدد أصحاب بَدْر، فأما مَنْ شرب فاشتدّ عليه العطش، وأما من لم يشرب فلم يعطش.

﴿فَضّلْنَا بَعْضَهم على بعض﴾ [البقرة: ٢٥٣]: يعني أنّ الله فضّل الأنبياء والرسل على بعضٍ من غَيْر تعيين الفاضل على المفضول، لكن الإجماع على تفضيل أُولي العزْم منهم. واختلف فيما بينهم؛ فقيل آدم لأنه أبو البشر. وقيل نوح؛ لأنه أول رسول بعث في الأرض. وقيل إبراهيم؛ لأنه خليل الله. وقيل موسى؛ لأنه كليمُ الله. وقيل عيسى؛ لأنه روح الله.

والإجماع على أنَّ نبيّنا ومولانا محمد ﷺ سيدُهم وإمامُهم، والمبعوث إليهم، وإلى الملائكة، لا يختلف في هذا القول إلا جاحدٌ ومَنْ لا خَلاَقَ لَهُ.

فإن قلت: ما معنى قوله عليه السلام: «لا تُفَضّلوني على يونس بن مَتّى؟»

فالجواب أنه قال ذلك على وَجْه التواضع والانبساط، والتنبيه للمخاطب على ألاّ يتعرض لأنبياء اللهِ ورسله بالغَيْبة. أو قال ذلك قبل أن يعلم بفَضْلِه على سائر أنبيائه ورُسله.

وانظر كيف يكون حالُ مَنْ يتعرض بالنَّقْصِ لهم من هؤلاء القُصّاص

والمؤرخين بنسبه الذَّنب لهم، كآدم، وداود، ويونس، وغيرهم؛ ورَضِيَ اللهُ عن الإمام عليّ حيث يقول: مَنْ حَدَّث بما يقول هؤلاء القُصَّاص جلَدْتُه حدَّين لما ارتكب مِنْ صَرْف. ومن رفع الله محلّه هذا في الجملة، فكيف بمن تنقَّصَ أو عاب سيّدهم وإمامهم؛ والذي عليه مدارُ أمْرِهم. قال ﷺ: «كنت نبيئاً، وآدم بين الماء والطين»؛ ويظهر لك تفضيله على أولي العزم من الرسل في قوله تعالى: ﴿وإذ أخَذْنا من النبيّين ميثاقَهم ومِنْكَ ومِنْ نوح﴾ [الأحزاب: ٧]؛ فقدّمه عل أولي العَزْم منهم؛ تنبيهاً لكَ على أنك لا تعلم حقيقته هنا؛ إنما يظهر كمالُ شرفه إذ يستشرف من شرف المحشر، فيشرف بالشفاعة؛ فآدم ومَنْ سِوَاه تحت لوائه، وكلهم يقول: نفسي نفسي، وهو صلّى الله عليه يُسْلِمُ نفسه لصاحب النفس، ويقول: لا أسألُك نفسي ولا فاطمة ابنتي، وإنما أسألُكَ أُمّتي، أُمّتي يا مَنْ لا يُخْلِفُ الميعاد. وقد وعدتني ألاَ تُخْزِيني فيهم. فأقسم عليك يا سيد الأولين والآخرين بمن أعطاك هذه الكرامة والْمَنْزِلة الرفيعة؛ لا تَنْسَ عَبْدَك في ذلك اليوم العظيم؛ بل في الدنيا؛ يُنْقذني مِنْ شرّ هَوَاي وشهوتي، ويُقبل بي عليه وعلى طاعته، ويستعملني في خدمته، ولست بأهلٍ لذلك، إن لم تكن نفحةٌ من بحر جُودك، وإلاّ فهأنا متعلق بذَيْلِك، متوسِّل لك بمدحك والصلاة عليك؛ وهي من أعظم الوسائل عندك؛ لله دَرُّك من محبوب! ما أعْذَبَ ذِكْرك! كم غَرَّت غرتك من غِرّ جاء ليغرف عند مشاهدتك. قال: ما هذا وجه كذّاب، غاية جمال يوسف أن أفْتَنَ نسوةً، وجمالك قد أفتن الكونين، كم عاداك من عاد إليك، كل قلْب قَلاك فأَقْلَبه القدَرُ فانقلب إليك، ما طاب عيش عباده الأنبياء حتى صليت بهم في صوامع السموات، ما جلا عروس رسالتك ليلةَ الإسراء على منصب قاب قوسين إلاّ ليعلم عُذّال: ﴿أتجعل فيها مَنْ يُفسِدُ فيها﴾ [البقرة: ٣٠] ما حوت صدفة آدم من يتيمة الوجود؛ اجتمع في مدرسة درس رئيس الملائكة، يسأل ما الإسلام؟ وما الإيمان؟ وما الإحسان؟ ومِنْ خواص الجنّ من غلبهم التعجُّب، فقالوا: ﴿إنا سمِعْنا قرآناً عَجَباً﴾ [الجن: ١]. ومن فضلاء الإنس من كان به الأنس: كـ ﴿ثَانِيَ اثنين إذْ هما في الغار﴾ [التوبة: ٤٠﴾، إن كانت شمسُ

السماء تظهر الظاهر فشمس شَرْعك تُظهر الغيب . اتَّقُوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله ؛ إذا كان في النجوم هُدًى للسالك في المسالك ، فكم بنجوم آياتك من مهتدٍ إلى الحق.

﴿ فأماتَه اللهُ مائةَ عامٍ ثم بعثه ﴾ [البقرة: ٢٥٩] : الضمير يعود على عُزَير . وقيل : على الخضْر ؛ وذلك أنه مرّ على قرية ، وهي بيت المقدس لما خرَّبَها بُخْت نَصَّر ؛ وقيل قرية الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ؛ فسأل عن كيفية إحيائهم ، فأراه الله ذلك عياناً في نفسه ؛ ليزدادَ بصيرة ، وأماته مائةَ عام ثم بعثه ، وذلك أنه أماته غدوة يومٍ ، ثم بعثه قبل الغروب من يومٍ آخر بعد مائة عام ؛ فظنَّ أنه يومٌ واحد . ثم رأى بقيَّةً من الشمس ، فخاف أن يكذب ؛ فقال : يوماً أو بعض يوم .

وروي أنه قام شابّاً على حالته ، فوجد أولاده وأولادهم شيوخاً .

وكذلك قصة أصحاب الكهف ، لما بعثهم قال بعضهم لبعض : كم لبِثْتُم ؟ وكذلك يسألون في القيامة : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بَعْضَ يوم ﴿ فاسْأَلِ العادِّين ﴾ [المؤمنون: ١١٣] ؛ كلّ ذلك دلالة على أنّ الدنيا كلها كثيرها كقليلها ، ولا يلبث الإنسان فيها إلا كنَفَس واحد . وهذا مشاهد ، وليس الخبر كالعيان .

﴿ فلما تَبَيَّن له ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ؛ أي تبيَّنَ له كيفيةُ الإحياء ، فأراه الله في نفسه ذلك . ولذلك قال : انظر إلى طعامِكَ وشرابك لم يتَسنَّه ؛ أي يتغير . وانظر إلى حمارك كيف تركْتَه مربوطاً بحبل من ليف ، ولم يتغير . قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ـ بهمزة قطع وضم الميم ـ اعترافاً . وقرىء بألف وَصْل والجزم على الأمر ؛ أي قال له الملك ذلك .

فإن قلت : ما الحكمة في أنَّ عُزيراً سأل الإحياء ، فعاقبه ؛ وإبراهيم سأل مثل ذلك فأجابه ؟

فالجوابُ أن عُزَيراً سأل عن القدرة ، فقال : أنى يُحْيِي هذه الله بعد موتها ؟

وإبراهيم سأل عن كيفية القدرة، فقال: كيف تحيي الموتى؟ لأن قوله أنى بمعنى كيف؛ إذ لا يشكُّ نبيٌّ الله في القدرة؛ فسؤاله إنما كان على جهة الاستخبار لا الإنكار، كما زعمه بعضهم.

وقيل: إن إبراهيم عرف بالقلب، فأراد أن يرى بالعَيْن؛ وذلك أنه لما قال النَّمْرود: أنا أُحيي وأُميت؛ فقتل رجلاً وأَحيا آخر؛ فقال إبراهيم: ﴿ربِّ أَرِني كيف تُحْيِي الموتى﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ لأني أعلم أنه ليس فعلُك كفعله؛ فأراه الله ذلك في أربعةٍ من الطير، وفرَّق أجزاءَها، وجعل جزءاً من الحمام مع جزءٍ من الدّيك، وخلط بعضَها مع بعض؛ ليكون أبلغ في القدرة حيث رجع كلُّ جزء إلى صاحبه، فاطمأَنَّ قلْبُه كما طلب؛ ولهذا كانت هذه الطير طير العبرة؛ وطير المحنة الطاوس الذي كان سبب خروج آدم من الجنة. وطير التجربة الحمار الذي كان لنوح في السفينة حتى دخل إبليس بين قوائمه. وطير الفتنة لداود حيث تسوَّرَ له في المحراب. وطير الهلكة لسليمان. وطير الحجة لعيسى حيث صوَّره من طين، ونفخ فيه؛ فصار طائراً بإذن الله. وطير الكرامة لمحمد ﷺ. وطير اللعنة للنَّمرود حيث دخل في خياشيمه وهي البعوض، وأمهله ثلاثةَ أيام، لعله يتوبُ. وطير الهلكة للحبشة لما أرادوا هَدْم الكعبة؛ فأرسل الله عليهم طَيْراً أَبَابِيل تَرْميهم بحجارة من سِجِّيل، على كل واحد اسمُ صاحبه. وطير المعرفة للعارفين يطير حتى يتعلّق بالمولى سبحانه.

﴿فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فأْذَنُوا بحَرْبٍ من اللهِ ورَسُولِه﴾ [البقرة: ٢٧٩]؛ أي إن لم تنتهوا عن الربا حُورِبْتُم. ومعنى فأذنوا: فاعلموا. وقرىء بالمد؛ أي أَعْلِمُوا غيركم.

﴿فاكْتُبوه﴾ [البقرة: ٢٨٢]: ذهب قوم إلى أنَّ كتابةَ الدَّيْن واجبةٌ بهذه الآية. وقال قوم: إنها منسوخةٌ بقوله: فإنْ أَمِنَ بعضُكم بعضاً. وقال قوم: إنها على الندب.

﴿فرَجُلٌ وامْرَأَتان﴾ [البقرة: ٢٨٢]: قال قوم: لا تجوز شهادةُ المرأتين إلاّ

مع عدم الرجال. وقالوا: معنى الآية: إن لم يكونا؛ أي لم يوجدا. وأجازه الجمهور؛ لأن المعنى إن لم يُستشهد رجلان فرجل وامرأتان؛ وارتفاع رَجُل بفعل مضمر، تقديره فليكن رجلٌ؛ فهو فاعل. أو تقديره فليُستشهد رجل؛ فهو مفعول لم يسمَّ فاعله؛ أو بالابتداء؛ تقديره: فرجل وامرأتان يشهدون.

﴿فإنّه فُسوقٌ بكم﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ أي إن وقعتم في الإضرار المتقدّم في قوله: ﴿ولا يُضَارَّ كاتِبٌ ولا شَهِيد﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿فرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]: بهذا احتجّ الشافعيُّ على صحة الرهن. واحتج مالك بأنه شرطُ كمالٍ. وأجمع العلماء على صحة قبض المرتهن وقبض وكيله. وأجاز الجمهور وَضْعه على يد عدل.

﴿فإنْ أَمِنَ بعضُكم بَعْضاً﴾ [البقرة: ٢٨٣]؛ أي أمن صاحب الحق المِدْيان لحسن ظنّه به، فليستَغْن عن الكتابة، وعن الرَّهن؛ فأَمر أوّلاً بالكتابة ثم بالرهن، ثم بالائتمان؛ فالدين ثلاثة أحوال. ثم أمر المِدْيان بأَداء الأمانة؛ ليكون عند ظنِّ صاحبه به.

﴿فإنّه آثِمٌ قَلْبُه﴾ [البقرة: ٢٨٣]: معناه قد تعلّق به الإثم اللاحق عن المعصية في كِتْمان الشهادة؛ وارتفع آثم بأنه خَبَرُ إنّ، وقلبه فاعل به. ويجوز أن يكون قلبه مبتدأ وآثم خبره. وإنما أُسند الإثم إلى القلب وإن كانت جملة المكاتم هي الآثمة؛ لأن الكتمان من فعل القَلْب؛ إذ هو يضمرها، ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان.

﴿فيَغْفِر لِمَنْ يشاء ويعذِّبُ مَنْ يَشَاء﴾ [البقرة: ٢٨٤]: قرىء بالجزم فيهما عطفاً على يحاسبكم، وبرفعهما على تقدير فهو يَغفر.

﴿فَإنْ حَاجُّوكَ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ أي جادَلُوك. والضمير يعود على نصارى نَجْران، أو اليهود.

﴿فإنما عليكَ البَلاَغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ أي إنما عليك تبليغُ رسالة ربّك؛ فإذا بلّغتها فعلْتَ ما عليك. وقيل إنها موادعة منسوخة بالسيف.

﴿فتقبَّلَها رَبُّها بقَبُولٍ حَسَن﴾ [آل عمران: ٣٧]: الضمير يعود على مريم. وفيه وجهان:

أحدهما ـ أن يكون مصدراً على غير الضمير.

والآخر ـ أن يكون اسماً لما يقبّل به، كالسَّعُوط اسم لما يُستَعط به؛ يعني أنّ الله رضِيها للمسجد مكان الذَّكَر؛ لأنها قالت: ﴿إني نَذَرْتُ لكَ ما في بَطْنِي محرَّراً﴾ [آل عمران: ٣٥]؛ يعني لخدمته.

﴿فأَنْفُخ فيه فيكون طائراً بإذْنِ الله﴾ [آل عمران: ٤٩]، وقرىء طيْراً ـ بياء ساكنة على الجمع. قيل: هو الخفّاش؛ لأنه أكمل الطير خَلْقاً؛ ولها أسنان وثَدي، وهي تَحيض.

قال وهب: كان يطير ما داموا ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ليعلم أن الكمال لله تعالى، وأنّ فِعْلَ الخالق مخالفٌ لفعل المخلوق. وذكر: بإذن الله، ليرفَعَ وَهْمَ من توهَّم في عيسى الربوبية. وأراد على قراءة نافع بالألف النوع.

فإن قلت: ما وَجْهُ تذكير الضمير هنا وتأنيثه في المائدة في قوله: ﴿فتنفخ فيها﴾ [المائدة: ١١٠]؛ وهل يجوز أن يكون كلٌّ واحد منهما مكان الآخر؟

والجواب أنه أنّث الضمير في المائدة؛ لأنه يعود على الهيئة، وذَكَّره هنا؛ لأنه يعود على الطير، أو على الكاف من ﴿كهيئة﴾؛ وإنما خصّه بالتذكير هنا؛ لأنه إخبار قبل الفعل، وفي المائدة خطاب الله له في القيامة. قال الزمخشري: في الأولى الضمير للكاف؛ أي في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير، فيكون طيراً؛ أي فيصير طيراً كسائر الطيور. وقال في قوله: فتنفخ فيها الضمير للكاف؛ لأنها صفة الهيئة التي يخلقها عيسى، وينفخُ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها؛ لأنها ليست من خلقه ولا نَفْخِهِ في شيء. قال: وكذلك الضمير في تكون... انتهى كلامه، وهو في غاية الوضوح.

﴿فَوْرِهم﴾: [آل عمران: ١٢٥]: الضمير للملائكة؛ أي من ساعتهم. وقيل المعنى من شَبْرِهم. والمعنى أنّ الله أَمدَّ المسلمين بهذا العدد؛ ليزيدهم قوة.

فإن كان في يوم بَدْر فقد قاتلت فيه الملائكة، وإن كان في يوم أُحُد فقد شرط أن تصبروا وتتقوا، فلما خالفوا الشرط لم تنزل الملائكة.

﴿فما وهَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦]؛ الضمير للربِّيين على إسناد القتل للنبيء، وهو لمن بغى منهم على إسناد القتل إليهم.

﴿فأثابَكُمْ غمًّا بِغَمّ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، أي جازاكم غمّاً بسبب الغم الذي أدخلتموه على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، إذ عصيتم وتنازَعتم. وقيل: أثابكم غمّاً متّصلاً بغم، وأَحَدُ الغمَّين ما أصابهم من القتل والجراح، والآخر ما أوجف من قَتْل رسول الله ﷺ.

﴿فَشَلْتُم﴾ [آل عمران: ١٥٢]: أي جَبُنْتم.

﴿فَزَادهم﴾ [آل عمران: ١٧٣]: الفاعل ضمير المقول، وهو أَنَّ الناس قد جمعوا لكم.

والصحيح أَن الإيمان يزيد وينقص، فمعناه هنا قَوَّى إيمانهم وثقتهم بالله.

﴿فانقلبوا﴾ [آل عمران: ١٧٤]؛ أي رجعوا بنعمة السلامة وفَضْل الأجْر.

﴿فلا تَخَافُوهم وخافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]: يعني أنَّ الشيطان يخوِّفُ أولياءه فيخوِّفونكم أيها المؤمنون، فلا تخافوهم.

وقراءة ابن عباس وابن مسعود: يخوفكم أولياءه. وقيل المعنى: يخوف المنافقين، وهم أولياؤه من كفّار قريش؛ فالمفعول الثاني على هذا محذوف.

﴿فلا تحسبنّهم﴾ [آل عمران: ١٨٨]: بالتاء وفتح الباء خطاباً للنبي ﷺ وبالياء وضمّ الباء، أسند الفعل للذين يفرحون؛ أي لا يحسبون أنفسهم.

﴿فإن آنَسْتُم منهم رُشْداً﴾ [النساء: ٦]: الخطاب لأولياء الأيتام أن يدفَعُوا إليهم أموالَهم إذا رشدوا، وهو المعرفة بمصالحه وتدبير ماله؛ وإن لم يكن من أهل الدّين. واشترط قومٌ الدين، واعتبر مالك البلوغَ والرشد. وحينئذ يدفع المال. واعتبر أبو حنيفة البلوغ وحده ما لم يظهر سفَه. وقوله مخالف للقرآن.

﴿فَلْيَسْتَعْفف﴾ [النساء : ٦] : أمر الوصيَّ الغنِيَّ أن يستعفف عن مال اليتيم ولا يأكل منه شيئاً ، ومَنْ كان فقيراً فليأكل بالمعروف من غير إسراف . وقيل : المراد أن يكون له أُجرة بقَدْرِ عمله وخدمته . وقيل نسخها : ﴿إنَّ الذينَ يأْكلُونَ أموالَ اليتامى ظُلْماً﴾ [النساء : ١٠] . قال عمر بن الخطاب : لا بأس للوصيّ الفقير أن يستسلف من مال محجور له ، فإذا أيسر ردَّه .

﴿فانْكِحُوا ما طابَ لكم من النساءِ﴾ [النساء : ٣] ؛ أي ما حلّ ؛ وإنما قال « ما » ولم يقل « من » ؛ لأنه أراد الجنس . وقال الزمخشري : لأنّ الإناث من العقلاء يجري مجرى غير العقلاء ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿أو ما ملكَتْ أيْمَانُكم﴾ . [النساء : ٣] .

﴿فإنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيءٍ منه نَفْساً فكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾ [النساء : ٤] ؛ إباحة للأزواج أو للأولياء على ما تقدم من الخلاف ـ أن يأخذوا ما دفعه النساء من صدقاتهن عن طِيْبِ أنفسهن . وقد قال بعضهم : مَنْ أصابه أَلَمٌ فليأخذ مِنْ صَدَاق زوجه أربعةَ دراهم ، ويشتري بدرهمين عسلاً وبدرهمين زيتاً ويشربها بماء مطر ؛ فإن الله يعافيه ؛ لأن الله قال في الزيت مباركاً ، وفي المطر مباركاً ، وفي العسل شفاء ، وفي الصداق الهناء . وإن أضاف إليها آيةً من كتاب الله ففيه الشفاء أيضاً .

﴿فإنْ كُنّ نساءً﴾ [النساء : ١١] ؛ إنما أَنَّثَ ضمير الجماعة في ﴿كُنَّ﴾ ، لأنه قصد الإناث . وأصله أن يعود على الأولاد ، لأنه يشمل الذكور والإناث . وقيل : يعود على المتروكات . وأجاز الزمخشري أن تكون كان تامة ، والضمير مُبْهَم ، ونساء تفسير .

﴿فوق اثْنَتَيْن﴾ [النساء : ١١] : ظاهره أكثر من اثنتين ؛ ولذلك جمع على أنَّ للثلاث فما فوقهن الثلثين ، وأما البنتان فاختلف فيهما ؛ فقال ابن عباس : لهما النصف كالبنت الواحدة . وقال الجمهور : لهما الثلثان . وتأوَّلُوا فوق اثنتين فما فوقها . وقال قوم : إن فوق زائدة كقوله : ﴿فاضْرِبُوا فوق الأعناق﴾

[الأنفال: ١٢]. وهذا ضعيف. وقال قوم: إنما وجب لهما الثلثان بالسنّة لا بالقرآن. وقيل بالقياس على الأختين.

﴿ فلها النصف ﴾ [النساء: ١١]: نصٌّ على أنّ للبنت النصف إذا انفردت؛ ودليلٌ على أن للابن جميعَ المال إذا انفرد؛ لأن للذكر مثل حظّ الأنثيين.

﴿ فلأمّه الثّلث ﴾ [النساء: ١١]: لم يجعل الله للأم الثلث إلا بشرطين:

أحدهما عدم الولد. والآخر إحاطة الأبوين بالميراث؛ ولذلك دخلت الواو لِتَعْطِفَ أحدَ الشرطين على الآخر. وسكت عن حظ الأب استغناء بفهمه؛ لأنه لا يبقى بعد الثلث إلا الثلثان ولا وارث إلا الأبوان؛ فاقتضى ذلك أنَّ الأب يأخذ بقيّته وهو الثلثان.

﴿ فإن كان له إخوة فلأمّه السُّدُسُ ﴾ [النساء: ١١]: أجمع العلماء على أن ثلاثة من الإخوة يـردُّونَ الأم إلى السُّدُس. واختلفـوا في الاثنين؛ فمـذهـب الجمهور أنهما يردَّانها إلى السدس. ومذهب ابن عباس أنهما لا يردانهـا إليه؛ بل هما كالأخ الواحد. وحجَّتُه أنَّ لَفْظَ الإخوة لا يقعُ على الاثنين؛ لأنه جَمْعٌ لا تثنية. وأقلّ الجمع ثلاثة. وقال غيره: إن لفظ الجمع قد يقَعُ على الاثنين، كقوله: ﴿ وكُنَّا لِحُكْمِهِم شاهِدين ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. و ﴿ تسوَّرُوا المحراب ﴾ [ص: ٢١]. ﴿ وأطْرَاف النهار ﴾ [طه: ١٣٠].

واحتجّوا بقوله ﷺ: « الاثنان فصاعداً جماعة ».

وقال مالك: مضت السنَّة أن الإخوة اثنان فصاعداً. ومذهبُه أن أقلّ الجمع اثنان؛ فعلى هذا يحجب الأخَوان فصاعداً الأم عن الثلث إلى السدس، سواء كانا شقيقين، أو لأب، أو لأم، أو مختلفين؛ وسواء كانا ذَكَرَيْن أو أنثيين، أو ذكراً وأنثى؛ فإن كان معهما أبٌ ورث بقيّة المال، ولم يكن للإخوة شيء عند الجمهور، فهم يحجبون الأمَّ ولا يرثون.

وقال قوم: يأخذون السدس الذي حَجَبُوا عنه الأم، وإن لم يكن أب ورثوا.

﴿فهم شرَكاءُ في الثُّلث﴾ [النساء : ١٢] : يعني إن كان الإخوةُ للأم اثنين فأكثر فلهم الثلث بالسواء بين الذكر والأنثى ؛ لأن قوله : ﴿شركاء﴾ يقتضي التسوية بينهم ؛ ولا خلاف في ذلك.

ولما وقع النزاعُ بين فَقِيهَيْنِ في أقل الجمع ، هل هو اثنان أو ثلاثة ؟ رأى أحدهما رسولَ الله ﷺ فاشتكى إليه ، فقال ﷺ : كلٌّ منكم مصيبٌ ؛ فإن أقلَّ جمع التثنية اثنان . وأقل جَمْع الإفراد ثلاثة . فانظر كيف أَرضاهما ﷺ بقوله .

﴿فاستَشْهِدُوا عليهنَّ أربعةً منكم﴾ [النساء : ١٥] ؛ إنما جعل شهداء الزنى أربعة تغليظاً على المدّعي ، وسَتْراً على عباده ؛ ولذا قال ﷺ : هَلاَّ سترتَه بردائك . وفي حديث آخر : من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستترْ عنَّا بستر الله ، ومَنْ أبدى لنا صَفْحَةَ وجهه أقمنا عليه الحدّ . وقيل : ليكون شاهدان على كل واحد من الزانيين .

﴿فأَمْسِكُوهُنَّ في البيوت﴾ [النساء : ١٥] : كانت عقوبةُ الزنى الإمساك في البيوت ، ثم نُسخ ذلك بالإيذاء المذكور والتوبيخ . وقيل إن الإمساك في البيوت للنساء والإيذاء للرجال ، فلا نَسْخ بينهما . ورجَّحه ابن عطية والزمخشري وابن الفرس بقوله في الإمساك : من نسائكم ، وفي الإيذاء : منكم ، ثم نسخ الإمساك والإيذاء بالرَّجْم للمُحْصَن ، وبالجلد لغير الْمُحْصَن . واستقر الأمرُ على ذلك ؛ فأما الجلد فمذكور في سورة النور ، وأما الرجم فقد كان في القرآن ثم نُسخ لفظه ، وبَقِي حكمه . وقد رجم ﷺ ماعزاً الأسلمي وغيره .

﴿فأَعْرِضُوا عنهما﴾ [النساء : ١٦] : لما أمر بالإيذاء للزاني أمر بالإعراض عنه إذا تاب ، وهو تَرْكُ الإيذاء ، وفيه ترجية للتائب . وقد أخبرنا الله في أربع آيات من كتابه أنه يتوب على المؤمنين ؛ قال تعالى : ﴿لقد تاب اللهُ على النبيّ ...﴾ [التوبة : ١١٧] الآية . ﴿ويتوبَ اللهُ على المؤمنين﴾ [الأحزاب : ٧٣] . ﴿والله يُريد أن يتوبَ عليكم﴾ [النساء : ٢٧] . ﴿إنما التوبةُ على الله﴾ [النساء : ١٧] . وأخبرنا في ثلاث آيات أنه يقبل توبتهم ؛ قال تعالى : ﴿ألم

يعلموا أنّ اللهَ هو يَقْبَلُ التوبةَ عن عباده﴾ [التوبة: ١٠٤]. ﴿وهو الذي يقبل التوبةَ عن عباده﴾ [الشورى: ٢٥]. ﴿قابل التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

وذكر لنا أنه يغفر لهم في ثلاث آيات؛ قال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم...﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية. و ﴿من يعمل سُوءاً أو يَظْلِم نفسه...﴾ [النساء: ١١٠]. الآية. ﴿قل يا عبادِي الذين أسرفوا على أنفسهم...﴾ [الزمر: ٥٣] الآية.

وأخبرنا في آيتين أنّا إنْ رجَعْنا إليه قَبِلنا؛ قال تعالى: ﴿وأَنِيبُوا إلى رَبّكم﴾ [الزمر: ٥٤]. وقال: ﴿فَفِرُّوا إلى اللهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وقد قدمنا أن في هاتين الآيتين إشارةً إلى فلاح التائب ومحبته له. وقال تعالى: ﴿إنّ اللهَ يحبُّ التوّابين ويُحِبُّ المتطهرين﴾ [البقرة: ٢]؛ فقدم محبةَ التائب على المتطهر؛ وما ذلك إلاّ أنّ التائبَ تقعُ ندامته واستغفاره، وطلب العُذْر والدعاء من مولاه؛ ولذلك كان المعصوم على الإطلاق يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من مائة مرة.

وقال الصحابي: إنْ كُنّا لنعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد: رب اغفر لي وتُبْ عليّ ـ أكثر من سبعين مرة؛ فكيف بك أيها الغَرِيقُ! ولا يخلصك من ذلك إلا بكثرة الاستغفار، والصلاة على النبي المختار ﷺ؛ فإنهما يَمْحَقان الذنوب مَحْقاً. قال ﷺ: « التائب من الذنب كمن لا ذَنْبَ له ».

وإذا تأَمّلْتَ الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، تجد فيها محبةَ الله للتائب والمستغفر؛ ألا ترى أن اللهَ قدّمه في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿التّائبُون العابِدُون الحامدون﴾ [التوبة: ١١٢]. ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مُقْتَصِد﴾. وفي الحديث: طُوبَى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً.

وقد قرن اللهُ صحبةَ التائبين مع الصابرين، والمجاهدين والمحسنين، والمتوكلين والْمُتَّقين والمقاتلين في سبيله، والمتّبعين لنبيه؛ فما أشرفَها من خصلة إن وفَّقَك اللهُ إليها! ويا لها من نعمة يجب عليك شكرُها! وكيف لا تشكره عليها

والشكرُ نعمةٌ أخرى؟ لكنه سبحانه يُعطي الكثير، ويَرْضى باليسير؛ فاللسان ترجمان القلب. ولو جعل الله في قلبك رؤية هذه النعم لحركته فيما يدفَع عنك النِّقَم؛ أعجبتكَ نفسك، فرضيت أفعالها! ألم تعلم أنّ أَصْل كلِّ معصية الرضا عن النفس. سرحت لسانك في أعراض إخوانك، وهل خلقه لك إلا لتسبِّحه، أو تذكر نِعَمه، أو تستغفر من ذنوبك الصادرة منك! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون على مصابنا وعدم اهتبالنا بما كسبته جوارِحُنا، نسأله سبحانه السلامة والعافيةَ في ديننا ودنيانا، بجاه نبينا وحبيبنا.

﴿فاحشة ومَقْتاً﴾ [النساء: ٢٢]. قد قدمنا أن الفاحشةَ معناها الزنى، وزاد في هذه الآية ﴿مَقْتاً﴾؛ لأنَّ تزوُّجَ الرجل زوجة أبيه أشدّ من الزنى.

﴿فتَيَاتكم المؤمنات﴾ [النساء: ٢٥]: هنّ الإماء. ويجوز نكاحهن إذا لم يجد طَوْلاً للمحصنات.

﴿فانكحوهُنّ بإذْنِ أهلهن﴾ [النساء: ٢٥]؛ أي ساداتهنّ المالكين لهن.

﴿فإذا أُحْصِنَّ...﴾ [النساء: ٢٥] الآية. معناها إذا زنت الأمَة بعد أن أحصنت فعليها نصفُ حدّ الحرة.

﴿فَتِيلا﴾ [النساء: ٤٩]: هو الخيط الذي في شقّ نواة التمرة. وقيل: ما يخرج بين إصبعيك وكفّيك إذا فتلتها؛ وهو تمثيل وعبارة عن أقل الأشياء؛ فيدل على الأكثر بطريق الأولى.

﴿فَرُدُّوه إلى الله والرسول﴾ [النساء: ٥٩]: الردُّ إلى الله هو النظر في كتابه. والرد إلى الرسول هو سؤالُه في حياته، والنظر إلى سنَّته بعد وفاته.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَن به...﴾ [النساء: ٥٥] الآية. معناها أنّ مِنَ اليهود مَنْ آمن بالنبي ﷺ، أو بالقرآن المذكور في قوله: ﴿مصدّقاً لما معكم﴾ [النساء: ٤٧]. أو بما ذكر من حديث إبراهيم. فهذه الضمائر في ﴿به﴾. وقيل منهم؛ أي من آل إبراهيم، ومنهم من كفر كقوله: ﴿فمنهم مُهْتَدٍ وكثير منهم فاسقون﴾ [الحديد: ٢٦].

﴿فكيف إذا أصابَتْهُم مُصِيبة بما قدَّمَتْ أيديهم...﴾ [النساء : ٦٢] الآية. معناها : كيف يكون حالُهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم، ويقولون: لم نرد إلا مُوافَقتك يا محمد ، مع أنهم كاذبون في قولهم، فانظر هذه الملاطفة الواقعة مِنْ أَمْرِ الله لرسوله في شأنهم.

﴿فلا ورَبِّكَ لا يُؤْمِنُون﴾ [النساء : ٦٥]: لا هنا مؤكدة للنفي الذي بعدها. ومعنى الآية أنهم لا يؤمنون حتى يرضوا بحكم النبيّ ﷺ.

ونزلت بسبب المنافقين الذين تخاصموا. وقيل بسبب خصام الزبير مع الأنصاريّ في الماء الذي قال لرسول الله ﷺ : « أن كان ابن عمتك ». وحكمها عام.

﴿فأولئك مع الّذين أَنْعَمَ اللهُ عليهم...﴾ [النساء : ٦٩]. الآية. أشار بها إلى أنَّ مَنْ أطاع الله ورسوله يُحشر معهم. وهي مفسرة لقوله: صراط الذين أنعمت عليهم.

﴿فانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ [النساء : ٧١]؛ أي اخرجوا للجهاد جماعات متفرقين، أو جماعات. وفيها إشارةٌ إلى السرايا، وأنَّ مَنْ خرج بها فهو كالمجاهد، ولا يُقال إنّ المجاهد لا يكون إلاّ مع الإمام؛ وقد صحّ أنه ﷺ قال: لولا أن أشقّ على أمتي ما قعدْتُ خِلاَف سَرِيّة. وقد كان ﷺ يبعث السرايا ويحرِّض عليها؛ وقد وصف من تخلّف عنها بأنه من المسْتهزئين.

﴿فبما نَقْضِهم ميثاقَهم﴾ [النساء : ١٥٥]: ما زائدة للتأكيد، والباء تتعلق بمحذوف تقديره: بسبب نقضهم فعلنا ما فعلنا، والباء تتعلق بقوله: ﴿حَرَّمْنَا عليهم﴾ ، ويكون ﴿فبِظُلْمٍ﴾ على هذا بدلاً من قوله فبما نقضهم.

﴿فآمِنُوا خَيْراً لكم﴾ [النساء : ١٧٠]: انتصب خيراً هنا، وفي قوله: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ [النساء : ١٧١] ـ بفعل مضمر تقديره: وأْتُوا إيماناً خيراً لكم. هذا مذهب سيبويه، وعلى هذا فنصبُه على النعت لمصدر محذوف. وقال بعض الكوفيين: هو خبر كان المحذوفة، تقديره يكن الإيمان خيراً لكم.

﴿فمن اضْطُرّ﴾ [المائدة: ٣]: راجع إلى المحرمات المذكورة قَبْلَ هذا: أباحها اللهُ عند الاضطرار.

﴿فاغْسِلُوا وجوهَكم وأَيْدِيَكُمْ إلى المرافق﴾ [المائدة: ٦]: ذكر الله في هذه الآية صفةَ الوضوء، وذكر فيها أربعة أعضاء: اثنان محدودان وهما اليدان والرجلان، واثنان غير محدودَيْن وهما الوجه والرأس. فأما المحدودان فتغسل اليدان إلى المرفقين، والرِّجْلان إلى الكعبين وجوباً بإجماع؛ فإنّ ذلك الحد هو الذي جعل الله لهما.

واختلف هل يجب غسل المرفقين مع اليدين وغسل الرجلين مع الكعبين أم لا؟ وذلك مبني على معنى إلى؟ فمن جعل إلى بمعنى مع في قوله: إلى المرافق وإلى الكعبين ـ أوجب غسلهما، ومن جعلها بمعنى الغاية لم يُوجب غَسْلهما.

واختلف في الكعبين: هل هما اللذان عند معقد الشِّراك لذكرهما بلفظ الجمع، كما ذكر المرافق؛ لأنه على ذلك في كل رجل كعب واحد.

وأما غير المحدودين فاتّفق على وجوب إيعاب الوَجْه، وَحَدُّه طولاً مِنْ أَوَّل منابت الشعر إلى آخر الذقن واللحية، وحدُّه عَرْضاً من الأذُن إلى الأذُن. وقيل من العِذار إلى العِذَار.

وأما الرأسُ فمذهبُ مالك وجوب إيعابه كالوجه. ومذهب كثير من العلماء جوازُ الاقتصار على بعضه؛ لما رُوي في الحديث أنّ رسولَ الله ﷺ مسح على ناصيته؛ ولكنهم اختلفوا في القَدْرِ الذي يجزىء على أقوال كثيرة.

وسِرُّ الأمر في غسْل هذه الأعضاء في الوضوء أن الله أكرم هذه الأمة في الجنة بالخواتم والخلاخل والأسورة والتِّيجان والنظر إلى الله؛ فأمرهم بغسل هذه الأعضاء، ليطهرهم من الذنوب الواقعة منها، فيلقوه ولا ذَنْب عليهم؛ ولذلك قال ﷺ: إني لأعرف أمتي يوم القيامة؛ لأنهم غُرّ محجَّلون من آثار الوضوء؛ فلا يحافظ عليه إلا مؤمن؛ لأنَّ مفتاحَ الجنّة لا إله إلا الله، ومفتاح الصلاة

الوضوء: قال الله تعالى: ﴿ولكن يُرِيد ليطهّركم، وليُتِمّ نِعْمَتَه عليكم﴾ [المائدة: ٦].

فانظر كيف سوّاهم مع رسول الله، لقوله: ﴿إنما يريد الله ليُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْت﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ﴿ويتم نعمته عليك﴾ [يوسف: ٦].

فإن قلت: لم مُنِع المتيمم من مسح رأسه؟

والجواب أنّ وَضْعَ التراب على الرأس علامةُ الفراق من الحبيب؛ والله تعالى لا يحب فراقهم، فلم يجعل لهم ما يتفاءلون به على الفراق.

﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦]: هذا أَمرٌ بالغُسل لمن وجب عليه؛ وفيه إجمال، بخلاف الوضوء، فإنما فَصَّله لأنه من خصائص هذه الأمة، ولم يكونوا يعرفونه، بخلاف الغُسل، فإنما علموه مما تقدم. وبهذا أمر الله الأمم المتقدمة، وسِرّه ليذوق الإنسانُ وبالَ ما أصابه من اللذة في الوقاع، وأن الدنيا لا تَخْلو من كَدَرٍ، وفيه معنى النظافة؛ ولهذا لا ينبغي للإنسان أن تمرّ عليه جمعة إلا ويغتسل فيها مرةً، مع أنه يكفّر السيئات، ويرفع الدرجات؛ وقد صحّ أنه يكفّر بعدد شعر جسده من السيئات.

فإن قلت: ما معنى الحديث: هذا وضوئي ووضوء الأنبياء قَبْلي لَمّا غسل الأعضاء ثلاثاً؟ مع قولكم: إنه من خصائص هذه الأمة؟

والجواب أنه كان من خصوصية الأنبياء لا أُممهم، لما قدمناه من أنَّ الله أراد بذلك تطهيرهم؛ ولهذا تقول الأنبياء والأمم يوم القيامة: كادت هذه الأمة أن تكون كلّها أنبياء؛ فما أشرفها من أمة نَبِيّ كريم!

﴿فأغريْنا﴾ [المائدة: ١٤]؛ أي أثبتنا وألصقنا، وهو مأخوذ من الغراء.

﴿فَتْرَةٍ﴾: [المائدة: ١٩]: سكون وانقطاع؛ لأنه ﷺ بُعث بعد انقطاع الرسل؛ لأنها كانت متواترة، كلّما جاء أمةً رسولُها عذّبوه إلى وقت رَفْع عيسى، فانقطعت الرسل إكراماً لهذا النبي الكريم.

﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكم بِذنوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]: ردٌّ عليهم؛ لأنهم قد اعترفوا أنهم أبناء الله وأحبّاؤه، فردّ الله عليهم أنه يعذبهم وينتقم منهم، والأبُ لا يعذّب ولده، والحبيب لا يرضى بعذاب حبيبه؛ ففيه تبكيتٌ لهم، وإشارة إلى أن من أحبَّه يرفع درجته، ولا يكون العبد محبوباً عند مولاه إلا بعد الإخلاص في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية.

وأمّا من يدَّعي المحبّة وهو عَريّ عنها فهو كاذِبٌ في دَعْواه، غَيْرُ واصل لما يتمنّاه.

واعلم أن العَبْدَ مع الله على ثلاثة أوجه:

حال يكون للعبد عليه. وحال يكون لله على العبد. وحال يكون على رأس العبد شاء ذلك العبد أو أَبى.

فأما الحالُ التي تكون للعبد على الله فهي حال الشدة والمحنة، فللعبد على الله الأجر والعوض؛ قال تعالى: ﴿ذلك بأَنّهم لا يُصيبهم ظَمَأ ولا نَصَب﴾ [التوبة: ١٢٠].

وأما الحال التي تكون لله على العبد فهي حالُ النعمةِ والرخاء، ولله على العبد الشكر والنعمة؛ قال تعالى: ﴿وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وقال: ﴿ثم لتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عن النَّعِيم﴾ [التكاثر: ٨].

وأما الحال التي تكون على رَأس العبد فهي حال القضاء والقدر؛ قال تعالى: ﴿قل لَنْ يُصيبنا إلاّ ما كتَب الله لنا﴾ [التوبة: ٥١].

وإذا علمت هذا فمرادُ الله منك في حال النعمة ـ الشكر، ويجازيك بالزيادة: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنّكُم﴾ [إبراهيم: ٧]. وفي حال النقمة الصبر، ويجازيك بالثواب الجزيل ﴿وجَزَاهُمْ بما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرا﴾ [الإنسان: ١٢]. وفي حال الطاعة ـ الإخلاص، ويجازيك بالقَبُول: ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُو لقاءَ ربّه فَلْيَعْمَلْ عملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربّه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠]. وفي حال المعصية التوبةُ والرجوعُ إليه، ويجازيك بالمغفرة.

فمن ادَّعى محبَّته تعالى وهو غَيْرُ ممتثل لأمْرِه فهو كذاب في دعواه، غير مدرك ما يتمنّاه. وهذه دعوى اليهود والنصارى وهم مخالفون في أمره؛ فإياك والتشبّه بهم؛ فالتشبُّهُ بأهل الخير فلاح.

وإذا كان سبحانه يسأل الصادقين عن صِدقهم فكيف بمَنْ لم يعمل، وقد قالوا: عمَلٌ بلا إخلاص كحقيقةٍ بلا رُوح؛ فلا تكثروا العملَ بالبَهْرَج، غدير صاف أنفع من خليج كَدِر. ما أَشبه حجر الْمَهَا بالْجَوهر، لكن بين الثمنين بَوْن بَعِيد. ربح المرائي مُنتن يَشِين القلوب الصافية.

﴿فافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ [المائدة: ٢٥]: هو من الفرقة. وقيل من الفَصْل؛ أي افصل بَيْنَنا وبينهم بحكم.

﴿فإنّها مُحَرَّمةٌ عليهم أربعين سنةً﴾ [المائدة: ٢٦]: قد قدمنا أنَّ الله حرَّم على بني إسرائيل الأرضَ المقدَّسة أربعين سنة، مدة عبادتهم العِجْل، حتى مات كلُّ مَنْ قال: إنا لَنْ نَدْخُلَها؛ ولم يدخلها أَحَد من ذلك الجيل إلا يوشع وكلاب، ومات هارون في التّيه، ومات موسى بعده في التِّيه أيضاً. وقيل إنَّ موسى وهارون لم يكونا في التّيه؛ لقوله: فافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين. وخرج يوشع ببني إسرائيل بعد الأربعين سنة، وقاتَلَ الجبَّارين، وفتح المدينةَ. والعامل في أربعين محرّمة ـ على الأصح؛ فيجب وَصْله معه. وقيل العامل فيه يتيهون؛ فعلى هذا يجوز الوقف على قوله: ﴿مُحرَّمة عليهم﴾. وهذا ضعيف؛ لأنه لا حامل على تقديم المعمول هنا، مع أنّ القولَ الأول أكملُ معنى؛ لأنه بيانٌ لمدة التحريم والتّيه معاً.

﴿فلا تَأْسَ على الْقَوْمِ الفاسِقِين﴾ [المائدة: ٢٦]؛ أي لا تَحْزَنْ على مَنْ فسق منهم يا محمد، لإنكارهم هذه القصص في كتابك، مع علمهم بها في كتُبهم. وقيل الخطاب لموسى.

﴿فكأنّما قَتَلَ الناسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢]: تمثيلُ قاتِلِ الواحدِ بقاتل الجمع يتصوَّر من ثلاث جهات: إحداها: القِصاص في قَتْل الواحد والجمع سواء.

والثاني: انتهاك الحرمة، والإقدام على العصيان. والثالث: الإثْمُ والعذاب الأُخْرَوِيّ.

قال مجاهد: إنّ الله وعد قاتل النفس بجهنّم والخلود فيها، والغضب واللعنة، والعذاب العظيم. فإن قَتَل جميع الناس لم يزِدْ على ذلك. وهذا الوجه هو الأظهر؛ لأنّ القصد بالآية تعظيم قَتْلِ النفس، والتشديد فيه؛ ليَزْدَجِر الناسُ عنه. وكذلك الثواب في إحيائها كثواب إحياء الجميع، لتعظيم الأمْرِ والترغيب فيه. وإحْياؤها هنا إنقاذها من الموت، كإنقاذ الغريق وشبهه. وقيل بترك قَتْلها. وقيل بالعفو إذا وجب القصاص.

﴿فمَنْ تاب مِنْ بَعْدِ ظُلْمِه﴾ [المائدة: ٣٩]: توبة السارق هي أن يندم على ما مضى، ويُقْلِعَ فيما يستقبل، ويردّ ما سرق إلى مَنْ يستحقّه.

واختلف إذا تاب قبل أن يصل إلى الحاكم، هل يسقط عنه القَطْعُ؟ وهو مذهبُ الشافعي لظاهرِ الآية، أو لا يسقط عنه؟ وهو مذهب مالك؛ لأن الحدودَ عنده لا تسقط بالتوبة، إلا المحارب؛ للنصّ عليه.

﴿فَتَرى الّذِين في قلوبهم مَرَض﴾ [المائدة: ٥٢]: هم المنافقون، كعبد الله ابن أُبَيّ بن سَلُول وأصحابه.

﴿فعسى اللهُ أن يأتِيَ بالفتح أوْ أَمْرٍ مِنْ عنده﴾ [المائدة: ٥٢]: لا يكون فيه تسبُّب لمخلوق. وقيل أَمْرٌ من الله لرسوله بقَتْل اليهود. والفَتْح: هو ظهور النبي ﷺ والمسلمين.

﴿فيُصْبِحُوا على ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادِمين﴾ [المائدة: ٥٢]: مِنْ قَصْدِهم الاستعانة باليهود على المسلمين، وإضمار العداوة للمسلمين.

﴿فسوف يَأتي اللهُ بقَوْمٍ يُحِبُّهم ويحبُّونه﴾ [المائدة: ٥٤]: قرأ ﷺ هذه الآية، وقال لهم: قوم هذا، يعني أبا موسى الأشعري. والإشارة بذلك ـ والله أعلم ـ إلى أهل اليمن، لأن الأشعريين من أهل اليمن. وقيل المراد أبو بكر الصدّيق وأصحابه الذين قاتلوا أَهْلَ الردّة. ويُقَوّي ذلك ما ظهر من أبي بكر

الصِّدّيق رضي الله عنه من الجد في قتالهم، والعَزْم عليه، حتى خالف في ذلك عزم الناس، فاشتد عزمُه، ووافقوه، وأجمعوا معه حتى نَصرهم الله على أهل الردّة. ويقوّي ذلك أيضاً أنَّ الصفات التي وُصف بها هؤلاء القوم هي في أوصاف أبي بكر؛ ألا ترى قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ على المؤمنين أعِزَّةٍ على الكافرين﴾ [المائدة: ٥٤]، وكان أبو بكر ضعيفاً في نفسه قوياً في الله؛ وكذلك قوله: ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافُون لَوْمَةَ لائم﴾ [المائدة: ٥٤]؛ إشارة إلى مَنْ خالف أبا بكر ولامَهُ في قتال أَهْلِ الردّة، ولم يرجع عن عَزْمه.

فإن قيل: أين الراجع من الجزاء إلى الشرط؟

والجواب أنه محذوف، تقديره: مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عن دِينه فسوف يأتي اللهُ بقومٍ.

﴿فَعَمُوا وصَمُّوا﴾ [المائدة: ٧١]: عبارة عن تماديهم على المخالفة والعِصيان.

﴿فاجْتَنِبوه﴾ [المائدة: ٩٠]: نصٌّ في التحريم. والضمير يعود على الرِّجْس الذي هو خبر عن جميع الأشياء المذكورة.

﴿فيقُول ماذَا أُجِبْتُم﴾ [المائدة: ١٠٩]؛ أي يقول الله للرسل يوم القيامة: ماذا أجابكم الأمم من إيمان وكُفر، وطاعة ومعصية. والمقصودُ بهذا السؤال توبيخُ مَنْ كفَر من الأمم، وإقامةُ الحجة عليهم. وانتصب ماذا بأجبتم بانتصاب مصدره. ولو أراد الجواب لقال: ماذا أجَبْتم؟

فإن قلت: يفهم من قوله تعالى: فيقول للمرسلين ماذا أُجبتم أنه يخاطبهم هناك، وكذا الخطاب منه سبحانه حيث وقع؛ كقوله لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ للناس﴾ [المائدة: ١١٦]؟ وقد قلتم إنَّ كلامه تعالى قديم ملازم لِلذَّاتِ القديمة، وقول الرسل: «لا عِلْمَ لَنَا» ما معناه؟ لأنهم علموا بمجاوبة قولهم وإنكارهم.

والجواب أنّ الله يسمعهم خطابه حينئذ، لا أنه يُحْدِثه؛ لأنه قديم قائم

بذات؛ وهكذا نداؤه سبحانه للرسل والأمم يومئذ، كقوله: ﴿ويَوْمَ يُنادِيهم فيقولُ ماذا أجَبْتُم الْمُرْسَلين﴾ [القصص: ٦٥]. والرّسلُ صلوات الله وسلامه عليهم لم يذهلوا عن جوابِ قومهم لهم في الدنيا؛ لأنهم آمِنون يومئذ؛ وإنما تأدَّبوا مع الله سبحانه لردّ العلم إليه سبحانه. قال ابنُ عباس رضي الله عنه: المعنى لا علم لنا إلا ما علّمتنا. وقيل معناه عِلْمُنا ساقطٌ في جَنْب علمك. ويقوّي هذا قولهم: ﴿إنَّكَ أَنْتَ عَلاَّم الغُيوب﴾ [المائدة: ١٠٩]؛ لأن من علم الخفيّات لم تَخْفَ عليه الظواهر. وسؤال الله لهم مع علمه توبيخٌ واحتجاجٌ على المخالفين.

وانظر الصحابة رضي الله عنهم كيف تأدَّبوا بهذا الْخُلُق العظيم في آخر حجَّةِ الوداع لما قال ﷺ: أيُّ يوم هذا؟ أي شهر هذا؟ أي مكان هذا؟ فأجابوا بقولهم: الله ورسوله أعلم، مع أنهم علموا الشهر واليوم والمكان؛ لكنهم تأدّبوا معه ﷺ، وتوهموا لعله أن يريد غير هذا.

﴿فمَنْ يَكْفُرْ بعدُ مِنْكم فإني أعذِّبُه عذاباً لا أُعذِّبُه أحداً مِنَ العَالَمين﴾ [المائدة: ١١٥] هذه عادةُ الله سبحانه في عقاب مَنْ طلب مِنَ الرسول آيةً فكفرها؛ وأصحابُ المائدة سألوها من عيسى، فقال الله: إني مُنَزِّلُها عليكم، فكفروا، فمسخهم الله قِردةً وخنازير. قال عبدالله بن عمر: أَشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة مَنْ كفَر مِنْ أصحاب المائدة، وآل فرعون، والمنافقون.

﴿فانظروا﴾ [آل عمران: ١٣٧]: أمَرَ الله رسولَه أن يأمر قريشاً بالسير في الأرض للاعتبار بمنازل الكفار الذين كانوا قبلهم.

فإن قلت: ما الفرق بين قوله: ﴿فانظروا﴾ [آل عمران: ١٣٧] و﴿ثم انظرُوا﴾ [الأنعام: ١١].

والجواب أنه جعل النظر مسبَّباً عن السير في قوله: فانظروا؛ فكأنه قال: سيروا لأجل النظر. وأما قوله: ﴿قُلْ سيروا في الأرض ثم انْظُروا﴾ [الأنعام: ١١] فمعناه إباحةُ السير للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في الهالكين.

﴿فإنّهم لا يكذّبونك﴾ [الأنعام: ٣٣]، بتشديد الذال بمعنى لا يكذبونك

معتقدين لكذبك، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به. ومن قرأه بالتخفيف قيل معناه لا يجحدونك كاذباً. يقال: أكذبْتُ فلاناً إذا وجدته كاذباً، كما يقال أَحْمدته إذا وجدته محموداً. وقيل هي بمعنى التشديد؛ يقال أكْذَب فلانٌ فلاناً، وكَذّبه بمعنى واحد. وهو الأظهر؛ لقوله بعد هذا: يجحدون.

ويؤيد هذا ما روي أنها نزلت في أبي جهل؛ فإنه قال لرسول الله ﷺ: إنا لا نكذِّبك، ولكن نكذب ما جئْتَ به، وإنه قال للأخنس بن شَرِيق: والله إن محمداً لصادق، ولكني أحسده على الشرف.

﴿فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهلين﴾ [الأنعام: ٣٥]؛ أي من الذين يجهلون أنّ الله لو شاء لجمعهم على الهدى. وقد قدمنا أن قول الله: فلا تكونَنَّ ـ بالتأكيد ـ لرسوله لإفراط محبته فيه، لأَن العادة أن يكون الاجتهاد على قدر المحبة، بخلاف قوله لنوح: ﴿إني أعِظُك أَن تكونَ من الجاهلين﴾ [هود: ٤٦] لأنه صَفِيّ، ولا يبلغ قَدْر المحب.

﴿فَرَّطْنَا﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ أي ضَيَّعنا وأغفلنا. والمراد بالكتاب في الآية اللَّوْحُ المحفوظ. والكلامُ على هذا عامّ. وقيل القرآن؛ ومعناه أن الله لم يفرط فيه من شيء؛ فيه هداية الْخَلق، والبيان لهم. وقد قدمنا أنّ جميعَ العلوم الدنيوية والدينية مستنبطةٌ منه.

﴿فلولا إذْ جَاءَهم بأسُنَا تَضرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣]: في هذه الآية عرض وتحضيض على التضرع، ومدح لهم في رجوعهم إلى الله، ودليل على أن من أخذه الله بذنوبه فلم يرجع إليه يقسو قلبه، كما ذكر في هؤلاء الكذابين.

﴿فلما نَسُوا ما ذكِّرُوا به﴾ [الأنعام: ٤٤]: أي من الشدائد، ولم يتّعظوا بها، فتح عليهم أبواب الرزق والنعم، ليشكروا عليها فلم يشكروا؛ فأخذهم اللهُ.

﴿فتَطْرُدَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٢]: هذا جواب النفي في قوله: ما عليك.

﴿فأَيُّ الفَرِيقين أحقُّ بالأَمْنِ﴾ [الأنعام: ٨١]: استفهم عن المؤمنين والكافرين لعلهم يجيبون؛ فأجاب عن السؤال بقوله: ﴿الذين آمَنُوا...﴾

[الأنعام: ٨٢] الآية. وقيل إن الذين آمنوا استئناف، وليس من كلام إبراهيم.

﴿ فإنْ يَكْفُرْ بها هؤلاء ﴾ [الأنعام: ٨٩]: أي أهل مكة.

﴿ فقد وَكَّلْنَا بها قوماً لَيْسُوا بها بِكافرين ﴾ [الأنعام: ٨٩]: هم الأنبياء المذكورون وقيل الصحابة. وقيل كلٌّ مؤمن. والأول أرجح لدلالة ما بعده على ذلك. ومعنى توكيلهم بها توفيقهم للإيمان بها، والقيام بحقوقها.

﴿ فبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ ﴾ [الأنعام: ٩٠]: استدل به مَنْ قال إنّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنا شرع لنا. وقد قدمنا أن الاختلاف إنما وقع في الفروع. والخلاف: هل يقتدي النبي ﷺ فيها بمن قبله أم لا؟ والهاء في ﴿ اقْتَدِهِ ﴾ للوقف؛ فينبغي الوقف عليها، وتسقط في الوصل؛ ولكن من أثبتها فيه راعَى ثبوتها في خط المصحف.

﴿ فأَخْرَجْنَا به ﴾ [الأنعام: ٩٩]: أي بالماء. ومنه: أي من النبات. وذكر الله الإخراج في كتابه في خمس آيات: إخراج القدرة، وهو الصبيان. ﴿ والله أخرجكم من بُطونِ أُمَّهَاتِكُم ﴾ [النحل: ٧٨]. وإخراج النعمة كهذه؛ وكقوله: ﴿ فأخرج به من الثمرات رِزْقاً لكم ﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿ فأَخرجنا به أزواجاً من نَبَاتٍ شتّى ﴾ [طه: ٥٣]؛ كالحبّ والعِنَب. وإخراج العقوبة: ﴿ فأَخرجَهُمَا مِمَّا كانَا فيه ﴾ [البقرة: ٣٦]. وإخراج الهيبة: ﴿ يخرجون من الأجداث سِرَاعاً ﴾ [المعارج: ٤٣]. وإخراج الكرامات: ﴿ يُخْرِجهم من الظُّلماتِ إلى النور ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ أي من الكفر إلى الإيمان، ومن النكرة إلى المعرفة.

فإن قلت: لم جمع الظلمات، وأفرد النور، وجمع السموات وأفرد الأرض حيث وقع في كلامه سبحانه؟

والجواب لما شَعَّب سبحانه الكُفْرَ على شعب كثيرة جمعه بهذا الاعتبار، والنُّور واحد أفرده وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وكما نشاهد السموات بعلامة الكواكب، والمنّة للهِ علينا فيها، لأن فيها منفعتنا ذكرهنّ بلفظ الجمع، بخلاف الأرض، لأنّا لا نشاهد غير الأرض التي نحن

عليها، ولا منفعة لنا في غيرها، ولو كانت لنا فيها منفعةٌ فالسموات أعظم لخدمتهن، والاستدلال بكواكبهن، وخدمة أهلهن لنا كما قدمنا.

﴿فاعْبُدوه﴾ [الأنعام: ١٠٢]: مسبَّبٌ عن مضمون الجملة، أي من كان هكذا فهو المستحقُّ للعبادة وحده.

﴿فكلُوا مما ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه﴾ [الأنعام: ١١٨]: أباحت هذه الآية أَكْلَ ما ذُكر اسمُ الله عليه، والنهي عما ذبح للنُّصُب وغيرها، وعن الْمَيْتَة. وهذا النهي يقتضيه دليل الخطاب من الأمر، ثم صرح به في قوله: ﴿ولا تَأْكُلُوا مِمَّا لم يُذْكَرِ اسْمُ الله عليه﴾ [الأنعام: ١٢١]. وقد استدلّ بذلك مَنْ أوجب التسميةَ على الذبيحة، وإنما جاء الكلام في سياق تحريم الْمَيْتَة وغيرها، فإنْ حملناه على ذلك لم يكن فيه دليل على ذلك. وقال عطاء: هذه الآية أَمْرٌ بذكر الله على الذبح والأَكل والشرب.

﴿فما كانَ لِشُرَكَائِهم فلا يَصِلُ إلى الله...﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآية: كانوا إذا هبّت الريح فحملت شيئاً من الذي لله إلى الذي للأصنام أَقَرُّوه، وإذا حملت شيئاً من الذي للأصنام إلى الذي لله ردُّوه، وإذا أصابتهم سَنَةٌ أَكلوا الذي لله وتحامَوْا نصيب شُرَكائِهم، وهذا من جَهْلهم. ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿ساء ما يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ البالغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]: لما أبطل حجّتهم أَثبت حجة الله، ليظهر الحقّ، ويبطل الباطل.

﴿فإنْ شَهِدُوا فلا تَشْهَد مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، لأنهم يكذبون في شهادتهم، ونسبتهم لله ما لا يليق به، فكيف تشهد يا محمد وأَنتَ على الحق؟

﴿فَالق الحبِّ والنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]: أي يفرق الحبّ تحت الأرض، والحنطة لخروج النبات منها، ويفلق النوى لخروج الشجر منها. وقيل أراد الشق الذي في النواة والحنطة. والأول أرجح لعمومه في أصناف الحبوب.

﴿فالق الإصْبَاح﴾ [الأنعام: ٩٦]: أي الصبح؛ فهو مصدر سمِّي به

الصبح. ومعنى فَلقه إخراجه من الظلمة. وقيل: إن الظلمة التي تنفلق عن الصبح، فالتقدير فالق ظُلْمةِ الإصباح.

﴿فتَفَرَّقَ بكُمْ عن سَبِيله﴾ [الأنعام: ١٥٣]: أي تفرقكم عن سبيل الله. والفعل مستقبل، حُذفت منه المضارعة، ولذلك شدَّده.

﴿فرَّقُوا دِينَهم وكانُوا شِيَعاً﴾ [الأنعام: ١٥٩]: جمع مَنْ فرق دينه من اليهود والنصارى وأهل البِدَع. وقرىء: فَارَقُوا، أي تركوا. وفي الحديث: افترقت اليهود على إحدى وسبعين فِرْقة، والنَّصارى على اثنَتَين وسبعين، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلُّها في النار إلا واحدة. قيل: ما هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي. ولولا الإطالة لذكرت فرق هذه الأمة ومذاهبها. وقد تكفّل بذكرها أئمتنا للاحتراز منهم، جزاهم الله عن هذه الأمة خيراً.

﴿فجاءَهَا بأْسُنَا بَيَاتاً﴾ [الأعراف: ٤]: لا يصح عطْفُ هذه الآية بالفاء، لأن مجيء البأس قبل الإهلاك. ويحتمل أن يكون استئنافاً على وجه التفسير للإهلاك، فلا يحتاج إلى تكلُّف. والمراد أهلكنا أَهلها، فجاءهم، ثم حذف المضاف بدليل: ﴿أوْ هُم قَائلون﴾ [الأعراف: ٤]، من القائلة بالنهار. وقد أصاب العذابُ بعضَ الكفار المتقدمين بالليل، وبعضهم بالنهار؛ و﴿أو﴾ هنا للتنويع.

﴿فما كان دَعْوَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٥]: أي ما كان دعاؤهم واستعانتهم إلا الاعتراف بأَنهم ظالمون. وقيل: المعنى أن دَعْوَاهم هنا ما كانوا يدعونه من دينهم، فاعترفوا لما جاءهم العذاب بأنهم كانوا ظالمين في ذلك.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧]: أي على الرسل والأمم.

﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦]: الفاء للتعليل، وهو متعلّق بفعل قسم محذوف، تقديره أُقسم بالله بسبب إغوائك، لأغويَنَّ بني آدم. وما مصدرية. وقيل استفهامية؛ ويبطله ثبوت ﴿فَبِما﴾ مع حرف الجر. وفي الحديث أنه قال:

« لا أزال أُغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم ». فقال الله: « وعِزَّتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني، وأنا الغفور الرحيم ».

﴿ فَعَلُوا فاحِشةً ﴾ [الأعراف: ٢٨]: هي ما كانت العرب تفعله من الطواف بالبيت عرايا: الرجال، والنساء. ويحتمل عموم الفواحش.

﴿ فمن أظلَم ممَّن افترى على الله كذباً ﴾ [الأنعام: ١٤٤]: هذه الآية بالفاء، وفي الثانية من الأنعام [الآية ٢١، ٩٣] وفي يونس [الآية: ١٧] لما فيها من المناسبة اللفظية؛ لأنه افتتح آية الأنعام بقوله: ﴿ وأُوحِيَ إليّ هذا القرآنُ لأُنْذِرَكم به ومَنْ بَلغ ﴾ [الأنعام: ١٩]، ثم قال: ﴿ ومَنْ أَظْلَم ﴾ [الأنعام: ٢١]. وختم الآية بقوله: ﴿ إنه لا يُفلح الظالمون ﴾. ليكون آخر الآية لفظ أول الآية، وتتبُّع هذه الآية يطول ذكرها، فقِسْ ما ذكرتُه على ما لم نذكره.

﴿ فَمَا كانَ لكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْل ﴾ [الأعراف: ٣٩]: هذا من قول أُولاهم - وهم الرؤساءُ والقادة، لأُخْراهُمْ - وهم الأتباع والسفلَةُ: لم يكن لكم علينا من فَضْل في الإيمان والتقوى يُوجب أن يكون عذابنا أشدَّ من عذابكم؛ بل نحن وأنتم متساوون.

﴿ فذوقُوا العذابَ بما كنتم تَكسِبُون ﴾ [الأعراف: ٣٩]: هذا يحتمل أن يكون من قولهم أيضاً، أو من قول الله لهم.

﴿ فصَبْرٌ جَمِيل ﴾ [يوسف: ١٨]: هذا وعْدٌ من يعقوب بالصبر؛ وارتفاعُه على أنه مبتدأ تقديره صَبْر جميل أَمْثَل، أو خبر مبتدأ تقديره شأني صبر جميل. روي أن يعقوب عليه السلام لما طال بكاؤه، واشتد حزنه، نهاه الله عن ذكر يوسف، ثم أمر جبريل عليه السلام أن يتصوّر بصورة يوسف، فلما بصر به يعقوب تأوّه، فأوحى الله إليه: قد علمتُ ما تحت أنينك، لو كان ميتاً لنشرته لحسن وفائك. فقال: يا جبريل، ما أعلمني بحياته؟ فأحبّ أن أشمّ ريحه. فقال له: الآن بعد ما شكوته ودعوته بلسان الضرورة سأوصل إليك يوسف.

وكذلك أنت يا مؤمن وعدَكَ ربُّك بالإجابة عند الاضطرار، وبغُفران

الذنوب عند الاستغفار، فقال: ﴿استغفروا رَبّكم إنه كان غَفّاراً﴾ [نوح: ١٠].

﴿فَتَاها﴾ [يوسف: ٣٠] أي عَبْدها. ويقال بمعنى الشاب؛ والعرب تسمي المملوك شاباً كان أو شيخاً فَتًى. فتأمل هذه الإضافة.

وفي قوله: ﴿وراوَدَتْه التي هُوَ في بَيْتِها﴾ [يوسف: ٢٣]: يوضّح لك أنكَ في بيته وتحت يده، فإذا اجتنبت الكبائر وما أشبهها يعفو عنك الصغيرة؛ لأنك في بيته؛ قال تعالى: ﴿إنْ تجتنبوا كبائِرَ ما تُنْهَوْن عنه﴾ [النساء: ٣١]. كما عفا عن يوسف للنظر إليها والمخاطبة لاجتنابه الدنوَّ إليها؛ لأنه كان في بيتها.

﴿فقد سرق أَخٌ لَهُ من قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]: هذا من كلام إِخْوَة يوسف، ومرادُهم أنّ هذا الأمر صدرَ مِنْ ابنٍ لأمّ لا مِنّا؛ وقصدوا بذلك رفع الْمَعَرَّة عن أنفسهم ورَمَوْا بها يوسف وشقيقه. واختلف في السرقة التي رموا بها يوسف على ثلاثة أقوال:

الأول: أن عمّته ربَّتْه فأراد والده أن يأخذه منها، وكانت تحبُّه ولا تصبر عنه، فجعلت عليه مِنْطقةً لها، ثم قالت: إنه أخذها منها، فاستعبدته بذلك، وبقي عندها إلى أن ماتت.

والثاني: أنه أخذ صنماً لجدّه والدِ أُمه فكسره.

والثالث: أنه كان يأخذ الطعام من دَارِ أبيه ويُعطيه للمساكين.

﴿فأَسَرَّها يوسفُ في نَفْسه ولم يُبْدِها لهم﴾ [يوسف: ٧٧]: الضمير للجملة التي بعد ذلك وهي قوله: ﴿أنتم شَرٌّ مكَانا﴾ [يوسف: ٧٧].

﴿فتحسَّسُوا مِنْ يوسفَ وأخيه﴾ [يوسف: ٨٧]؛ أي تعرّفوا خبرهما. والتحسس طلب الشيء بالحواس الأربعة: السَّمْع، والبَصَر، والشَّم، والذَّوْق. وإنما لم يذكر الولد الثالث؛ لأنه بقي هناك اختياراً منه؛ لأن يوسف وأَخاه كانا أحبَّ إليه لصغرهما.

فإن قلت: أليست الحواسّ خمسة؟

قلت: الذي مشى عليه الفخر في تفسير قوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم﴾ [النور: ٢٤] ـ أن الحواسّ أربعة، فجعل الذوق واللمس واحداً، أَلا ترى أن الشم لا تكليف فيه البتة، ولا يتعلق به أمر ولا نهي؛ ولما كان الاسم الشريف من أربعة أحرف دلّ على أن الحواس أربعة؛ فالألف للسمع، والحاء للبصر، والميم للشم، والدال للذوق.

ووقع للفخر في سورة الحمد مناسبة اسمه ﷺ أحمد ومحمد من الحمد؛ لأنه أول ما خلق الله العقل، فكان أول ما نطق به الحمْد، وآخر ما نطق به الحمد، وكان آخر الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام؛ فناسب الاسم أن يكون من نوع المبدأ، فاشتق له من الحمد اسمان: محمد وأحمد، فأهل السماء هو أحمدهم، وأهل الأرض هو مَحْمُودهم.

﴿فلما دخلوا على يوسفَ﴾ [يوسف: ٩٩]: هنا محذوفات يدلّ عليها الكلام، وهي: فلما رحل يعقوب بأهله حين بلغه خبر يوسف ـ آوى إليه أبويه؛ أي ضَمَّهما وتعانقا؛ ورأى يعقوب أناساً كثيراً، فقال: يا يوسف، مَنْ هؤلاء؟ قال: يا أَبت، إن هؤلاء كلهم عَبيدي، وقد أعتقتهم كلّهم لرؤيتك.

فكذلكم أنتم يا أمةَ محمد؛ يقول الله عز وجل: يا محمد، يوسف أعتق عبيده برؤية أبيه، وإني أعتق برؤيتك جميعَ عصاةِ أُمَّتك.

﴿فأُولئك الذين كفَرُوا بِربِّهم وأُولئكَ الأَغلالُ في أعناقهم﴾ [الرعد: ٥]: هذه على القراءة بالعطف بالفاء المقتَضِية للتسبيب والتعقيب، ولا يصح العطف بالفاء؛ لأنَّ السبب على ثلاثة أنواع: ظاهر، وخفي، ومتوسط. وإنما يحتاج إلى الفاء في المتوسط والخفي، وأما هنا فظاهر كونه سبباً فيما بعده، فلا يحتاج في عطفه إلى ما يبيّن كونه سبباً.

والآية عند بعض العلماء من باب القَلْب. والأصل فيها: وأولئك في أعناقهم الأغلال؛ لأن الأغلال محيطة بأعناقهم كإحاطة الظرف بالمظروف، وأعناقهم هي

المظروف. وقد قالوا: إن القلب لا يجوزُ إلا في الضرائر أو فيما قلّ من الكلام، وقد جعلوا منه: ﴿ما إنَّ مَفاتِحَه لتَنُوءُ بالعُصْبَة أولي القوة﴾ [القصص: ٧٦].

وفي الآية دليل على أنّ منكِرَ البعث كافر، واشتملت على اللفظ العام والإبهام، ثم التفسير؛ لأن قوله: وأولئك الأغلالُ في أعناقهم ـ تفسير للعذاب النازل بهم. وهذا من باب ذكر المسبب عقب السبب؛ لأنّ الكفر سبب في غلّ الأعناق.

فإن قلت: هل هذا على التوزيع، أو كلّ واحد في عنقه أغلال؟

فالجواب أن آية الحاقّة [٣٠] تدل على التوزيع لكلّ واحد غلّ واحد؛ أو تكون الأغلال في رؤوسهم، وهو يقوم مقامَ سلاسل متعددة في عنق كلّ واحد من سائرهم، حتى لا يظهر منه شيء. وقيل: إن هذا مجاز فيكونون في الدنيا ممنوعين من الإيمان، كقوله تعالى: ﴿إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأَذْقَانِ فهم مُقْمَحُون﴾ [يس: ٨].

والإشارة بأولئك وتكرارها للذين قالوا: ﴿أإذا كُنَّا ترابا﴾ [الرعد: ٥].

﴿فَاخْرُجْ مِنها﴾ [الحجر: ٣٤]: الضمير يعود على الجنة، وإن لم يَجْرِ لها ذكر، أو من السماء، كما قال في آية الأعراف: ﴿فاهْبِطْ منها﴾ [الأعراف: ١٣].

ويحتمل أن يعود الضمير على جُمْلة الملائكة، وعلى هذا فيكون إبليس من الملائكة، وهو الظاهر من القرآن، ومِنْ كثير من الأحاديث؛ وانتقده ابن عطية بأن الملائكة معصومون؛ قاله الأصوليون. وحكى الطبري عن ابن عباس أن الله خلق ملائكةً فأمرهم بالسجود لآدم، فأبوا فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم. ورُدّ بثبوت العصمة للملائكة.

﴿فبما أغويتني﴾ [الأعراف: ١٦، الحجر: ٣٩]: قد قدمنا مراراً أنّ الإغواء هو الحَمْل على الوقوع في المعاصي، فلا يقدر على إغواء المخلصين

بوَجْه، لكن يزيِّن لهم فقط؛ لأن التزيين هو تحسين القبائح، فالإغواءُ يستلزم الفعل، والتزيين لا يستلزمه.

فإن قلت: ما الفرق بين قسمه في الأعراف بالإغواء. وفي ص: قال: ﴿فبعزَّتِكَ لأُغْوِيَنّهم﴾ [ص: ٨٢]؟.

فالجواب أنه أقسم بالأول في الفعل، وفي الثاني بالصفة. قال بعضهم: فعادَتُهم يقولون: هذا مناقِضٌ لأصل الزمخشري؛ لأنه ينفي الصفات جملة، يقول: إن الله سميع لا يسمع، بصير لا يبصر، عليم لا يعلم، مريد لا بإرادة، قادر لا بقدرة؛ بل سميع لذاته، بصير لذاته، عالم لذاته.

﴿فسجَد الملائكةُ كلّهم أجمعون﴾ [الحجر: ٣٠]: هذا تأكيد بعد تأكيد، يتضمّن الآخر ما تضمَّن الأَول. وقال غيره: لو وقف على كلهم لصلحت للاستثناء وصلحت على معنى المبالغة، مع أن يكون البعض لم يسْجد، وهذا كما يقول القائل: كلّ الناس يعرف هذا، وهذا يزيد لأن المذكور أَمر مشتهر، فلما قال أجمعون رفع الاحتمال بأن بعضهم لم يسجد، واقتضى الكلام أن جميعهم سجد.

وقال المبرد: لو وقف على (كلّهم) لاحتمل أن يكون سجودهم في مواطن كثيرة، فلما قال أجمعون دل على أنهم سجدوا في موطن واحد.

قال ابن عطية: واعترض على قول المبرد بأنه جعل قوله أجمعون حالاً بمعنى مجتمعين، ويلزمه على هذا أن يكون أجمعين، هذا على أن يقرب من التنكير؛ إذ هو معرفة لكونه يلزم اتباع المعارف، والقراءة بالرفع تَأبَى قوله.

فإن قلت: ما فائدة إتيانه في الحِجر وفي ص بهذا اللفظ دون غيرهما.

فالجواب أنه لما بالغ في السورتين في الأَمْر بالسُّجُود ـ وهو قوله: ﴿فقَعُوا له ساجدين﴾ في السورتين بالغ في الامتثال فيهما فقيل: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ [ص: ٧٣، الحجر: ٣٠]؛ لتقع التوفقة بين أُوْلاها وأخْراهَا.

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُون﴾ [الحجر: ٥٤]: هذا من قول إبراهيم عليه السلام على وَجْه التعجب مِنْ ولادته في كبره، أو على وَجْه الاستبعاد لذلك، حسبما قدمناه. وقرىء بتشديد النون وكسرها على إدغام نون الجمع في نون الوقاية؛ وبالكسر والتخفيف على حذف أحد النونين، وبالفتح ـ وهو نون الجمع.

﴿فاسْأَلُوا أَهْلَ الذّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]: يعني أحبارَ اليهود والنصارى؛ لأن جميعهم يشهدون أن الرسل من البشر.

ويؤخذ من هذه الآية وجوبُ سؤال الجاهل عما يحتاج إليه في أَمْرِ دينه، ولا يُعْذَر بجهله. وفيها دليل على أن خَبر التواتر يفيد العلم؛ لأن المعنى: فاسألُوا أَهْلَ الذِّكْرِ لتعلموا إن كنتم لا تعلمون؛ فهو سؤال عمّا لم يعلم ليعْلَم. فإن كان المسؤولون بالغين عددَ التواتر فهو خَبَر تواتر، وإلا فهو خبر واحد محصِّلٌ للعلم في الوجهين.

﴿فالذين لا يُؤْمِنُون بالآخرة قلـوبُهـم مُنْكِـرة﴾ [النحـل: ٢٢]: الفـاء للتسبيب، وليس هو من باب ذكر اللازم، وإنما هو من باب ذكر الشيء عقيب نقيضه؛ لأن لازم كونه إلهاً واحداً التصديقُ لا الإنكار والكفر.

﴿فخَرَّ عليهمُ السقْفُ مِنْ فَوْقِهم﴾ [النحل: ٢٦]: هذا كقوله لهم: ﴿مِنْ تحتهم غَوَاشٍ، ومن فوقهم غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]. وهل السقف إلا فوقهم. وقد قدمنا سِرَّ التعبير من فوقهم فيما نقلناه عن ابن عطية.

﴿فادْخُلُوا أبوابَ جهنَّم﴾ [النحل: ٢٩]: حال مقدرة. وجهنّم الطبقة الأولى من النار.

فإن قلت: كيف قال هنا: ادخلوا أَبْوَابَ جهنم، مع أنها مأوى العُصَاة من هذه الأمَّة؟

والجواب أنَّ دخولهم فيها ليس على جهة الاستقرار؛ وإنما هو على جهة الدخول لما تحتها؛ لأن النصارى قيل في الثانية، واليهود في الثالثة.

ورُدَّ هذا بأنَّ الرسل مهما كثرت كانت عقوبة مكذبيها أشدّ، وقوم موسى كفروا بموسى فقط، والنصارى كَفَرُوا بعيسى وهو بعد موسى فعذابُهم أشد؛ لأنه سبقه من الأنبياء كثيرون دَعَوْا إلى مثل ما دعا هو قومه.

﴿فتَمتَّعُوا﴾ [النحل: ٥٥]: أي في الدنيا. وهذا على وجه التهديد لمن عقل.

﴿فهو وَلِيُّهم اليوم﴾ [النحل: ٦٣]: فسره الزمخشري بوجوه: منها أنّ الضمير راجعٌ لكفار قريش، وأنه زَيّن لآبائهم أعمالهم فهو وليّ هؤلاء؛ لأنهم منهم؛ فعلى هذا يكون الألف واللام في اليوم لتعريف الحضور، وعلى الوجوه الأُخر التي ذَكَر هو وغيره تكون إما لتعريف الماهية، أو لتعريف العهد.

﴿فأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ﴾ [النحل: ٦٥]: الفاء للتعقيب، وخصوصاً في مكة؛ لحرارة أَرْضها كما قدمنا أنها تصبح أرضها خضراء بصبّ المطر أول الليل.

﴿فَرْثٍ ودَمٍ﴾ [النحل: ٦٦]: قد قدمنا فيما نقلناه عن الزمخشري أنّ الفرث ما في الكرش من القذر؛ وهذا من عجيب القُدرة أن اللبن متوسط بين الفَرْث والدم، ولا يغيِّران له لوناً ولا طعماً ولا رائحة. قال أبو حيان: من بين فَرْث ودم حال من ضمير نسقيكم؛ أي خارجاً من بين فَرْث ودم. وقيل متعلق بنسقيكم المقدر؛ إذ لا يتعلق مجروران بفعل واحد. ويجوز هنا لاختلاف معناهما؛ لأن من الأولى للتبعيض، والثانية لابتداء الغاية.

﴿فَضَّلَ بَعْضَكم على بعضٍ في الرِّزْق فما الذين فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقهم على ما مَلَكَتْ أَيمانُهم فهم فيه سواءٌ أَفبِنعمةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]: في هذه الآية دلالة على الوحدانية، كأنَّ الله يقول: أنتم لا تسوُّون بين أنفسكم وبين عبيدكم، ولا تجعلونهم شركاء لكم، فكيف تجعلون عبيدي شركاء لي؟ والآخر أنها عتاب وذمٌّ لمن لا يحسن إلى مملوكه حتى يرد ما رزقه الله عليه، كما جاء في الحديث: «أَطعموهم مما تأكلون، وأَلبسوهم مما تلبسون». وفيها دليل على صحة

إطلاق لفظ البعض على النصف وعلى أكثر منه؛ لأن الفاضل أكثر رزقاً من المفضول. وحكي الخلاف في البعض: هل يطلق على النصف أم لا؟

فإن قلت: التفاوتُ إنما هو في الرزق التكميلي الزائد على ما يُقيم الرَّمَق ويستر البدن. وأما الحاجِيّ فهم فيه مع المماليك مستوون؛ فهلا قيل: فما الذين فُضّلوا برادّي فَضْل رِزْقهم، كما قال: ﴿والله فَضّل بعضَكم على بعض في الرزق﴾ [النحل: ٧١]؟.

والجواب: لو قيل: فما الذين فضلوا برادّي فَضْل رزقهم لكان فيه غثاثةٌ لتكرار لفظ الفضل ثلاث مرات؛ وهذا يقال له في علم البيان الاستخدام؛ وهو أَن يعبَّر باللفظ عن غيره خوْفَ السآمة والملَل. وأيضاً فضل الرزق أخصّ من الرزق؛ فاستعمل الأخص في الثبوت، والأعم في النفي؛ لأن نفي الأعمّ يستلزم نَفْي الأخص.

فإن قلت: لفظ الردّ يقتضي سابقية: الملك والحوز؛ والمماليك لم يكن لهم ذلك بوجْه؛ فهلا قيل: فما الذين فضِّلوا بمُعْطين رزقهم لما ملكت أيمانهم؟ وهذا نحو ما أوردوا في قوله تعالى: ﴿أو لتعودُنَّ في مِلَّتِنا﴾ [الأعراف: ٨٨]؟.

والجواب: أنه إشارةٌ إلى تأكيدِ النفي، وأن هذا امتنعوا من إعطائه للمماليك يمكن إن كان يكون للمماليك بدلاً عنهم، فكانوا قابلين لأَن يملكوه؛ لأن الذي أعطاه لسادتهم كان قادراً على إعطائه لهم دون ساداتهم بناء على أَنَّ من ملك أن يملك يعدّ مالكاً، وإن فسرنا الرزق بما منعه السادات مماليكَهم في قوله: ﴿فما الذين فُضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أَيمانُهم﴾ فتكون النعمةُ في قوله: ﴿أَفَبِنعْمَةَ الله﴾ ـ الرزق. وإن جعلناه تمثيلاً؛ أي كما أَنِفُوا أن يشارِكَهم أَحَدٌ في رزقهم كذلك ينبغي ألاَّ يجعلوا مع الله شريكاً؛ فيكون المعنى أَفبالدَّلائل الدالة على وحدانية الله يجحدون.

وانظر إذا ردُّوا كلَّ رزقهم عليهم لا يكونون فيه سواء، وإنما يستوون معهم بردّهم عليهم نصفَ فَضْل رزقهم؛ فإما أن يكونَ على حذف مضاف، أو يكون

الرزق مضافاً إلى ضمير ما ملكت أيمانهم، ويكون الذين فَضَّلُوا به مملوكهم هو رزق مملوكهم الذي يساوِيهم به في نفس الأمر.

﴿فلا تَضْرِبُوا لله الأَمْثَال﴾ [النحل: ٧٤]: الضمير يعود على مَنْ عبد غير الله وأشركوهم في العبادة، مع أنهم لا يملكون شيئاً، فنبّههم سبحانه بهذه الأمثال والمواعظ ليتنبّهوا ويرجعوا، لكن من المصيبة خطاب غير العاقل، والعاقل تكفيه الإشارة، ولا يستغرب هذا في حقهم؛ لأنا مثلهم في عدم الفهم والإدراك.

﴿فهو يُنْفِقُ منه سِرًّا وجَهْراً هل يستوون. الحمد لله بل أكثرهم لا يَعْلَمُون﴾ [النحل: ٧٥]: إما أن المراد به الكفار باعتبار من سُيؤْمِنُ منهم وهم أقلّهم، فأقلهم يعلمون؛ وإما أن يراد به الأصنام، وعبّر بالأكثر عن الكل؛ وهو بعيد. ويحتمل أن يكون الحمد لله من كلام الله تعالى؛ أثنى على نفسه بنفسه، أو أمْراً للنبي ﷺ خاصاً به، أو عامًّا له ولأُمته: قولوا الحمد لله على ما أنعم علينا؛ بأَنْ هدانا ووفّقنا.

وفي قوله: ﴿يَسْتَوُون﴾ دليل لمن يقول: إنَّ أقلَّ الجمع اثنان كما قدمنا.

ونَفْيُ المساواة يقع في القرآن على وجهين: تارة مطلقاً كهذه الآية، وكقوله: ﴿هل يَسْتَوِي الذين يَعْلَمون والذين لا يَعْلمون﴾ [الزمر: ٩]، وتارة مع تعيّن الأرجح؛ كقوله: ﴿لا يستوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنةِ أصحابُ الجنة هم الفائِزون﴾ [الحشر: ٢٠]. وكقوله: ﴿لا يَسْتَوِي منكم مَن أَنْفَق مِن قَبلِ الفَتْح...﴾ [الحديد: ١٠] الآية. وإنما لم يعين هنا الأفضل لظهوره قبل، وكذلك كلّ أحد يعلم أنَّ أصحاب الجنة هم الفائزون. وذلك أنَّ أصحاب النار يدخل فيهم العُصاة من المؤمنين والكفار، فهل قصد تفضيل أصحاب الجنة بالإطلاق على أصحاب النار بالإطلاق، أو على الكفار؟ فلما أُعيد ذكر الأفضل علم أنَّ المراد بأصحاب النار أصحابها حقيقة، وهو من حُكِمَ عليه بالخلود فيها.

فإن قلت: الآية خرجت مخرج المدح لفاعل ذلك، فَهَلاَّ ذكر فيها صدقةَ السرّ فقط؛ لأنها أفضل؟

والجواب: أنه قصد التنويه على كثرة إنفاقه ومبادرته إلى أفعال البِرّ كيفما أمكنه، وبدأ بالسر؛ لأنه أفضل.

﴿فكفَرَتْ بأَنْعُمِ الله﴾ [النحل: ١١٢]: الضمير للقرية المذكورة في المثل. واختلف فيها؛ فقيل مكة، لأنها كفرت بنبوءة محمد ﷺ، فأصابهم الجَدْب والخوف من غَزْو النبي ﷺ إليهم. وقيل: إنما قصد قريةً غير معينة أصابها ذلك، فضرب الله بها مثلاً؛ وهذا أظهر؛ لأن المراد وعظُ أهلِ مكة بما جرى لغيرهم؛ والضمير في قوله: ﴿فأذاقَها اللهُ لِبَاسَ الجوع والخَوْف﴾ [النحل: ١١٢] لأهل القرية: فاعل قوله: بما كانوا يصنعون. والإذاقة واللباس هنا مستعاران، أمّا الإذاقة فقد كثُرَ استعمالها في البلايا حتى صارت كالحقيقة. وأما اللباس فاستعير للجوع والخوْف لاشتمالها على اللّابس ومباشرتها له كمباشرة الثوب.

﴿فحقَّ عليها القَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦]؛ أي القضاء الذي قضاه الله. والضمير يعود على القرية التي أمر مُتْرَفيها ففسقوا فيها؛ أي قضينا عليه بالفِسْقِ، وعلى قراءة مدّ الهمزة من ﴿آمرنا﴾ فهو بمعنى كثّرنا. وقراءة أمّرنا ـ بتشديد الميم فهو من الإمارة؛ أي جعلهم أمراء ففسقوا.

﴿فَضَّلْنَا بعْضَهم على بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٢١]: أي في رزق الدنيا؛ ليتخذ بعضُهم بعضاً سُخْرياً.

﴿فَاسأَلْ بَني إسرائيل إذْ جاءَهُم﴾ [الإسراء: ١٠١]: هذه الآية خطابٌ لنبينا ومولانا محمد ﷺ، ومعناها سلِ الْمُعاصرين لكَ من بني إسرائيل عما ذكرنا من قصة موسى، لتزدادَ بذلك يقينا. وقال الزمخشري: المعنى قلنا لموسى: سَلْ بني إسرائيل من فرعون؛ أي اطْلُب منه أنْ يرسلهم معك؛ فهو كقوله: أرسل معي بني إسرائيل. أو سلهم أن يعضدوك ويكونوا معك. وهذا أيضاً على أن يكون الخطاب لموسى. والأول أظهر.

والعامل في إذْ على هذا القول الأول آتينا موسى، أو فعل مضمر. والعامل فيه على قول الزمخشري القول المحذوف.

﴿فَجْوَة﴾ [الكهف: ١٧]: متسع. ويقال معناه أي موضع تصيبه الشمس.

﴿فمَنْ شاءَ فلْيُؤْمِنْ ومَنْ شاء فلْيَكْفُر﴾ [الكهف: ٢٩]: لفظه أَمْر وتخيير. معناه أن الحق قد ظهر، فيختار كلٌّ إنسان لنفسه إما الحقّ الذي ينجّيه، وإما الباطل الذي يُرْديه، ففي ضمن ذلك تهديد.

﴿فاختلط به نَبَاتُ الأَرْض﴾ [الكهف: ٤٥]: الباء سببية. والمعنى صار به النباتُ مختلطاً، أي ملتفّاً بعضه ببعض من شدّة تكاثفه.

﴿فأصبح هَشِيماً﴾ [الكهف: ٤٥]؛ أي متفتتاً، وأصبح بمعنى صار.

﴿فلَنْ يَهْتَدُوا إذاً أبداً﴾ [الكهف: ٥٧]: يريد به من قضى أنه يؤمن

﴿فأرَدْتُ أن أَعِيبَها﴾ [الكهف: ٧٩]: الضمير للسفينة. وهذا مؤخّر في المعنى عن ذكر غَصْبها؛ لأن خوف الغصب سبب في أنه عابها. وإنما قُدّم للعناية به، وأسند الإرادة هنا لنفسه؛ لأنها لفظ عيب فتأدّب بألّا يسندها إلى الله؛ وذلك كقول إبراهيم: ﴿وإذا مرضْتُ فهو يَشْفِين﴾ [الشعراء: ٨٠]. فأسند المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله، تأدُّبا.

واختلف في قوله: ﴿فأَرَدْنَا أن يُبْدِلَهُما رَبُّهما﴾ [الكهف: ٨١]: هل هو مسند إلى ضمير الخضر أو إلى الله. وقوله: ﴿فأراد رَبُّك﴾ [الكهف: ٨٢] أسندها إلى الله في هذه لأنها أمر مغيب مستأنف لا يعلمُ ما يكونُ منه إلا الله.

وقال بعض الصوفية: لما قال: فأردتُ، فأردنَا ـ تعرّضَ له جبريل، فقال: مَنْ أنْتَ وما فعلك؟ فأسنده في الثالثة إلى فاعل الأمور الذي بيده مقاليدها.

﴿فأَتْبعَ سَبباً﴾ [الكهف: ٨٥]؛ أي طريقاً يوصله.

﴿فلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ [الكهف: ٨٨]؛ أي من تمادَى على الكفر قتله، وهو معنى قوله: ﴿فسوف نُعَذِّبُه﴾ [الكهف: ٨٧]. ومَنْ أسلم أحسن إليه.

﴿فما اسْطَاعُوا﴾ [الكهف: ٩٧]: أَصلُه استطاعوا، وحذفت التاء في هذا تخفيفاً.

﴿فأَوْحى إليهم﴾ [مريم: ١١]: أي أشار. وقيل: كتب في التراب؛ إذ كان لا يقدر على الكلام، مع أنه سليم من الخرس؛ وإنما جعل الله له ذلك علامةً على حَمْل امرأته.

﴿فحمَلَتْهُ﴾ [مريم: ٢٢]: يعني في بطنها.

﴿فأَجَاءَهَا﴾ [مريم: ٢٣] معناه ألجأها، وهو منقول من جاء بهمزة التعدية.

﴿فإمّا تَرَيِنَّ﴾ [مريم: ٢٦]: هي إن الشرطية دخلت عليها ما الزائدة للتأكيد. وترين فعل خوطبت به مريم، دخلَتْ عليه النون الثقيلة للتأكيد.

﴿فأَتَتْ به قَوْمَها تَحْمِلُه﴾ [مريم: ٢٧]: لما رأت الآياتِ علمت أن الله سيبيِّنُ عذرها؛ قالوا لها: ﴿يا مريم لقد جئْتِ شيئاً فَرِيّا﴾ [مريم: ٢٧]. من الفرْية، وهي الشنعة.

﴿فأشارَتْ إليه﴾ [مريم: ٢٩]؛ أي إلى ولدها ليتكلّم، وصمتت هي كما أُمِرت. فتولّى الله تبرئتها؛ كذلك يعقوب بلغ به البلاء حتى ضاق به الأمر، فأظهر الله له الفرج ببشارة القميص. وكذلك موسى وعيسى، وكذلك عائشة لما ضاق بها الأمر حتى تركت العلائق، ورفعت قَلْبها عن الخلائق، فأنزل الله طهارتها، فقال لها أبوها: قومي فقبِّلي رأسَ رسولِ الله ﷺ، فقالت: بحمد الله لا بحمدكما؛ لأن الله طهّرني بالآيات.

كذلك أَنْتَ يا محمدي؛ إذا ضاق بك الأمر، وتركت العلائق إلا من الله فتح عليك باب البشارة، وأدخلك دار كرامته.

﴿فاختلف الأحزابُ مِنْ بَيْنهم﴾ [مريم: ٣٧]؛ أي من تلقائهم، ومن أنفسهم وأن الاختلاف لم يخرج عنهم. والأحزاب: اليهود والنصارى، والحق خلاف أقوالهم كلّها.

﴿فوَيْلٌ للذين كفروا﴾ [مريم: ٣٧]: قد قدمنا أنّ الويل هو الحزن والثّبور. ورُوي هذا الكفر الذي كفروا عن قتادة أن بني إسرائيل جمعوا من أنفسهم أربعةَ أحبار غايةً في المكانة والجلالة عندهم، وطلبوا أن يبينوا أمر عيسى، فقال أحدهم: هو الله نزل إلى الأرض، فأَحْيا من أَحْيا وأَماتَ من أَمات. ثم صعد فقال له الثلاثة: ليس الأمر كذلك. واتبعه اليعقوبية.

ثم قال أحد الثلاثة: عيسى ابن الله، فقال له الاثنان: كذبت، واتبعه النسطورية. ثم قال أحدهما: عيسى أحد ثلاثة: عيسى إله، وأمه إله، والله إله. فقال له الرابع: كذبْتَ واتبعه الإسرائيلية. فقال الرابع: عيسى عبدالله وكلمتُه ألقاها إلى مريم، فاتبع كلَّ واحد من الأربعة فريقٌ من بني إسرائيل، ثم اقتتلوا، وغلب المؤمنون، وقتلوا، وظهرت اليعقوبية على الجميع.

وروي أنه في ذلك نزلت: ﴿إنَّ الذين يَكْفُرون بآيات الله...﴾ الآية.

فإن قلت: ما الفرق بين وصفهم هنا بالكفر، وفي الزخرف بالظلم؟

فالجواب أنَّ الكفر أبلغ من الظلم. وقصة عيسى في سورة مريم مشروحة فيها، ذكر نسبهم فيها إلى الله تعالى، حتى قال: ﴿ما كان للهِ أن يتخذ مِنْ وَلَدٍ سُبحانه﴾ [مريم: ٣٥]، فذكر بلفظ الكفر. وقصته في الزخرف مجملة فوصفهم بلفظٍ دونه وهو الظلم. وقيل غير هذا من الأجوبة حذفناه اختصاراً.

﴿فلا تَعْجَل عليهم﴾ [مريم: ٨٤]؛ أي لا تستبطىء عذابهم وتطلب تعجيله، إنما نعدّ مدة بقائهم في الدنيا.

﴿فلما أتاها نُودِيَ يا موسى...﴾ الآية. ضمير الإتيان راجع إلى النار، ولم يناده من الشجرة؛ وإنما ناداه عند وصوله إليها، وإنما أمره بخلع نعلَيْه؛ لأنهما

كانتا من جلد حمار ميّت، فأمر بخلع النجاسة. واختار ابن عطية أنه إنما أُمِر بخلعها ليتأدب، ويعظّم البقعة المباركة، ويتواضع في المناجاة مع خالقه.

وأين هذا المقام من مقام سيدنا ومولانا محمد ﷺ لما زج به في عالم العزّة! أراد أن يخلع نعليه، فإذا النداء: يا محمد، لا تخلع نعليك. فقال: يا ربّ سمعتك تقول لموسى: فاخلع نعليك. فقال: يا محمد؛ لئن أمرت موسى بنزع نعليه على جبل الطور فقد أبحنا لك أن تطأ بنعليك على بساط النور؛ لأنك المكرّم عندنا، والعزيز لدينا.

اللهم بحرمته لديك اعف عنا واغفر لنا.

قيل أصحاب الشجرة في القرآن أربعة: آدم: ﴿ولا تَقْرَبا هذه الشجرة﴾ [البقرة: ٣٥] وموسى: ﴿نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البُقْعَةِ المباركة من الشجرة﴾ [القصص: ٣٠]. ومريم: ﴿فأجاءها الْمَخاضُ إلى جذع النَّخْلة﴾ [مريم: ٢٣]. ومحمد ﷺ: ﴿إذ يُبايِعونك تَحْتَ الشجرة﴾ [الفتح: ١٨].

فآدم دَنا من شجرته باختيار نفسه، فصارت عليه محنة، حتى خرج منها بسببها. وموسى دنا من شجرته بالأمر، فصارت عليه بركة، وأوْصله بالوادي المقدس. ونودي إني أنا رَبُّك. ومريم دَنَتْ من شجرتها باخْتِيار نَفْسها، فصارت عليها محنة، حتى قالوا ما قالوا، ونالها من الألم ما نالها، ولم تَصِلْ إلى رزقها إلا بالعناء. والنبيّ ﷺ دنا من شَجَرته من حيث الأمر، فعادت عليه رحمةً، وبايعوه تحتها، وظهر الإسلام، واستقام الشرع.

وكذلك مثّل الله الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة. وقيمة الشجرة بالثمار والأنوار، وقيمة المؤمن بمعرفة الجبّار، كأنه تعالى يقول: قلبك بموضع شجرة إنباتها معرفتي، وثمرها شهادتي، ونورها حديثي ومنها تصير يا عبدي موحّدي... آدم قصد شجرةً وفيها للعدو نصيب، فأصابه من الذلّ والمِحَن والخروج من الجوار ما أصابه. والشجرة التي هي في موضع نظري ومقام معرفتي إذا قصدها الشيطان أتراني أُسلمها له، وأنا أنظر إليها كل يوم ثلاثمائة وستين

نظرة لحُرمتها؛ أفتراني أسلمها للشيطان إذا قصدها! بل أطرده وأكافئه كما كافَأْت آدم، حين قصد شجرة فيها للعدو نصيبٌ أخرجته منها لنصيبه، والشجرة التي هي نصيبي أُكافئه بأن أضع ذنوبك على عنقه، وأدخلك الجنة لنصيبي فيك.

فإن قلت: قد اختلفت الألفاظ في قصة موسى؛ ففي موضع قال: آتاها، وفي موضع: جاءها. وفي آية: ﴿إني أنا ربُّك﴾ [طه: ١٢]. وفي آية: ﴿إني أنا الله﴾ [طه: ١٤]؟

فالجواب أن لفظ جاء وأتى بمعنى واحد، لكن كثُر هنا لفظ الإتيان؛ نحو: فأْتِيَاه، فلنأتينّك، ثم أتى، ثم ائْتُوا صفًا. وكثُر في النمل لفظ جاء، نحو: فلما جاءهم. وجئتك من سبأ. فلما جاء سليمان.

وإنما أبرز الضمير في هذه الآية بقوله: ربك؛ لأنه خاطبه مرّتين، كل مرة بما يليق به؛ ففي الأولى أظهر له النعمة في إنجائه من فرعون، وتحنّن شعيب له، وإكرامه بالكلام. فلما تأنّس وزالت عنه الدهشة خاطبه بالألوهية الْمُشْعِرة بالخوف من هذا الاسم العظيم.

فسبحان اللطيف بعباده، الْمُنْعم عليهم بنعمه: خلقهم بلا مثل، وصورهم بلا مشاورة، وربَّاهم بلا قوة، وهداهم بلا شفاعة، ورزقهم بلا دعوة، وأمرضهم بلا واسطة، وشفاهم بلا دَوَاء، وأماتهم بالعدل، وأحياهم بالقدرة، وغفر لهم بالرحمة.

وقد قدمنا أنَّ موسى خرج لطلب النار، فوجد الجبّار. ويوسف خرج للنزهة فوجد العبودية. وبلقيس خرجت للنظر فوجدت المعرفة. وطالوت خرج لطلب حماره فوجد الملك.

وأنت يا محمديّ إذا خرجتَ من الدنيا لِطَلَب مَوْلاك أفتراك لا تجده وقد خرجت لأجله! كلا، بل تجده، ويُنيلُك ما اشتهت عيْنُك، ولذَّت نفسك. ألا

تراه قال لموسى لما توجّه تِلْقَاء مدين وجاع وعَيِي ورفع رأسه فقال: أنا الغريب الفقير المريض ـ فأجابه: الغريب الذي ليس له مثلي حبيب، والفقير الذي ليس له مثلي نصيب، والمريض الذي ليس له مثلي طبيب. فرضي بهذه الكلمات.

﴿فلا يَصُدَّنَّكَ عنها﴾ [طه: ١٦]: الضمير للساعة؛ أي لا يصدنَّكَ عن الإيمان بها والاستعداد لها. والخطاب لموسى. وقيل لنبينا ومولانا محمد؛ وهو بعيد؛ لأنه قد استعدَّ لها. وقيل الضمير للصلاة؛ وهو بعيد.

﴿فتَرْدَى﴾ [طه: ١٦] أي تهلك. وهذا الفعل منصوب في جواب لا يصدنَّك.

﴿فألْقَاهَا فإذا هي حيَّةٌ﴾ [طه: ٢٠]: لما ذكر موسى عليه السلام المنافع التي كانت في عصاه بسؤال الله له أمره أنْ يُلْقيها ليَرَى فيها عجائب غير التي كانت فيها، ويعلمَ أن الله يؤيده وينصره ويعزّه، فألقاها امتثالاً لأمْرِ ربه، فقلب الله أوصافَها وأعراضها، فصارت حيّةً تسعى؛ أي تنتقل من مكان إلى مكان.

والحية اسمُ جنس يقع على الذكر والأنثى، والصغير والكبير.

وقد قدمنا أنَّ الله سمّاها بأسماء مختلفة: بالحية، والثعبان، والجان، فأراد بالحية أول أمرها صغيرة رقيقة، ثم تتزايد وتصير كالثعبان في سرعة حركة الجان. وقيل: كان لها عُرْف كعرف الفرس، وكان بين لَحْيَيْها أربعون ذراعاً.

قال ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلعُ الحجرَ والشجر، لها كلامٌ كالرعد القاصف. فلما رآها موسى كذلك خاف. وقد قدمنا أن خوفه إنما كان من أجل عِلْمه أنها كانت من الشجرة التي أكل منها آدم. وقيل: لأنها كانت معجزة بالخوف منها، فخاف منها كلُّ أحد. فقال الله له: يا موسى، اذهب بها إلى فرعون، وخُذْها، ولا تَخَفْ؛ سنُعيدها سيرتها الأولى.

وموسى أمّنه الله من أربع مخاوف: من إلقاء العصا، وفرعون، وقومه، ومن قَتْل القبطي؛ فأمنه الله منها جميعاً.

وأنت يا محمدي إذا رجعْتَ إليه أفتراه لا يُنجيك من غمِّ الدنيا، وعند النّزْع، وفي القبر، وفي أهوال القيامة. وقد قال لك: إن الله مع المؤمنين. إن الله مع الصابرين. إن الله مع الذين اتَّقَوْا. إن الله لَمَعَ المحسنين.

موسى كانت في يمينه العصا، فضرب البحر بها فانفلق حتى جاوزَه هو وقومه، والمؤمن الذي بيده كتابُ ربِّه أتراه لا يضرب به بحرَ الموت فينفلق له، ويقول له: كن عليّ رحمةً فتنزع روحه نوماً برفْق كالقطر من الصفا، كما صح عنه ﷺ أنه قال لملك الموت: «ارفق بأُمتي. فقال له: أبشر، فإني بكل مؤمن رفيق».

﴿فاقذفيه في الْيَمّ﴾ [طه: ٣٩]: اليم: هو البحر، وأمْر الله في هذه الآية لأُمّ موسى أن ترميه في بَحْر النيل؛ لأن فرعون لما ذكر له أن هلاكَه على يد رجل من بني إسرائيل أمر بذبح كلّ ذكر يولد لهم، فألقَتْه في تابوت، وألقت التابـوتَ في البحر، وكان فرعون في موضع يُشْرِف على النيل، فلما رأى التابوتَ أمر به فسِيق إليه، وامرأتُه معه، ففتحه فأشفقت عليه امرأته، وطلبت أن تتخذه ولداً، لأنها لم يكن لها ولد، فأباح لها ذلك؛ فذلك قوله: ﴿وألقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً منّي﴾ [طه: ٣٩]. فهذه المحبةُ نفعت امرأة فرعون، وكذلك صَفُورا نفعت محبّتها لموسى، وزُليخا ليوسف، وخديجة لمحمد ﷺ.

فالمؤمن الذي يحبُّ الله ويحبُّه الله أفتراه لا تنفعه محبته، وهو يقول: يحبُّهم ويحبُّونَه، ولم تكن هذه المحبة إلا لأمّة الحبيب، لأنه كان حبيباً، وحبيباً كحبيب حبيب، ألا ترى آدم كان صفيّاً، فلم يجد أحد من قومه الصفوة، وإبراهيم كان خليلاً فلم يجد أحدٌ من قومه الخلة، وهكذا سائر الأنبياء، لكن من علامة المحبة أولها الإفلاس، وآخرها الوَسواس، ومن فَرّ منه دعاهُ بكثرة الإحسان حتى يستحي من الله، فيرجع إليه.

﴿فتقول هل أَدُلّكُم على مَنْ يَكْفُلُه﴾ [طه: ٤٠]: يعني أنّ فرعون لما أخذه من التابوت، وأسلمه لآسية صارت تُرْضعه في المراضع، فلم يَقْبَل ثَدْيَ مُرْضعة،

حتى شاع خبره، فذهبت أخته إليهم، وقالت: ﴿هل أدلكم على من يَكْفُله﴾ [طه: ٤٠].

﴿فرَدَدْنَاه إلى أمِّه﴾ [القصص: ١٣، طه: ٤٠]: وهذا مِنْ مِنَنِ الله عليه لما قالت لهم: أنا أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بيت يَكْفُلونه لكم وهم له ناصِحون، وحَرَّضَتْهم بهذا الكلام قالوا لها: أَنْت تعرفين هذا الغلام؟ قالت: لا، غير أني أعلم من هذا البيت الحرصَ على التقرب إلى الملكة والجدّ في خدمتها ورضاها، فتركوها وسألوها الدلالة، فجاءت بأُمّ موسى، فلما أخذته التَقَمَ ثَدْيَهَا، ففرحت آسية لذلك، وقالت لها: تكونين معي في القصر. فقالت لها: ما كنْتُ لأدعَ بيتي وولدي - تعني هارون. ولكنه يكون عندي. فأحسنت آسية إليها غايةَ الإحسان؛ واعتَز بنو إسرائيل بهذا الوليد السعيد، فهذا معنى رجوعه إلى أُمّه، وإقرار عينها، وذهاب الحزن عنها. وهذا كله من ثقتها بربها، وتسليم الأمْرِ إليه بعد امتثال أمره؛ ولولا أن الله رَبَط على قَلْبها بالصَّبْر لكادت تُبدي به، لكن رجعت إلى ربها، فجمع الله شَمْلَها به. ويعقوب لما رجع في حِفْظِ يوسف إلى أولاده وقولهم له: وإنا له لحافظون، واطمأن إلى حفظهم ابتلاه الله بمفارقته. ولما زال عن حفظ إخوته ردّه الله إلى حفظه، فقهر له العبادَ والبلاد، وردّ عليه والده.

وأنْتَ يا محمدي لو رجعْتَ إلى الله وتوكلْتَ عليه لحفظك في أهلك ومالك وولدك، وجمع بينك وبين أحبتك يوم القيامة، ولكنك أسأْتَ الأدب، واطمأنَنْتَ إلى المخلوقين، فكيف تطمع بنيل مرغوبك وقد أعرضت عنه؟

فإن قلت: أي فرق بين الرجوع في هذه الآية وفي آية القصص بالرد؟

والجواب هما بمعنى واحد. ولما كان لفظ الرجوع ألطف خُصَّت به هذه الآية. وعبّر في القصص بالرد لمناسبة قوله: ﴿إنا رَادُّوه إليكَ﴾ [القصص: ٧]

﴿فنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمّ﴾ [طه: ٤٠]: لما خاف مِن قَتْلِ القبطي أمّنه الله بقوله: ﴿لا تخف نَجَوْتَ من القوم الظالمين﴾ [القصص: ٢٥].

وكذلك المؤمن يخاف من غَمّ القيامة، فيسمع النداء: لا تخف فالمراد به غيرك.

﴿فَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [طه: ٤٠]؛ أي اختبرناك اختباراً حتى ظهر منك أنك تصلح للنبوءة والرسالة. وقيل: خلّصناك من محنة بعد محنة؛ لأنه خلصه من الذبح، ثم من اليمّ، ثم من القصاص بالقتل.

والفتون يحتمل أن يكون مصدراً أو جمع فتنة.

﴿فلبثْتَ سنين في أهل مَدْين﴾ [طه: ٤٠]: يعني الأعوام العشرة التي استَأْجَره فيها شعيب لرَعْي الأغنام، فقال له شُعيب في العام الرابع: يا موسى، كلما وُلدت أنثى من الحمْلَان فهي لك في هذه السنة، فكان موسى يُلقي عصاه في الماء، ويسقي الأغنام منها، فولدت كلها أُنثى في تلك السنة، فقال شعيب عليه السلام في السنة العاشرة: كلما ولدت ذكوراً من الْحُمْلان فهي لك؛ فولدت في تلك السنة كلها ذكوراً. فاجتمع له أغنام كثيرة، فرجع مع أهله إلى مصر؛ فآنَسَ في الطريق ناراً، كما قال الله تعالى، فلما دنا منه الكَلِيم صار نوراً، وكذلك نار الخليل لما دنا منها الخليلُ صارت روضة ورحمة. وكذلك جُبّ يوسف كان مملوءاً عفاريت وحيّات، فلما دنا منه الصديق صار رحمةً، وكذلك البحر لما دَنَا منه الكليم صار يبساً، وكذلك القبر موضع الوَحْشة والديدان فإذا نام فيه الحبيبُ صار عليه روضةً من رياض الجنة. وكذلك يوم القيامة - يوم الحسرة والندامة - فإذا قام فيه الحبيب يصير يوم العز والقُرْبة، والدنوّ والرتبة. وكذلك النار موضع الملامة فإذا دخل عليها الحبيب صار موضع إظهار الكرامة.

﴿فأتِيَاه فقُولَا إنّا رَسُولَا رَبّك﴾ [طه: ٤٧]: ضمير التثنية يعود على موسى وهارون، وضمير الإفراد على فرعون. يعني أن الله أمرهما بالإتيان إليه ليُخْبِراه بالرجوع عما هو فيه؛ لِمَا في إخبارهما له بإقامة الحجة عليه. وفي ضمن ذلك دعوتُه إلى الإيمان. والمرادُ بإرسال بني إسرائيل معهما لإخراجهم عن ملكه، ومن دائرة حكمه. وفي ذلك تحقير لشأنه وإبطال ما ادّعاه من السلطان.

فإن قلت: لم حذف من هذه الآية اسم فرعون وأثبته في الشعراء؟

والجواب أنه تقدم ذكره في قوله: ﴿اذْهَبَا إلى فرعون إنّه طغَى﴾ - فلم تكن إعادةُ اسمه ظاهراً مع الاتصال والقرب، إذ لم يفصل بين ظاهره ومضمره إلا كلمتان. أما آية الشعراء [١٦] فوَجْه إظهارِه أنه قد اجتمع فيها أمران:

أحدهما: الفصل بين مضمر الاسم وظاهره، مع إتيان الظاهر مضافاً إليه فَضْلُه إلى ما ذكر من الفَصْل ببضع وعشرين كلمة.

والثاني: أمر موسى عليه السلام أولاً، وإنما أورد بإتيانه قوم فرعون. قال تعالى: ﴿وإذ نادى ربُّك موسى...﴾ [الشعراء: ١٠] الآية؛ فقد يتوهم أن الجاري على هذا أن لو قيل عوض قوله: فأْتيا فرعون - فأْتهم - إلا أنه لم يقصد ثانياً إلا ذكر متبِعيه، فلم يكن بُدّ من الإفصاح باسمه غير مُضْمر.

وأما قوله تعالى في الأولى: فقولا إنا رسولا ربك - بتثنية لفظ « رسولا » فواردٌ على اللغة الشهيرة. وأما قوله في الثانية: إنا رسولُ ربّ العالمين - فعلى لغة مَنْ يقول رسول للواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث؛ فورد الأول في الترتيب الثابت على اللغة الشهيرة، والثاني على اللغة الأخرى، على ما قد تقدم في مثل هذا.

وعَكْسُ الوارد مخالف للترتيب، ولا يناسبه. وأما قوله: ﴿إنّا رسولَا ربك﴾ بإضافة اسمه تعالى إلى ضمير الخطاب فإنه يُناسب من حيث ما فيه من التلطف والرفق لما تقدمه من قوله تعالى: ﴿فقولَا لَهُ قَوْلاً ليِّناً﴾ [طه: ٤٤]. وقد تفسر هنا القول، وتبيَّن ما فيه من التلطّف في قوله تعالى في آية النازعات: ﴿فقل هَلْ لكَ إلى أن تَزَكّى. وأَهدِيك إلى ربِّك فتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٩]. وناسب هذا ما بُنيت عليه سورةُ طه من تَأْنيس نبينا ومولانا محمد ﷺ، وتأنيس موسى كليمه بقوله: ﴿وأَنَا اخْتَرْتُك فاسْتَمِعْ لما يُوحَى﴾ [طه: ١٣]؛ وما بعده إلى قوله: ﴿قد أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى﴾؛ وما بعده. فلما كان مَبْنَى هذه السورة

بجملتها على التلطّف والتأنيس ناسب ذلك بما أمر موسى عليه السلام من دُعاء فرعون وأنسه ولطفه، وأمر موسى عليه السلام وأخيه هارون بذلك؛ فقيل لهما: ﴿فقُولَا له قَوْلاً ليِّنا﴾ [طه: ٣٧]. وجرى على ذلك قوله: ﴿إنا رسولا ربك﴾؛ فأشعرت هذه الإضافة بالتلطف الربّاني.

ولما لم تكن سورة الشعراء مبنية على ما ذكر؛ وإنما تضمنت تعنيفَ فرعون وملأه وإغراقهم، وأخذ المكذّبين للرسل بتكذيبهم؛ وهذا في طرف من التلطف - ورَدَ فيها: ﴿فقولا إنّا رسولُ رب العالمين﴾، بإضافة اسمه تعالى إلى العالمين، لتحصيل أنه مالك الكلّ، وأنهم تحت قَهْره تعالى، وفي قبضته، وعدل عن الإضافة إلى ضمير الخطاب؛ إذ لم يقصد هنا ما قدم من التلطف.

ونظير الوارد في هاتين الآيتين قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربُّك ما فعلوه﴾ [الأنعام: ١١٢] - تأنيساً لنبينا ومولانا محمد ﷺ، ثم ورد فيما بعد: ﴿ولو شاء الله ما فعَلُوه﴾ [الأنعام: ١٣٧]. فقِفْ على ذلك؛ وقد تبين جليل النظم، وهو التناسب، وتأمّل أمْرَهما الله هنا بالإخبار بأنهما رسُولَا رَبِّه، وأمرهما في آية أخرى بالتلطف له في الموعظة؛ لأنه أعون على قَبُول النصح، وإنفاذ الدعوة، وإمالة القلوب إلى ما تُدْعى إليه؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿ادْعُ إلى سَبِيلِ ربّك بالحِكْمَةِ والْمَوْعِظةِ الْحَسنة﴾ [النحل: ١٢٥].

واختلف في معنى القول اللين؛ فقيل: عِدَاهُ شباباً لا يهرم بعده، ومُلكاً لا ينزع منه إلا بالموت، وأن تبْقى له لذةُ المطعم والمشرب والْمَنْكح إلى حين موته.

وقيل: لا تُواجهاه بما يكره؛ فإن في ذلك تنفيراً له؛ أو لما له من حق التربية لموسى؛ فقد روي أنّ الله عزّ وجل قال: كانت لفرعون على موسى حقّ التربية، فأردت أن أكافئه بقولي: ﴿فقُولاَ له قَوْلاً ليّناً﴾. وقيل كنّياه، وكان لـه ثلاث كنى: أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرة.

وقد رُوي أنَّ إبليس أتى إليه ودقَّ عليه الباب، فقال: مَنْ؟ فقال له

إبليس: من ادَّعَى الرُّبوبية يعرف مَنْ أنا؟ فقال له فرعون: هل علمت من هو شر منّا؟ قال إبليس: مَنْ باع آخرته بدُنْيا غيره.

فانظر هذا اللطف العظيم مع من ادَّعَى الربوبية، فكيف بمن أقر له بالعبودية وعبده مدةً مديدة، أتراه لا يُعامله بما تدهش له النفوس من العيشة الهنية؟

﴿فمَنْ ربُّكمَا يا مُوسى﴾ [طه: ٤٩]: خطاب لهما، مع أنَّ موسى الأصل في النبوءة وهارون تابعٌ له.

﴿فيُسْحِتَكم﴾ [طه: ٦١]: معناه يهلككم. وقيل سحت وأسْحَت، وقد قرىء بفتح الياء وضمها. والمعنى متفق.

﴿فأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ [طه: ٦٤]؛ أي اعزموا وأنفذوه. وهذا من قول موسى على وَجْه الإسراع في مقصودهم لعِلْمه بباطلهم.

﴿فرجع مُوسى إلى قَوْمه﴾ [طه: ٨٦]: يعني بعد كمال الأربعين يوماً التي كلَّمه الله فيها في قوله: ﴿وواعَدْنَا مُوسى ثلاثين ليلة﴾؛ فتناول منها ورقةَ زيتون، فأمر بعشرة أُخرى، فانظر بالله ورقة زيتون منعت متَناولها عن المراد، فكيف تنال مُرادك مع تناول شهواتك، وخصوصاً إن كانت من ظلم للعباد.

﴿فلا يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الجنّةِ فتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]؛ أي في طاعتك لإبليس، فجعل المسبّب مع السبب.

فإن قلت: لم خصّ آدم بالشقاء والتوبة في قوله: فتاب عليه وهَدَى، وحوّاء كانت المتسببة؟

فالجواب: أن آدم كان نبيئاً وحوّاء كانت من جملة الأولياء الذي يجب أن يكون مأمون العاقبة، ومن شرط الولاية كثرة الْحُزن والخوف إلى آخر الزمان.

وخص آدم بالخطا؛ لأنه كان المخاطب أولاً والمقصود بالكلام، وأضاف الإخراج إلى إبليس والإنزال إلى نفسه بقوله: ﴿اسكُنْ أَنْتَ وزَوْجك الجنَّة﴾

[البقرة: ٣٥ ، الأعراف: ١٩]؛ لأن المضيف إذا كان كريماً لا يُخْرِج ضيفَه من ضيافَتِهِ، فلما خرج قال له: يا آدم، أسكَنْتُك في جوارِ العدو لتعصيه فيها، وتطيعني؛ فأقول هذا بذاك، والمحبة بيننا باقية، كذلك يوم القيامة يقول: عبدي أنعمتُ عليك برضاك، وأطعتني برضائي، وعصيتني مخالفاً لأمري، دع الطاعة في مقابلة النعمة، والزَّلَّة في مقابلة البليّة، والمعرفة بيننا باقية.

﴿فإمَّا يَأْتِيَنَّكم مني هُدًى﴾ [طه: ١٢٣]: إن الشرطية دخلَتْ عليها ما الزائدة وجوابها.

﴿فمن اتَّبع هُدَاي فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]؛ أي لا يضلّ في الدنيا، ولا يَشقى في الآخرة.

﴿فلا تستعجلون﴾ [الأنبياء: ٣٧]؛ أي لا تستعجلون العذاب.

وقيل المراد هنا آدم؛ لأنه لما وصل الروح إلى صدره أراد أنْ يقومَ، وهذا ضَعيف.

﴿فعَلَهُ كَبيرُهم هذا﴾ [الأنبياء: ٦٣]: ضمير الفعل للصنم؛ وذلك أنهم لما سألوه عمَّنْ كسر الأصنام قال لهم هذا القولَ، ومقصودُه بذلك تبكيتُهم لإقامة الحجة عليهم، كأنه يقول: إن كان إلهاً فهو قادر على أن يفعل، وإن لم يقدر فليس بإله، ولم يقصد الحقيقة الْمَحْضة.

فإن قلت: قد ورد في الحديث: أنَّ إبراهيم كذب ثلاث كذبات؛ إحداها هذه.

والجواب: أن معناها قال قولاً ظاهره الكذب، وإن كان القصد به معنى آخر. ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿فَاسأَلُوهُمْ إنْ كانوا يَنْطِقون﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وهذا التأويل أولى؛ لأن نفي الكذب يعارِضُ الحديث؛ والكذبُ الصراح لا يجوز على الأنبياء عند أهل التحقيق. وأما المعاريض فهي جائزة، وعلى تقدير جواز الكذب فإنما جاز له ذلك، لأنه فعله من أجل الله.

﴿ ففَهَّمْنَاهَا سُلَيْمانَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] : الضمير يعود على القضية المذكورة قبل هذا في الرجلين.

﴿ فهل أَنْتُم شاكِرون ﴾ [الأنبياء : ٨٠] : لفظه استفهام ، ومعناه استدعاء إلى الشكر .

﴿ فنَفخنا فيها مِنْ رُوحِنَا ﴾ [الأنبياء : ٩١] : عبارة عما ألقاه الحقُّ سبحانه من أسرار آثار أسماء الأفعال، وسرى إليها من ذلك السر ، فتكوَّن الولدُ في رحمها؛ وذلك الإلقاء إما بواسطة الملك المعبَّر عنه بالرُّوح أو دونه؛ وإضافةُ الروح إلى ضميره تعالى إضافة الملك إلى المالك. وقد كثرت الأقاويل في الروح، حتى أنهاه بعضُهم إلى أربعمائة قول، ولا يعلم حقيقته إلا الله، كما قال: مِنْ أَمْرِ رَبّي؛ أي من عجائب ربي. وقيل: من حلم ربي. وقيل الروح آدم، ونفخنا فيه من روحي. وقيل جبريل، وأَيَّدْنَاه بروح القدس. وقيل الروح: الْخَلْق العظيم الذي في عالم العزّة يأمر بما يأمره الله به جميع الملائكة، وهو خلق عظيم أعظم العوالم يسبّح كلّ يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحةٍ ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً واحداً، فذلك قوله: ﴿ يوم يقوم الرُّوحُ والملائكةُ صفًّا ﴾ [النبأ : ٣٨] .

فإن قلت: لم أَنَّث الضمير هنا وذكّره في التحريم، مع أن القصة واحدة؟

والجواب أنه لما كان المقصود في سورة « اقتربت » ذِكْرُها وما يَؤُول إليه أمرها حتى ظهر ابنها وصارت هي وابنها آية، وذلك لا يكون إلا بالنَّفْخِ في جلتها خُصَّت بالتأنيث، وما في التحريم [١٢] مقصور على ذِكْرِ إحصانها وتصديقها بكلمات ربها، وكان النفخُ في جميعها وهو مذكّر، فلذا قال: ﴿ فيه ﴾ .

وأيضاً فهنا أَنَّث بعد ذكر جملة من الأنبياء والرسل بخصائص عليّة، وآياتٍ نبوية ناسب ذلك ذكر مريم وابنها بما مُنحا . وأما آية التحريم فمقصود فيها ذِكر

عظتين عظيمتين تبيّن بهما حكم السبقية بالإيمان أو الكفر ، وهما قضية امرأتي نوح ولوط ، وإن انضواءهما إلى هذين النبييْن الكريمين انضواء الزوجية التي لا أقْرب منها ، ومع ذلك لم يُغْنيا عنهما من الله شيئاً ، وقضية امرأة فرعون وقد انضوت إلى الكافر لم يضرّها كُفْره، ثم ذكرت مريم عليها السلام للالتقاء في الاختصاص وسبقية السعادة، ولم يَدْعُ داع إلى ذِكْر ابنها ، فلا وَجْه لذكره هنا .

﴿الْفَزَع الأكْبَر﴾ [الأنبياء : ١٠٣]: فيه أقاويل ، قيل النفخ في الصور . ﴿ففَزِعَ مَنْ في السموات﴾ [النمل : ٨٧] . وقيل : هو صوتُ القطيعة، وهو قوله لأهل النار : ﴿اخْسَئُوا فيها ولا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون : ١٠٨] . ﴿فإن يَصْبِرُوا فالنارُ مَثْوًى لهم﴾ [فصلت : ٢٤] . وقيل يوم ذبح الموت بين الجنة والنار . وقيل يوم يسمعون : ﴿وامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّها الْمُجْرِمون﴾ [يس : ٥٩] . وقيل يوم أمر الله آدم ابعث من ذريتك بَعْثَ النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحدٌ إلى الجنة . وقد سمَّى الله في كتابه ثلاثة أشياء أكبر : هذا ، ﴿ولَذِكْرُ اللهِ أكبر﴾ [العنكبوت : ٤٥] . ﴿ورِضْوانٌ من الله أَكْبَر﴾ [التوبة : ٧٢]

﴿فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء : ٩٢] : خُصَّت هذه الآية بالعبادة، لأنه لم يرد في سورتها ذِكْرُ لفظ التقوى في أمرٍ ولا خبر من أولها إلى آخرها ؛ بل ورد فيها الأمْر بالعبادة في قوله : ﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلكَ مِنْ رَسُولٍ إلّا نُوحِي إليه أَنه لا إله إلا أنا فاعْبُدُون﴾ [الأنبياء : ٢٥] . بخلاف سورة المؤمنين؛ فإنه تكرر فيها ذكر التقوى في ثلاثة مواضع : في قصة نوح : ﴿أَفلا تَتَّقُون﴾ [المؤمنون : ٢٣] . والتالية لها : ﴿أفلا تَتَّقُون﴾ [المؤمنون، ٣٢ ، ٥٢] . فرُوعي في الأولى ما تقدمها ، ونُوسب بالثانية ما اكتنفها ؛ وأيضاً فإنَّ العبادة... بها ليحصل لهم الاتّقاء ، فهي مقدَّمة في الطلب لتحصل ما يتسبَّبُ عنها إذا كانت الإجابة . وعلى ذلك ورد دعاءُ الخلق ، قال تعالى : ﴿يا أيها الناسُ اتَّقُوا ربَّكم﴾ ؛ فالاتّصافُ بالتقوى ثانٍ عن الاتصاف بالعبادة؛ فقيل في الأنبياء : فاعبدون . وفي الثالثة : ﴿فاتَّقُون﴾ [المؤمنون : ٥٢] على مقتضى الترتيب .

﴿فَتَقطَّعُوا أَمْرَهم بَيْنَهم﴾ [المؤمنون: ٥٣]؛ أي اختلفوا فيه، وهو استعارةٌ من جعل الشيء قطَعاً، والضمير للمخاطبين؛ والأصل تقطعتم أَمْرَكم بينكم، إلّا أنَّ الكلامَ صُرِف إلى الغيبة على طريق الالتفات؛ كأنه يَنْعَى عليهم ما أَسْدَوه إلى آخرين، ويقبّح عندهم فِعلهم، ويقول لهم: ألا تَرَوْن إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، وإن اختلفوا في الدين فمرجعُهم إلينا وحسابهم علينا.

فإن قلت: ما فائدة عطف هذه الآية بالفاء وزيادة ﴿زُبُراً﴾؟

والجواب أن زيادته تأكيد لافتراقهم، ونصب الحال الواردة بياناً وتأكيداً لقُبْح تفرقهم، وتشنيع مُرْتَكَبهم؛ فناسب ذلك مقصود هذه الآية لما هنا من التخويف والإنذار، ولم يكن ليناسب آية الأنبياء [٩٣]؛ لبنائها على غيرها لما تقدمها من تأنيس نبينا ومولانا محمد ﷺ، وتعريفه بما منح سبحانه متقدمي الرسل، وما أعقبهم صبرهم على أُممهم؛ ولذلك عطفها بواو العطف، كأنه يقول: نبَّهناهم على السؤال، وأوضحنا لهم أمر مَنْ تقدمهم، وعاقبة الاستجابة لمن تمسّك بِهَدْي المذكورين؛ وهم مع ذلك على عنادهم وافتراقهم؛ وكأن الكلام وارد مورد التعجب من أمرهم، ولم يَشُبْه شدة الوعيد؛ ليبقى رجاؤه.

﴿فَلَك﴾ [الأنبياء: ٣٣]: هو القطب الذي تدور عليه النجوم.

﴿فَجّ عمِيق﴾ [الحج: ٢٧]؛ أي طريق بعيد.

﴿فكلُوا منها﴾ [الحج: ٢٨] ندب للأكل من الأضحية، وهو من خصائص هذه الأمة المحمدية، يأكلون صدقاتهم فيُؤْجَرون عليها بخلاف من تقدم؛ فسبحان من أنعم عليهم بنعم دنيا وأخرى، جعلنا الله ممن أحبهم.

﴿فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ من الأَوثان﴾ [الحج: ٣٠]: من لبيان الجنس، كأنه قال الرجس الذي هو الأوثان؛ والمراد النهي عن عبادتها، أو عن الذبح تقرُّباً لها كما كانت العرب تفعل.

﴿فيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشيطان﴾ [الحج: ٥٢]؛ أي فيُبْطِله، كقولك: نسخت الشمسُ الظلَّ.

﴿فلا يُنَازِعنّكَ في الأمر﴾ [الحج: ٦٧] أي في الدين والشريعة، وضمير الفاعل للكفار. والمعنى أنهم لا ينبغي لهم منازعةُ النبيّ ﷺ، لأن الحق قد ظهر بحيث لا يَسَعُ النزاع فيه، فجاء الفعل بلفظ النهي، والمراد غير النهي. وقيل المعنى: لا تنازِعْهم فيُنَازِعُوك، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. ويحتمل أن يكون نهياً لهم عن المنازعة على ظاهر اللفظ.

﴿فأَقِيموا الصلاة﴾ [الحج: ٧٨]: الظاهر أنها المكتوبة، لاقترانها مع الزكاة؛ وإقامتها بإتيانها بالخضوع والحضور، إذ ما كل مُصَلّ مقيم، ولا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، الصلاة طهرةُ القلوب، واستفتاحٌ لباب الغيوب.

﴿فاسْلكْ فيها من كلٍّ زَوْجين اثنين﴾ [المؤمنون: ٢٧]: لما صنع نوحٌ السفينة، وجعل الله علامةَ خروج الماء إفارة التنور أَمر جبريل أنواعَ الحيوان أَنْ تأتيه فيضع يمينه على الذَّكَر ويساره على الأنثى.

وروي أن أول من دخل السفينة الذّر، وآخر من دخلها الحمار، فتمسك الشيطان بذَنَبه، فزجره نوح، فلم ينبعث، فقال له: ادخل، ولو كان معك الشيطان. قال ابن عباس: زَلّت هذه الكلمة عن لسانه، فدخل الشيطان حينئذ، وكان في مؤخرة السفينة.

وروي أن نوحاً عليه السلام ومَنْ في السفينة شم نتن الزبل والعذرة فأوحى الله إليه أن امسح على ذنب الفيل، ففعل، فخرج من الفيل، وقيل من أنفه خنزير، فكفى نوحاً وأهله ذلك الأذى، فيؤخذ من هذا أن نوع الخنزير لم يكن قبل ذلك.

وروي أن الفأر آذى الناسَ في السفينة بقَرْض حوائجهم، فأمر الله نوحاً أن يمسح على جبهة الأسد، ففعل، فعطس فخرجت منه هِرّة وهِرّ فكفَيَاهم الفأر.

وروي أيضاً أن الفأر خرج من أنف الخنزير، وهذا كله ليس له مستند.

وروي أن إبليس لما دخل في السفينة طمع في إغواء أهلها، فشَكَا نوح إلى الله، فأمره أن يحمل معه تابوت آدم في السفينة حتى ينظر إليه إبليس، فيذوب حسرة؛ ولذلك قال ﷺ: الشدّ بالقَيْد أهوَن من النظر إلى الضد؛ وإذا كانت مشاهدةُ العدو تمنع الاشتغال بالنفس وتمنع عن الطعام والشراب، فكيف لا تذوب أنْتَ يا محمدي والمحبة في قلبك، كما ذاب إبليس حين نظر إلى عدوه؛ لو صدقَتْ محبتُك في صحبة معبودك لمنعك مشاهدته عن الشهوات وطلبِ الفضولِ والتلذذِ بالزلّات، ولا يقدر إبليس على وَسْوَستك وإغوائك في جميع الأوقات؛ ألا ترى أنه لم يقدر على دخول السفينة إلا بإذن صاحبه، فكيف يدخل قَلْبَك وفيه مولاك؛ أما سمعته يقول: ﴿وإذا ذَكَرْتَ ربَّك في القرآن وَحْدَه وَلَّوْا على أدبارهم نُفُورا﴾ [الإسراء: ٤٦]. وفي الحديث: إن له صفتين: وسواس، وخنّاس؛ فإذا خنس على ابن آدم وشَمَّهُ ووجد فيه الغَفْلة وسوس، وإذا وجده متيقّظاً خنس؛ فانظر بأيّ شيء تعمره؛ إن عمرته بذكره سبحانه والتفكرِ في عجائبه - طردَهُ عنك، ووصلْتَ إلى حضرته؛ ألا تراه سبحانه أمر نوحاً بحَمْله معه الحيوان الذي لا معرفةَ له، ولم يفرق بينه وبين محبوبه؛ فكيف يذيق عَبْدَه المؤمن أليمَ فُرْقته بعد طول خدمته، وقديم معرفته! كأنه سبحانه يقول: يا نوح، احمل ما هو مفارِقٌ لك، وهارب عنك؛ لتُرِيَ الْخَلْقَ حُسْنَ خُلقك؛ فيستدلون بحسن خلقك على لطيف صُنعي؛ أنا لما ذَكَرني الموفون الملازمون ببابي، والخواصّ من عبادي - هديتُهم، وأنعمت عليهم؛ هذه معاملتي معهم في دار الْمِحْنة، فكيف معاملتي معهم في دار النعمة؟ إنك أدخلْتَ الخلائق في سفينتك ولكَ إليها حاجة؛ فأي عجب لو أدخلْتُ جميع العصاة في الجنة ولا حاجة لي فيها!

﴿فبُعْداً﴾ [المؤمنون: ٤١]: مصدر وُضِع موضع الفعل، بمعنى بَعُدُوا؛ أي هلكوا؛ والعامل فيه مضمر لا يظهر.

﴿فار التَّنُّور﴾ [المؤمنون: ٢٧]: يعني بالماء؛ ولمّا أخبرته امرأتُه بوجود الماء فيه ركب هو وأهلُه السفينة، وكان هذا التّنور لآدم، فخلص إلى نوح. واختلف في موضعه؛ والصحيح أنه كان في مسجد الكوفة، وقيل بدمشق.

﴿فكان من الْمُغْرَقين﴾ [هود: ٤٣]: الضمير يعود على ابن نوح؛ لمّا لم يسمع قولَ أبيه أغرقه الله ببوله؛ وذلك أنه اتخذ قارورة وأدخل فيها نفسه لظنّه أنه يَنْجُو، فأظهر الله مَوْجَ القدرة، وحال بينه وبين ولده؛ وكذلك الكافر في خروجه من الدنيا يظهر له موج الشقاوة، فيحول بينه وبين ما يشتهيه من قبول العذر والإقرار بالوحدانية؛ كما قال تعالى: ﴿وحِيلَ بينهم وبين ما يَشْتَهُون﴾ [سبأ: ٥٤]؛ كذلك العبد العاصي يدعو ربَّه بالندامة، فيظهر له موجُ الرحمة؛ فيحول بين معرفته ومعصيته، وتَبْقى معرفته؛ وذلك قوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وقَلْبه﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفي الخبر أن نوحاً قال: يا رب، أنت وعدتَني بنجاةِ أهلي وإنّ ابني من أهلي؛ فأوحى الله إليه: إنه ليس من أهلك الذين وعدتُكَ بنجاتهم، وقد وافقتك في دعائك على الكفار، أفلا تُوافقني أنْتَ في واحد هو ابنك بعد أن قلْتُ لك: إنه ليس من أهلك! كأنه سبحانه يقول: عبدي، أسلمت إليكَ الدنيا بأسرها عاجلاً، والعُقْبى آجلاً موافقة لسؤالك وإجابة لدعائك؛ أفلا تسلم لي واحداً من أعضائك، وهو القلب؛ فأكون لك نعم الرب!

﴿فلا أنسابَ بَيْنَهم﴾ [المؤمنون: ١٠١]؛ يعني في الآخرة؛ لأن كلَّ واحد منهم مشغول بنفسه، وكل منهم يفرُّ من أبناء جنسه، مخافةَ أن يتعلق بشخصه؛ قال تعالى: ﴿يوم يَفِر الْمَرءُ من أخيه...﴾ [عبس: ٣٤] الآية.

﴿فَرضْنَاها﴾ [النور: ١]؛ أي فرضنا الأحكامَ التي فيها. وقرىء بالتشديد مبالغة.

﴿فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]؛ ليس على عمومه،

يخص منه الْمُحْصن والمحصنات والعبد والأمة، وصِفَتُه عند الشافعي أن يفرّق على جميع الأعضاء والمجلود قائم. وعند مالك في الظهر والمجلود جالس، وتُستر المرأة بثوبٍ لا يقيها الضّرْبَ، ويجرَّد الرجل عند مالك، وقال... يجلد على قميص ويؤخَّرُ المريض والحامل للبُرْء.

واختلف هل يجوز أن يجمع مائة سوط ويضرب بها ضربة واحدة؟ وأجازه الشافعي للمريض؛ لورود ذلك في الحديث؛ ومنعه مالك؛ وأجازه أبو حنيفة لما في قصة أيوب.

فإن قلت: ما الحكمةُ في سقوط الحدِّ عن المريض؟

فالجواب أن المقصود به التأديب لا القتل؛ ولذلك أمر بالتخفيف عنه في الحرّ الشديد والبرد الشديد. كذلك العاصي من هذه الأمة إذا دخل النارَ يقول الله لمالك: لا تُقَرِّبْه إلى النار العظمى، ولا تعذّبه عذاب الكفرة؛ لأن القصد في إدخاله التأديب لا التعذيب؛ هذا حدُّ العاصي في الدنيا، وهذا حد الجاني في العقبى.

﴿فشهادَةُ أحدِهم أَرْبَعُ شهادات﴾ [النور: ٦]: بالنصب على المصدرية، والعامل فيه شهادة أحدهم. وقرىء بالرفع، وهو خبر ﴿شهادة أحدهم﴾. وقوله: ﴿بالله﴾، وإنه لمن الصادقين ـ من صلة أربع شهادات، أو مِنْ صلة: «شهادة أحدهم»؛ أي يقول الزوج أربع مرات: أشهد بالله، لقد رأَيْتُ هذه المرأة تزني، أو أشهد بالله ما هذا الحمل مني، ولقد زَنت، وإني لمن الصادقين؛ ثم يقول في الخامسة: لعنة اللهِ عليَّ إنْ كنْتُ من الكاذبين.

﴿فارِهين﴾ [الشعراء: ١٤٩]؛ بألف وعدمها، منصوب على الحال من المفعول في ﴿تَنْحِتُون﴾؛ وهو مشتق من الفَرَاهَة، وهي النشاط والكيس. وقيل: أَشِرِين بَطِرين.

﴿فأَصْبَحُوا نادِمين﴾ [الشعراء: ١٥٧]: الضمير يعود على قوم صالح؛ لما تغيرت أَمْوَالُهم كما ذكرناه ـ ندِموا.

فإن قلت: ما بالُهم لم ينفعهم الندمُ كقوم يونس؟

والجواب أن ندمهم إنما كان على عدم قتلهم لولد الناقة، ولم يندموا على قتلها، وكذلك نَدَمُ قابيل؛ ندم على كونه عجز عن إخفاءِ أخيه لا على قَتْله؛ فلذلك لم ينفعها الندم، بخلاف قوم يونس فنَدَمُهم كان حقيقةً، وآمنوا فنفعهم إيمانهم؛ وهذه الأمةُ المحمدية ينفعهم الندم للحديث: الندمُ توبة. وفي الحديث: إن الحفظة تصعد بعمَلِ العبد يقابلونه باللوح المحفوظ، فلا يجدون ما كتبوا فيختلجوا، وإذا النداءُ من قِبَل الله: وصلت ندامةُ قلبه قبل وصولكم إليَّ.

﴿فبعثَ اللهُ غُرَاباً يبحث في الأَرض﴾ [المائدة: ٣١]: لما قتل قابيلُ أخاه، وأراق دَمه، فاجتمع النُّسور عليه، فتحيَّر قابيل في دَفْنه، فأخذ يَدُور في الأرض، فكلّ قطرة وقعت من دم هابيل عليها صارت سبِخَة، فبعث الله غُرابَيْن يقتتلان، فقتل أَحدُهما الآخر، ثم بحث الأرض بمنقاره ودفنه، فاقتدى به قابيل؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كِفَاتاً. أحياءً وأمواتاً﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦] والحكمة في بَعْث الغـراب لاسْوِدَادِه، ولما كـان القتـل مستغـربـاً إذ لم يكن معهوداً قَبْلَ ذلك ناسب بعث الغراب إليه؛ ولهذا اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب.

وروَى أَنس أنّ النبيّ ﷺ قال: «امتَنّ اللهُ على ابن آدم بالريح بعد الروح»؛ ولولا ذلك ما دَفن حبيب حبيباً، وقابيلُ أول من يُساق إلى النار، وهو المراد بقوله: ﴿رَبَّنا أرِنَا اللَّذَيْن أَضَلَّانا من الجنّ والإنس﴾ [فصلت: ٢٩]؛ وهما قابيل وإبليس.

وروَى أنس أَن النبي ﷺ سئل عن يوم الثلاثاء، فقال: يـوم الدم، فيه حاضت حواء، وفيه قَتَل ابنُ آدم أخاه. قال مقاتل: كانت السباع والطير تستأنس بآدم، فلما قتل قابيلُ هابيـل هـربـت منـه الطير والوحش، ومـالـت الأشجار، وحمضت الفواكه، وملحت المياه، واغبَرّت الأرض.

وعن ابن أبي واقد عن ابن حبيب؛ قال: بينما أنا عند أبي بكر الصديق إذ أتى بغراب، فلما رآه بجناحيه حمد الله، ثم قال: قال ﷺ: «ما مِنْ صيد مصيد إلا بنَقْصٍ من تسبيح، ولا أُنبت اللهُ نابتة إلا وَكَّل بها ملَكاً يُحْصي تسبيحها حتى يأتي به يوم القيامة، ولا عُضدت شجرة، ولا قُطعت إلا بنقصٍ من تسبيح، ولا دخل على امرىء مكروه إلا بذنب، وما عفا الله أكثر». «يا غراب، اعبد الله»، ثم خلى سبيله.

﴿فَكِهِين، وفاكهون﴾ [الدخان: ٢٧، يس: ٥٥]؛ أي معجبون، كما يقال حذِر وحاذر. وفي التفسير: فاكهون: ناعمون، وفكِهُون: معجبون، وفاكهون أيضاً الذين عندهم فاكهة كثيرة. كما يقال: رجل لابنٌ وتامر؛ أي ذو لبن وتمر كثير.

﴿فَرَض عَلَيْكَ القرآن﴾ [القصص: ٨٥]؛ أي أنزله عليكَ وأثبته. وقيل معناه أعطاك القرآن. والمعنى متقارب. وقيل: فرض أحكام القرآن، فهو على حذف مضاف.

﴿فلبث فيهم أَلْفَ سنة﴾ [العنكبوت: ١٤]: الضمير لنوح. والمعنى أنه بقي هذه المدة بعد بَعْثه. وروي أنه عُمّر بعد الطوفان ثلاثمائة سنة. وأكثر الصحابة على أنه قبل إدريس، واسمه عبد الغفار.

وروى الطبراني، عن أبي ذَرّ. قال: قلْتُ: يا رسول الله، مَنْ أول الأنبياء؟ قال: آدم. قلت: ثم مَنْ؟ قال: نوح؛ وبينهما عشرة قرون.

﴿فالزاجراتِ زَجْراً﴾ [الصافات: ٢]: هي الملائكة تزجر السحاب وغيره. وقيل: الزاجرون من بني آدم بالمواعظ. وقيل: آيات القرآن المتضمنة الزَّجْر عن المعاصي.

﴿فالتَّالِيات ذِكْراً﴾ [الصافات: ٣]: هي الملائكة تتلو القرآن والذكر. وقيل: هم التالون للقرآن، والذكر من بني آدم، وهي كلّها أشياء أَقسم الله بها على أنه واحد.

﴿فنظر نظرةً في النجوم. فقال: إني سَقِيم﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]؛ يعني أن قوم إبراهيم طلبوا منه أنْ يَخْرج معهم إلى عيد لهم، وأراد الامتناعَ من ذلك، فنظر في النجوم لأنهم كانوا مُنَجِّمين؛ وقال لهم: إني سقيم؛ أي فيما يستقبل؛ لأن كلَّ إنسان لا بد له أنْ يمرض؛ أو أراد أنه سقيم النفْسِ مِنْ كفرهم وتكذيبهم له؛ وهذا التأويل أولى. وقيل: إنه كانت تأخذه الْحُمّى في وقت معلوم، فنظر في وقتِ أَخْذِها له، واعتذر عن الخروج معهم لذلك. وقيل: نظر وفكر فيما يكون من أمره معهم؛ لأنه أراد كسر أصنامهم؛ فقال: إني سقيم. والنجوم على هذا ما يَنْجُم مِنْ حاله معهم، وليست نجوم السماء؛ وهذا بعيد.

﴿فما ظَنُّكم بربِّ العالمين﴾ [الصافات: ٨٧]: المعنى أي شيء تظنون برب العالمين أن يعاقبكم وقد عبدتم غيره؟ أو أي شيء تظنون أنه هو حتى عبدْتُم غيره؟ كما تقول: ما ظَنُّك بفلان إذا قصدت تعظيمه؛ فالمقصد على المعنى الأول تهديد، وعلى الثاني تعظيم لله وتوبيخٌ لهم.

﴿فتولَّوْا عنه مُدْبرين. فراغَ إلى آلهتهم، فقال: ألَا تَأْكُلون﴾ [الصافات: ٩٠، ٩١] لما قال لهم: إني سقيم ـ خافوا أن يكون طاعوناً، فخافوا منه، وتباعدوا خَوْفاً مِن عَدْواه، فمال إلى آلهتهم، وقال هذا القولَ على وجه الاستهزاء بالذين يعبدونها؛ وقد قدمنا فائدة إدخال الفاء في هذه الآية.

﴿فجعلناهم الأَسْفَلين﴾ [الصافات: ٩٨]: يعني قوم النمرود؛ وذلك أنه قال له: يا إبراهيم، إن كان ربُّك ملكاً فليحارِبْني بعسكره، وليأْخُذ الملك مني. فقال إبراهيم: إلٰهي، إن نمرود ركب مع جنوده، فأَرْسِلْ إليه جُنْداً من أَضعف خَلْقك، وهي البعوض؛ لأنها إذا شبعت تموت وسائر الحيوان إذا شبع يَحْيَا؛ فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، لو لم تسأل جُند البعوض لأَرْسلتُ عليهم جُنْداً ما لَوْ جمعت منه لم يكن مثل ما أَهلكتهم به. قال تعالى: ﴿وما يعلم جنودَ ربِّك إلا هو﴾ [المدثر: ٣١]. فركب نمرود ـ لعنه الله ـ في سبعمائة ألف فارس مُقَنَّع ومُدَرَّع؛ وخرج إلى الخلاء يطلب المبارَزة، فأرسل الله جُنْدَ البعوض، وقال لهم:

جعلتُ اليوم رزقكم هذا الجند، وقوّى الله مناقرها، فلم يحجبها الدروعُ والمغافير حتى أكلت لحومهم ودماءهم، ولم يبق منهم أحد غير نمرود، فإنه هرب ورجع إلى بيته، وأوحى الله إلى البعوض الموكل به أن يُمْهله حتى يرى ما صنع اللهُ بجنده؛ فلما دنا وقتُ عَذابه جعل يَحومُ حَوْلَ منخره ودخله بعد ثلاثة أيام تنبيهاً لنمرود وإمهالاً له، كأنه تعالى يقول: أمهلتُكَ لمعاصيك وكُفْرك، لم نأخذك بغتة، فإن رجعت إلينا في الثلاث فلك الأمان، ومنا القبول والإحسان، وإن لم ترجع فالعيبُ منك؛ أما نحن فقد استعملنا فَضْلنا وكرمنا.

وهكذا عادته سبحانه في إمهال الكفرة وعدَم أَخْذِهم بغتة، فكيف بك يا محمدي إنْ رجعْتَ إليه! أَتراه لا يقبلك، وقد عاتب أنبياءَه في عدم رحمتهم بالكَفَرة اللئام.

فإن قلت: قد عبَّر في آية الأنبياء [٧٠] بالأخسرين، فهل هما بمعنى واحد؟

والجوابُ أن الصفتين من السفالة غاية حالِ الكافرين، ومَنْ كان من الأسفلين فقد خسر خُسراناً مبيناً، فلا تضادّ بين الصفتين؛ لأن السفول لاحق في ذات المنسفل والخُسْرَان حقيقة في خارج عنه، فالسفول أبلغ؛ فقدّم ما هو لاحق خارجيّ وأَخَّرَ ما لا يتعدى ذات المتصف به، تكملةً وتَتمَّة؛ إذ هو أبلغُ على ما يجب وعلى ما قدمنا من رَعْي الترتيب، والتسفّل ضد الترقي.

وقيل: رُوعي في الصفة مقابلة قولهم: ﴿ابْنُوا له بُنْياناً﴾ [الصافات: ٩٧]؛ لأنه يفهم منه إرادتهم علوَّ أمرهم بفعلهم ذلك، فقوبلوا بالضدّ، فجُعلوا الأسفلين، وهو حسن.

﴿فإنهم يومئذ في العذاب مُشْتَرِكون﴾ [الصافات: ٣٣]: الضمير يعود على المتبعين والأتباع، واشتراكُهم في العذاب حكم عدل، إذ كلٌّ منهم مستحق، ألا ترى كيف وصفهم جميعاً بأنهم مجرمون؟

فإن قلت: هل يفهم من اشتراكهم في العذاب استواؤهم فيه؟

والجواب: لا استواء بينهم؛ لأن الشركة في الشيء قد تقتضي تساوي الشركاء في ذلك المشترك فيه وقد لا تقتضي. والضالّ والمضلّ وإن اشتركا في العذاب فللمضِلِّ ضعفان، لأنه ضلَّ وأضلّ.

فإن قلت: قد قال الذين كفروا: ﴿إنا كلٌّ فيها﴾ [غافر: ٤٨]، أي في النار؟

فالجواب أنه إخبار عن التَّساوي في المكان، لا عن الواقع فيه؛ لأنهم في دَرَكات متفاوتون.

وقد صحَّ أن سيدنا ومولانا محمداً ﷺ سأل عن سكانها، فقال: الطبق السابع مأوى المنافقين. والسادس مأوى مَنْ طغى وبغَى وادّعَى الربوبية. والخامس مأوى الجبّارين والظالمين. والرابع مأوى المتكبرين والكافرين. والثالث مأوى اليهود. والثاني مأوى النصارى؛ وسكت عن الأول؛ فقال له: أخبرني عن الأول ـ وألحّ عليه؛ فقال: عصاة أمتك يا محمد؛ فأغمي عليه فلما أفاق بكى بكاءً شديداً، وأغلق عليه الباب، وصار يطلب في أمته، فجاءه جبريل وبشّره بالشفاعة فيهم؛ اللهم كما جعلته رحيماً بنا لا تحرمنا من شفاعته، أُقسم عليك بجاهه عندك.

﴿فَبَشَّرْنَاه بغُلام حَليم...﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿وفَدَيْنَاه بِذِبْحٍ عظيم﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠٧] هذه البشارة انطوت على ثلاثة أشياء: على أَن الولد ذكر، وأنه يبلغ أَوَان الحلم، وأنه يكون حليماً.

قيل: ما نَعَتَ الله الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام بأَقل مما نَعَتَهم بالحلم، وذلك لعزة وجوده. ولقد نعت الله به إبراهيم، وأَيُّ حلم أَعظم من حلمه لمّا عرض عليه أبوه الذَّبح قال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين. والحادثةُ شهدت بحلمهما جميعاً. وفي هذا دليلٌ على أنّ الإشارة بإسماعيل وهو الذّبيح، وأَمْرُ ذبحه كان بالحجاز بمنى، وثَمّ رَمى إبراهيم الشيطان بالجمرات؛ ولهذا قال ﷺ: أنا ابن الذَّبِيحين، يعني إسماعيل، وعبدالله أباه الذي نذر عبدُ المطلب لما حفر بئر زمزم أن يَذْبح أَحد أولاده، فخرج السهمُ على عبدالله، فمنعه أخواله وقالوا له: افْدِ

ابْنَك بمائة من الإبل، ففداه بها، ونحرها عن آخرها، تقرُّباً إلى الله؛ فأخذ منها الناسُ ما يحتاجون والطير والسباعُ. قال علماء الإسلام: ومن جَرَّى هذه الواقعة كانت دِيَةُ الإبل عدد وصفه، كما كان الكبش الذي فدى الله به إسماعيل مثالاً لما وقعت به مشروعية الأضحية.

وروي أن إسماعيل أول مَنْ خطّ بالقلم. ورأيت في بعض التقاييد أن أول من خطّ بالقلم من العرب هود عليه السلام وأن... كان يكتب به، فرأى في منامه مَنْ نهاهُ عن كتبه في الأحجار، وأنه إنما خص الله به نبيئاً يُبْعث في آخر الزمان، فينزل عليه كتاباً يُقرأ ويخطّ بهذا الخط العربي.

وعن الأصمعي قال: سألتُ عمرو بن العلاء عن الذبيح؛ فقال: يا أصمعي، أَين عَزُب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان بها إسماعيل، وهو الذي بنى البيت مع أبيه.

وذكر الطبري، عن ابن عباس، قال: الذبيح إسماعيل؛ وتزعم اليهود أنه إسحاق، وكذَبوا. وسأل عمر بن عبد العزيز يهوديّاً كان أَسلم وحَسُن إسلامه، قال: الذبيح إسماعيل واليهود يعلمون ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن تكونَ هذه الفضيلة في أبيكم.

وفي رياض النفوس أن أسد بن الفرات قال: كنت بالعراق زمن قراءتي على محمد بن الحسن، فقلت له: اختلف الناسُ في الذّبيح؛ من هو، وعندي أنه إسماعيل. قال: لِمَ؟ قال: لأن الله يقول: ﴿فبَشَّرْنَاها بإسحاق ومِنْ وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود: ٧١]، فكيف يُؤْمر بذبح مَنْ قد أخبر أنه سيولد له؟ ومن المعلوم أن الإخبار إنما يقعُ على مجهول العاقبة؛ فتعيّن أنه إسماعيل. قال الشيخ رحمه الله: هذا إن كان صحَّ الخبر قبل الأمر بالذبح.

فإن قلت: لِمَ وصف المبشر به هنا بالحلم، وفي الذاريات [٢٨] والحِجْر [٥٣] بالعلم؟

فالجواب أنه وصفه هنا بالحلم لانقياده لحُكْم ربه، واستسلامه له؛ ووصفَه في

غيرها بالعلم لكبره. وقيل: إن الحليم إسماعيل، والعليم إسحاق. وعن محمد بن كعب القُرَظي قال: كان مجتهدُ بني إسرائيل إذا دعا قال: اللهم ربَّ إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل. فقال: يا رب، ما لمجتهد بني إسرائيل يدعو بهذا، وأنا بين أظهرهم؟ قد أَسمعتني كلامك، واصطفيتني برسالتك. قال: يا موسى، لم يحبّني أَحد حبَّ إبراهيم قط، ولا خُيّر بين شيء قط وبيني إلا اختارني. وأما إسماعيل فإنه جادَ بنفسه، وأما إسرائيل فإنه لم يأيس من روحي في شدةٍ نزلت به قط.

فإن قلت: لِمَ كان الأمر بالذبح هنا ما دون اليقظة؟

فالجواب: لتعْلَم أنّ النبوءة اثنان: رسالة، ورؤيا منام؛ ولما كان إسماعيل أحبَّ إليه من كل شيء لم يُرد الله أن يواجه خليلَه بما فيه كراهية له، فأراه في المنام؛ كأنه استَحْيَى منه، وهكذا عادته سبحانه مع أَنبيائه وخيرته من خَلْقه؛ ألاَ ترى رؤيا يوسف سجود إخوته وأَبويه، ورُؤيا سيدنا ومولانا محمد ﷺ دخولَ المسجد الحرام، وما سواهما؛ للدلالة على تقوية صِدْقهم؛ وإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أَقوى للدلالة من انفراد أحدهما.

فإن قلت: قد قال الله له: «قد صدَّقْتَ الرؤيا»، وإنما كان يصدقها لو صحّ منه الذَّبْح، ولم يصح؟

فالجواب أنه قد بذل وُسْعه فيما أُمر به من بَطْحه على شقّه، وإمرار الشَّفْرَة على حَلْقه، ولكن الله منعها من القطع، ليعلم أنّ القطع لله لا للسكين، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم، فلا يُسمى عاصياً ولا مُفَرّطاً.

فإن قلت: الله تعالى هو الْمُفْتدى منه، لأنه الآمر بالذبح، فكيف يكون فادياً حتى قال: ﴿وفَدَيناه﴾؟

والجواب الفادي هو إبراهيم عليه السلام، واللهُ عزّ وجل وهب له الكَبْش ليفتدي به، وإنما قال: وفَدَيْناه ـ إسناداً للفداء إلى السبب الذي هو الْمُمَكّن من الفداء بهبته.

فإن قلت: لم شاوره في أَمْرٍ هو حتم من الله؟

فالجواب أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكن ليعلم ما عنده، لأنه بُشّر بالحلم، وأيضاً ليوطِّن الولدُ نفسه على الصبّر، ويحتسب؛ فجاوبه عليه السلام بأحسن جواب؛ ألا تراه قال له: يا أبت، خُذْ بناصيتي، واجلس على كتفي لئلا أُوذيك إذا أصابني حَرّ الحديد. ففعل إبراهيم، فلما أَمَرَّ السكين على حلقه انقلبت السكين؛ فلحُرْمة تعفير وجهه رُفِع عنه الذّبح؛ فالمؤمن الذي عفّر وجهه في التراب سنين عديدة أتراه يحرقه بالنار؟

ولما سأل إبراهيمُ الولدَ الصالح وبُشِّر به أُمر بذبحه؛ ليعلم أنّ هذا الولد هو الذي طلبه؛ وكذلك سيدنا محمد ﷺ سأل اللهَ تعالى صلاحَ أمته في وقت وفاته، وطلب منه هو الخليفةَ بعده عليهم، فأجاب الله دعاءه، وأراه سؤاله فيهم: إسماعيل استسلم لقضاء ربّه، ومِنْ عادة الصبيان الجزَعُ من الألم، ومِن طبع الحديد القَطْع، فلما صبر وغيّر عادته لأجل الله غَيَّر طَبع الحديد لأجله، ولم يقطع، كذلك حال المؤمن مع الله، إذا صبر واستسلم للقضاء غيَّر الله طبع العوائد عليه وأثابه الحُسْنى.

وقيل: إنه لما صُرِع للذّبح كشف الله له عن الجنة حتى يسهل عليه اللقاءُ مع ربه، وكذلك المؤمن في حالة الموت يكشفُ اللهُ له على ما أعدَّ له من النعيم، فيسهل عليه خروجُ رُوحه. قال ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلا رأى مقعده من النار لو أَساء ليزداد شُكْراً، ولا يدخل أحد النار إلا رأى مقعده من الجنة لو أَحسن ليكون عليه حَسرة».

قيل: لما أُوتي إبراهيم بالكَبْش يَدَاه مشدودتان إلى قَرْنه، لأن إسماعيل قال له، أَطلقْ لي رِجْلاً واحدة لتعلمَ الملائكة أني فعلْتُ ذلك عن رِضًى مني وطِيب نفسي، وأني لم أجزع، فأوتي بالكبش كذلك.

وأنتَ يا محمدي لو وافقْتَ ربك فيما أمركَ به لرأيتَ العجائب من لطفه في موافقة جميع المخلوقات لك، لكنّك خالفْتَ فاختلفت عليك الأمور، ولذلك قال بعضهم: إني لأعلم حالي مع ربي حتى في غلامي ودابّتي.

ومَرَّ ابنُ المبارك بفرس يُبَاع بأبخس ثمن، فقال: ما بال هذا؟ فقيل له: به عيوبٌ كثيرة، من حرَن ورَكْض، وذَعَارة، فاشتراه وقال في أذنه: إني أتوب من جميع ما عصيتُ الله به، فإياك والمخالفة، فَذلّلَه الله له، وصار كأحسن ما كان، كلُّ ذلك من طاعة الله، وعدم المخالفة.

ولما فدى الله إسماعيل من الذبح دعا بدعوات منها: اللهم اغفر لكل مَنْ وحَّدَك، ومن أصابته محنة - فتذكَّر مِحْنَتي - ففَرِّجْ عنه. وقال: يا رب، حاجتي إليك أن تغفر لكل مؤمن ومؤمنة يذكرك فإني أسألك كما بردت النار على خليلك إبراهيم، وانجيتني من الذبح، كذلك خلّص المؤمنين من النار.

فانظر ما أعظم حرمتك عند ربك يا مؤمن؛ الملائكةُ والأنبياءُ وجميعُ المخلوقات يستغفرون لك، ورسولُك ﷺ يشفع فيك؛ أفتراه يعذِّبك بعد هذه الفضائل؟ بل يفديك من النار بيهودي أو نصراني كما فدّى إسماعيل بالكبش الذي تقرَّبَ به هابيل وربَّاه في الجنة لإسماعيل.

فإن قلت: لم وصف الفداء بالعظمة؟

فالجواب: لكيلا يدخل في حدّ محدود؛ إذ لو كان محدوداً لوجب الافتداء به؛ وكذلك سائر المسلمين. وكان فيه مشقة. وقيل: لأنه من عند الله. وانظر كيف وصفه بالعظمة، مع أنه وصف نفسه وكتابَه والأجر بالعظيم، والفوز العظيم، والعذاب العظيم، والظلم شِرْك عظيم، والبهتان، وكَيْد النساء عظيم، وزلزلة الساعة شيء عظيم، والعرش العظيم؛ وقال: «أَنْ تَميلوا ميلاً عظيماً». فقد افترى إثْماً عظيماً، وتحسبونه هيِّناً وهو عند الله عظيم.

وقيل: إن الله أمر إبراهيم بتعليق قَرْن الفداء على الكعبة إشارة له أن عَلِّقْ قلبك بعرشي، ولا تلتفت لسوائي؛ لأني ربُّ الكل.

وأنت يا محمديّ إذا علقت قلبَك بربك، وأَخفيتَ ما بينك وبينه، ولم تُطلِع عليه أَحداً من خَلْقه، أفتراه لا يقْبَلك، وقد أَخْفى لك ما لا يخطر ببالك من قُرّة أعين؟

فإن قلت: لِمَ لـمْ يقل في هذه القصة كما قال قبل: إنّا كذلك نَجْزِي المحسنين؛ فيكون ذكره تفخيماً لأمْره؟

فالجواب أنه تقدم في قصة إبراهيم نفسها: إنا كذلك؛ فاستغنى عن إعادتها.

﴿فأتُوا بكتابكم إنْ كنْتُم صادقين﴾ [الصافات: ١٥٧] عجَّز قريشاً بهذا الخطـاب؛ لأنهم ليس لهم كتـاب يحتجّـون بـه، وكـذلـك: ﴿فـاسْتَفْتِهـم﴾ [الصافات: ١١] على وجه التقرير والتوبيخ عما زعموا من أن الملائكة بنـات الله.

﴿فإنّكُمْ وما تَعْبُدونَ. ما أَنْتُم عليه بِفَاتِنين﴾ [الصافات: ١٦١، ١٦٢]؛ يعني بما تعبدون من الأصنام وغيرها. وما تعبدون عطف على الضمير في إنكم؛ ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع. ومعنى فاتنين مُضِلِّين. والضمير في عليه يعود على ما تعبدون، وعلى سببية؛ معناها التعليل. و﴿من﴾ [الصافات: ١٦٣] مفعول بفاتنين. والمعنى إنكم أيها الكفّار وكل ما تعبدونه لا تُضِلون أحداً إلا مَنْ قضى الله أنه يَصْلَى الجحيم. وقال الزمخشري: الضمير في «عليه» يعود على الله تعالى.

﴿فَتولَّ عنهم حتّى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤]؛ أي إلى حضور آجالهم. وقيل: حضور يوم القيامة. وقيل: حضور يوم بدر، وهذه موادعة منسوخة بالقتال.

﴿فسوف يُبْصِرون﴾ [الصافات: ١٧٩]: وعدٌ للنبي ﷺ ووَعِيد لهم.

فإن قلت: ما فائدة تكرير هذه الآية؟ ولم حُذِف في الثانية المفعول؟

فالجواب: من وجهين: أحدهما أنه اكتفى بذكره أولاً عن ذكره ثانياً، فحذَفه اختصاراً. والآخر أنه حذفه ليفيد العموم فيمن تقدم وغيرهم، كأنه قال: أبصر جميع الكفار، بخلاف الأول، فإنه في قريش خاصة.

﴿فإذا نزل بساحَتِهم فساءَ صبَاحُ الْمُنْذَرين﴾ [الصافات: ١٧٧] الساحة: الفِنَاء حول الدار؛ والعرب تستعمل هذه اللفظة فيما يردُ على الإنسان من محذور.

وسوء الصباح مستعمل في ورود الغارة والرزايا؛ ومقصدُ الآية التهديد بعذاب يحل بهم بعد أن أُنذروا فلم ينفعهم الإنذار؛ وذلك تمثيل بقوم أنذرهم ناصح بأنَّ جيشاً يحلّ بهم، فلم يقبلوا نُصْحه، حتى فاجأهم الجيش فأهلكهم.

وفي صحيح البخاري أنه ﷺ صعد على الصفا، ونادى بأعلى صوته: يا صباحاه! ففزعت إليه قريش، فقال: ما تقولون، لو أنذرتكم خيلاً تُصْبِحكم أوَ مصدّقيّ أنتم؟ فقالوا: نعم. فقال لهم: إني نَذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد، ثم أنذرهم عموماً وخصوصاً، فقال له أبو لهب: تبًّا لك! ألِهَذا جمعتنا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَتْ يَدَا أَبي لهب﴾ [المسد: ١].

﴿فَلْيَرْتَقُوا في الأَسْباب﴾ [ص: ١٠] هذا تعجيز لهم وتهكّم بهم. ومعنى يرتقوا يصعدوا، والأسباب هنا السلاليم والطرق وشِبْه ذلك مما يُوصل به إلى العلو. وقيل: هي أسباب السماء. والمعنى إن كان لهم مُلك السموات والأرض فليصعدوا إلى العرش ويدَبِّرُوا الملك.

﴿فَوَاق﴾ [ص: ١٥]: فيه ثلاثة أقوال: أحدها ـ رجوع؛ أي لا يرجعون بعدها إلى الدنيا، وهو على هذا مشتق من الإفاقة. الثاني ـ ترداد، أي هي واحدة لا ثاني لها. الثالث ـ ما لها من تأخير ولا توقّف مقدار فُوَاق ناقة وهو ما بين حَلْبتيها؛ وهذا القول إنما يجري على قراءة فواق بالضم؛ لأن فُواق بالضم، كذا في الحديث؛ والقولان الأول على الفتح، والثاني على الضم.

﴿فَصْلَ الخِطَاب﴾ [ص: ٢٠] هو فصل القضاء بين الناس بالحق عند ابن عباس، وعند علي بن أبي طالب ـ هو إيجاب اليمين عليه والبَيّنة على المدّعِي. وقيل كلمة أما بعد، فإنه أول مَنْ قالها. وقال الزمخشري: معنى فصل الخطاب: البَيِّن من الكلام الذي يفهمه من يخاطب به؛ وهذا هو الذي اختاره ابن عطية، وجعله من قوله: ﴿إنه لقول فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]

﴿فاعْبُدُوا ما شِئْتُم مِنْ دونه﴾ [الزمر: ١٥]: هذا تهديد ومبالغة في الخذلان والتّخلية لهم على ما هم عليه.

﴿فسلَكَهُ يَنَابِيعَ في الأَرضِ﴾ [الزمر: ٢٠] أي أدخل المطر وأجراه. والينابيع: جمع ينبوع، وهو العين؛ وفي الآية دليل على أنّ ماء المطر هو الْمُخْرِج للعيون.

﴿فرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر: ٥٦]؛ أي في حق الله. وقيل في أمره؛ وأصله من الجنب، بمعنى الجانب، ثم استُعير لهذا المعنى. ومعناه اتقوا يوماً تقول فيه كلُّ نفس: يا حسرتى على ما فرطت في جَنْبِ الله وإن كنتُ لمن الساخرين؛ ندامةً على استهزائه بأمر الله تعالى.

فإن قلت: لم نكرت النفس؟

فالجواب أن المراد بها بعضُ الأنفس، وهي نفس الكافر؛ ويجوز أن يُراد نفس متميِّزَة من الأنفس إمّا بلجاج في الكفر شديد أو بعذاب عظيم؛ ويجوز أن تكون للتكثير؛ قال قتادة: لم يكفه أنْ ضَيّعَ طاعةَ الله حتى سخر من امتثالها.

وروي أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك عِلْمه وفسق ـ أتاه إبليس، فقال له: تمتَّع من الدنيا ثم تُبْ. فأطاعه، وكان له مال، فأنفقه في الفجور، فأتاه ملك الموت في ألَذِّ ما كان؛ فقال: يا حسرتى على ما فرَّطْتُ في جنب الله؛ ذهب عُمْري في طاعة الشيطان، وأسخطت الملك الدّيان، فندم حين لم ينفعه الندم، فأنزل الله خبره في القرآن.

فليتأمل العاقلُ هذا الوعيد الهائل، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، على طَمْس قلوبنا، وغَفْلتنا عما يُراد بنا. صدق الله العظيم في قوله في بعض كتبه: «يا علماء السوء، قد وعظتكم وأنذرتكم، ومِنْ فعل القبيح حذّرْتُكم، وكثير من الآيات أريتكم فلم تنتفعوا بالمواعظ والآيات، وما تُغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، تطيعون أنفسكم فيما تشتهون وهي تعصيكم فيما تأمرون، بئس العبيد أنتم إذا علمتم أنكم لا تنالون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون، ولا تبلغون ما تأملون إلا بصبركم على ما تكرهون؛ تريدون مرافقة النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين، بأي عمل عملتموه؟ بأي غَيْظ كظمتموه؟ بأي رحم وصلتموه؟ بأي قريب باعَدْتموه؟ بأيٍّ بعيد قَرَّبتمُوه؟ وبأي زلة لإخوانكم عَفَوْتُم عنها؟ بأي شهوة تركْتُمُوها؟ هل أنتم إلا كالْحَمْقَى؟ أما علمتم أنَ مَنْ كثر شبعه كثر لحمه، ومن كثر لحمه كثرت شهْوَتُه، ومن كثرت شهوته كثرت ذُنُوبُه، ومَن كثرت ذنوبه قَسا قلبه، ومَنْ قسا قلبه غرق في الآفات؟ أما علمتم أن المسيء ميت وإن كان في منازل الأحياء، والمحسن حيّ وإن انتقل إلى منازل الأموات».

﴿فَوْج﴾ [ص: ٥٩]: مفرد أفواج، وهي الجماعة من الناس.

﴿فَطَرني﴾ [يس: ٢٢]؛ أي خلقه ابتداء؛ ومنه فاطر السموات والأرض، وفِطْرَةَ الله التي فطر الناس عليها. وأفطر بالألف من الإطعام.

﴿فعليه كَذِبُه﴾ [غافر: ٢٨]: هذا من قول موسى إلى فرعون، يعني إن كان موسى كاذباً في دعوى الرسالة فلا يضرّكم كذِبُه، فلأي شيء تقتلونه؟

فإن قلت: كيف قال: وإن يك كاذباً ـ بعد إيمانه به؟

فالجواب أنه لم يقُلْ ذلك على وجه التكذيب؛ وإنما قاله على وجه زعمكم أنه كاذب، وقصد بذلك المحاجّة عليهم. وفيه احتجاجٌ عليهم، كأنه قال: قدَّرْنَا كذِبَه، ماذا عليكم من كذبه، هَبْه رجلاً منكم كذب عليكم، فأقام عليهم الحجة على تقدير الكذب والصدق.

﴿فأَطَّلِعَ﴾ [غافر: ٣٧]: بالرفع عطف على ﴿أبلغُ﴾ [غافر: ٣٦]، وبالنصب على إضمار «أنْ» في جواب لعلي، لأن الترجي غير واجب، فهو كالتمني في انتصاب جوابه، ولا نقول إن لعل أشربت معنى ليت، كما قاله بعض النحاة.

وهذا من قول فرعون لما أمر هامان ببنيان الصرح الذي رام أن يصعد به إلى

السماء، وانظر ضَعْف عقولها وعقول قومها وجهلهم بالله في كونهم طمعوا أَنْ يصِلُوا إلى السماء ببُنْيان الصرح.

وقد روي أنه أول من علمنا الآجر، وصعد على الصرح بعد بنيانه، ورَمى بسهم إلى السماء، فرجع السهم مخضوباً بالدم؛ وذلك فتنة له ولقومه، وتهكم به.

﴿فقال لها وللأَرْض ٱئْتِيَا طوعاً أو كَرْهاً﴾ [فصلت: ١١]، ضمير التأنيث يعود على السموات، قوله: ائتيا مجاز، وهو عبارة عن تكوين طاعتها، وكذلك قولها: أَتَيْنَا طائعين، عبارة على أنهما لم يمتنعا عليه حين أَراد تكوينهما. وقيل: بل ذلك كلام حقيقة، أنطق الله السموات والأرض بالطوع، ولهذا جمعهما جمع العقلاء لفعلهما فعلهم. وقول الله لهما عبارة عن لزوم طاعتهما كما يقول الملك لمن تحت يده: افعل كذا، شئْتَ أو أَبَيْتَ، أي لا بدّ لك من فعله. وقيل تقديره: أتيتما طوعاً وإلا أتيتما كَرْهاً. وقيل: إن المجيب له من الأرض موضع الكعبة، ومن السموات البيت المعمور، فلِذا أكرمهما الله بالطواف بهما.

فإن قلت: هلّا قال طائعتين على اللفظ أو طائعات على المعنى، لأنها سموات وأرضون؟

فالجواب لما جُعِلن مُجيبات ومخاطبات ووُصِفن بالطوع والكره قال: طائعين في موضع طائعات، نحو قوله: ساجدين ـ تغليبا.

فإن قلت: لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمهما في الأمر بالإتيان، والأرضُ مخلوقَة قبل السماء بيومين؟

فالجواب قد خلق جرم الأرض أولاً غير مَدْحُوَّة كما قدمنا، فالمعنى ائتيا على ما ينبغي أن تَأْتيا عليه من الشكل والوَصْف، ائتي يا أرض مدحوة قراراً ومِهَاداً لأهلك، وائتي يا سماء مقبية سقْفاً لهم، ومعنى الإتيان الحصول والوقوع، وتنصره قراءةُ من قرأ واتَيَا من المواتاة، وهي الموافقة، أي لِتُواتِ كلٌّ واحدة أختها ولتوافقها، قالتا: وافقنا وساعدنا.

﴿فَتَنَّا سُلَيْمان﴾ [ص: ٣٤]: قد قدمنا أنه لما نظر إلى مُلْكه، واستعظمه، ابتلاه بأَنْ أَلقى على كرْسيه جسداً، فقيل ولده الذي مات. وقيل: الصنم الذي اتخذته بنْتُ ملك الروم التي أَسرها سليمان ثم تزوجها، وهذه عادَتُه سبحانه مع أنبيائه وأحبابه؛ ولذلك أمر حبيبه بأَلّا يلتفت إلى غيره غيرةً منه عليه، ولما لم يلتفت إلى غيره قَرَّبَه منه، فكان كقَاب قَوْسين أو أدنى.

﴿فوَيْلٌ للقاسيةِ قلوبُهُم من ذِكْرِ الله﴾ [الزمر: ٢٢]: الويل: وادٍ في جهنم تستعيذ منه كلَّ يوم سبعين مرة، وقد ذكره الله لثمانية عشر صنفاً: اليهود: ﴿فوَيْلٌ لهم مما كتبت أيديهم﴾ [البقرة: ٧٩]. ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ [الجاثية: ٧]. ﴿وَيْلٌ يومئذ للمكذبين﴾ [المرسلات: ١٥]. و ﴿ويل للمطففين...﴾ [المطففين: ١] الآيتين. و ﴿ويل لكل هُمَزة لُمَزَة﴾ [الهمزة: ١]. ﴿يا ويلنا إنا كنّا طاغين﴾ [القلم: ٣١]. ﴿فويل للمصلّين﴾ [الماعون: ٤]. ﴿يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا﴾ [الأنبياء: ٩٧]. ﴿يقولون يا ويلتنا﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿ولكم الوَيْلُ مما تَصِفون﴾ [الأنبياء: ١٨]. ﴿يا ويلتَى ليتني﴾ [الفرقان: ٢٨]. ﴿ووَيْل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة﴾ [فصلت: ٦، ٧]. ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ [إبراهيم: ٢]. ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ [الزخرف: ٦٥].

ولا أظن أحداً في هذا الزمان سلم من هؤلاء الأصناف، وخصوصاً القاسية قلوبهم مِنْ ذكر الله، فقد اتصفنا بها أجمعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون! وهذه حالة تقتضي ختم القلوب وتغذيها بالحرام الذي يبعد عن المربوب.

﴿فقضَاهُنَّ سبْعَ سَمٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]؛ أي صنعهن؛ وانتصابها على التمييز تفسيراً للضمير؛ وأعاد عليها هنا ضمير الجماعة المؤنثة لأنها لا تعقل.

فإن قلت: قد قال أولاً في يومين، وبعده في أربعة أيام، وهنا في يومين؛ وهذا يقتضي أنها ثمانية أيام.

والجواب لما ذكر أنَّ الأرضَ خُلِقَتْ في يومين عُلم أن ما فيها خلق في يومين، فبقيت المخايرة بين أن يقول في يومين، وأن يقول في أربعة أيام، فتلك أربعة أيام؛ ثم خلق السموات في يومين؛ فتلك ستة أيام حسبما ذُكر في مواضع كثيرة من القرآن؛ ولو كانت هذه الأربعة الأيام زائدة على اليومين المذكورين قبلها لكانت الجملةُ ثمانية أيام، بخلاف ما ذكر في مواضع كثيرة.

قال بعض العلماء: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في يوم الأحد؛ فمن أراد البناء فليبن فيه؛ وخلق الشمس والقمر في يوم الاثنين وصفتها السير؛ فليسافر فيه؛ وخلق الحيوان يوم الثلاثاء، وأباح ذَبْحها وإراقةَ دمها؛ فمن أراد الحجامة فيه فليحتجم فيه؛ وخلق البحار والأنهار يوم الأربعاء وأباح شربها، فمن أراد شرب الدواء فليشرب فيه، وخلق الجنة والنار يوم الخميس وجعل الناس محتاجين إلى دخول الجنة والنجاة من النار؛ فمن أراد قضاء الحوائج فليسأل فيه؛ وخلق آدم وحواء يوم الجمعة وزوجهما فيه، فمن أراد عقد التزويج فليتزوج فيه؛ أخذه من قول الإمام علي رضي الله عنه:

لنعم السبت يوم السبت حقا	لصيدٍ إن أردْتَ بلا امتراءِ
وفي الأحد البناء، لأن فيه	ابْتدأ اللهُ خَلْقَ السماء
وفي الاثنين أسفار وربح	وأمْنٌ في الطريق وفي العطاء
وإنْ ترد الحجامة فالثلاثا	ففي ساعتها هرق الدّماء
وإن شرب امرؤ يوماً دواء	فنعم اليوم يوم الأربعاء
وفي يوم الخميس قضا حوائِج	وفيه الله يأذن بالقضاء
ويوم الجمعة التزويج فيه	ولذات الرجال مع النساء
وهذا العلم لا يحويه إلا	نَبيٌّ أوْ وَصِيّ الأنبياء

فإن قلت: كيف ذكر الأيام التي خلق الله فيها المخلوقات، وإنما تعتبر بوجود الشمس؟

والجواب أنه يحتمل أن يجعلها على التقدير، وإن لم تكن الشمس خُلقت

بعد، وكان تفصيل الوقت أنها الأحد ويوم الاثنين، كما ذكر فخلـق الأرض غير مَدْحُوَّة، ثم خلق السموات فسواهنّ في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل الرواسيَ وغيرها في يومين، فتلك أربعة أيام للأرض، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿والأرض بَعْدَ ذلكَ دَحَاها﴾ [النازعات: ٣٠]، كلُّ ذلك تعليماً لعباده، وإشارةً لهم في التأنّي في الأمور، لأنه كان سبحانه قادراً على قوله لها: كُنْ، فكانت.

وفي الحديث أنه سئل ﷺ عن يوم الأحد، فقال: يوم غَرْس وعمارة، قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: لأن فيها ابْتدأ الله خلق الدنيا وعمارَتها.

فإن قلت: بم علق قوله: للسائلين [فصلت: ١٠]؟

قلت: بمحذوف، كأنه قال: هذا الْحَصرُ لأجل مَنْ سأل في كَمْ خُلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر فيها الأقوات لأجل الطالبين إليها من المقتاتين، وهذا الوَجْهُ الأخير لا يستقيم إلا على طريقة الزجاج.

﴿فَرِحُوا بما عندهم من العلم...﴾ [غافر: ٨٣] الآية: الضمير يعود على الأمم المذكورة الذين جاءتهم رسلهم بالبينات.

فإن قلت: أي علم عندهم حتى يَفْرَحوا به؟

فالجواب أنهم كانوا يفرحون بما عندهم من العلم في ظنّهم ومُعْتقدهم من أنهم لا يُبعثون ولا يحاسبون، واغتروا بعلمهم في الدنيا والمعاش، وظنّوا أنه يَنْفَعهم. وهذا لقول بعضهم: ﴿وما أَظُنّ الساعةَ قائمة...﴾ [الكهف: ٣٦] الآية.

وقيل: أراد علم الفلاسفة والدهريّين، من بني يونان؛ وكانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغّروا علم الأنبياء إلى علمهم؛ وعن سقراط أنه سمع بموسى عليه السلام فقيل له: لو هاجَرْتَ إليه. فقال: نحن قوم مهذّبون؛ فلا حاجةَ بنا إلى من يُهَذّبنا.

وقيل: فرحوا بما عند الرسل من العلم فَرَحَ ضَحِك منه واستهزاء به، كأنه

قال: استهزأوا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوَحْي. ويدل عليه قوله: ﴿وحاق بهم ما كانُوا به يَسْتَهْزئون﴾ [الزمر: ٤٨]؛ جزاء جهلهم واستهزائهم. وقيل: الضمير عائد على الأنبياء؛ وفي هذا التأويل حَذْفٌ؛ وتقديره: فَلمّا جاءتهم رسلُهم بالبينات كذّبوهم، ففرح الرسل بما عندهم من العلم والثقة به، وبأنه سينصرهم.

و﴿حاق﴾ معناه نزل بهم وثبت؛ وهي مستعملة في الشر. و﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما كانوا﴾ هو العذاب الذي كانوا يكذّبون به ويستهزئون بأمره. والضمير في بهم عائد على الكفار بلا خلاف.

فإن قلت: ما معنى ترادف هذه الفاءات في هذه الآيات؟

قلت: أما قوله: ﴿فما أَغْنَى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ [غافر: ٨٢]. فهو نتيجة قوله ﴿كانوا أكثر منهم﴾ [غافر: ٨٢]. وأما قوله: ﴿فلما جاءتهم رسلُهم بالبينات فرحوا﴾ [غافر: ٨٣]، فجارٍ مَجْرَى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿فما أَغْنَى عنهم﴾ [غافر: ٨٢]؛ كقولك: رُزِق زيد المال فمنع المعروف، فلم يُحسن إلى الفقراء. وأما قوله: ﴿فلما رَأَوْا بَأسَنا قالوا آمَنَّا﴾ [غافر: ٨٤] فكذلك: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم﴾ [غافر: ٨٥] تابع لإيمانهم لما رأَوْا بَأْس الله.

فحقّ لمن سمع هذه الموعظة أَنْ يبادر إلى الطاعة، ولا يتأنّى. بلى، والله، وقعت مِنا المخالفة وقتَلْنَا أنفسنا بالمعاصي بئس ما اخترنا! كم وعظنا المشيب ولا قبلنا، علمنا أنّ الدنيا ثلاثة أنفاس: نَفَس مضى عملنا فيه ما عملنا، ونَفَس لا ندري أَنملكه أم لا؛ فليس لنا إلا النفس الذي نحن فيه. حرصنا على درهم لا ندري لمن يبْقَى، ومزقنا ثوب المعاصي ولم نكفه بتوبة؛ فما أسرع الملتقى! أليس هذا من العمى؛ إذا شغلنا بالجنة خسرنا فكيف يكون حالُنا وقد شغلتنا المعاصي عن الإقبال عليه! بئس ما استنفدنا زمانَ الصبا في المعاصي واللهو، ولم ننته في الكبر عن لَهْونا؛ ولو تُبْنَا لحقّ لنا البكاء؛ فكيف وقد انهمكنا! إذا تاب الشيخ

يقول الله عز وجل: الآنَ جئتنا حين ضعفَتْ مفاصلك. الآن وقد ذهبت قُوّتك. الآن وقد نفد عمرك. الآن وقد قَسا بالمعاصي قَلْبُك. الآن وقد ضاع في البطالة وقْتُك. هذا لمن تاب؛ فكيف حال مَنْ هو في قَفص الطبع محجوب عن العتاب؛ نعقد عقدة التوبة بخيط العنكبوت ظاهراً وباطناً، نتلذّذ بها، فكيف لا نحلها؟ لو صدقت التوبةُ منا لوجدنا مرارتها، كما وجدنا حلاوتها؛ إلهي التوبة لا تدوم لي، والمعصيةُ لا تنصرف عني، ولا أدري بِمَ تختم لي، غير أنَّ عفوك ورجاءك أطمعني أن أسألك ما لا أستَوْجِبه منك؛ فهب لي منك توبةً باقية، واصرف أزمة الشهوات عني، وحقّقني بحقيقة الإيمان، وأعنّي على نفسي والهوى والشيطان، بحرمة سيدنا ونبينا ومولانا سيد الثَّقَلين صلى الله عليه وعلى آله ما اختلف الْمَلَوان.

﴿فإن أعْرَضوا﴾ [فصلت: ١٣]: الضمير لقريش، أي أعرضوا عنك يا محمد فسآخذهم أخذةً شديدةً، مثل أخذ عادٍ وثمود، وقد كانوا أشدَّ منهم قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون.

﴿فإنّا بما أُرْسِلْتُم به كافرون﴾ [فصلت: ١٤]: ليس فيه اعتبار الكفار بالرسالة، وإنما معناه بما أرسلتم على قولكم ودَعْوَتكم؛ وفيه تهكم.

﴿فالَّذِينَ عِنْد ربِّك﴾ [فصلت: ٣٨]: يعني الملائكة. ووصفهم بالعندية للتشريف والتكريم؛ إذ يستحيل في حقه جلّ وعلا التجسيم، المجسم أعمى والمعطل أكمه.

﴿فحُكْمُه إلى اللهِ﴾ [الشورى: ١٠]: الضمير في المختلف فيه، يعني ما اختلفتم أنتم والكفّار مِنْ أمر الدين الْحُكْمُ فيه إلى الله بأَنْ يعاقب المبطل ويُثيب المحق، أو ما اختلفتم فيه من الخصومات فتحاكَمُوا فيه إلى النبي ﷺ. وهذا كقوله: ﴿فردُّوه إلى الله والرسول﴾ [النساء: ٥٩].

﴿فإمّا نَذْهَبَنَّ بكَ فإنَّا منهم مُنْتَقِمُون﴾ [الزخرف: ٤١]: يحتمل أن يريد بهذا الانتقام قَتْلهم يوم بَدْر، وفَتْح مكة، وشبه ذلك من الانتقام في الدنيا، أو

يريد به عذابَ الآخرة. وقيل: إن الضمير في منهم منتقمون للمسلمين، وإن معنى ذلك أن اللهَ قضى أن ينتقم منهم بالفِتَن والشدائد، وأنه أكرم نبيَّه ﷺ بموته قبل رؤيته الانتقام منهم.

والصحيح أنَّ مقصد الآية وَعِيدُ الكفار، يعني إن عَجَّلْنَا وفاتَك قَبْلَ الانتقام منهم فيقع الانتقامُ منهم بعده، وإن أخَّرْنا وفاتَك إلى حين الانتقام منهم فإنّا عليهم مقتدرون.

ثم شهد له بأنه على صِرَاطٍ مستقيم، وكيف لا يكون على الصراط المستقيم وقد كان يقمُّ البيْتَ، ويحلب الشاة، ويعلف الناضح، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، وينام على الحصير، ولا ينام على الوَثِير، ويسلِّمُ مبتدراً على مَنْ لقي من صغير أو كبير، ويأخذ بيد الخادم ويَطْحَن معها إذا عيَّت، حتى قال الحق فيه: وإنك لعلى خُلق عظيم، وأنزل عليه الكتابَ الحكيم، وشرح صَدْرَه، ويَسَّر أمره، وأعْلَى في العالمين ذِكْرَه، وأمره بالاستمساك بما أوْحى إليه، ليَقْتَدِي بـه مَنْ بعده؛ فهو أحمد، وأُمَّتُه الحامدون، ومستغفِرٌ وأمَّتُه التوّابون؛ خصه الله وأُمته بخصائص لم يعطها مَن تقدم في الدنيا ولا في الآخرة: في الدنيا يطول ذكرها، وفي الآخرة لا يُقدر قَدرها، كالحوض، والكوثر، واللواء الذي عَرْضُه ما بين الْمَشْرِق والْمَغْرِب مكتوب عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ تقدمته آدم ونوح، وخلفه إبراهيم وموسى، وعن يمينه جبريل وميكائيل، وعن يساره إسرافيل وعزرائيل، وسَاقتـه أصحابه وأُمته، رافعاً صوته: يا ربّ، أمتي أمتي، وقد وعدتني الشفاعةَ فيهم، وهم عَبيدُك؛ فاغفر لهم ما جَنَوْا، ولا تُؤَاخذهم بما عَصَوا؛ يا أكرم الْخَلق، يا رسول الله، عبدك المصنف قد وحل في شَرَك المعاصي، ولم يجد مُنْقِذاً يُنْقذه منه غَيْرَ جاهك العظيم، فلا تخيّبه منه، وخُذْ بيده، ولا تعامِلْهُ بما جفاك به، حاشا لفضلك أنْ تخيب راجياً؛ الخير أكبر، والمواهب أوسع!

﴿فأنا أوّلُ العابديـن﴾ [الزخـرف: ٨١]: هـذه الآيـة ردٌّ على الكفـار،

واحتجاجٌ عليهم؛ لأنهم كانوا يقولون: إنّ له ولداً؛ ومعناها: لو كان للرحمن ولد كما يقول الكفار لكنْتُ أنا أول من يعبد ذلك الولد. كما يعظِّمُ خدامُ الملك ولدَ الملك لتعظيم أبيه؛ ولكن ليس للرحمن ولد؛ وما ينبغي له أن يتخذ ولداً، فلا تعبد غيره.

وهذا نوعٌ من الأدلة يسمَّى دليلَ التلازم، لأنه علّقَ عبادةَ الولد بوجوده، ووجودُه محال، فعبادته محال. ونظير هذا أن يقول المالكي - إذا قصد الرد على الحنفي في تحليل النبيذ: إن كان النبيذُ غير مُسْكِر فهو حلالٌ، لكنه مسكر فهو حرام.

قال الطبري: هو ملاطفةٌ في الخطاب؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿وإنَّا أو إيّاكم لعَلَى هُدًى أو في ضلالٍ مبين﴾ [سبأ: ٢٤]. قال ابن عطية: ونحوه قوله تعالى في مخاطبة الكفار: ﴿أين شركائي﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤] يعني في زعمكم. وقد تكلم الزمخشري هنا بزعمه الفاسد بما لا يليق ذِكْرُه للمبتدىء؛ وأما المنتهي فيعلم فسادَ مذهبه؛ ورضي الله عن ابن خليل السكوني في ردّه عليه للتحرز منه، عامله الله بلطفه.

﴿فاصْبِرْ كما صبرَ أُولو العَزْمِ مِنَ الرُّسل﴾ [الأحقاف: ٣٥]: قد قدمنا أن الله ذكرهم في قوله: ﴿وإذ أخذْنـا من النبيين ميثاقَهم ومنك﴾ [الأحزاب: ٧] - في هذا التقديم إشعارٌ بفَضْلِه ﷺ على مَنْ سواه.

وقيل: أولو العزم الثمانية عشر المذكورون في الأنعام؛ لقوله تعالى: ﴿فبهُدَاهُمْ اقْتَدِه﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقيل: كلُّ من لقي من أمته شدة. وقيل: الرسل كلهم أولي عَزْم؛ فمن الرسل على هذا لبيان الجنس، وعلى الأقوال المتقدمة للتبعيض.

﴿فضَرْبَ الرِّقَاب﴾ [محمد: ٤]: أصله: فاضربوا ضَرْباً، ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه. والمراد قتلهم، ولكن عَبَّر عنه بضرب الرقاب؛ لأنه الغالبُ في صفة القتل.

﴿فشدُّوا الوثاق فإمّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِدَاءً، حتى تضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَها﴾ [محمد: ٤]: قد قدمنا في حرف التاء اختلاف الأوزار، ومتى يكون ذلك؛ وانتصب المنّ والفِدَاء على المصدرية، والعامل فيهما فعلان مضمران. ومعنى الْمَنّ العتق. والفداء: فك الأسير بمال. وأمر الله في هذه الآية بوثاق الأسير حتى يفدى أو يُمَنّ عليه؛ والإمامُ مُخَيَّرٌ في ذلك أو القتل، والاسترقاق، وضَرْب الجزية.

وقيل: لا يجوز المن ولا الفداء؛ لأن الآية منسوخة بقوله: ﴿فاقْتُلوا المشركين حيثُ وجدتموهم﴾ [التوبة: ٥]. فلا يجوز على هذا إلاّ قتلهم. والصحيح أنها محكمة.

﴿فقد جاءَ أَشْرَاطُها﴾ [محمد: ١٨]: يعني علامات الساعة، والذي جاء من ذلك مبعثه ﷺ؛ لقوله: أنا من أشراط الساعة؛ وبُعثت أنا والساعة كهاتين.

وقد أُخبرنا أنّ لها دلائل؛ منها ظهور الفِتَن وكثرة المعاصي، والحرص في الدنيا، والتنافس عليها، وتوسيد الأمر لغير أهله؛ فحينئذ يظهر الدجال، ويأجوج وماجوج؛ وطلوع الشمس من مغربها، وتفصيل هذا كلّه يحتاج لطول نَفس، لكنّهم اختلفوا في أول الآيات ظهوراً؛ وذلك يتوقف على صحة نَقْلٍ؛ وظهور المهدي والدجال بَعده، وعيسى بعده، ويعلم الله ما بعد ذلك.

والصحيح أنها كالخرز إذا ظهرت واحدةٌ تبعتها أُختها.

﴿فأَوْلَى لهم﴾ [محمد: ٢٠]: في معناه قولان:

أحدهما أنه بمعنى أحق، وخَبَره على هذا طاعةٌ. والمعنى أن القول المعروف والطاعة أولى لهم وأحق.

والآخر أنّ أولى لهم كلمةمعناها التهديد والدعاء عليهم؛ كقولك: وَيْل لهم. ومنه قوله أوْلَى لك فأَوْلى، فيوقف على أولى لهم على هذا القول، ويكون طاعةٌ ابتداء كلام؛ تقديره طاعةٌ وقول معروف أمْثَل، والمطلوب منهم طاعة وقول معروف، أو قولهم لك يا محمد: طاعة وقول معروف بألسنتهم دون قُلوبهم.

﴿فإذا عَزم الأمر فلو صدَقُوا اللهَ لكانَ خَيْراً لهم. فهل عسيتُم﴾ [محمد: ٢١، ٢٢]: أسند «الأَمْـرَ» إلى العزم مجازاً، كقولك: نهارُه صائم، وليلُه قائم. ويحتمل أن يريد صِدْقَ اللسان، أو صِدْق العزم والنية، وهو أظهر.

وانظر كيف خرج من الغَيْبَة إلى الخطاب بقوله: ﴿عسَيْتُم﴾، ليكون أبلغ في التوبيخ.

والمعنى: هل يُتَوَقَّع منكم الإفساد في الأرض، وقَطْعُ الأرحام، إنْ توليْتم. ومعنى توليتم: صرتم وُلاةً على الناس، وصار الأمْرُ لكم، وعلى هذا قيل: إنها نزلت في بني أمية. وقيل معناه: أعرضتم عن الإسلام.

﴿فكيف إذا تَوَفَّتْهُم الملائكة﴾ [محمد: ٢٧]: ضمير الفاعل للملائكة. وقيل: إنه للكفار؛ أي يضربون وجوه أنفسهم، وذلك ضعيف.

﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لهم﴾ [محمد: ٣٤]: هذا قَطْعٌ بأن مَنْ مات على الكفر لا يَغْفِرُ الله له. وقد أجمع المسلمون على ذلك.

﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعوا إلى السَّلْمِ وأنتم الأَعْلَون واللهُ معكم﴾ [محمد: ٣٥]: معناها لا تَضْعُفوا عن مقاتلة الكفار، وتبدءونهم بطلب الصلح، فهو كقوله: ﴿وإنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجْنَحْ لها﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿فَيُحْفِكُم﴾ [محمد: ٣٧]، أي يلح عليكم. والإحفاء: هو أشدُّ السؤال. و﴿تبخلوا﴾ جوابُ الشرط.

﴿فسيقولون: بَلْ تَحْسدُونَنَا﴾ [الفتح: ١٥]: الضمير يعود على المنافقين. معناه أنهم يقولون: يعز عليكم مالاً وغنية، و﴿بل﴾ هنا للإضراب عن الكلام المتقدم وهو قوله: ﴿لن تَتَّبِعُونا كَذَلِكُمْ قال الله من قبل﴾ [الفتح: ١٥]، فمعناه رد أن يكون اللهُ حَكَم ألاَّ يتبعوهم.

وأما ﴿بل﴾ في قوله تعالى: ﴿بل كانوا لا يَفْقَهون إلاّ قَليلاً﴾ [الفتح:

١٥] فهي إضراب عن وصف المؤمنين بالحسد، وإثباتٌ لوصف الْمُخَلَّفين بالجهل.

﴿فعَلِم ما في قلوبهم﴾ [الفتح: ١٨]: يعني مِنْ صدق الإيمان، وصِدْق العزم على ما بايَعُوا عليه. وقيل: مِنْ كراهة البَيْعَة على الموت، وهذا باطل، لأنه ذمٌّ للصحابة.

﴿فعجّل لكم هذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠]: يعني فَتْح خَيْبَر. وقيل: إن المغانم التي وعدهم بها مغانمُ خَيْبَر، والإشارة بـ ﴿هذه﴾ إلى صُلْح الحديبية.

﴿فآزَرَه﴾ [الفتح: ٢٩]: أي قوّاه، وهو من المؤازرة بمعنى المعاونة. ويحتمل أن يكون الفاعل الزرع والمفعول شَطْأَه، أو بالعكس، لأن كلَّ واحد منهما يقَوِّي الآخر. وقيل معناه ساواه طولاً، فالفاعل على هذا الشَّطْء، ووَزْن آزره أفعله. وقيل فاعله. وقرىء بقصر الهمزة على وزن فَعَله.

﴿فاستَغْلَظَ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي صار غليظاً.

﴿فاستَوى على سُوقِه﴾ [الفتح: ٢٩] جمع ساق، أي قام الزرع على سوقه. وقيل كزرع النبيّ ﷺ أخرج شَطْأَه بأبي بكر، فآزرَه بعُمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى على سُوقه بعلي بن أبي طالب.

﴿فقال الكافرون﴾ [ق: ٢]: أي من قريش، ووضَع الظاهر موضع المضمر لقَصْد ذَمّهم، وانْهِمَاكهم في الغيّ، كما قال تعالى: ﴿أولئك هم الكافرون حقًّا﴾ [النساء: ١٥١]، هل ترى كُفْراً أعظمَ من تكذيب مَنْ صدقه الله بوَحْيِه ويتعجبوا من إنذاره لهم مع علمهم بصدقه وأمانته.

فإن قلت: عطفه هنا بالفاء بخلاف سورة ص بالواو يدلُّ على أنها قضيتين.

والجواب أنَّ آية ص إنما وردَتْ مورد الإخبار بمرتكبات من أفعال العرب وأقوالهم فجيء بتلك الجمل منسوقاً بعضها ببعض، وأخبر تعالى أنهم في عِزّةٍ وشقاق، وأنهم عجبوا أنْ جاءهم منذر منهم، ولم يكن من الملائكة، وأنهم رموه

بالسحر والكذب، وأنهم تعجبوا من جعله الآلهة إلهاً واحداً، وأنهم تمالئوا على قولهم: ﴿امْشُوا واصْبِرُوا على آلهتكم﴾ [ص: ٦]، فلما قصد هنا الإخبار بجملةٍ مِنْ مُرْتكباتهم جاءت منسوقاً بعضُها على بعض بالواو التي لا تقتضي ترتيباً ولا تسبباً.

وأما آية ﴿ق﴾ فمقصودٌ بها التعْـريفُ، فتعجبهـم مـن البعـث الأُخْـروي واستبعادُهم إياه، ولم يقصد هنا غير هذا، قصده، فربطه بالفاء، أي عجبوا من البعث بعد الموت، فقالوا: كذا، فجيء لكل بما يحرزه.

﴿فالحامِلاَت وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢]، هي السحاب يحمل المطر. والوقر: الحمل، وهو مفعول به.

﴿فالجارِيات يُسْرا﴾ [الذاريات: ٣]: هي السفن تجري في البحر، وإعرابُ «يسراً» صفة لمصدر محذوف، ومعناه بسهولة.

﴿فالْمُقْسِمَاتِ أَمْراً﴾ [الذاريات: ٤]، هي الملائكة تُقْسم أُمورَ الملكوت من الأرزاق والآجال وغير ذلك. و﴿أَمْراً﴾ مفعول به.

وقيل: إن الحاملات وِقْراً: السفن. وقيل جميع الحيوانِ الحامل. وقيل: إن ﴿الجاريات يُسْراً﴾ السحاب. وقيل: الجاري من الكواكب. والأول أشهر، لأنه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

﴿فورَبِّ السماءِ والأرْضِ إنَّه لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]: هذا قسمٌ أَقسم اللهُ باسمه، كقوله: ﴿فوَرَبِّكَ لنَسْأَلَنَّهُمْ أجمعين﴾ [الحجر: ٩٢].

ولما ذكر الله في هذه الآية رِزْقَ عباده، وأنه يوصله لهم، أقسم لهم اطمئناناً لنفُوسهم، ويقسم اللهُ في كتابه إما لفضيلة وإما لمنفعة. وأقسم بنفسه كهذه الآيات، وبفعله مثل: ﴿والسماء وما بناها...﴾ الآيات، وما ضاهاها من أفعاله، كقوله تعالى: والنجم إذا هوى. والطور. والتين. والليل.

فإن قلت: إن كان القسم لأجل المؤمن فإنه يصدقه بغير قسم، وإن كان للكافر فإنه لا يصدقه؛ فما فائدته؟

والجواب أن قسمَه تعالى لإكمال الحجة وتأكيدها، والحاكم يقبل الحكْمَ باثنين، إمّا بالشهادة وإمّا بالقسم، فذكر اللهُ القَسم في كتابه كي لا تَبْقَى لهم حجة على الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون على هذه العقول الخَسيسة، اختارنا من بين جامد وناي، وناطق وصامت، وذلك أنه اختار الناي من الجامد لما كان فيه من الخضرة والزهرة والطيب والمنفعة، ثم اختار الحيوان من الناي لما فيه من الحركة والقوّة والتصرف والزينة، ثم اختار الناطق من الحيوان لما فيه من الفصاحة والذّلاقة والفِطْنَة والبصيرة، ثم اختار الممتحن من الناطق لما أفادهم من العلم والحجة والدعوة والشريعة، ثم اختار المؤمن من الممتحن لما آتاه الله من المعرفة والهِدَاية والتوحيد والشهادة، ثم اختار المحب بالثناء والبشارة والمحبة، قال تعالى: ﴿التَّائِبُون الْعَابدون الْحَامِدُون﴾ [التوبة: ١٤٢]. ﴿يحبُّهم ويُحِبُّونَه﴾ [المائدة: ٥٤]. واصطفاك يا محمدي لوَحْيه، قال تعالى: ﴿ثم أَوْرَثْنَا الكتابَ الذين اصْطَفَيْنَا مِنْ عبادنا﴾ [فاطر: ٣٢]. فأنت مختار المختار، ووعدَك برزقه كي تتفرغ لخدمته، وضَمِنه لك ولم تَثِقْ بضمانه حتى أقسم لك به، فأعرضْتَ عن هذا كله، واشتغلت بالمعاصي والفجور عن طاعته، أما علمت أنّ زلَّة الوزير ليست كزلَّةِ العامّة، يَعْصِي الوزير فتُضْرَب رَقبته، ويعصي أَحَدُ العامة فلا يُلتفت إليه، أليس من الغبْنِ العظيم والرزء الجسيم - أنك تثق بمخلوقٍ مثلك، يقول لك: غذاؤك اليوم والعشاء عليّ فلا تُدَبّر معه، وتَثِق بقوله، ولا تثق بقول أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين! وأعظم من هذا أنْ لو قاله لك يهودي أو نَصراني لوثقت بقوله، ولم تَثِقْ بإلهك الذي خلقك وصوّرك ووعدك، ورَضِي الله عن الإمام عليّ في قوله:

أتطْلُب رِزْق الله مِنْ عند غيره ... وتصبْح من خوف العواقب آمنا
وترضى بطرف وإن كان مُشركاً ... ضَمِيناً ولا ترْضى بربك ضامنا

قال بعضهم: نبشت على أكثر من سبعين فوجدت وجوهَهم محوَّلة عن القِبْلة، وذلك اتهامهم ربّهم. اللهم ارحمنا إذا صِرْنا إليك.

﴿فقالوا سلاَماً﴾ [الذاريات: ٢٥]، نصب على أنه في معنى الطلب، وهو مفعول بفعل مضمر. وموقع الثاني مرفوع لأنه خبر تقديره: عليكم سلام؛ وهذا على أن يكون السلام بمعنى السلامة؛ وإن كان بمعنى التحية فإنه رفع الثاني ليدلّ على إثبات السلام، فيكون قد حيّاهم بأكثر مما حيَّوْه، وينتصب السلام الأول على هذا على المصدرية؛ تقديره سلمنا عليكم سلاماً، ويرتفع الثاني بالابتداء تقديره سلام عليكم.

﴿فتَوَلَّى بِرُكْنِه﴾ [الذاريات: ٣٩]؛ أي أعرض فرعون عن الإيمان، واستمسك بقوته وسلطانه، وقال: موسى ساحر أو مجنون.

﴿فأخذَتْهُم الصاعِقةُ وهم يَنْظُرون﴾ [الذاريات: ٤٤] لأنها كانت بالنهار؛ زيادةً في نكالهم؛ إذ ليس الموت صَبْراً كالغِيْلَةِ.

﴿ففِرُّوا إلى الله إنّي لكُمْ منه نَذِيرٌ مُبين﴾ [الذاريات: ٥٠]: أمر الله في هذه الآية بالإيمان به والدخول في طاعته، وعبَّر عن الأمر بذلك بلفظ الفِرَار، لينَبِّه على أن وراء الناس عقاباً وعذاباً أليماً حَقُّه أَن يُفَرّ عنه إن لم يُفَر منه طوْعاً يفر منه خوفاً؛ ونحن لم نفر منه لا طوعاً ولا خوفاً؛ ولو علمنا ما تحت هذه الكلمة من التحذير والاستدعاء لم يهدأ رَوعنا؛ ألاَ تراه كرَّره للإبلاغ وهزّ النفس للتشمير. وتحكيم التحذير، وإعادة الألفاظ بعينها في هذه المعاني بقرينة شدة الصوت، لكن الجاهل ضعيف الاستخراج؛ فيالها مـن مصيبة لو عقلها العاقلُ.

﴿فإنَّ للذِين ظَلَمُوا﴾ [الذاريات: ٥٩]: هم كفار قريش وأصحابهم ممن تقدم من الكفار، يعني أن لهم نصيباً من العذاب.

﴿فالَّذِين كفروا هم الْمَكِيْدُونَ﴾ [الطور : ٤٢] ؛ أي المغلوبون في الكيد. ويعني مَنْ تقدم الكلام عليهم وهم قريش، فوضع الظاهر موضع المضمر.

﴿فبأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى﴾ [النجم: ٥٥]: هـذه مخاطبـة الإنسـان على الإطلاق، يعني بأي نِعَمِ ربك تشكّ، وقد منّ عليكَ، وجعل رَحِمَ أُمِّكَ سكنَك، والأرضَ مِهادك، والشمسَ سِراجك، والإسلام خلقتك، ومحمد نبيك، والكعبة قِبْلتك، والجنةَ منزلك، والنارَ سِجْن أعدائك، والملائكة خدامك، والشيطانَ حِبَالَ عِصْيانك، والعقل والفَهْم والانتباه خصالَك؛ فما لك أعرضْتَ عنا وتركت الالتفات إلينا! أهكذا معاملتك معنا! بئس العبد؛ لنعم الرب.

﴿فما تُغْنِ النُّذُر﴾ [القمـر : ٥] بمعنى الاستبعاد والإنكار.

﴿فتَـوَلّ عنهـم﴾ [القمـر : ٦]: لعلمـك أن الإنـذار لا ينفعهم، وأمـره بالإعراض عنهم لمّا لم يَقْبَلُوا كلامَه. وفيه إشارة إلى أن مَنْ لم يقبل الإنذارَ يُعرض الله عنه، وإذا أعرض عنك أيها الأخ كيف يكون حالك؟

﴿فكذبوا عَبْدَنا﴾ [القمر : ٩] يعني محمداً عبدنا؛ فما أشرفها من إضافة لأنه قرنه بنون العظمة.

﴿فكيف كان عَذَابي ونُذُر﴾ [القمر : ١٦]: توقيف فيه تذكيرٌ لقريش، والنّذُر : جمع نذير.

﴿فتعَاطى فَعَقَر﴾ [القمر : ٢٩]؛ أي اجْتَرأَ على أمرٍ عظيم، وهو عَقْر الناقة، وقيل: تعاطي السيف.

﴿فبأَيِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبَان﴾ [الرحمن: ١٣ وما بعدها]: الآلاء : هي النعم، واحدها إلًى على وَزْن فعًى. وقيل ألاً على وزن فعاً. وقيل غَيْرُ هذا. والخطاب للثَّقَلين: الإنس والجن، بدليل قوله : ﴿سنفرغ لكم أَيُّهَ الثَّقَلان﴾ [الرحمن : ٣١].

وروي أنه لما قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآيات سكت أصحابُه؛ فقال: إن

جواب الجنِّ خَيْرٌ من سكوتكم؛ إني لما قرأتها عليهم قالوا: لا تكذب بشيء من آلاءِ ربّنا.

وكرر هذه الآية تأكيداً ومبالغة. وقيل: إن كل موضع منها يرجع إلى معنى الآية التي قبلها؛ فليس بتأكيد؛ لأن التأكيد لا يزيد على ثلاث مرات.

﴿فيومئذ لا يُسأَلُ عن ذَنْبه إنْسٌ ولا جَان﴾ [الرحمن: ٣٩]: قد قدمنا أن السؤال المنفي هنا على وَجْه الاستخبار وطلب المعرفة؛ إذ لا يحتاج إلى ذلك، وأَما السؤالُ فلا بد منه؛ قال تعالى: ﴿فوربّكَ لنسْألَنَّهُمْ أجْمَعين﴾ [الحجر: ٩٢].

وأحوال القيامة مختلفة على حسب الخلق.

﴿فاكهةٍ زَوْجَان﴾ [الرحمن: ٥٢]. أي من كل ما يُتَفَكَّه به نوعان، بخلاف الدنيا؛ وإنما جعل ما فيها أنموذج على ما في الجنة لا أنه مثلها.

﴿فشارِبُون عليه من الْحَمِيم. فَشَارِبونَ شُرْبَ الهِيم﴾ [الواقعة: ٥٤ و٥٥]: الضمير للمأكول ووزن الهيم فعل، بضم الفاء؛ وكُسرت الهاء لأجل الياء، وهو جمع أهيم، وهو الْجَمل الذي أصابه الْهُيَام بضم الهاء؛ وهو داء معطش يشرب منه الْجَمَلُ حتى يموت أو يسقم، والأنثى هَيْماء. وقيل: هو جمع هائم وهائمة. وقيل: الهيم: الرمال التي لا ترى من الماء؛ وهو على هذا جمع هَيام بفتح الهاء. وقرِيء شُرب بضم الشين؛ واختلف هل هو مصدر أو اسمٌ للمشروب. وقرىء بالفتح؛ وهو مصدر.

فإن قلت: كيف عطف قوله: فشاربون على شاربون؛ ومعناهما واحد؟

فالجواب أَنَّ المعنى مختلف؛ لأن الأول يَقْتَضِي الشرب مطلقاً، والآخر يقْتَضِي الشرب الكثير المشبه لشُرْبِ الهِيم.

﴿فلَوْلاَ تُصَدِّقُون﴾ [الواقعة: ٥٧]: تحضيض على التصديق. إمَّا بالخالق تعالى، وإما بالبعث؛ لأَنَّ الخلقة الأولى دليل عليه.

﴿فلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]: تحضيض على التذكّر والاستدلال بالنَّشْأَة الأولى على النَّشأَةِ الآخرة. وفي هذا دليل على صحةِ القياس.

﴿فلَوْلاَ إذَا بلغَتِ الْحُلْقُومَ. وَأَنْتُم حِينَئذٍ تَنْظُرونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ و٨٤]: لولا هنا عرض، والضميرُ في بلغت للنفس؛ لأن سياقَ الكلام يقتضي ذلك، وبُلوغُها الحلقوم حين الموت؛ والفعلُ الذي دخلت عليه «لولا» هو قوله: تَرْجِعُونَها؛ أي هلاَّ ردَدْتم النفس حين الموت.

ومعنى الآية: احتجاجٌ على البشر، وإظهارٌ لعجزهم؛ فإنهم إذا حضر أَحدَهم الموتُ لم يقدروا أن يردُّوا رُوحَه إلى جسده؛ وذلك دليلٌ على أنهم مقهورون تحت قدْرته؛ وهو القاهِرُ فوق عباده؛ والمقهورُ لا يقدر على شيء؛ وذلك أشدُّ لحسرته.

﴿فَسَلاَمٌ لكَ مِنْ أصحابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١]: معنى هذا على الجملة نجاة أَصحابِ اليمين وسعادتهم. والسلامُ هنا يحتمل أن يكون بمعنى السلامة أو التحية. والخطابُ في ذلك يحتمل أن يكون للنبي ﷺ، أو لأَصْحَابِ اليمين؛ فإنْ كان للنبي ﷺ فالسلامُ بمعنى السلامة. والمعنى سلامٌ لك يا محمد منهم؛ أي لا ترى فيهم إلا السلامة من العذاب. وإن كان الخطابُ لأصحاب اليمين فالسلامُ بمعنى التحية. والمعنى سلام لكَ؛ أي تحية لك يا صاحب اليمين من إخوانك، وهم أصحاب اليمين؛ أي يسلِّمون عليك فهو كقوله: ﴿إلا قِيلاً سَلاماً سلاماً﴾ [الواقعة: ٢٦]. أو يكون السلام بمعنى السلامة؛ والتقديرُ سلامة لك يا صاحبَ اليمين، ثم يكون قوله: مِن أصْحَاب اليمين ـ خَبر ابتداء مضمر؛ تقديره أنت من أصحاب اليمين.

فهنيئاً لكَ يا محمديّ بما منحكَ اللهُ من هذه التحية التي حيَّا بها أنبياءَه وأصفياءَه في قوله لنوح: ﴿اهْبِطْ بسلامٍ منّا﴾ [هود: ٤٨]. ولإبراهيم: ﴿قلْنا يا نارُ كونِي بَرْداً وسلاَماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٩]. حياك في الدنيا بقوله: ﴿وسَلاَمٌ على عباده الذين اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. وفي الآخرة

يأتيك الملكُ بكتابٍ منه: أمّا بعد السلام عليك فزرنا، لأنا اشتقناكَ، لا رَاعَى اللهُ مَن لا يُرَاعي الذمم.

﴿فَسبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظيم﴾ [الواقعة: ٩٦]: لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: اجعلوها في ركوعكم. فلما نزلت: ﴿سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأعلى﴾ [الأعلى: ١] - قال: اجعلوها في سجودكم. فلذلك استحبَّ مالك وغيره في السجود سبحان ربي الأعلى، وفي الركوع سبحان ربي العظيم، وأوجبها الظاهرية. ويحتمل أن يكون المعنى سبِّح اللهَ بذكر أسمائه، والاسم هنا جنس الأسماء. والعظيم صفةٌ للرب، أو يكون الاسم هنا واحداً، والعظيم صفة له، وكأنه أمره أن يسبِّحَ باسمه الأعظم؛ ويؤيِّدُ هذا ويشير إليه اتصالُ سورةِ الحديد بها، وفي أولها التسبيح، وجعله من صفات اللهِ وأسمائه. وقد قال ابن عباس: اسْمُ الله الأعظم موجودٌ في ست آيات من أول سورة الحديد. ورُوي أنّ الدعاءَ بعد قراءتها مُستجاب.

﴿فالّذين آمَنُوا منكم وأنْفَقوا لَهُمْ أجْرٌ كَبِير﴾ [الحديد: ٧]: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فإنه جهَّز جَيْش العُسْرة يومئذ. ولفْظ الآيةِ مع ذلك عامّ، وحكمها باقٍ لكل من أنفق في سبيل الله وطاعته، ويدخل فيه النفقة على العِيال بنيَّة تعفُّفهم وإعانتهم؛ بل هي من أعظم النفقات للحديث: دِرْهم يُنفقه أحدُكم على أهله خير من ألْف ينفقها في سبيل الله.

﴿فطَالَ عليهم الأمَد﴾ [الحديد: ١٦]: أي مدة الحياة وقيل انتظار القيامة. وقيل انتظار الفتح. والأول أظهر.

﴿فمنهم مُهْتَدٍ﴾ [الحديد: ٢٦]: قد قدمنا أن الضمير راجع لذرية نوح وإبراهيم لتقدم ذكرهما، ولأن منهم اليهود والنصارى وغيرهم.

﴿فافْسَحُوا﴾ [المجادلة: ١١]: هو التوسع دون القيام؛ لأنه منهيٌّ عنه للحديث: لا يَقُم أحدكم من مجلسه ثم يجلس الرجل فيه، ولكن توسَّعُوا وتفَسَّحوا. واختلف: هل هذا النهي محمول على التحريم أو الكراهية؟

﴿فَانْشُزُوا﴾ [المجادلة: ١١]؛ أي ارتفعوا. واختلف في هذا النشوز المأمور به؛ فقيل: إذا دُعوا إلى قتالٍ أو صلاة أو فعل طاعة. وقيل: إذا أُمروا بالقيام مِنْ مجلس رسول الله ﷺ؛ لأنه كان يحبُّ الانفرادَ أحياناً، وربما جلس قوم حتى يُؤْمَروا بالقيام؛ ولهذا أخبر اللهُ أَنَّ جلوسهم كان يؤذي النبيّ ﷺ فيستحي منهم، والله لا يستحي من الحق.

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢]: الضمير يعود على النساء اللواتي بايَعْنَ رسول الله ﷺ في ثاني يوم الفتح على جبل الصَّفَا، وبايعهنّ بالكلام، ولا تمس يده يدَ امرأة. وقيل: إنه غمس يَدَه في الماء ودفعه إلى النساء، وغمس أيديهن فيه. وروي أنه لما بايعهنَّ رسولُ الله ﷺ هذه المبايعة فقرَّرَهُنَّ على ألاّ يَسْرِقْنَ، قالت هند بنت عتبة، وهي امرأة أبي سفيان بن حرب: يا رسول الله، إن أَبا سفيان رجلٌ شَحِيح، فهل عليَّ إن أخذتُ من ماله بغير إذنه؟ قال: خُذِي ما يكفيك وولدك بالمعروف، فلما قَرّرهن على ألا يَزْنين قالت هند: يا رسول الله، أتزني الحرة؟ فقال عليه السلام: لا تزني الحرة - يعني في غالب الأمر، وذلك أن الزنى في قريش إنما كان في الإمَاء. فلما قال: ولا يَقْتُلْنَ أولادهن قالت: رَبَّيْناهم صغاراً وقتَلْتَهم أنت ببَدْرٍ كباراً؛ فتبسم ﷺ، فلما وقفهن على ألاَّ يعصينه في معروف قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أَنْ نعصيك. وهذه المبايعة للنساء إنما كانت في ذلك اليوم، ولا يعمل بها اليوم؛ لإجماع العلماء على أنه ليس على الإمام أَنْ يشترط عليهن هذا. فإمّا أَنْ تكون منسوخة ولم يذكر الناسخ، أو يكون ترك هذه الشروط؛ لأنها قد تقررت وعُلمت من الشريعة فلا حاجة إلى اشتراطها.

﴿فلما جاءَهُم بالبَيِّنَاتِ﴾ [الصف: ٦]: يحتمل أَن يريد عيسى أو محمد ﷺ. ويؤيّدُ الأولَ اتصاله بما قبله. ويؤيد الثاني: ﴿وهو يُدْعَى إلى الإسلام﴾ [الصف: ٧]؛ لأن الداعي إلى الإسلام هو محمد ﷺ.

﴿فأَصْبَحُوا ظَاهِرِين﴾ [الصف: ١٤]: قيل إنهم ظهروا بالحجة. وقيل

غلبوا الكفار بالقَتْل بعد رَفْعِ عيسى عليه السلام. وقيل: إنّ ظهور المؤمنين منهم هو بمحمد ﷺ.

﴿فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا﴾ [التغابن: ٦]: استبعدوا أن يرْسل الله بشراً، أو تكبَّرُوا عن اتباع بَشر. والبشر يقع على الواحد والجماعة.

﴿فإذَا بلَغْنَ أَجلَهنّ فأمْسكوهنّ بمعروف أو فَارِقوهنّ بمعروف﴾ [الطلاق: ٢]: يعني في أداء الصدَاق والإتباع حين الطلاق. وبلوغ الأجل خطابٌ بآخر العدة. والإمساك بمعروف هو تحسين العشرة وتَوْفِية النفقة.

فإن قلت: ما الحكمة في تعبيره في آية البقرة بالسراح في مكان الفراق هنا.

والجواب لاكتناف آية البقرة النهي عن مضارّة النساء وتحريم أَخْذ شيء منهن ما لم يكن منهن ما يسوّغ ذلك من ألاَّ يقيما حدودَ الله، فلما اكتنفها ما ذُكر وأُتْبع ذلك بالمنع عن عَضْلِهنّ، وتكرر أثناء ذلك ما يفهم الأمر بمجاملتهن والإحسان إليهن حالَي الاتصال والانفصال لم يكن لينَاسِبها ـ قصد من هذا أن يعبّر بلفظ: ﴿أو فارقوهن﴾؛ لأن لفظ الفراق أقرب إلى الإساءة منه إلى الإحسان، فعوَّل إلى ما يحصل منه المقصود مع تحسين العبارة، وهو لفظ التسريح. فقال تعالى: ﴿فأمْسِكوهنَّ بمعروفٍ أوْ سرِّحوهنَّ بمعروف﴾ [البقرة: ٢٣١]؛ وليجري مع ما تقدم من قوله تعالى: ﴿الطلاق مرَّتَان فإمساكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقيل هنا: بإحسان، ليناسب به تعالى المذكور من قوله: ﴿أو تسريح﴾. وقد رُوعي في هذه الآي كلّها مقصد التلطّف، وتحسين الحال في الصحبة والافتراق؛ ولما لم يكن في سورة الطلاق تعرُّض لعَضْل، ولا ذِكْر مضارة ـ لم يذكر؛ وورد التعبير بلفظ: أو فارقوهنَّ، على الانفصال، ووقع الاكتفاء فيما يراد من المجاملة في الحالين بقوله: معروف؛ وبانَ افتراق القِصتين في السورتين، وورود كلٍّ من العبارتين على ما يجب.

﴿فأنْفِقوا عليهنَّ حتى يضَعْنَ حَمْلهنّ﴾ [الطلاق: ٦]: اتفق العلماء على وجوب النفقة للمطلقة الحامل، عملاً بهذه الآية، إذَا كان الطلاق رجْعِيًّا. وإن

كان بائناً فاختلفوا في نَفَقتها. وأمّا المتوفَّى عنها إذا كانت حاملاً فلا نفقة لها عند مالك والجمهور؛ لأنهم رأوا أنَّ هذه الآية إنما هي في المطلقة. وقال قوم: لها النفقة في التركة.

﴿فإنَّ اللهَ هوَ مَوْلاَه وجِبريل وصَالِح المؤْمِنين﴾ [التحريم: ٤]: هو أبو بكر الصديق على قول مَنْ قال إنه مفرد. وقيل علي بن أبي طالب. وعلى القول بأنه جمع محذوف النون للإضافة فهو على العموم في كلّ صالح. والخطاب لنبينا ومولانا محمد ﷺ؛ يعني إن تعاونتما عليه بما يسوؤه من إفراط الغيرة وإفشاء سره ونحو ذلك فإنَّ له مَنْ ينصره.

ومولاه هنا يحتمل أن يكون بمعنى السيد الأعظم فيوقف على مولاه، ويكون جبريل مبتدأ وظهير خبره وخَبَرُ ما عطف عليه. ويحتمل أن يكون المولى هنا بمعنى الوليّ الناصر، فيكون جبريل معطوفاً، فيُوصل مع ما قبله، ويوقَف على صالح المؤمنين، ويكون الملائكة مبتدأ وظهير خبره. وهذا أرجح وأظهر؛ لوجهين:

أحدهما: أن معنى الناصر أليق بهذا الموضع؛ فإن ذلك كرامة للنبي ﷺ وتشريفٌ له. وأما إذا كان بمعنى السيد فذلك يشترك فيه النبيُّ ﷺ مع غيره؛ لأنّ اللهَ مولى جميع خلقه بهذا المعنى؛ فليس في ذلك إظهار مزيّة له.

والوجه الثاني: أنه ورد في الحديث الصحيح أنه لما وقع ذلك جاء عُمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما يشقّ عليك من أَمْرِ النساء، فإن كنْتَ طلقتَهنَّ فإن الله معك وملائكته، وجبريل معك، وأبو بكر معك، وأنا معك؛ فنزلت الآية موافقة لقول عمر؛ فقوله: معك يقتضي معنى النصرة.

وقد أفرد جماعةٌ من العلماء تصنيف ما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة. والأصلُ فيه موافقاتُ عُمر، وقوله رضي الله عنه: وافقت ربي، ووافقني في أربع مرات: في الحجاب. وفي أسارى بَدْر. وفي مقام إبراهيم. وفي

قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلاَلةٍ من طين...﴾ [المؤمنون: ١٢] الآية؛ لما نزلت قلت أنا: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾، فنزلت كذلك.

وأخرج عن عبدالرحمن بن أبي ليلى أن يهودياً لَقِي عُمر بن الخطاب فقال: إن جبريل الذي يَذْكُرُه صاحبُك عدوٌّ لنا. فقال عمر: مَنْ كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإنَّ الله عدو للكافرين، فنزلت كذلك.

وأخرج الترمذي، عن ابن عُمر ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقَلْبه»، قال ابن عمرو: ما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلاّ نزل القرآنُ على نحو ما قال عمر. وأخرج ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: لما أَبطأ على الناس الخبر في أُحُد خرجن يستخبرن فإذا رجلان مُقْبلان على بعير، فقالت امرأة: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالا: حَيّ. قالت: فلا أُبالي؛ يتخذ الله من عباده الشهداء، فنزل قوله تعالى: ﴿ويَتَّخذَ منكم شُهَداء﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿فلَمَّا رَأَوه زُلْفةً﴾ [الملك: ٢٧]؛ أي قريباً؛ وضمير الفاعل للكفار، والمفعول للعذاب.

﴿فطافَ عَلَيْهَا طائِفٌ﴾ [القلم: ١٩]: الطائف: الأمر الذي يأتي بالليل.

﴿فتَنَادَوْا مُصْبِحين﴾ [القلم: ٢١]؛ أي نادَى بعضهم بعضاً حين أصبحوا، وقال بعضهم لبعض: اغدوا على حَرْثكم؛ فلما لم يعرفوها ورأوا ما أصابها قالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾ [القلم: ٢٢، ٢٧]؛ أي حَرمنا الله خيرها؛ فقال أوسطهم، وهو أفضلهم: ﴿أَلَم أَقلْ لكم لولا تُسَبّحون﴾ [القلم: ٢٨]. وهو عبارة عن طاعة الله وتعظيمه. وقيل: أراد الاستثناء في اليمين، كقوله: إن شاء الله. والأول أظهر؛ لقولهم بعد ذلك: ﴿سبحان ربنا إنّا كنا ظالمين﴾ [القلم: ٢٩].

﴿فأقْبل بعضُهم على بعضٍ يَتَلاَوَمُون﴾ [القلم: ٣٠]: أي يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا عزموا عليه من مَنْع المساكين؛ أو على غَفْلتهم عن التسبيح.

فإن قلت: ما معنى عطفه هنا بالفاء، وفي الثانية من سورة الصافات [٢٧ ، ٥٠]، بخلاف الأولى؟

والجواب أن هذه الآية من كلام أهل صنعاء لما رأوا جنَّتهم محترقة وندموا على ما كان منهم وجعلوا يقولون: سبحان ربنا، فأقبل بعضهم على بعض يَتلاوَمُون.

وأما عطف أولى الصافات بالواو فلأنه عطف جملة على جملة فحسب، وعطف الآية بعدها بالفاء؛ لأنه عطف جملة على جملة بينهما مناسبة والتئام؛ لأنه حكى أحوالَ أهْلِ الجنة ومذاكرتهم فيها، وما جرَى بينهم في الدنيا وبَيْن أصدقائهم، وهو قوله: ﴿وعندهم قاصراتُ الطَّرْف عِين. كأنّهنّ بَيْض مكنون. فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون...﴾ الآية.

﴿فوقَهُمْ يومئذ ثَمَانية﴾ [الحاقة: ١٧]؛ أي ثمانية أملاك، والمراد بالفوقية أنهم يزادون يوم القيامة أربعة؛ لأنهم اليوم أربعة رؤوسُهم عند العرش، وأرجلهم تحت الأرض السابعة. وقال ابن عباس: هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم أحدٌ عدتهم. والأول أصح لوروده في الحديث.

﴿فيقول: يا ليتني لم أُوتَ كِتَابِيَه﴾ [الحاقة: ٢٥]؛ أي يتمنى أنه لا يُعْطَى كتابه. وقال ابن عطية: يتمنى أن يكون معدوماً لا يَجْرِي عليه شيء. والأول أظهر.

﴿فَصِيلتِهِ التي تُؤْوِيه﴾ [المعارج: ١٣]؛ أي تَضُمّه، فيحتمل أن يريد تضمّه في الانتماء إليها، أو في نُصرته وحِفْظه من المضرات.

﴿فأُدْخِلُوا ناراً﴾ [نوح: ٢٥]: يعني جهنم، وعَبّر عن ذلك بالفعل الماضي؛ لأنّ الأمر محقق وقيل: أراد عَرْضَهم على النار، وعَبّر عنه بالإدخال.

﴿فاجراً﴾ [نوح: ٢٧]: مائلاً عن الحق. وأصلُ الفجور الميل.

﴿فزَادُوهم رَهَقاً﴾ [الجن: ٦]: ضمير الفاعل للجن، وضمير المفعول

للإنس. والمعنى أنّ الجنَّ زادوا الإنس ضلالاً أو إثماً لما عاذوا بهم، أو زَادُوهم تخويفاً لما رأوا ضعْفَ عقولهم. وقيل ضمير الفاعل للإنس، وضمير المفعول للجن، والمعنى أن الإنسَ زَادُوا الجنّ تكبُّراً لَمّا عاذوا بهم، حتى كأن الجني يقول أنا سيِّد الجن والإنس.

﴿فَمنْ يَسْتَمِع الآنَ﴾ [الجن: ٩]؛ أي وقت استراقه، فإنه يسلك من بيْن يديه ومِنْ خلفه ﴿رصَداً﴾. قد قدمنا أن الرصد اسم جمع للواحد كالحرس للحراس، ومعنى الآية: أنَّ الله يسلك من بين يدي الرسول ومِنْ خلفه ملائكة يكونون رَصداً يحفظونه من الشياطين.

قال بعضهم: ما بعث اللهُ رسولاً إلا ومعه ملائكةٌ يحرسونه حتى يبلِّغَ رسالةَ ربه. وإذا كان الله يحفظ غَيْرَ الرسل فما بالك بهم. وتأمل حكايةَ الشيطان الذي أتى لوسوسة القائِم الذي كان في المسجد يصلّي فلم يقدر على الدخول، فقال أخوه من الشياطين: ما بالُك لا تدخل إليه؟ فقال: نفس النائم منعني من توسوس القائم، وكان النائم إبراهيم بن أدهم.

﴿فقُتِل كيف قَدَّر﴾ [المدثر: ١٩]: دعاءٌ على الوليد بن المغيرة، وذَمّ لحاله؛ وكرره تأكيداً. قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون مقتضاه بزَعْمِه الأول حين أَعجبه القرآن، فيكون قوله: ﴿قُتِل﴾ لا يُرَادُ به الدعاء عليه، وإنما هو كقولهم: قاتَل اللهُ فلاناً ما أشجعه! يريدون التعجبَ من حاله واستعظامَ وصفه. وقال الزمخشري: يحتمل أن يكون ثناء عليه على طريقة الاستهزاء، أو حكاية لقول قريش تهكُّماً به.

فإنْ قُلْتَ: ما معنى ﴿ثُم﴾ الداخلة في تكرير الدعاء؟

قلت: الدلالة على أنَّ المرة الثانية أبلغُ من الأولى؛ ونحوه قوله: ألاَ ياأسلمي ثم اسْلَمي...

فإن قلت: فما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها.

قلت: الدلالة على أنه قد تأتي في التأمّل والتمهل، وكان بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد.

فإن قلت: فلم عطف فقال بالفاء بعد عطف ما قبله بثم؟

قلت: لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يلبث أن نطق بها من غير لبْث.

فإن قلت: فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين؟

قلت: لأن الأخرى جرت من الأولى مَجْرى التوكيد من المؤكد.

﴿فمَنْ شاء ذَكَره﴾ [المدثر: ٥٥]: فاعل شاء ضمير يعود على مَنْ. وفي ذلك حَفْز وترغيب. وقيل الفاعل هو الله. ثم قَيّد فعلَ العبد بمشيئة الله.

﴿فاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٥]؛ أي مصيبة قاصمة الظَّهْر، تقول: فقرتُ الرجل، إذا كسرت فقَارَه، كما تقول: رأَسْتُه، إذا ضرَبْت رأسه.

﴿فأَوْلَى﴾ [القيامة: ٣٤]: قد قدمنا في مواضع أنه كرّرَ ذلك تأكيداً، وأن رسولَ الله ﷺ لبَّبَ أبا جهل، وقال: إن اللهَ يقول لكَ: أولى لكَ فأولى، فنزل القرآن بموافقة ذلك.

﴿فالعاصِفَاتِ عَصْفاً﴾ [المرسلات: ٢]: هي الملائكة، لأنهم يعصفون كما تعصفُ الرياح في سرعة مُضِيِّهم إلى امتثال أوامرِ اللهِ. وقيل: الرياح؛ لقوله: ريح عاصف.

﴿فالفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾ [المرسلات: ٤]: قيل الملائكة لأنهم يفرقون بين الحق والباطل. وقيل الرياح؛ لأنها تفرق السحاب؛ ومنه: ﴿ويجعله كِسَفاً﴾ [الروم: ٤٨].

﴿فالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾ [المرسلات: ٥]: هم الملائكة؛ لأنهم يلقون الذكر للأنبياء عليهم السلام. والأظهر في المرسلات والعاصفات أنها الرياح؛ لأن وَصْف الرياح بالعصف حقيقة. والأظهر في الناشرات والفارقات أنها الملائكة؛ لأنَّ

الوصف في الفارقات أليق بهم من الرياح؛ ولأن الْمُلْقيات المذكورة بعدها هي الملائكة، ولم يقل أَحَدٌ إنها الرياح؛ ولذلك عطف المتجانسين بالفاء، فقال، والمرسلات، فالعاصفات، ثم عطف على ما ليس مِنْ جنسها بالواو؛ فقال: والناشرات؛ ثم عطف عليه المتجانسين بالفاء. وقيل في الْمُرْسَلاَت والْمُلْقِيات إنهم الأنبياء عليهم السلام.

فإن قلت: هل يصحُّ قولُ القائل إن الْمُرسَلات الرياح لمعنى قوله: عُرْفاً.

والجواب أنّ معنى عُرْفاً على كلّ قَوْلٍ: فَضْلاً وإنعاماً؛ وانتصابُه على أنه مفعول من أجله، وقيل معناه متتابعة، وهو مصدرٌ في موضع الحال. وأما عَصْفاً ونَشْراً وفَرْقاً فمصادِر. وأما ذِكْراً فمفعول به.

﴿فإنْ كانَ لكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُون﴾ [المرسلات: ٣٩]: تعجيز وتعريض بكَيْدِهم بالدنيا، وتَقْريع عليهم؛ كقول هود: ﴿فأَجمعوا أَمْرَكم وشركاءَكُمْ ثم لا يَكُنْ أمْرُكم عليكم غُمّةً ثم اقْضُوا إليَّ ولا تُنْظرُون﴾ [يونس: ٧١]. وكقول موسى: ﴿فأَجْمِعُوا كَيْدَكُم ثم ائْتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤].

﴿فالسابِقَاتِ سَبْقاً﴾ [النازعات: ٤]: قيل إنها الملائكة، سمّاهم الله نازعات؛ لأنهم ينزعون نفوسَ بني آدم من أجسادها؛ وناشطات؛ لأنهم ينشطونها، أي يخرجونها، فهو من قولك: نشطت الدَّلْوَ من البئر، إذا أخرجتَها. وسابحات، لأنهم يسبحون في سيرهم، أي يسرعون فيسبقون فيدبّرون أمورَ العباد والرياح والمطر وغير ذلك حسبما يَأْمُرهم الله.

وقيل: إنها النجوم، وسماها نازعات؛ لأنها تنزع من المشرق إلى المغرب، وناشطات لأنها تنشط من بُرج إلى برج، وسابحات لأنها تَسبَحُ في الفلك؛ ومنه: ﴿كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾ [الأنبياء: ٣٣]، فتسْبق في جَرْيها، فتدبِّر أمْراً من علم الحساب.

﴿فالْمُدَبِّرَاتِ أمراً﴾ [النازعات: ٥]: قال ابن عطية: لا أعلم خلافاً أنها الملائكة، وحُكي فيها القولانِ، كما تقدم.

فإن قلت: ما معنى ﴿غَرْقاً﴾ على القولين؟ وأين جواب القسم؟

فالجواب إنْ قلنا إنّ النازعات الملائكةُ ففي معنى غَرْقاً وجهان: أحدهما أنه من الغرق، أي تُغْرِق الكفَّار في جهنم. والآخر أنه من الإغراق بمعنى المبالغة فيه؛ أي تُبالغ في نَزْعِ النفوس حتى تُخْرِجها من أقاصي الأجساد. وإن قلنا إن النازعات النجوم فهو من الإغراق بمعنى المبالغة؛ أي تبالغ في نُزوعها، فتقطع الفَلَكَ كلّه. وإن قلنا إنها النفوس فهو أيضاً من الإغراق؛ أي تُغْرِق في الخروج من الجسد.

وإعراب ﴿غَرْقاً﴾ المصدر في موضع الحال. ونَشْطاً وَسبْقاً وسَبْحاً مصادر، وأمراً مفعول به.

وجواب القسم محذوف؛ وهو بَعْثُ الموتى بدلالة ما بعده عليه من ذِكْر القيامة. وقيل الجواب: ﴿يوم تَرْجُفُ الراجفةُ. تَتْبَعُها الرادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧] على تقدير حَذْف لام التوكيد. وقيل: هو: ﴿إن في ذلك لعبْرَةً لمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦]؛ وهذا بعيدٌ لبُعْدِه من القسم، ولأنه إشارة إلى قصةِ فرعون لا لمعنى القسم.

﴿فإنّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَة﴾ [النازعات: ١٣]: هذا من كلامِ الله ردًّا على الذين أنكروا البَعْث، كأنه يقول: لا تظنُّوا أنه صعب على الله؛ بل هو عليه يسير.

﴿فإذا هُمْ بالساهرة﴾ [النازعات: ١٤]؛ أي وجه الأرض، والباء ظرفية، وإذا فجائية، والمعنى إذا نفخ في الصُّور حصلوا بالأرض أسرع شيء.

﴿فحَشر فنَادَى. فقال أنا رَبُّكُم الأعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤]؛ يعني أن فرعون جمعَ جنُودَه، ونادى قومه، وقال لهم ما قال. ويحتمل أنه أمر مَنْ يُنَاديهم. والأول أظهر؛ لأنه روي أنه قام فيهم خطيباً.

﴿فَسَوَّاها﴾ [النازعات: ٢٨]: الضمير يعود على السماء، أي اتقَن خلقتها. وقيل: جعلها مُستويةً، ليس فيها مرتفع ولا منخفض.

﴿فإذا جاءت الطامَّةُ الكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤]، هذا أحد أسماء يوم القيامة؛ وقد سماه اللهُ في كتابه بثلاثين اسماً لعظمه: يوم الآزِفَة. ويوم التلاق. ويوم التناد. ويوم التغَابُن. ويـوم الثبـور. ويـوم الْجَمـع. ويـوم الحق. ويـوم الخصومة. ويوم الدين. ويوم الراجفة. ويوم الزلزلـة. ويـوم الشفـاعـة. ويـوم الصاخّة. ويوم عظيم. ويوم عَبُوس. ويوم العُسْر. ويوم الفارقة. ويوم القَمْطَرِير. ويوم الفَصْل. ويوم القيامة. ويوم النّفخ. ويوم الوَعيد. واليوم الموعود. ويوم القارعة. ويوم الواقِعة. واليوم المشهود. ويوم الحاقّة. ويوم النُّشور. يخرجون من الأجداث كأنهم جَرادٌ مُنْتشر، يكشف للمرء ما أخفاه، ويتذكر حينئذ غَفْلته وهواه؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون على غفلتنا على ما يُراد بنا! يقول الله تعالى في بعض كتبه: عَبْدي أعطيتُك منية المرضى، وأهل السجون، وأهل القبور، وأهل النشور، وأهل الجِنَان، وأهل النيران؛ فما لك لا تغتنم ساعتَكَ التي أنْتَ فيها؟ أَلَم تعلم أنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً طلبه، ومَنْ طلب شيئاً وجده، ومَن خاف من شيء هرب منه، ومَنْ أراد سفراً اهتمّ له، ومَنْ أحبَّ اللحوق بقوم اقتدى بفعالهم وسلك سبيلهم، ومَنْ فضل قوماً بالعلم يحق أن يفضلهم بالعمل، فليكن الغالب مِن همومك هَمَّ المَعَاد والتزوّد له، والغالب مِنْ كلامك ذكر الموت والاستعداد له، فهو أشدُّ شيء نزل بك قط، وأهونُ شيء فيما بعده، لأن بعده سبعين هَوْلاً، كلُّ هَوْل أشدُّ من الموت، فلا يستتبعك الشيطان في الدنيا، والمنافقون في الآخرة.

فإن قلت: لِمَ خُصَّت النازعات باسم الطامّة، وعبس باسم الصاخَّة، مع أنهما شيء واحد!

فالجواب أنّ اسْمَ الطامّة أرهب وأنْبَأ بأهوال القيامة، لأنها من قولهم: طَمّ السيلُ، إذا علا وغلب. وأما الصاخّة فالصيحة الشديدة، من قولهم صخّ بأذنيْه مثل أصاخ، فاستُعير على أسماء القيامة مجازاً، لأن الناس يُصيخون لها، فلما كانت الطامّة أبلغ في الإشارة إلى أهوالها خصّ بها أبلغُ السورتين في التخويف والإنذار.

وعلى ذلك بُنيت سورة « النازعات » ؛ ألا ترى قوله : ﴿يوم تَرْجُف الراجفة . تتبعها الرادفة﴾ . ووصف الطامة الكبرى ، وما أُتْبع به بَعْدُ . وابتداء السورة وختامها قَبْلها تخويف وترهيب ، فناسبها أشدّ العبارتين موقعاً ، وأرهبها . وأما سورة عبس فلم تُبْن على ذلك الغرض ، وإنما بُنيت على قصة عبدالله ابن أُم مكتوم الأعمى . وذلك مشهور ، ثم ورد قوله : « فإذا جاءت الصاخّة » عَقِب التذكير بقوله : ﴿إنها تَذْكِرَة﴾ [عبس : ١١] والتذكير للاعتبار بقوله : ﴿فلْيَنْظُر الإنسانُ إلى طعامه ..﴾ [عبس : ٢٤] إلى قوله : ﴿مَتَاعاً لكم ولأنعامكم﴾ . ثم أتبع بعد ذكر الصاخة بقوله : ﴿وجوه يَوْمَئِذ مُسْفِرَةٌ . ضاحكةٌ مستبْشرة﴾ [عبس : ٣٨ ، ٣٩] . فسورةُ النازعات على الجملة أشدُّ في التخويف والترهيب ، فناسبَها أبلغ العبارتين من أسماء القيامة .

وقيل : إنما خُصَّت النازعات بالطامّة ؛ لأن الطمَّ قبل الصخ ، وهو الصوت الشديد والفَزع قَبْل الصوت ، فكانت هي السابقة . وخُصَّت سورة « عبس » بالصاخّة ؛ لأنها بعده وهي اللاحقة .

﴿فليَنْظر الإنسانُ إلى طَعَامه﴾ [عبس : ٢٤] : أُمر بالاعتبار في الطعام ، كيف خلقه اللهُ بقدرته ، ويَسَّرَه برحمته ، فوجب على العبد طاعته وشُكره . وتقبح معصيته والكفر به . وقيل : فلْيَنْظر الإنسان إلى طعامه كيف يَصير ، فيَزْهَد في دُنْيا هذه حالها ، ولا يرغب في لذّاتها ، كما قال ﷺ للأعرابي : ما طعامك ؟ قال : اللحم واللبن . قال : فإلى ماذا يَصِير ؟ ولهذا كان ﷺ لا يشبع من خُبز الشعير زُهْداً فيها . قال يحي بن سلام : بعد أن ذكر اللهُ زواجرَ الكفّار استأنف ضَرْبَ المثل لأهل الإيمان ، ليزدادوا اعتباراً بقوله : « فلينظر الإنسانُ إلى طعامه الذي يحيا به ويأكله ، من أي شيء كان » ؟ ثم صار بعد حفظه ابن آدم ، وهو الجسد . قال الحسن : ملك يميل رقبة ابن آدم حين يجلس . وقيل : فلينظر الإنسان إلى طعامه ويفكّر فيما هيّأه من سماءٍ وأرض ، وماء وحَرّ وبرد ونحْوها ، وآلة عديدة ، وأسنان ؛ منها كاسرة وطاحنة ، بريقٍ حُلو لذَوْقِه وَصَوْغِه وقوة

هاضمة، ودافعة، وإذا استوى طعامُه بحرارة كبده ونحوه أعطى اللهُ تعالى لكل جُزْء وشعرة نصيباً.

﴿فأَقْبَره﴾ [عبس: ٢١]؛ أي جعله ذَا قَبْر، يقال: قبرت الميت إذا دفَنْته، وأقبرته إذا أمرت أن يُدْفَن.

﴿فلْيَتنافَسِ المتَنَافِسون﴾ [المطففين: ٢٦]: التنافس في الشيء هو الرغبةُ فيه، والمغالاة في طلبه، والتزاحمُ عليه، وهذا كقوله: ﴿لِمِثْلِ هذَا فلْيَعْمَل العامِلُون﴾ [الصافات: ٦١] فسبحان من جذب عباده إليه تارةً بذكر نعيمه، وتارة بالتخويف من عذابه، وتارةً بإحسانه إليهم لعلهم يرجعون إليه؛ لم يَكْفه ما أعطاهم من رياسة الدنيا، وتسخير المخلوقات لهم حتى وعدهم بالملك العظيم، والفَوْز المقيم، والرضوان الجسيم، ورؤيتُه تعالى أعظم من هذا كله.

﴿فالْيَوْمَ الذين آمَنُوا من الكفَّار يَضْحَكُون﴾ [المطففين: ٣٤]: لما كان الكفار في الدنيا يضحكون على المؤمنين قلب الله الحقائق، فيضحك المؤمنون من الكفار حينئذ ويقولون لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون. اصْلَوْها اليوم بما كنتم تكفرون.

﴿فلا أُقْسِم بالشَّفَق﴾ [الانشقاق: ١٦]؛ هو الحمرة التي تَبقى بعد غروب الشمس. وقال أبو حنيفة: هو البياض. وقيل: هو النهار كله. والأول هو المعروف عند الفقهاء وأهل اللغة.

﴿فمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُون﴾ [الانشقاق: ٢٠]: أيُّ شيء يمنع الكفار من الإيمان بعد رؤيتهم هذه العِبَر.

﴿فبَشِّرْهُم بعذَابٍ أليم﴾ [الانشقاق: ٢٤]: وضع البشارة موضع النذارة تهكّماً بهم.

﴿فَتَنُوا المؤمنينَ والمؤمناتِ﴾ [البروج: ١٠]: إن كانت هذه الآية في أصحاب الأُخدود فالفتنةُ هنا بمعنى الإحراق، وإن كانت في كفّار قريش

فالفتْنة بمعنى الفتنة والتعذيب. وهذا أظهر، لقوله: ﴿ثم لم يتوبوا﴾ [البروج: ١٠]؛ لأن أصحاب الأُخدود لم يتوبوا، بل ماتوا على كفرهم. وأما قريش فمنهم مَنْ أسلم وتاب. وفي الآية دليلٌ على أنَّ الكافر إذا أسلم يُغفر له ما فعل في حال كُفْره، للحديث: الإسلام يَجُبُّ ما قَبله.

واختلف هل يكتب له ما فعل من الخير؟ الصحيح أنه يكتب له؛ للحديث: أسلمت على ما أسْلفت من الخير، وقد ألَّف بعضُهم فيه تأليفاً مفيداً.

﴿فلْيَنْظر الإنسانُ ممَّ خُلق﴾ [الطارق: ٥]: حذف ألف ما لأنها استفهامية، وجوابُها: ﴿خُلِقَ من ماءٍ دافق﴾ [الطارق: ٦]، واستَفْهَم هنا عن ابتداءِ الخِلْقة ليعلم الإنسان مَنْ هو، ومن أي شيء خُلق، كي لا يتكبر، وكيف يتكبر مَنْ خُلق من ماء نجس غُمس في دمٍ نجس، ولذلك قال بعضهم: ما يصنَعُ بالكِبْر مَنْ خُلق من نطفة مَذِرة وآخره جِيفة قَذِرة، وهو فيما بينهما حامل عَذِرَة!

﴿فما له من قُوَّةٍ ولا ناصر﴾ [الطارق: ١٠]: قد قدمنا أنَّ الضمير للإنسان، وفيها التنبيه له على الرجوع إلى خالقه وناصره، ولا يلتفت إلى غيره مِنْ والد وزوج وأخٍ وولد؛ إذ كلّهم ينقطعون عنه، ولا يجدُ إلا مولاه الذي ينصره حيًّا وميتاً، يقول تعالى في بعض كتبه: عبدي أحباؤك أربعة: حبيب يصلح لأُولاك ولا يصلح لأخْراك، وهما الأبوان يخدمانك ويربِّيانك في صغرك، فإذا كبرا يكونان ضعيفين لا يقدران على أن يربّياك. وحبيب يصلح لأخراك ولا يصلح لأولاك، وهم أولادك يخدمونك في آخر عمركَ. وحبيب يصلح لظاهرك ولا يصلح لباطنك، وهم الأخلاء والأصدقاء. وحبيب يصلح لباطنك ولا يصلح لظاهرك، وهنّ أزواجك، فإذا أردتَ أن تحبَّ أحداً فإني أحبك أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وأنصرك في كل الأحوال، أتترك من يحبك في كل الأحوال وتحبُّ من لا يحبك على كلِّ حال؟

﴿فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]: حذف مفعول خَلَق فسوَّى؛ لقصد الإجمال الذي يُفيد العموم. والمراد خلق كل شيء فسوّاه، أي أتقن خِلْقَته.

﴿فهَدَى﴾ [الأعلى : ٣] : حذف المفعول أيضاً ليُفيد العموم ، فإن كان من التقدير فالمعنى قَدَّر لكل حيوان ما يُصْلحه فهداهُ إليه ، وعرَّفه وجْهَ الانتفاع به . وقيل : هدَى ذكورَ الحيوان إلى وطْءِ الإناث لبقاء النسل . وقيل : هو المولود حين وَضْعِه إلى مَص الثدي . وقيل : هدى الناس للخير والشر والبهائم للمراتع . وهذه الأقوال أمثلة . والأول أعم وأرجح ، فإن هدايةَ الإنسان وسائرِ الحيوانات إلى مصالحها بابٌ واسع فيه عجائب وغرائب . وقال الفراء : المعنى هدى وأضل ، واكتفى بالواحدة ، لدلالتها على الأخرى . وهذا بعيد .

﴿فذَكِّرْ إنما أنْتَ مُذَكِّر﴾ [الغاشية : ٢١] ، أي ذَكِّرْ كلَّ أحد ، ﴿إلا مَنْ تولَّى﴾ [الغاشية : ٢٣] يئست منه ، فهو على هذا متصل . وقيل : إلاّ مَنْ تولى استثناء من قوله : ﴿لست عليهم بمُصَيْطر﴾ [الغاشية : ٢٢] ؛ أي لا تتسلَّط إلا على مَنْ تولى وكفر ؛ وهو على هذا متصل لا نَسْخَ فيه ؛ إذ لا مُوَادعة فيه ؛ وهذا بعيد ؛ لأن السورة مكية والموادعة بمكة ثابتة .

﴿فَصَبَّ عليهم ربُّكَ سَوْطَ عَذَاب﴾ [الفجر : ١٣] : قد قدمنا أنه استعار للسوط العذاب ؛ لأنه يقتضي من التكرار ما لا يقتضيه السيف وغيره ، قاله ابن عطية . قال الزمخشري : ذِكْرُ السوط إشارة إلى عذاب الدنيا ؛ إذ هو أهون من عذاب الآخرة ، كما أن السوط أهونُ من القتل .

﴿فأمّا الإنسانُ إذَا ما ابْتَلاَهُ رَبُّه﴾ [الفجر : ١٥] : قد قدمنا أن معنى الابتلاء الاختبار ، واختباره تعالى لعَبْدِه لتقومَ الحجةُ عليه بما يبدو منه ؛ وقد كان الله عالماً بذلك قبل كونه . والإنسانُ هنا جنس . وقيل نزلت في عتْبة بن ربيعة ، وهي مع ذلك على العموم فيمَنْ كان على هذه الصفة ، وذكر اللهُ في هذه الآية ابتلاءه للإنسان بالخير والشر اختباراً وفتْنَة .

﴿فقدَر عَلَيْهِ رِزْقَه﴾ [الفجر : ١٦] ؛ أي ضَيَّقَه . وقرىء بتشديد الدال وتخفيفها بمعنى واحد . وفي التشديد مبالغة . وقيل معنى التشديد جعله على قدر معلوم .

﴿فيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّب عذابَه أَحَدٌ﴾ [الفجر : ٢٥] : مَن قرأ بكسر الذال من يعذب والثاء من يوثق فالضمير في عذابه ووثاقه لله تعالى. ومَنْ قرأ بالفتح فالضمير للإنسان، أي لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق أحد مثل وثاقه، وهذه قراءة الكسائي. وروي أن أبا عمرو رجع إليها، وهي قراءة حسنةٌ صحَّتْ عنه ﷺ.

﴿فادْخُلي في عِبَادِي﴾ [الفجر : ٢٩]؛ أي فادخلي في عبادي الصالحين. وقرىء : فادخلي في عَبْدي بالتوحيد، ومعناه ادخلي في جسده، وهو خطاب للنفس. ونزلت هذه الآية في حمزة. وقيل في خُبيب بن عدي الذي صلبه الكفّار بمكة، ولَفْظُها يَعُمُّ كلَّ نفس مطمئنة، لأن النفوس ثلاثة: لوّامة، وأمّارة، ومطمئنة، والممدوح منها الأخيرة.

﴿فلا اقْتَحَم العَقَبة﴾ [البلد : ١١] : قد قدمنا أنّ الاقتحام الدخول بشدة ومشقة، والعقبة: عبارة عن الأعمال الصالحة المذكورة بَعْدُ، وجعلها عقبة استعارةً من عقَبة الجبَل، لأنها تصد ويشقُّ صعودها على النفوس. وقيل هي جبل في جهنم له عقَبة لا يجاوزُها إلا من عمل هذه الأعمال و « لا » تحضيض بمعنى هلاّ. وقيل هي دعاء. وقيل نافية. واعترض على هذا القول بأن لا النافية إذا دخلت على الفعل الماضي لزم تكرارها. وأجاب الزمخشري بأنها مكررة في المعنى، والتقدير فلا اقتحم العقبة، فلا فَكَ رقبة، ولا أطعم مسكيناً.

﴿فألْهَمَها فجورَها وتَقْوَاها﴾ [الشمس: ٨]؛ أي عرفها طرق الفجور والتقوى، وجعل لها قوةً يصح معها اكتساب أحد الأمرين. ويحتمل أن تكون الواو بمعنى أو؛ كقوله: ﴿إنا هَدَيناه السبيلَ إمَّا شَاكِراً وإمّا كَفوراً﴾ [الإنسان: ٣].

﴿فقال لهم رسولُ الله ناقةَ اللهِ﴾ [الشمس: ١٣] : منصوب بفعل مضمر تقديره احفظوا ناقةَ الله، أوْ احْذَروا ناقةَ الله.

﴿فَدَمْدَم عليهم رَبُّهم بذنبهم فسوَّاها﴾ [الشمس: ١٤]، أي سوى القبيلة لم يُفْلت أحداً منهم وقال الزمخشري: الضمير للدمدمة، أي سوَّاها بينهم.

فانظر كيف هوَّل عليهم بهذه اللفظة بسبب ذَنْبهم، وهو التكذيب، وعَقْر الناقة، ليتعظ غيرهم.

﴿ولا يخاف عُقْباها﴾ [الشمس: ١٥]: ضمير الفاعل لله تعالى. والضمير في عقباها للدَّمْدَمة والتسوية، وهو الهلاك؛ أي لا يخاف عاقبةَ إهلاكهم ولا درك عليه في ذلك كما يخاف الملوكُ من عاقبة أعمالهم؛ وفي ذلك احتقارٌ لهم. قيل: وضمير الفاعل لصالح، وهو بعيد. وقرىء فلا يخاف بالفاء وبالواو. وقيل في القراءة بالواو إن الفاعل أشْقاها. والجملة في موضع الحال؛ أي انبعث ولم يَخَفْ عقبى فعلته؛ وهذا بعيد.

﴿فأنْذَرْتُكم ناراً تَلظَّى﴾ [الليل: ١٤]: مخاطبة من الله أو من النبي ﷺ على تقدير: قل يا محمد.

﴿فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]: أمر من الله لرسوله أَنْ يحدّث بنعمه، وهي الْقرآن، والرسالة، وجميع النعم التي أعطاه من دِينية ودُنياوية؛ ولهذا قال ﷺ: « التحدث بنعم الله شُكْرٌ لها وكتمانُها كفرها »؛ ولهذا كان بعضُ السلف يقول: صليتُ البارحة كذا، وصمْتُ من الشهر كذا؛ وهذا إنما يجوز إذا ذكره على وَجْهِ الشكر، أو ليُقْتدى به، لا على وَجْهِ الفَخْر والتكبّر.

وانظر كيف ذكر الله في هذه السورة ثلاث نعم، ثم ذكر في مُقابلتها ثلاث وصايا؛ فقابل قوله: ﴿أَلم يجِدْكَ يتيماً﴾ بقوله: ﴿فأما اليَتيمَ فلا تَقْهَر﴾. وقوله: ﴿ووجدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ بقوله: ﴿أما السائِلَ فلا تَنْهَرْ﴾ على قول مَنْ قال: إنه السائل عن العلم. وقابله بقوله: ﴿وأمَّا بنعمة رَبِّكَ فحدِّثْ﴾ ـ على القول الآخر.

﴿فإنَّ مع العُسْرِ يُسرا﴾ [الشرح: ٥]: هذا وعْدٌ باليُسْر بعد العسر،

وتسليةٌ لنبينا ومولانا محمد ﷺ والمؤمنين لما كانوا يلْقَوْن من الأذَى من الكفار، وإنما ذكره بلفظ مع التي تقتضي المقارنة ليدلَّ على قُرْب اليسر من العسر.

فإن قيل: ما وَجْه ارتباط هذا مع ما قبله؟

والجواب: لما عدّدَ عليه النعم تسليةً له وتأنيساً قَوِي رجاؤه بالنصر؛ كأنه يقول له: إن الذي أنعم عليك بهذه النعم سينصرك ويُظْهرك ويُبَدّل لك هذا العسر يسراً قريباً، ولذلك كرَّر: ﴿إنّ مع العُسر يسراً﴾ [الشرح: ٦] مبالغة، قال ﷺ: «لن يغلب عُسر يُسرين». وقد روى ذلك عمر، وابن مسعود، وتأويله أن العسر المذكور في هذه السورة واحد، لأن الألف واللام للعهد، كقولك: جاءني رجل فأكرمْتُ الرجل. واليسر اثنان لتنكيره. وقيل: إن اليسر الأول في الدنيا والثاني في الآخرة؛ وقد أكثر الناسُ في هذه الآية وألَّفُوا فيها تواليف منها كتاب: «الفرَج بعد الشدة»، وجنة الرضا، وغيرهما مما يطول ذكر شيء منها.

وبالجملة فمَنْ تَذَكَّر سَبْقَ نعمته عليه، وكثْرَة نعمه إليه، وعظيم ثوابه، وصدْقَ وعْده، وسعةَ رحمته وسَبْقَها غَضبه ـ آثر له قوة رجائه فيه، وهان عليه ما يَلْقَاه في ضيقه؛ قال تعالى في بعض كتبه: يا مطرود، لا تبرح، ويا مَرْدُود لا تَأْيس، ويا مهجور لا تَقْلق؛ قد فتحنا لك البابَ وجعلناك من الأحباب، وهبك أَني طردْتُك عن بابي، وألزمْتك حِجابي فإلى باب مَنْ تلتجىء، وعلى أي جهة تَقف، فكُنْ معي كالصبي مع أُمِّه، كلما زجَرَتْهُ رجع إليها، وكلما طردته تمرَّغ بين يديها، فلا يزال معها حتى تقبله، فانْقُل قدمَ الإقدام لبابي، واكشف رأْسَ الاستغفار ونادِ بلسان الحَقْر والاضطرار: ربِّي مَسني الضُّر وأَنْتَ أَرْحَمُ الراحمين ـ يقع لك جواب: ﴿فكشفنا ما به من ضُرّ وآتيناه أَهْلَه ومِثْلَهم معهم رحمةً من عندنا وذِكْرى للعابدين﴾ [الأنبياء: ٨٤].

﴿فإذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ [الشرح: ٧]: هو من النَّصَب بمعنى التّعب. والمعنى إذا فرغت من أَمْرٍ فاجتهد في أمرٍ؛ ثم اختلف في تعيين الأمرين؛ فقيل:

إذا فرغت من الفرائض فانْصَبْ في النوافل. وقيل: إذا فرغت من الصلاة فانْصَبْ في الدعاء. وقيل: إذا فرغت من شُغْل دنياك فانصب في عبادة ربك.

﴿فارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨]: إنما قدم المجرور في ﴿إلى ربك﴾ ليدلَّ على الحصر؛ أي لاَ ترغب إلا إلى ربك وحْدَه. وفي هذا إشارةٌ إلى عدم الركون للخلق؛ فإن الركونَ إليهم وحشةٌ والالتجاء إليهم إعراض عن الحق. وقد قدمنا من هذا المعنى كثيراً.

﴿فلهم أَجْرٌ غير مَمْنُون﴾ [التين: ٦]: أي غير منقوص، يقال: مننتُ الـحَبْلَ إذا قطعته. وقال مجاهد: غير محصور؛ لأن كلّ مَحْسُوب محصور؛ فهو معدّ لأن يمنَّ به.

ويظهر في الآية أنه وصفه بعدم المنّ والأذى من حيث هو من جهة الله تعالى؛ فهو شريف لا منّ فيه، وأعطياتُ البشر هي التي يدخلها المنّ. قال السدي: نزلت هذه الآية في الـمَرْضَى والزمناء إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كتب لهم من الأجر ما كانوا يعملون.

فإن قلت: أيُّ حكمة في الإخبار بهذا؟ ولم زيدت هنا الفاء، وحذفت من آية الانشقاق [٣٥] وفُصِّلَتْ [٨]؟

(والجواب) إنما زيدت لمراعاة الفاء التي بعدها؛ وفائدة تكرير هذه الآية والإخبار بها للتأسي والتخلّق بأفعال الحق في عدم مَنِّه؛ لأَنَّ المنَّ يكدِّرُ الإحسانَ ويذهب بلذّته؛ ولذلك قال تعالى: ﴿لا تُبْطِلُوا صدقَاتِكم بالـمَنِّ والأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]. قال المفسرون: المنُّ أن يذكره، والأذى أن يظهره. وقال ﷺ: لا تأكل طعام المنّان؛ فإنه داءٌ... إلى غير ذلك من الأحاديث مما يطول ذكرها.

﴿فمن يعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه﴾ [الزلزلة: ٧]: قد قدمنا في حرف الميم ما في هذه الآية وتسميتها بالجامعة الفاذة، ولما نزلت هذه السورةُ بَكَى أبو

بكر، وقال: يا رسول الله، أَو أُسْأَلُ عن مثاقيل الذّرّ من أعمالي؟ فقال له ﷺ: يا أبا بكر، ما رأيته في الدنيا مما تكره فمثاقيل ذَرِّ الشر ويَدَّخِر لك الله مثاقيلَ ذرِّ الخير... إلى آخره.

فانظر بكاءَ المشهود له بالجنة على نفسه، وخَوْفه من ذنوبه مع أن الله بشَّره بشفاعته في عدد ربيعة ومُضَر من هذه الأمة، وأنت تريد اللحوقَ بهم مع عدم خوفك وبكاك، وكثرة أوزارك محيطة بك؛ ما يكون جوابك إذا قيل لك: اقرأْ كتابكَ كفَى بنفسكَ اليوم عليكَ حَسيباً؟ فما أعظمها من كربة إذا حملْتَ حُزمة سيئاتك، وصرت تقرؤها بين يدي ربك، وما مثلنا إلا كحاطبٍ يجمع كُلَّ ما يَلْقَى، فإذا جاء يرفعها لم يقدر عليها؛ وقد أَخفى الله غضبه في معاصيه، فلا تحقرنّ منها شيئاً؛ فإنها عند الله بمكانٍ، وكلّ ما صغر في عينك عظيم عند الله.

قال الفضيل بن عياض: أَتاني رجل، فقال: عِظْني، فقرأتُ عليه: ﴿إذا زُلْزِلَت﴾ [الزلزلة: ١]، فغاب مدةً ثم أتاني، فقلت له: أين غَيْبَتُك؟ قال: كنْتُ مشغولاً بتحقيق الحساب الذي علّمْتَني؛ فقلت له: وما هو؟ قال: ﴿فمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيراً يره﴾ [الزلزلة: ٧]؛ ورئي بعضُ المشايخ وقد بلغ جدَاراً، وكان في زمن الشتاء، وهو يتصبَّبُ عرقاً فسئل عن ذلك، فقال: أَخذتُ من هذا الحائط قطعةَ طينٍ غسل يده بها ضيفٌ، ولم أستحل من صاحبه حتى مات، فأنا كلما مررتُ به لم أَملك نفسي.

هذا حالُهم، فأنَّى لنا اللحوق بهم! مَلأْنَا بطونَنا من الحرام، وتراكمت على قلوبنا سحائبُ الآثام، وغلب علينا سكر المنام، وادّعَيْنَا الدعاوى الباطلة والآمال الكاذبة.

فإن قلت: ما سِرُّ تقديم الخير في هذه الآية على الشر؟

والجواب لما كان المطلوب في العمل تقديمُ الخير على الشر جاء في اللفظِ على الوَجْهِ المطلوب. وأيضاً لما كان فاعلُ الخير مقدَّماً في الرتبة على فاعلِ الشرِّ جاء العملُ مرتَّباً على ترتيب عامله.

﴿فلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيت﴾ [قريش: ٣]: هذا إقامة حجةٍ عليهم، واستدعاءٌ لهم، بملاطفة وتذكير بالنعم حيث كان الناسُ يتخطفون مِنْ حَوْلهم، وهم لا يُصيبهم ما أصَاب غيْرَهم؛ من الأمن وإتيان الرزق إليهم، لـحُرْمَةِ هذا البيت المعظم عند جميع بني آدم، كأنه يقول لهم: إن لم تعبدوه لما شَرَّفكم بالعقل، وجعلكم محبوبين، فاعبدوه لهذا البيت الذي شرَّفكم به، ودفَع عنكم مَنْ قَصد ضرَّكم من جميع الأمم.

﴿فَسبِّحْ بحَمْدِ رَبّك﴾ [النصر : ٣]: قد ذكرنا معنى التسبيح والاستغفار، وأن هذه السورة إعلام من الله لرسوله بقُرْب أجله.

فإن قيل: لم أمره بالتسبيح والْحَمْدِ والاستغفار عند رؤْية النصر والفَتْح، وعند اقتراب أَجله؟

فالجواب أنه أمره بالتسبيح والْحَمْد ليكونَ شُكْرُه على النصر والفَتْح وظهورِ الإسلام؛ وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الـمَرْءَ لا يَختُم صحيفَته إلا بخير الأعمالِ، ويهيِّىء زاداً للقاء ربه، ولا يَغْفُل كما غفل في أول أجله. والاستغفار والتسبيحُ من أفضل الأعمال؛ لما فيهما من تَنْزِيه الخالق، وانكسارِ القَلْب مع الاستغفار؛ وهو تعالى عند المنكسرة قلوبهم.

﴿فَرَاش﴾ [القارعة: ٤]: قد قدمنا أنه طير دقيق يتساقطُ في النار ويقْصِدها، ولا يزال يقتحم على المصباح ونحوه حتى يَحْتَرق. ومنه الحديث: أنا آخذ بحُجَزِكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها تَقَاحُمَ الفراش والجنادب.

فإن قلت: قد شبههم في سورة القمر [٧] بالجَرَاد الـمُنْتَشر، وهنا بالفَراش؛ فهل بينهما توافق أم لا ؟

فالجواب أنّ بينهما موافَقة على قول بعضهم؛ قال الفراء: الفَراش غوغاء الجراد، وهو صغِيره الذي ينتشر في الأرض والهواء. قال بعض العلماء: الناس أول قِيامهم من القبور كالفَراش المبثوث؛ لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام،

ثم يدعوهم الداعي فيتوجَّهون إلى ناحية الـمَحْشر كالجراد المنتشر؛ لأن الجرادَ إنما تَوَجُّهه أبداً إلى ناحيةٍ مقصودة، وبهذا يظهر لك الـجَمْعُ بين الآيتين. وروى البيهقي في الشعب عن النَّوَّاس بن سمعان أن النبيَّ ﷺ قال: ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافُتَ الفراش في النار، كلّ الكذب مكذوب إلا الكذب في الحرب أو الكذب لإصلاح ذات البَيْن، أو الكذب على امرأته ليرضيها. قال الغزالي: ولعلك تظنُّ أنَّ ذلك لنُقْصانها وجهلها، فاعلم أن جَهْلَ الإنسان أعظمُ من جهلها؛ بل صورة الإنسان في الإكباب على الشهوات صورة الفَراش في التهافت على النار؛ فلا يزال يَرْمِي بنفسه فيها إلى أن يغمس فيها، ويهلك هلاكاً مؤبَّداً؛ فليت جهل الآدمي كان كَجَهْل الفراش؛ فإنما اغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلّصت في الحال، والآدمي يبقى في الحال أبَدَ الآبادِ، ومدةً مؤبّدة؛ ولذلك كان رسولُ الله ﷺ يقول: إنكم تتهافتون في النار تهافُتَ الفراش وأنا آخذ بحُجزكم.

قلت: وقد قدمنا أنّ الفرش صغارُ الإبل كالعجاجيل والفُصْلان؛ لأنها تُفرش للذبح ويفرش ما ينسج من صوفها.

فإن قلت: ما سِرُّ تقديم الحمولة على الفرش مع احتياج الناس إليها أكثر ومنفعتها أهَمّ.

فالجواب أن الحمولة أعظم في الانتفاع، لأنها للأكل والـحَمْل. قال الفراء: ولم أَسمع بالفراش يُجمع. ويحتمل أن يكون مصدراً سُمِّيَ به، من قولهم: فرشها الله فَرْشاً.

﴿فُرْقَان﴾: له ثلاثة معانٍ: القرآن، ومنه: ﴿يَجْعَل لكم فرقاناً﴾ [الأنفال: ٢٩]؛ أي تفرقة. ويوم بَدْر؛ ومنه: ﴿وما أنْزَلْنا على عَبْدِنا يَوْمَ الفُرقان﴾ [الأنفال: ٤١].

﴿فَلَك﴾ [الأنبياء: ٣٣]: سفينة، ويستوي فيها المفرد والجمع.

﴿فقه﴾: فهم، ومنه: ﴿لا يَفْقَهُون﴾ [الأنفال: ٦٥]. و ﴿ما نَفْقه كثيراً مما تقول﴾ [هود: ٩١].

﴿فُومِهَا﴾ [البقرة: ٦١]: هو الثوم. وقيل الحنطة بالعبرانية. ويقال: فوموا، أي اختبئوا، ويقال: الفُوم الخرنوب.

﴿للفقراء الذين أُحْصِرُوا في سبيل الله﴾ [البقرة: ٢٧٣]: متعلق بمحذوف، تقديره: الإنفاق للفقراء المهاجرين الذين حُبِسوا بالعدوّ أو بالمرض، والمرادُ بهم أصحابُ النبيّ ﷺ.

وأما قوله: ﴿إنما الصدقاتُ للفقراء﴾ [التوبة: ٦٠] ـ فالمرادُ أنَّ الزكاة تُدفع للفقراء، وهم أحد الأصناف الثمانية. والفقيرُ الذي له بُلْغة من العيش؛ وقد قدمنا أنّ المسكينَ أحوجُ من الفقير؛ لأنه الذي لا شيء له بالكلية. والعاملين عليها الذين يَقْبِضُونها ويفرّقونها. والمؤلَّفة قلوبهم: كفّارٌ يُعْطَونها ترغيباً في الإسلام، كإعطائه للأقْرع بن حابس مائةً من الإبل. وقيل: هم مسلمون يُعْطَون ليتمكَّنَ إيمانُهم. واختلف: هل بقي حكْمُهم أو سقط للاستغناء عنهم؟ وفي الرِّقَاب: يعني العبيد يُشْترون ويُعْتَقون. والغارِمين: يعني مَن عليه دين. ويشترط أن يكونَ إستَدانَ في غير فَسادٍ ولا إسراف. وفي سبيل الله: يعني الجهاد، فيُعْطَى منها المجاهدون ويشترون منها آلاتِ الحرب. واختلف هل تُصْرف في بناءِ الأسوار وإنشاء الأساطيل؟ وابن السبيل: يعني الغريب المحتاج.

﴿فَرِيضةً﴾ [التوبة: ٦٠]؛ أي حقًّا محدوداً، ونصبه على المصدر. وقد قدمنا أن لفظة الفَرْض تحتمل معاني كثيرة: بمعنى التقدير؛ ومنه الحديث: زكاةُ الفِطْر فريضةٌ؛ أي مقدّرة. وبمعنى النزول، ومنه: ﴿سورةٌ أَنْزَلْناها وفَرَضْنَاها﴾ [النور: ١]. وقرىء بتشديد الراء، يعني بَيَّنّاها.

وبمعنى التحليل؛ قال تعالى: ﴿ما كان على النبي من حَرَج فيما فَرَض اللهُ له﴾ [الأحزاب: ٣٨]، يعني فيما أحلَّ اللهُ له. وقال تعالى: ﴿وقد فَرَضْتُم لهن

فريضةً﴾ [البقرة: ٢٣٧]، أي سمّيتم، وقوله: ﴿فَمَنْ فرَض فيهن الحجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧]: يعني أوجب. وقال تعالى: ﴿قد فَرض اللهُ لكُمْ تَحِلَّةَ أيمانكم﴾ [التحريم: ٢]، يعني بيّنها.

فإن قيل: لم ذكر مصرف الزكاة في تضاعيف ذِكر المنافقين؟

فالجواب أنه خَصَّ مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طَمَع المنافقين فيها، فاتَّصَلَتْ هذه الآية في المعنى بقوله: ﴿ومنهم مَن يَلْمِزُكَ في الصدقات﴾ [التوبة: ٥٨].

﴿فُسوق بكم﴾ [البقرة: ٢٨٢]: خطاب لمن وقع في الإضرار في الكاتب والشهيد المتقدمين في الذكر. وقد قدمنا أنّ الفِسْقَ هو الخروج عن الطاعة، وقد عَبَّر سبحانه عن المنافق بالفاسق في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كان مُؤْمِناً كمَنْ كان فَاسِقاً﴾ [السجدة: ١٨].

﴿فُرَادَى﴾ [الأنعام: ٩٤]: متفردين عن أموالكم وأولادكم. وأما قوله: ﴿قل إنما أَعِظُكم بواحدة أَنْ تقُوموا للهِ مَثْنَى وفُرادَى﴾ [سبأ: ٤٦] - فمعنَاها أن تقوموا للنظر في أمْرِ محمد ﷺ قِياماً خالصاً ليس فيه اتِّبَاعُ هَوى ولا مَيْل، وليس المراد بالقيام بالأَمْر الجد فيه، وأن تقوموا بدل أو عطف بيان، أو خبر ابتداء مضمر. ومَثْنَى وفُرَادى حال من الضمير في ﴿أن تقوموا﴾. والمعنى أن تقوموا اثنين اثنين للمناظرة في الأمر وطلباً للتحقيق. وتقوموا واحداً واحداً لاستحضار الذِّهْن وإجماع الفِكرة.

﴿فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨]: من التفريط والتضييع، أو من الإفراط والإسراف.

﴿فُزِّعَ عَنْ قُلوبهم﴾ [سبأ: ٢٣]: الضمير للملائكة؛ وقد قدمنا أنهم إذا سمعوا الوَحْيَ إلى جبريل يفزعون لذلك فزعاً شديداً، فإذا زال الفَزَعُ عن قلوبهم قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقّ. ومعنى فُزّع زال عنها الفَزَع، فالضمير في قالوا للملائكة.

فإن قلت: كيف ذلك ولم يتقدم للملائكة ذِكْرٌ يعودُ الضمير عليه؟

والجوابُ أنه قد وضعت إليهم إشارة بقوله: ﴿ولا تَنْفَعُ الشفاعةُ عنده إلاّ لِمَنْ أَذِن له﴾ [سبأ: ٢٣]؛ لأن بعض العرب كانوا يعبدون الملائكةَ ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فذكْرُ الشفاعة يقتضي ذِكْرَ الشافعين؛ فعاد الضمير على الشفعاء الذين دَلّ عليهم لَفْظُ الشفاعة.

فإن قيل: بِمَ اتّصل قوله: حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم؟ ولأي شيء وقعت حتى غاية؟

فالجواب: أنه اتصل بما فُهِم من الكلام مِن أنّ ثَمّ انتظاراً للإذن في الشفاعة وتوقّفاً وفزَعاً حتى يَزول الفَزع بالإذْن في الشفاعة؛ ويقرب من هذا المعنى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُوم الرُّوحُ والملائكةُ صفًّا لا يتكلّمون...﴾ [النبأ: ٣٨] الآية.

ولم يفهم بعضُ الناس اتصالَ هذه الآية بما قبلها فاضطربوا فيها حتى قال بعضهم: هي في الكفار بعد الموت، ومعنى فُزّع عن قُلوبهم - رأوا الحقيقةَ؛ فقيل لهم: ماذا قال ربُّكم؟ فيقولون: قال الحق، فيقرّون حين لا ينفعهم الإقرار.

والصحيح أنها في الملائكةِ لوُرود ذلك في الحديث؛ ولأن القَصْد الردُّ على الكفار الذين عبدوا الملائكةَ بذكر شدةِ خَوْفِ الملائكة من الله وتعظيمهم له.

﴿فُروج﴾ [ق: ٦]: انشقاق؛ وذلك دليل على إتْقان الصنعةِ. ومنه: ﴿أولم يرَ الذين كَفَرُوا أنَّ السمٰواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً ففتقناهما﴾ [الأنبياء: ٣٠]. والفروج والانشقاق والفُطور والصدوع والفتوق بمعنى واحد.

﴿فِرَاشاً﴾ [البقرة: ٢٢]: بمعنى مهاداً، يعنى ذَلّلناها لكم، ولم نجعلها صعبةً غليظة لا يمكن الاستقرارُ عليها.

﴿فُؤَاد﴾ [القصص: ١٠]: قلب، وجمعه أفئدة.

﴿فِصَال﴾ من الرضاع، وإنما عبر عن مُدّته بالفصال، وهو الفطام، لأنه منتهى الرضاع.

فإن قلت: قد قال في سورة لقمان [١٤]: ﴿وفِصَاله في عامين﴾، وفي الأحقاف [١٥]: ﴿وفِصَالهُ ثلاثون شَهْراً﴾ ؟.

فالجواب أنَّ ما في لقمان مدة رضاعه، وفي الأحقاف حَمْلُه وفصاله ثلاثون شهراً. وهذا لا يكون إلا بأن ينقص من أحد الطرفين؛ وذلك إما أنْ تكون مدة الحمل ستة أشهر، ومدةُ الرضاع حَوْلين كاملين، أو تكون مدة الحمل تسعة أشهر، ومدة الرضاع حولين غير ثلاثة أشهر. ومن هذا أخذ عليٌّ بن أبي طالب مدةَ الحمل ستة أشهر.

﴿فِتْنة﴾ [البقرة: ١٩١]: وردت على أوجه: الشرك: ﴿والفِتْنَةُ أَشَدُّ من القَتْل﴾ [البقرة: ١٩١]. ﴿حتى لا تكونَ فِتْنةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]: والضلال: ﴿ابتغَاء الفِتْنَة﴾ [آل عمران: ٧]. والقَتْل: ﴿أَنْ يَفْتِنَكم الذين كفَروا﴾ [النساء: ١٠١]. والصدّ: ﴿واحْذَرْهم أَنْ يَفْتِنُوك﴾ [المائدة: ٤٩]. والضلالة: ﴿ومَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَته﴾ [المائدة: ٤١]. والمعذرة: ﴿ثم لم تكن فتْنَتُهم﴾ [الأنعام: ٢٣]. والقضاء: ﴿إن هي إلا فِتْنَتك﴾ [الأعراف: ١٥٥]. والضلالة: ﴿ألاَ في الفِتْنَةِ سقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]. والمرض: ﴿يُفتنون في كل عام﴾ [التوبة: ١٢٦]. والعبرة: ﴿لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً﴾ [يونس: ٨٥]. والعقوبة: ﴿أن تُصيبهم فتنة﴾ [النور: ٦٣]. والاختبار: ﴿ولقد فتَنَّا الذين مِنْ قبلهم﴾ [العنكبوت: ٣٠ ﴾. والعذاب: ﴿جعل فِتْنَةَ الناسِ كعذابِ الله﴾ [العنكبوت: ١٠]. والإحراق: ﴿يوم هُمْ على النار يُفْتَنون﴾ [الذاريات: ١٣]. والجنون: ﴿بِأَيِّكم الْمَفْتُون﴾ [القلم: ٦].

﴿فرعون﴾: قد قدمنا أن اسْمَه الوليد بن مصعب. وقيل إن كلّ مَنْ ملك مصر يسمّى فرعوناً، كما يقال تُبّع لكل من ملك اليمن، أي يَتْبع صاحبه كالخليفة يخلف غيره.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد؛ قال: كان فرعون فارسياً من أهل إصطخر.

﴿فِجَاجاً﴾ [الأنبياء: ٣١، ونوح: ٢٠]: مسالك، واحدها فَجّ.

﴿فِرْدوس﴾ [الكهف: ١٠٧، والمؤمنون: ١١]: مدينة في الجنة، وهي جنة الأعقاب. وأخرج ابنُ أبي حاتم، عن مجاهد؛ قال: الفردوس بستان ـ بالرومية؛ وأخرج عن السُّدِّي؛ قال: الكَرْم بالنبطية، وأصله فرداساً.

فإن قلت: يُفهم من إعادة الضمير عليها مؤنثاً على معنى الجنة؛ وهذا مخالفٌ لما ذُكِر في سورة المعارج؛ أنه ذكر أوصافَ هؤلاء، فقال: ﴿أولئِكَ هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ [المؤمنون: ١٠ ـ ١١] ـ ﴿في جناتٍ مكرمون﴾ [المعارج: ٣٥]؛ فدلّ على أنها جنات؛ وهو الصحيح.

قلت: لا تنافي بينهما؛ لأنه ذكر في الْمعَارِج مسكن كل فرد فَرد، وهنا ذكر جَنَّات الفِرْدوس التي هي مسكنه عليه الصلاة والسلام، ومساكن مَنِ اتبعه من أمته؛ ولذلك ورد في الحديث: «إذا سألْتُم الله فاسْألوه الفردوس، فإنه أعْلَى الجنة، ومنه تفجَّر أنهار الجنة».

﴿في﴾ حرف جر له معان: بمعنى الظرفية مكاناً أو زماناً، نحو: ﴿غُلبت الرُّومُ في أَدنى الأرض، وهم من بعد غَلَبِهم سيغلبون في بِضْع سنين﴾ [الروم: ٢، ٣]. حقيقة كالآية، أو مجازاً، نحو: ﴿ولكم في القصاص حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين﴾ [يوسف: ٧]. ﴿إنّا لَنَرَاكَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

ثانيها: المصاحبة كمع، نحو: ﴿ادْخُلوا في أُمَمٍ﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ أي معهم ـ ﴿في تسع آيات﴾ [النمل: ١٢].

ثالثها: التعليل، نحو: ﴿فَذٰلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]. ﴿لَمَسَّكم فيما أَفَضْتُمْ﴾ [النور: ١٤]؛ أي لأجْله.

رابعها: الاستعْلاء؛ نحو: ﴿لأُصَلِّبَنَّكمْ في جُذوع النخل﴾ [طه: ٧١].

خامسها: معنى الباء؛ ﴿يَذْرَؤُكم فيه﴾ [الشورى: ١١]؛ أي بسببه.

سادسها: معنى إلى، نحو: ﴿فردُّوا أيديهم في أفواههم﴾ [إبراهيم: ٩]؛ أي إلى أفواههم.

سابعها: معنى مِن؛ نحو: ﴿يَوْمَ نبعَثُ في كُلِّ أمةٍ شَهيداً﴾ [النحل: ٨٩]، بدليل الآية الأخرى [٨٤].

ثامنها: معنى عن؛ نحو: ﴿فهو في الآخرة أَعمى﴾ [الإسراء: ٧٢]؛ أي عنها وعن محاسنها.

تاسعها: المقايسة، وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضلٍ لاحق؛ نحو: ﴿فما متَاعُ الحياةِ الدنْيَا في الآخرة إلا قليل﴾ [التوبة: ٣٨].

عاشرها: التوكيد، وهي الزائدة، نحو: ﴿وقال ارْكَبُوا فيها﴾ [هود: ٤١]؛ أي اركبوها.

﴿الفاء﴾ ثلاثة أنواع: ملطفة، ورابطة، وزاحفة للفعل بإضمار أن، ومعناها للترتيب والتعقيب والتسبّب.

حرف القاف

﴿قَسَتْ قُلوبُكم﴾ [البقرة: ٧٤]: يبست وصلبت؛ وقلب قاسٍ، وجاس، وعاسٍ، وعات؛ أي صلْب يابس جاف عن الدين غير قابل له. وهذا الخطاب لبني إسرائيل لقُبح قساوةِ قلوبهم بعد رؤيتهم للآيات؛ فهي كالحجارة أَوْ أَشدُّ قسوة، ولم يقل أَقسى مع أَنّ فعل القسوة يُبْنَى منه أفعل، لكون أشد أدَلّ على فرط القسوة.

﴿قَفَّيْنا﴾ [البقرة: ٨٧]: مأخوذ من القفا، أي جاء بالثاني في قَفَا الأول.

﴿قالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهودُ على شيء﴾ [البقرة: ١١٣]: سبَبُها اجتماعُ نصارى نجران مع يهود المدينة، فذمَّت كلُّ طائِفة الأخرى، وهذا أيضاً منهم موجود في هذا الزمان، فإن كل طائفة منهم مُقِرَّةٌ بأن الإسلام خير من دين الفريق الآخر.

﴿قال الَّذين لا يعلمون﴾ [البقرة: ١١٨]: هم هنا وفي الموضع الأَول كفّار العرب على الأصح، وقيل هنا: هم اليهود والنصارى.

﴿قال الَّذين مِنْ قَبْلهم﴾ [البقرة: ١١٣]: يعني اليهود، والنصارى على القول بأنَّ الذين لا يعلمون كفَّار العرب. وأما على القول بأن الذين لا يعلمون اليهود والنصارى فالذين مِنْ قبلهم أُمم الأنبياء المتقدمين.

﴿قد بَيَّنّا الآيات﴾ [البقرة: ١١٨]: أخبر تعالى أنه قد بيّن الآيات الدالة على وحدانيته وعلى صِدْقِ رسوله ﷺ، فكيف تطلب الآيات بعد بيانها، إنما

فهمها الذين يوقِنُون؛ ولذلك خصهم بالذكر بخلاف الكفّار المعاندين، فإنهم لا تنفعهم الآيات لعنادهم.

﴿قانتون﴾ [البقرة: ١١٦]: القنوت له خمسة معان: العبادة، والطاعة، والقيام في الصلاة، والدعاء، والسكوت.

﴿قَضَى﴾ [البقرة: ١١٧]: ورد على أوجه: الفراغ: ﴿فإذا قَضَيْتُم مَنَاسِكَكم﴾ [البقرة: ٢٠٠] والأمر: ﴿إذا قَضَى أَمْراً﴾ [البقرة: ١١٧]. والأجل: ﴿فمنهم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. والفصل: ﴿لقُضِيَ الأَمْر بيني وبينكم﴾ [الأنعام: ٥٨]. والمضي: ﴿ليَقْضِيَ اللهُ أمْراً كان مفعولاً﴾ [الأنفال: ٤٢]. والهلاك: ﴿لقضِيَ إليهم أجَلهم﴾ [يونس: ١١]. والوجوب: ﴿لَمَّا قُضِيَ الأمر﴾ [إبراهيم: ٢٢]. والإبرام: ﴿في نفس يعقوب قَضَاها﴾ [يوسف: ٦٨]. والإعلام: ﴿وقَضَيْنَا إلى بني إسرائيل﴾ [الإسراء: ٤]. والوصية: ﴿وقَضَى ربُّكَ ألاّ تَعْبُدوا إلا إيّاه﴾ [الإسراء: ٢٣]. والأداء والوفاء: ﴿ذلك بيني وبينك أيما الأجَلين قَضَيْت﴾ [القصص: ٢٨]، يعني أديت ووفيت. والفراغ: ﴿قُضي الأمْرُ الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: ٤١]؛ أي فرغ ومضى. والحكم: ﴿واللهُ يَقْضي بالحق﴾ [غافر: ٢٠]؛ أي يحكم. والموت: ﴿فلما قضينا عليه الموت﴾ [سبأ: ١٤]. والخلق: ﴿فقضَاهُنَّ سَبْعَ سموات في يَوْمَيْن﴾ [فصلت: ١٢]. والفعل: ﴿كلاَّ لمَّا يَقْضِ ما أمَره﴾ [عبس: ٢٣]، يعني حقاً لم يفعل. والعهد: ﴿إذْ قَضَيْنَا إلى موسى الأمْر﴾ [القصص: ٤٤].

﴿قَوَاعد﴾ البيت [البقرة: ١٢٧]: أساسه. والقواعد من النساء [النور: ٦٠] التي قعدت عن الولد. وقيل التي إذا رأيتها استقذرتها. وقيل: قعدت عن التصرف.

﴿قَيُّوم﴾ [البقرة: ٢٥٥]: من أسماء الله تعالى، وزنه فَيعُول. ومنه بناء مُبالغة، من القيام على الأمور. ومعناه، مُدَبّر الخلائق في الدنيا والآخرة. ومنه:

﴿أَفَمَنْ هو قائِمٌ على كلِّ نَفْسٍ بما كسَبت﴾ [الرعد : ٣٣] . قال الواسطي : القيوم هو الذي لا ينام بالسريانية .

﴿قدر﴾ : له خمسة معان : من القدرة ، ومن القدير ، ومن المقدار ، ومن القدر والقَضَاء ، وبمعنى التضييق ؛ نحو : ﴿ومن قُدِر عليه رزْقُه﴾ [الطلاق : ٧] وقد يشدد الفعل ويخفف . والقَدَر ـ بفتح الدال وإسكانها القضاء والمقدار ، وبالفتح لا غير من القضاء .

﴿قوّامون﴾ [النساء : ٣٤] : قام له ثلاثة معان : من القيام على الرِّجْلَين ، ومن القيام على الأمر بتدبيره وإصلاحه ؛ وهذا بناء مبالغة ، وقام الأمْرُ ظهر واستقام ، ومنه : ﴿الدين القيِّم﴾ [التوبة : ٣٦] . قال ابن عباس : الرجال أُمراء على النساء .

﴿قانِتات﴾ [النساء : ٤] ؛ أي النساء الصالحات في دينهن مطيعات لأزواجهن ، أو مطيعات لله في حق أزواجهن .

﴿قتَلْنَا المسيحَ عيسى ابن مريم﴾ [النساء : ١٥٧] : هذا من قول اليهود على وَجْه الافتخار والْجُرْأَة مع أنهم كذبوا في ذلك ولزمهم الذنْبُ وهم لم يقتلوه ؛ بل صلبوا الشخْصَ الذي أُلقي عليه شبهه وهم يعتقدون أنه عيسى . وروي أنَّ عيسى قال للحواريين : أيُّكم يُلْقَى عليه شبهي فيُقْتل ويكون رفيقي في الجنة ؟ فقال أحدهم : أنا ، فألقي عليه شبه عيسى ، فقُتل على أنه عيسى . وقيل : بل دل على عيسى يهوديٌّ ، فألقى الله شبَه عيسى عليه ، فقُتل على أنه عيسى ، ورُفع عيسى إلى السماء .

وسبَبُ قتلهم له أنهم قالوا في عيسى : إنه ساحر فاغتَمَّ لذلك ودعا عليهم ، فجعل اللهُ منهم قِردة وخنازير ، فبلغ الخبر إلى ملكهم ، وخاف من دعائه ، فأمر بقتله . ويقال : إن اسم الرجل الذي ألقي عليه شبه عيسى اشيوع ، وهكذا وقع لنبينا ﷺ حين اجتمع قُريش لقتله ؛ قال لعلي رضي الله عنه : ارْقُد في مكاني

حتى تدخل عليك قريش، ويريدون قتلك؛ فإن قُتِلت كنْتَ رفيقي في الجنة؛ فدخلوا عليه فوجدوه علياً، وانقلبوا خاسئين، ولم يقدروا على شيء، فقال الله لجبريل وميكائيل: انظرا إلى حبيبي كيف فداه ابنُ عمه؛ وعِزَّتِي وجلالي لأجعلنَّ اليهودَ والنصارى فداءً لأمة حبيبي؛ إني أردْتُ رَفْعَ عيسى إليّ، فجعلت إيذاءَ اليهود سبباً لذلك، كذلك أجعل وسوسةَ اللّعين سبباً لإغوائهم وأرحمهم مع ذلك.

فانظر هذه الرحمة النازلة عليك يا محمديّ، ورحم الله القائلَ: لولا المؤمن لضاعت جنَّة النعيم، ولولا الكافر لضاعت نارُ الجحيم، ولولا المعاصي لضاعت رحمةُ الرحيم.

﴿القنَاطير الْمقَنْطَرة﴾ [آل عمران: ١١٤]: جمع قنطار، وهو ألف ومائتا أُوقية. وقيل ألف ومائتا مثقال؛ وكلاهما مرويٌّ عنه ﷺ؛ وأكدها بالمقنطرة كقولهم: ألف مؤلّفة. وقيل المضروبة دنانير أو دراهم. وقال الفراء: المقنطرة المضعفة، كأن القناطير ثلاثة والمضعفة تسعة.

﴿قَرْحٌ﴾ [آل عمران: ١٤٠]؛ أي جراح، ومعنى الآية: إن مسكم قَتْل أو جراح في أُحُدٍ فقد مَسَّ الكفارَ مِثْلُه في بَدْرٍ. وقيل: قد مَسَّ الكفار يوم أحد مِثْلُ ما مسكم فيه؛ فإنهم نالوا منكم ونِلْتُم منهم؛ وذلك تسلية للمؤمنين بالتأسّي.

﴿قد خلت مِنْ قَبْلكم سُنَن﴾ [آل عمران: ١٣٧]: خطاب للمؤمنين وتأنيس لهم. وقيل للكفار تخويفاً لهم.

﴿قالوا كُنَّا مستَضْعفين في الأرض﴾ [النساء: ٩٧]: اعتذار عن التوبيخ الذي وبختهم الملائكة؛ أي لم يقدروا على الهجرة؛ وكان اعتذاراً بالباطل، ولذلك قالوا لهم: ﴿أَلم تَكُنْ أرْضُ اللهِ واسعةً فَتُهَاجِرُوا فيها﴾ [النساء: ٩٧].

﴿قوَّامِين للهِ شُهَدَاءَ بالقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]: أي بالعَدْل مجتهدين في إقامته.

فإن قلت: ما فائدة تقديم القسط في آية النساء [١٣٥] وتأخيره في آية المائدة؟

والجواب آيات النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط، قال تعالى: ﴿مَنْ يعمل سُوءاً يُجْزَ به...﴾ [النساء: ١٢٣] الآية؛ وقال بعد: ﴿ويستَفْتُونَكَ في النساء﴾ [النساء: ١٢٧]، ثم قال: ﴿وأنْ تَقُوموا لليتامى بالقِسْط﴾ [النساء: ١٢٧]؛ وتوالت الآي بَعْدُ على هذا المعنى، فقدم القسط ليناسب ما ذكر. وأما آية المائدة فذكر قبلها الأمر بالطهارة، ثم تذكيره سبحانه بتذكّر نعمته، والوقوف مع ما عَهد به إلى عباده والأمر بتقواه؛ فناسب قوله: كونوا قوّامين لله؛ ثم اتبع لما بني على ذلك من الشهادة بالقسط. فتأمل ما بني على هذه وما بني على آية النساء يتَّضح لك ما قلت.

﴿قال اتَّقُوا اللهَ إنْ كنْتُم مُؤمنين﴾ [المائدة: ١١٢]: هذا من قول عيسى للحواريين حين سألوه نزولَ المائدة، ويحتمل أن يكون زَجْراً لهم عن طلبها واقتراحِ الآيات. ويحتمل أن يكون زَجْراً عن الشك الذي يقتضيه قولهم: ﴿هل يستطيع رَبُّكَ﴾ على مذهب الزمخشري، أو عن البشاعة التي في اللفظ، وإن لم يكن فيه شك. وقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ هو على ظاهره على مذهب الزمخشري. وأما على مذهب ابن عطية وغيره فهو تقرير لهم، كما نقول: افعل كذا إن كنت رجلاً. ومعلوم أنه رجل. وقيل إن هذه المقالة صدرت منهم في أول الأمر قبل أنْ يَروا معجزات عيسى.

﴿قالوا نُريد أن نأْكُلَ منها﴾ [المائدة: ١١٣]؛ أي أكْلاً نتشرف به بين الناس، وليس مرادهم شهوة البطن.

﴿قال عيسى ابْنُ مريم اللهمَّ ربنا أنْزِلْ علينا مائِدَةً من السماء﴾ [المائدة: ١١٤]: أجابهم عيسى إلى سؤال المائِدَة من الله، فلبس جُبة شعر وقام يصلي ويدعو ويبكي.

﴿قال اللهُ إني مُنَزِّلُها عليكم﴾ [المائدة: ١١٥]: أجابه الله إلى ما طلب،

ونزلت المائِدة عليها خُبْز وسمك. وقيل زيت ورُمّان. وقال ابن عباس: كان طعام المائِدة ينزل عليهم حيثما نزلوا. والكلام في قصة المائِدة كثير تركْتُه لعدم صحته.

﴿قال اللهُ يا عيسى ابْنَ مريم أأَنْتَ قُلْتَ لِلنّاس...﴾ [المائدة: ١١٦] الآية، قال ابن عباس والجمهور: هذا القولُ من الله يكون يوم القيامة على رؤُوس الأشهاد، ليرى الكافرُ تبرئةَ عيسى مِمّا نسبوه إليه؛ ويعلمون أنهم كانوا على باطل. وقال السدّي: لما رفع الله عيسى إليه قالت النصارى ما قالت، وزعموا أنّ عيسى أمَرهم بذلك، فسأله الله حينئذٍ عن ذلك.

﴿قالوا إنْ هي إلاَّ حياتُنا الدنيا﴾ [الأنعام: ٢٩]: حكاية قولهم في إنكار البعث الأخْرَوي.

﴿قالوا يا حَسْرَتَنا على ما فَرَّطْنَا فِيها﴾ [الأنعام: ٣١]: الضمير بفيها للحياة الدنيا؛ لأن المعنى يقتضي ذلك وإن لم يَجْرِ لها ذكر. وقيل للساعة؛ أي فرطنا في شأنها والاستعداد لها. والأول أظهر.

﴿قد نَعْلَمُ إنّه لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُون﴾ [الأنعام: ٣٣]: قرىء يحزن حيث وقع بضم الياء من أحزن إلا قوله: ﴿لا يَحْزُنهم الفَزَعُ الأكبر﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وقرأ الباقون بفتح الياء من حزن الثلاثي، وهو أشهر في اللغة، والذي يقولون: قولُهُمْ شاعرٌ ساحر كاهن.

﴿قَرَاطيس﴾ [الأنعام: ٩١]: هي الصحائف. قال الجواليقي: يقال إن القرطاس أصله غير عربي. ومعنى هذه الآية أن الله ردّ بها على اليهود بأنه ألزمهم ما لا بُدَّ لهم منه؛ لأنهم أقرُّوا بإنزال التوراة على موسى. وقيل القائلون قريش؛ وألزموا ذلك؛ لأنهم كانوا مُقرّين بالتوراة.

﴿قد جاءكم بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكم﴾ [الأنعام: ١٠٤]: جمع بصيرة، وهي نورُ القلب، والبصر: نور العين، وهذا الكلام على لسان نَبِيّنا ﷺ؛ لقوله: ﴿وما أنا عليكم بحفِيظ﴾ [هود: ٨٦].

﴿قائلون﴾ [الأعراف: ٤]: من القائلة.

﴿قليلاً ما تَذَكَّرون﴾ [الأعراف: ٣]، انتصب قليلاً بتذكرون، أي تذكرون تذكراً قليلاً، وما زائدة للتأكيد.

﴿قالوا إنّا كُنّا ظالمين﴾ [الأعراف: ٥]: اعتراف منهم بأنهم كانوا ظالمين لما جاءهم العذابُ، ولو اعترفوا قبل ذلك لنَفَعهم.

﴿قَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١]، من القسم، وهو الحلف، وذكر قسم إبليس لآدم وحوّاء بصيغة المفاعلة التي تكون بين اثنين، لأنه اجتهد فيه، أو لأنه أَقسم لهما وأقسما له أن يَقْبلا نَصِيحته.

﴿قَبِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٢٧]: أمته. ومعنى الآية أن إبليس وجماعته يرى الإنسان من حيث لا يرونهم في الغالب؛ لأنه قد جاءت في رؤيتهم أحاديث كثيرة، فتُحْمل الآية على الأكثر جَمْعاً بينه وبين الأحاديث، وفي الآخرة يراهم الإنسان ولا يرونهم، عَكْس الدنيا، فسبحان من قَلب الحقائِق.

﴿قالوا وَجَدْنَا عليها آباءَنا﴾ [الأعراف: ٢٨]: اعتذروا بعُذْرَين باطلين: أحدهما تقليد آبائهم، والآخر افتراؤهم على الله بأنه أمرهم؛ فرَدَّ الله عليهم أنه لا يأمر بالفحشاء.

﴿قالت أُخْرَاهُم لأولاهُم﴾ [الأعراف: ٣٨]: قد قدمنا أن الأولى هم الرؤساء والقادة، والأخرى هم الأتباع والسفلة، والمعنى أن أُخْرَاهم طلبوا من الله أنْ يُضاعف العذاب لأولاهُم؛ لأنهم أضلُّوهم. وليس المعنى أنهم قالوا لهم ذلك خطاباً لهم، إنما هو كقوله: قال فلان لفلان كذا، أي قال عنه وإن لم يخاطبه به.

﴿قال أَوَلَوْ كنّا كارِهين﴾ [الأعراف: ٨٨]: الهمزة للاستفهام والإنكار، والواو للحال؛ تقديره: أنعود في ملتكم وما يكون لنا أنْ نعود فيها ونحن

كارهون. وهذا الخطاب من شُعيب لقومه لَمّا قالوا له: ﴿لنخرجنّكمْ من أرضنا أو لتَعُودن في ملتنا﴾.

فإن قلت: العود إلى الشيء يقتضي أنه فُعل قَبْل ذلك؛ وهذا محال في حقّ الأنبياء قبل الرسالة.

والجواب أنّ «عاد» قد تكون بمعنى صار، فلا تقتضي تقدُّم ذلك الحال الذي صار إليه؛ قاله ابن عطية. وقال الزمخشري: إن المراد بذلك الذين آمنوا بشُعيب، وإنما أدخلوه في الخطاب معهم بذلك كما أدخلوه في الخطاب معهم بقولهم: ﴿لنخرجنّك والذين آمَنُوا معكَ من قريتنا﴾، فغلبوا في الخطاب بعود الجماعة على الواحد، وبمثل ذلك لا يُجَاب على قوله: ﴿إن عُدْنا في مِلَّتِكم بعد إذْ نَجَّانا اللهُ منها، وما يكون لنا أَنْ نعودَ فيها إلا أَن يشاءَ اللهُ﴾ [الأعراف: ٨٩].

فإن قلت: ما معنى هذا الاستثناء من شُعيب مع عِلْمه بعصمته، وأنه لا يعود فيها، ولا يريد الله ذلك منه؟

والجواب: ما قدمناه من أنّ الأنبياء يتبرّأون من إسناد الأمور إليهم ويتأدبون مع الله.

فإن قلت: ما المانع من أنَّ الكفار ادَّعُوا على الرسُل أنهم كانوا قبل البعثة على ملَّتهم وافتروا عليهم ذلك.

والجواب يمنع منه أنَّ هذا أمر مشاهَد حسيّ، وليس بعقلي؛ وقالوا في أصول الفقه: إن عددَ التواتر يقَعُ في الأمر الحسيّ بخلاف العقلي، فلو أقرَّ عشرون ألفاً بعدَم العالم لما قبِلَ قولُهم بخلاف ما لو أخبر جماعة بقدوم زيد، فإنا نقبل قولَهم على الكذب فيه. وأما الأول فالعقلُ يكذبهم؛ نعم يحتمل أن يكون العود على حقيقته لاحتمال كَوْنِ الرسل لم يُظْهِروا لهم قبل البعثة أنهم مخالفون لدينهم، فلما بعثوا إليهم أظهروا المخالفة.

فإن قلت إخراجهم إياهم من أرضهم عقوبةٌ ناشئةٌ عن عدم العَوْد؛ فهلاّ قالوا: لتعودنّ في مِلَّتِنا أو لنخرجنَّكم من أرضنا؟

فالجواب أنَّ المقام مقامُ التخويف؛ فلذلك بدأوا بالإخراج.

﴿قال الْمَلأُ من قَوْمِ فِرْعونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩]: حكى الكلامَ هنا عن الْمَلأ، وفي الشعراء [٣٤] عن فرعون، فكأنه قد قاله هو وهُمْ، أو قاله هو ووافَقُوه عليه كعادة جُلساء الملوك في اتِّباعهم لما يقولون لهم.

﴿قالوا: إنَّ لَنَا لأجراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الغالبين﴾ [الأعراف: ١١٣]: هذا من قول السحرة؛ طلبوا الأجر من فرعون إنْ غَلَبُوا موسى.

فإن قلت: لِمَ ورد هنا مجيء السحرةِ عقب قوله: ﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾ [الأعراف: ١١٢]، وأخَّرَ جمعهم ومجيئهم في الشعراء، فقال: ﴿فجمِعَ السحرةُ...﴾ [الشعراء: ٣٨]: الآيات المذكورة فاصلة.

فالجواب أن فيها إطناب يُناسبه ما تقَدَّمَ من ذلك في مجاورة موسى عليه السلام ومكالمتَه فرعون مِن لَدُن قوله تعالى: ﴿وإذ نادى ربُّك موسى أن ائْتِ القومَ الظالمين﴾ [الشعراء: ١٠]. إلى هذه الآية، ولم يقع في قصصه عليه السلام في السُّوَر الوارد فيها قصصه من الإحالة في مراجعة فرعون مثل الوارد هنا؛ فناسب ما أُعْقِب به مما لم يقع الإخبارُ به في الأعراف. ولما كان الواردُ قَبْلَ آية الأعراف مَبْنِيًّا على الإيجاز وتحصيل المراد بأوجز كلام ـ ناسبَهُ إيجازُ الآية المذكورة، ووردَ كلٌّ مِنْ ذلك على ما يجب ويناسب.

﴿قال: نعم، وإنكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبين﴾ [الأعراف: ١١٤]: لما طلبوا الجعل من التقريب من فرعون أنعم لهم بذلك؛ فهذا عطف على معنى نعم؛ كأنه قال للسحرة: نُعطيكم أجراً، ونقرِّبكم، واسم رئيسهم يومئذ شمعون أو يوحنّا.

فإن قلت: ما وَجْهُ حذفِ «إذاً» هنا وإثباتها في الشعراء؟

والجواب أن ذلك من الإطناب المذكور، وأيضاً فهي مضمرةٌ مقدرة؛

ومعناه: إن غلبتم قَرَّبْتُكم، ورفعْتُ منزلتكم؛ فهي جزاء. وورد في الشعراء مُفصحاً؛ ليناسب بزيادتها ما مضَتْ عليه آيُ هذه السورة من الاستيفاء والإطناب.

﴿قالوا: يا موسى إمّا أَنْ تُلْقِيَ وإما أنْ نكونَ نحْنُ الْمُلْقين﴾ [الأعراف: ١١٥]: أنْ هنا في موضع نصب؛ أي إما أن تفعل الإلقاء. ويحتمل أن تكون في موضع رفع؛ أي إمّا هو الإلقاء. وخَيَّر السحرةُ موسى في أن يتقدم في الإلقاء أو يتأخر؛ وهذا فِعْل العَدْل الواثق بنفسه. والظاهرُ أن التقدُّم في التخييلات والمخارق أحجج؛ لأن بديهتها تمضي في النفوس؛ فلما أَراد الحقُّ أن يُظْهِرَ نبوءةَ موسى قوَّى نفسه ويقينَه، ووثَّقه بالحق، فأعطاهم التقدم؛ فبسطوا وسُرُّوا حتى أظهر اللهُ الحق وأبطل سَعْيهم.

فإن قلت: ما معنى اختلاف كل السحرة وتخييرهم في الإلقاء؟

والجواب لأنه كان في موطنين، أو لعله كان قد تكرر منهم، أو لعل بعضَهم قال هذا وبعضهم هذا، أو لعل المعنى الذي حكي عنهم تُعطيه العبارتان؛ وهذا أقرب شيء لما بين اللغات من اختلاف المقاصد عند الواضع الأول، أو قَصَد الإيهام على الخلاف في ذلك؛ ومع هذه الإمكانات يسقط الاعتراضُ رأساً.

﴿قال فرعونُ: آمنْتُم به قبل أن آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣] هذا قول فرعون دليل على وَهَن أمره؛ لأنه إنما جعل إذْنَهم مفارقاً لإذنه، ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط. والضميرُ في ﴿به﴾ يحتمل أن يعودَ على اسم الله تعالى، ويحتمل أن يعودَ على موسى عليه السلام؛ وعنَّفَهم على الإيمان قبل إذنه ثم ألزمهم أن هذا كان من اتفاق منهم، فقال لهم موسى: إن غلبتُكم أَتُؤْمنون بي؟ فقالوا له: نعم؛ فعلم بذلك فرعون؛ فلهذا قال: إن هذا لمكرمَكَرْتُموه؛ أي صنيع صنعتموه في مصر، لتستولوا عليها، فلسوف تعلمون ما أَفْعلُ بكم.

فإن قلت: ما وجْهُ إظهار اسم فرعون في هذه الآية [الأعراف: ١٢٣] وحذفه من طه [٧١]؟

والجواب لأنه تقدَّمَها قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ [الأعراف: ١٠٩]، فعرفت هذه الآية أنهم كانوا متولّين للتجربة من تكذيب الآية، ورَدّ ما جاء به موسى عليه؛ ولم يجر هنا ذِكرٌ لفرعون ولا فيما يلي الآيةَ ويَتْلوها من المجاورة والمراجعة بين الملأ وأتباعهم إلى قوله: ﴿رَبِّ مُوسى وهـارون﴾؛ فلما لم يقع إفصاح باسمه في هذه الجملة مع أنه ليس القائل على كل حال: ﴿آمنتم به﴾ غير فرعون وإنْ بَعُدَ ذلك، ولو لم يكن ليس البتة، فإن كونه لم يَجْرِ له ذِكْر مما يقتضي أَنْ يذكر.

ولما تقدم في سورة طه أَمْر موسى عليه السلام بإرساله إلى فرعون في قوله تعالى: ﴿اذهَبْ إلى فرعونَ إنه طَغَى﴾ [طه: ٢٤]، وقوله لموسى وهارون: ﴿اذهبا إلى فِرْعَوْن إنه طَغَى﴾ [طه: ٤٣]؛ ثم كرر ذلك، ثم وقع بعد ذلك سؤال فرعون لهما في قوله: ﴿فَمنْ رَبُّكما يا موسى﴾ [طه: ٤٩]؛ فتكرُّرُ اسم فرعون ظاهر ومضمر؛ ولم يُجْرِ للملأ به ذِكْراً مُفْصِحاً به ظاهراً البتة ولا مضمراً سوى الجاري مضمراً في قوله: ﴿فتنـازَعُـوا أمْـرَهُـم بينهـم وأَسَـرُّوا النَّجْوَى. قالوا...﴾ [طه: ٦٢، ٦٣] إلى ما بعد هذا ـ من غير إظهارِ البتَّة، فلتكرر اسم فرعون كثيراً ظاهراً ومضمراً، وارتفاع اللَّبْس البتة، حَسُنَ إتْيَانه مضمراً في قوله: قال آمنتم له؛ إذ ليس الوارِدُ هناك كالوارِدِ في الأعراف للافتراق من حيث ما ذكرنا.

﴿قد جاءكم الفَتْح...﴾ [الأنفال: ١٩]: إن كان الخطاب للكفّار فالفَتْحُ هنـا بمعنى الحكم؛ أي قد جاءكم الفتح الذي حكم اللهُ عليكم بالهزيمة والقَتْل والأسر، وإن كان الخطاب للمؤمنين فالفَتْحُ هنا يحتمل أن يكونَ بمعنى الحكم؛ لأنَّ الله حكم لهم. أو بمعنى النصر.

﴿قالوا: سمِعْنَا وهم لا يسمعون﴾ [الأنفال: ٢١]: أي سمعنا بآذاننا، وهم لا يسمعون بقلوبهم، فسماعُهم كَلَا سَماع.

﴿وقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]؛ أي في الأشهر الحرم، فهذا نسخٌ لتحريم القتال فيها. ﴿وكافة﴾ حال من الفاعل أو المفعول.

﴿قالوا لا تَنْفِرُوا في الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]: قائل هذه المقالة رجل من بني سلمة ممن صعب عليه السفَر إلى تَبُوك في الحر، فأمر اللهُ نبيّه أن يقول: ﴿قل نَارُ جهنم أشدُّ حرًّا لو كانوا يفقهون﴾ [التوبة: ٨١]؛ فحرارةُ هذا السفر دفعت حَرَّ نارِ جهنم، وكذلك الجوع والتعب الذي ينال الإنسان في الدنيا يقابَلُ في الآخرة بضده.

﴿قعد الذينَ كذَبُوا اللهَ ورسولَه﴾ [التوبة: ٩٠]: هم قوم لم يعتَذِرُوا وكذَبوا في دعواهم الإيمان؛ إذ لو كانوا صادقين لم يتخلَّفُوا عن رسول الله، فأخبر اللهُ رسوله بأنه سيُصيب الذين كفروا منهم عذابٌ أليم.

﴿قَدَّرَه مَنَازِل﴾ [يونس: ٥]: الضمير للقمر؛ والمعنى قَدَّرَ سيْرَهُ في المنازل، ليعلموا عددَ السنين والأشهر والأيام والليالي، ويكون القدر بمعنى التقدير؛ كقوله تعالى: ﴿إنَّا كلَّ شَيء خلقْنَاه بقَدَر﴾ [القمر: ٤٩]. وبمعنى التصوير؛ كقوله تعالى: ﴿فقَدَرْنَا فنعم القادرون﴾ [المرسلات: ٢٣]؛ يعني صوَّرنا؛ وبمعنى الوجود؛ كقوله تعالى: ﴿إلا امْرأته قَدَّرْنَاها من الغابرين﴾ [النمل: ٥٧]؛ وبمعنى القضاء؛ كقوله تعالى: ﴿فالتقى الماءُ على أمْرٍ قَدْ قُدِر﴾ [القمر: ١٢]. وبمعنى التضييق؛ كقوله: ﴿ومَنْ قُدِر عليه رِزْقه﴾ [الطلاق: ٧]؛ ﴿فظَنّ أنْ لن نَقْدِر عليه﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وبمعنى التسوية، كقوله تعالى: ﴿نحن قَدَّرْنا بينكم الموتَ﴾ [الواقعة: ٦٠]. وبمعنى المثل؛ كقوله تعالى: ﴿فسالت أَوْدِيَةٌ بقَدَرِها﴾ [الرعد: ١٧]: أي بمثلها؛ ومنه سميت القدرية قدرية، لأنهم يقولون بمثل قول المجوس، ولهذا قال ﷺ: القدرية مجوس هذه الأمة.

﴿قَدَم صِدْقٍ عند ربِّهم﴾ [يونس: ٢]؛ أي عملَ صالحٍ قدَّموه. وقال

ابن عباس السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ. وقيل غير هذا. والظاهر أنه محمد ﷺ، لأنّ أُمته قدموه بين أيديهم.

﴿قال الكافرون: إنَّ هذا لسِحْرٌ مُبِين﴾ [يونس: ٢]: يعنون به ما جاء به محمدٌ ﷺ من القرآن، وعلى قراءة ـ الساحر ـ فيعنون به سيدنا ومولانا محمداً ﷺ، ويحتمل أن يكون كلامُهم هذا تفسيراً لما ذكر قبلُ مِن تعجبهم من النبوءة، أو يكون خبراً مستأنفاً.

﴿قادِرُونَ عليها﴾ [يونس: ٢٤]، أي متمكنون من الانتفاع بها.

﴿قَتَر﴾ [يونس: ٢٦]، أي غبار يغبِّر الوجه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ عليها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قتَرة﴾ [عبس: ٤١]. والقتور من التقتير.

﴿قوماً صالحين﴾ [يوسف: ٩]، أي بالتوبة والاستقامة، وقيل صالحين مع أبيهم يعقوب، فانظر كيف سوَّفوا التوبةَ، وعلموا أنهم أخطأوا الصواب؛ ولا يُنسب لهم الخطأ، لأنهم صلوات الله وسلامه عليهم وقع منهم هذا قبل النبوءة لا بَعْدَها.

﴿قال: لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرزَقَانِه...﴾ [يوسف: ٣٧] الآيَة، تقتضي أنه وصفَ لهما نفسه بكثرة العلم، ليجعل ذلك وصلة إلى دعائهما لتوحيد الله؛ وفيها وجهان: أحدهما أنه قال ذلك يخبرهما بكل ما يأتيهما في الدنيا مِن طعام قبل أَنْ يأتيهما؛ وذلك من الإخبار بالغيوب الذي هو معجزةُ الأنبياء. والآخر أنه قال: لا يأتِيكُما طَعام في المنام أخبرتكما بتأويله قبل أَنْ يظهر تأويله في الدنيا.

﴿قال الذي نَجَا منهما﴾ [يوسف: ٤٥]: هو ساقي القوم.

﴿قليلاً مِمّا تأكلون﴾ [يوسف: ٤٧]؛ أي لا تدرسوا منه إلا ما يحتاج للأكل خاصة خوفَ ضياعه.

﴿قال الْمَلِكُ ائْتُوني به﴾ [يوسف: ٥٠]: قبل هذا محذوف؛ وهو: فرجع

الرسول إلى الملك فقصَّ عليه مقالةَ يوسف، فرأى عِلْمَه وعَقْله، فقال: ائتوني به.

﴿قال: ارجعْ إلى ربِّك فاسْأَلْه...﴾ [يوسف: ٥٠] الآية: لما أمر الملكُ بإخراج يوسف من السجن وإتيانه إليه أراد يوسف أن يُبَرِّىءَ نفسه مما نُسِب إليه مِن مُرَاوَدة امرأة العزيز عن نفسه، وأنْ يعلمَ الملكُ وغيره أنه سُجن ظُلْماً؛ فذكر طرفاً من قصته لينظرَ الملكُ فيها، فيتبيَّن له الأمْر، وكان هذا الفعل من يوسف صبراً وحلماً؛ إذ لم يُجِبْ إلى الخروج من السجن ساعةَ دُعِي إلى ذلك بعد طول المدة.

فإن قلت: قد قال سيدنا ﷺ: رحم الله أخي يوسف، لو لبثت في السجن ما لبث فيه لأَجبت الداعيَ. وهذا يقتضي أن الإجابةَ أولى من الْمُكْثِ فيه.

والجواب أن هذا عنه ﷺ على جهة الْمَدْح ليوسف والتواضع منه ﷺ، وإلا فصَبر يوسف في السجن فيه فوائد، منها: إظهار منزلته عند الملك وتبرئته مما قِيل، وليزدادَ منزلةً عنده فيصير سائساً للدولة وحافظاً، أَلا تراه كيف قال: ﴿اجعَلْني على خزائنِ الأرضِ إنّي حفيظٌ عَلِيم﴾ [يوسف: ٥٥]، وإنما طلب منه الولاية شفقةً على عباد الله، ورغبةً في العدل، وإقامة الحق والإحسان إلى الضعفاء من عباد الله؛ لأن هذا الْمَلِكَ كان كافراً فأَسلم لمّا رأى من حسن سيرته، وكَمْ له في هذه الولاية من المصالح الدينية والدنياوية؛ والمراد بخزائن الأرض أَرضُ مصر؛ لأن الملك لم يملك غيرها؛ فتأَسَّ يا محمدي بهذه الأخلاق الكريمة، واجتهد في إصلاح هذه الأمة: وَقِّرْ كبيرهم، وارحم صغيرهم، وتجاوَزْ عن مسيئهم، ألا ترى الصدِّيقَ لم يذكر امرأةَ العزيز مع ما كان منها من الإساءة؛ بل ذكر النسوة اللاتي قطَّعْنَ أيديهنَّ، وعفا عن إخوته فيما صدر منهم، هكذا أُولو العَزْم في معاملتهم مع أُمّة نبيهم، تعلموا منه الصفْحَ والإحسان، فعامَلُوا أُمته بسَتْرِ ذوي العصيان والدعاء لهم بالرحمة والإحسان، راجين بذلك معاملةَ الله لهم، وكما تَدِين تُدَان.

فإن قلت: هل يجوز لنا الاقتداء بمَدْح يوسف لنفسه؟

والجواب أنه مدح الصفتين اللتين أودعهما اللهُ فيه، فالمدحُ إنما هو لله لا لنفسه، ولولا ذلك لهلك الْخَلْق. وقد أخبره اللهُ أن صلاح هؤلاء العامة إنما يكون بسببه لصبره على بلائه، وكذلك أنتَ يا محمدي إذا جُهل أمرك، ورجوت صلاح إخوانك، فلا ينبغي لك السكوت، لما فيه من المصلحة، هذا إن رجوت بذلك منفعة غيرك، ولذلك استُحبَّ للعلماء لُبْس الجيّد، والتشبُّه بأرباب الدنيا، لأن العامة لا تقبل كلامَ رَثّ الهيئة، ولا تلتفت إليه، فضلاً عن سماع كلامه، ورَضي الله عن السيد الذي طُولب بولاية القضاء ففرَّ منها، فلما كان بغَدٍ أعطي أَلف دينار، فقال له الملك: بالأمس هربت منها، والآن أرشيت عليها، فقال: بالأمس كان غيري أَولى بها، والآن أعتقْتُ هذه الأمة ممن يريد أكلها، هكذا كانوا رضي الله عنهم، يراعون مصلحة الأمة رَعْياً لنبِيِّها، ويَرْحمونها لوصيته عليها. فيا أبناء الطريقة ورجال الحقيقة، استَوْصوا خيراً بهذه الخليقة، وخصوصاً بهذه الأمة، فاخفضوا لها جناحَ الذل من الرحمة ولا توحشوها ما أنستها مِنْ رَبّها ونبيها، وعاملوا الكلّ على الإطلاق بمكارم الأخلاق؛ صلُوا مَنْ قطعكم،وأعطوا مَنْ حرمكم، واعفُوا عمن ظلمكم؛ وإن لم يكونوا لها أهلاً فكونوا أنتم لها أهلاً.

﴿قال: إني أَنا أخوك﴾ [يوسف: ٦٩]؛ أَي قال يوسف لأخيه: إني أنا أخوك واسْتَكْتَمَه الأمر. وحبسه بتهمة السرقة، فكتب إليه يعقوب وقال لموصله: انظره، فإنْ نظر فيه وتغيَّرَ لوْنُه فاعلم أنه يوسف؛ ثم قال له في كتابه: إن الله اصطفاك فاستحال عليكَ اسْمُ السرقة، كذلك مَن اصطفاه اللهُ يستحيل أَن تنسبه إلى السرقة، فلما نظر يوسف إلى الكتاب تغيَّرَ لوْنُه، فقال للرسول: مِثْلُ هذا الكتاب لا يقرَأُ إلا في الخلوة، ثم قرأه وبكى كما قدمنا.

وأنت يا محمديُّ اصطفاكَ ربُّك في الأزَل، وأخرجك في خير الملل، وبعث إليك خاتم الأنبياء والرسل، وخاطبك بكتابه الذي ليس له مِثْل، فامتَهَنْتَه ولم تلتفت إليه، بل وصفْتَ نَفْسك بشرّ الخصال، وعرَّجْتَ عليه كأنكَ لم تصدِّق

بالمآل، ولم تعرِف أنكَ تُعرَض عليه عند الموت ويوم السؤال، وتطالب ـ مع هذا الْجَوْر والقصور ـ بالتنعم باللذات والحبور، أنت تعلم ما تقاسي على صفة منتنة، وما تحتاج إليه من مؤونة، وتريد الوصولَ إلى الجواري الحسان اللاتي لم يَطْمِثْهُنّ إنْسٌ ولا جان؛ هؤلاء الملائكة مع جليل قَدْرهم، وكَثْرَةِ عبادتهم، يقولون يوم القيامة: سبحانك ما عَبَدْنَاكَ حقَّ عبادتك، ولو استكثرت أعمالَهَا لتباعدت من خالقها؛ يقول تعالى في بعض كتبه: أيطلب أحدُكم الجنةَ بقيام الليل، والحارسُ يحرسُ ليلةً بدانِقَيْن، فكيف يمنُّ عليّ بليْلةٍ، وهي تساوي دَانِقين، أخذت بزيّ كسرى وقيصر، وتريد أَنْ ترافِقَ أحبابي! وَيْحَكَ اعرض نفسك على كتابي تجد فيه وصْفَ أحبائي وأعدائي، وانظر إلى أيِّ الصنفين أَنْتَ أقرب؛ فإنكَ بهم يوم القيامة تلحق. كيف تأمن مَكْرِي، أو تطلب جواري، ولست تدري في أي الفريقين أنتَ يوم الميثاق حيث قلت: هؤلاء إلى الجنة ولا أُبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، أَم حين خلقتك في ظلمات ثلاث، وكتب عليك ملَكُ الأرحام بالشقاوة أَو السعادة، أو يوم المطلع حين تُبَشَّر برضائي أو سخطي، أم يوم يصير الناس أَشتاتاً، ولا تدري أَي الطريقتين تَسْلك، فمحقوق صاحبُ هذه الأخطار ألا يلتفت إلى الأغيار، ولا يتشبه بالأحرار، ما حيلتُكَ إذا اضطجعْتَ في حفرتك، وانصرف المشيِّعُون من جيرانك، وبكى كلُّ غريب عليك لغُرْبتك، ودَمَع عليك المشفقون مِن عشيرتك، وناداكَ من شَفِير القبر ذو مَوَدَّتك، ورحمك المعادي عند صَرْعتك، ولم يَخْفَ على الناظرين عَجْزُ حيلتك؛ فإن كنت عندي حبيباً، وإليّ قريباً، أحسن ضِيافتك، وأكون أشفق من قرابتك، وأقول لملائكتي: فريد قد نعاهُ الأقربون، ووحيد قد جفاهُ الأهلون، فأَشْفِقوا عليه وارحموه، ويا هوامّ لا تقربوه، ويا أرض توسَّعي عليه ولا تؤذيه، ويا رضوان افتح عليه مِنْ نعيم ما يُؤْنِسه ويغذيه، هنالك تَبْلُو كلُّ نفسٍ ما أسلفَتْ، ورُدُّوا إلى اللهِ مولاهم الحقِّ، وضَلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُون.

﴿قالوا يا أَيها الْعزيزُ إنَّ له أَباً شيْخاً كَبِيراً﴾ [يوسف: ٧٨]: هذا الكلام

من إخوة يوسف على وَجْهِ الاستعطاف؛ لأنهم كانوا أعلموه بشـدة محبَّـةِ أبيـه فيه.

﴿قال كَبيرُهم﴾ [يوسف: ٨٠]؛ أي في السن، وهو روبيل، أو في الرأي، وهو شمعون، وقيل يَهُوذا.

﴿قال: بل سوَّلَتْ لكم أَنْفُسكم أَمْراً﴾ [يوسف: ٨٣]؛ قبله محذوف، تقديره: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له: ﴿إن ابنكَ سرق﴾؛ عند الجمهور بفتح السين وضمها وشدّ الراء وتخفيفها؛ فقال: ﴿بل سوَّلَتْ لَكم أَنْفُسكم﴾، لأنه علم أَنَّ كلَّ ذلك لم يكن.

﴿قال: يا أَسَفَى عَلَى يوسف﴾ [يوسف: ٨٤]: تأسَّف على يوسف دون أخيه لإفراط محبته فيه، ووَحْشَته له، ومصيبته كانت السابقة؛ فجدّدت له هذه الثانية وَحْشَته.

وهكذا عادته فيمن أحبَّ غيره ابْتُلي بفراقه، فلا تجعل محبك ومحبوبك إلا مَن لا يفارقك. وروي أن يوسف عليه السلام جاءه رجل فقال له: إني أُحبّك. فقال: لا تفعل، أَحبَّني أبي فعمي بصره، وأُلقيت في الجب؛ وامرأةُ العزيز أحبَّتني فابتُليت بالملامة، وحُبست في السجن؛ وكذلك سيدنا ومولانا محمد ﷺ أحبَّ جبريل فابتُلي بحَبسه عنه مدةً، وأحبَّ مكةَ فابْتُلي بالخروج منها، وأحبَّ عائشة فابْتُلي بقصة الإفْك؛ كلُّ هذا غيرةً منه سبحانه على أحبابه، ليكون شغلك يا محمديّ بالله لا بغيره إن فهمت، وإلا فهكذا يُفعل بك.

﴿قالوا أَإِنَّكَ لأنْتَ يوسف﴾ [يوسف: ٩٠]: قُرِىء بالاستفهام والخبر؛ فالخبر على أنهم عرفوه، والاستفهام على أنهم توهّموا أنه هو ولم يحقّقوه.

﴿قال أبوهم: إنّي لأَجِدُ رِيحَ يوسف﴾ [يوسف: ٩٤] كان يعقوب ببيت المقدس، ووجد ريح القميص، وكان مع يوسف في بيته زماناً لا ريح له، فلما فصلت العِيرُ اتَّصل ريحُه بيعقوب. كذلك قلبك يا محمدي مع مالك خزانتك،

فإذا أنفقْتَ مالكَ في طاعة الله تفرَّغ قلبُك لعبادته، وترى حينئذ من لطف الله بكَ حالاً لا يخطر ببالك.

﴿قال: سوف أستَغْفِرُ لكم ربي﴾ [يوسف: ٩٨]؛ وعدهم يعقوب بالاستغفار؛ لأنهم جاءوا متضرِّعين معترفين بما جنوه، كذلك أنْتَ يا عبدالله؛ إذا أذنبتَ وأتيتَ معترفاً لرسولك الذي أُرسل إليك متضرعاً وجِلاً، فإنه يستغفر لك، ويشفعُ فيك؛ لأن الله أمره بالاستغفار لك، وأذن له في الشفاعة فيك. وكيف لا وهو أكرم الْخَلْق عليه! وقد وعدنا بذلك في قوله: ﴿ولو أنهم إذْ ظَلَمُوا أنفسهم جاءوكَ فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسولُ لوجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ [النساء: ٦٤] وإني قد مُنعت يا سيد الأولين والآخرين عن الإتيان إليكَ بذنوب جَنَيْتُها على نفسي، فأنْتَ تعلم عُذْري، ولا حيلةَ لي غير التعلق بجاهك العظيم والصلاة عليك، صلى الله عليك وعلى آلك أفضل صلاة وأزكى تسليم.

فإن قلت: لِمَ وعدهم الله بالاستغفار ولم يستغفر في الحين؟

والجواب أنه وعدهم بالاستغفار للسَّحَر، لأنه وقت إجابة، والدعاء في وقت الإجابة لا يُرَدُّ. فأخذ العلماء من هذه الآية التعرض لنفحات رحمةِ الله، ومَنْ راقب يُراقب، ومن غفل غُفِل عنه، وقالوا: الوعد مع العطاء أفضلُ من العطاء بغير وعد، فجبر قلوبَهم بالوَعْدِ بالاستغفار، ثم استغفر لهم فكَمُلت الفَرْحَتان.

﴿قَصَصِهم﴾ [يوسف: ١١١]: الضمير للرسل على الإطلاق. أو ليوسف وإخوانه؛ والأول أعم؛ لقوله تعالى: ﴿وظَنُّوا أنهم قد كُذِبوا﴾ [يوسف: ١١٠] بتشديد الذال وتخفيفها. وقد قدمنا معناها في حرف الكاف.

﴿قارعةٌ﴾ [الرعد: ٣١]: يعني في أنفسهم وأولادهم، أو غزوات المسلمين إليهم؛ وانظر قوله تعالى: ﴿حتى يأتي وَعْدُ الله﴾ [الرعد: ٣١] ما المراد به؟ وبهذا تمسك أهلُ الاعتزال، وقالوا بوجوب إنفاذ الوعيد، وهو مختَلَفٌ فيه عندنا؛ لكن الكلام القديم الأزَلي الذي هو صفةٌ ذاتيةٌ لله تعالى يستحيل فيه

الْخُلف، وأما كلامُ النبي ﷺ الذي هو ترجمةٌ عن ذلك الكلام فليس كذلك ومثالُه إذا قلت: مَنْ يقتل زيداً فأنا أقتله؛ فتارة تقصد الحقيقةَ، وتارة تكون غير مُريد قَتْله، لكنك تقصد المبالغة في العبارة على جهة التخويف والتنفير عن فعل ذلك، فعبارتُكَ يمكن فيها عدَم الوقوع، وأما في نيتك وقَصْدِك فلا بُد من وقوعه؛ لأنك عزمْتَ على ما أجمعت عليه، وهو قصدٌ حقيقي بخلاف الكلام الذي هو ترجمةٌ عمَّا في القلب فإنه قد يكون مجازاً. وهذا هو جوابُ أهل السنة عن قوله تعالى: ﴿ومَنْ يَقْتُل مُؤْمِناً متَعَمِّداً فجزاؤه جَهَنَّمُ خالداً فيها﴾ [النساء: ٩٣].

﴿قائم على كلِّ نَفْس بما كسبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]؛ إن قُصِد استعلام الخبر فهو استفهام، وإلا فإن كان المعنى ثابتاً في نفسِ الأمر فهو تقرير، وإن لم يكن ثابتاً فهو إنكار. وهو تقرير لقول ابن عطية: المراد أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أحقُّ بالعبادة أم الجمادات التي لا تنفع ولا تضر؟ وهو معطوف على مقدَّر؛ فمنهم من كان يقدِّرُه: أهم جاهلون بمن هو قائم؟ ومنهم من قَدّره: أهم غافلون عمن هو قائم؟ وهو الصواب؛ قال: وهل هذا من العمومات المخصوصة أو لا؟ قال: إن قلنا إن ذات الباري تعالى لا يُطْلَق عليها نَفْسٌ فيكون عامًّا باقياً على عمومه، وإن جوّزْنَا الإطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ ما في نَفْسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسك﴾ [المائدة: ١١٦]؛ فيكون هذا مخصوصاً بالباري جلَّ وعَلَا؛ إذ لا يقال إنه حفيظ على نفسه.

قيل: بما كسبت بدل على التخصيص. وقيل: بل هو متعلق بقائم، وليس بصفة للنفس. والكسب: الصوابُ تَفْسِيرُه بما قاله أهل السنة؛ لأن الأصل عدم النقل، ومعنى قائم أي حفيظ ورَقيب وعالم.

﴿قالت رسلهم: أَفي اللهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]: أي في ألوهية اللهِ شَكٌّ؟ وقال الفارسي: أَفي وحدانية الله شكٌ، وإنما قرَّرَه الفارسي هكذا؛ لأن أَول ما يحضُّ الرسلُ قومَهم على اعتقاد وحدانية الله، بخلاف الألوهية؛ إذ لم يخالف فيها

أحد؛ وقد خالف فيها المجوس الذين عبدوا الشمس وإنْ عبدوها فلم ينكروا البَعْثَ بدليل: ﴿ولئن سألْتَهُم مَنْ خَلقهم ليقولُنَّ الله﴾ [الزخرف: ٨٧]. والدهرية؛ قالوا: ﴿ما هي إلّا حياتُنا الدنيا نموت ونحيا﴾ [الجاثية: ٢٤].
وكان بعضهم يقول في هذه الآية: انظر كلامَهم؛ جعلوا أَنفسهم مظروفين في الشك، والشكَّ ظرفاً لهم، وكلامُ الرسل جعلوا الشك مظروفاً في أمر الله؛ أي في شأن الله، وجعلوا شأن الله ظرفاً له؛ وقالوا: هذا لوجهين: نَقْلِي وعقلي، أما النقليُّ فلأنَّ الظرف أوسع من المظروف، فالشكُّ محيطٌ بالكفّار من جميع الجهات، وهم مفتقرون إليه؛ إذ المتحيز مفتقر إلى الحيِّز، والحالُّ مفتقر إلى المحلّ لا بدَّ منه. وقول الرسل: أَفي الله شكٌّ ـ جعلوا الشكَّ متحيزاً حالاً في أمر الله، فأَمْرُ الله أَعْلَى منه وأكبر؛ فهو حَيِّز له؛ فهو إشارةٌ إلى تقليل الشكّ؛ أي لا يتصوّر أن يقعَ شكٌّ في الله بوَجْه وإن قلَّ؛ فإذا أنكروا أن يكون أمر الله حيِّزاً للشك مع قِلته فأَحْرَى أن يكون الشكُّ حَيِّزاً له مع كثرته.

فإن قلت: أضاف الرسلَ إليهم ولم يقل رُسلنا؟

قلت: تنبيهاً على أنّ الرسل منهم بحيث يعلمون حالَهم، وأنهم لم يَعْهَدوا منهم كذباً، ولا علموا أنهم خالطوا سحَرةً؛ فدلّ على أن ما جاءُوهُمْ به حقٌّ. قال الفخر في المحصل: مذهبُ أهل السنة أنَّ الرسل ليس في خِلقتهم وبِنْيتهم زيادة علمية، ولا خاصية ذاتية اختصوا بها عنا، وما وُجد منهم من القوة على الوَحْي وغير ذلك فأمورٌ عَرَضية، كالشجاعة للبطل. ومذهبُ الفلاسفة أنَّ بِنْيتهم مخالفةٌ لنا، ولا بُدّ فيهم من خاصية ذاتية اختصُّوا بها عنا.

﴿قالت لهم رسُلُهم﴾ [إبراهيم: ١١]: لم يثبت الخافض في الأولى وأثبته هنا؛ لأنها إما مقالة خاصة أو هي جواب عَن قولٍ صدرَ منهم، والمقالة الأولى لهم ولغيرهم.

وقيل: لما كان وجود الله تعالى أمراً نظريًّا ليس بضروري، وكَوْن الرسل مثلهم أمراً ضروريًّا لا يحتاج إلى نظر لظهوره؛ فكأنه يقول: ما قالوا هذا إلا لهم

لا لغيرهم لغَفْلَتهم وغَبَاوتهم وجَهْلهم، كما أنَّ القائل: السماءُ فوقنا والأرض تحتنا ـ ما يُخَاطب بها إلا مَنْ هو في غاية الجهل والغَباوة.

وأجاب بعضُ النجباء أن قوله: أَفِي الله شكٌّ ـ خطاب لمن عاند فيه، وهو كالمعاند في الأمر الضروري؛ فلذلك أسقط المجرور، لأن الْمُجيبَ عن ذلك يُجيب به من حيث الجملة، ولا يُقْبِل بالجواب على المخاطب لغباوته عنده ومعاندته؛ فيجيب وهو مُعرض عنه، بخلاف قولهم: ﴿إن نحنُ إلّا بَشَرٌ مثلكم﴾ [إبراهيم: ١١]؛ فإنه تقرير لمقالتهم، وتثبيتٌ لها، والمقرُّ لمقالة خَصْمه يُقبل عليه بالجواب؛ لأنه لم يبطل كلامه بالإطلاق؛ بل يقرِّرُه ويزيد فيه زيادات تُبطل دعوى خصمه.

فإن قلت: لم جمع السبل في قوله تعالى: ﴿وقد هَدَانا سُبلَنا﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقد ذكرتم غير مرة أن طريق الهدى واحدة؟

فالجواب أنه على التوزيع؛ فَلِكُلّ رسولٍ طريقٌ باعتبار شريعته وأحكامه؛ قال تعالى: ﴿لكلٍّ جعلْنَا منكم شِرْعةً ومِنْهاجاً﴾ [المائدة: ١٨].

﴿قال إبراهيم رَبّ اجْعَلْ هذا البلد﴾ [إبراهيم: ٣٥]: المراد به مكة؛ وهذا الدعاءُ وقع من إبراهيم حين خلّف هاجر ﴿بِوَادٍ غَيْر ذِي زَرْع﴾ [إبراهيم: ٣٧] فنفى القليل والكثير؛ والمراد ليس فيه لحم ولا شجر ولا ماء.

فإن قلت: آية البقرة مدنيّة، وآية إبراهيم مَكّية، والقاعدةُ أنّ الاسْمَ إذا كرِّرَ ذكْرُه يأتي أولاً منكّراً وثانياً معرفاً.

والجواب أن الإنسانَ إذا دعا أولاً إنما يَدْعُو لشخص معَيَّن يقْصِدُه ويعيِّنه في ذهنه، فإذا أراد الدعاء يُعيد نكرةً أو معرفة أو كيف ما كان، اكتفاءً بحصول تعيينه أولاً. وقيل: هذا تأكيد؛ هذا إذا قلنا إن المنزل أولاً هو المدعو به ثانياً؛ لأن الاسم إذا تقدم نكرةً ثم يُعاد فإنما يُعيده معرّفاً؛ قال تعالى: ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً. فعصى فرعونُ الرسولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

فإن قلت: القاعدة أن يكون المبتدأ معلوماً وخَبَره مجهولاً، والبلدُ في هذه الآية أصله قبل دخولِ الفِعْلِ عليه مبتدأٌ، لأنه نعتٌ لهذا، ونعت المبتدأ مبتدأٌ؛ وآمنا خبره. وفي قوله: اجعل هذا بلداً آمناً ﴿هذا﴾ مبتدأ، وبلداً خبره، وآمِناً نعت أو خبر بعد خبر؛ والقصةُ واحدةٌ.

وأجيب بأن الشيء في نفسه ليس هو كغيره معه، فهو معلوم من حيث كونه، مجهول من حيث كونه بلداً آمناً؛ فالأول كما تقول: اجعل هذا الرجل صالحاً، دعَوْتَ له بالصلاح فقط، والثاني كقولك: اجعل هذا رجلاً صالحاً مع أنه رجل، لكنك دعوت له بتحصيل المجموع. ورُدَّ بأنه يلزم عليه أن يجوز زيد زيد العاقل، فيخبر بزيد العاقل عن زيد نفسه، مع أنه لا يُفيد شيئاً؛ لأن الأول هو الثاني.

وأجيب إنما نظيره زيد القائم زيد العاقل، فيخبر بزيد مع غيره، أما إذا أثبت بمجرد لفْظِ الأول فلا يجوز.

فإن قلت: كيف يدعو الخليل بقوله: ﴿واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأصنام﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقد علم أنّ عبادةَ الأصنام مستحيلة في حق النبي، فأَحْرَى في حق الخليل؟

فالجواب دعا بهذا على وَجْهِ التذلُّل والخضوع، وعادةُ الأنبياء صلواتُ الله وسلامُه عليهم عدَمُ الانبساط مع الربوبية، لتمكّن الخوف من قلوبهم؛ وهذا فيه الاقتداءُ بغيره؛ ويؤخذ من هذه الآية أنه لا يدعو الشخص بالمستحيل عقلاً، كقول الإنسان: رَبِّ اجعَلْني في غير حَيِّز، أو غير ذلك من المستحيلات. وقد ذكرها القَرَافي في قاعدة ما يجوز من الدعاء وقاعدة ما لا يجوز، حذفنا ذكرها للطول.

﴿قالوا يا أيُّها الذي نُزِّلَ عليه الذِّكْر﴾ [الحجر: ٦]؛ يعني بزعمك ودَعْواك لا بإقرارنا.

فإن قلت: الوصفُ الأخصّ هو القرآن، والذِّكْرُ وصف أعم، فلِمَ عَبّروا بالأعَمّ دونَ الأخص؟

والجواب أنه في التعبير بالأخص تنبيهٌ وتذكير بالمعجزات التي ورد بها القرآن، وهم مقصدهم تعميةُ ذلك وإخفَاءُه. وانظر إلى المثل السائر: ذكَّرْتني الطعنَ وكنْتُ ناسياً.

فإن قلت: هل أرادوا اتّصافَه بالجنون، لما جاء به من الوحي إلى الذين يسترقون السمع؟

فالجواب أنهم أرادوا أن به جنوناً يصحبونه بدليل قوله تعالى: ﴿أم يقولون به جِنَّة﴾ [المؤمنون: ٧٠].

﴿قوم مَسْحُورون﴾ [الحجر: ١٥]: هذا الإضراب منهم إضراب انتقال، لأنهم أضربوا عن مفهوم قولهم: ﴿سُكِّرَتْ أبصارُنا﴾ [الحجر: ١٥]؛ لأن مفهومه أنّ باقي جسدهم لم يسكر، وما زال صحيحاً؛ فأضربوا عن هذا المفهوم؛ وقالوا: بل جميعُ ذواتنا مسحورة، ولو كان إضراب إبطالٍ للزم عليه أن تكون أبصارُهم غير مسحورة، وليس ذلك مرادهم؛ وقوله: ﴿إنما سُكِّرَتْ أَبصارُنا﴾ ظاهره كالمناقض لقوله: ﴿بل نحن قومٌ مسحورون﴾.

فإن قلت: ما أفاد قولهم ﴿قوم﴾، ولو قالوا: بل نحن مسحورونَ لاستقلّ الكلام.

فالجواب أنه أفاد الإخبار بكمال عبادتهم، وأنهم جماعةٌ كثيرون، وتعدُّدُ الأشخاص مظنّةُ التفطن والفَهْم، ومع هذا فكلُّهم يتعامَوْن وتعمُّهم الضلالَةُ ولا يهتدون إلى الإيمان به بوَجْهٍ.

﴿قال رَبِّ بما أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]: قد قدمنا معنى الإغواء. واعترافُه بالربوبية يُفهم منه أنَّ كفْرَه كان باعتراضه على الله في أمره بالسجود لآدم. وقدمنا أيضاً أن الفاء لم تدخل في الحجر كما في الأعراف [١٦] اكتفاءً

بمطابقة النداء لامتناع النداء منه، لأنه ليس بالذي يستَدْعيه النداء، فإن ذلك يقَعُ مع السؤال والطلب؛ وهذا قسم عند أكثرهم، بدليل ما في ص [٨٢]؛ وخبر عند بعضهم؛ والذي في ﴿ص﴾ جاء على قياس ما في الأعراف؛ لأن ما فيها موافق لما قبله في مطابقة الفاء، وزاد فيها الفاء التي هي لعطف جملة على جملة لتكونَ الثانية مربوطة بالأولى، فموافقتُها أكثر. وقال في ص [٨٢]: ﴿فبعزّتِكَ﴾ وهو قَسَم عند الجميع.

﴿قال هذا صِرَاطٌ عليّ مستقيم﴾ [الحجر: ٤١]: القائل لهذا هو اللهُ تعالى، والإشارةُ بهذا إلى نجاة المُخْلصين من إبليس، وأنه لا يقدر عليهم، وإلى تقسيم الناس إلى غويّ ومخلص.

﴿قالوا إنَّا أُرْسِلْنَا إلى قومٍ مُجْرمين﴾ [الحجر: ٥٨]؛ قالت الملائكة: أرسلنا إلى قوم لوط.

﴿قالوا بَشَّرْناكَ بالحق﴾ [الحجر: ٥٥]: الضمير لإبراهيم؛ أي بَشَّرْناكَ باليقين الثابت، فلا تستبعده، ولا تَكُنْ من القانطين: من اليائسين.

﴿قدّرنا إنها لَمِنَ الْغَابرين﴾ [الحجر: ٦٠]: إنما أسند الملائكةُ فعل التقدير إلى أنفسهم، وهو لله وحْدَه؛ لما لهم من القُرْب والاختصاص بالله، لا سيما في هذه القضية، كما يقول خاصة الملك: دَبَّرْنا كذا. ويحتمل أن يكون حكايةً عن الله.

﴿قوم مُنْكَرون﴾ [الحجر: ٦٢]؛ أي لا نعرفهم.

﴿قالوا: بل جِئْنَاكَ بما كانوا فيه يَمْتَرُون﴾ [الحجر: ٦٣]: يعني جئناك بما كانوا يَشُكُّون من العذاب لقومك.

﴿قالوا: أَوَلم نَنْهَك عن العالَمين. قال هؤلاء بَنَاتي إن كنْتُم فاعلين﴾ [الحجر: ٧٠، ٧١]: كان قومُ لوط نَهَوْه أن يُضِيف أحداً، فقالوا له هذه المقالة احتجاجاً بما سبق من إنذاره، فأجابهم بتزوّج بناته إنْ أرادوا شيئاً،

وفدّاهم ببناته. واختلف في عددهم، وكان أبو البنات، كما كان إبراهيم أبو الذكور، وجَمَعَ اللهُ لنبينا الذكورَ والإناثَ، فكان له أربعة ذكور وأربع نسوة؛ وهذا من اعتدال مزاجه ﷺ.

﴿قال الذين أُوتُوا العِلْمَ إنّ الخِزْيَ اليوم والسوءَ على الكافرين﴾ [النحل: ٢٧]: الخِزْي: راجع لأمر الباطن النازل بهم، والسوءُ راجع لأمر الظاهر الحالّ بهم في أبدانهم.

فإن قلت: كيف أكَّدَ بأنّ خِطابَهم إنما هو لله تعالى العالم بأَنَّ ذلك حق؟

والجواب أن هذه المقالة صدرَتْ منهم قبل حلُولِ العذاب بأولئك، فهم في قضية الإنكار لها يريد أنهم استسلموا لقضاء الله، والمغلوبُ إذا استسلم تارة يعترفُ ويُقرّ، كقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن أَلْقَى إليكم السَّلاَم لسْتَ مُؤْمناً﴾ [النساء: ٩٤]، وتارة يُنْكِرُ موجبات العقوبة، كهذه الآية؛ طمعاً في أنْ يُقبل ذلك منه، ويُتَغاضى عنه ويترك.

﴿قال النار مَثْوَاكم﴾ [الأنعام: ١٢٨]: هذا من قول الله. وقال: ﴿مَثْواكم﴾ ولم يقل داركم؛ لأن الدارَ محلّ السكنى، والسكنى مظنّة الطول، فناسب الإتيان بالدار في محل المدح للمتقين؛ لأنّ الإنسانَ قد يسكن الموضع الزمانَ القليل ويملُّ مِن سكناه، ولا يحبُّ البقاء فيه. والـمَثْوى: الإقامة مطلقاً، تطلق على القليل والكثير.

﴿قال: أرأيتَك هذا الذي كرَّمْتَ عليّ﴾ [الإسراء: ٦٢]: الكاف لا موضع لها من الإعراب، وهذا مفعول بأرأيت والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرَّمْتَه عليّ وأنا خير منه، فاختصر الكلام، فحذف ذلك. وقال ابن عطية: أرأيتَك هنا تأملت ونحوه لا بمعنى أخبرني. ومعنى الاحتناك الميل، مأخوذ من تحنيك الدابّة، وهو أن يشدّ على حنكها بحَبْل فتنقاد.

﴿قال اذهَبْ﴾ [الإسراء: ٦٣]: خطاب من الله لإبليس، وما بعده من

الأوامر على وَجْه التهديد لإبليس. قال الزمخشري: ليس المراد هنا الذهاب الذي هو ضد المجيء، وإنما معناه: امْضِ لشأنك الذي اختَرْته؛ خذلاناً له وتخلية. ويحتمل عندي أن يكون معناه الطرد والإبعاد.

﴿قاصِفاً مِنَ الرِّيح﴾ [الإسراء: ٦٩]: القصف: هو الكَسْر، وفيه تهديدٌ لـمَنْ ركب البحر ولا يخاف الله.

﴿قَبيلا﴾ [الإسراء: ٩٢]: قيل معناه مُقَابلة ومعاينة. وقيل ضامناً شاهداً يصدقك. والقَبالة في اللغة الضمان.

﴿قَيِّماً﴾ [الكهف: ٢]: أي مستقيماً. وقيل قَيِّماً على الخلق بأمر الله. وقيل قَيِّماً على سائر الكتب بتصديقها. وانتصابُه على الحال من الكتاب، والعاملُ فيه أنزل. ومنع الزمخشري ذلك الفصل بين الحال وذي الحال، واختار أن العامل فيه فعلٌ مضمر، تقديره جعله قَيِّماً.

﴿قال له موسى: هل أَتَّبِعُك﴾ [الكهف: ٦٦]: في الآية مخاطبة فيها تلاطف وتواضع، وكذلك ينبغي أن يكونَ الإنسانُ مع مَنْ يريد أن يتعلّم منه؛ يُنْصِتُ لكلامه، ولا يعارضه، ويخدمه بنفسه ومالِه، ويُسرع في قضاء حوائجه.

﴿قال أَلَمْ أَقُلْ لكَ﴾ [الكهف: ٧٥]: هذا مِنْ قول الخضر لموسى؛ وذلك أن موسى نَسِيَ العَهْدَ الذي بينهما؛ هذا قول الجمهور.

فإن قلت: ما فائدة زيادة اللام في الثالثة؟

فالجواب لما فيه من الزجر والإغلاظ ما ليس في الأولين. وفي صحيح البخاري: كانت الأولى من موسى نِسياناً، وفيه ـ عن مجاهد قال: كانت الأولى نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عَجْزاً. قال ابن عطية: وهذا كلام معترَض؛ لأن الجميع شرط، ولأن العَمْدَ يَبْعُدُ على موسى عليه السلام؛ وإنما هو التأويل؛ إذ جنب صفة السؤال أو النسيان. وروى الطبري، عن أبي كعب، أنه قال: إن موسى عليه السلام لم ينسَ، ولكن قوله هذا من معاريض الكلام. قال ابن

عطية: ومعنى هذا القول صحيح، ولم يبيّنه؛ ووَجْهُهُ عندي أنّ موسى عليه السلام إنما رأى العَهْدَ في أن يسأل، ولم يرَ إنكار هذا الفعل شنيعاً سؤالاً، بل رآه واجباً؛ فلما رأى الخضر قد أخذ العَهْدَ على أعمّ وجوهه فضمّنه السؤال والإنكار والمعارضة، وكلّ اعتراض؛ إذ السؤال أخَفُّ من هذه كلها ـ أخذ معه في باب المعاريض التي هي مندوحة عن الكذب، فقال له: لا تؤاخذني بما نَسيت، ولم يقل إني نسيت العَهْد، بل قال لفْظاً يُعطى للمتأول أنه نسي العهد، ويستقيم أيضاً تأويلُه وطلَبُه مع أنه لم ينسَ العهد؛ لأن قوله: لا تؤاخذني بما نسيتُ ـ كلامٌ جيد، وليس فيه للعهد ذِكْر؛ هل نسيه أم لا، وفيه تعريض أنه نسي العهد، فجمع في هذا اللفظ بين العُذْر والصدق، وما يخل بالقول.

﴿قال انفُخُوا﴾ [الكهف: ٩٦]: يريد نَفْخَ الكير؛ أي أوقدوا النارَ على الحديد. ورُوي أنه حفر الأساس حتى بلغ الماءَ، ثم جعل البنيان من زُبَر الحديد حتى ملأ به بين الجبَلين، ثم أفرغ عليه قِطْراً: نحاساً مُذاباً. وقيل هو الرصاص.

وهذا السدُّ من عجائب الدنيا، إذ لا يَقْدِرُ على هَدْمه أهْلُ الدنيا. ولـمّا فرغ من بنائه قال: هذا رحمةٌ من ربي. ولما أُسْري به ﷺ رآه وتعجّب من صنعته، وقال رجل: يا رسول الله، رأيتُ سدَّ يأجوج ومأجوج. فقال: كيف رأَيتَه؟ قال: كالبُرْد المحبَّر، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال ﷺ: قد رأيته.

﴿قَبس﴾ [طه: ١٠]: قد قدمنا أنه الجَذْوَة من النار تكون على رأس العود أو القصبة ونحوها.

فإن قلت: ما معنى اختلاف هذه الألفاظ والتقديم والتأخير في مواضع من السور؟

والجواب أنّ ذلك يختلف باختلاف الـمَقْصد، والتناسب؛ ففي آية طه [١٠] رؤية موسى النار وأمْره أهله بالـمُكْث وإخباره إياهم أنه آنس ناراً،

وأطمعهم بأن يأتيهم بنار يصطلون بها، أو خبرٍ يهتدون به إلى الطريق الذي ضلّوا عنه، لكنه نقص من النمل [٧] رؤية موسى النار وأمْره أهله بالـمُكْثِ اكتفاء بما تقدم، وزاد في القصص: قضاء موسى الأجَل المضروب وسيره بأهله إلى مصر؛ لأن الشيء قد يُجْمَل ثم يفصَّل، وقد يفصَّل ثم يجمل، وفي طه فَصَّل ثم أجمل، ثم فَصَّل في القصص [٢٩] وبالغ فيه، وقوله في طه: ﴿أو أَجِدُ على النار هُدى﴾؛ أي مَنْ يخبرني بالطريق فيهديني إليه؛ وإنما أخّر ذلك الخبر فيها وقدّمه فيهما مراعاةً لفواصل الآي في السور جميعاً، وكرر ﴿لَعَلِّي﴾ في القصص لفظاً وفيهما معنى، لأن ﴿أو﴾ في قوله: ﴿أو أجد﴾ نائب عن ﴿لعلي﴾. وقوله: ﴿سآتيكم﴾ تضمّن معنى لعلي. وفي القصص: أو جَذْوة من النار، وفي النمل: بشهابٍ قَبَس، وفي طه بقَبَس: فهي في السور الثلاث عبارة عن معنًى واحد، وهذا برهان لامع.

﴿قال: قد أُوتيت سُؤْلَكَ يـا موسى﴾ [طه: ٣٦]: أي أعطيتكَ كل ما طلبتَ من الأشياء المذكورة.

﴿قد جئناكَ بآيةٍ من ربك﴾ [طه: ٤٧]: يعني قَلْب العصا حيّة، وإخراج اليَدِ بيضاء؛ وإنما وحَّدها وهما اثْنان، لأنه أراد إقامةَ البرهان، وهو معنى واحد.

﴿قالوا: إنْ هاذان لساحران﴾ [طه: ٦٣]: قرىء إن هاذين بالياء ولا إشكال في ذلك، وقرىء بالتخفيف، وهي مخففةٌ من الثقيلة، وارتفع بعدها هاذان بالابتداء. وأما عَلَى قراءةِ نافع وغيره بتشديد إنّ ورَفْع هاذان فقيل: إنَّ هنا بمعنى نعم، فلا تنصب، ومنه ما رُوِي في الحديث: إنّ الحمدُ لله بالرفع. وقيل اسم إنّ ضمير الأمر والشأن؛ تقديره إن الأمر، وهاذان لساحران مبتدأ وخبر في موضع خبر إن. وقيل: جاء في القرآن في هذه الآية بلغة بني الحارث بن كعب، وهي إبقاء التَّثنية بالألف في حال النصب والخفض، وقالت عائشة: هذا مما لحن فيه كاتبُ المصحف.

وقد أكثروا في الكلام في هذه الآية وألفوا فيها تأليفاً.

﴿قالوا: أضغاث أحلام﴾ [الأنبياء: ٥]: إنما حكى اللهُ عن قريش هذه الأقوال الكثيرة ليُظْهِرَ اضطرابَ أمرهم وبُطلان أقوالهم.

﴿فقَبَضْتُ قَبْضَةً من أثَرِ الرسول﴾ [طه: ٩٦]: القبضة: مصدر قبض، وإطلاقها على المفعول مِنْ تسمية المفعول بالمصدر، كضَرْب الأمير. ويقال قبض بالضاد المعجمة إذا أخذ بأصابعه وكفِّه، وبالصاد المهملة إذا أخذه بأطراف الأصابع. وقد قرىء كذلك في الشاذّ؛ وإنما سُمّي جبريل رسولاً لأن الله أرسله إلى موسى.

﴿قَصَمْنَا مِنْ قريةٍ كانت ظالمةً﴾ [الأنبياء: ١١]: والقَصْم: الكسر. قال ابن عباس: هي قرية باليمن، يقال لها حَضور، بعث اللهُ إليهم رسولاً فقتلوه، فسلّط الله عليهم بخت نَصّر ملك بابل، فأهلكهم بالقتل. وظاهر اللفظ أنه على العموم، لأنّ ﴿كَمْ﴾ للتكثير، فلا يريد قريةً معينة.

﴿قائمين﴾ [الحج: ٢٦]: مُصَلين.

﴿قانع﴾ [الحج: ٣٦] سائل، يقال: قنَع قُنُوعاً إذا سأل، وقَنِعَ قناعة إذا رضي.

﴿قَلَى﴾ يقلي أبغض، ومنه: ﴿وما قلى﴾ [الضحى: ٣] و﴿لعَملكم من القَالِين﴾ [الشعراء: ١٦٨].

﴿قوماً عَالِين﴾ [المؤمنون: ٤٦]: متكبِّرين. والمراد بهم قومُ فرعون.

﴿قال: طائِرُكم عِنْدَ الله﴾ [النمل: ٤٧]؛ أي السبب الذي يحدثُ عنه خيركم وشركم هو عند الله، وهو قضاؤه وقَدَره، وذلك ردٌّ عليهم في تطيُّرِهم ونسبتهم ما أصابهم من القَحْط إلى صالح عليه السلام.

﴿قال: إنّي مُهَاجر﴾ [العنكبوت: ٢٦]: فاعل قال إبراهيم. وقيل لوط. وهاجرا من بلادهما من أرض بابل إلى الشام.

﴿قال إنّ فيها لُوطاً﴾ [العنكبوت : ٣٢] : ليس إخباراً بأنه فيها ، وإنما قصد نجاةَ لوط من العذاب الذي يُصيب أهلَ القرية وبراءته من الظلم الذي وُصفوا به ، فكأنه قال : كيف تُهْلِكون أَهْلَ هذه القرية وفيها لوط ؟ وكيف تقولون : إنهم ظالمون وفيهم لوط ؟

﴿قالوا : أآلـهَتنا خير أم هو﴾ [الزخرف : ٥٨] : الضمير لعيسى ؛ وذلك أنهم قالوا : إن كان عيسى يدخل النارَ فقد رضينا أن نكونَ وآلـهَتنا معه ، لأنه خير من آلهتنا . وقيل : إنهم لما سمعوا ذِكْرَ عيسى قالوا : نحن أهْدَى من النصارى ؛ لأنهم عبدوا آدميًّا ، ونحن عَبَدْنَا الملائكةَ فمقْصِدهم تفضيل آلهتهم على عيسى . وقيل : إن قولهم : ﴿أم هو﴾ يَعْنُون محمداً ﷺ ؛ فإنهم لما قالوا إنما يريد محمدٌ أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى قالوا : ﴿أآلـهَتُنا خير أم هُو﴾ ـ يريدون تفضيلَ آلهتهم على محمد ، والأظهر أنّ المرادَ بـ ﴿هو﴾ عيسى . وهو قولُ الجمهور ؛ ويدلُّ على ذلك تقدم ذِكْرِه .

﴿قوم خَصِمُون﴾ [الزخرف : ٥٨] : هذا من قولِ الله لهم ، يعني يريدون أن يغالطوك في عيسى وإنما هو عَبْدٌ أَنْعَمْنا عليه بالنبوة والمعجزات وغير ذلك .

﴿قال الذين كفَرُوا للّذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقُونَا إليه﴾ [الأحقاف : ١١] : القائلون لهذه المقالة هم أكابِرُ قريش لما أسلم الضعفاء ، كبلال وعَمَّار وصُهيب ـ قالوا : لو كان الإيمانُ خيراً ما سبقَنا هؤلاء إليه . وقيل : بل قالها كنانة وقبائل من العرب لما أسلـمَتْ غفار ومُزَينة وجُهينة ، وقيل : بل قالها اليهود لما أسلم عَبْدُ الله بن سلام . والأول أرجح : لأن الآية مَكّـيّة .

فإن قلت : كان الأوْلى أن يقول ما سَبَقْتُمونا إليه ، لأن قول الذين كفروا للذين آمنوا مواجهة .

والجواب معنى الذين آمنوا : من أجل الذين آمنوا ، أي قالوا ذلك عنهم في غَيْبتهم ، وليس المعنى أنهم خاطبوهم بهذا الكلام ، لأنه لو كان خطاباً لقالوا : ما سبقتمونا إليه .

﴿قد خَلَتِ النُّذُر من بين يَدَيْه ومِنْ خَلْفِه﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ أي تقدمَتْ من قبله ومِنْ بعده. والنُّذُر: جمع نذير.

فإن قيل: كيف يتصور تقدّمها من خلفه؟

فالجواب أنّ هذه الجملة اعتراض، وهي إخبارٌ من الله تعالى أنّ الله قد بعث رسُلاً متقدمين قَبل هُود وبعده. وقيل من خلفه: يعني خَلْفه في زمانه.

﴿قال إنما العِلْمُ عند الله﴾ [الأحقاف: ٢٣]: قال هود: العذابُ الذي قلتم انتابه ليس لي علم وَقْت كونه، وإنما يعلمه الله، وما عليّ إلا أَنْ أُبلغكم ما أُرسلتُ به، ولكني أَراكم قوماً تجهلون أَمْر الله ووَعيده.

﴿قالوا للذين أُوتُوا العلم ماذا قال آنِفاً﴾ [محمد: ١٦]: قد قدمنا معنى آنفاً. والمعنى أن قُرَيشاً كانت تقول ذلك إمَّا احتقاراً لكلامه، كأنهم قالوا أيُّ فائدة فيه؟ وإما جهلاً ونسياناً، لأنهم كانوا وقْتَ كلامه ﷺ مُعْرِضين عنه.

﴿ق﴾ [ق: ١]: قد قدمنا أنه جبل محيط بالأرض، أو هو مِن أسماء الله تعالى: القاهر، أو المقتدر، أو القادر.

فإن قلت: أين جواب القسم؟ وما الفرق بينه وبين ﴿يس﴾ في إظهار جوابِ القسم ووصف القرآن بالمجيد؟

والجواب أنّ جوابَ القسم محذوف، تقديره ما ردُّوا أمرك بحجةٍ، وما كذّبوا ببرهان، وشبه ذلك، وعن هذا المحذوف وقع الإضراب ببل. ووصف كلامه هذا بالمجيد لشرفه، وفي سورة يس بالحكيم، لأنه محكم على غيره لرعاية الفواصل. وقد قدمنا أنّ اللهَ سمّاه بستين اسماً، وما ذلك إلا لتعظيمه؛ فاعرفْ قَدْرَ ما وصل إليكَ يا مَنْ أكرمه الله به.

﴿قَعِيد﴾ [ق: ١٧]؛ أي قاعد، وقيل مقاعد يعني مجالس. ورَواه ابنُ عطية بأنّ المقاعد إنما يكون مع قعود الإنسان، وإنما أفرده وهُمَا اثنان، لأنّ

التقدير عن اليمين قَعِيد وعن الشمال قَعِيد من ﴿الـمُتَلَقِّيَانِ﴾، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه. وقال الفراء: لَفْظُ ﴿قَعيد﴾ يدل على الاثنين والجماعة، فلا يحتاج إلى حذف؛ وذكر جماعةٌ عن مجاهد أن ﴿قَعِيد﴾ اسم كاتب السيئات.

﴿قاصِرَات الطَّرْف﴾ [الصافات: ٤٨]: معناه أنَّ الـحُورَ العِين يقصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم.

﴿قالوا: لولا نزل هذا القرآنُ على رَجُل من القَرْيَتَيْنِ عَظيم﴾ [الزخرف: ٣١]: لم يكْفِ قريشاً مُعَانَدتهم لرسول الله ﷺ، بل ضموا إليه مكابرتهم والاستخفاف بكتابِ الله وشرائعه والاحتكام على حكمةِ الله في تخَيُّر محمد ﷺ مِن أهل زمانِه. ومعنى القريتين: مكة، وعَنَوْا بالرجل منها الوليد بن المغيرة، وقيل عتبة بن ربيعة. والأخرى الطائف، وعَنَوْا بالرجل منها عروة بن مسعود. وقيل حبيب بن عُمير. ووصفوه بالعظمة لكثرة ماله، فأنكر اللهُ عليهم اعتراضَهم وتحكّمهم، وأن يكون لهم التدبير لأمر النبوءة بقوله: ﴿أهُم يَقْسمون رحمةَ رَبّك﴾ [الزخرف: ٣٢]، والتخير لها مَنْ يصلح لها ويقوم بها والمتولّين لقسمة رحمةِ الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قُدرته وبالغ حكمته؛ ثم ضرب لهم مثلاً فأعلَم أنهم عاجزون عن تدبير خُوَيصة أمْرِهم وما يصلحهم في دُنْياهم، وأن الله عزّ وعلا هو الذي قَسم بينهم معيشتَهم وقدَّرها ودَبَّر أحوالَهم تدبير العالم بها، فلم يُسَوِّ بينهم، ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش، وغاير بين منازلهم؛ فجعل منهم أقوياء وأغنياء، ومحاويج وضعفاء، وموالي وخدماً؛ ليصرّف بعضهم بعضاً في حوائجهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويتوافروا، ويَصلوا إلى منافعهم، ويحصلوا على مرافقهم؛ ولو وَكَلَهُم إلى أنفسهم، وولاَّهُم تدبيرَ أمرهم لضاعوا وهلكوا؛ فإذا كانوا في تدبير المعيشةِ الدنيَّةِ في هذه الحياة الدنيا على هذه الصفة فما ظَنُّك بهم في تدبير أمْرِ الدين الذي هو رحمةُ اللهِ الكبرى ورأْفَتُه العظمى، وهو الطريقُ إلى خيار حظوظ الآخرة والسُّلَّم إلى حلول دار السلام.

﴿قالوا: يأيُّها الساحِرُ ادْعُ لَنَا ربَّكَ بما عَهد عندك﴾ [الزخرف: ٤٩]: يعني من إجابتك. وقولهم: ﴿إننا لـمُهْتَدون﴾ [الزخرف: ٤٩]: وَعْدٌ نَوَوْا إخلافَه؛ لأنهم رَأَوْا تسعَ آياتٍ فلم يؤمنوا. وقولهم: ﴿يأيها الساحر﴾: إما أنْ يكون عندهم غَيْرَ مذموم؛ لأن السحر كان عِلْمَ أهْلِ زمانهم، وكأنهم قالوا يأيها العالم. وإما أنْ يكون ذلك اسماً قد أَلِفوا تسميةَ موسى به من أوّل ما جاءهم، فنطَقُوا به بعد ذلك من غير اعتقاد معناه.

فإن قلت: ظاهِرُ كلامهم يقتضي تكذيبَهم له، وقولهم: ﴿ادْعُ لنا ربّك﴾ - يقتضي تصديقَه؛ فما معنى الجمع؟

والجواب أنّ القائلين لذلك كانوا مكذّبين، وقولهم: ﴿ادْعُ لنا ربَّك﴾ يريدون: على قولك وزَعْمك، فدعا الله موسى فكشفه عنهم فنكثوا عَهْدهم.

﴿قال: يا قوم، أَلَيس لي مُلْكُ مِصْر﴾ [الزخرف: ٥١]: القائل لهذا فرعون، وقصَدَ بذلك الافتخارَ على موسى والتعظيمَ لملكه، ومِصْرُ هو البلد المعروف، وما يرجع إليه؛ ومنتهى ذلك من نهر الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل؛ فانظر عَقْلَه الفاسد، وبلادَته، حيثُ فخَرَ بتافِهٍ من الدنيا، ولم يعتبر بمَنْ تقدَّمه من الملوك الذي كانوا أعظَم منه؛ فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ، ولكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصدور.

﴿قال قَرِينُه: هذا ما لديَّ عَتِيد﴾ [ق: ٢٣]: اختلف ما المراد بالقرين؛ هل الشيطان الذي كان يُغْويه، أو الملك الذي يسوقه، أو الملك الذي يتولَّى عذابَه في جهنم؟ والأولُ أَرجح؛ لأنه هو القرين المذكور بعد؛ ولقوله: ﴿نُقَيِّضْ له شَيْطاناً فهو له قرين﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ وقوله: ﴿هذا ما لديّ عتيد﴾؛ أي هذا الإنسان حاضر لديّ قد استَعَدْتُه ويسَّرته لجهنم؛ وكذلك المعنى إن قلنا إنّ القرينَ هو الملك السابق. وإن قلنا إنه إحدى الزبانية فمعناه هذا العذاب لديَّ حاضر. ويحتمل أن يكون ﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما لديّ﴾ موصولة، فعَتِيد بدلٌ منها، أو خَبَرٌ بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، أو تكون موصوفة فعَتِيد

صفة لها، ويحتمل أن يكون عَتيد الخبر ويكون ﴿ما﴾ بدلاً مِنْ هذا أو منصوبة بفعل مضمر.

فإن قلت: إذا كان القَرِين في الآية الثانية [ق: ٢٧] بعد هذا فما فائدة تكرُّره وعطفه بالواو أوَّلاً؟

فالجواب أنهم اختلفوا؛ هل المراد بهما قرين واحد أم لا؟ إذ المقارنة تكون على أنواع. وقال بعض العلماء: قرين في هذه الآية الثانية ليست عطفاً بل جواباً، وأما عطفه بالواو فلأن هذه الآية معطوفة على ما قبلها من آياتٍ هي إخبار عما يَلْقاهُ الإنسان المتقدم ذكره مِن الأهوال والشدائد في المواقف الأخروية، وما بين يديها: أولها قوله: ﴿وجاءت سَكْرَة الموت بالحق﴾ [ق: ١٩]. ثم قال: ﴿ونُفِخ في الصور ذلك يوم الوَعِيد﴾. ﴿وجاءت كلُّ نفسٍ معها سائِق وشهيد﴾. ﴿وقال قرينُه هذا ما لديَّ عَتِيد﴾ [ق: ٢٠، ٢١، ٢٣]؛ فهذه إخبارات عن شدائد يلي بعضُها بعضاً. فطابَق ذلك وورد بَعْضها معطوفاً على بعض. وأما قوله بعد: ﴿قال قرينه ربنا ما أَطْغَيْته﴾ [ق:٢٧] فهو إخبار مبتدأ مستأنف معرَّف بتَبَرِّي قرينه من حَمْله على ما ارتكبه واجترحه، ولا طريق إلى عطف ذلك على ما قبله؛ إنما هو استئناف إخبار، فوُجد كلٌّ على ما يرد.

﴿قاب قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾ [النجم: ٩]؛ أي كان جبريل من محمد ﷺ بمقدار القاب ـ وهو مقدار المسافة بين قَوْسين عَرَبيين، ومعناه من طَرَف العود إلى طَرَفه الآخر. وقيل من الوتر إلى العود. وقيل ليس القوس الذي يُرْمَى بها؛ وإنما هي ذِراع تُقَاس به المقادير. ذكره الثعلبي؛ وقال: إنه من لغة أهل الحجاز؛ وتقدير الكلام: مقدارُ مسافة قُرْبِ جبريل من محمد ﷺ مِثْلُ قاب قوسين، ثم حُذفت هذه المضافات. ومعنى أدنى أقرب.

و ﴿أو﴾ هنا مثل قوله: أو تريدون. وأشْبَهُ التأويلات فيها أنه إذا نظر إليه البشر احتمل أن يكونَ قاب قوسين، أو يَكون أدنى. وهذا الذي ذكرنا أن الضمائر المتقدمة لجبريل هو الصحيح. وقد ورد ذلك في الحديث عن سيِّدنا

ومولانا محمد ﷺ. وقيل: إنها لله تعالى، وهذا القول يردُّ عليه الحديث والعقل؛ إذ يجبُ تنزيهُ اللهِ تعالى عن تلك الأوصاف من الدنوّ والتدلّي وغير ذلك.

﴿قاضِيةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]: يعني من أعطي كتابه بشماله يتمنى أنْ يكون مات في الموتة الأولى بحيثُ لا يكون بعدها بعث ولا حياة.

﴿قاسطون﴾ [الجن: ١٤]: من قسط الثلاثي يعني جار، وأقسط الرباعي - بالألف، إذا عدل بالرومية، ومنه: ﴿إنَّ اللهَ يحبُّ المُقْسِطِين﴾ [المائدة: ٥، والحجرات: ٩ والممتحنة: ٨].

﴿قصص﴾ [القصص: ٢٥]: له معنيان: من الحديث، ومن قَصّ الأثر، ومنه: ﴿فارتَدَّا على آثارِهما قصصا﴾ [الكهف: ٦٤]. ﴿فقُصّيه﴾ [القصص: ١١].

﴿قَسْورَة﴾ [المدثر: ٥١] - ابن عباس: هو الرامي. وقال أيضاً القسورة بلغة أهل الحبشة هو الأسد. وقيل أصوات الناس. وقيل الرجال الشداد. وقيل سوَاد أول الليل.

فإن قلت: سواد أول الليل لا يليق؛ لأنّ اللفظة مأخوذة من القَسر الذي هو القهر والغلبة.

والجواب: أنه يليق باللفظة؛ لأنه لا شيء أشد نفاراً لحُمرِ الوحش من قُرْب الظلام لتوحُّشها.

﴿قَمْطَرِيراً﴾ [الإنسان: ١٠]: معناه طويل. وقيل شديد.

﴿قواريراً قواريراً﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦] منونين، وبتنوين الأول؛ وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق، لأنه فاصلةٌ، والثاني لإتْبَاعه الأول. وقرىء قوارير - بالرفع، على: هي قوارير؛ والضمير في قدَّروها تقديراً يحتمل أن يكونَ للطائفين وأن يكون للمنعمين؛ ومعنى تقديرهم أنهم قدروها في أنفسهم؛ أو تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم، فجاءت كما قدَّروا؛ والتقدير

إما أنْ يكون على قدر الأكف؛ قاله الربيع، أو على قَدْر الرِّي، قاله مجاهد. قال ابن عطية: وهذا كله على قراءة مَنْ قرأ قَدَّروها بفتح القاف. وقرىء قُدروها على البناء للمفعول؛ ووجهه أن يكون من قدر منقولاً من قدر؛ تقول: قُـدرت الشيء، وقدرك على فلان إذا جعلك قادراً له. والمعنى جعلوا قادرين له كما شاءُوا، وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا.

فإن قيل: من المعلوم أن القارورة من الزجاج، فكيف قال من فضة؟

فالجواب أنّ المراد أنها في أصلها من فضة، وهي تشبه الزجاج في صفائها وشفيفها. وقيل: هي من زجاج، وجعلها من فضة على وَجْه التشبيه لشرفِ الفضة وبيَاضها.

﴿قَصْر﴾ [المرسلات: ٣٢]: واحد القصور؛ وهي الديارُ العظام. وقد قدمنا وَجْهَ تشبيه الشرر به في عِظَمه وارتفاعه في الهواء. وقيل: هو الغليظ من الشجر واحده قَصْرة كجَمْرة.

﴿قَضْبا﴾ [عبس: ٢٨] هي الفِصْفصة. وقيل علف البهائم. واختار ابن عطية أنها البقول وشبهها مما يُؤْكل رطباً.

﴿قَيِّمَة﴾ [البيّنة: ٣] فيعلة، وفيه مبالغة، تقديره الملة القيّمة أو الجماعة القيمة، ومعناه أنّ الذي أُمروا به من عبادة الله والإخلاص له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، هو دين الإسلام، فلأيّ شيء لا يدخلون فيه؟

﴿قرآناً﴾ [الجن: ١]: يكون بمعنى القراءة، ويقال فلان يقرأ قرآناً حسناً، ومنه: ﴿إنَّ قرآنَ الفَجْرِ كان مشهوداً﴾ [الإسراء: ٧٨]. وقد قدمنا أنه لا يُسمى بهذا الاسم غَيْرُ كتابِ الله؛ لأنه يجمع السور ويضمُّها، والقارىء مَنْ له القراءة ومَنْ لا قراءة له فليس بقارىء، ولا يكون قارئاً إلا عند وجود القراءة، ولو كانت القراءة قديمة لكان يجبُ أن يكونَ الحافظ لكتاب الله قارئاً له في جميع أحواله، فلما بطل ذلك دلَّ على أنها مُحْدَثة، والقراءةُ غير الحفظ، والكتابةُ غير

السمع. والمتلوّ والمقروء والمحفوظ والمكتوب والمسموع واحدٌ؛ ولهذا لو قال: والله لا قرأت القرآن ثم سمعه من غيره لم يَحْنَث، وهكذا لو قال: والله لا حفظت القرآن ثم كتبه أو قرأه أو سمعه من غير أن يحفظه لا يَحْنث، فدلّ ذلك على تغاير الكتابة والقراءة والحِفْظ والسمع. والله أعلم.

﴿قَرِّي عَيْناً﴾ [مريم: ٢٦]: أي طيبي نفساً لما فعل اللهُ لكِ من ولادة نَبيٍّ كريم، أو من تيسير المأكول أو المشروب، كقولك: قرِرت به عيناً أَقَرّ بالكسر في الماضي والفتح في المضارع، وقرَرت بالمكان بالفتح في الماضي، والكَسر في المضارع.

﴿قَرْضاً﴾ [الحديد: ١١، ١٨]: سلفاً، والفعل منه أقرض يقرض.

﴿قلنا﴾ [البقرة: ٣٤]: مذهب العرب إذا أخبر الرئيس منها عن نفسه قال: قلنا وفعلنا وصنعنا، لعلْمه أنّ أتباعه يفعلون بأمره كفعله، ويَجْرُون على مثل أمره؛ ثم كثر الاستعمال بذلك حتى صار الرجلُ من السوقة يقول فعلنا وصنعنا. والأصل ما ذكرت.

﴿قُرُوء﴾ [البقرة: ٢٢٨]: جمع قرء، وهو مشترك في اللغة بين الطهر والحيض، فحَمَلَهُ مالك والشافعي على الطهر لإثبات التاء في ثلاثة، فإنَّ الطهر مذكر والحيض مؤنث، ولقول عائشة رضي الله عنها: الأقراء هي الأطهار؛ وحَمَلَهُ أبو حنيفة على الحيض؛ لأنه الدليل على براءة الرحم؛ وذلكَ مقصود العِدَّة؛ فعلى قول مالك والشافعي تنقضي العدةُ بالدخول في الحيضة الثالثة، إذا طلقها في طُهْرٍ لم يمسها فيه، وعند أبي حنيفة بالطهر منها.

﴿قُرْبان﴾ [آل عمران: ١٨٣]: ما يُتَقرّب به إلى الله عز وجل مِنْ ذبح وغيره، والقُرْبة هي الطاعة، ومن شرطها العلمُ بالمتقرب إليه، فمحال وجود القُربة قبل العلم بالمعبود والنظَر والاستدلال المؤدّيين إلى معرفته عزّ وجل؛ فهو واجب وطاعةٌ له؛ فكلُّ قربة طاعة، وليست كل طاعة قُرْبة؛ لأن الصلاة في

الدار المغصوبة تقعُ واجبة وطاعة، وليست بقربة؛ لأنه لا يُثَاب عليها؛ وإنما الفرض يسقط عند الفقهاء والمتكلمين من أهل الحق، ومَنْ لا قربة له فليس بمتقَرب. ولا يقال متقرب إلا لـمَنْ كثرت قُرَبُه وطاعته.

﴿قُبُلاً﴾ [الأنعام: ١١١ ، والكهف: ٥٥]: أصناف، جمع قبيل؛ أي صنف صنف. وقُبلاً أيضاً جمع قبيل؛ أي كفيل. وقِبلاً أيضاً مقابلة. وقُبلاً عياناً. وقُبلاً استئنافاً. وقولُ سليمان: لا قِبَل لهم بها، أي لا طاقة لهم.

﴿قِسْطاس﴾ [الإسراء: ٣٥ ، والشعراء: ١٨٢]: قال مجاهد: هو العدل بالرومية، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جُبير، قال: القسطاس ـ بلغة الروم: الميزان.

﴿قُمّل﴾ [الأعراف: ١٣٣] ـ بضم القاف وتشديد الميم: صغار الجراد. وقيل البراغيث. وقال الواسطي: هو الذِّبان بلسان العبرانية والسريانية، وقرىء بفتح القاف والتخفيف، وهو على هذا القمل المعروف، وكانت تتعلق بلحومهم، ومن طبعها أن تكون في الشعر الأحمر أحمر وفي الأسود أسود وفي الأبيض أبيض، ومتى تغيّر الشعر تغير إلى لونه، وهو من الحيوان الذي إناثُه أكبر من ذكوره. وقيل: إن الصئبان بيضه. وأما قملة النسر التي تسقط منه إذا عضّت قتلت.

وروي أن موسى عليه السلام مشى بعصاه إلى كثيب أهْيل، فضربه فانتشر كلّه قمل في مصر. ثم إنهم قالوا: ادْعُ لنا ربك في كَشْف هذا عنّا، فدعا؛ فرجعوا إلى كفرهم.

وروى الترمذي الحكيم أنه إذا وجد الجالس على الخلاء قملة لا يقتلها، بل يدفنها، لِمَا رُوي أنه مَنْ قتل قملة على رأس خلائه بات معه في شِعَاره شيطانة تُنْسيه ذِكْرَ الله أربعين صباحاً. وقد رخص ﷺ لعبد الرحمن بن عوف والزُّبير ابن العوام لُبْس الحرير لدفع القمل، لأنه لا يقمل بالخاصية. قال الجاحظ: وربما كان للإنسان قمل الطباع، وإن تنظف وتعطر وبدّل الثياب، فعند الشافعية يجوز

لُبْس الحرير لهذه النازلة. وقال مالك: لا يجوز لِبسه مطلقاً، لأنّ وقائع الأحوال عنده لا تعمّ. وفي فتاوى قاضي خان: لا بأس أَنْ يطرح القملة حيّة، والأدب أن يقتلها. وإذا رأى المصلِّي في ثوبه قملة أو برغوثاً فالأَوْلى أن يتغافلَ عنها؛ فإن ألقاها بيده أو أَمسكها حتى يَفْرغ فلا بأس، فإن قتلها في الصلاة عُفي عن دمها دونَ جلدها، فإن قتلها وتعلَّق جلدها بظُفْره أو ثوبه بطلت صلاتُه. قال الغزالي: ولا بأس بقتلها كما لا بأس بقَتْل الحية والعقرب. قال القمولي: ولا بأس بإلقائها بغير المسجد؛ والذي قاله صحيح؛ للحديث: إذا وجد أحدكم القملة في المسجد فلْيَصرّها في ثوبه حتى يخرج من المسجد. رواه الإمام أحمد في الصحيح. وروى الحاكم في أوائل المستدرك من حديث أبي سعيد أنه قال: قلت: يا رسول الله، مَنْ أشدُّ الناس بلاءً؟ قال: الأنبياء. قال: ثم مَنْ؟ قال: العلماء. قال: ثم مَنْ؟ قال: الصالحون؛ كان أحدهم يُبْتلى بالقمل حتى تقتله، ويبتلى أحدهم بالفقر حتى لا يجد إلا العباءة يلْبَسها، ولأحدهم كان أشدَّ فرحاً بالملأ من أحدكم بالعطاء، قال: صحيح على شرط مسلم.

﴿قرَّة عَيْنٍ لي ولك﴾ [القصص: ٩]: مشتق من القَرّ، وهو الماء البارد، ومعنى قولهم: أَقر اللهُ عينكَ: أبرد اللهُ دمعك؛ لأن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة.

﴿قُدورٍ راسيات﴾ [سبأ: ١٣]: قد قدمنا أنها ثابتات لا تنزل، لأنها كانت أَثَافِيها منها، ويُطبخ فيها الجمل، لا يخرج منها إلا عظامه.

﴿قُتل الْخَرّاصُون﴾ [الذاريات: ١٠]؛ أي الكذابون. والإشارةُ إلى الكفار. وقُتِل معناه لعن. قال ابن عطية: واللفظةُ لا تقتضي ذلك. وقال الزمخشري: أصله الدعاء بالقَتْل، ثم جرى مَجْرى اللعن والقُبْح.

﴿قُطوفها﴾ [الحاقة: ٢٣، الإنسان: ١٤]: جمع قطف، وهو ما يُجنى من الثمار ويُقطف كالعنقود.

﴿قِبْلَةً﴾ [البقرة: ١٤٤]: جهة، وسُميت الكعبة بذلك لأنها تُقابل المصلّي ويقابلها.

﴿قيلاً، وقولاً﴾ بمعنى واحد؛ ومنه: ﴿وأقوم قيلاً﴾ [المزمل: ٦].

﴿قِسّيسين﴾ [المائدة: ٨٢]: جمع قَس، وهو العالم. وفي الحديث: يُبعث قُسّ بن ساعدة أُمةً وحده. وروي أنه ﷺ قال: رأيته على جَمل بعُكاظ، وهو يقول: أيها الناسُ اسمَعُوا وَعُوا، مَنْ عاش مات، ومَنْ مات فات، وكلُّ ما هو آت آت، مالي أرى الناسَ يذهبون ولا يرجعون، أَرَضُوا بالإقامة فأَقَاموا، أَمْ تُركوا هنالك وناموا؛ إن في السماء لخبراً، وإنّ في الأرض عبراً. سَقْفٌ مرفوع، ومِهَاد موضوع، وبحار تَمُور، ونجوم تحور، ثم تعود. أُقسم بالله قسماً لا كَذب فيه ولا إثماً: إن للهِ لدِيناً هو أرضى من دِيْنٍ نحن عليه، ثم تكلم بأبيات شعر لا أدري ما هي.

قال أبو بكر: كنت حاضراً، والأبيات عندي. وأنشد:

في الذاهبيـــن الأوليــ ـــن من القرون لنَا بَصَائـر
لـمــا رأيـــتُ مـــوارداً للمــوت ليس لها مصــادر
ورأيـت قــومـي نحوهــا يمشي الأكابـرُ والأصـاغـر
لا يـرجــع الماضـــي ولا يبقـى مـن البـاقين غَـابــر
أيْقَنْـــــتُ أني لا محــــا لة حيث صار القَوْمُ صـائـر

وقوله هذا يدلُّ على أنه تنبّه بعقله في هذه، فاتَّعظ واعتبر، ولو أدركته الرسالةُ لنبّه بعقله من كان في جهالة.

﴿قِطَعاً من الليلِ مُظْلِماً﴾ [يونس: ٢٧]: جمع قطعة، ومَنْ قرأ قطْعاً ـ بتسكين الطاء ـ أراد اسم ما قُطع؛ تقول قطعت الشيء قَطْعاً، بفتح القاف من المصادر، واسم ما قطعت، والجمع أقطاع، فمُظْلِماً على قراءة فتح الطاء حال من الليل، وأمّا على إسكانها فصفةٌ له أو حال من الليل.

﴿قِطَع مُتَجَاوِرَات﴾ [الرعد : ٤]: قد قدمنا أنّ معناها قُرّى متصلة، ومع تلاصقها فإنَ أرضها تتنوع إلى طيب ورديء، وصلب ورخو، وغير ذلك.

﴿قِيعَة﴾ [النور : ٣٩]: جمع قاع، وهو المنبسط من الأرض. وقيل القيعة بمعنى القاع، وليس بجمع.

﴿قَرْن﴾ [الأنعام : ٦]: مفرد قرون، وهو مائة سنة، وقيل سبعون، وقيل أربعون.

فإن قلت: قد ورد في آيات من القرآن زيادة ﴿من﴾ كآية الأنعام [٦] ويس [٣]؛ وفي السجدة: ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يَمْشون في مساكنهم﴾ [السجدة: ٢٦]. وفي ص: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادَوا ولات حين مَناص﴾ [ص: ٣] هذه؛ الآيات الثلاث بزيادة ﴿من﴾ فيها، وسائرها ورد في القرآن مثل هذه الآي لم تزد فيها مِنْ.

والجواب أنها تُزاد حيث يُراد تأكيد مضمن الآي من العصاة، والإشارة إلى الوعيد، وهي أبداً في أمثال هذه المواضع محرِزة معنى التأكيد لا تنفكّ عن ذلك، ثم إن حذفها أوجز من إثباتها، ولكلٍّ مقام مقال؛ فحيث ورد من هذه الآي ما قبله استيفاء تفصيل وعيدي في أمة بعينها أو أكثر، أو تكرر التهديد وشدة التخويف من مقتضى السياق وهو فحوى الكلام، فذلك موضع زيادتها والتأكيدُ بإثباتها، وحيث لا يتقدم تفصيلٌ على ما ذكرناه، أو تكون آيةُ التهديد لا تَبْلُغ في اقتضاء مقتضاها نفوذ الوعيد، فهذا يناسبه الإيجاز بحذفها؛ إذ لا يراد من تأكيد الوعيد ما يُراد في الآي الأُخر.

﴿قَرْنَ في بيوتكنّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]: قرىء بكسر القاف، ويحتمل وجهين: أَحدهما أن يكون من الوقار، أو من القرار في الموضع؛ ثم حُذفت الراء الواحدة كما حُذفت اللام في ظلت. وأما القراءة بالفتح فمن القرار في الموضع على لغةِ مَنْ يقول: قرِرت بالكسر أقر بالفتح. والمشهور في اللغة عكسُ ذلك.

وقيل: هو من قارّ يقار إذا اجتمع. ومعنى القرار أرجح؛ لأن سودة رضي الله عنها قيل لها: لِمَ تحتَجِبين؟ فقالت: أمرنا الله أن نَقرَّ في بيوتنا، وكانت عائشة إذا قرأت هذه الآية تبكي على خروجها أيامَ الجمل، وحينئذ قال لها عمار: إن اللهَ أمرك أن تقَرّي في بيتك.

﴿قال رَبِّ إني قتَلْتُ منهم نَفْساً﴾ [القصص: ٣٣]: هذا من قول موسى؛ والإشارةُ بالنفس إلى القِبْطي، فقال الله: أَلَمْ أَحفظ خضرة الشجرة من النار لم تحرقها ولم تضرها، فكذلك يا موسى أَحفظك وأُنْجيك من فرعون ولا يضرك بشيء، فلما خرج موسى من مصر حين قتل القبطي سأل اللهَ الهداية، فقال: ﴿عسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سواءَ السَّبِيل﴾ [القصص: ٢٢]؛ فلم يجبه حتى بعث إلى مصر ثانية، فقال عند خروجه: سمعتُ نِدَاءَك وأجبتُكَ، واليوم هديتك إلى كلامي، إني أنا الله العزيز الحكيم؛ فكذلك أنْتَ يا مؤمن لمّا أنزلْتُك إلى الدنيا عرفتَ المحن التي توجهَتْ إليك، فقلت: اهدنا الصراط المستقيم، فأَسمع وأُجيب، ثم إذا قرب رجوعُك إليّ وفوضتَ أمرك إليّ أقول لك: إني أنا الغفور الرحيم، وأَجعل الجنةَ منزلك ومَثْواك، كما جعلت دِيارَ فرعون ومقامه ميراثاً لبني إسرائيل، فقلت: ﴿كم تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وعيون...﴾ [الدخان: ٢٥] الآية.

فإن قلت: ما ورد في الشعراء [٥٩] أن الله أهلك القبط على أيدي بني إسرائيل وأورثهم ملكهم ودِيارهم، والذي في الدخان [٢٨] أن الله أورثها آخرين ليسوا هم؟

والجواب أنه وقع الخلافُ في رجوع بني إسرائيل إلى مصر بعد هلاكِ فرعون، وقد قدمنا في مشهور التواريخ أنهم لم يرجعوا إليها ولا ملكوها قطّ، وإنما أمرهم الله بدخول الأرض المقدَّسة؛ ولهذا قال قتادة: القوم الآخرون هم بنو إسرائيل، فورثوا نوعها في بلاد الشام؛ وإنما سماهم آخرين؛ لأنهم ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا وَلاء؛ لأنهم كانوا مُسَخّرين مستعبدين في أيديهم.

وقد ذكر الثعلبي عن الحسن أنّ بني إسرائيل لما رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون ـ ويقوي قوله آية الشعراء ـ إليه، ونصبه بالكاف في كذلك يدلّ على رجوعهم؛ أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، وأَوْرَثْناها لهم، وسمّاها وِراثة من حيث كانت لأُناس ووصلت إلى آخرين بعد موت الأولين؛ وهو حقيقةُ الميراث في اللغة ورَبطها الشرع بالنسب وغيره من أسباب الميراث.

﴿قِطَّنا﴾ [ص: ١٦]: قد قدمنا أنّ القِطّ في اللغة له معنيان: أحدهما الكتاب بالنبطية، والآخر النصيب. وفي معناه ـ في قوله: ﴿قالوا رَبَّنا عَجِّل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب﴾ [ص: ١٦] ثلاثة أقوال: أحدها نصيباً من الخير، أي دعَوْا أن يعجِّل اللهُ لهم في الدنيا. والآخر نصيبهم من العذاب؛ فهو كقولهم: ﴿أَمْطِرْ علينا حجارةً من السماء﴾ [الأنفال: ٣٢]. والثالث صحائف أعمالنا. فتبًّا لقومٍ طَبع اللهُ على قلوبهم وطلبوا الحجارةَ أو العذاب مع علمهم أنه الحق؛ ولولا أنَّ اللهَ رحمهم بوجوده معهم لعاجَلهم بالحجارة ونزول العذاب، لكنه ﷺ رحمة للعالم، كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليُعَذّبهم وأنْتَ فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣]. وقال معاوية لرجل من أهل سبَأ: ما أجهل قومك حين ملّكوا أمرهم امرأة! فقال له: قوْمُك أجهلُ من قومي حيث قالوا حين دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الحق: ﴿إنْ كان هذا هو الحق من عندك فأَمْطِرْ علينا حجارةً﴾. ولم يقولوا: اهْدِنا له.

فإن قلت: قد قال بعدها: ﴿وما لهم ألاَّ يُعَذِّبهم الله﴾ [الأنفال: ٣٤]، وهي مناقضة لقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأَنْتَ فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣].

فالجواب أن هذه الآية نَزلت كلّها بمكة إثر قولهم: ﴿أو ائْتِنَا بعذابٍ أليم﴾ [الأنفال: ٣٢]. ونزل قوله: ﴿وما كان الله معذِّبَهم وهم يستغفرون﴾ [الأنفال: ٣٣] عند خروج النبي ﷺ من مكة في طريقه إلى المدينة، وقد بَقِيَ بمكة مؤمنون يستغفرون. وقيل: إن قوله: ﴿وما لهم ألاَّ يعذّبهم الله﴾ نسخ

لقوله: ﴿وما كان الله مُعَذِّبهم وهم يستغفرون﴾ - وفيه نظر؛ لأن الخبر لا يدخله نسخ. والظاهر أن: ﴿ما لهم ألاّ يعذبهم الله﴾ - يقتضي الوعيد. وتقديرُه: وما يملكهم، أو ما يُدْرِيهم، ونحو هذا من الأفعال التي توجب أن تكونَ ﴿أن﴾ في موضع نصب. وقال الطبري: تقديره: وما يمنعهم أن يعذبوا. قال ابن عطية: والظاهرُ في قوله: ﴿وما﴾ أنها استفهام على جهة التقرير والتوبيخ والسؤال؛ وهذا أفصحُ في القول، وأقطعُ في الحجة. والمعنى: وأيُّ شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم وهم معذّبون لا محالة؟ وكيف لا يعذبون وحالُهم أنهم يصدُّون عن المسجد الحرام جَوْراً وتعدِّياً عامَ الحديبية، وإخراجهم لرسول الله ﷺ من الصدّ.

﴿قد﴾: حرف يختص بالفعل المتصرف الْخَبَرِيّ المثبت المجرّد من ناصب وجازم. وحرف تنفيس ماضياً أو مضارعاً. ولها معان:

التحقيق مع الماضي؛ نحو: ﴿قد أَفْلَح المؤمنون﴾ [المؤمنون: ١]. ﴿قد أفلح من زَكَّاها﴾ [الشمس: ٩]، وهي في الجملة الفعلية المجابِ بها القسم، مثل إن واللام في الاسمية المجاب بها في إفادة التوكيد والتقريب مع الماضي أيضاً؛ تقرِّبه من الحال؛ تقول: قام زيد، فيحتمل الماضي القريب والماضي البعيد، فإن قلت: قد قام، اختص بالقريب.

قال النحاة: وانبنى على إفادتها ذلك أحكام؛ منها: مَنْع دخولها على ليس، وعسى، ونِعْم، وبئس، لأنهن للحال؛ فلا معنى لذِكْرِ ما يقرّب ما هو حاصل، ولأنهن لا يُفِدْن الزمان.

ومنها وجوبُ دخولها على الماضي الواقع حالاً، إما ظاهرة؛ نحو: ﴿وما لنا ألاَّ نقاتل في سبيل الله، وقد أُخرِجْنا من ديارنا وأبنائنا﴾ [البقرة: ٢٤٦]. أو مقدرة؛ نحو: ﴿هذه بضاعتُنا رُدَّتْ إلينا﴾ [يوسف: ٦٥]. ﴿أو جاءوكم حَصِرَتْ صدورُهم﴾ [النساء: ٩٠]. وخالف في ذلك الكوفيون والأخفش، فقالوا: لا يحتاج إلى ذلك لكثرة وقوعه حالاً بدون قد.

وقال السيد الجرجاني وشيخنا العلامة الكافِيجي: ما قاله البصريون غلط ،سبَبُه اشتباهُ لفْظِ الحالِ عليهم؛ فإنّ الحال الذي يقربه ﴿قد﴾ حال الزمان، والحال المبيّن للهيئة حال الصفات، وهما متغايران.

المعنى الثالث التقليل مع المضارع؛ قال في المغني: وهو ضربان تقليل وقوع الفعل نحو: قد يصدق الكذوب. وتقليل متعلّق الفعل نحو: ﴿قد يعلم ما أَنْتُم عليه﴾ [النور: ٦٤]؛ أي أنّ ما هم عليه هو أقل معلوماته تعالى؛ قال: وزعم بعضهم أنها في هذه الآية ونحوها للتحقيق. ومِمّن قال بذلك الزمخشري؛ قال: إنها دخلت لتوكيد العلم، ويرجع ذلك إلى توكيد الوعيد.

الرابع: التكثير، ذكره سيبويه وغيره، وخرّج عليه الزمخشري: ﴿قد نرى تقَلّبَ وَجْهِك في السماء﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ أي ربما نرى، ومعناه تكثير الرؤية.

الخامس: التوقع؛ نحو قد يقدم الغائب لمَنْ يُتَوقع وقوعه وينتظره. وقد قامت الصلاة؛ لأن الجماعة ينتظرون ذلك، وحمل عليه بعضُهم قوله تعالى: ﴿قد سمع اللهُ قولَ التي تُجادلك في زوجها﴾ [المجادلة: ١]؛ لأنها كانت تتوقَّع إجابة الله لدعائها.

حرف السين المهمَلة

﴿سليمان﴾ بن داوود. قال كعب: كان أبيض، جسيماً، وَسِيماً، وَضِيئاً جميلاً، خاشعاً متواضِعاً، وكان أبوه يشاوِرُه في كثير من أموره مع صِغَر سنه لوفور عقله وعلمه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس؛ قال: ملك الأرض مؤمنان: سليمان، وذو القرنين. وكافران: النُّمرود، وبخت نصّر. قال أهل التاريخ: ملك وهو ابنُ ثلاث عشرة سنة، وابتدأ بناءَ بيت المقدس بعد مُلكه بأربع سنين، ومات وله ثلاث وخمسون سنة.

﴿سَواءَ السَّبِيل﴾ [الممتحنة: ١]: هو الطريق، وجمعه سبُل، ثم استعمل في طريق الخير والشر. وقد قدمنا أنّ سبيلَ الله الجهاد، وابن السبيل الضيف. وسَوَاء بالفتح والهمز من التسوية بين الأشياء. وسواء الجحيم وَسطها، وسيأتي معناها آخر الحرف.

﴿سَنَزِيدُ المحسنين﴾ [البقرة: ٥٨]؛ أي يزيدهم أجراً إلى المغفرة.

﴿سَلْوى﴾ [الأعراف: ١٦٠، وطه: ٨٠]: طائر يشبه السُّمَانى، كان ينزل على بني إسرائيل من المنّ.

﴿سُجَّداً﴾ [البقرة: ٥٨]: معناه رُكّعاً؛ لأن الدخول لا يتأتّى مع السجود. وقيل: متواضعين. وقد قدمنا أنّ سجودَ الملائكة لآدم كان بِوَضْع جباههم في الأرض، وأول مَن سجد إسرافيل؛ ولذا جازاه اللهُ بولاية اللوح المحفوظ.

﴿سفِه نفسه﴾ [البقرة: ١٣٠]: منصوب على التشبيه بالمفعول به. وقيل: الأصل في نفسه ثم حذف الجار فانتصب. وقيل تمييز؛ ومعناه أهلكها وأوْبقها.

﴿سيَقول السفهاءُ﴾ [البقرة: ١٤٢]: ظاهرُه الإعلام بقولهم قبل وقوعه. وقال ابن عباس: نزلَتْ بعد قولهم، والمراد بهم اليهود أو المشركون أو المنافقون. وأما: ﴿ولا تُؤْتُوا السفهاءَ أموالَكم﴾ [النساء: ٥] فالمرادُ بهم أولاد الرجل ونساؤه لأنهم يبذِّرون. وقيل السفهاء المحجورون، وأموالكم، أي أموال المحجورين، وأَضافها إلى المخاطبين لأَنهم ناظرون عليها وهي تحتَ ولايتهم.

﴿سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥] وسروراً بمعنى واحد.

﴿تسليماً﴾: ملاطفة وقَصْداً.

﴿سلَف﴾ الأمر، أي تقدم، وأسلفت الرجل أي قدمته، ومنه: ﴿بما أَسْلَفْتُم في الأَيام الخالية﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿سَلم﴾ - بفتح السين: السلامة، والمراد به عقد الذمة بالجزية. وقرىء بكسر السين بمعنى الدخول في الإسلام. وأَما السَّلَم بغير ألف فهو الانقياد. ومنه: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم﴾ [النساء: ٩٤]، وقرىء بالألف بمعنى التحية.

﴿سارعوا﴾ [آل عمران: ١٣٣]: بغير واو استئناف، وبالواو عطف على ما تقدم، ومعناه المبادرة إلى الأمر.

﴿سَعِيراً﴾ [النساء: ١]: اتقاداً، وهو اسْمٌ من أسماء جهنم.

﴿سلام﴾: اسم من أسماء الله، وهو بمعنى الخير، ﴿فاصْفَحْ عنهم وقل سلام﴾ [الزخرف: ٨٩]. وبمعنى الثناء: ﴿سلام على نوح في العالَمِين﴾ [الصافات: ٧٩]. وبمعنى السلامة: ﴿اهبِط بسلام منّا﴾ [هود: ٤٨]. ﴿لهم دارُ السلام عند ربّهم﴾ [الأنعام: ١٢٧]. وبمعنى الشجر العظام، واحدتها سَلَمَة.

﴿أسلَم﴾: له ثلاثة معان: الدخول في الإسلام، والإخلاص لله، والانقياد، ومنه: ﴿أسلمتُ لرب العالمين﴾ [البقرة: ١٣١]. ﴿فلما أَسْلَمَا وتَلَّهُ للْجَبِين﴾ [الصافات: ١٠٣].

﴿سكينة﴾: وقار وطمأنينة. وقال الراغب في مفرداته ـ في قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينةَ في قلوب المؤمنين﴾ [الفتح: ٤]: إنه ملك يسكِّن قَلْب المؤمن ويؤمنه، كما رُوي: إن السكينة تنطِقُ على لسان عُمَر. وقيل في سكينة تابوت بني إسرائيل [البقرة: ٢٤٨]: إن لها وجهاً مثل وَجْه الإنسان، ثم هي بعد ريح هفَّافة. وقيل: رأس مثل رأس الهرّ وجناحان؛ وهي من أمر الله.

﴿سكن﴾ يسكن: له معنيان؛ من السكون ضد الحركة. ومن السكنى في الموضع، ومنه: ﴿اسكُنْ أَنْتَ وزَوْجك الجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

فإن قلت: إذا كان منَ السكون الذي معناه الإقامة، فما معنى عطف الأكل في البقرة بالواو بخلاف آية الأعراف [١٩]؟

والجواب أنّ مورد الآيتين مختلف في الموضعينِ؛ لأن الواردَ في البقرة قُصد به مجرَّد الإخبار والإعلام به لرسوله ﷺ بما جرى في قصة آدم عليه السلام وابتداء خلقه، وأمر الملائكة له بالسجود، وما جرى من إبايَة إبليس عن السجود، ثم ما أمر به آدم من سكنى الجنة والأكل منها، ولم يقصد غير التعريف بذلك من غير ترتيب زمانيّ أو تحديد غايةٍ، فناسبَهُ الواو؛ وليس موضع الفاء. وأما آية الأعراف [١٩] فمقصودُها تعدادُ نِعَم الله تعالى على آدم وذُرّيته، ألا تَرى ما تقدَّمها من قوله تعالى: ﴿ولقد خلَقْنَاكم ثم صوَّرْنَاكم﴾ [الأعراف: ١١]. وأمر الملائكة بالسجودِ لآدم ثم قوله مفْرِداً لإبليس: ﴿اخْرُجْ منها مَذْءوماً مَدْحُوراً﴾ [الأعراف: ١٨] مفرداً بذلك أمر آدم عليه السلام بالهبوط متْبِعاً بالتأنيس له ووصية الذرية في قوله: ﴿يا بني آدمَ لا يفتِنَنَّكم الشيطانُ﴾ [الأعراف: ٢٧]؛ فناسب هذا القصد العطف بالفاء الْمُحْرِزة معنى الترتيب، والواو لا تقتضي ذلك، وإنما بابُها الْجَمع حيث لا يُراد ترتيب، وليس موضع شرط وجزاء؛ فيكون ذلك مسوِّغاً لدخول الفاء؛ وإنما ورد هاهنا لما ذكرتُه من قَصْد تجريد التفضيل المحصّل لتعديد النعم. ولما اختلف القَصْدَان اختلفت العبارة فيهما.

﴿سعى﴾ يسعى: له ثلاثة معان: عمل عملاً؛ ومنه: ﴿وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى﴾ [النجم: ٣٩]. ومشى؛ ومنه: ﴿فاسعَوْا إلى ذِكْرِ الله﴾ [الجمعة: ٩]. وأسرع في مشيه؛ ومنه: ﴿وجاء رجلٌ من أقْصَى المدينة يَسْعَى﴾ [القصص: ٢٠].

فإن قلت: ما وَجْه تقديم الرجل في هذه الآية وتأخيره في آية يس [٢٠]؟

والجواب إنما أخره في يس لأوجه؛ منها: أنه كان يعبد الله في جبَل، فلما أسمع خبر الرجل سعى مستعجلاً.

وقيل: حيث قدّم الظرف على رجل أراد أن ينبه أن الرجل من المدينة نَفْسها، وحيث أخَّر الظرف لم يرد أن يُنَبّه على المعنى المذكور. وقيل: لما كانت مقالةُ الرجل في سورة يس تقتضي الإرشادَ أخَّر ذكْرَه ليكون موالياً لإسناد قوله إليه؛ وليعلم القائل أنّ مقالته تقتضي الإنذار قدم ذكره وفصَل بينه وبين مقالته ليبعد إسنادها إليه، إذ المقالة تقتضي الإخفاء، وهو أيضاً كذلك، فكان بعد إسناد المقالة إليه فيه ضربٌ من إخفائه.

وقيل غير هذا من الوجوه حذفناه لطوله.

﴿سَوْءَةَ أخيه﴾ [المائدة: ٣١]؛ أي عورته، وخصها بالذكر لأنها أحقُّ بالستر من سائر البدن، والضميرُ في ﴿أخيه﴾ عائد على ابن آدم، وأما قوله: ﴿فبدَتْ لهما سَوْءَاتُهما﴾ [طه: ١٢١]، فقد قدمنا أنه زال عنهما اللباسُ الذي كان عليهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر.

﴿سَمَّاعُونَ للكذبِ سَمَّاعُون لقومٍ آخَرِين﴾ [المائدة: ٤١]، أي لقوم آخرين من اليهود الذين لا يأتُون النبيَّ ﷺ لإفراط البغْضَة والمهاجرة.

فإن قلت: ما فائدة تكرير هذا السماع هنا؟

فالجواب أنه إن كان سمّاعون الأول استئناف إخبار عن المنافقين والذين هادُوا فيكون الثاني في اليهود خاصة، وإن كان من الذين هادُوا استئنافاً منقطعاً

عما قبله فيكون سمّاعون الأول راجِعاً إليهم خاصة، فكرّر الثانية تأكيداً، وبالجملة فالآيةُ خطابٌ للنبي ﷺ على وجه التسلية. وأما قوله في براءة: ﴿وفيكم سمّاعون لهم﴾ [التوبة: ٤٧] فمعناه خطاب للصحابة بأنهم يسمعون كلامَ المنافقين في إخبارهم بابتغائهم فتنتكم، وتنقلونها لإخوانكم المؤمنين، وهم مع ذلك طالبون فسادكم. وقيل سمّاعون؛ أي يتجسسون لهم الأخبار.

﴿سأرِيكم دارَ الفاسقين﴾ [الأعراف: ١٤٥]؛ أي دار فرعون وقومه، وهو مصر؛ فالمعنى أُريكم كيف أقفرت منهم لما هلَكُوا. وقيل: منازل عاد وثمود ومَنْ هلك من الأمم المتقدمة ليعتبروا بها. وقيل جهنم. وقرأ ابن عباس بالثاء المثلثة: «سأُورثكم» من الوراثة، وهي على هذا مصر كما قدمنا.

﴿سأصْرِفُ عن آياتي الذين يتكبَّرُون في الأرض بغير الحقّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]: يحتمل أن يريد بها آيات القرآن وغيره من الكتب فيطمس الله فَهْمَها، والتدَبُّر في معانيها على المتكبرين؛ وهذا كقوله: ﴿واتَّقُوا اللهَ ويعلِّمُكم اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وفي الحديث: العلم نور يضَعُه الله في قلْبِ الخائف. وفيه: مَن عمل بما علم أورثه اللهُ عِلْمَ ما لم يعْلم. مَنْ لم يتّق الله يصرفه عن فَهْم آياته، ويصدّه عن الإيمان عقوبةً له على تكبّره. وقيل: الصرف منعهم عن إبطالها.

﴿سَكَتَ عَنْ مُوسى الغَضَب﴾ [الأعراف: ١٥٤]؛ أي سكن، وبذلك قرأ بعضهم. والغضب: شعلة نارٍ، وهو مذموم، مَنْ وجده فليستعِذْ بالله منه، وإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً فليَضْطَجع؛ وغضَبُ موسى إنما كان لله في غضبه على اتخاذ العِجْل في غيبته إلى الطور، فلما رجع أَلْقَى الألواحَ التي كانت عنده لما لحقه من الدهش، وأخذ برأس أخيه هارون يجرُّه، لأنه ظن أنه فرَّط في كفِّ الذين عبَدُوا العجل؛ فقال: ﴿ابْنَ أُم، إنّ القومَ استَضْعَفُوني وكادُوا يَقْتُلُونني...﴾ [الأعراف: ١٥٠] الآية، فسكن حينئذ موسى. وإنما دعاه هارون بأُمِّهِ؛ لأنه أدْعَى إلى العطف والحنوّ. وقرىء ابن أم بالكسر على الإضافة

إلى ياء المتكلم وحُذفت الياء؛ وبالفتح تشبيهاً بخمسة عشر، جُعِل الاسمان اسماً واحداً.

وفي الآية تنبيه على أنَّ الغضبَ لله من النصرة لدين الله، فلا يغفل المرء عن الحبِّ في الله والبغْض في الله. وإنما غضب موسى على مَنْ ظنَّ منه الإفادة والانتهاء عما هو فيه. وأما مَن ظن عدم ذلك فلا ينبغي إلا هجرانُه وطرْدُه.

ولعمري هل فيك نفحة من هذه النفحات فتغضب على أهلك ووَلَدك وما ملكت يمينك إذا رأيتهم خالفوا أَمْرَ ربهم؟ كَلاَّ لو فهموا منك تغضّباً لتَرْكِ دينهم كما تغضب عليهم إذا ضيَّعوا دُنياك لانْتَهَوا، ولكنك لا تغضب عليهم لعدم صِدْقك مع الله فلم يزيدوا إلا طُغياناً كبيراً.

﴿سَيَّارة﴾ [يوسف: ١٠، ١٩]: قوم مسافرون.

ورُوي أنّ السيارة التي أخرجت يوسف كانت من مَدْين. وقيل أعراب السيارة طلبوا الماءَ فوجدوا يوسف. وسليمان طلبَ السمكةَ فوجد الخاتم، وموسى طلب النارَ فوجد الجبّار. وأنْتَ يا عبْدَ الله؛ هَلاَّ ترمي شبكةَ الندامة في بَحْر الاستغفار وتَصْطاد لنفسك الضعيفةِ حُوتَ السلامة من الفُرقة والقطيعة، فإن كنت أحذق فعليكَ بالأوفق؛ لا يشغلك شاغل عن الطاعة بجهد الاستطاعة، فإن وقعْتَ في ظلمة أو وَحلة يخرجك كما أخرج يوسف، وإن صيّره ملكاً فيصيّرك ملكاً كريماً في دارِ ضيافته، ويكشف لك عن كمال ذاته، فتنظر إلى جماله.

﴿سيِّدَها﴾ [يوسف: ٢٥]: قد قدمنا أن السيد يُراد به الرئيس والذي يفوق في الخير قَوْمَه. والسيد في الحقيقة هو المالك. ولذا أضاف امرأةَ العزيزِ إليه؛ لأنه مالكها، فلما رأته خجلَتْ واستحيت وقالت: ﴿ما جَزَاءُ مَنْ أرادَ بأهلكَ سُوءًا إلاَّ أنْ يُسْجَنَ أو عذابٌ أليم﴾ [يوسف: ٢٥]: قتلاً أو ضرباً وَجيعاً. قالت ذلك ضجَراً لِمَا فاتها منه، ولما ظنت أن يَنْسُب إليها من ذلك.

وأنْتَ يا عبدالله، تفوتك من مولاك اغتنامُ الطاعات، ولا تبكي على فَقْدها،

ولا تهتم من عقوبة معصيته. أما علمْتَ أنّ عقوبةَ غيبة الحبيب أشدُّ من عقوبة الغضب. غضبت زُليخا ساعةً فأورثها حُزْناً طويلاً، كانت تقومُ الليل وتقول: يا يوسف، هل أنتَ نائم أو ساهر؟ أما أنا فأنا ساهرة من حبِّك، ليتني لم أمرّ بك إلى ما ترى! وأنت لا تخاف من غضب مَنْ لا يقوم لغضبه شيء. فلا تحسبَنَّ إمهاله لكَ إهمالاً، أما سمعتَه يقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجهم من حيثُ لا يَعْلَمون﴾ [الأعراف: ١٨٢]؛ أي نؤاخذُهم قليلاً ولا نباغتهم كما يرتقي الراقي الدرجةَ فيتدرَّج شيئاً بعد شيء حتى يصلَ إلى العلوّ؛ قال بعضهم: معناه كلما جدَّدوا خطيئةً جدَّدْنا لهم نعمةً حتى نأخذهم بغتة.

﴿سَبْعٌ شِدَاد﴾ [يوسف: ٤٨]: يعني ذات شدة وجوع سَبْعَ سنين. هذا تعبير الرؤيا؛ وذلك أنه عبَّر البقرات السمان بسبع سنين مُجْدبة، وكذلك السنبلات الخضر واليابسة.

فإن قلت: ما وَجْهُ اختلافِ العددَيْن في هذه الآية وآية البقرة في قوله: ﴿سَبْع سنابل﴾ [البقرة: ٢٦١].

فالجواب أن بابَ ما يجمع بالألف والتاء أن يكون للقليل ما لم ينص عليه أو يعرض عارض؛ لأن آية البقرة مبنية على ما أعدَّ الله تعالى للمُنْفق في سبيله وما يُضاعف له من أجْر إنفاقه، وأن ذلك ينتهي إلى سبعمائة ضعف، وقوله: ﴿والله يضاعفُ لِمَنْ يشاء﴾ [البقرة: ٢٦١] قد يُفْهم الزيادة على ما نص عليه من العدد، كما أشارت إليه آياتٌ وأحاديث، فمَبْنَى هذه الآية التكثير؛ فناسبَ ذلك ورود المفسّر على ما هو مِنْ أبنية الجموع للتكثير لحظاً للغاية المقصودة، ولم يكن ما وَضْعه للقليل في الغالب ليُنَاسب ما لحظ فيه الغاية من التكثير. أما آيةُ يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه: ﴿سبع سُنْبُلات﴾ [يوسف: ٤٦]: فلا طريقَ هنا للَحْظِ قِلّة ولا كثرة؛ لأنه إخبار برؤيا، فوَجْهُه الإتيانُ من أبنية الجموع بما يُناسب المراد وهو قليلٌ؛ لأن ما دون العشرة قليل؛ فلحظ في آية البقرة وما بعدها مما يتضاعف إليه هذا العدد، وليس في آية يوسف ما يُلحظ، فافترق القَصْدَان وجاء كلّ على ما يجب.

﴿سارِب﴾ [الرعد: ١٠]: قد قدمنا أن ﴿سارِب﴾ عطف على مُستَخْف بالليل، لا على مستخف وحْدَه، وأما قوله: ﴿فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا﴾ [الكهف: ٦١] فمعناه أنّ الحوتَ سار في البحر؛ فقيل: إن الحوتَ كان ميتاً مملوحاً ثم صار حيّاً بإذن الله، ووقع في الماء، فسار فيه. وقال ابن عباس: بل صار موضعُ سلوكه ماءً جامداً. قال ابن عطية: وهؤلاء يتأوّلون سَرَباً بمعنى جَولاناً، من قولهم مَحَل سارب؛ أي مهمل يُرْعَى فيه حيث شاء. وقالت فرقة: اتخذ سَرَباً في التراب من المِكْتَل إلى البحر، وصادفَ في طريقه بَحْراً فثقبه. وظاهر الأمر أنّ السرَب إنما كان في الماء.

ومن غريب ما رُوِي في البخاري في قصص هذه الآيـات أنّ الحوت إنما حيي لأنه مسَّه عَين هناك تُدْعى عين الحياة ما مسَّتْ قطّ شيئاً إلا حيي.

ومن غريبه أيضاً أن بعضَ المفسرين ذكر أنّ موضع سلوك الحوت عاد حجراً طريقاً، وأن موسى مشى عليه متبعاً للحوت حتى أَفْضى به ذلك الطريقُ إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخضر. وظاهرُ الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر في ضَفة البحر يدلُّ عليه قوله: ﴿فارْتَدّا عَلَى آثارِهما قَصَصاً﴾ [الكهف: ٦٤]. وإنما ذَكر بعده: ﴿واتَّخذ سبيله في البحر عَجَبا﴾ [الكهف: ٦٣] - بالواو: لأنه يحتمل أن يكون من كلام يوشَع لموسى، أي اتخذ الحوتُ سبيله عجباً للناس. ويحتمل أن يكون قوله تمام الخبر، ثم استأنف التعجب؛ فقال من قبل نفسه: عجباً لهذا الأمر. وموضع العجب أن يكون حوتٌ قد مات وأُكل شقّه الأيسر ثم حيي بعد ذلك.

قال أبو شجاع في كتاب الطبري: رأيته فإذا هو شقه حُوت وعين واحدة وشق آخر ليس فيه شيء. قال ابن عطية: وأنا رأيتُه والشق الذي ليس فيه شيء قشر له قشرة رقيقة تشفُّ تحتها شوكة، وشقه الآخر. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿واتخذَ سَبِيلَه...﴾ [الكهف: ٦٣] الآية إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يُخبر عن موسى أنه اتخذَ سبيلَ الحوتِ من البحر عجباً، أي تعجَّب منه؛ وإما أن يُخبر عن الحوت أنه اتخذَ سبيلَه عجباً للناس.

وقرىء: واتخاذ سبيله؛ فهذا مصدرٌ معطوف على الضمير في ﴿أن أذْكُرَه﴾ [الكهف: ٦٣].

﴿سَرَابِيلُهم مِنْ قَطِران﴾ [إبراهيم: ٥٠] بفتح القاف وكسر الطاء، وبفتحها وبسكون الطاء؛ وإنما جُعل قُمص أهلِ النار من القَطران، وهو الذي تُهنأ به الإبل، لأن للنار اشتعالاً شديداً.

فإن قلت: ما فائدة الإتيان بِمنْ، وقد كان يستغنى عنها؟

فالجواب أن فائدة الإتيان بها نَفْيُ توهُّم مجاز التشبيه، نحو زيد أسد، وكقوله عليه السلام في صحيح مسلم: إنّ أحدَكم لا يزال راكباً ما انتعل. ففرْق بين خاتم فضة ومِنْ فضة؛ فإن الأول يحتمل أنه تشبيه محذوف الأداة، والثاني نصٌّ لا يتطرق إليه احتمالٌ البتة.

وقد يقال: إن الإتيانَ بها هو الأصل؛ لأن الإضافةَ في مثله على معنى مِنْ، نحو ثوب خزّ، وإنما يُستغنى بذكرها مع الإضافة، ولما تعذرَت الإضافةُ هنا بإضافة السرابيل إلى ضمير المحدّث عنهم تعين الإتيانُ بها رجوعاً للأصل، لتدلَّ على التبعيض المقصود مِن هذا التركيب. وفائدةُ قصْدِه هنا الإعلام بأن هناك قَطراناً غَيْرَ ما جُعل من السرابيل، ليصبّ عليه، فيزداد اشتعالُ النار عليهم بذلك، أو تُجدد منه السرابيل إن ذهبت الأولى بذهاب الجلودِ التي طُليت بما شبّه منه بالسرابيل: كلما نَضِجَتْ جلودهم بدّلْناهم جلُوداً غيرها ، أو يُسقونه فتحترق أفئدتهم كلما أَحرقَت جلودَهم نارُ الله الموقدة التي تطَّلِعُ على الأفئدة، أو لغير ذلك، ولو لم تذكر ﴿مِنْ﴾ لما عُلم أنَّ هناك منه غير ما جعلت السرابيل إلا بدليل آخر.

ونَظِيرُ ما ذكرناه من فائدة قصد التبعيض هنا قوله ﷺ في حكاية عن قول إبراهيم: ﴿فاجْعَلْ أفئدةً من الناس تَهْوِي إليهم وارْزُقْهم من الثمرات﴾ [إبراهيم: ٣٧] ولا يتأتى السربال حقيقة من القَطران إلا بأَنْ تبدّل صفته من المائعية إلى التجمد، وحينئذ يكون إخباراً، بخلاف الْمَعْهود منه. ويشبه على هذا

الْجَعْل أن يكون تنكيره للنوعية؛ أي نوع من القطران غير متعارف؛ فظهر من هذا أن احتمالَ التشبيه مع ذِكْر « من » قائم كما هو مع حذفها.

ويحتمل أنه قصد التشبيه بالقطران لشدةِ سوادها واشتعال النار فيها ونَتنها بحيث يقال إنها من القطران، وربما يكون من تلك السرابيل المسوح التي تُقْبض فيها أرواحُ الكفار على ما ورد مراداً بها الحقيقة في قراءة تنوين قَطرانٍ، ووصف بأنه أقرب؛ ويدل على أن التصريح بمن لا يُنافي التشبيه الإتيان بها مع صريحه؛ نحو قوله ﷺ: كأنه من رجال شنوءة، وكأنه من رجال الزط.

﴿سبْعاً من الْمَثَاني والْقُرْآنَ العظيم﴾ [الحجر: ٨٧]: قال بعضُ الْعَدديين: إنما خصص لَفْظ السبع هنا لأنها أوّل العدد الكامل الزائد على العدد التام الأجزاء؛ لأن الستة عدد تام الأجزاء، وهذا العدد له نسبة في المخلوقات الجملة؛ كعدد السموات والأرض والأيام والأعضاء، وأبواب جهنم. وغير ذلك مما يطول ذكرها. وذكر الله لهذه السورة أسماء كثيرة، وفيها سبع آيات، وهي خالية من أحرف العذاب: الثاء: ﴿لا تدعوا اليوم ثُبُوراً واحداً﴾ [الفرقان: ١٤]. والخاء: ﴿ألاَّ تخافوا ولا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠]. والشين: ﴿ولا تَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]. والجيم: « لهم نارُ جَهنم » - يعني الكفار. والزاي: ﴿إن شَجَرَةَ الزَّقُّوم﴾ [الدخان: ٤٣]. والفاء: ﴿يومئذٍ يتفرَّقون﴾ [الروم: ١٤]. والظاء: ﴿أو كظُلُمَاتٍ﴾ [النور: ٤٠]. فسبحان من خصَّ هذه الأمة بمحامدَ وخصائص يجبُ عليهم شكْرُها إن عقلوا، ولو لم يكن لهم افتتاح هذا الكتاب المنزَّل عليهم بالحمد تعليماً لهم وإرشاداً لحمده. وكرَّر عليهم ذكر ذلك في كتابه: كقوله لنبيه: ﴿قل الحمد لله الذي لم يتخذ وَلَداً﴾ [الإسراء: ١١١]. ﴿قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

فإن قلت: لم أمر بالْحَمْد لله على عدم اتخاذِ الوَلد؟

والجواب أنه لو كان له ولد فلا بد من عبادته، وعبادة إلهين يشقّ علينا؛ ولو كان له ولد لأعطاه أفضل الأشياء، فانفرد بالملك كلّه، ولو كان له ولد لكان

له إلى النساء حاجة، والمحتاجُ لا يستحق الربوبية: ﴿ما كان للهِ أنْ يتَّخِذَ مِنْ ولَدٍ سبحانه﴾ [مريم: ٣٥].

فإن قلت: لم أمر عباده بالحمد قَبْلَ سائر الطاعات؟

والجواب لأن أول كل شيء منه نعمة؛ وهو الْخَلْق السويّ، والمعرفة، والإسلام، والهداية؛ فأمرنا بالحمد ليكونَ جزاؤه فقد الإنسية فيشق علينا أداؤه، وإذا أردت أن تعرف قيمةَ الحمد فتأمَّل إلى أهل الجنة حيث حمدوه إذا فرغوا من الحساب: ﴿وقضِي بينهم بالحقِّ وقِيل الحمدُ لله﴾ [الزمر: ٧٥]، وإذا عَبَرُوا على الصراط قالوا: ﴿الحمد لله الذي أذهَب عنّا الحزَن﴾ [فاطر: ٣٤]، وإذا بلغوا بابَ الجنة قالوا: ﴿الحمد لله الذي صدَقَنَا وعْدَه﴾ [الزمر: ٧٤]، فإذا نزلوا منازلهم قالوا: الحمد لله ﴿الذي أحلَّنا دارَ الْمُقَامة من فَضْله﴾ [فاطر: ٣٥]. فإذا فرغوا من الطعام قالوا: ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾ [الفاتحة: ٢]. قال تعالى: ﴿وآخِرُ دَعْواهم أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾ [يونس: ١٠].

فانظر كيف لم يغفلوا عن الحمد في كل الأحيان مع أنَّ الله ختم لهم بالحُسْنى، فكيف تَغْفُل يا محمديّ عَمَّن ناصيَتُك بيده، وأعطاكَ سُورة لا بدّ لك من ذكرها في صلاتك، كلُّ ذلك لمحبته فيك، ألاَ ترى أنه قسمها بينك وبينه، وجعل جوارِحَك سبعاً وأبواب جهنم سبعاً، فإذا قرأتها أعتق اللهُ من النار سبعاً بسبع، وجمع لكَ ذِكر عشر نفرٍ من الأنبياء قبل نبيك: نوح، قال: ﴿إن أجْرِيَ إلا على ربّ العالمين﴾ [الشعراء: ١٤٥]. وهود: ﴿إن أجريَ الا على الله﴾ [سبأ: ٤٧]. وموسى: ﴿إني رسولُ ربّ العالمين﴾ [الزخرف: ٤٦]. وإبراهيم: ﴿أسلمتُ لربّ العالمين﴾ [البقرة: ١٣١]. ونبيك: ﴿أُمِرْنا لنُسْلِم لربّ العالمين﴾ [الأنعام: ٧١]. وهارون: ﴿إنّ ربكم الرحمن﴾ [طه: ٩٠]. وإبراهيم: ﴿ومَنْ عصاني فإنكَ غفورٌ رحيم﴾ [إبراهيم: ٣٦]. ومحمد: ﴿لكم دينكم وليَ دِين﴾ [الكافرون: ٦]. وأولاد يعقوب لما سألهم قالوا: ﴿نعبد

إلهكَ وإله آبائك﴾ [البقرة: ١٣٣]. ومحمد: ﴿رَبُّنا الرحمنُ الْمُسْتَعانُ على ما تَصِفُون﴾ [الشعراء: ٧٨]. وموسى: ﴿إنَّ معي رَبِّي سَيَهْدِين﴾ [الشعراء: ٦٢]. وسليمان أمره الله بقوله: ﴿أنْ أَشْكُرَ نعمتَكَ التي أنعمْتَ عليّ﴾ [النمل: ١١٩]. وموسى: ﴿ربِّ بما أنعمتَ عليّ﴾ [القصص: ١٧].

والمغضوب عليهم ذكره في الذين كفروا من بني إسرائيل في قوله إذ غضب الله عليهم: ﴿وباءُوا بغضَبٍ من الله﴾ [البقرة: ٦١].

ولا الضالين ذكره في قصة داود عليه السلام تحذيراً له من الضلال وتطوّلاً عليه كما تطوَّل علينا قوله: ﴿ولا تَتَّبِع الْهَوى فيُضِلّك عن سبيلِ الله﴾ [ص: ٢٦]. وذكر الذين قتلوا أولادهم سفَهاً بغير علم وحرَّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ﴿قد ضَلُّوا﴾ [الأنعام: ١٤٠]. وذكره عن كفرة بني إسرائيل: ﴿وضَلُّوا عن سَوَاءِ السبيل﴾ [المائدة: ٧٧].

فانظر كيف أمرك بالدعاء بها في كلّ صلاةٍ، واختصر لك فيها التوراةَ والإنجيل، والزَّبور، والفرقان، وصحفَ إدريس وإبراهيم وموسى، فلهذا مَنَّ الله بذكرها على نبيه بقوله: ﴿ولقد آتيناكَ سَبْعاً من المثاني﴾ [الحجر: ٨٧].

فإن قلت: إيتاء النعم والسكوت عنها وتَنَاسيها هو أكمل من إيتائها والمنَّة بها، كما قال القائل:

وإنَّ امْـرَأً أَسْـدَى إليَّ بنعمـــة ... وذَكَّـــر فيهـــا مـــرةً لبخيـــل

والجواب أن التذكير بالنعمة الماضية إنْ كان إشعاراً بورود نعمةٍ أخرى في المستقبل فلا شيء فيه؛ وإنما يكون امتناناً إذا لم يشعر بورود نعمةٍ أُخرى في المستقبل، وعليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوَى. ووجدك ضَالاً فهدَى﴾ [الضحى: ٦، ٧]. وأيضاً ذكَّر بها ليرتّبَ عليها أمراً تكليفياً فيكون أدخل في مقام الامتثال.

فإن قلت: الجملة الثانية كأنها مبيِّنَةٌ عن الأولى. فهلاّ عُطفت بالفاء، فكان يقال: « فلا تمدنَّ عينيك ».

فالجواب أنه لما كانت السببية ظاهرة أغْنَتْ عن الإتيان بالفاء.

فإن قلت: ما سرُّ تسمية الفاتحة بالسبع المثاني، والقرآن العظيم، والفاتحة، وأم الكتاب، وأم القرآن، والوافية، والكافية، والكنْز، والأَساس، وسورة الحمد، وسورة الشكر، والواقية، والشافية، والشفاء، وسورة الدعاء، وتعليم المسألة، وغير ذلك من أسمائها؟

فالجواب أن ذكر فضائلها وأسمائها يحتاجُ لمجلّد مستقل كما قال الإمام عليّ رضي الله عنه: لو شئت أن أَضع على الفاتحة وقْر سبعين بعيراً لفعلت؛ لكني أُشير لك إلى ما فتح الله به من كتب ساداتنا وأئمتنا رضي الله عنهم:

فسُمّيت بالمثاني لأنها تثنّى في كل ركعة أو في كل صلاة، أو بسورة أخرى، أو لأنها نزلت مرتين، أو لأنها على قسمين: ثَنَاء، ودُعَاء، أو لأنها إذا قرأ العبد منها آيةً ثناه الله بالإخبار عن فعله، كما في الحديث الصحيح: « إذا قال العبدُ: الحمد لله رب العالمين قال الله: حَمَدني عَبْدي »... إلى آخر الحديث؛ أو لأنها جُمع فيها فصاحة المباني وبلاغة المعاني، أو لأنها من الثُّنْيَا لأن اللهَ استثناها لهذه الأمة.

وإنما سُميت بالقرآن العظيم؛ لأشتمالها على المعاني التي في أُمّ القرآن.

وفاتحة الكتاب، لأنها يُفتتح بها في المصاحف، وفي التعليم، وفي القراءة، وفي الصلاة، أو لأنها أول سورة نزلت، أو لأنها أول سورة كُتبت في اللوح المحفوظ. أو لأنها فاتحة كل كلام.

وسُميت بأم الكتاب وأُم القرآن لحديث أبي هريرة: إذا قرأتم الحمدَ فاقرءُوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن، وأُم الكتاب.

والسبع الْمَثَاني ـ قال الماوردي: سُميت بذلك لتقدُّمها وتأخر ما سواها تَبَعاً

لها؛ لأنها أَمّتْهُ، أي تقدمَتْه، ولهذا يقال لراية الحرب أُمّ، لتقدمها واتّباع الجيش لها. ويقال لما مضي من سِنِي الإنسان أمّ لتقدمها، ولمكة أُمّ القرى لتقدمها على سائر القرى. وقيل أم الشيء أَصْلُه، وهي أصل القرآن لانطوائها على جميع أغراض القرآن وما فيه من العلوم والحكم وقيل: إنها أفضل السور كما يقال لرئيس القوم أم القوم. وقيل لأن حرمتها كحرمة القرآن كله. وقيل لأن مَفْزَع أهل الإيمان إليها. وقيل: لأنها مُحْكمة، لأن المحكمَات أم القرآن.

وسميت الوافية لأنها وافية بما في القرآن من المعاني، أو لأنها لا تقبل التنصيف، فإن كلَّ سورة من القرآن لو قرىء نصفُها في كل ركعة والنصف الثاني في أُخرى لجاز بخلافها. وقال المرسي: لأنها جمعت ما لله والعبد.

وسميت بالكنز لما رَوى البيهقي في الشعب من حديث أنس مرفوعاً: إن الله أعطاني فيما مَنّ به عليّ أني أعطيت فاتحة الكتاب. وهي من كنوز العرش. وفي رواية عن أبي أُمامة، قال: أربع آيات نزلن من كَنْز العرش لم ينزل منه شيء غيرهنّ: أم الكتاب، وآية الكرسي، وخاتمة سورة البقرة، والكوثر، يعني خاصة به ﷺ.

وسميت الكافية، لأنها تكفي في الصلاة عن غيرها، ولا يكفي غيرها عنها.

والأساس، لأنها أصل القرآن، وأول سورة فيه.

وسورة الحمد، وسورة الشكر، وسورة الحمد الأولى. وسورة الحمد القصوى، والواقية، والشافية، والشفاء، والصلاة؛ لحديث: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ أي السورة. وسورة الدعاء؛ لاشتمالها عليه في قوله: ﴿اهدنا الصراط﴾ [الفاتحة: ٦].

وتعليم المسألة، لأن فيها آداب السؤال، ولها أسماء غير هذه؛ وقد ذكر اللهُ الحمد من سبعة نَفَر، فوجد كلٌّ واحد منهم كرامةً: لآدم حين عطس؛ قال: الحمد لله، فوجد الرحمةَ من الله بقوله: يرحمك الله. ونوح قال: ﴿الحمد لله الذي نَجّانَا من القوم الظالمين﴾ [المؤمنون: ٢٨]، فوجد السلامة بقوله: ﴿يا

نوح اهْبطْ بسلام مِنّا وبركات عليك﴾ [هود : ٤٨]. والخليل قال: ﴿الحمدُ لله الذي وهب لي على الكِبَر إسماعيل وإسحاق﴾ [إبراهيم: ٣٩]، فوجد الفداء : ﴿وفدَيْنَاه بذبـح عظيم﴾ [الصـافـات : ١٠٧]. وداود وسليمان قـالا : ﴿الحمد لله الذي فَضَّلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ [النمل: ١٥]، فوجدا النبوءة والْمُلْك بقوله تعالى: ﴿وكلاًّ آتَيْنَا حكماً وعِلماً﴾ [الأنبياء : ٧٩]. ومحمد ﷺ أمره الله تعالى بالحمد ، فوجد الرِّفْعة والشرف بقوله تعالى: ﴿ألَمْ نشرح لكَ صَدْرَك﴾ [الشرح : ١].

وأنت يا محمدي إذا أكثرتَ من هذه السورة وطلبتَ منه سبحانه شيئاً أَتراك لا تَنَالُه وقد أعطاكَ اللهُ ما أعطى الأنبياء؟ فاحْمَدِ اللهَ الذي هداكَ لها، وخصَّكَ بهذا النبيِّ الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى آله أفضل صلاة وأزكى تسليم.

فإن قلت: هل للسور غيرها من القرآن هذه التسمية أَوْلَهَا اسم واحد يخصُّها؟

فالجواب: قد قدمنا في حرف اللام تسمية سُوَر باسم واحد، ونذكر لكَ الآن تسمية بعض السور بأسماء تتمةً للفائدة:

فالبقرة تُسمَّى بفسطاط القرآن لما جُمع فيها من الأحكام التي تُذْكَر في غيرها. وسنام القرآن، لأنها أعلاه.

وآل عمران: اسمها في التوراة طيبة، وفي صحيح مسلم تسميتها والبقرة المزهارين.

والمائدة: تسمى أيضاً العُقـود، والْمُنْقـذة؛ قـال ابـن الغـرس: لأنها تنقـذ صاحبها من ملائكة العذاب.

والأنفال: تسمى سورة بَدْر.

وبراءة: تسمى التَّوْبة؛ لقوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبيّ﴾ [التوبة: ١١٧]. والفاضحة لأن فيها: ومنهم، ومنهم، قال ابن عباس: حتى ظننا أنه لم

يَبْقَ منا أحد إلا ذُكر فيها. وسورة العذاب؛ قال حذيفة: تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب. وقال عمر: هي إلى العذاب أقرب، ما كادت تقلع عن الناس حتى ما كادت تُبْقِي منهم أحداً. والمشقْشِقة لقول ابن عمر: ما كنا ندعوها إلا المشقشقة؛ أي البراءة من النفاق. والنقرة لأنها نقرت عما في قلوب المشركين؛ قاله ابن عمر. والبَحوث، بفتح الباء، لما أخرج الحاكم عن المقداد؛ قيل له: لو قعدت العام عن الغَزْو! قال: أبَتْ علينا البَحوث، يعني براءة... الحديث. والحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين؛ ذكره ابن الغرس. والمثيرة لما أخرج ابن أبي حاتم عن عبادة، قال: كانت هذه السورة تسمى الفاضحة، فضحت المنافقين، وكان يقال لها المثيرة؛ أنبأتْ بمثالبهم وعَوْراتهم. وحكى ابن الغرس من أسمائها المبعثرة، وأظنه تصحيف المنفِّرة؛ فإن صحَّ كملت الأسماء عشرة، ثم رأيته كذلك، أعني المبعثِرة بخط السخاوي في جمال القراء؛ وقال: لأنها بعثرت عن أَسْرار المنافقين. وذكر أيضاً فيه من أسمائها المخزية، والْمُنَكِّلَة، والمشددة، والمدمدمة.

النحل: قال قتادة: تسمى سورة النعم، لأَنَّ الله عدّد فيها من النعم على عباده.

الإسراء: تسمى سورة سبحان، وسورة بني إسرائيل.

الكهف: سماها ابن مَرْدَويه في الحديث سورة أصحاب الكهف. ورَوَى البيهقي من حديث ابن عباس - مرفوعاً - أنها تُدْعى في التوراة الحائلة؛ تحول بين النار وبين قارئها.

طه: تسمى سورة الكليم؛ ذكره السخاوي في جمال القرّاء.

الشعراء: تسمى سورة الجامعة. ذكره الإمام مالك.

النمل: تسمى سورة سليمان.

السجدة: تسمى سورة المضاجع؛ لقوله تعالى: ﴿تَتجافَى جُنُوبُهم عن المضاجع﴾ [السجدة: ١٦].

فاطر: تسمى سورة الملائكة.

يس: سماها رسولُ الله ﷺ قلْبَ القرآن. وفي حديث أبي بكر ـ مرفوعاً: سورة يس تُدْعى في التوراة المعمَّة؛ تعمُّ صاحبها بخير الدنيا والآخرة، وتُدْعَى المدافعة والقاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كلَّ حاجة.

الزمر: تسمى الغُرف.

غافر: تسمى سورة الطّوْل والمؤمن؛ لقوله فيها: ﴿وقال رجل مُؤْمِن﴾ [غافر: ٢٨].

فُصلت: تسمى السجدة، وسورة المصابيح.

الجاثية: تسمى الشريعة، وسورة الدهر؛ حكاه الكرماني في العجائب.

سورة محمد ﷺ تسمّى القتال.

ق: تسمى الباسقات. اقتربَتْ تسمى القمر؛ وأخرج البيهقي عن ابن عباس أَنها تُدْعى في التوراة المبيّضة؛ تبيِّضُ وَجْهَ صاحبها يوم تسوَدُّ الوجوه.

الرحمن: سميت في حديثٍ عروس القرآن، أخرجه البيهقي عن عليّ مرفوعاً.

المجادلة: سُميت في مصحف أُبَيّ الظهار.

الحشر: سمّاها ابْنُ عباس سورة بني النَّضِير؛ قال ابن حجر: كأنه كرِه تسميتها بالحشر، لئلا يظنّ أن المراد يوم القيامة؛ وإنما المرادُ به هنا إخراجُ بني النَّضِير.

الممتحنة؛ قال ابن حَجر: المشهور في هذه التسمية أنها بفتح الحاء، وقد تكسر؛ فعلَى الأولى هي صفة المرأةِ التي نزلت السورةُ بسببها، وعلى الثاني هي صفة السورة كما قيل لبراءة الفاضحة. وفي جمال القُرّاء: تسمَّى أيضاً سورة الامتحان، وسورة المودّة.

الصف: تسمى أيضاً سورة الْحَوَارِيين. الطلاق تسمى سورة النساء القُصْرى؛ لأن الطول والقصر أمر نسبي. وقد أخرج البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال

طول الطوليَيْنِ ، وأراد بذلك سورة الأعراف. والتحريم يقال لها المتحرّم ، وسورة لم تحرّم. سورة الملك تسمى المانعة ، لأنها تمنع صاحبها من عذاب القَبْر ، وأخرج الترمذي من حديث ابن عباس مرفوعاً هي المانعة هي المنجية ، تُنْجيه من عذاب القبر . وقال ابن مسعود : كنا نسميها في عَهْد رسول الله ﷺ المانعة. وفي جمال القــراء تسمى أيضاً الواقية والمنّاعة.

سأَلَ: تسمى المعارج ، والواقع . عَمّ: يقال لها النّبأ ، والتساؤل ، والمعصرات.

لم يكن: تسمى سورة أهل الكتب ، كذلك سُميت في مصحف أُبيّ. وسورة البيّنة ، وسورة القيامة ، وسورة البرية ، وسورة الانفكاك. ذكر ذلك في جمال القراء.

أرأيــت: تسمــى ســورة الدّيــن ، وســورة الماعــون. الكــافــرون: تسمــى المشقشقة ، وتسمى أيضاً سورة العبادة ، وذكره في جمال القراء. النصر: تسمى سورة التوديع ، لما فيهــا مــن الإيماء إلى وفــاتــه ﷺ . تَبــت: ســورة الْمَسَــد . والإخلاص تسمى سورة الأساس ؛ لاشتمالها على توحيد الله ، وهو أساسُ الدين. قال: والفلق والناس يقال لهما المعوِّذتان بكسر الواو ، والمتشقشقتان ، من قــولهم: خطيب مشقشق. فهذا ما وقفتُ عليه.

وعلى القول بأن أسماء السور المفتتح بالحروف المقطعة هي أسْماء لها ، لكن منها ما هو أحدي ، كص ، ون ، وق. وثُنائي ، كطه ، ويس ، والحواميم ، وثلاثي مثل ألم ، طسم. ورباعي: المر ، المص. وخماسي: كهيعص ، وحم عسق. وقد أكثر الناس الكلام على هذه الحروف المقطعة. والذي عندي أن الله وَضعها لإطفاء تشغيب الكفّار حيث قالوا : ﴿لا تَسْمَعُوا لهذا القُرْآن﴾ [فصلت : ٢٦] ، فأتى الله بها ليسمعوها لغَرابتها ، ثم يبلغُ الرسولُ رسالته. كأنَّ الله يقول لهم: إن لم تصدقوه فأْتوا بسورة من مثله في مثل هذه الحروف وأنتم لا تفهمون معناها ، وهذه دلالةٌ لنبوءة محمد ﷺ ، لأن الله ذكر في الكتب الماضية أنه يخرج في آخر الزمان رسولٌ ، وعلامتُه أن تكونَ بعض رؤوس سور كتابه الحروف المقطعة ، وهي أسماءُ اللهِ فرّقها ووضعها على بعض السور لشرفها عنده.

﴿سائغاً للشَّاربين﴾ [النحل: ٦٦]: فقد قدمنا أنه صفة للبن - سهلاً للشرب، حتى إنه لم يغَصّ به أحد. وقد جعل فيه غُنْية عن الطعام والشراب، ولهذا قال ﷺ حين شربه: اللهم زِدْنا منه سَكَراً، يعني الخمر، ونزل ذلك قبل تحريمها. فهي منسوخة بالتحريم. وقيل: إن هذا على وَجْه المنفعة التي في الخمر، ولا تعرُّضَ فيه لتحليل ولا تحريم؛ فلا نسخ. وقيل السكر المائع من هاتين الشجرتين كالخلّ والرب، والرزق الحسن: العنب والتمر والزبيب.

﴿سَرَابِيلَ تَقِيكم الحرَّ﴾ [النحل: ٨١]: قد قدمنا أن السرابيل القمص. وذَكَر وقايةَ الحر ولم يذكر وقايةَ البرد؛ لأنه أهم عندهم لحرارة بلادهم. والخطاب معهم.

﴿سبباً﴾ [الكهف: ٨٥]؛ هو الطريق الموصِّل إلى المقصود، من علم أو قدرة أو غير ذلك. وأَصْل السبب الْحَبْل؛ ومنه: ﴿فليَمْدُد بسببٍ إلى السماء﴾ [الحج: ١٥]. ﴿فأَتْبَعَ سَبباً﴾ [الكهف: ٨٥]، فسمي الطريق سبباً، لأنه يتوصَّل بسلوكه إلى المقصود. وأما ﴿أسباب السموات﴾ [غافر: ٣٧] فمعناه أبوابها.

﴿سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]؛ أي نظيراً، وهذا مدح ليحيي عليه السلام، وسمّاه اللهُ قَبْلَ وجوده؛ وبهذه الآية احتجَّ أَهلُ السنّة على المعتزلة، لأنه لو كان الاسم غير المسمَّى لكان المخاطب غير يحيى؛ وقد قال له: ﴿يا يحيى خُذِ الكتابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]. وقوله: ﴿سبِّح اسْمَ ربِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] - لو كان الاسم غير المسمى لكان قد أُمر بأن يسبّح الاسم دونه، وهذا لا يقوله محصل. فدلّ ذلك على أن الاسمَ هو المسمّى.

﴿ساوَى بين الصَّدَفَيْن﴾ [الكهف، ٩٦]: من التسوية بين الأشياء وجعلها سوية، بمعنى أتقن وأحسن، ومنه: ﴿فسوّاكَ فعدَلَك﴾ [الانفطار: ٧].

﴿سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]: قال مجاهد: هو بالسريانية: نهراً. وقال سعيد بن جُبير: بالنبطية. وحكى شَيْذلة أنه باليونانية، وعلى كلِّ قولٍ ما كان قريباً من

جِذعِ النخلة، فسَّرَه عليه الصلاة والسلام بذلك. وقيل يعني عيسى، فإن السري الرجل الكريم.

﴿سوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]: أي قويما.

﴿سلامٌ عليكَ﴾ [مريم: ٤٧]: إنما سلم إبراهيم سلام مُوَادعة ومفارقة لا تحيّة؛ لأن ابتداء الكافر بالسلام لا يجوزُ، فإذا سلّم عليه الكافر يقول له: وعليكم، أو عليك السلام، بكسر السين، وهي الحجارة. وفي الحديث: إنَّ عائشة قالت ليهودٍ سلموا: وعليكم السام واللّعْنة. فقال لها عليه الصلاة والسلام: مَهْلاً يا عائشة، فإن اللهَ رفيق يحبُّ الرفْقَ. فقالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قالوا: السام عليكم. فقال: قد قلت لهم وعليكم.

﴿سأَسْتَغْفِرُ لكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧]: لما طلب آزَرُ من إبراهيم الاستغفار وعده أنْ يدعُوَ له. قال ابن عطية: معناه سأدعو اللهَ أَنْ يهديك، فيغفر لكَ بإيمانك. وذلك لأن الاستغفارَ للكافر لا يجوزُ. وقيل: وعَدَه أن يستغفر له مع كفره، ولعله كان لم يعلم أَنَّ اللهَ لا يغفر للكافر حتى أعلمه اللهُ بذلك. ويقَوِّي هذا قوله: ﴿واغْفرْ لأَبي إنه كان من الضالّين﴾ [الشعراء: ٨٦]. ومثلُ هذا قولُ النبي ﷺ لأبي طالب: «لأستغفِرَنَّ لك ما لم أُنْـهَ عنـك». وروي أنـه لما نزلت: ﴿إن تستَغْفر لهم سبعين مرة فلن يغفرَ اللهُ لهم﴾ [التوبة: ٨٠] - قال ﷺ: «لأَزيدنَّ على السبعين»، فلما فعل عبدالله بن أبي وأصحابـه مـا فعلـوا، وقولهم: ﴿لئن رجَعْنَا إلى المدينةِ ليُخرِجَنَّ الأَعزُّ منها الأذَلّ﴾ [المنافقون: ٨]، وتوليتهم عن استغفار رسول الله ﷺ لهم شدَّدَ اللهُ عليهم بقوله: ﴿سواء عليهم أَسْتَغْفَرْتَ لهم أم لم تستَغْفر لهم لن يغفرَ اللهُ لهم إن الله لا يهدي...﴾ [المنافقون: ٦] الآية. وفي هذا نظر، لأن هذه السورة نزلت في غزوة بني الْمُصْطلق قَبْل الآيةِ الأخرى بمدة. وروي أنه إذا كان يوم القيامة يجعلُ اللهُ آزَر تحت قدم إبراهيم على صورة كبش ملطّخ بالدم ويُؤْمَرُ إبراهيم بذبحه، لأنه لما حملت أُمّه بإبراهيم اشتهى أن يكونَ غلاماً فيذبحه تحت رِجل النمرود رضاءً له

فجازاه اللهُ بذلك، وحوَّله كبشاً، لأنه دعا أَلَّا يخزيه في أبيه، كذلك أهلُ مصر تمنّى كلُّ واحد منهم أن يكون يوسف عبداً له، فجعلهم الله عبيده.

وأنت يا عبدالله إذا كانت نِيّتُك ومُرادك غَيْرَ عصيان الله يعاملك على نيتك ومرادك فيجعل سيئاتك على الكفار، ويجعلهم فداءً لك عقوبةً لهم، وعلى إبليس الذي كان سبباً في إغوائك؛ أَلا تراه سبحانه يقول لك: إذا قلت أذنَبْتُ عَفَوْتُ وَصَفَحْتُ، وإذا قلت اللهم اغْفِرْ لِي يقول لك: قد غَفَرْتُ لكَ وأنا الغفور الرحيم.

﴿سنكتب ما يقول﴾ [مريم: ٧٩]: من قوله: لئن بعثت كما يزعم محمد ليكَونَنَّ لي هناك مال وولَد، وإنما جعله مستقبلاً؛ لأنه إنما يظهر الجزاء والعقاب في المستقبل.

﴿سيكفرونَ بعبَادَتهم ويكونُونَ عليهم ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]: الضمير للكفار، وفي عبادتهم للمعبودين، وهذا كقولهم: ﴿ما كنتم إياه تعبدون﴾.

﴿سَيَجْعَلُ لهم الرحمن وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، هو المحبة والقبول الذي يجعله الله لمن أَطاعه. وقد صحَّ في الحديث أن الله ينادي: يا أهل السماء، إني أحبّ فلاناً فأحِبّوه، فيحبه أهلُ السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وقال بعضهم: يكتبُ جبريل له صحبةً فيضعها في الماء المشروب منه. وقيل: إنها نزلت في عليّ بن أبي طالب. والأولُ أَظهر لعمومه، والعيانُ يشهدُ بذلك، وهذه أولُ كرامة يُكرِمُ الله بها أولياءه.

﴿سنُعِيدُها سيرتَها الأولى﴾ [طه: ٢١]: يعني أن موسى لما أخذ العصا عادت كما كانت أَولَ مرة؛ وإنما أمره بالإلقاء أوّلاً ليستَأْنِس بها، وانتصب ﴿سيرتها﴾ على أنه ظرف أو مفعول بإسقاط حرف الجر.

﴿سلك لكُمْ فيها سُبُلاً﴾ [طه: ٥٣]، أي أنهج لكم في الأرض طرُقاً تمشون فيها. وأَما قوله تعالى آمراً للنحل: ﴿فاسْلكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾

[النحل: ٦٩] ـ فقد قدمنا أنّ الله أمرها بالرجوع. وقيل بالذهاب؛ قال أبو حيان: إنْ أُريد بالطريق الحسيّ فهو مفعول به، وإن أُريد المعنوي فهو ظرف.

﴿سَحيق﴾ [الحج: ٣١]: بعيد.

﴿سَخرْنَاهَا لكم﴾ [الحج: ٣٦]: أي كما أمرناكم بهذا كلِّه سخرناها لكم. وقال الزمخشري: التقدير مثل التسخير الذي علمتم سخَّرْنَاها لَكم.

﴿سَبْعَ طرائق﴾ [المؤمنون: ١٧]: سمٰوات، واحدتها طريقة، وسُمِّيت بذلك؛ لأنها بعضها فوق بعض، كمطارقة النعل. وقيل: يعني الأفلاك، لأنها طرق الكواكب.

﴿سامِراً﴾ [المؤمنون: ٦٧]: مشتق من السمر، وهو الجلوسُ بالليل للحديث، وكانت قريش تجتمع في الليل بالمسجد يتحدثون بسبِّ رسول الله ﷺ. والمعنى أنهم سامرون بذكره وسبِّه. وسامِراً مفرداً بمعنى الجمع، وهو منصوب على الحال.

﴿سرَاب﴾ [النور: ٣٩]: هو ما يرى في الفَلوات مِنْ ضوء الشمس في الـهَجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وَجْه الأرض. وشبَّه اللهُ به أعمال الكفار في الآخرة بأنها لا تنفعهم، بل يضمحلُّ ثوابها كما يضمحل السراب. والتمثيل الثاني في قوله: ﴿أو كظُلُمات﴾ [النور: ٤٠] يقتضي بطلانَ أعمالهم في الدنيا، وأنها في غاية الفساد والضلال، كالظلمات التي بعضها فوق بعض.

[سنَا بَرْقِه﴾ [النور: ٤٣]: السنا ـ بالقصر الضوء، وبالمد المجد والشرف.

﴿سبَأ﴾ [النمل: ٢٢، سبأ ١٥]: قبيلة من العرب، سُمِّيت باسْمِ أبيها الذي تناسلت منه. وقيل باسم أمها. وقيل باسم موضعها، والأول أشهر، لأنه ورد في الحديث.

﴿سَرْمَدا﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]: دائماً، وفيه تعديدُ النعم على عبيده، بحيث جعل لهم اختلاف الملَوَان، هذا لراحتهم، وهذا لعنائهم وشغلهم؛ وخِلْفَةً لـمَنْ أَراد أن يَذَّكَّرَ أو أرادَ شكوراً.

﴿سلَقُوكُم بألسنةٍ حِدَاد﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ أي إذا نصركم اللهُ أيها المؤمنون، فزال الخوفُ رجع المنافقون إلى إذَايَتكم بالسبِّ وتنقُّص الشريعة، وإذا جاء الخوفُ نظروا إليكم ولإخوانكم من شدة خوفهم، تَدُورُ أعينُهم كالذي يُغْشَى عليه من الموت، وهو عبارةٌ عن التكلم بكلام مستَكْرَه. ومعنى ﴿حداد﴾ فصحاء قادرين على رفع الصوت، لأن السلق والصّلق رفع الصوت.

﴿سابغات﴾ [سبأ: ١١]: كاملات، والضمير يعودُ على الدُّروع التي كان يعملها داود من الحديد، لأنه كان تَحْتَ يده كالعجين يصنَعُ به ما يشاء، وهو المرادُ بقوله: ﴿وقَدِّرْ في السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]؛ أي قدِّرْها بألاَّ تعمل الحلْقَة صغيرة فتضعف ولا كبيرة فيصاب لابِسها من خلالها. وقيل: لا تجعل المِسْراد رقيقاً ولا غليظاً. والسرد: الخرز أيضاً. ويقال للإشْفَى مِسْرد ومِسْرَاد.

﴿سيَهْدِين﴾ [الزخرف: ٢٧]: هذا من قول إبراهيم بعد خروجه من النار؛ وأراد أنه ذاهب إلى الله، مهاجر إلى أرض الشام. وقيل: إنه قال ذلك قبل أنْ يُطْرَح في النار، وأراد أنه ذاهب إلى ربّه بالموت؛ لأنه ظن أن النار تحرقه. وسيهدين على القول الأول يعني الهدي إلى صلاح الدِّين والدنيا. وعلى القول الثاني إلى الجنة. وقالت المتصوفة: معناه ذاهب إلى ربِّي بقلبي، أي مقبل على الله بكليته، تاركٌ لما سواه.

﴿ساحة البيت﴾ [الصافات: ١٧٧]: فناؤه. والعرب تستعمل هذه اللفظة فيما يرد على الإنسان من محذور.

﴿سوَاء﴾ الطريق [الزمر: ٢٩]: القصد الواضح والطريق اللائح.

﴿سَلَماً لِرَجل﴾ [الزمر: ٢٩]: أي خالص. وقرىء بألف. والمعنى واحد.

﴿سيَقُولُ لكَ المخلَّفُون من الأَعْرَاب...﴾ [الفتح: ١١] الآية: سماهم بالمخلفين لأنهم تخلّفوا عن غَزْوة الـحُدَيبية، والمراد بالأعراب أهل البوادِي، كـمُزَينة وجُهينة، ومَنْ كان حول المدينة، لأنهم ظنوا أنه لا يرجع ﷺ من

غَزْوَته تلك، ففضحهم اللهُ في هذه الآية، وأعلم رسولَه ﷺ بقولهم واغترارهم قبل رجوعهِ إليهم، فكان كما قال: ﴿شَغَلَتْنَا أموالنا وأهلونا...﴾ الآية.

فإن قلت: لمَ أبرز الضمير في هذه الآية وحذَفه فيما بعدها؟

فالجواب أن الـمُخْبَرَ عنهم من المخلَّفين طلبوا منه ﷺ الاستغفارَ لهم لتخلُّفهم عنه، وأفردوه بخطابهم، إذ ليس ذلك من مطلوبهم لغيره، فوردت العبارةُ عن ذلك بإفراد الخطاب، وأَعْلَم اللهُ نبيَّه ﷺ بنِفَاقهم وكَذِبهم في اعتذارهم بقوله: ﴿يقولون بألْسِنَتهم ما ليس في قلوبهم﴾ [الفتح: ١١].

وأما الآية الثانية فليس قولهم: ﴿ذَرُونا نَتَّبِعكم﴾ [الفتح: ١٥] خطاباً خاصًّا له ﷺ، بل له وللمؤمنين، والسياقُ يفصح بذلك، وما أمر به عليه السلام من مجاوبته في قوله لهم: ﴿لن تَتَّبعونا﴾ [الفتح: ١٥]، فلم يُرِد هنا إفراده عليه السلام بخطابهم له كما ورد في الأول، وجاء كلٌّ على ما يناسبه.

فإن قلت: إن خطابهم له خاصٌّ كالأول، ولكن خاطبوه مخاطبة التعظيم بقولهم: ﴿ذَرُونا نَتَّبعكم﴾.

قلت: وعلى فرض هذا فمراعاةُ الألفاظ في النظم أكِيدة جدًّا، وبها إحرازه، وعلى هذا لا يُلائم هنا الخطاب كيفما هو إلا بصورة ما للجميع. والله أعلم بالمراد.

﴿سَكْرَة الموت﴾ [ق: ١٩]: أي غصصه ومشقّاته. وقد قدمنا الحديثَ أنه أشد من سبعين ضربة بالسيف، ولما حضرته الوفاةُ جعل يدَه ﷺ في إناءِ ماءٍ ومسح بها وجهه وقال: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات، اللهم الرفيق الأعلى. ولما بلغ روحه سرته قال: يا جبريل، ما أَشدَّ مرارةَ الموت، فولّى جبريل وجهه؛ فقال: يا جبريل، أكرِهْتَ النظَرَ إلى وجهي؟ فقال: يا حبيبَ الله، ومَنْ يقدر أن ينظر إليك وأنتَ تُعالج الموت!

هذا نبيك المعصوم قاسى منه ما سمعت، ووعك وعك رجلين كما صحَّ،

فكيف بكَ أيها المغرور لا تبكي على نفسك، وتعالج هوَاك لعلّه يرحمك ويسمع أنينك!

﴿سائق وشَهيد﴾ [ق: ٢١]: السائق: ملك يسوقه، والشهيدُ يشهَدُ عليه، وهو الأظهر. وقيل صحائف الأعمال. وقيل: جَوارح الإنسان. لقوله تعالى: ﴿يوم تَشْهَدُ عليهم ألسنَتُهم...﴾ [النور: ٢٤] الآية.

﴿سال، وسأل﴾ [المعارج: ١]: بالهمز: طلب الشيء والاستفهام عنه، وسال بغير همز من المعنيين المذكورين، ومن السيل. ومنه سأل سائل. فمن قرأه بالهمز احتمل معنيين: أحدهما أن يكون بمعنى الدعاء، أي دعا داع بعذاب، وتكون الإشارةُ إلى قول الكفار: ﴿أَمْطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائْتِنَا بعَذابٍ أليم﴾ [الأنفال: ٣٢]، وكان الذي قالها النَّضْرُ بن الحارث. والآخر أن يكون بمعنى الاستخبار؛ أي سأل سائل عن عذابٍ واقع، والباء على هذا بمعنى عن، وتكون الإشارةُ إلى قولهم: ﴿متى هذا الوَعْدُ إن كنْتُم صادقين﴾ [يونس: ٤٨]، وشبه ذلك.

وأما مَنْ قرأ سال ـ بغير همز ـ فيحتمل وجهين: الأول أن يكون مخفَّفاً من المهموز، فيكون فيه المعنيان المذكوران. والثاني أن يكون مِن سال السيل إذا جرى، ويؤيِّد ذلك قراءةُ ابن عباس سال سيل، وتكون الباء على هذا كقولك: ذهبت بزيد. وإذا كان من السيل احتمل وجهين: أحدهما أن يكون شبّهَ في شدَّته وسُرْعَة وقوعه بالسيل. وثانيهما أن يَكون حقيقة. قال زيد بن ثابت: في جهنم واد يقال له سايل. فتلَخَّص من هذا أنه في القراءة بالهمز يحتمل وجهين، وفي القراءة بغير همز أربعة معان.

﴿سقْف مرفوع﴾ [الطور: ٥]: يعني السماء.

﴿ساقِطاً يقولوا سَحَابٌ مَرْكُوم﴾ [الطور: ٤٤]: كانوا قد طلبوا أن ينزِّلَ عليهم كسْفاً من السماء، فأخبر اللهُ أنهم لو رأوه ساقطاً عليهم لبلغ بهم الطُّغيان

والجهل والعناد أن يقولوا: ليس بكسف، وإنما هو سحاب مركوم، أي كثيف بعضه فوق بعض.

﴿سامِدُون﴾ [النجم: ٦١]: لاعبون ولاهُون. وقيل: غافلون. والسامد: الساكت والحَزين الخاشع قَلْبُه، فله على هذا خمسة معان.

﴿سائحات﴾ [التحريم: ٥]: من ساح في الأرض إذا ذهب فيها. وقيل معناه صائمات، وقد رُوِي عن النبي ﷺ. وقيل معناه مهاجرات. والسائحون من الأصناف الثمانية المذكورة في سورة براءة [التوبة: ١١٢] هم الذين اختاروا الحقَّ على كل شيء وثبتوا على ذلك، وتواصوا بالحق، وتواصَوْا بالصبر، وهؤلاء يقال لهم الأبدال وأرباب الكمال، وهم سبعة رجال قد تبدَّلَتْ عوالمهم وتخلَّصَتْ من الشوائب البشرية جواهِرُهم؛ فأخذوا بالسياحة في البُلْدان لطلب لقاء الرجال؛ إذ هي كبيعة الخير، وفي الباطن لنيل المقامات والأحوال الواردة من عين الجود بالجلال والكمال والجمال. وأما الساجدون فهم الذين أقعدت رسومهم، وفَنيت بالمجاهدة نفوسهم وجسومُهم؛ وهم أرباب الفناء المتجردون عن كل المناقد؛ تخلّصوا من رقِّ البشرية لتحقُّقهم أنه اللطيف الخبير السَّميع البصير، عاشوا عيشاً تاماً كاملاً، فإنَّ ترك التدبير لله عيش، كما أن التدبير نصفُ العيش، ويقال لهذا الوجه الأوتاد، وهم أربعة رجال، مقام كلّ واحد مقام ركن من الأركان: شرقاً، وغرباً، وجنوباً، وشمالاً، واحداً يتصرف عندهم لتجريدك عن الكون وثبوتك بالحق. ومنه قول الشيخ القطب ابن العريف: مَن شهد الخلق للفِعْل لهم فقد فاز، ومن شهدهم لا حياةَ لهم فقد جاز، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل، والكلامُ هنا طويل، وعلى هذه الآية الكريمةُ بنِي التصوف، وسبيلُ التعرف، وقد صنَّف فيها من ذاق أهلها وعرفهم تأليفاً عجيباً ورتّبهم ترتيباً غريباً لا ينبغي لنا أَنْ نحومَ حولَ حمَاه، ولا نتعرض لما قد تعاطاه، لأنا لسنا منهم فنستغفر اللهَ من الكلام معهم، وكان الأولى بنا اشتغالنا عن هذا بالانتباه مِنْ رَقْدةِ الغَفْلة، وتخليصنا من وَرْطة الفترة، وإيقاظنا من السَّكْرَة،

لكن نسأله سبحانه أن يهَبَ لنا نُور التنبيه من ظلمة هذه النفس، فيظهر لنا بمجيئها وقبيح ذَنْبها، فنقلع في الحال، ونعزم على ألاَّ نعود في الاستقبال، ونبحث على ما خفي من دسائس النفس، ونستعد للمنازلة في الرَّمْس، ونشمِّر للمعاملة في المحبة، ونطلب ممن نظر في هذا الكتاب بالدعاء إلى العبادة ظاهراً وباطناً فإنما نحن به وله.

﴿سنَسِمُه على الـخُرْطوم﴾ [القلم: ١٦]: أصل الخرطوم أَنْف السبع، ثم استُعير للإنسان استخفافاً به وتقبيحاً له؛ والمعنى نجعل له سِمَةً، وهي العلامة، على خرطومه. واختلف في هذه السِّمَة؛ فقيل: هي الضربة بالسيف يوم بَدْر. وقيل علامة من نار تُجْعل على أَنْفه في جهنم. وقيل علامة تُجعل على أنفه يوم القيامة لِيعرف بها، كما يجعلون أهلُ الدنيا لمواشيهم علامة يعرفونها بها.

﴿سَلْهم أَيُّهم بذلكَ زَعِيم﴾ [القلم: ٤٠]: قد قدمنا أنَّ الزعيم الضامن، ومعناها: سَلْ يا محمد قريشاً أيهم زَعِيمٌ بذلك الأمر.

﴿يَسْأَمُ﴾: يسأم؛ أي يمل؛ ومنه: ﴿وهم لا يَسْأَمُون﴾ [فصلت: ٣٨].

﴿سبب﴾: له خمسة معان: أحدهـا الـحَبْل، وقد تقدم. والاستعارة من الحبل في المودة والقرابة؛ ومنه: ﴿وتقطَّعَتْ بهمُ الأسباب﴾ [البقرة: ١٦٦]. والطريق؛ ومنه: ﴿فأَتْبَع سَبَباً﴾ [الكهف: ٨٠]. وسببُ الأمر: موجبه.

﴿ساق﴾: ما بين القدم إلى الركبة؛ وأما قوله: ﴿يوم يُكْشَفُ عن ساق﴾ [القلم: ٤٢]. فقد قدمنا أن ذلك عبارة عن هَوْل يوم القيامة وشدَّته؛ وفي الحديث الصحيح أنه قال: ينادِي منادٍ يوم القيامة لتتبع كلّ أمة ما كانت تعبد، فيتبع الشمسَ مَنْ كان يعبد الشمس، ويتبع القمر مَن كان يعبد القمر، ويتبع كلُّ أحد ما كان يعبد، ثم تبقى هذه الأمة وغُبَّراتٌ من أهل الكتاب معهم مُنَافِقُوهم، فيقال لهم: ما شأنكم؟ فيقولون: ننتظر ربنا. قال: فيجيئهم اللهُ في غير الصورة التي عرفوه، فيقول: أنا ربُّكم. فيقولون: نعوذ بالله منك. قال: فيقول: أتعرفونه بعلامة ترونها؟ فيقولون: نعم، فيكشف لهم عن ساق،

فيقولون: نعم، أنْتَ ربُّنا، ويخرون للسجود، فيسجد كلُّ مؤمن، وتُرْفع أَصْلاب المنافقين عَظْماً واحداً فلا يستطيعون سجوداً. وتأويل الحديث كتأويل الآية.

﴿سَبْحاً طويلاً﴾ [المزمل: ٧]: السَّبْحُ هنا عبارة عن التصرف في الأشغال، والمعنى يكفيك النهارُ في التصرُّف في أشغالك، وتفرَّغْ في الليل لعبادة ربك. وقيل المعنى: إنْ فاتك شيءٌ من صلاة الليل فاخلفه بالنهار؛ فإنه طويل يسَعُ فيه ذلك؛ وقرئت سبخاً؛ أي بالخاء المعجمة؛ أي سعة؛ يقال سبِّخي قطنك؛ أي وَسِّعيه، والتسبيخ أيضاً التخفيف، يقال: اللهم سبِّخْ عنه الحُمّى: أي خفّفها عنه.

﴿سأُرْهِقُه﴾ [المدثر: ١٧]: أي سأكلفه المشقَّةَ من العذاب في صَعُود؛ وهي العقَبة الصعبة.

﴿سلَكَكُمْ في سَقَر﴾ [المدثر: ٤٢]: ذكر الجواليقي أنها عجمية؛ ويحتمل أن يكون خطاب المسلمين لأهل النار أو الملائكة، فأجابوهم بقولهم: ﴿لم نكُ من المصَلِّينَ...﴾ [المدثر: ٤٢] الخ. وإنما خصَّ التكذيب بيوم الدين تعظيماً له، لأنه أكبر جرائمهم.

﴿سَلْسَبِيلاً﴾ [الإنسان: ١٨]: اسم أعجمي، ومعناه سلساً منقاداً بجَرْيِهِ. وقيل سهل الانحدار في الحَلْق، يقال شراب سلسل وسلسال وسَلْسَبِيل بمعنى واحد، وزِيدت الباء في التركيب للمبالغة في سلامته، فصارت الكلمةُ خماسية. وقيل سل فعل أمر وسبيلاً مفعول به؛ وهذا في غاية الضعف.

فإن قلت: قد قال في الآية الأولى قبلها: ﴿كان مِزَاجُها كافوراً﴾ [الإنسان: ٥]، فهل يمزجان مع الخمر أم لا؟

والجواب أنه كالكافور في طِيب رائحته، وهو علم لذلك الماء. واسم الثاني زنْجَبِيل، وقيل اسمها سلسبيل. وقال بعضهم: سل من الله سلسبيلاً، فيجوز أن

يكونَ اسمها هذه الجملة؛ كقولهم: تَأَبّط شَرّاً، وبرقَ نَحْرُه. ويجوز أن يكون معنى تسمَّى تُذْكَر، ثم قال الله: سَلْ سبيلاً، واتصالُه في المصحف لا يمنَعُ هذا التأويل لكثرة أمثاله فيه.

﴿ساهرة﴾ [النازعات: ١٤]: قد قدمنا أنها وجه الأرض، وأصلها مسهورة ومسهور فيها، فصُرف من مفعوله إلى فاعله. كما يقال عيشة راضية أي مرضيّة، ويقال الساهرة أرض القيامة.

﴿سَفَرة﴾ [عبس: ١٥]: هم بالنبطية القراء، وبالعربية الملائكة الذين يسفرون بين الله وبين عباده، واحدهم سافر؛ وهم الملائكة، وقيل الذين يكتبون القرآن في المصحف، وقيل يعني القُرّاء من الناس. وفي الحديث: الماهر في القرآن مع السفرة الكرام البررة؛ أي أنه يعمل مثْلَ عملهم في كتابة القرآن وتلاوته، أوْ لَهُ من الأجر على القرآن مثل أجورهم.

وقد قدمنا أنه نزل جملة إلى بيت العِزّة في سماء الدنيا، وأن الملائكة يتدارسونه بينهم لتعظيم شأنِ هذه الأمة عند الملائكة وتعريفهم عنايةَ الله بهم ورحمته لهم؛ ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة بتشييع سورة الأنعام.

﴿سرائر﴾ [الطارق: ٩]: جمع سريرة، وهي ما أَسرَّ العبْدُ في قلبه من العقائد والنيات، وما أخفى من الأعمال، وبلاؤها هو تعرفها والاطلاعُ عليها.

ورُوي عن النبي ﷺ أنّ السرائر الإيمان والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة، وهذه معظَمُها؛ فلذلك خصَّها بالذكر، والعاملُ في «يوم» قوله: ﴿رَجْعِهِ﴾ [الطارق: ٨]؛ أي يرْجعه يوم تُبْلَى السرائر. واعترض بالفصل بينهما. وأجيب بقوة المصدر في العمل. وقيل العامل، قادر؛ واعترض بتخصيص القدرة بذلك اليوم؛ وهذا لا يلزم، لأن القدرة وإن كانت مطلقة فقد أَخبر اللهُ أَن البعْثَ إنما يقَعُ في ذلك اليوم. وقال من احترز من الاعتراضين في القولين المتقدمين: الفاعل فعل مضمر من المعنى تقديره: يرجعه يوم تُبْلَى السرائر، وهذا

كلّه على المعنى صحيح في رَفْعه. وأما على القول الآخر فالعاملُ في يوم مضمر تقديره: اذكر.

﴿السماء ذات الرَّجْع﴾ [الطارق: ١١]: أي المطر، وسمّاه رَجْعاً بالمصدر؛ لأنه يرجع كلَّ عام، أو لأنه يرجع إلى الأرض. وقيل: الرَّجْع السحاب الذي فيه الـمَطَر. وقيل: هو مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من منزلةٍ إلى منزلة.

﴿سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤]: جمع شتيت، ومعناه مختلف؛ فمنه حسنات ومنه سيئات، وهذا جواب القسم في قوله: ﴿والليل﴾.

﴿سجى﴾ [الضحى: ٢]: فيه أربعة أقوال: أدبر، وأقبل، وأظلم، وسكن، أي استقر، واستوى أو سكن فيه الناسُ والأصواتُ، ومنه: ليلة ساجيةٌ، إذا كانت ساكنة الريح، وطَرْفٌ ساج؛ أي ساكن غير مضطرب النظر. وهذا أقرب في الاشتقاق؛ وهو اختيار ابن عطية.

﴿سبحان﴾: تنزيه. وسبَّحت الله، أي نزَّهته عما لا يليق به من الصاحبة والولد والشركاء والأضداد.

﴿سُحْت﴾ [المائدة: ٤٢، ٦٢، ٦٣]: يعمُّ كلَّ حرام من رشوة ورِباً وغير ذلك.

﴿سُلَّما﴾ [الأنعام: ٣٥]، بضم السين وفتح اللام مشددة: هو الذي يُصْعَد فيه، ولما كان ﷺ شديدَ الحِرْصِ على إيمانهم قال الله له: إن استطعت أن تدخل في الأرض أو تصعد إلى السماء لتأتِيَهم بآية يؤمنون بها فافعل، وأَنْتَ لا تقدر على ذلك، فاستَسْلم لأمر الله.

﴿سُقِطَ في أيديهم﴾ [الأعراف: ١٤٩]؛ أي نَدِموا؛ يقال: سُقِط في يد فلان إذا عجز عما يريد، ووقع فيما يكره. وضمير الغيبة يعود على الذين عبدوا العجل. ويحتمل أن يريد الذين لم يغيروا على مَنْ عبده.

﴿سوء الحساب﴾ [الرعد : ١٨] : مناقشته والاستقصاء في السؤال، وهو عبارة عن مؤَاخذة العَبْد بخطاياه كلّها .

﴿سُوء الدار﴾ [الرعد : ٢٥] : يحتمل أن يريد بها في الدنيا والآخرة؛ وهو تَهكّم بهم؛ لأن ذلك عليهم لا لهم، وكذلك قوله : ﴿وبئس المهاد﴾ [آل عمران : ١٩٧]، تهكّم؛ لأن المِهاد هو ما يُفْرش ويُوطَأ .

﴿سُكّرَتْ أبصارُنا﴾ [الحجر : ١٥] : قد قدمنا أن الضمير لكفّار قريش المعاندين المختومِ عليهم بالكفر؛ والمعنى أنهم لو رأوا أعظم آيةٍ لقالوا إنها تخيّل أو سِحْر . وقرىء بالتشديد والتخفيف؛ ويحتمل أن يكون مشتقًّا من السكر، ويكون معناه خُدعت أبصارنا، فرأينا الأمر على غير حقيقته، أو من السكر وهو السدّ فيكون معناه مُنعت أبصارُنا من النظر .

﴿سُرَادِقها﴾ [الكهف : ٢٩] : قال الجواليقي : هو معرب، وأصله سرادار، وهو الدهليز . وقال غيره : الصواب أنه بالفارسية سرادره؛ أي ستر الدار، وسرادق جهنم : حائط من نار، وقيل دخان .

﴿سُنْدُس وإِستبرق﴾ [الكهف : ٣١] : قال الجواليقي : رقيق الديباج بالفارسية . وقال الليث : لم يختلف أهل اللغة والمفَسِّرون في أنه معرب . وقال شيذلة : هو بالهندية .

﴿سُؤْلكَ﴾ [طه : ٣٦]؛ أي بغيتك .

﴿سلالة من طين﴾ [المؤمنون : ١٢] : أي ما يَسيل من الشيء ويُستخرج منه، ولذلك قوله بعد هذا : ثم جعلناه نُطْفةً ـ لا بد أن يُرَاد به ابن آدم، فيكون الضمير على مَنْ ذُكر أوّلاً، لكن يفسره سياقُ الكلام، وإن أراد بالإنسان ابن آدم فيستقيم عَوْد الضمير عليه، ويكون معنى خَلَقَه من سُلالَةٍ من طين أنه خلق أَصْلَه وهو أبوه آدم . ويحتمل عندي أَن يُريد بالجنس الذي يعُمُّ آدم وذريته، فأَجْمَلَ ذِكْرَ الإنسانِ أوّلاً ثم فصّله بعد ذلك إلى الخلقة المختصة بآدم، وهي من طين، وإلى الخلقة المختصة بذريته وهي النطفة .

فإن قلت: ما الفرق بين مِنْ ومِنْ؟

فالجواب ما قاله الزمخشري: إن الأولى للابتداء، والثانية للبيان، كقوله: من الأوثان.

﴿سوق﴾ [الفتح: ٢٩]: جمع ساق، أي قام الزرعُ على سُوقِه، ومنه: ﴿والتَفَّت السّاقُ بالساق﴾ [القيامة: ٢٩]، أي التفَّت ساقُه إلى ساقه الأخرى عند المساق. وقيل ماتت ساقه فلا تحمله.

﴿سُعُر﴾ [القمر: ٢٤، ٤٧]: جمع سعير في قول أبي عبيدة، ومعناه الجنون، يقال ناقة مسعورة إذا كان بها جنون.

﴿سور﴾ البلد [الحديد: ١٣]: المحيط به. وبالهمز: البقية من الشيء، ومنه قول أم سلمة رضي الله عنها: أسئرُوا لأمّكم من هذا الشراب، وقوله: ﴿فُضرِب بينهم بسور له بابٌ﴾ [الحديد: ١٣]، فمعناه أنه يُضْرب بين المؤمنين والمنافقين بسور يفصِلُ بينهم، وفي هذا السور بابٌ لأهل الجنة يدخلون منه، وقيل: إن هذا السور هو الأعراف، وهو سورٌ بين أهل الجنة والنار. وقيل: هو الجِدار الشرقي من بيت المقدس؛ وهذا بعيد.

﴿سُحْقاً﴾ [الملك: ١١]: انتصب بفعل مضمر على معنى الدعاء على أصحاب السعير. ومعناه البعد؛ ومنه: مكان سَحِيق.

﴿سُوَاع﴾ [نوح: ٢٣]: اسم صنم كان يُعْبَد في زمان نوح عليه السلام، وكذلك يَعُوق ويَغُوث ووُدّ. ورُوي أنها أسماء رجالٍ صالحين كانوا في صَدْر الدنيا، فلما ماتوا صَوَّرهم أهلُ ذلك العصر من حجارة، وقالوا: ننظرُ إليها لنتذَكّر أعمالهم، فهلك ذلك الجيلُ، وكَثُر تعظيمُ مَنْ بعدهم لتلك الصور حتى عبَدوها مِن دون الله، ثم انتقلت تلك الأصنامُ بأعيانها. وقيل: بل الأسماءُ فقط إلى قبائل من العرب، فكان ودّ لكَلْب بِدُوْمة الجندل، وكان سُوَاع لهذيل، وكان يغوث لمراد، وكان يعوق لهمْدَان، وكان نَسر لذي الكَلاع من حِمْير.

﴿سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]: مهملاً، عَبثاً، وهذا توبيخ، ومعناه أيظنُّ الإنسانُ أن يَبْقَى بغير حساب ولا جزاء، فهو كقوله: ﴿أفحسبْتُمْ أنّما خَلَقْنَاكم عَبثاً..﴾ [المؤمنون: ١١٥] الآية.

والإنسان هنا جنس. وقيل نزلت في أبي جهل؛ ولا يبعد أن يكون سببها خاصًّا ومعناها عام.

﴿سُبَاتاً﴾ [الفرقان: ٤٧، والنبأ: ٩]: راحة. وقيل معناه قطعاً للأعمال والتصرّف. والسبَت القطع. وقيل معناه موت؛ لأن النومَ هو الموت الأصغر؛ ولذلك لا ينام أهل الجنة، والسباتُ: ما يغيّب العقل والحواسّ حتى يظن الناظر أنه ميّت وما هو بميت، وقد دُفن بعضهم بهذا الداء لظنّهم موته ثم قام من قبره، ورجع لداره بسبب حفْرِ نَبّاش عليه لأخْذِهِ أكفانه، ولذلك يؤخَّر الميت عن دفنه لئلا يكون من هذا القبيل.

﴿سُجِّرَت﴾ [التكوير: ٦]: أصله من سجرت التنورَ إذا أحميته، والبحار إذا ملأتها، والمعنى أن البحار تفجّر بعضها إلى بعض حتى تعودَ بَحْراً واحداً. وقيل إنها تُملأ ناراً لتعذيب أهلها. وقيل تُفرغ ماؤها فتيبس. والقول الأول والثاني أليق بالأصل. وقد قدمنا أنَّ البحارَ سبعة لقوله: ﴿والبحر يَمُدُّه من بعده سبعةُ أَبْحر﴾ [لقمان: ٢٧]: بحر طبرستان، وبحر كرمان؛ وبحر عمان، وبحر القلزم، وبحر هندوستان، وبحر الروم، وبحر المغرب.

﴿سعِّرَت﴾ [التكوير: ١٢]: أُوقدت وأُحميت، يُزَاد في حرها يوم القيامة على مَا هي عليه الآن، وهذه النار طيبت في الثلج سبعين سنة، ولولا ذلك لم ينتفع بها، فقِسْ حَرّها على ما يزاد فيها يوم القيامة، وإذا تأملت قوله: ﴿ترمي بِشَرَر كالقَصر﴾ [المرسلات: ٣٢] تَفْهم منه أنها تأكلُ بعضها بعضاً من شدة غيظها، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيّزُ من الغَيْظ﴾ [الملك: ٨]: فأيُّ جسم يَقْوَى على هذه الأحوال لولا أن الله قَوَّاها، اللهم كُنْ لنا حافظاً منها؛ فإنه لا طاقَة لنا عليها.

﴿سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]؛ أي بُسطت، والمرادُ بذكر هذه الأشياء الاستدلالُ بقُدْرة الخالق على هذه المخلوقات. وقد قدمنا أن من العجائب ما قاله بعضُ المفسرين: إن من الأقاليم الستة عندهم ستة أَشهر منها نهار وستة ليل خالص، وهذا مذكور في علم الهيئة، فانظره في حرف الميم. وقال قتادة: الدنيا أربعة عشر أَلف فرسخ للسودان، وثمانية آلاف فرسخ للروم، وثلاثة آلاف فرسخ لفارس، وألف فرسخ للعرب، وألف فرسخ لأهل الترك والصين. وقال بعضهم: الدنيا مسيرة خمسمائة عام؛ ثلاثمائة قفار، ومائة بِحَار، وثمانون ليأجوج ومأجوج، وثمانية عشر للسودان، وعامين للبيض.

وفي الخبر أن عبدالله بن سلام أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا محمد: مِنْ أَي شيء خَلَقَ اللهُ الأرض؟ قال: مِنْ زَبَد. قال: فمن أي شيء خلق الزبد؟ قال: من الْمَوْج؟ قال: فمن أي شيء خلق الموج؟ قال: خلق من البحر. قال: فمن أيِّ شيء خلق البحر؟ قال: من الظلمة. قال: يا محمد؛ فقرار الأرض من أي شيء؟ قال: بالجبال. قال: وقرار الجبال بأي شيء؟ قال: بجبل قاف. قال: وجبل قاف من أي شيء؟ قال: من زمردة خضراء وخضرة السموات منه. قال: صدقت؛ فكم مسيرة علوه؟ قال: خمسمائة سنة. قال: صدقت فكم مسيرة حواليه؟ قال: مسيرة ألف سنة. قال: صدقت. فهل وراء جَبَل قاف شيء؟ قال: وراءه سبعون أرضاً من المسك. قال: فما وراءها؟ قال: سبعون أرضاً من الذهب. قال: وما وراءها؟ قال سبعون أرضاً من الحديـد. قال: فهل وراء هذه الأرضين شيء؟ قال عليه السلام: ومِنْ وراء هذه الأرضين سبعون ألف عالم، في كل عالم ملائكةٌ لا يَعْلَم عددَهم إلا الله؛ وهذه الملائكة لا يعلمهم آدم وبنوه ولا إبليس، وتسبيحهم سبْعُ كلمات: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. قال: صدقت؛ هل وراء هؤلاء شيء؟ قال: نعم، حية أدارت ذَنبها على هذه العوالم. قال: صدقت.

ثم قال: أخبرني عن سكان الأرضين. قال عليه السلام: في الأرض السابعة

ملائكة، وفي السادسة إبليس وأعوانُـه، وفي الخامسـة الشيـاطين، وفي الرابعـة الحيات، وفي الثالثة العقارب، وفي الثانية الجنّ، وفي الأولى الإنس قال: صدقت.

فهذه الأرضون على أي شيء؟ قال: على الثور. قال: وكيف صفة الثور؟ قال: له أربعة آلاف رأس ما بين الرأسين مسيرة خمسمائة عام. قال: صدقتَ، أَخبرني عن الصخرة على أي شيء هي؟ قال: على ظهر الحوت. قال: والحوت على أي شيء؟ قال: على بحر، والبحر قَعْره مسيرة ألف سنة. قال: صدقت.

أخبرني عن ماء البحر على أي شيء؟ قال: على الريح. قال: والريح على أي شيء؟ قال: على الظلمة. قال: والظلمة على أي شيء؟ قال: على نار جهنم. قال: صدقت؛ ونار جهنم على أي شيء؟ قال: على الثرى. قال: صدقت. قال: فهل تحت الثرى شيء؟ قال عليه السلام: سؤالك هذا خطأ لا يعلم ما تحت الثرى إلا الله.

فانظر تصديقَ عبدالله حَبْر بني إسرائيل والمسلمين لسيدنا ومولانا محمد ﷺ لوجود ذلك كُلِّه في التوراة التي جعل اللهُ فيها تبيان كل شيء وتفصيله.

فإن قلت: أيُّ فائدة في التحريض إلى ذكر الإبل وابتدائه بها في الآية، وهي أدنى من خَلْقِه السموات والأرض؟ ومن المعلوم الاستدلال بأعظم المخلوقات أقوى.

فالجواب لاعتناء العرب بها؛ إذ كانت معايشهم في الغالب منها في شُرْب ألبانها، وهي أَكْثَرُ المواشي في بلادهم، وأيضاً لما في خَلْقها من الاعتبار، لأنها في خلقتها دالّةٌ على وحدانية خالقها، شاهدةٌ بتدبير منشئها وحكمته، حيث خلقها للنهوض بالأثقال، وجعلها تَبْرك حيث تحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت، وسخَّرها منقادةً لكل مَنْ يقودها بأزمتها، حتى حُكي أَن فأرة قادت ناقةً لا تمَاري ضعيفاً، ولا تمانع صغيراً، وبَرَاها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار.

وعن بعض الحكماء أنه لما حدَّث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ ببلاد

الإبلُ فيها، ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق وصلة إلى العقدة التي جعل الله في صَدْرِها جامعةً للأعصاب، ومثلها في أعالي ظهورها، كُلٌّ ذلك زيادة في قُواها، وحين أراد بها أن تكونَ سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى أن إضمارها ليرتفع إلى العشر فصاعداً، وجعلها ترعى كلَّ شيء نابتٍ في البراري والمفاوزِ مما لا يَرْعاه سائر الحيوان، فهي يسيرة المؤونة؛ ولذلك قال ﷺ: الإبل عزٌّ لأهلها، والغَنم بركة، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة؛ وكان شريح القاضي يقول لأصحابه: اخرجوا بنا إلى الكنَاسة حتى نَنْظُر إلى الإبل كيف خُلقت.

قال القرافي في فروقه: اعلم أنَّ النواهي تعتمد المفاسد، كما أنّ الأوامر تعتمد المصالح، فما حرَّم الله تعالى شيئاً إلا لمفسدة، وما أمر بشيء إلا لمصلحةٍ تحصل مِنْ تناوله.

وقد أجْرى اللهُ تعالى أن الأغذية تنقل الأخلاق لخلق الحيوان المغذَّى به حتى يقال: إن العرب لما أكثرَتْ من لحوم الإبل حصل عندها فَرْط الإيثار بأقواتها، لأن ذلك شأن الإبل، فيجوع الجميع من الإبل الأيامَ الكثيرة، ثم يوضع لها ما تأكله مجتمعةً فيضع كلٌّ منها فَمَه فيتناول منها حاجَته من غير مُدَافعة عن ذلك الحبّ، ولا يطرد مَنْ يأكل معه، ولا تزال الإبل تأكل علفها كذلك بالرِّفْق حتى يفنى جميعاً من غير مدافعة بعضها بعضاً، بل مُعْرِضة عن ذلك، وعن مقدار ما أكله غيرها ممن يجاوِرها.

وغيرها من الحيوانات تَقْتَتلُ عند الأغذية على حَوْز الغذاء، وتمنع من يأكلها معها أن يتناول شيئاً؛ وذلك مشاهدٌ في السباع والكلاب والأغنام وغيرها.

فانتقل ذلك لخُلق الأعراب، فحصل عندهم من الإيثار للضيف ما لم يحصل عند غيرهم من الأمم، كما أنه حصل عندهم أيضاً الْحِقْد؛ لأن الجملَ يأخذ ثأرَه ممن آذاه بعد مدة طويلة، ولا يزول ذلك مِن خاطره حتى يقال: إن أربعاً أكلت أربعاً، فأورثهم أربعاً؛ أكلت العرب الإبل فأفادتها الكرم والحقد.

وأكلت السودان القِردة فأفادتها الرقص. وأكلت الفرنج الخنزير فأفادتها عدم الغيرة. وأكلت الترك الخيل فأفادتها القساوة.

فإذا تقرر هذا فهذه السباع في غايةِ الظلم وقلّة الرحمة تأكل الحيوانات من غير اكتراث واهتمام بها، بل تفسد تبيعها وتقطع لحومها، ولا تبالي بما تجده من الألم في تمزيق أعضائها، وتثب على ذلك وثوباً شديداً من غير توقُّف لذلك في حاجة ولغير حاجة؛ وذلك لفَرْط ظلمها، وقلّة الرحمة؛ تأكل الحيوانات من غير اكْتِراث، وذلك متوفّر في سباع الوحش أكثر منه في سباع الطير، فأين الأسد من العُقَاب والصقر؟ وأين النمر والفَهْد والسبع وغيرها من الحيوانات مِن الحدأ والغربان ونحوها؟ فلما عظُمَت المفسدة والظلم في سِبَاع الوحش حرمت لئلا يتناولها بنو آدم فتصير أخلاقهم كذلك، ولما قَصُرت مفسدة سباع الطير عن ذلك فمِن الفقهاء مَنْ نهض عنده ذلك للتحريم دَفْعاً لمفسدة سوء الأخلاق، وإن قلَّت؛ ومنهم من لم ينهض عنده ذلك للتحريم لخفّة أمره، فاقتصر به على الكراهة.

﴿سرًّا﴾ له معان: ضد العلانية. ومنه ﴿الذين يُنْفِقون أموالَهُمْ بالليل والنهار سِرًّا وعَلاَنية﴾ [البقرة: ٢٧٤]. قال: قال أبو هريرة: نزلت في عليّ بن أبي طالب، لأنه تصدّق بِدرْهم في الليل وبدرهم بالنهار وبدرهم سرّاً وبدرهم علانية. والنكاح؛ ومنه: ﴿لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ أي لا تواعدوهنَّ في العدة خيفةَ أن تتزوَّجوهن بعد العدة؛ وسِرُّ كلِّ شيء خياره.

﴿سِنَة﴾ [البقرة: ٢٥٥] هي ابتداء النوم، لا تفسد، كقول القائل: في عينه سنَةٌ وليس بنائم. فالسِّنَة في الرأس والنوم في القلب.

﴿سِنِين﴾ [يوسف: ٤٢]: جمع سَنَة، وهي عبارة عما أخذ اللهُ بني إسرائيل من القَحْط والجدب لعلهم يرجعون، فلم يزدهم ذلك إلا طغياناً.

﴿سيروا، وسيحوا﴾ [آل عمران: ١٣٧، التوبة: ٧] بمعنى واحد، وأَمَر اللهُ قريشاً بالسير في الأرض للاعتبار بمخلوقات الله، والنظرِ فيمَنْ تقدَّم من

الهالكين، وقد كانوا أشدَّ منكم قوةً وأكثر جمعاً، وأخذ بعضُ الصوفية من هذا أنّ مَنْ سافر للاعتبار في مخلوقاته ورؤية نباتِ الأرض وسَهْلها وجبالها وأنهارها فهو أَفضلُ من الإقامة؛ وكيف لا وقد قطع علائقَه بمعرفة عيوب نفسه بغربته ابتعاده؟ أَلا ترى رفْق الله بالمسافر؛ فرخص له القَصْر والجمع، والفِطْر في رمضان، ومزيد مدة مسح الخف، والتنفل راكباً، وترك الجمعة، وعدم قضاء المسافة لمضرات زوجة أخذه بالقرعة، واستجابة دعوته، وصحّ أنه ضيفُ الله ما لم يعصه، إلى غير ذلك من فوائد ذكرها أبو حامد في إحيائه.

فإن قلت: قد قال في الأنعام: ﴿ثم انظروا﴾ [الأنعام: ١١]، وعطف في غيرها بالفاء فما الفرق بينهما؟

فالجواب أنه لما كانت ﴿ثمّ﴾ للتراخي، فأمروا باستقراء الديار وتأمُّل الآثار، وفيها كثرةٌ، فيقع ذلك سَيْرٌ بعد سيرٍ وزَمَان بعد زمان.

وقد قدمنا في حرف الفاء أن معنى ﴿ثم انظروا﴾ إباحة السّير للتجارة وغيرها، فنبّه بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح.

وأما تحديد السياحة في الأرض بأربعة أشهر فهو الأجل الذي جعل الله لأمْنِهم. واختلف في وقتها؛ فقيل هي شوّال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم؛ لأن السورةَ نزلت حينئذ؛ وذلك عام تسْعَة. وقيل: هي عيد الأضحى إلى تمام العشر من ربيع الآخر؛ لأنهم إنما علموا بذلك حينئذ، وذلكَ أن رسول الله ﷺ بعث تلك السنة أبا بكر الصديق فحجَّ بالناس، ثم بعث بعده عليَّ بن أبي طالب فقرأ بعده سورة براءة يوم عرفة. وقيل يوم النحر.

﴿سِيءَ بهم﴾ [هود: ٧٧]؛ أي أصابه سوء وضَجَر لما ظن أنهم من بني آدم وخاف عليهم من قومه.

﴿سِجِّيل﴾ [هود: ٨٢، والحجر: ٧٤، الفيل: ٤٥] بالفارسية أوله حجارة وآخره طين؛ قاله مجاهد، يعني أنها كانت مثل الآجر المطبوخ. وقيل: هو من سجله إذا أرسله.

﴿سقَاية﴾ [يوسف: ٧٠]: قد قدمنا أنه الصاع الذي كان يشرب به يوسف.

وأما قوله تعالى: ﴿أجعلتم سِقَايةَ الحاجِ وعِمَارةَ المسجد الحرام﴾ [التوبة: ١٩] ـ فسببها أَنَّ قوماً من قريش افتخروا بسقاية الحاج وبعمارة المسجد الحرام، فَبيَّن اللهُ أن الجهاد أفضلُ من ذلك. ونزلت الآية في عليّ والعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن شيبة ـ افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، وعندي مَفَاتحه. وقال العباس: أنا صاحبُ السقاية. وقال علي: لقد أَسْلمتُ قبل الناس وهاجرْتُ مع رسول الله ﷺ.

﴿سجلّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] بلغة الحبشة: الرجل عند ابن عباس. وعند ابن جني الكتاب؛ قال قوم: هو فارسي معرب. وأخرج ابنُ أبي حاتم، عن أبي جعفر الباقر، قال: السجل ملك، وكان هاروت ومارُوتُ من أعوانه. وأخرج عن ابن عمر؛ قال السجل ملك. وأخرج عن السدِّي؛ قال: ملك موكّل بالصحف. ومعنى: ﴿يوم نَطْوِي السماء كطيِّ السجلِّ للكتب﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ـ أن اللهَ يَطوِي السماءَ كما يُطْوَى السجلُّ ليكتب فيه، أو لتصانَ الكتبُ التي فيه. وقد ضعَّف بعضُهم كونه ملك؛ ولا أدري ما وَجْهُ تَضعيفه. وفيه ضعف.

﴿سَنَا﴾ [النور: ٤٣]: أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: سنا ـ بالنبطية الحَسَن. وقيل بالحبشية. وفي الحديث سَنَهْ سَنَهْ؛ أي حسنة بالحبشية.

﴿سُخْرياً﴾ [الزخرف: ٣٢]، بضم السين من السخرة بمعنى التحول؛ وبالكسْر من السخر بمعنى الاستهزاء، وقد يقال هُزُءاً بالضم، وقرىء هنا بالوجهين لاحتمال المعنيين، على أن معنى الاستهزاء هنا أليق، لقوله: ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ [المؤمنون: ١١٠]؛ وفي الزخرف استخدام بعضهم بعضاً أَليق، لقوله: ﴿ورحمة ربِّكَ خير مما يجمعون﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿سِدْرٍ مَخْضُود﴾ [المطففين: ٧]: قد قدمنا في حرف الميم أنه النبق الذي قُطع شوكه.

﴿سجّين﴾: اسم علم منقول من صفة على وزن فعّيل للمبالغة. وقد قيل عظم الله أمره بقوله: ﴿وما أدْرَاك ما سِجّين﴾ [المطففين: ٨]، ثم فسره بقوله بأنه كتاب مرقوم؛ أي مسطور بيِّن الكتابة، وهو كتابٌ جامع يكتب فيه أعمالُ الشياطين والكفار والفجَّار، وهو مشتق من السجن بمعنى الحبس، لأنه سبب الْحَبْس والتضييق في جهنم، أو لأنه مطروح في مكان والعذاب كالسجن؛ فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال في الأرض السفلى. وروي أنه في بئر هنالك.

وحكى كعب عن التوراة أنه في شجرة سوداء هنالك. وحكى البِكَالي بسند صحيح عن رجل كان بمكـة انتهت حاله في العبادة إلى مقام عظيم، ويقصده أصحاب الأموال التي تركها التجار بمكة، ويسافرون؛ فاتفق أَنَّ رجلاً ذا مال جليل أراد السفَر من مكة إلى أرضٍ بعيدة فدُلَّ على ذلك الرجل في أن يترك عنده وَدِيعة، ففعل، وسافر، وقدر على الرجل لما حضرته الوفاة فأَوصى بكل ما كان عنده لأَربابه من الودائع، فتوفي، فأخذ الناسُ ودائِعَهم سوى ذلك الرجل فإنه لم يوجد له ذِكر، فحار دليلُ الرجل؛ فدُلَّ على رجل كبير القدر أَنْ يخبره بقصته، قال: وكل من أخبره عن المتوفي بشيء كان خيراً، قال: فلما انتهيت إلى الثاني وأخبرته قال لي: يا بني، ما عندي ما أدلك عليه إلا أنك تأتي ليلةَ الجمعة لبئر زمزم آخر الليل وتُنَادي فيه: يا فلان بن فلان، فإنْ أَجابكَ سَلْهُ عن مالك فإنه يخبرك كيف اتفق فيه؛ فإن لم يجِبْك فافعل ذلك سبع ليال من ليالي الجمعة؛ فإن أجابك فحَسَن، وإلا فأخبرني.

ففعلت، ولم يجبني أَحد، فأخبرت الرجلَ بذلك، فقال: يا بني، ما أرى الرجل إلا من أهل النار، فتُسافر إلى أرض حضرموت، وتأتي إلى بئر هنالك يقال له بئر برهُوت، فتنادي فيه باسم الرجل ليلةَ الأربعاء، فإنه يجيبك ضرورةً فاسأله يخبرك.

قال: فسرتُ إلى الموضع فناديتُ أول ليلة باسم الرجل، فأجابني، فسألته عن مالي، فأخبرني أنه نسي أَنْ يُوصِيَ بمكانه حيث دفنه، قال: ولما أخبرني بمكانه من محلّ سكنـاه قال لي: بالله عليك إلا ما بلغت رسالة لأختي ببلد كذا من مكان كذا، واسم زَوْجها وابنتها، وأمارات، وقل لها: تجعلني في حِل من كوني فارقْتُها من غير طيب نَفْسٍ منها، ووقع بيني وبينها مهاجرة، فتضرَّعْ لها وأرغبها لعل اللهَ يُنقذني من هذا المقام؛ فإني عُوقِبْتُ من سبب قطعي لرحمها.

وتمامُ الحكاية أنه وجد مالَه، واستعفي من الأخت لأخيها، وعاد الرجل إلى مكة، ونادى ليلة الجمعة باسمِ الرجل، فأجابه وجزاه خَيْرًا؛ وأخبره أَنَّ الله قد غفر له.

ومما يؤكّد صحة هذا أن الأرواحَ حيثما ذكر ـ ما ذكره القرطبي في سورة قد أفلح: اختلف في مقر الأرواح على أقوال ذكـر فيهـا قـولاً إن بئـر زمـزم خاصّ بالسعداء وبئر برهوت خاص بالأشقياء.

قلت: وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الأرواح على أحوال مختلفة؛ فمنها ما هو يعلق في ثمر الجنة، ومنها ما هو في قناديل معلقة تحت العرش، ومنها ما هو في كفالة آدم، ومنها ما هو في كفالة إبراهيم، ومنها ما هو في أَفْنِيَة قبورها تردُّ على مَنْ يسلِّم عليها، ومنها ما هو لتلقّي أرواح المؤمنين من إخوانهم يسألونهم عنهم، فيقول بعضهم لبعض: دعُوه يستريح مِنْ هَمِّ الدنيا وغمومها.

﴿السين﴾: حرف يختص بالمضارع ويخلّصه للاستقبال؛ ويتنَزَّل منه منزلةَ الجزاء فلذا لم تعمل فيه. وذهب البصريون إلى أن مدةَ الاستقبال معه أضيق منها مع سوف؛ وعبارةُ المعربين فيها حرف تنفيس، ومعناها حرف توسُّع، لأنها نقلت المضارعَ من الزمن الضيّق ـ وهو الحال ـ إلى الزمن الواسع، وهو الاستقبال.

وذكر بعضُهم أنها قد تأتي للاستمرار لا لِلاسْتِقبال، كقوله: ﴿ستَجِدُون آخرين...﴾ [النساء: ٩١] الآية. ﴿سيقول السُّفَهَاء....﴾ [البقرة: ٤٢]

الآية؛ لأن ذلك إنما نزل بعد قولهم: ﴿ما وَلَّاهُمْ﴾ فجاءت السينُ إعلاماً بالاستمرار لا بالاستقبال. قال ابن هشام: وهذا لا يعرفه النحويون، بل الاستمرار مستفاد من المضارع، والسين باقيةٌ على الاستقبال؛ إذ الاستمرار إنما يكون في المستقبل. قال: وزعم الزمخشري أنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة، ولم أر مَنْ فَهم وَجْه ذلك؛ ووجهه أنها تُفيد الوعد بحصول الفعل؛ فدخولُها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضٍ لتوكيده وتثبيت معناه، وقد أومأ إلى ذلك في سورة البقرة؛ فقال: ﴿فسيكفيكهم الله، وهو السميعُ العليم﴾ [البقرة: ١٣٧] ـ معنى السين أن ذلك كائن لا محالة. وإن تأخر إلى حين. وصرح به في سورة براءة فقال في قوله: ﴿أُولئك سيرحمهم الله﴾ [التوبة: ٧١]: السين مفيدة وجودَ الرَّحْمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تُؤَكد الوعيد في قولك: « سأنتقم منك ».

﴿سوف﴾: كالسين أو أوسع زماناً منها عند البصريين؛ لأن كثرةَ الحروف تدل على كثرة المعنى، ومرادفة عند غيرهم، وتنفرد عن السين بدخول اللام عليها نحو: ﴿ولَسَوْف يُعْطِيكَ ربُّك فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]. قال أبو حيان: وإنما امتنع إدخال اللام على السين كراهةَ توالي الحركات في « لَسَيُدَحْـرَج »، ثم طُرد الباقي.

قال ابن بابشاذ: والغالب على سوف استعمالها في الوعيد والتهديد، وعلى السين استعمالها في الوعد؛ وقد تستعمل سوف والسين في الوعيد.

و﴿سوَاء﴾: تكون بمعنى مُسْتَوٍ، فتقصر مع الكسر، نحو: ﴿مكاناً سِوًى﴾ [طه: ٥٨]، وتمد مع الفتح نحو ﴿سَوَاءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يُؤْمِنون﴾ [البقرة: ٦]، وبمعنى الوسط فتمدّ مع الفتح نحو: ﴿في سَوَاءِ الجحيم﴾ [الصافات: ٥٥]، وبمعنى التمام نحو: ﴿في أربعة أيام سواءً للسائلين﴾ [فصلت: ١٠]؛ أي تماماً، ويجوز أن يكون منه: ﴿واهدنا إلى سوَاء الصِّرَاط﴾ [صٓ: ٢٢]، ولم ترد في القرآن بمعنى غير. وقيل وردت، وجعل منه في

البرهان: ﴿فقد ضلَّ سواءَ السبيل﴾ [الممتحنة: ١]، وهو وهم، وأحسنُ منه قول الكلبي في قوله تعالى: ﴿ولا أنتَ مكاناً سُوًى﴾ [طه: ٥٨] - إنها استثنائية، والمستثنى محذوف؛ أي مكاناً سوى هذا المكان، حكاه الكرماني في عجائبه، وقال: فيه بُعْد، لأنها لا تستعمل غير مضافة.

﴿ساءَ﴾: فعل للذم لا يتصرف.

﴿سبحان﴾: مصدر بمعنى التسبيح لازمَ النصب والإضافة إلى مفردٍ ظاهر؛ نحو: ﴿سبحان الله﴾ [يوسف: ١٨]. ﴿سبحان الذي أَسْرَى﴾ [الإسراء: ١]، أو مضمر، نحو: ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ [النساء: ١٧١]. ﴿سبحانكَ لا علم لنا﴾ [البقرة: ٣٢]، وهو مما أُميتَ فعله.

وفي العجائب للكرماني: من الغريب ما ذكره المفضّل أنه مصدر سبح إذا رفع صوته بالدعاء والذِّكر، وأنشد:

قبح الله له وجُوهَ تغلبَ كلّما سَبَح الحجيجُ وكبّروا إهْلالا

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: سبحان الله - قال: نَزَّه الله نفسه عن السوء.

حَرفُ الشين المعجمَة

﴿شُعيب﴾ : قال ابن إسحاق : وهو ابـن ميكـاييـل ، كـذا بخط الذهبي في اختصار المستدرك ، وقال غيره : ابن ملكاين . ورأيتُ بخط النووي في تهذيبه ابن ميكيل بن يشجن بن مدين بن إبراهيم الخليل ، كان يقال له خطيب الأنبياء ، وبُعث إلى أُمّتين : مدين ، وأصحاب لَيْكَه رسولاً ، وكان كثير الصلاة ، وعَمِي في آخر عمره .

وقد قدمنا قَوْلاً بأن مدين وأصحاب لَيْكة واحدة . قال ابن كثير : ويدل على ذلك أن كلاًّ منهما وعظ بوفاءِ الكيل والميزان ؛ فدلّ على أنهما واحد . واحتج الأول بما أخرجه السدّي وعكرمة ؛ قالا : لم يَبْعَث الله نبياً مرتين إلا شعيباً : مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحةِ ، ومرة إلى أصحاب لَيْكَة ، فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة .

وأخرج ابنُ عساكر في تاريخه ، عن عبدالله بن عمرو ـ مرفـوعـاً ـ أن قـوم مدين وأصحاب لَيْكة أُمتان بعث الله إليهما شعيباً ؛ قال ابن كثير : وهو غريب ، وفي رَفْعِه نظر ؛ قال : ومنهم من زعم أنه بُعث إلى ثلاث أمم ؛ والثالثة أصحاب الرَّسِّ .

﴿شعر﴾ بالأمر يشعر ؛ أي علمه . والشعور : العلم من طريق الجسم ، ومنه : ﴿وَمَا يَشْعُرون﴾ [البقرة : ٩] ، أي لا يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم .

فإن قلت : هل العلم والشعور بمعنى واحد ؛ لأنه يظهر من تكرير قوله : ﴿لا يشعرون﴾ أنها بمعنيين .

والجواب ما قاله أبو الفضل بن الخطيب: إنما قال ذلك في قوله تعالى: ﴿ألاَ إنّهم هُم السفهاءُ ولكن لا يَعْلَمون﴾ [البقرة: ١٣]، وفيما قبلها: ﴿ولكن لا يشعرون﴾ [البقرة: ١٢]؛ لوجهين:

أحدهما: أن الوفق على أن المؤمنين على الحق، وهم على الحقّ أمر عقلي نظري، وأما أنّ النفاق وما فيه من البغي يُفْضي إلى الفساد في الأرض فضروري، جار مجرى المحسوس.

والثاني: أنه لما ذكر السَّفَه، وهو جهل، كان ذِكْرُ العلم أحسن طباقاً. والله أعلم.

﴿شَكُور﴾ [إبراهيم: ٢٥، ولقمان: ٣١]: من أسماء الله؛ لأنه المجازِي للعباد على أعمالهم بجزيل الثواب. وقيل: الْمُثْني على العباد. وأما الشكور من عباده فهو المصرِّفُ جوارِحَه فيما أمَرَ الله به عبادَه من الطاعة، وهو موجب للزيادة كما قدمنا.

وقام ﷺ حتى تفطَّرَتْ قدماه، وقال: أفلا أكُونُ عبداً شَكُوراً، فالشكرُ إذاً طاعةُ الله في كل نعمة بما هو الأولى مع رؤية مِنَّةِ الله تعالى! والحياء من تَتَابع نِعمه واستعظام صغيرها، واعترافه بعجزه عن شكرها، وأنها وشكرها نعمةٌ منه تعالى، وعدم ركونه إلى غير المنعم، وأعظم النعم حسنُ خلق؛ لأنه ما ضرّ أبداً كسوء خلق، ويجب العلم بما قَبّحه الشرع وبما حسَّنَه، وكل نِعَمِه فإنها منه تعالى إجماعاً، فالشُّكْرُ بما يجب حَتْمٌ، وبما يستحبّ ندب، ولما كانت نِعَمُ الله تعالى مبذولة لم يشكر الجاهلُ إلا ما خصَّه بقوله الحمد لله، ولو عمي مثلاً لتسخَّط وشكى، ولو عاد بَصَرهُ شكر.

﴿شَرَوْا﴾ [البقرة: ١٠٢]: بمعنى باعوا، كقوله تعالى: ﴿وشَرَوْه بِثَمنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠].

﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحرام﴾ [البقرة: ١٤٤]: تلقاءه، بلسان الحبشة، وكان

ﷺ يرفع رَأسه إلى السماء رجاءَ أنْ يُؤْمَر بالصلاة إلى الكعبة، لأنها قِبْلَةُ إبراهيم، أو كان يُحِبُّ ذلك من أجل أنَّ اليهود كانوا يقولون: يخالفنا محمد في ديننا ويتبعنا في قبلتنا؛ فقال لجبريل: وَدِدْتُ أن يُحوِّلَني الله إلى الكعبة، فإنها قِبْلة إبراهيم؛ فقال جبريل: إنما أنا عَبْدٌ مثلك، وأنتَ كريم على ربك، فاسأل أنْتَ ربَّكَ؛ فَعرج جبريل إلى السماء، فأنزل الله الآية؛ فهي متأخرة تلاوةً مقدمة معنى؛ لأنها رَأْس القصة، وأوّل ما نُسخ من أمور الشرع أمْرُ القبلة.

فإن قلت: ما فائدة تكريرها ثلاث مرات؟ [١٤٤، ١٤٩، ١٥٠ من سورة البقرة]

فالجواب أنّ الأولى لنسخ القبلة، والثانية للسبب، وهو قوله: ﴿وإنَّهُ لَلْحقُّ من ربك﴾، والثالثة لعلة، وهو قوله: ﴿لئلا يكونَ للناسِ عليكم حجةٌ﴾.

وقيل الأولى في مسجد المدينة، والثانية خارج المسجد، والثالثة خارج البلد. وقيل في الآية خروجان: خروج إلى مكانٍ ترى فيه الكعبة، وخروج إلى مكان لا ترى أيّ الحالتين فيه سواء. وقيل في الجواب غير هذا حذفناه لطوله.

﴿شَهيدَيْنِ مِنْ رِجَالكم﴾ [البقرة: ٢٨٢]: نَصٌّ في رفض شهادة الكفار والصبيان والنساء، وأما العبيدُ فاللفظُ يتناولهم، ولذلك أجاز ابن حنبل شهادتَهم، ومنعها مالكٌ والشافعيّ لنَقص الرّق؛ وإنما أمر الله بالإشهاد في البياعات حفْظاً للأموال؛ فشهادةُ الرجلين أو رجل وامرأتين جائزة في الأموال لا في غيرها بشرط العدالة؛ ومعناها اجتنابُ الذنوب الكبائر وتوقّي الصغائر مع المحافظة على المروءة.

وروي أنّ آدم صلى الله على نبينا وعليه وسلم لما رأى ذرِّيته عند خروجها من ظهره، فسأل الله عنهم؛ فقال له: هم الأنبياء من أولادك، فقال: يا رب، كم أعمارهم؟ فأخبره بِعُمْر كلٍّ واحد، فوجد عمر داود أربعين، فقال: يا رب، قد وهبتُ له من عمري أربعين أخرى، فلما بقي من عمره هذه الأربعون أتَى ملَكُ الْمَوتِ ليقبِضَ رُوحه، فقال: إني لمْ أهَب شيْئاً.

فقال الله له: أمراً أحدثته بين أولادك، فمَنْ كان عليه حق أنكره؛ فلذلك أمره الله بالإشهاد، فقال: ﴿واستَشْهِدُوا شهيدَيْنِ مِنْ رِجالكم﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ولذلك وَكل على كل أَحَدٍ من الآدميين مَلَكين شاهدين حتى لا يجدَ إلى الإنكار سبيلاً.

فانظُرْ هذا التَّأنيسَ العظيم لأمَّة هذا النبي الكريم.

وقيل: إنه كان نور المصطفى في وَجْه آدم ينظر إليه، فقال: يا رب، هل بقي في ظهري من هذا النور شيء؟ قال: نور أصحابه. قال: يا رب، اجعله في بقية أصابعي؛ فجعل نور أبي بكر في الوُسْطى، ونور عمر في البنصر، ونور عثمان في الخنصر، ونور عليّ في الإبهام؛ فكان آدم، ﷺ، ينظر إلى تلك الأنوار ويعجبُ منها إلى أن أهْبَطه الله من الجنة، ومارَسَ أعمالَ الدنيا؛ فعادت الأنوارُ إلى ظهره.

وأنْتَ يا عاصي، تُمَارِسُ المعاصي والفواحش، ولا تخاف مِنْ زوال نورِ الإيمان من قَلْبك! ألم تسمع إلى قول ربك: ﴿كلا، بَلْ رَانَ على قلوبهم ما كانوا يَكْسِبُون﴾ [المطففين: ١٤].

فإن قلت: ما بال آدم لم يُرد الرجوع إلى الجنة، بل رجع فيما وهب لداود، وكان قد بكى عليه بعد خروجه منها حتى لو أُجْرِيت السفُن في دموعه لجرت؟

والجواب أن آدم عليه السلام لما ذاق حلاوةَ النعمة في الجنة بكى على فِرَاقها، فلما خرج إلى الدنيا وكلفه الله فيها بالعبادة، لأنها محلُّ تكليف، وذاق حلاوته، اختار ما فيه رضَا الله على حظ النفس. وقيل: كَرِه الخروجَ من الجنة لطلب الراحة وخوف الموت؛ لأنّ الله أخبره أنه لا موت فيها، ولما خرج إلى الدنيا، وعلم بمرارة الموت فيها لم يُرِد الخروجَ منها؛ فإذا أبو بكر المطهر من الذنوب يخاف من هذه الأهوال، فكيف بكَ أيها الغريق لا تخافُ من الفراق، وقَطْع حَبْل التلاق.

﴿شاوِرْهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩] : أمَر الله رسولَه بمشاورة أصحابه في الحروب وغيرها لا في أحكام الشريعة. وقال ابن عباس: وشاورْهُم في بعض الأمر، وقد كان ﷺ يشاوِرُهم في مواطن كثيرة؛ كيوم بَدْر، ويوم الأحزاب، والطائف، وغير ذلك.

وينبغي للإنسان أن يشاورَ في أموره مَنْ يَثِقُ منه بعقلٍ صحيح ووُدٍّ صريح، ولا يستغني برأيه؛ فإن استغنى برأيه زَلّ. قال ﷺ: المشاورةُ تزيد الرجل ذَكاءً. وقد ورد في هذا المعنى من الأحاديث والأخبار ما لا نُطيل بذكره. والله الموفق.

﴿شَجَر بَيْنَهم﴾ [النساء: ٦٥]؛ أي اختلط. واختلفوا فيه؛ ومعنى الآية أنهم لا يؤمنون حتى يَرْضوا بحكم النبيّ ﷺ، ونزلت الآية والتي قبلها في المحاكمة بين المنافقين.

فإن قلت: كثيراً ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسباباً متعددة فبأيّ السبب نأخذ؟

والجواب أن الاعتمادَ في ذلك أن تنظر إلى العبارة الواقعة، فإن عَبَّر أحدهم بقوله: نزلت في كذا، والآخر نزلت في كذا، وذكر أمراً آخر؛ فهذا يُرَادُ به التفسير لا ذِكْر سببِ النزول، فلا منافاةَ بين قولها إذا كان اللّفظ يتناولها، وإن عبَّر واحدٌ بقوله نزلت في كذا، وصرح الآخر بذكر سببٍ خلافه فهو المعتمد. وقد يكون للآية أسبابٌ، وقد أفرد أسباب النزول بالتَّصنيف جماعةٌ أقدمهم علي ابن المديني شيخ البخاري، وألّف فيه شيخ الإسلام أبو الفضل بن جعفر كتاباً مات عليه مسوّدة فلم يقف عليه كاملاً. وقد ألّفتُ فيه كتاب النقول في أسباب النزول، فقِفْ عليه لعل قلبكَ يَميل.

﴿شَنَآنُ قَوْم﴾ [المائدة: ٢]؛ أي بُغْضهم وحِقْدهم. ومعنى الآية: لا يحملنَّكم عَدَاوةُ قومٍ على أن تعتَدُوا عليهم مِنْ أَجْل أَنْ يَصُدُّوكم عن المسجد الحرام.

ونزلت عام الفتح حين ظفر المسلمون بأهل مكة، فأرادوا أنْ يَسْتَأْصِلوهم بالقتل، لأنهم كانوا قد صدُّوهم عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيبية، فنهاهم الله عن قَتْلهم لعلمه بأنهم يؤمنون.

﴿شَهَادَةُ بَيْنِكم﴾ [المائدة: ١٠٦]: مرفوعٌ بالابتداء، وخبره اثْنَان. التقدير شهادة بينكم شهادةُ اثنين، أو شهادة «آخران» على أن تكون إذا بمنزلة حين لا تحتاج جواباً.

ويجوز أن تكون شرطية، وجوابها محذوف يدلُّ عليه ما تقدم قبلها؛ فإن المعنى إذا حضر أحدَكم الموتُ فينبغي أن يَشهد.

وسبب نزول الآية أنّ رجلين خرجا إلى الشام، وخرج معهما رجلٌ آخر لتجارة، فَمرضَ في الطريق، فكتب كتاباً قَيَّدَ فيه كُلَّ ما معه، وجعله في متاعه، وأوصى الرجلين أن يُؤَدِّيَا رَحْله لورثته؛ فمات فقدم الرجلان المدينة، ودفَعا رَحْلَه إلى ورثته، فوجدوا فيه كتابه، وفقدوا منها أشياء قد كتبها، فسألوهما عنها؛ فقالا: لا ندري، هذا الذي قَبضْناه، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ، فاستحلفهما، فبقي الأَمْرُ مدةً، ثم عثر على إناءٍ عظيم من فضة؛ فقيل لمَنْ وجده عنده: مِنْ أين لكَ هذا؟ فقال: اشتريتُه مِن فلان وفلان - يعني الرجلين، فارتفع الأَمْرُ في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأَمر رجلين مِنْ أولياء الميت أن يَحْلِفَا، فحلفا واستحقَّاهُ، فمعنى الآية: إذا حضر الموتُ أحداً في السفَر فليُشْهد عَدْلَين بما معه، فإن وقعت رِيبةٌ في شهادتهما حلفا أنهما ما كذبا، ولا بَدّلا؛ فإن عُثِر بعد ذلك على أنهما كذَبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الميت، وغَرِمَ الشاهدان ما ظهر عليهما.

قال مكي: هذه الآية أَشكلُ آية في القرآن إعراباً ومعنى وحكماً، وتلخيصها ما ذكرناه.

﴿شك﴾ [النساء: ١٥٧]: الشك تَجويز أمرين لامَزِيَّة لأحدهما على

الآخر؛ نحو: شَك الإنسانُ في الغيم غير المشف أنه سيُمطر. وقيل التردد بين حكمين من غير تغليبٍ لأحدهما على الآخر.

﴿شَعَائر الله﴾ [المائدة: ٢]: ما جعله الله عَلَماً لطاعته، واحدتها شَعِيرة، مثل الجرائم، يقول: لا تحلوه، وكان المشركون يحجُّون ويعتمرون، فأراد المسلمون أَنْ يغيِّروا عليهم، فقيل لهم: لا تغيروا عليهم ولا تصدُّوهم. وقيل: هي الْحَرَم، وإحلالُه الصيد فيه. وقيل: هي ما يحرم على الحاج من النساء والصيد وغير ذلك، وإحلالُه فِعْله.

﴿شَاقُّوا الله وَرسوله﴾ [الأنفال: ١٣]؛ أي حاربوهما وصاروا في شقّ غير شقّ المؤمنين.

﴿شرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهم﴾ [الأنفال: ٥٧]؛ أي افعل بهم من النِّقْمة ما يَزْجرُ غيرهم من القتل والتعذيب.

ويقال: شرِّد بهم: سمّع بهم، بلغة قريش.

﴿شَهراً﴾ [التوبة: ٣٦]: قال الجواليقي: ذكر بعضُ أهل اللغة أنه بالسريانية.

﴿شفَا جُرف﴾ [التوبة: ١٠٩]: طرف حُفْرة. وشَفَا الوادي والقبر شفيره.

﴿شغَفَها حُبّاً﴾ [يوسف: ٣٠]: بَلَغ شِغَافَ قلبها، وهو غِلافُه. وقيل السويداء منه. وقيل: الشغاف داء يَصِلُ إلى القلب يقتل مَنْ تمكَّن منه. وقولهم فلان مشغوف بحبِّ فلانة إذا ذهب به الحبُّ أقصى المذهب.

﴿شجرة ملعونة﴾ [الإسراء: ٦]: يعني شجرة الزَّقُّوم؛ وذلك أنَّ قريشاً لما سمعوا أنّ في جهنم شجرةَ الزقوم سخِرُوا من ذلك، وقالوا: كيف تكون شجرةٌ في النار، والنار تُحرق الشجر؟ فقال أبو جهل: ما أعْرِف الزَّقُّوم إلا التمر بالزبد؛ وهذا كلُّه استهزاء وتهَكُّم بنبينا ومولانا محمد ﷺ، وإلا فقد علموا قُدْرةَ الله؛ وكيفَ لا وهُمْ يُخْرِجون من الشجر الأخضر ناراً ينتفعون بها.

فإن قلت: أين لُعنت شجرة الزقوم في القرآن؟

والجواب أنّ المراد لعنة آكلها. وقيل: إن اللعنة هنا بمعنى الإبعاد والكراهية، لأنها في أصل الجحيم.

﴿شاكِلَتِه﴾ [الإسراء: ٨٤]: ناحيته وطريقته التي تُشَاكله. ويدلّ على ذلك قوله:

﴿فربُّكم أَعْلَمُ بمَنْ هُو أَهْدَى سبيلاً﴾ [الإسراء: ٨٤]. وقيل شاكِلته طبيعته؛ وهو من الشكل؛ يقال: لسْتَ على شكلي وشاكلتي.

﴿شَطَطا﴾ [الكهف: ١٤، والجن: ٤]؛ أي جَوْراً وغلُوّاً؛ أي لو دعونا من دونه إلهاً لقُلْنا قولاً شَطَطا.

﴿شتّى﴾ [طه: ٥٣]؛ أي أصنافاً مختلفة.

﴿شَجَرة الْخُلْد﴾ [طه: ١٢٠]: هذا من قول إبليس لآدم وحوّاء؛ وعدَهُما بأَنّ مَنْ أكل منها لا يموت.

﴿شاطىء الْوَادِي﴾ [القصص: ٣٠]؛ أي شَطّه.

﴿شاخِصَةٌ﴾ [الأنبياء: ٩٧]: من الشخوص، وهو إحْدَادُ النظر من الخوف، لا تكاد تُبْصر.

﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أصْل الجحيم﴾ [الصافات: ٦٤]؛ أي تنبت في قَعْر جهنّم، وترتفع أغصانُها إلى دركاتها. وشَبّه طَلْعَها برؤُوس الشياطين مبالغة في قبْحه وكراهته؛ لأنه قد تقرر في نفوس الناس كراهتها، وإن لم يَرَوها؛ ولذلك يقولون للقبيح المنظر: وجه شيطان. وقيل رؤوس الشياطين شجرة معروفة باليمن. وقيل: هو صنف من الحيات.

﴿شَوْباً مِنْ حَميم﴾ [الصافات: ٦٢]؛ أي مزاجاً من حَمِيم حار.

فإن قلت: لم تُعطف هذه الجمل بثم؟

فالجواب مِن وجهين: أحدهما أنه لترتيب تلك الأحوال في الزمان. والمعنى

أنهم يملأون البطون من شجرة الزقّوم، وبعد ذلك يشربون الحميم. والثاني أنه لترتيب مضاعفة العذاب، فالمعنى أنّ شربهم للحميم أشدٌّ مما ذكر قبله.

﴿شَكْلِه﴾ [ص: ٥٨]؛ أي مثله ونوعه. والمعنى أن الله تعالى نوّع على أهل النار أنواعاً من العذاب.

﴿شَرَع لكُمْ من الدين﴾ [الشورى: ١٣]: قد قدمنا أنّ الله تعالى فتح لنا بالدين الذي هو التوحيد والإيمان برسله وكتبه والدار الآخرة.

﴿شَرِيعةٍ من الأمر﴾ [الجاثية: ١٨]؛ أي ملّة ودين.

﴿شَطْأه﴾ [الفتح: ٢٩]: قد قدمنا أنها فراخ السنبلة التي تَنْبت حول الأصول. ويقال بإسكان الطاء وفتحها دون مدّ، وفتحها مع المد؛ وهي لغات.

﴿شَدِيدُ القُوَى﴾ [النجم: ٥]: هو جبريل. وقيل الله تعالى. والأول أرجح؛ لقوله: ذِي قُوَّة عند العرش. والقُوَى جمع قُوّة.

﴿شَوى﴾ [المعارج: ١٦]: أطراف الجسد. وقيل: جلد الرأس. والمعنى أنّ النار تنزعها ثم تعاد.

﴿شراباً طهوراً﴾ [الإنسان: ٢١]؛ أي ليس بِنَجس كخمر الدنيا. وقيل معناه أنه لم تَعْصرهُ الأقدام، وقيل معناه: لا يصير أذى.

﴿شامخات﴾ [المرسلات: ٢٧]؛ أي مرتفعات. ومنه يقال: شمخ بأَنْفِه.

﴿شفَق﴾ [الانشقاق: ١٦]: الحمرة التي تَبْقَى بعد غروب الشمس. وقال أبو حنيفة: هو البياض. وقيل: هو النهار كلّه. وهذا ضعيف، والأول هو المعروف عند الفقهاء، وأهْل اللغة.

﴿شَاهِد ومَشْهود﴾ [البروج: ٣]: يحتمل الشاهد أن يكون من الشهادة على الأمر، أو يكون من معنى الحضور، وحذف المعمول؛ وتقديره مشهود عليه، أو مشهود به، أو مشهود فيه.

وقد اضطرب الناسُ في تفسير الشاهد والمشهود اضطراباً عظيماً، ويتلخص من أقوالهم في الشاهد ستة عشر قولاً، يقابِلُها في المشهود اثنان وثلاثون قَولاً:

قيل الشاهد هو الله تعالى، لقوله: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ [النساء: ٧٩] والمشهود على هذا يحتمل ثلاثة أقوال: أحدها أن يكون الخلق، بمعنى أنه يشهد فيه، أي يحضر للحساب والجزاء، أو تقع فيه الشهادةُ على الناس.

وقيل إن الشاهد محمد ﷺ لقوله: ﴿ويكون الرسولُ عليكم شَهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]. والمشهود على هذا يحتمل أن يكون أُمته، لأنه يشهد عليهم، أو أعمالهم، لأنه يشهد بها، أو يوم القيامة، لأنَّه يشهد فيه، أي يَحْضر، أو تَقَع فيه الشهادة على الأمة.

وقيل الشاهد أُمَّة محمد ﷺ لقوله: ﴿وتكونوا شُهَداء على الناس﴾ [الحج: ٧٨]. والمشهود على هذا سائر الأمم، لأنهم يشهدون عليهم، أو أعمالهم، أو يوم القيامة.

وقيل الشاهد عيسى عليه السلام، والمشهود أُمَّتُه، لقوله: ﴿وكُنت عليهم شهيداً ما دُمْتُ فيهم﴾ [المائدة: ١١٧]. أو أعمالهم، أو يوم القيامة.

وقيل إن الشاهد جميع الأنبياء، والمشهود أممهم، لأن كل نبيّ يشهد على أمته، أو يشهد بأعمالهم، أو يوم القيامة لأنه يشهد فيه.

وقيل إن الشاهد الملائكة الحفَظة. والمشهود على هذا أعمال الناس، لأن الملائكة يشهدون بها، أو يوم القيامة، أو صلاة الصبح، لقوله: ﴿إنَّ قُرآن الفَجْرِ كان مشهوداً﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقيل إن الشاهد جميعُ الناس، لأنهم يشهدون يوم القيامة، لقوله: ﴿وذلك يوم مشهود﴾ [هود: ١٠٣].

وقيل: الشاهد الجوارح، والمشهود عليه أصحابُها، لقوله: ﴿يوم تَشهَدُ عليهم

أَلْسِنَتُهم...﴾ [النور : ٢٤] الآية ؛ أو الأعمال ؛ لأن الجوارح تشهد بها ، أو يوم القيامة لأن الشهادة تقع فيه .

وقيل الشاهد الله والملائكة وأولو العلم ، لقوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللهُ أنه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولو العلم﴾ [آل عمران : ١٨] . والمشهود به الوحدانية .

وقيل الشاهد جميع المخلوقات . والمشهود به وجودُ خالقها ، وإثباتُ صفاتها من الحياة والقدرة وغير ذلك .

وقيل الشاهد النجم ؛ لما ورد في الحديث : لا صلاةَ بعد العصر حتى يطلعَ الشاهد ، وهو النجم . والمشهود على هذا الليلُ والنهار ؛ لأنّ النجم يشهد بانقضاء النهار ودخولِ الليل .

وقيل الشاهد الحجَر الأسود . والمشهود الناس الذين يحجّون ؛ وقال ﷺ : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عَرفة ؛ وذلكَ لأنّ يوم الجمعة يشهد بالأعمال ، ويوم عَرَفة يشهده جمع عظيم من الناس .

وقيل الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر .

وقيل الشاهد يوم التَّرْوِيَة . والمشهود يوم عَرفة .

وقيل الشاهد يوم الاثنين . والمشهود يوم الجمعة .

﴿شَفْع﴾ :يعني ثني ؛ وأما قوله تعالى : ﴿والشَّفْع والوَتْر﴾ [الفجر : ٣] فقد كثرت فيه الأقاويل . وفي الحديث أن الشفع يوم النحر ، والوَتْر يوم عرفة ؛ وذلك لأن يوم النحر عاشر ، فعدَدُهُ شَفْع ، ويوم عرفة تاسع ، فعدَدُه وَتْر .

وروي عنه عليه السلام أنها الصلوات ؛ منها شَفْع ووتر . وقيل الشفع التنفل بالصلاة مَثْنَى مَثْنَى ، والوَتْر : الركعة الواحدة المعروفة . وقيل الشفع : العالم ، والوتر الله ؛ لأنه واحد . وقيل الشفع آدم وحواء ، والوَتْر الله تعالى . وقيل الشّفع الصفا والمروة ، والوَتْر البيت الحرام . وقيل الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية ، والوتر أبواب النار ؛ لأنها سبعة ، وقيل الشفع قِرَان الحج والوتْر إفراده . وقيل المراد

الأعداد منها شَفْع ووتر؛ فهذه عشرة أقوال. وقيل الشفع الصلوات، والوتر المغرب. وقيل الشفع رجب وشعبان، والوتْر رمضان. وقيل الشَّفْع صفات الْخَلْق كالعجز والقُدْرة، والعلم والجهل، والعزّ والذل. وقيل الشّفْع ما يتكرر من الفرائض؛ كالصلاة، والصوم. والوتْر: ما لا يتكرر. وقرىء الوتر بفتح الواو وكسرها، وهما لغتان.

﴿شُرَّعاً﴾ [الأعراف: ١٦٣]، بضم الشين: ظاهرة قَرِيبة منهم. يقال شرع منا فلان، إذا دنا؛ وقِصَّتُهم أن الله تعالى أكرم موسى عليه السلام بيوم السبت، وأمره أَنْ يأمر بني إسرائيل بتعظيمه، ولا يشغلوا بشيء من أحوال الدنيا، وكانت بلدة يقال لها أَيْلَة، وكان أهلها صيّادين يصطادون السمك، فأرسل اللهُ تعالى إليهم داود عليه السلام، وأمره أَنْ يمنع الصيادين عن صَيْد السمك في يوم السبت، وأباح لهم في سائر الأيام، فبلَّغَ داودُ عليه السلام رسالةَ ربه، فلم يقبل اليهود، فابتلاهم اللهُ تعالى، فكانت تدخل سمكُ جميع الأبحر في بَحْرهم يوم السبت، ولا تدخل في سائر الأيام سمكةٌ قط، فوقع القحطُ والغلاء، وسلَّط الله عليهم الجوع، فاضطروا فحفَروا حياضاً وأنهاراً، وأسالوا الماءَ من الأنهار في الحياض يوم السبت، فإذا رأوا امتلاءَ الحياض أَلْقَوْا شباكهم يوم الجمعة بعد العصر، وأخرجوها يوم الأحد، فيأكلون ويبيعون؛ فنصحهم العلماء والحكماء الزّهاد بالكف عن صيدهم، فلم يمتنعوا. فلما لم يسمعوا مواعظهم خرجوا مِنْ ديارهم كي لا يعاقَبُوا معهم، فلما أراد الله عقوبتهم بعد إمهالهم سنتين أرسل إليهم رسولاً لينصحهم ويعظهم، فلم يتعظوا، فيوماً من الأيام دخل العلماء في البلدة فلم يروا فيها أحداً من الناس، ففتحوا أبوابَ البيوت، ودخلوا فرأوا الذكور والإناث كلّهم قد مسخوا قردة؛ قال تعالى: ﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به...﴾ [الأنعام: ٤٤] الآية، والإشارة فيه كأن الله تعالى يقول: مَنِ احتال في صيد السمك جزاؤه أَنْ أحَوِّل صورته قِرَدة، فكيف بمن احتال في تحليل ما حرَّمْتُ من خَمر ورِبا؛ أفلا يخاف من تحويل صورته وإن رَفع اللهُ مَسْخَ الظاهر ببركة سيدنا ومولانا محمد الطاهر؛ فإنَّ مَسْخَ البواطن معلوم كما هو مشاهَدٌ في

الشُّرَط والْجَلاَوِزة وشِبْههم؛ تراهم طولَ يومهم يروِّعون الناس، ويغضبون في وجوههم؛ فهؤلاء مُسخوا على صورة الكلاب، ومنهم على صورة الخنازير؛ وهم أهل القَذَارة والبلادة، وهكذا تَتَبع بنظرك صفةَ كل شخص في خَلْقه تستدلُّ بذلك على مسخ قلبه ما هو. وقد يبقى متحيِّراً لا مَسْخَ في قلبه، إلا أن قلبه قد مات؛ وقد أخبر بذلك الصادقُ المصدوق في قوله: يأتي على الناس زمان يموت فيه قلْبُ المرء كما يموت بَدَنُه، أو كما قال ﷺ. لأن القلب إذا لم تبق فيه تلك الحرارةُ الغريزية حتى يَفْقَه مصالِحه فهو ميت، وقد يكون موته حقيقياً. والله أعلم.

والقدرةُ صالحة أن يكون حسيّاً أو معنوياً؛ فإنه إذا لم ينتفع بقلبه في النوع الذي أرِيد منه، وتوالَتْ عليه الشهواتُ حتى لا يَرَى إلا هي، فذلك مَوْتُه؛ لأن الفائدة التي في حياة القلب معدومة منه؛ ولذلك شبَّه ﷺ الذاكر به بالْحَي، والغافل بالميت؛ واحتمل أن يكون موته حسيّاً حيث شاء الله كما ييبس عُضْوٌ من أعضاء الشخص مثل يَده أو رِجله أو غيره من الجوارح، وباقي بَدنه صحيح القُدْرة صالح.

وقد ذكر بعضُ شُرَّاح البخاري عن بعض مَنْ سمع الحديث: أمَا يخشى الذي يرفع رَأْسه قبل الإمام في الصلاة أن يحوِّل الله رأسه رَأْسَ حمار! فاستَهْوَنَه، ورفع رأسه امتحاناً بما صحَّ عن الصادق المصدوق؛ فحوَّل اللهُ رَأْسَه رَأْسَ حمار، وصار عجباً ينظر إليه

فإن قلت: قد صح أنه ﷺ أمانٌ من المسخ، فكيف يمسخ هذا؟ وما معنى الحديث؟

فالجواب: أنَّ معناه تحويل بعض الأجزاء من الإنسان لا مَسْخه كلّه، وهَبْكَ أنه مُسخ كله فهو أمَان في الغالب وفي جميع الأمة، وأما في بعض الأفراد فممكن والله أعلم. وإذا تأمَّلْتَ إخبارَ الله لرسوله في أصحاب السبت في مواضع تَجد ذلك تحريضاً وتأكيداً للنهي عن ارتكاب ما حَرّم الله ورسوله؛ أوّلها قوله:

﴿إنما جُعِل السَّبْتُ على الذين اختلَفُوا فيه﴾ [النحل: ١٢٤]. ﴿ولقد علمْتُم الذينَ اعتَدَوْا منكُم في السَّبت﴾ [البقرة: ٦٥]. ﴿أو نَلْعَنَهُمْ كما لَعَنَّا أصحابَ السَّبْت﴾ [النساء: ٤٧]. ﴿قُلْنَا لهم: لا تَعْدُوا في السبت﴾ [النساء: ١٥٤]. ﴿واسأَلْهُمْ عن القريةِ التي كانَت حاضِرَةَ البحر، إذ يَعْدُون في السبت إذ تأتيهم حِيتانهم يوم سَبْتِهم شُرَّعاً ويوم لا يَسبتُون لا تأتيهم﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وافترقت بنو إسرائيل ثلاث فرق: فرقة عصت بالصيد يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت، وفرقة سكتت واعتزلت ولم تَنْهَ ولم تَعْص؛ وإن هذه الفرقة لما رأت مهاجرةَ الناهية وطغيان العاصية قالوا للفرقة الناهية: لم تَعِظُونَ قوماً يُريد اللهُ أَنْ يُهلكهم أو يعذبهم؟ فقالت الناهية: ننهاهم معذرة إلى الله، ولعلهم يتقون: فهلكت الفِرقةُ العاصية، ونَجَت الناهية، واختلف في الثالثة؛ هل هلكت لسكوتها أو نجت لاعتزالها وتَرْكها العصيان؟

فانظر يا محمدي، كيف يكون حالُك لولا أنّ الله مَنَّ عليك بنبي كريم شفع لك وفيك، كما قال ﷺ: حياتي خير لكم ومماتي خير لكم؛ أمّا حياتي فأَسنّ لكم وأشرع لكم الشرائع، وأما مماتي فإن ذنوبكم تُعْرَضُ عليّ، فما كان منها سيِّئاً استغفرتُ الله لكم. فأَكْثِر من الصلاة عليه صلى الله عليه وعلى آله في كل وقْت وحِين.

﴿شُقَّة﴾ [التوبة: ٤٢]؛ أي طريق ومسافة.

﴿شُعُوب﴾ [الحجرات: ١٣] جمع شَعب بفتح الشين، وهو أعظم من القبيلة، وتحته القبيلة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة؛ وهم القرابة الأدْنَون؛ فمُضَر وربيعة وأمثالها شعوب، وقريش قبيلة، وبنو عبد مناف، وبنو هاشم فخذ ـ ويقال بإسكان الخاء فَرْقاً بينه وبين الجارحة، وبنو عبد المطلب فصيلة. وقيل الشعوب في العجم والقبائل في العرب، والأسباط في بني إسرائيل.

﴿شُوَاظ﴾ [الرحمن، ٣٥]: لهب نار. وقرىء بكسر الشين، وهما لغتان.

﴿شُهُب﴾ [الجن: ٨، ٩]: جمع شهاب، وهو كل متوقد مضيء.

فإن قلت: ما فائدة تكريره في سورة الجن [٨ ، ٩] في موضع واحد؟

والجواب: أنه كرره لاختلاف اللفظ، ووصف الحرس بالشديد، وهو مفرد؛ لأنه يحتمل أن يُريد به الملائكة الحراس أو النجوم الحارسة.

﴿شيث﴾: ولد آدم عليه السلام.

﴿شيبا﴾، وهو في اللغة الأبيض الرأس، وقوله تعالى: ﴿لا شِيَةَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ أي لا لون فيها غير الصفرة، وهو من وَشَى، ففاؤه واو محذوفة كعدة.

﴿شِقَاق﴾ [ص: ٢]: عداوة وقصد المخالفة وقد قدمنا أن تنكير العزة والشقاق للدلالة على شدتها وتفاقم الكفار فيها.

﴿شِرْعَة﴾ [المائدة: ٤٨]؛ أي شريعة يتبعونها، وقد استدل بها من قال إن شريعة مَنْ قبلنا في الفروع ليست شرعاً لنا. وقيل الشرعة معناها ابتداء الطريق.

﴿شِيَعا﴾ [الأنعام: ٦٥ ، ١٥٩ ، والقصص: ٤ ، والروم: ٢٣]: جمع شيعة، أي متفرقين، كل فرقة تتشيَّع لمذهبها.

وقوله: ﴿في شِيَع الأوَّلين﴾ [الحجر: ١٠]؛ أي أُمَم الأولين.

﴿شِقِّ الأنْفس﴾ [النحل: ٧]؛ أي مشقَّتها.

﴿شِرْذِمة﴾ [الشعراء: ٥٤]؛ أي طائفة من الناس، وفي هذا احتقار لهم، على أنا قدمنا أنهم كانوا ستمائة ألف، ولكن جنود فرعون أكثر منهم بكثير.

﴿شِرْب﴾ [الشعراء: ١٥٥ ، والقمر: ٢٨]: نصيب.

﴿شِيعته﴾ [القصص: ١٥ ، والصافات: ٨٣]: أعوانه، مأخوذ من الشياع، وهو الحطب الصغار الذي يُشعل به النار ويعين الحطب الكبار على اتّقاد النار. وقيل الشيعة الأتباع من قولهم: شاعك كذا وكذا إذا اتبعك.

﴿شِعْرَى﴾ [النجم: ٤٩]: نجم في السماء، ويسمى كلب الجبار، وهما شِعْريَان: الغُمَيْصَاء، والْعَبُور. وقد قدمنا تخصيصها بالذكر لعبادةِ بَعْض العرب لها.

حرف الهاء

﴿هارون﴾ [البقرة: ٢٤٨] :شقيق موسى. وقيل لأمه فقط، حكاهما الكرماني في عجائبه. كان أطول منه، فصيحاً جدًّا، مات قبل موسى، وكان وُلد قبله بسنة. وفي بعض أحاديث الإسراء: صعدت فيه إلى السماء الخامسة، فإذا أنا بهارون ونصفُ لحيته بيضاء ونصفها أسود، تكاد لحيته تضرب سُرَّته من طولها. فقلت: يا جبريل، مَنْ هذا؟ قال: المحب في قومه هارون بن عمران، وذكر ابن مسكويه أن معنى هارون بالعبرانية المحب.

وقال ابن عباس: إنما سمي موسى لأنه أُلقي بين شجر وماء، فالماء بالقبطية مُو، والشجر سا. وفي الصحيح أنه وصفه بآدم طوال.

فإن قلت: ما فائدة لُقْيَاه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ وهل كان لقاؤه لأرواحهم؟ أو للأجساد مع الأرواح؟

فالجواب أن الله أسرى بأجسادهم ليراهُم ﷺ، ويؤم بهم، ويتشرفون برؤيته. ولما رأوا فَضْلَه وتَعْظيمَه في كتبهم طلبوا من الله أَنْ يُريهم وجهه الكريم، ولذا طلب موسى وعيسى أن يكونا من أمته.

﴿هود﴾: له معنيان: بمعنى اليهود، ومنه: ﴿كانوا هُوداً﴾ [البقرة: ١١١]، وهاد يهود في اللغة إذا تاب. ﴿والَّذِين هَادُوا﴾ [البقرة: ٦٢]، أي تهودوا، وصاروا يهوداً، من قوله: ﴿هُدْنَا إليكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهود: اسْمُ نبي قَوْم عاد، كان أشبهَ الناس بآدم. وقال ابن مسعود: كان

رجلاً جَلْداً. أخرجه في المستدرك. وقال ابن هشام: اسمه عابر بن أرفخشد بن سام بن نوح. وقال غيره: الراجح أنه هود بن عبدالله بن رباح بن داود بن عاد ابن عوص بن آدم بن سام بن نوح. قال الجواليقي: هود: اليهود، أعجمي. وحكى شيذلة وغيره أن معنى «هُدْنا إليْك» تُبْنَا إليك ـ بالعبرانية.

﴿هَدْي﴾ [البقرة: ١٩٦]، بالهاء مفتوحة وإسكان الدال: ما يُهْدَى إلى الكعبة من البهائم، واحدته هَدْي وهَدْية.

﴿هاجروا﴾ [البقرة: ٢١٨]: تركوا بلادهم وأموالهم حبًّا لله ورسوله. وفي الحديث: المهاجِرُ مَنْ هجر ما نهى الله عنه.

﴿هار﴾ [التوبة: ١٠٩]: مقلوب من هائر، أي ساقط، يقال هار البناء وانْهَار وتَهَوَّر: سقط.

﴿هَمّت طائفةٌ منهم أنْ يُضِلّوك﴾ [النساء: ١١٣]: هم الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ أن يُبَرئوا ابْنَ الأبَيْرق من السرقة؛ وهذه الآياتُ وإن كانت إنما نزلت بسبب سرقة لبعض الأنصار فهِيَ أيضاً تتضمن أحكاماً غيرها.

﴿هَيْت لك﴾ [يوسف: ٢٣]؛ أي هَلُمَّ بالنبطية. وقال الحسن: هي بالسريانية. وقال عكرمة: بالحورانية. وقال أبو زيد الأنصاري: هي بالعبرانية، وأصلها هيتلح؛ أي تعاله. وقرىء بفتح الهاء وضمها وكسرها. والمعنى في ذلك كلّه واحد، وحركة التاء للبناء.

وأما من قرأه بالهمز فهو فعل من تهيّأت؛ كقولك: جئْت.

لَمّا قالت له هلم أنا لكَ وأنت لي؛ فقال لها يوسف: أنت لزوجك وأنا لربي.

وكذلك أنت يا محمديّ يَدَّعِي إبليسُ أنكَ له ليدخلك معه في النار، فيقول: تعال، أنت للنار وهو للعزيز الجبار، فعليك بشُكْرِ مولاك، والرجوع إليه، ليكون لك؛ ألا تَرى زُليخا غلّقت الأبواب كلّها عليه لتصيب الخلوة معه، فكذلك أنت غلق العلائق كلها من قلبك لتكونَ له خاصة، ولا يقدر إبليس

على الدخول فيه؛ لأنه لا يدخل إلا بيتاً ليس فيه حب المولى؛ وأما البيت الذي هو مشغوف بخالقه، فكيف يدخلُ فيه، والله يقول: ﴿إنَّ عِبَادِي ليس لكَ عَليهم سُلْطان﴾ [الحجر: ٤٢]. وقال: ﴿لا تدخلُوا بيوتاً غَيْرَ بيوتكم حتى تَسْتَأنِسُوا﴾ [النور: ٢٧]. ولا تغتر بحبّ وَلِيّ أو عالم، وتطمع أَنْ يَشْفعَ فيك أَحد؛ فإن سَيِّدَ الأولين والآخرين لم يقدر على هداية أَعمامه أَو أحد من خَلْقـه؛ فكيف بغيره؟ وإذا كنت معه سبحانه فلا يقدر إبليس على إغوائك.

﴿وهَمّ بها﴾: الضمير لزليخا؛ وقد أكثر الناسُ الكلامَ في هذه الآية وأَلّفُوا فيها تواليف، فلا تأخذ منها ما ذكره بعضهُم من حل تكته وقعوده بين رِجليْها وغيره؛ بل هَمَّ بها إنما كانت خطرة له ولم يعزم، بل أَقلع في الحال حتى محاها من قلبه لَمّا رأى بُرْهَانَ ربه.

وقد قدمنا أنَّ البرهان كان أنه رأى في الحائط مكتوب: ﴿ولا تقْرَبُوا الزنى﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقيل تكلم صبيٌّ في المهد: يا يوسف، إن الله مطّلِع عليكَ وإن لم تره. وقيل: رأى صورةَ يعقوب على الجدار عاضّاً على أنامله من الغضب. وقيل: إن زليخا ستَرَتْ صنماً لها بديباج، فقال لها يوسف: لِمَ فعلت هذا؟ فقالت: أنا أَستحي منه. فقال: أنت تستحين من صنم لا عَقْل له، فكيف لا أستحي أنا ممن خلقني! وقيل غير هذا. والصحيح أن اللهَ عصمه من المخالفة، واستغفر مما خطر له من الهم، فكتبت له حسنة.

ويقال: إن ثلاثة من الأنبياء رأَوا ثلاثةَ أشياء، فازداد لهم بها ثلاثة: أولهم إبراهيم رأى ملكوتَ السموات والأرض فازداد له يقيناً. ويوسف رأى برهانَ ربه فازداد عصمة. ونبينا محمد ﷺ أَراه الله الإسراءَ فازداد به رؤية المولى. قال تعالى: ﴿ما كذبَ الفؤَادُ ما رأَى﴾ [النجم: ١١].

﴿هذا لله بِزَعْمِهِم﴾ [الأنعام: ١٣٦]؛ أي بدَعْوَاهم وقولهم من غير دليل ولا شَرْع. وأَكْثَرُ ما يقال الزَّعْم في الكذب. وقرىء بضـم الـزاي وفتحها، وهما

لغتان. قال السهيلي: هم حيٌّ من خَوْلان يقال لهم الأديم كانوا يجعلون من زُروعهم وثمارهم ومن أنعامهم نصيباً لله ونصيباً لأصنامهم.

﴿هَوَاء﴾ [إبراهيم: ٤٣] - بالمد: منخرمة لا تَعِي شيئاً من شدة الجزَع، فشبهها بالهواء في تفرغه من الأشياء. ويحتمل أن يريد مضطربة في صدورهم، وقد قدمنا قول الزمخشري إن البيانيين يجعلونه استعارة، وإنه إشارة إلى ذهاب أفئدتهم وعدم انتفاعهم بها.

وهوى النفس - بالقصر: ما تحبه وتميل إليه. ومنه: ﴿ونَهَى النَّفْسَ عن الهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]. والفعل منه بكسر الواو في الماضي وفتحها في المضارع. وهَوَى يَهْوِي، بالفتح في الماضي والكسر في المضارع: وقع من علو. ويقال أيضاً بمعنى الميل. ومنه: ﴿أفئدَة من الناسِ تَهْوِي إليهم﴾ [إبراهيم: ٣٧]. والهواء، بالمد والهمز: ما بين السماء والأرض.

﴿هؤلاء وهؤلاء من عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]: الإشارة إلى الفريقين المتقدمين. والعطاء: هو رزق الدنيا. وقيل: من الطاعات لمن أراد الآخرة، ومن المعاصي لمن أراد الدنيا. والأولُ أظهر.

﴿هَشِيماً﴾ [الكهف: ٤٥]: متفتّتاً، ومنه سمي الرجل هاشماً.

﴿هَدّاً﴾ [مريم: ٩٠]؛ أي انهداماً وسقوطاً إلى أسفل، وهو قَعْر جهنم.

﴿هَدَى﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي هدَى خَلْقَه إلى التوصل إلى العلم والهداية، فضلاً منه وإحساناً.

﴿هَمْساً﴾ [طه: ١٠٨]: هو الصوت الخفي، ويعني به صوت الأقدام إلى المحشر.

﴿هَضماً﴾ [طه: ١١٢]؛ أي بَخْساً ونَقْصاً لحسناته، يقال هضمه واهتضمه، إذا نقصه حقّه.

﴿هاتُوا بُرْهَانكم﴾ [البقرة: ١١١]: تعجيز لهم، وهو من هاتَى يُهاتي، ولم يُنطق به.

وقيل: أصله أتوا، وأبدل من الهمزة هاء.

﴿هـذا ذِكْـرُ مَـنْ مَعِـيَ وذِكْـرُ مَـنْ قَبْلي﴾ [الأنبيـاء: ٢٤]: ردٌّ على المشركين. والمعنى هذا الكتابُ الذي مَعِي والكتبُ التي من قبلي ليس فيها ما يقتضي الإشراكَ بالله تعالى؛ بل كلُّها متفقةٌ على التوحيد.

﴿هذا الَّذِي يَذْكُر آلِهَتكم وهُمْ بذِكْرِ الرحمنِ هم كافرون﴾ [الأنبياء: ٣٦]: لما كان الذكر بمدح وبذم ذكروا أن إبراهيم يذكر آلهتكم بالذم، دلت على ذلك قرينةُ الحال؛ وهم بذكر الرحمن في موضع الحال. أي كَيف ينكرون ذمَّك لآلهتهم وهم يكفرون بالرحمن؛ فهو أحقٌّ بالملامة. وقيل: معنى بِذِكْر الرحمن تسمية بهذا الاسم، لأنهم أنكروها، والأول أغرق في ضلالهم.

﴿هذه أُمَّتُكم﴾ [الأنبياء: ٩٢]؛ أي مِلَّتكم ملةٌ واحدة، وهذا خطاب للناس كافة أو المعاصرين لرسول الله ﷺ.

﴿هامِدَة﴾ [الحج: ٥]: يعني لا ثبات معها.

﴿هَمزَاتِ الشَّيَاطِين﴾ [المؤمنون: ٩٧]: يعني حركاتهم ونزعاتهم. وقيل جنونهم. والأول أعم.

﴿هبَاءً﴾ [الفرقان: ٢٣، الواقعة: ٦]: هي الأجرام التي لا تظهر إلا حين تدخل الشمس على موضع ضَيّق كالكوة. وقد قدمنا أنه النور المتفرق، ومنه: ﴿هَبَاءً مُنْبَثاً﴾ [الواقعة: ٦]؛ وهو ما سطع بيْن سنابك الخيل، من الْهَبْوَة، وهي الغبار.

﴿هَوْناً﴾ [الفرقان: ٦٣]: رُوَيداً، يعني أنهم يمشون بحلم ووَقار. ويحتمل أن يكون وصف أخلاقهم في جميع أحوالهم؛ وعَبَّر بالمشي على الأرض عن جميع تصرفهم وحياتهم.

﴿هَضِيم﴾ [الشعراء : ١٤٨]؛ أي ليّن رطب. يعني أن طَلْعها يثمر ويرطب.

﴿هؤلاء الذين أغْوَيْنَا﴾ [القصص : ٦٣] : الإشارة إلى أتباعهم من الضعفاء.

فإن قلت: كيف الجمع بين قولهم: ﴿أغويناهم﴾ وبين قولهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إليك﴾ [القصص : ٦٣] ، فإنهم اعترفوا بإغوائهم وتبرءوا مع ذلك منهم؟

فالجواب أن إغواءهم لهم هو قولهم لهم بالشرك. والمعنى أنَّا حملناهم على الشِّرْك كما حملنا أنْفُسنا عليه، ولكن لم يكونوا يعبدونهم؛ وإنما كانوا يعبدون غيرهم من الأصنام وغيرها، فتبرأْنَا إليكَ عن عبادتهم لها؛ فتحصّل من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم أغْوَوا الضعفاء وتبرَّءُوا من أن يكونوا هم آلهتهم؛ فلا تناقض في الكلام. وقد قيل في الآية غير هذا مما هو تكلّف بعيد.

﴿هل لكم مِمَّا ملكَت أيْمانُكم﴾ [الروم : ٢٨] : هذا مثل مضروب، معناه أنكم أيها الناس لا يشارِككم عبيدُكم في أموالكم، ولا يَسْعَوْنَ معكم في أحوالكم، فكذلك اللهُ لا يشارِكه عَبِيدُه في ملكه، ولا يُمَاثِلُه أحد في ربوبيته. فذكر حرف الاستفهام، ومعناه التقرير على النفي، ودخل فيه قوله: ﴿فأنتم فيه سَوَاءٌ تَخَافُونَهم كخِيفَتِكم أنْفُسَكم﴾ [الروم : ٢٨]؛ أي لستم فيه سواء مع عبيدكم، ولستم تخافونهم كما تَخَافُون الأحرار مثلكم، لأن العبيد عندكم أقل من ذلك.

﴿هَلُمَّ إلينا﴾ [الأحزاب : ١٨] هذا من قول المنافقين الذين قعدوا بالمدينة عن الجهاد، كانوا يقولون لقرابتهم وأخِلاّئهم من المنافقين: هَلُمَّ إلى الجلوس معنا بالمدينة وتَرْك القِتال.

﴿هل يَنْظُرونَ إلاّ تَأْويله﴾ [الأعراف : ٥٣]؛ أي عاقبة أمره وما يؤول إليه من ظهور ما نطق من الوَعْد والوعيد.

﴿هل أتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١]: جاءت هذه القصةُ بلفظ الاستفهام تنبيهاً للمخاطب ودلالةً على أنها من الأخبار العجيبة التي ينبغي أنْ يلقى البال لها.

﴿هذا أَخي له تِسْعٌ وتسعون نَعْجَةً﴾ [ص: ٢٣]: هذا من حكاية كلاَمِ أحَدِ الخصمين. والأخوة هنا أخوة الدين. ومنه الحديث: إذا ضرب أحدكم أخاه فليجتنب الوَجْه.

والنّعْجَة تقَعُ في اللغة على أنثى بَقر الوحش، وعلى أنثى الضأن؛ وهي هنا عبارة عن المرأة، وكأنه لم يُرِد الإفصاح بقصة داود مع امرأة أوريا، وإنما ضرب له المثل لينتبه. ﴿هذا﴾ ذكر الإشارة إلى ما تقدم في هذه السورة من ذِكرِ الأنبياء وقيل الإشارة إلى القرآن بجملته.

والأول أظهر، فكأن قوله ﴿هذا﴾ ذكرُ ختامٍ للكلام المتقدم، ثم شرع بعده في كلامٍ آخر كما يتم المؤلّف باباً ثم يقول هذا باب، ثم يشرع في آخر.

﴿هذا، وإن للطّاغين لَشرَّ مَآب﴾ [ص: ٥٥] تقديره: الأَمْرُ هذا. لما تم ذِكْرُ أهل الجنة ختمه بقوله: هذا، ثم ابتدأ وَصْفَ أهل النار، ويعني بالطَاغِينَ الكفار.

﴿هذا فلْيَذُوقوه حَمِيمٌ﴾ [ص: ٥٧]: هذا مبتدأ وخبره حميم، وفليذوقوه اعتراض بينهما.

﴿هل هُنّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أو أرادني برحمةٍ هل هُنَّ مُمْسِكـاتُ رَحْمَتِـه﴾ [الزمر: ٣٨]: هذه الآية تدل على رحمانية الله وتَرُد على المشركين في عبادتهم الأصنام. وسبَبُها أنهم خوّفوا رسولَ الله ﷺ منها فنزلت الآية مبينةً أنهم لا قدرة لهم.

فإن قلت: كيف قال كاشفات ومُمْسكات بالتأنيث؟

فالجواب: أنها لا تعقل فعامَلَها معاملةَ المؤنث. وأيضاً ففي تأنيثها تحقير لها وتهكّم بمن عَبدها.

﴿هَذه أبداً﴾ [الكهف: ٣٥]: هو قَوْلُ الوليد بن المغيرة، وأنكر بقوله أنْ يكونَ الله تفضَّل عليه. وهذا إنكار للبعث، لقوله بعده: ﴿وما أظنُّ الساعةَ قائمة﴾ [الكهف: ٣٦]. ومعناه إن بعثت على زعمكم فلي الجنة، وهذا تَخَرُّصٌ وتكبر من الوليد.

﴿هذه الأنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِـي﴾ [الزخـرف: ٥١]: هـذا مـن قـول فرعون، ويعني بالأنهار الخلجان الكبار الخارجة من تحت النيل، وكانت تجري تحت قُصوره. وقد قدمنا أنها أنهار الإسكندرية ودمياط وتنيس، وطولون.

﴿هذا إفْكٌ قَدِيم﴾ [الأحقاف: ١١]: هذا من قول مَنْ لم يَهْتَدِ بالقرآن، ووصفوه بالقِدَم لأنه قد قيل قديماً.

فإن قلت: كيف عَمِل ﴿فسيقُولون﴾ في ﴿إذ﴾ وهي للماضي، والعامل مستقبل؟.

فالجواب أنَّ العامل في إذ محذوف تقديره إذ لم يهتدوا به من عِنادهم فسيقولون؛ قال ذلك الزمخشري. ويظهر لي أنّ إذْ هنا بمعنى التعليل في القرآن وفي كلام العرب، ومنه: ﴿ولن يَنْفَعكم اليومَ إذْ ظَلمتم﴾ [الزخرف: ٣٩].

﴿هل عَسَيْتُم إنْ تَوَلَّيْتُـم أَن تُفْسِـدُوا في الأرض وتُقَطِّعُـوا أَرْحـامَكـم﴾ [محمد: ٢٢]: خاطب بها المنافقين المذكورين، وخرج من الغيبة إلى الخطاب، ليكون أبلغ في التوبيخ، ومعناها هل يُتَوقَّع منكم إلا فسادٌ في الأرض، وقَطْعُ الأرحام. إنْ توليتم؛ أي صرتم ولاةً على الناس، وصار الأمْرُ لكم؛ وعلى هذا قيل: إنها نزلت في بني أمية. وقيل معناه: أعرضتم عن الإسلام.

﴿ها أنتم هؤلاء﴾ [محمد: ٣٨]: منصوب على التخصيص، أو منادى: ناداهم إلى الإيمان بالله والإنفاق في سبيله.

﴿هذَا ما لدَيَّ عَتِيد﴾ [ق: ٢٣]: قد قدمنا أنه مِنْ قول القَرِين؛ ومعناه هذا الإنسان حاضر لديّ قد أَعْتَدْتُه ويسَّرْته لجهنم.

﴿هل مِنْ مزيد﴾ [ق: ٣٠]: اختلف هل تتكلم جهنم بهذا، أو مجاز بلسان الحال. والأَظهر أَنه حقيقة؛ وذلك على الله يسير، ومَعْنى طلب زيادتها أنها لم تَمْتَلِىء. وقيل معناه لا مزيد؛ أَي ليس عندي موضع للزيادة؛ فهي على هذا قد امتلأت. والأول أظهر وأرجح، لما ورد في الحديث: لا تزال جهنّم يُلْقى فيها وتقول: هل من مزيد حتى يضع الجبّار فيها قَدَمه؛ أي خَلْقاً سماه القَدم، أَو قدرته؛ لأن الجارحة تستحيل في حق الله سبحانه. وقيل: إن الخطاب من خزَنتها. والمزيدُ يحتمل أن يكون مصدراً كالمحيض، أو اسم مفعول؛ فإن كان مصدراً فوَزْنُه مفعل، وإن كان اسم مفعول فوزنه مفعول.

﴿هذا ما تُوعدون لكل أَوّابٍ حفيظ﴾ [ق: ٣٢]: هذا من كلام الله يحتمل أن يقوله لأهل الجنة عند إزْلاَفِها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿هذا يومكم الذي كنْتُم تُوعَدُون﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. ويحتمل أن يكون خطاباً لهذه الأمّة.

والأوّاب الحفيظ: هو الذي يمتثل أَمْرَ الله، ويترك نَوَاهيه.

﴿هل أَتاكَ حديثُ ضَيْفِ إبراهِيمَ الْمُكْرَمِين﴾ [الذاريات: ٢٤] المراد بهذا الاستفهام التفخيم والتهويل؛ ووصفَهم بالْمُكْرَمين لأن الملائكة مكرمون، أو لأنه خدمهم بنفسه أَو أَخْدَمهم امرأته.

﴿هذا نَذِير من النُّذُر الأُولى﴾ [النجم: ٥٦]: قد قدمنا أَنّ الإشارةَ إلى النبي ﷺ في حرف النون.

﴿هَمَّاز﴾ [القلم: ١١]: هو الذي يعيبُ الناسَ. وأَصل الهَمْز الغَمْز. وقيل لبعض العرب: الفأرة تهمز؟ فقال: السنور يهمزها.

﴿هل ترى لهم مِنْ باقِيَة﴾ [الحاقة: ٨]، أي من بقية. وقيل: من فئة باقية. وقيل: إنه مصدر بمعنى البقاء.

﴿هاؤم اقْرَءُوا كِتَابِيَه﴾ [الحاقة: ١٩]: هاؤم اسم فعل: قال ابن عطية:

تعالوا. وقال الزمخشري: هو صوت يُفْهم منه معنى خذْ. وكتابيه مفعول يطلبه هاؤم، واقرَءُوا من طريق المعنى، تقديره هاؤم كتابي اقرءوا كتابي، ثم حذف الأول لدلالة الأَخير عليه، وعمل فيه العاملُ الثاني، وهو اقرءوا عند البصريين، والعاملُ الأول وهو هاؤم عند الكوفيين. والدليلُ على صحة قول البصريين أنه لو أعمل الأَول لقال اقرءوه. والهاء في كتابيه للوقف، وكذلك في حسابيه، وماليه، وسلطانيه؛ وكان الأصل أنْ تسقط في الوصل لكنها ثبتت فيه مراعاة لخط المصحف. وقد أسقطها في الوصل بعضُهم. ومعنى الآية أن العبد الذي يُعْطَى كتابه بيمينه يقول للناس: اقْرَءُوا كتابيه على وجه الاستبشار والسرور بكتابه.

﴿هلك عني سُلطانيه﴾ [الحاقة: ٢٩]: هذا مِنْ قول الشقيّ، يقول: زال عني ملكي وقُدْرتي حين يعاينُ العذابَ. وقيل: ذهبت عني حُجّتي. ومنه قوله: ﴿ما أَنْزَلَ اللهُ بها مِنْ سُلْطان﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿هَلُوعاً﴾ [المعارج: ١٩]: قد فسره، وهو قوله: ﴿إذَا مَسّهُ الشرُّ جَزُوعاً، وإذا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً﴾. وذكر الله ذلك على وَجْه الذم لهذا الخلق، ولذلك استثنى منه الْمصَلِّين؛ لأن صلاتهم تَحُضُّهم على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شَرّها ولا يبخلون بخيرها.

﴿هَزْل﴾ [الطارق: ١٤]: لعب ولهو، يعني أن هذا القرآن جدّ كله لا هَزْل فيه.

﴿هُدًى﴾ [آل عمران: ٤]، بضم الهاء: له سبعة وعشرون وجهاً:

بمعنى الثبات: ﴿اهْدِنا الصراطَ المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦]. والبيان: ﴿أولئك على هُدًى من ربهم﴾ [لقمان: ٥]. والدين: ﴿إنَّ الْهُدَى هُدَى الله﴾ [آل عمران: ٧٣]. والإيمان: ﴿ويزيد اللهُ الذين اهتدوا هدى﴾ [مريم: ٧٦]. والدعاء: ﴿ولكلّ قومٍ هاد﴾ [الرعد: ٧]. ﴿وجعلناهم أئمةً يَهْدون بأمرنا﴾ [الأنبياء: ٧٣]. وبمعنى الرسل والكتاب: ﴿فإمَّا يأتِيَنَّكم مني هُدًى﴾ [طه: ١٢٣]. والمعرفة: ﴿وبالنجم هم يَهْتَدُون﴾ [النحل: ١٦]. والنبي ﷺ: ﴿إن

الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ [البقرة: ١٥٩]. وبمعنى القرآن: ﴿ولقد جاءهم من رَبِّهم الهدَى﴾ [النجم: ٢٣]. والتوراة: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ [غافر: ٥٣]. والاسترجاع: ﴿أولئك هم الْمُهْتَدون﴾ [البقرة: ١٥٧]. والحجة: ﴿ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم﴾ [البقرة: ٢٥٨]. ثم قال بعده: ﴿والله لا يَهْدي القوم الظالمين﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي لا يهديهم حجة. والتوحيد: ﴿نتبع الْهُدَى معك نتَخَطّف من أرضنا﴾ [القصص: ٥٧]. والسنة: ﴿فبِهدَاهم اقْتَدِه﴾ [الأنعام: ٩٠]. ﴿وإنا على آثارهم مُهْتَدون﴾ [الزخرف: ٢٢]. والإصلاح ﴿أَنَّ اللهَ لا يهدي كَيْد الخائنين﴾ [يوسف: ٥٢]. والإلهام: ﴿أَعطى كلَّ شيء خَلْقَهُ ثم هَدى﴾ [طه: ٥٠]، أي أَلْهم المعاش. والتوبة: ﴿إنا هُدْنا إليك﴾ [الأعراف: ١٥٦]. والإرشاد: ﴿أنْ يَهْديني سواءَ السبيل﴾ [القصص: ٢٢].

﴿هون﴾ [الأنعام: ٩٣، الأحقاف: ٢٠]: هَوَان وذِلة.

﴿هجر﴾ [المزمل: ١٠]: من الهجران. وبمعنى الْهُجر أيضاً، وهو فُحش الكلام، وقد يقال في هذا أهجر بالألف.

﴿هُمْ نَجْوى﴾ [الإسراء: ٤٧] الإشارة إلى الذين لا يؤمنون بالآخرة، يعني أنهم جماعة يتناجَوْنَ، فأخبر الله أنه يعلم ما يتناجون به.

﴿هنالك الوَلاَيَةُ لِلهِ الحقِّ﴾ [الكهف: ٤٤]: ظرف يحتمل أن يكون العامل فيه منتصراً، أو يكون في موضع خبر الولاية، وهي بكسر الواو بمعنى الرياسة والملك، وبفتحها من الموالاة والمودة.

﴿هُدُوا إلى الطيِّبِ من القول﴾ [الحج: ٢٤]: هو لا إله إلا الله محمد رسول الله، واللفظ أعمُّ من ذلك، ﴿وصراط الحميد﴾: صراط الله؛ فالحميد: اسْم الله. ويحتمل أن يريد الصراط الحميد، وأضاف الصفة إلى الموصوف، كقوله: مسجد الجامع.

﴿هو أُذُن﴾ [التوبة: ٦١]، أي يسمع كلّ ما يقال له ويصدّقه، وكانوا يُؤْذُون بهذا القول سيدنا ومولانا محمداً ﷺ.

﴿هُمزَة﴾ [الهمزة: ١]: هو على الجملة الذي يَعِيبُ الناس ويأكل أعراضهم، واشتقاقُه من الهَمْز واللّمْز، وصيغة فُعَلة للمبالغة. واختلف في الفرق بين الكلمتين، فقيل: الْهَمْز في الحضور، واللمز في الغيبة، وقيل بالعكس. وقيل الهمز بالعين واليد، واللمز باللسان. وقيل هما سواء.

ونزلت السورةُ في الأخنس بن شَرِيق؛ لأنه كان كثير الوقيعة في الناس؛ ولَفْظُها مع ذلك على العموم في كلّ مَنِ اتّصف بهذه الصفات.

﴿الهاء﴾: اسم ضمير غائب يستعمل في الجر والنصب، نحو: ﴿قال له صاحبُه وهو يُحَاوِرُه﴾ [الكهف: ٣٧].

وحرف للغيبة، وهو اللاحق لإيّا. وللسكت، نحو: ﴿ماهِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠]. ﴿كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥]. ﴿حِسَابيه﴾ [الحاقة: ٢٦]. ﴿ماليه﴾ [الحاقة: ٢٨]. ﴿سُلْطَانِيَه﴾ [الحاقة: ٢٨]. ﴿لم يَتَسَنّهْ﴾ [البقرة: ٥٩] وقرىء بها في أواخرها آي الجمع، كما تقدم وَقْفا.

﴿ها﴾ تردُ اسْمَ فعل بمعنى خذ، ويجوز مَدُّ ألفه فيتصرف حينئذ للمثنى والجمع، نحو: ﴿هاؤُم اقرءوا كتابيه﴾ [الحاقة: ٢٥]. وَاسْماً ضميراً للمؤنث؛ نحو ﴿فأَلْهَمَهَا فُجُورَها وتَقْواها﴾ [الشمس: ٨].

وحرف تنبيه، فتدخل على الإشارة؛ نحو هؤلاء، هاذان خَصْمَان. ها هنا. وعلى ضمير الرفع؛ نحو: ﴿ها أنتم أُوْلاء﴾. وعلى نعت أيّ في النداء؛ نحو: يا أيها الناس. ويجوز في لغة أَسد حذف ألف هذه وضمها إتباعاً، وعليه قراءة: ﴿أَيُّه الثقلان﴾ [الرحمن: ٣١].

﴿هات﴾: فعل أَمْر لا يتصرف، ومِنْ ثم ادَّعَى بعضُهم أنه اسم فعل.

﴿هل﴾: حرف استفهام يُطلب به التصديق دون التصوّر، ولا يدخل على مَنْفِيّ ولا شرط، ولا أَن، ولا اسم بعده فعل غالباً، ولا عاطف.

قال ابن سيده: ولا يكون الفعلُ معها إلا مستقبلاً؛ ورُدَّ بقوله: ﴿فهَلْ وجدْتُم ما وَعَد رَبُّكم حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤].

وترد بمعنى «قد»، وبه فُسر: ﴿هَلْ أتى على الإنسان﴾ [الإنسان: ١].

وبمعنى النفي، نحو: ﴿هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقد قدمنا في معاني الاستفهام مباحث غير هذا.

﴿هَلُمّ﴾: دعاء إلى الشيء؛ وفيه قولان:

أحدهما أن أصله «ها ولمّ» من قولك: لممتُ الشيء، أي أصلحته، فحذفت الألف وركب. وقيل أصله هل أم، كأنه قيل: هل لك في كذا، أُمَّه؛ أي اقصده فركّبا. ولغة الحجاز تركه على حاله في التثنية والجمع، وبها ورد القرآن، ولغة تميم إلحاقه العلامة.

﴿هنا﴾: اسم يُشار به للمكان القريب؛ نحو: ﴿إنَّا ها هنا قَاعِدُون﴾ [المائدة: ٢٤].

وتدخل عليه اللام والكاف فيكون للبعيد؛ نحو: ﴿هنالِكَ ابْتُلِي المؤمنون﴾ [الأحزاب: ١١]. وقد يُشارُ به للزمان اتساعاً، وخُرِّج عليه: ﴿هُنَالكَ تَبْلو كلُّ نفس ما أَسلفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]. ﴿هنالك دَعَا زَكَريا رَبَّه﴾ [آل عمران: ٣٨].

﴿هَيْت﴾ [يوسف: ٢٣]: اسم فعل بمعنى أَسرع وبادِرْ؛ قاله في المحتسب.

﴿هيهات﴾: اسم فعل بمعنى بَعُد؛ قال تعالى: ﴿هيهات هيهات لما توعَدون﴾ [المؤمنون: ٣٦]، البعْد لما توعدون؛ قاله الزجاج. وقيل: وهذا غلط أوقعه فيه اللام، فإن تقديره بَعد الأمر لما توعدون؛ أي لأجله.

وأحسن منه أن اللام لتبيين الفاعل، وفيها لغات؛ قرىء منها بالفتح، وبالضم وبالخفض مع التنوين في الثلاثة وعدمه.

حرف الواو

﴿وَيْل﴾: كلمة شَرّ، وقد قدمنا معناه؛ قال الأصمعي: ﴿ويل﴾ كلمة قبح، ووَيس استصغار، وويح ترحم.

﴿واسع﴾ [البقرة: ١١٥]: جواد لما يسأل. ويقال الواسع المحيط بعلم كلّ شيء، كما قال ﴿وَسِعْتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً﴾ [غافر: ٧]. ووسع يسع سعة من الاتساع، ضد الضيق، ﴿ومُوسِع﴾ [البقرة: ٢٣٦]: غني؛ أي واسع الحال، وهو ضد المقتر ﴿وإنا لَمُوسِعُون﴾ [الذاريات: ٤٧]. قيل أغنياء. وقيل قادرون. وإلا وسْعَها [البقرة: ٢٣٣]: طاقتها.

﴿وَدّ﴾ يود: له معنيان: من المودة والمحبة، وبمعنى التمني؛ نحو: ﴿وَدَّ كثيرٌ من أهل الكتاب﴾ [البقرة: ٨٩]. ﴿وَدُّوا لو تكفرون﴾ [النساء: ٨٩]. والودّ بالضم: المحبة. وقد قدمنا أنه اسم صنم عبِد من دون الله.

﴿وَسَطا﴾ [البقرة: ١٤٣]: الوسط من كل شيء: خيَارُه، وكيف لا تكون هذه الأمة خياراً وهم يشهدون يوم القيامة للأنبياء بإبْلاَغ الرسالة إلى أممهم.

فإن قلت: لم أَخر المجرور في هذه الآية: ﴿شُهَدَاءَ على الناس﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقدمه في قوله: ﴿عليكم شَهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]؟

فالجواب أن تقديم المعمولات يفيد الْحَصْر؛ فقدمه لاختصاص شهادةِ النبيّ ﷺ بأمته، ولم يقدمه في الأمة لأنه لم يقصد الْحَصْر.

فإن قلت: هل الأمة يشهدون كلهم؛ برّهم وفاجرهم، أَوْ لاَ يشهد إلا لمن هو أَهلٌ لذلك؟

والجواب أن لفظ الآية عام، لكن الذي يظهر من لفظ الآية أنه لا يشهد إلا العدول، فلا يشهد منها إلا خيارها، والحكم هناك كالحكم هنا؛ وقد قال: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْن من الشهداء﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وأيضاً قد ذكر في حديث قوم نوح أنهم يقولون: كيف يَشهد علينا من لم يحضرنا؟ فيقولون: يا ربنا، أنزلْتَ علينا كتاباً فوجدنا فيه قصَّتَهم، ثم يقرأون سورةَ نوح؛ فهذا لا يكون جواباً إلا ممن له علم بالكتب؛ وكثير من هذه الأمة لا يعلمون من الكتاب شيئاً، ومن طريق النظر من هذه الأمة إذ ذاك في نوع من أنواع العذاب كيف يستشهدون؟ وكيف تقبل لهم شهادة؟ فإذا كان العالِمُ الذي لا يَخفى عليه شيء لا يَحْكُم بعلمه فيما بيننا في ذلكَ اليوم، فكيف بالغير؟ فيا أخا البطالة والتلويث لنفسك، انتبه، الحاكم قد زَكاك وأَنْتَ بما ارتكبت من قبيح الأوصاف تجرح نفسك، وبذلك تفرح، فقد خضْتَ بحارَ المهالك، وعلى عَقِبك من الخير نكصت، أُعلمك بهذه الرتبة الرفيعة لعلك تحافظ عليها فتكون ممن يشهد إذ ذاك، فأعرضتَ عن الشهادة على غيرك، وتعرضتَ لشهادة جوارِحك عليك! بئس ما استبدلت!

وقد جاء أنّ أول من يُساقُ للحساب الذي العَرْشُ على كاهله والعرق يتَحدر على جَبينه؛ فيقول الله له: ما صنعت بعهدي؟ فيقول: يا رب، بلّغْته جبريل، فيؤتى بجبريل، فيقول له الحق جل جلاله: هل بلغكَ إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم، فيخلّي حينئذ عن إسرافيل، ويسأل جبريل فيقول عز وجل له: ما صنعْتَ في عهدي؟ فيقول: يا رب، بلغْته الرسل؛ فيؤتى بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فيقول لهم: هل بلّغَكم جبريل عَهْدي؟ فيقولون: نعم، فحينئذ يخلي عن جبريل؛ فأول مَنْ يسأل مِن الرسل نوح عليه السلام، فيكون من قصته ما ورد في الحديث ـ أنه يُجَاء بنوح عليه السلام، فيقال له: هل بلّغْتَ؟ فيقول:

نعم يا رب، فتُسأل أُمّته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير. فيقال: مَنْ شهودك؟ فيقول: محمد وأمته. قال ﷺ: فيُجَاء بكم فتشهدون؛ ثم قرأ ﷺ: ﴿وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسطا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فإن قلت: يعارضنا هنا قوله ﷺ: أَوَّل مَنْ يحاسَبُ من يجوز على الصراط.

والجواب: أنه ليس بينهما تعارض؛ لأن حساب الأمم على نوعين؛ وبذلك يجمع الحديثان، ولا يبقى بينهما تعارض؛ وهو أن النوع الأول أَنْ تُسأل الأمم: بلَّغهم الرسل أم لا؟ فهذا الذي يتقدم جميعَ الأمم على هذه الأمة؛ لأنهم هم الشهود عليهم؛ فلا بد من حضورهم إلى آخر الأمم.

والنوع الآخر هو سؤالُ الأمم كلّ شخص منهم منفرداً عن عمله بمقتضى شريعته؛ فهذا الذي تكون هذه الأمة أوَّل مَنْ يُحاسب. وسيِّدُنا ومولانا محمد ﷺ شاهدٌ، كما قال تعالى: ﴿وجئنا بِكَ على هؤلاء شَهيداً﴾ [النساء: ٤١] تقديره: كيف يكون الحال إذا جئنا بنبيّ يشهد على أُمته بأعمالهم. ولما قرأها ابن مسعود على رسول الله ﷺ ذَرفت عيناه بالدموع، وقال: حَسْبُكَ يا ابن مسعود؛ ﴿ولا يَأْبَ الشهداءُ إذا ما دُعُوا﴾؛ أي لا يمتنعوا إذا دعُوا إلى أداء الشهادة. وقد ورد تفسيره بذلك عن النبي ﷺ.

واتفق العلماء على أَنَّ أداءَ الشهادة واجبٌ إذا دُعي إليها. وقيل: إذا دعوا إلى تحصيل الشهادةِ وكَتْبها. وقيل إلى الأمرين. ﴿ولا تَسأمـوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ أي لا تملّوا من الكتابة إذا ترددت وكثُرت، سواء كان الحق صغيراً أو كبيراً، ونصب صغيراً على الحال.

﴿وأَشْهِدُوا إذا تبايَعْتُم﴾ [البقرة: ٢٨٢]: هذا أمر يُفهم منه الإشهاد؛ وأَهلُ الظاهر أوجبوه خلافاً للجمهور. وذهب قوم إلى أنه منسوخ بقوله: ﴿فإن أَمِنَ بعضُكم بَعْضاً﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وذهب قوم إلى أنه على الندب.

﴿ولا يُضَار كاتبٌ ولا شَهيد﴾ [البقرة: ٢٨٢]: يحتمل أن يكون كاتب

فاعلاً على تقدير كسر الراء المدغمة من يضار. والمعنى على هذا نَهْي للكاتب والشهيد أن يضرَّا صاحبَ الحق، أو الذي عليه الحق بالزيادة فيه أو النقصان منه والامتناع من الكتابة أو الشهادة.

ويحتمل أن يكون ﴿كاتب﴾ مفعولاً لم يسم فاعله على تقدير فتح الراء المدغمة، ويقوِّي ذلك قراءة عمر بن الخطاب: لا يضارَر، بالتفكيك وفتح الراء.

والمعنى النهي عن الإضرار بالكاتب والشهيد، بإذايتهما بالقول أو بالفعل.

﴿وإنْ تَفْعَلوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ أي وقعتم في الإضرار فإنه فسوق حالٌّ بكم.

﴿والله يؤيِّدُ بنَصْره مَنْ يشاء﴾ [آل عمران: ١٣]، يعني أنَّ النصر بمشيئة الله لا بالقِلَّة ولا بالكثرة، فإن فئة المسلمين غلبت فئة الكافرين مع أنهم كانوا أكثر منهم.

﴿ورِضوان من الله أكبر﴾ [آل عمران: ١٥]؛ أي من نعيم الجنة حسبما ورد في الحديث ـ أنه يقول لهم: تريدون شيئاً أَزيدكم؟ فيقولون: قد أَعطيتنا بُغْيتنا، فيقول: أزيدكم رضواني فلا أَسخط عليكم أبداً، فلولا الرضوان لم يطب لهم نعيمها لتخوُّفهم من فراقها.

﴿وأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبرصَ وأُحيي الموتى بإذن الله وأُنَبِّئكم بما تأكلون وما تدَّخِرون في بيوتكم﴾ [آل عمران: ٤٩]: هذا من كلام عيسى. وروي أنهم كانوا يجمعون إليه الجماعةَ من العميان والبرصاء، فيدعو لهم فيبرأون، ويضرب بعصاه الميت أو القبر فيقوم الميت ويكلّمه.

وروي أنه أحيا سام بن نوح، وكان يقول: فلان أَكلْتَ كذا، وادخرْتَ في بيتك كذا.

﴿ومُصَدِّقاً﴾ [آل عمران: ٥٠]: عطف على رسولاً: أو على موضع بآية من ربكم؛ لأنه في موضع الحال؛ وهو أحسن؛ لأنه من جملة كلام عيسى على تقدير: جئتكم بآيةٍ وجئتكم مصدقاً؛ ولأُحِلَّ لكم عطف على بآية.

وكانوا قد حُرِّمَ عليهم الشحم وَلَحْمُ الإبل وأشياء من الحيتان والطير؛ فأَحلّ لهم عيسى بعض ذلك.

﴿وَجِيهاً في الدنيا والآخرة...﴾ [آل عمران: ٤٥] إلى آخر الآيات: حال. ﴿ويعلمه﴾ [آل عمران: ٤٨] معطوفة؛ إذ التقدير ومعلماً للكتاب. ورسولاً يضمر له فعل، تقديره أرسل رسولاً أو جاء رسولاً.

﴿وما كان مِنَ المشركين﴾ [آل عمران: ٦٧]: نَفْـيٌ للإشراك الذي هـو عبادةُ الأوثان. ودخل في ذلك الإشراك الذي يتضَمّنه دين اليهود والنصارى.

﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ [آل عمران: ٨١]: تأكيد للعهد بشهادة الله جلّ جلاله.

﴿وشهدوا﴾ [آل عمران: ٨٦] عطف على أيمانهم؛ لأن معناه بعد أن آمنوا. وقيل الواو للحال. وقال ابن عطية: عطف على كفروا، والواو لا تُرَتب.

﴿ولو افْتَدى بهِ﴾ [آل عمران: ٩١]: قيل هذه الواو زائدة. وقيل للعطف على محذوف، كأنه قال: لن يقبل من أحدهم لو تصدق به، ولو افتدى به. وقيل نَفَى أَوّلاً القبول جملة على الوجوه كلها، ثم خص الفديةَ بالنفس، كقولك: أنا لا أفعل أصلاً ولو رغبت إليّ.

﴿ومَنْ كفر﴾: عطف على ﴿من استطاع﴾ [آل عمران: ٩٧]: أي من استطاع الوصول إلى مكة بصحة البدن إما راجلاً وإما راكباً مع الزاد المباح والطريق الآمن، أو الزاد والراحلة ـ فواجب عليه الحج. ومَنْ لم يحجَّ فقد كفر، وعبّر عنه بالكفر تغليظاً؛ كقوله ﷺ: ومَنْ ترك الصلاةَ فقد كفر؛ فإنّ الله غنيّ عنه، ولا يعود وَبالُ ذلك إلا عليه.

وفي الحديث: «من مات ولم يحجّ ولم يحدِّث به نفسه مات على شعبة من النفاق». وقيل: إنما عبر بالكفر إشارة إلى مَنْ زعم أنّ الحج ليس بواجب.

﴿واعْتَصِموا بحَبْلِ اللهِ جميعاً ولا تَفرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ أي

تمسّكوا بحبل الله. وهو القرآن، وقيل الجماعة، ولا تفرَّقوا فتَفْشلوا؛ لأن الجماعةَ رحمةٌ، والفرقة عذاب، ومن فارق الجماعة شبراً خلع رِبْقَة الإسلام من عُنقه؛ ولأجل الألفة والجماعة أمر الله باجتماع كلِّ درب ومحلة في اليوم خمس مرات، وفي الجمعة لأهل البلد حتى إنها لا تصح إلا في العتيق في العيدين الكبير والصغير وفي عرفة لأهل الأرض كلّهم، كلُّ ذلك للجَمْع.

﴿ولِيَعْلَم﴾ [آل عمران: ١٤٠]: متعلق بمحذوف تقديره: أصابكم ما أصاب ليعلم ذلك علماً ظاهراً لكم تقومُ به الحجة عليكم، ويتخذ منكم شهداء في قَتْلكم يوم أُحُد، وليمحِّصَ اللهُ المسلمين؛ لأن إحالة الكفار عليهم تمحيصاً لهم، ونَصْرُ المؤمنين على الكفار هلاكٌ لهم.

﴿ولقد صَدَقَكم اللهُ وَعْده﴾ [آل عمران: ١٥٢]: كان رسولُ الله ﷺ قد وعد المسلمين عن الله بالنصر، فنصرهم اللهُ أولاً، وانهزم المشركون، وقُتل منهم اثنان وعشرون رجلاً، ﴿وعَصَيْتُم﴾؛ أي خالفتم ما أُمِرْتُمْ بِه من الثبوت، وجاءت المخاطبةُ في هذا لجميع المؤمنين وإن كان المخالِفُ بعضهم، ووعظاً للجميع وسَتْراً على مَنْ فعل ذلك.

﴿ولَقَدْ عَفَا عنكم﴾ [آل عمران:١٥٢] إعلام بأنّ الذّنْبَ كان يستحقّ أكثر مما نزل بهم من الهزيمة، لولا عَفْوُ الله عنهم؛ فمعناه لقد أَبقى عليكم. والرسول يدعوكم في أُخراكم؛ أي كان يقول في ساقتهم: إليَّ عبادَ الله؛ ففيه مَدْحٌ له ﷺ، وعَتْب لهم؛ لأن الأخرى هو موقف الأبطال؛ وكيف لا وبه يتأنّس الجيش، ويؤمن من العدو، وعاتَبهم على عدم الوقوف معه.

﴿وطائفةٌ قد أهمَّتْهُم أنْفُسُهم﴾ [آل عمران: ١٥٤]: هم المنافقون. كانوا خائفين من رجوع المشركين إليهم.

﴿ولِيَبْتَلِيَ اللهُ ما في صدُورِكم﴾ [آل عمران: ١٥٤] يتعلق بفعل، تقديره: فعل بكم ذلك ليبتلي.

﴿ولئن قُتِلْتُم في سبيل الله...﴾ [آل عمران: ١٥٧] الآية: تخبر بأن مغفرةَ الله تعالى ورحمته تعمّ إذا قُتلوا أو ماتوا في سبيل الله خَيْر لهم مما يجمعون من الدنيا.

﴿ولو كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حولك﴾ [آل عمران: ١٥٩]: وصف اللهُ رسولَه باللين واللطف لأصحابه، لأنه ﷺ كان لا يُوَاجِهُ أحداً بما يكره، وقد أمره الله بالغلظ على الكفّار؛ وبهذا وصف اللهُ الصحابة بأنهم كانوا أَشدّاءَ على الكفار رُحماء بينهم.

﴿وقيل لهم: تعالوا قاتِلُوا في سبيلِ اللهِ أَو ادْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧] من لطف الله بهذه الأمة أنه لم يعيِّن المخالفَ لرسول الله ﷺ من الموافق؛ لأنه تعالى أَراد السَّتْر على عباده؛ فأَبْشر يا محمديّ بما أنعم الله به عليك حيث ستر على عدوّك.

والمرادُ بهذه الآية عبدالله بن أبيّ بن سلول؛ لأنه لم يُرد الخروج إلى المشركين يوم أُحُد، فلما خرج ﷺ غضب، وقال: أطاعهم وعصاني، فرجع ورجع معه نحو ثلاثمائة رجل، فمشى في أثرهم عبدالله بن عمرو الأنصاري، فقال: يا قوم، ارْجعوا وقاتلوا في سبيل الله، «أو ادفعوا» يعني عن المسلمين إن لم تقاتلوا؛ فقال له عبدالله بن أُبي: ﴿لو نَعْلَمُ قتالاً لاتَّبَعْنَاكم﴾ [آل عمران: ١٦٧].

﴿ويَسْتَبْشِرُون بالَّذِين لم يَلْحَقُوا بهم﴾ [آل عمران: ١٧٠]: المعنى أنهم يفرحون بإخوانهم الذين بقوا في الدنيا من بعدهم؛ لأنهم يرجون أنْ يستشهدوا مثلهم، فينالوا ما نالوا من الأَمن وعدم الـحُزن.

وسببُ نزول الآية أن جماعةً من الصحابة استشهدوا فقال لهم الحقُّ تعالى: «تَمنَّوْا ما تريدون»؛ فقالوا: الرجوع إلى الدنيا للشهادة في سبيلك؛ فقال: سبق في أَزلي أنه لا يرجع إلى الدنيا أَحَد؛ فقالوا: أَعلم إخواننا الذين بقوا فيها أنك رضيتَ عنّا وأرضَيْتَنا؟

﴿ولا يَحْزُنْكَ الذِينَ يُسَارِعُون في الكُفْر﴾ [آل عمران: ١٧٦]: الخطاب لنبينا ﷺ، سلاه الله بهذه الآية. والمسارعون إلى الكفر المنافقون أو الكفّار في مبادَرتهم إلى أَقوالهم وأفعالهم.

﴿وقَتْلَهُم الأَنبياءَ بغير حقّ﴾ [آل عمران: ١٨١]: أسند القتل إليهم مع أن آباءهم هم الذين قتلوهم، لكنهم رضوا بذلك، وتبعوا مَنْ فعل ذلك منهم؛ فهم شركاءُ؛ لأَن الراضي بالمعصية كفاعلها.

فإن قلت: ما فائدة تنكير الحق هنا، وتعريفه في الآية الأولى من البقرة [٦١]، ومعلوم أنه لم يقتل نَبي بحق؟

والجواب أنه عرفه لاجترائهم على قتلهم مع معرفتهم بأنه بغير حق؛ ولذلك قرىء بالتشديد تعظيماً للذنب والشّنعة لِلّذي أَتوه؛ وإنما أباح اللهُ تعالى من أباح منهم، وسلّط عليهم عدوه كرامةً لهم، وزيادة في منازلهم؛ كقتل مَنْ يُقتل في سبيل الله من المؤمنين؛ قال ابن عباس وغيره: لم يُقتل قطُّ من الأنبياء إلاّ مَنْ لم يُؤمَر بقتال؛ وأما مَنْ أُمر بالقتال فإنَّ الله نَصره. وإنما عُرِّف الحقُّ في البقرة إشارة إلى الحق الذي أَخذ الله أن تُقْتل النفس به، وهو قوله: ﴿لا تَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرم اللهُ إلا بالحق﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ فكان الأوْلى بالذكر؛ لأَنه من الله، وما في هذه السورة نكرة؛ لأنه في معتقدهم وتَدينهم، وكان هذا بالتأخير أولى.

فإن قلت: المذكورون في الآيات الثلاث من بني إسرائيل قد اجتمعوا في الكفر والاعتداء، فما وَجْهُ اختصاص الآية بجمع التكسير فيما جمع في الآيتين جمع سلامة؛ فقيل النبيين في الآيتين، وقيل في هذه الآية الأخيرة الأَنبياء مكسراً؟

فالجواب أَن جَمْعَ التكسير يشمل أُولي العلم وغيرهم، وجمع السلامة يختصُّ في أصل الوضع بأولي العلم، وإن وُجد في غيرهم فبِحُكم الإلحاق والتشبيه، كقوله تعالى: ﴿إني رأَيْتُ أحدَ عَشر كوكباً...﴾ [يوسف: ٤] الآية، وما يلحق

بهذا؛ وإذا تقرر هذا فورود جَمْع السلامة في قوله في سورة البقرة: ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ [البقرة: ٦١] مناسب من جهتين: إحداهما شرفُ الجمع لشرفِ المجموع. والثانية مناسبةُ زيادةِ المدّ لزيادة أداة التعريف في لفظ الحق. وأما الآية الأولى من سورة آل عمران فمثْلُ الأولى في مناسبة الشرف ومناسبة زيادة المد للزيادة في الفعل العامل في اللفظ المجموع في قراءة مَنْ قرأ: ويقاتلون. ولما لم يكن في الآية الثالثة سوى شَرَف المجموع، وكانت العرب تَتَّسع في جموع التكسير فتُوقِعُها على أولي العلم وغيرهم أتى بالجمع هنا مكسراً لتحصلَ اللغتان، حتى لا يبقى لمن يتحدَّى القرآن حجة؛ إذ هم مخاطبون بما في لغاتهم، فلا يقتصر في شيء من خطابهم على أحد الجائزين دون الآخر إلا أن يتكرر، فإذ ذاك يَرِد على وَجْهٍ واحد مما يجوز فيه.

فتأمّل ما أجملته، فسوف يتَّضِح لك به إذا استوفيته ما يُعِينُك على فهم الإعجاز.

﴿وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارهم﴾ [آل عمران: ١٩٥]: هذه الآيات في الذين آذاهم الكفار بمكة حتى خرجوا منها، ولحقوا بالنبي ﷺ، وقاتلوا معه.

﴿وإنَّ مِنْ أهلِ الكتاب لَمنْ يؤْمِن بالله...﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية: نزلت في النجاشي ملك الحبشة، والجمهورُ على أنها عامَّةٌ في كل من أسلم من اليهود أو النصارى.

﴿وَجْه النهارِ واكْفُرُوا آخِرَه﴾ [آل عمران: ٧٢]: هذه مقالة قومٍ من اليهود قالوها لإخوانهم ليخدعوا المسلمين فيقولوا: ما رجع هؤلاء عن دين الإسلام إلا عن علم.

وقال السهيلي: إنَّ هذه الطائفة هم عبدالله بن الضَّيْف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف.

﴿ولا تَقْتلوا أَنفسكم﴾ [النساء: ٢٩]: أجمع المفسرون أنّ المعنى: لا يَقْتل

بعضكم بعضاً، ولَفْظها يتناول قَتْل الإنسان لنفسه؛ وقد حملها عمرو بن العاص على ذلك، ولم ينْكِره رسولُ الله ﷺ لـمّا سمعه؛ وسكوته ﷺ دليلٌ على صحة قوله.

﴿ومَنْ يَفْعَلْ ذلك﴾ [النساء: ٣٠]: إشارة إلى القتل؛ لأنه أقرب مذكور. وقيل إليه وإلى أكْل المال بالباطل. وقيل إلى كل ما تقدّم من المنهيّات من السورة.

﴿ولكلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا ترك الوالدانِ والأقْرَبون﴾ [النساء: ٣٣]: في معنى هذه الآية وجهان: أحدهما لكل شيء من الأموال جعلنا موالي يرثونه، فمِمَّا ترك على هذا بيان لكل. والآخر لكل أحد جعلنا موالى يرثون مما ترك الوالدان والأقربون؛ فمما ترك على هذا يتعلق بفعل مضمر، والموالي هنا: العصبة والورثة.

﴿والذين عَقَدَتْ أيمانُكم فآتُوهم نَصِيبَهم﴾ [النساء: ٣٣]: اختلف؛ هل هي منسوخة أو مُحْكَمة؛ فالذين قالوا إنها منسوخة قالوا معناها الميراث بالحلف الذي كان في الجاهلية. وقيل بالمؤاخاة التي آخَى رسولُ الله ﷺ بين أصحابه، ثم نسخَتْها ﴿وأولو الأرحام بعضُهم أَوْلَى ببعض﴾ [الأنفال: ٧٥]، فصار الميراث للأقارب.

والذين قالوا إنها محكمة اختلفوا؛ فقال ابن عباس: هي في الموازرة والنصرة بالحلف لا في الميراث. وقال أبو حنيفة: هي في الميراث، وإن الرجلين إذا والى أحدهما الآخر على أَنْ يتوارثا صحَّ ذلك وإن لم تكن بينهما قرابة.

﴿وإذا حضَرَ القِسْمَةَ أُولو القُرْبى واليَتَامى والمساكين﴾ [النساء: ٨]: خطاب للوارثين، أُمروا أن يتصدقوا من الميراث على قرَابتهم، وعلى اليتامى؛ فقيل: إنَّ ذلك على الوجوب، وقيل على الندب؛ وهو الصحيح. وقيل نُسِخ بآية المواريث.

فإن قلت: ما فائدة حذف ﴿واكسوهم﴾ من هذه الآية واثباتها فيما قبل؟

والجواب: لأن المراد في الأولى السفيه المتصير إليه المال بإرث، ولا يحسن القيام عليه، فيحجر عليه ماله إبقاءً عليه، ولا يمكّن منه إلا بقَدْر ما يأكله ويلبسه، فالنَّهْيُ إنما هو للأوصياء، ونسبتهُ المال إليهم مجاز بما لهم فيه من التصرف والنظر. أمّا هذه الآية فليست في شأن أحوال السفهاء وحكمها؛ وإنما المرادُ بها المقتسمون لميراثٍ يخصُّهم لا حقَّ فيه لغيرهم، فيحضر قريب فقير ويتيم محتاج، فنُدِبوا إلى التصدق عليهم والإحسان، لا حقّ لهم في الميراث ولا في المال، فمن أين تلزم كسوتهم والتنصيص عليها؛ إنما ندبوا إلى الإحسان إليهم فالعَفْوُ عما يخف عليهم وَسِع ذلك كسوتهم أو لم يَسع، فافترق مقصودُ الآيتين، وجاء كلٌّ على ما يناسب.

﴿والصاحبِ بالـجَنْبِ﴾ [النساء: ٣٩]: ابن عباس: الرفيق في السفر. علي بن أبي طالب: الزوجة.

﴿وأُولي الأَمْرِ منكم﴾ [النساء: ٥٩]: هم الوُلاة. وقيل العلماء. ونزلت في عبدالله بن حُذَافة بعثه رسولُ الله ﷺ في سَرِيّة.

﴿وإذا جاءهم أَمْرٌ من الأَمْنِ أو الـخَوْف أَذَاعُوا به﴾ [النساء: ٨٣]: قيل هم المنافقون. وقيل قومٌ من ضعفاء المسلمين؛ كانوا إذا بلغهم خَبَرٌ عن السرايا والجيوش وغير ذلك تكلّموا به وأشهروه قبل أن يعلموا صحَّتَه، وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين مع ما في ذلك من العجلة، وقلة التثبت؛ فأنكر الله عليهم ذلك.

﴿وإنْ كان مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكم وبَيْنَهم ميثاق﴾ [النساء: ٩٢]: معنى الآية أَنَّ المقتول خطأ إن كان قومه كفّاراً معاهدين، ففي قَتْله تحريرُ رقبة والديّةُ إلى أهله لأجل معاهدتهم، والمقتول على هذا مُؤمن؛ ولذلك قال مالك: لا كفّارة في قَتْل الذميّ. وقيل: إن المقتول في هذه الآية كافر، فعلى هذا تجبُ الكفّارة في قَتل الذمي. وقيل: هي عامة في المؤمن والكافر؛ واللفظُ مطلق إلا أنه قيّده قوله: ﴿وهو مؤمن﴾ في الآية قبلها. وقرأ الحسن هنا وهو مؤمن.

﴿ويَسْتَفْتُونَكَ في النساء﴾ [النساء : ١٢٧] ؛ أي يسألونك عما يجبُ عليهم في أمر النساء . « وما يُتلى عليكم » عطف على اسم الله ؛ أي يفتيكم اللهُ ، والمتلوّ في الكتاب بمعنى القرآن .

﴿والمُسْتَضْعَفين من الوِلْدان﴾ [النساء : ١٢٧] : عطف على يتامى النساء ؛ أي والذي يُتْلى في المستضعفين من الولدان وهو قوله : يوصيكم الله في أولادكم ؛ لأن العرب كانت لا تُورِّث البنات ، ولا الابن الصغير ؛ فأمر الله أن يأخذوا نصيبَهم من الميراث .

﴿وأن تقوموا لليتامى بالقِسْط﴾ [النساء : ١٢٧] : عطف على المستضعفين ؛ أي والذي يُتْلَى عليكم في أن تقوموا لليتامى بالقسط . ويجوز أن يكون منصوباً ، تقديره ويأمركم أنْ تقوموا ، والخطاب في ذلك للأولياء والأوصياء والقضاة وشِبههم ، والذي يُتْلى عليكم في ذلك هو قوله تعالى : ﴿إنَّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً﴾ [النساء : ١٠] . وقوله : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ [البقرة : ١٨٨] .

﴿والصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء : ١٢٨] : لفظ عام يدخل فيه صُلْحُ الزوجين وغيرهما . وقيل معناه صلح الزوجين خَيْرٌ من فراقهما ؛ فخَيْر على هذا للتفضيل ، واللام في الصلح للعهد .

﴿وأُحْضِرت الأَنْفس الشُّحَّ﴾ [النساء : ١٢٨] : معناه أن الشح جُعل حاضراً مع النفوس لا يغيب عنها ؛ لأنها جُبلت عليه ، والشُّحُّ هوَ ألاَّ يسمح الإنسان لغيره بشيء من حظوظ نفسه . وشحّ المرأة من هذا هو طلبها لحقِّها من النفقة والاستمتاع . وشحّ الزوج : هو مَنْع الصداق أو التضييق في النفقة وزهده في المرأة لكبر سنها أو قُبْح صورتها .

﴿ولَنْ تَستطيعوا أن تَعْدِلوا بين النساء ولو حَرَصْتم﴾ [النساء : ١٢٩] : معناه القول التامّ في الأقوال والأفعال والمحبة وغير ذلك ، فرفع الله ذلك عن

عباده؛ فإنهم لا يستطيعونه، وإذا كان الصادق المصدّق يعدل بين نسائه مع أن الله لم يأمره بذلك؛ بل كان يتطوع لهنّ بذلك، ويقول: اللهم هذا فِعْلي فيما أَمْلك فلا تؤاخذني فيما لا أَملك، يعني ميله بقلبه؛ والأَمْرُ القلبي مرفوع عن الحرج، وخصوصاً للمحسنة منهنّ؛ فإن القلوبَ جُبلت على حبِّ مَنْ أحسن إليها وكراهةِ من أَساء إليها، هذا أمر جليّ. وقد قدمنا أن الحُبَّ يتوارث والبغض يتوارث.

وقيل: إن الآية نزلت في مَيْله ﷺ بقلبه إلى عائشة، فمعناها على هذا اعتذار من الله تعالى عن عباده.

﴿ولَوْ عَلَى أَنْفُسكم﴾ [النساء: ١٣٥]: يتعلق بـ﴿شُهَداء﴾، وشهادة الإنسان على نفسه هي إقرارُه بالحق، ثم ذكر ﴿الوالدين والأقربين﴾ [النساء: ١٣٥]؛ إذ هم مظنّة التعصّب والميل؛ فإقامةُ الشهادة على الأجنبيين من باب أَحْرى وأولى.

﴿وإنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ [النساء: ١٣٥]: قيل: إن الخطاب للحكام. وقيل للشهود؛ واللفظُ عام في الوجهين. واللّيّ: هو تحريفُ الكلام، أي إن تَلْوُوا عن الحكم بالعدل، أو عن الشهادة بالحق، أو تعرضوا عن صاحب الحق، أو عن المشهود له ـ فإنه خبير بما تعملون.

وقرىء تَلُوا ـ بضم اللام من الولاية، أي إن وليتم إقامةَ الشهادة أو أعرضتم عنها.

﴿وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شَكٍّ منه﴾ [النساء: ١٥٧]: روي أنه لما وقع قَتْل المشبَّه بعيسى قالوا: إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبُنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فاختلفوا؛ فقال بعضهم: هو هو. وقال بعضهم: ليس هو؛ فأجمعوا أَنّ شخصاً قُتل، واختلفوا مَنْ كان.

فإن قيل: كيف وصفهم بالشكّ، ثم وصفهم بالظن، وهو ترجيح أَحَدِ الاحتمالين؟

فالجواب: أنهم كانوا على الشك، ثم لاحت لهم أمارةٌ فظنّوا. وقد يقال الظن بمعنى الشك، وبمعنى الوهم الذي هو أضعفُ من الشك.

﴿وإنْ مِنْ أَهل الكتاب إلا لَيُؤْمِننّ به قَبْلَ موته﴾ [النساء: ١٥٩]: في هذه الآية تأويلان: أحدهما أن الضمير في موته لعيسى، والمعنى أن كلّ أحد من أهل الكتاب يُؤمن بعيسى حين ينزل إلى الأرض قَبْل أنْ يموت وتصير الأديان كلّها حينئذ ديناً واحداً وهو دينُ الإسلام.

والثاني أن الضمير في موته للكتاب الذي تضمنه قوله: وإن من أهل الكتاب؛ والتقدير وإن من أهل الكتاب أَحد إلاّ ليؤمن بعيسى ويعلم أنه نبيء قبل أَنْ يموت هذا الإنسان؛ وذلك حين مُعَاينة الموت، وهو إيمان لا ينفعه. وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس وغيره.

وفي مصحف أُبيّ بن كعب: قبل موتهم. وفي هذه القراءة تقويةٌ للقول الثاني؛ والضمير في به لعيسى على الوجهين. وقيل لمحمد ﷺ.

﴿وبِصَدّهم﴾ [النساء: ١٦٠]: يحتمل أن يكون بمعنى الإعراض، فيكون «كثيراً» صفة لمصدر محذوف، أي صدًّا كثيراً، أو بمعنى صدّهم لغيرهم. فيكون كثيراً مفعولاً بالمصدر؛ أي صدوا كثيراً من الناس عن سبيل الله.

﴿وكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْليماً﴾ [النساء: ١٦٤]: تصريح بالكلام مؤكد بالمصدر، وذلك دليل على بطلان قول المعتزلة: إنّ الشجرة هي التي كلمت موسى.

﴿ولا الملائكةُ المقَرّبُون﴾ [النساء: ١٧٣]: فيه دليل لمن قال: إن الملائكة أَفضلُ من الأنبياء؛ لأن المعنى لن يستنكف عيسى ومَنْ فوقه أنْ يكون عبداً لله؛ وفيه ردٌّ على مَن قال: إنهم أولاده.

﴿وما أَكل السَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣]؛ أي أكل بعضه. والسبع: كلُّ حيوان مفترس كالذئب والأسد والنمر والثعلب والعقاب والنسر.

﴿وَسِيلة﴾ [المائدة: ٣٥]: كل ما يُتَوسَّل به من الأعمال الصالحة والدعاء وغير ذلك، ومنه: ﴿أولئـك الذيـن يَـدْعُـونَ يبتَغُـون إلى ربهم الوسيلـةَ أيهم أَقرب﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ أي أولئك الآلهة الذين تَدْعُون من دون الله يبتغون القُرْبَةَ إلى الله، ويرجونه، ويخافونه؛ فكيف تعبدونهم معهم؟

وإعراب أولئك مبتدأ والذين يدعون صفةٌ له، ويبتغون خبره، والفاعل في يدعون ضمير للكفار، وفي يبتغون للآلهة المعبودين. وقيل: إن الضمير في يدعون ويبتغون للأنبياء المذكورين. وقيل في قوله: ﴿ولقد فَضَّلْنا بعضَ النبيين على بعض﴾ [الإسراء: ٥٥].

﴿ولا يَحْزُنْكَ الذين يُسارِعُون في الكفر...﴾ [آل عمران: ١٧٦] الآية. انظر كيف سلّى اللهُ نبيّه في مواضع من كتابه. وقرىء بفتح الياء وضم الزاي حيث وقع مضارعاً من حزن الثلاثي، وهو أشهر في اللغة من أحزن.

﴿وإذا جاءُوكُمْ قالوا آمَنَّا وقد دخلُوا بالكُفْرِ وهـم قـد خـرجـوا بـه﴾ [المائدة: ٦١]: هم قومٌ من اليهود دخلوا كفَّاراً وخرجوا كفاراً، ودخلت « قد » على خرجوا ودخلوا؛ تقريباً للماضي من الحال؛ أي ذلك حالهم في دخولهم وخروجهم على الدوام.

﴿وحَسِبُوا ألاَّ تكونَ فِتْنةٌ﴾ [المائدة: ٧١]؛ أي بلاءٌ واختبارٌ. وقرىء تكون بالرفع على أن تكون ﴿أن﴾ مخففة من الثقيلة، وبالنصب على أنها مصدرية.

﴿ولتجدنَّ أَقرَبهم مودَّة...﴾ [المائدة: ٨٢] الآية. إخبار بأن النصارى أقربُ إلى مودّة المسلمين؛ وهذا الأمر باقٍ إلى آخر الدهر، فكلٌّ يهودي شديدُ العداوة للإسلام وأهله؛ وكيف لا وهم الذين قالوا: ﴿ليس علينا في الأُميين سَبيل﴾ [آل عمران: ٧٥]، وأحبارهم يقولون لهم: قال بنو العرب: مَنْ غشنا فليس منّا، فغشوهم لئلا تكونوا منهم.

وانظر حكاية عبدالله بن عمر لما سافَر معه اليهوديُّ، فوجد منه من النصح ما أشعر به، فسأله ابن عمر عن هذه النصيحة وأنه لم يصدر منه في جانبه إلا المودة؛ فقال له: كنْت أمشي على ظلّك، لأني لم أقدر لك على غيره من النكاية؛ وقد شدَّدَ العلماء في خلطتهم ومحبتهم، وكيف لا يشددون والله يقول: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوَادُّون مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَه﴾ [المجادلة، ٢٢]؛ فمصاحبة من حادّ الله ورسوله تفْضي إلى النار، نسأل الله السلامة.

﴿وكلوا﴾ [المائدة: ٨٨]: جاء هذا الأمر بعد النهي عن الاعتداء في التشديد على الأَنفس رِفْقاً من الله بعباده، وخَصَّ الأكلَ بالذكر؛ لأنه أعظم حاجاتِ الإنسان.

﴿ومَنْ قتلَه منكم متَعَمِّداً﴾ [المائدة: ٩٥]: مفهوم الآية يقتضي أنّ جزاءَ الصيد على المتعمد لا على الناس؛ وبذلك قال أهل الظاهر. وقال جمهور الفقهاء: إن المتعمِّد والناسي سواء في وجوب الجزاء، ثم اختلفوا في تأويل قوله: ﴿متعمِّداً﴾ على ثلاثة أقوال: أحدها أنَّ المتعمد إنما ذكر لينَاط به الوعيد الذي في قوله: ﴿ومن عاد فيَنْتقم الله منه﴾ [المائدة: ٩٥]؛ إذ لا وعيدَ على الناسي.

والثاني أن الجزاء على الناسي بالقياس على المتعمّد.

والثالث أن الجزاء على المتعمد ثبت بالقرآن، وأن الجزاءَ على الناسي ثبت بالسنة.

﴿وَبَال أَمْرِه﴾ [المائدة: ٩٥]: عاقبة أَمره من الشر والوَبَال وسوء العاقبة؛ يقال: ماء وبيل وكلأ وبيل؛ أي وبيل لا يستمر أَو تَضُرُّ عاقبتُه، والوبيل والوخيم ضد المريء.

﴿وطعامُه﴾ [المائدة: ٩٦]: الضمير عائد على البحر، يعني ما قذَفَ به؛ ولا يطفو عليه؛ لأن ذلك طعام وليس بصيد؛ قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقال ابن عباس: طعامه: ما صلح منه.

﴿وحُرِّم عليكم صَيْدُ البَرِّ ما دُمْتُم حُرُماً﴾ [المائدة: ١٠١]: لما ذكر أن صيدَ البحر حلال ذكر هنا أنّ صيد البر لا يحلُّ للمحرم تناوله.

﴿وإنْ تَسْألُوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم﴾ [المائدة: ١٠١]: فيه معنى الوعيد على السؤال، كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألْتم أُبْدِي لكم ما يسوءكم. والمراد بـ«حين ينزل القرآن» زمان الوَحْي.

﴿ولكنّ الذين كفَرُوا يَفْتَرون على الله الكـذبَ وأكْثَـرهـم لا يَعْقِلـون﴾ [المائدة: ١٠٣]؛ أي يكذبون عليه بتحريم ما لم يحرِّم، واخترعوا تحريمها من عندهم؛ والذين لا يعقلون هم أتباعُهم المقلِّدون لهم.

﴿ولا تكُونَنّ﴾ [الأنعام: ١٤]: الخطاب حيثما وقع لرسول الله ﷺ، أو يكون معطوفاً على معنى «أمـرت» فلا حذف، وتقديره أمرت بالإسلام ونُهيت عن الشرك.

﴿وجعلنا على قلوبهم أكِنَّةً أنْ يفقهوه وفي آذَانِهم وَقْراً﴾ [الأنعام: ٢٥]: عبر بالأكِنّة والوَقْر مبالغة، وهي استعارة، يعني أنّ الله حال بينهم وبين فَهْم القرآن إذا استمعوه، و﴿أن يَفْقَهُوه﴾ في موضع مفعول من أجله، تقديره كراهةَ أن يفقهوه.

﴿وهم يَنْهَوْن عنه ويَنْأَوْن عنه وإنْ يُهْلِكونَ إلا أَنْفُسهم وما يَشْعُرون﴾ [الأنعام: ٢٦]: الضمير في ﴿وهم﴾ للكفار، و﴿عنه﴾ يعود على القرآن. والمعنى أنهم ينهون الناسَ عن الإيمان به، وينأوْن عنه بمعنى يبعدون.

وقيل الضمير في ﴿عنه﴾ يعودُ على النبي ﷺ؛ ومعنى ينهون عنه يُبْعدون الناس عن إذايته، وهم مع ذلك يبعدون عنه. والمراد بالآية على هذا أبو طالب ومَنْ كان معه يحمِي النبيَّ ﷺ وينصره بنفسه وماله، ويقول له: لا تَخَفْ أحَداً، فإني أذُبُّ عنك بنفسي ومالي، وهو القائل:

والله لن يصلـوا إليـك بجمعهـم ... حتى أُوَسَّـد في التراب دَفينـا

فانهض لأمرك ما عليك غضاضة وطِبْ نَفْساً وقَرّ منـك عيـونـا

فإنا لله وإنا إليه راجعون، نصر واستنصر، ولم يجر بإيمانه القدَر، جيء بواحـد من فارس، وآخر من الحبشة، وآخر من الروم، وأبو طالب على الباب؛ حُرِم الدخول؛ اللهم لا مانع لما أعطيْتَ، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الْجَدِّ منك الْجَدّ.

﴿وذلك الفَوْزُ المبين﴾ [الأنعام: ١٦]: الإشارة راجعة إلى صرف العذاب أو الرحمة؛ أي ذلك هو النجاة الظاهرة.

فإن قلت: ما فائدة حذف ضمير « هـو » في آية الأنعام؟

والجواب: أنه لم يتقدم فيها ما يستدعي إبرازه لما تقدمها من قوله تعالى: ﴿إني أخافُ إنْ عصيْت رَبّي عذابَ يوم عظيم﴾ [الأنعام: ١٥]. ثم أعقبه بقوله تعالى: ﴿من يصْرَف عنه يومئذ فقد رَحِمه﴾، والمراد مَنْ يصرف عنه العذاب في الآخرة فقد رحمه، عطف عليه قوله: ﴿وذلك الفَوْز المبين﴾، وكأَنَّ الكلامَ في قوَّة فقد رحم وفاز، كما في قوله: ﴿فمَنْ زحْزِحَ عن النارِ وأُدْخِلَ الجنّةَ فقد فاز﴾ [آل عمران: ١٥٨]. والفاء هنا، وفي قوله: ﴿فقد رحمه﴾ جواب الشرط. والفوز مسبب عن الرحمة، فاكتفي بذكره في آية آل عمران، وذكرا معاً في آية الأنعام، فعطفُه عليه بيّن، ولم يتقدم من أول السورة إلى هنا ما يتوهّمه العاقل فوْزاً، فيتحرز منه بما يعطيه ضمير « هـو » من المفهوم، فلم يقع الضمير هنا.

﴿ومنهم مَنْ يَسْتَمِع إليك﴾ [الأنعام: ٢٥]: الضمير عائد على الكفار، وأفرد وهو فعل جماعة حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾، و﴿الأكنّة﴾ [الأنعام: ٢٥]: جمع كنان، وهو الغطاء.

فإن قلت: ما معنى وروده هنا بالإفراد بخلاف آية يونس [٤٣]؟

فالجواب: أنَّ هذه الآية نزلت في أبي سفيان، والنضر بن الحارث، وعتبة، وشيبة، وأمية، وأبَيّ بن خلف، فلم يكثروا كثرةَ مَنْ في سورة يونس؛ لأنَّ المرادَ

بهم جميع الكفار، فحمل ها هنا مرةً على لفظ «مَنْ» فوَحّد لقلتهم، ومرةً على المعنى فجَمع، لأنهم وإن قلّوا جماعة، وجمع ما في يونس ليوافق اللفظ المعنى.

﴿ولو ترَى إذْ وُقِفوا على النار...﴾ [الأنعام: ٢٧] الآية: جواب لو محذوف ليكون أبلغ؛ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيّله. ووقعت ﴿إذ﴾ في موضع إذا التي هي لما يستقبل؛ وجاز ذلك؛ لأن الأمر المتيقّن وقوعه يعبَّر عنه كما يعبَّر عن الماضي الوقوع. و﴿وُقِفُوا﴾ معناه: حُبسوا، ولفظ هذا الفعل متعدياً وغير متعد سواء، تقول: وقفت أنا، ووقفت غيري. قال الزهراوي: وقد فُرّق بينهما في المصدر؛ ففي المتعدي وقفت وقْفاً، وفي غير المتعدي وقفت وقوفاً. ويحتمل أن يكون وقوفهم على النار دخولُهم فيها، ويحتمل إشرافهم عليها ومعايَنَتُها.

فإن قلت: ما فائدة تكرير الوقوف.

فالجواب: لأنهم أنكروا النارَ في القيامة، وأنكروا جزاءَ اللهِ ونكالَه في النـار، فختم بقوله: ﴿فَذُوقُوا العذابَ بما كنْتُم تكفرون﴾ [الأنعام: ٣٠]. وهذه استعارةٌ بليغة، والمعنى باشروه مباشرةَ الذائق؛ إذ هي من أشد المباشرات.

﴿وقالوا: إنْ هِيَ إلاّ حياتُنَا الدنيا وما نحن بمَبْعُوثين﴾ [الأنعام: ٢٩]: هذه الآية ابتداء كلام على تأويل الجمهور، وإخبار عنهم بهذه المقالة لإنكارهم البَعْثَ الأخروي.

فإن قلت: ما فائدة إسقاط قولهم: ﴿نموت ونحيا﴾ [المؤمنون: ٣٧] في هذه الآية؟

والجواب: لأنها عند كثير من المفسرين متّصلة بقوله: ﴿ولو رُدُّوا لعَادُوا لِمَا نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقالوا: ﴿إنْ هِي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾؛ ولم يقولوا ذلك بخلاف ما في سائر السور؛ فإنهم قالوا ذلك، فحكى الله عنهم.

﴿وما الحياةُ الدنيا إلاَّ لَعِبٌ ولَهْو﴾ [الأنعام: ٣٢]: هذا ابتداء خبر عن حال الدنيا، والمعنى أنها إذا كانت فانيةً منقضية لا طائل لها أشبهت اللهو واللعب الذي لا طائل له إذا انقضى.

فإن قلت: قد قدم اللعب في أكثر الآيات وفي بعضها أخّره، فهل لذلك وَجْه؟

والجواب: إنما قدم اللعب في الأكثر؛ لأنه زمان الصبا، واللهو زمان الشباب، وزمانُ الصبا مقدَّم على زمان اللهو، يُبَيِّنُه قوله في الحديد: ﴿اعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعب﴾ [الحديد: ٢٥] كلعب الصبيان، ولهو كلهو الشباب، وزينة كزينة النساء، وتفاخر كتفاخر الإخوان، وتكاثر كتكاثر السلطان.

وقريب من هذا في تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله: ﴿وما بَيْنَهُما لاَعِبين. لو أَرَدْنَا أن نَتَّخِذَ لهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧]؛ وقدم اللهو في الأعراف [٥١]؛ لأن ذلك في القيامة، فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأ بما بدأ به الإنسان انتهاء من الحالتين. وأما العنكبوت فالمرادُ بذكرهما ذكر زمان الدنيا، وأنه سريع الانقضاء، قليل البقاء، ﴿وإن الدار الآخرةَ لهي الحيوانُ لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٦٤]؛ أي الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لأمدها، فبدأ بذكر اللهو؛ لأنه في زمان الشباب كما قدمنا أنه أكثر مِنْ زمان اللعب.

﴿ولَلْدَّارُ الآخرةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]: سميت الآخرة لتأخرها عن الدنيا. وقرأ الستة من القراء: و﴿للدَّار﴾ بلامين والآخرة نعت للدار. وقرأه ابن عامر وَحْدَه: ولَدَارُ ـ بلام واحدة، وكذلك وقع في مصاحف الشام بإضافة الدار إلى الآخرة، وكذلك هو لَدَار الحياة الآخرة. وقرأ نافع وابن عامر وأبو حفص عن عاصم: أفلا تعقلون، على إرادة المخاطبين، وكذلك في الأعراف وفي آخر يوسف، ووافقهم أبو بكر في آخر يوسف؛ وإنما قال فيها: ﴿ولَدَارُ الآخرة﴾ بالإضافة؛ لأن ما قبلها في هذه السورة: ﴿وما الحياة الدنيا﴾؛ فالدنيا

صفةٌ للحياة، كذلك جعل الآخرة صفة للدار؛ ولأنه في المصاحف بلامين إلا في مصحف الشام، وما في يوسف بلام واحدة على الإضافة، فوافقوا المصاحف، وقراءة ابن عامر على الإضافة موافقةٌ لمصحفهم، واعتباراً بما في يوسف. ويقوّي ما في هذه السورة ما في الأعراف: ﴿والدار الآخرة خير﴾ [الأعراف: ١٦٩].

﴿وقالوا لولا نزِّلَ عليه آيةٌ﴾ [الأنعام: ٣٧]: الضمير عائد على الكفار. ولولا تحضيض بمعنى هلاّ. ومعنى الآية: هلا أُنزل على محمد بيانٌ واضح لا يَقَعُ معه توقف من أحد، كملَك يشهد له، أو غير ذلك مِنْ تشططهم المحفوظ في هذا فأُمِر عليه السلام بالردِّ عليهم بأن الله عز وجلَّ له القدرة على إنزال تلكَ الآيات، ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [الأنعام: ٣٧] أنها لو نزلت ولم يؤمنوا لعوجِلوا بالعقوبة.

ويحتمل: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [الأنعام: ٣٧] أن الله تعالى إنما جعل الإنذار في آيات معروضة للنظر والتأمّل ليَهْتَدِيَ قومٌ ويَضِلَّ آخرون.

فإن قيل: ما وَجْه إفراد الآية هنا وجمعها في العنكبوت [٥٠]؟ ولِمَ طلبوا الآية وقد أتى بمعجزات وآيات؟

فالجواب: أن ﴿لولا﴾ في الآيتين تحضيض؛ وإنما يجري في كَلاَمِهم عندما يراه المتكلم به أولى أو أهمّ في مقصود ما أو أتمّ في مطلب ما، إلى أشباهِ هذا، مما يستدعي التحضيض، فأفردوا هنا الآية لما قصدوه من أنه عليه السلام لو جاءهم بآية واحدةٍ من الضَّرْبِ الذي طلبوه. أما آيةُ العنكبوت فقد تقدَّم قبلها: ﴿بل هو آياتٌ بيناتٌ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقال بعدها: ﴿وما يَجْحَد بآياتنا﴾ [العنكبوت: ٤٩]؛ وقال بعدها: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ [العنكبوت: ٥٠]، فلم يكن ليناسب بعد اكتناف هذه الجموع توحيد آيةٍ، ثم إن هذه الآية لم يتقدمها من التهديد وشديد الوَعيد ما تقدَّم آيةَ الأنعام؛ فناسب ذلك ورود الفعل غير مضعّف. وجاء ذلك كلّه على ما يجب.

وإنما طلبوا الآية؛ لأنهم لم يعتدُّوا بما أتى به، فكأنه لم يأت بشيء عندهم لجحدهم وعِنَادهم؛ وأيضاً فإنما طلبوا آيةً تضطرهم إلى الإيمان من غير نَظَر ولا تأمل.

﴿وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهم ببعض﴾ [الأنعام: ٥٣]: أي ابتلينا الكفّار بالمؤمنين، وذلك أنّ الكفار كانوا يقولون: هؤلاء العبيد والفقراء مَنَّ الله عليهم بالتوفيق للحق والسعادة دوننا، ونحن أشرف منهم وأغنياء، وكان هذا الكلام منهم على جهة الاستبعاد لذلك.

﴿وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشيطان فلا تَقْعُدْ بعد الذِّكْرَى مع القوم الظالمين﴾ [الأنعام: ٦٨].

قد قدمنا مِرَاراً أنه ﷺ معصوم من الشيطان، وكيف لا وشيطانُه أَسلَم، كما قال ﷺ: «إن الله أعانني عليه فأسلم»؛ فالخطابُ على هذا لأُمته.

ومعنى الآية إن أنساك الشيطانُ النهي عن مجالستهم، فلا تَقْعُد بعد أن تذكر النَّهْيَ معهم. وإما مركبة من إن الشرطية وما الزائدة.

﴿وما علَى الَّذِين يتَّقُون مِنْ حسابِهم مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦٩]: الضمير في حسابهم للكفار المستهزئين. والمعنى ليس على المؤمنين شيء من حساب الكفار على استهزائهم وضلالهم. وقيل: إن ذلك يقتضي إباحةَ جُلوسِ المؤمنين مع الكافرين؛ لأنهم شقَّ عليهم النهيُ عن ذلك؛ إذ كانوا لا بد لهم من مخالطتهم في طلب المعاش وفي الطَّوَاف بالبيت وغير ذلك؛ ثم نُسخت بآيةِ النساء وهي: ﴿وقد نَزَّل عليكُمْ في الكتابِ أَنْ إذا سمعْتُم آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها﴾ [النساء: ١٤٠]. وقيل: إنها لا تقتضي إباحةَ القعود.

﴿وليكون من الموقِنين﴾ [الأنعام: ٧٥]: يتعلق بمحذوف تقديره: نُرِيه ملكوتَ السموات والأرض ليكون عالماً من الموقنين.

﴿وتلك حُجَّتُنَا﴾ [الأنعام: ٨٣]: إشارة إلى ما تقدم من استدلاله واحتجاجه.

﴿وَكيل﴾ [الأنعام: ١٠٢]: كفيل بالأمور. وقيل: كاف.

﴿وأَعْرِضْ عن المشركين﴾ [الأنعام: ١٠٦]: إن كان معناه عما يدعونكَ إليه أو عن مُجادلتهم فهو مُحْكم، وإن كان أَعْرِض عن قتالهم وعقابهم فهو منسوخ، وكذلك: ﴿ما أَنَا عليكم بحَفِيظ﴾ [الأنعام: ١٠٤] و﴿بوكيل﴾ [الأنعام: ١٠٧].

﴿ولا تَكْسِبُ كلُّ نَفْسٍ إلاّ عليها﴾ [الأنعام: ١٦٤]: ردّ على الكفار؛ لأنهم قالوا: اعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تَبَاعة تتوقعها في دُنياك وأُخراك؛ فنزلت الآية؛ أي ليس كما قلتم، وإنما كسب كلّ نفس عليها خاصة.

﴿وَسْوَس﴾ الشيطان للإنسان [الأعراف: ٢٠]: ألقى في نفسه. والوسواس: الشيطان.

﴿ونَزَعْنَا ما في صدُورهم مِنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣]: أي من كان في صدره غلّ لأخيه في الدنيا نُزع منه في الجنة، وصاروا إخواناً على سُرُر متقابلين؛ وإنما عبر بلفظ الماضي في ﴿نزعنا﴾ وهو مستقبل لتحقق وقُوعه في المستقبل، حتى عبّر عنه بما يُعبّر به عن الواقع. وكذلك كل ما جاء بعد هذا من الأفعال الماضية اللفظ، وهي تقع في الآخرة، كقوله: ﴿نادَى أصحابُ الجنة﴾ [الأعراف: ٤٤].

فإن قلت: أي فائدة لزيادة ﴿إخواناً﴾ [الحجر: ٤٧] في آية الحجر؟

والجواب: لأنها نزلت في الصحابة رضوان الله عليهم، وما سِوَاها عامٌّ في المؤمنين. وذكر أنّ ابْناً لطلحة كان عند علي بن أبي طالب، فاستأذن الأشْتَر فحبسه مدةً، ثم أذن له؛ فقال: أَلهذا حَبسْتَني. وكذلك لو كان ابن عثمان حبستني له؛ فقال علي: نعم، إني وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿ونَزَعْنَا ما في صدورهم من غِلّ إخواناً على سُرُرٍ متَقابلين﴾.

قال بعضهم: فقال له بعض مَنْ حضر: كلا، اللهُ أعدل مِنْ أن يجمعك

وطلحة في مكانٍ واحد. فقال: لمَنْ هذه الآية لا أمّ لك! وإنما قال له هذا القائل هذا لأن طلحةَ قاتلَ علياً مع معاوية.

والآيةُ تدلّ على أن الغِل لا ينَافي التقوى، والتقوى مساويةٌ للإيمان، وليست أخص منه؛ بخلاف غيرها من الآيات؛ إذ لو كانت أخصَّ منه لما كان في قلوبهم غلّ.

فإن قلت: لعل الغل في قلوبهم وهم يجاهدونه.

فالجواب: الآية تأبى ذلك، وهذه صفةٌ ممدوحة، وهذا إن كان النزع في الآخرة، وإن كان في الدنيا فلا كلام.

﴿وأنا أَوَّلُ المؤمنين﴾ [الأعراف: ١٤٣]: أي أول قومِه، أو أول زمانِه، أو على وجه المبالغة في السَّبْق إلى الإيمان.

﴿واتَّخَذَ قَوْم موسى مِن بعده﴾ [الأعراف: ١٤٨]؛ أي من بعد غيبته في الطور.

﴿وأَوْحَى ربُّك إلى النَّحْل...﴾ [النحل: ٣٨] الآية: قد قدمنا أنّ الوحي ينقسم إلى أقسام، هذا أحدها، وهو الإلهام؛ أو يكون بمعنى الأمر بأَنَّ ربّك أوحى لها. ومما يدل على أن هذا إلهام قوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كلّ الثمرات﴾ [النحل: ٦٩].

وأتى بصيغة الأمر مبالغة في قصدها إلى ذلك، كما اشترط في المأمور القَصْد إلى الافتعال. وقيل: إنه أمْرٌ حقيقة؛ أي ثم قال لها: كلِي من كلِّ الثمرات. قال ابن الخطيب. وبيتُها الذي صنعته مسدّس، وقام البرهان في علم الهندسة على أنه أحسن الخواتم؛ لأنه مفصّل الزوايا، ليس بينها خلل، بخلاف المربع والمثمن؛ وذلك الاتصال وعدمه لا يظهر إلا لمن قرأ ستّ مقالات من كتاب إقليدس. والشكل المسدس أقرب إلى الاستدارة كدائرة الضابط؛ قال: وفي بنائها حكمةٌ عظيمة، وهو أنها تنسج ملأ البيت الأعلى على ملأ البيت الأسفل؛ وهذا دليلٌ على أنه لا يشترط في الإحكام والإتقان علم الصانع. ذكره في المحصل.

فإن قلت: هل تَرْعَى النَّوْرَ أو ما ينزل عليه وهو الترنجبيل؟

فالجواب: هو الظاهر؛ فإنه لا يظهر لرعيها في النور أثر. والظاهر الأول لاختلاف طَعْم عسلها بالحلاوة والمرارة بحسب ما ترعى، ولو رَعَت الترنجبيل فقط لاتَّحَدَ طعْم عسلها. وأيضاً فالترنجبيل عند الأطباء بارد، والعسل حار.

فإن قلت: يكتسب الحرارة من النحل؟

قلنا: نجد عسل السعتر والخلنج أشدّ حرارة من عسل الإكليل، ولو كان منها لما اختلف.

فإن قلت: قد قال تعالى: ﴿فيه شفاءٌ للناس﴾ [النحل: ٦٩]؛ فهل هو عام أو مطلق؟

فالجواب: ليس على العموم، ولأنَّ الأمزجة مختلفة؛ فإنما هو شفاءٌ لمن مازجه البلغم أو السوداء في بعض الأحيان.

فإن قلت: كيف يكون شفاءً لصاحبِ الصفراء والسوداء مع اختلاف أمزجتها، لأنه إن كان عندكم يقمع الصفراء فلا يقمع نقيضها.

وأجيب: بأنّ الترياق يقوي الروح، فتتقوى الغريزة النفسية، فتغلب على الطبيعة المزاجية، فتقمعها، فصحَّ بذلك كونه داءاً للشيء ونقيضه. وقال أرسطاليس: إنه شفاء من مائة داء خاصّة.

﴿وعلى اللهِ قَصْدُ السبيلِ﴾ [النحل: ٩]: يعني أن من الناس مَنْ هداه اللهُ بالدلائل العقلية، فاهتدى؛ ومنهم من ضَلّ فجار وخالَفها.

﴿ومنه شَجَرٌ﴾ [النحل: ١٠]: يريد به كَلأ الأرض، ولَفْظُ الشجر مشترك بين الجزء والكل. وقال عكرمة: الشجر ما ليس له ساق.

﴿وسَخَّر لكم الليلَ والنّهار...﴾ [النحل: ١٢] الآية: في تقديم الليل ما يدلُّ على أنه عدم، والعدم سابق على الوجود؛ أو لأن العرب إنما يؤَرخون بالليالي، وأول الشهر ليلة، وفي هذا دليل على أن الليل أفضَلُ من النهار؛ لأن التقديم يُؤْذِنُ بالفضل، ومعراج الخليل، وإدريس، وتكليم موسى الكليم، وعيسى

إلى البيت المعمور، ومعراج الحبيب إلى قاب قوسين كان ليلاً. وأيضاً خدمةُ العباد وخلواتهم إنما تكون ليلاً، وأيضاً فالليلُ من الجنة والنهار من الجحيم؛ وذلك أنّ الله لما خلق النارَ بإخراج الظلمة من الجنة، لتكون نوراً صافياً كلّها ليس فيها نار، وجعل الليل والنهار في الدنيا علامةً على الجنة والنار؛ وذلك أن الراحة والأمن إنما يكون بالليل، والتعب والشدة بالنهار، وقَدَّم الشمس في الآية وإن كانت مؤنثة، لأن ضوء القمر يستمدّ منها

﴿وتَسْتَخْرِجُوا منه حليةً تلْبَسُونَها﴾ [النحل: ١٤]: قد قدمنا أن الضمير يعود على البحر، والمراد بها اللؤلؤ أو المرجان؛ ولذلك قال في سورة الرحمن: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والْمَرْجَان﴾ [الرحمن: ٢٢].

﴿وقيل للذين اتَّقَوا ماذَا أَنْزَلَ رَبُّكم قالوا خَيْراً﴾ [النحل: ٣٠]: يعني أنهم قالوا خيراً، ويجوز أن يكون كلاماً مبتَدأ من القائلين، يعني أنه يحتمل أن يكون من كلام المحكي عنه. ونظيرُ ذلك أن يقول زيد يقول خيراً الحمد لله، فتقول أنت ـ حاكياً لكلامه: قال زيد خيراً الحمدُ لله، فهذه من كلام الحاكي. والقول يحكى به الجمل والمفرد المؤدي معناها.

﴿ولقد بَعَثْنَا في كلِّ أُمَّةٍ رَسولا...﴾ [النحل: ٣٦] الآية: فيها دليل على أنَّ اللهَ بعث لكل أمة رسولاً منهم.

فإن قلت: هذا مناقض لما قلتم: إن الله بعث شعيباً إلى أُمّتين. وقد صح أنّ رسالةَ نوح ونبينا محمد ﷺ كانتا عامتين للعرب والعجم مما يدل على أن غيرهما لم يرسل إلى العجم، فنرى العقل خلا من السمع.

والجواب: أن ذلك في التفاصيل والأحكام، وأما الإخبار بوجود الله ووحدانيته فكلّ نبيء أُرسل بذلك على العموم.

فإن قلت: قس بن ساعدة وغيره من فُصحاء العرب وعَبَدة الأصنام كانوا لا يعرفون الإله بوَجْه.

والجواب: إنما ذلك في عوامهم، وأما رؤساؤهـم فيعرفون وجودَ الإله، وإن كانوا معاندين في ذلك.

﴿وما أرسلنا مِنْ قبلك إلا رجالاً نُوحي إليهم...﴾ [النحل: ٤٣] الآية: تدل على تخصيص الرسالة بالرجال، فيحتج به مَنْ قال إن مـريم ليسـت بنبيَّـة. ويجاب بأن الآية إنما اقتضَتْ تخصيصَ الرجال بالرسالة بالنبوءة، وإما بأنَّ قوله «بالبينات» متعلق بأرسلنا.

﴿وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتُبَيِّن للناس ما نُزِّلَ إليهم﴾ [النحل: ٤٤]: قد قدمنا أن المراد بالذكر القرآن، يعني إمّا بسَرْدِك عِلْم آياته، وإما بتفسيرك المجمل وشرح ما أشكل منه؛ فيدخل فيه ما بيَّنَتْه السنَّة من أمر الشريعة؛ فعلى الأول المرادُ بالناس أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وإن أراد ما بيَّنَتْه السنّة فالناسُ عامة. وانظر قوله: ﴿لعلهم يتفكرون﴾ [النحل: ٤٤]. والتفكر إنما يكون من العلماء.

فإن قلت: المبين بعد المبين، وأنزل يقتضي الإجمال، وإنزاله دفعة واحدة. ونزل يقتضي التنجيم حسبما أَلـمَّ به الزمخشري في أول خطبة كتابه؛ والقرآن نـزل أولاً دفعةً إلى سماء الدنيا، ثم نزل منها منجماً، فأنزل قبل نزل، وجاءت الآية على العكس؛ وهو أن بيان ما نزل يقع بإنزال الذكر، فجعل متعلّق أنزل بمتعلق نزل.

والجواب: ما قدمناه: أن متعلق أنزل راجع إلى النبيّ ﷺ ومتعلق نزل راجع لأمته؛ فأنزل على النبي ﷺ جملة؛ ليبين بها ما نزل على أُمته مُفَصَّلاً منَجَّماً.

﴿وله الدِّينُ وَاصِباً﴾ [النحل: ٥٢]؛ أي دائماً. وانظر هل أراد بالدين الطاعة أو الجزاء؟ وقد قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿مالك يَوْم الدين﴾ إنه يوم الجزاء. وفي الآية دليل لمن حكى الإجماع على منع الردة في الْخَلْق كلهم.

فإن قلت: قوله تعالى أولاً: ﴿وله ما في السموات﴾ [النحل: ٥٢] أَتَتْ

دليلاً على وجود الصانع، فلِمَ عطف عليه: ﴿وله الدين﴾، وهو لا يحسن أن يكون دليلاً على وجود الصانع؛ لأنه إنما يستدلّ على وجوده بخلقه لا بالأحكام والشرائع التي كلّفوا بها، لأنها مسببة عن ذلك، فلو كان العطف بالفاء لصح لأنها تدلّ على السببية.

والجواب: بأن المراد من بعد خلقه للعالم، فما من زمانٍ يأتي إلا وهو معبود فيه مُطَاع، تَعْبُده الملائكة وبعضُ الناس؛ فهذا يدلُّ على صحة وجوده. واستدلوا في علم الكلام على وجود الصانع بطريقين: إما حدوث العالم، وإما إمكانه؛ لأن الممكن لا بدّ له من مخصص يوقعه على أحد الجائزين، وطريقُ الاستدلال بالحدوث يستلزمُ الإمكان؛ لأنّ كلَّ حادث ممكن، وليس كل ممكن حادث؛ فإن وجود حجر من زيبق أو من ياقوت ممكن، وليس هو بحادث؛ إذ المراد الحدوثُ بالفعل، وهذا الجوابُ إنما يتم على قول مَنْ فسر الواصب بالدائم.

﴿والله خلقَكم ثم يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [النحل: ٧٠]: قد قدمنا أن الخلق أبلغ من الوجود، ولما قدم في الآية التي قبلها التذكير بقدرة الله، وما اشتملت عليه من الآيات والحكم ـ عقبه ببيان قُدْرته في خَلْق الإنسان، وفي خلق أنفسكم. وأسند فعل التوفي هنا لله تعالى، وقال في سورة السجدة: ﴿قل يَتَوَفَّاكم مَلَك الموت﴾ [السجدة: ١١]. والْجَمْعُ بينهما ينتج صريحَ مذهب أهل السنة القائلين بالكسب.

فإن قلت: لم قال: ﴿ومنكم من يُرَد﴾ [النحل: ٧٠] بحذف الفاعل، وقال يتَوَفَّاكم ـ فذكر الفاعل؟

والجواب: أنه إذا كان المقصود الإشعار بالفعل على الإطلاق يحذف الفاعل، كقولك رأى الهلال، وإن كان المقصود الإخبار بفاعل الفعل يُذْكر؛ كقولك طَعَن عمر غلام المغيرة، ولما كان التوفي قد خالفوا فيه، وقالوا: ما يُهْلِكنَا إلا الدهر ـ ذكر فاعله، بخلاف الرد إلى أرذل العمر، فإنه أَمْر ظاهر لا يحتاج إلى ذِكر فاعله.

وأجاب بعضهم بأنه لما ذكر فاعل البدأة وفاعل النهاية أنه الله تعالى، عُلِمَ أن ما بينهما من فعله، فاكتفي بذلك، ولم يحتَجْ إلى ذكره في الرد إلى أرذل العمر؛ لأنها حالةٌ متوسطة بين البداية والنهاية.

﴿ويعبدون من دُونِ الله ما لا يَملكُ لهم رِزْقاً﴾ [النحل: ٧٣]: الضمير راجع للكفار؛ يعني أنهم يعبدون الأصنام وغيرهم.

فإن قلت: لَمْ يخصُّوهم بالعبادة لأنهم يقولون: ﴿ما نَعْبُدهم إلا ليُقَربونا إلى الله زُلْفى﴾ [الزمر: ٣] فلِمَ ذكر هنا العبادة لهم؟ وما فائدة إبراز الضمير في لهم؟

والجواب أن ذلك الجزء الذي صرفوه لهم من العبادة؛ عبدوهم وهم فيه من دون الله؛ وإنما أبرز الضمير، لأنه إذا أبرز الضمير لمن عبده فأَحْرَى ألا يملكه لغيره، وقدْ قدمنا أن شيئاً في الآية بدل من رزقاً.

﴿ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كلَّ شيء﴾ [الأعراف: ١٥٦]: يحتمل أن يريدَ رحمته في الدنيا، فيكون خصوصاً في الرحمة وعموماً في كل شيء؛ لأن المؤمن والكافر والْمُطيع والعاصي تنالهم الرحمة ونعمته في الدنيا. ويحتمل رحمةَ الآخرة فيكون خصوصاً في كل شيء؛ لأن الرحمة في الآخرة مختصةٌ بالمؤمنين. ويحتمل أن يريد جِنْس الرحمة على الإطلاق، فيكون عموماً في الرحمة وفي كل شيء. وقد صح أنَّ لله مائة رحمة، رحمة في الدنيا للجميع، ويضم هذه الرحمة للتسعة وتسعين ويخصها بالمؤمنين.

﴿وقَطَّعْناهم في الأرض أُمَماً﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ أي فرقناهم في البلاد، ففي كل بلد فرقة منهم، وليس لهم إقليم يملكونه؛ وذلك بقتلهم الأنبياء.

﴿وإذْ أخذَ رَبُّك مِنْ بني آدَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]: في معنى الآية قولان:

إن اللهَ لما خلق آدم أخرج ذرِّيته من صلبه وهم مثل الذر، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم، فأَقَرُّوا بذلك، والتزموا. رُوِي هذا المعنى عن رسول الله ﷺ من طرق كثيرة؛ وقال به جماعةٌ من الصحابة وغيرهم.

والثاني أن ذلك من باب التمثيل، وأن أخْذ الذرية عبارة عن إيجادهم في الدنيا. وأما إشهادهم فمعناه أن الله نصب لبني آدم الآيةَ على ربُوبيته، وشهدتْ بها عقولهم، فكأنه اشْهَدهم على أنفسهم، وقال لهم: ألَسْت بربكم؟ فقالوا بلسان واحد: بلى، أنْتَ ربنا.

والأول هو الصحيح؛ لتوَاتر الأخبار به، إلا أن ألفاظَ الآية لا تطابقه بظاهرها، فلذلك عدل عنه مَنْ قال بالقول الآخر؛ وإنما تطابقه بتأويل؛ وذلك أن أخْذَ الذرية إنما كان من صلْب آدم، ولفظ الآية يقتضي أن أخْذ الذرية من بني آدم. والجمع بينهما أنه ذكر بني آدم في الآية والمراد آدم؛ كقوله:

﴿ولقد خَلَقْنَاكم ثم صَوَّرنَاكم...﴾ [الأعراف: ١١] الآية، على تأويل لقد خلقنا أباكم آدم من صورته. وقال الزمخشري: إن المراد ببني آدم أسلاف اليهود، والمراد بذريته مَنْ كان في عصر النبي ﷺ منهم.

والصحيح المشهور أن المراد جميع بني آدم حسبما ذكر. وفي الحديث: إن أول من أجاب الأنبياء، ثم العلماء سمعوهم فأجابوا، ثم العامة، ثم الكفار، فكلهم أقَرُّوا له بالربوبية.

﴿وإنْ تَدْعُوهم إلى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا﴾ [الأعراف: ١٩٨]: يحتمل أَن يريد الأصنام؛ فيكون تحقيراً لها ورداً على مَنْ عبدها؛ فإنها جمادٌ مَوَات لا تسمع شيئاً؛ أو يريد الكفار، ووصفَهم بأنهم لا يسمعون؛ يعني سمعاً ينتفعون به لإفراط نفورهم، أَوْ لِأَنَّ اللهَ طبع على قلوبهم.

﴿وتَرَاهُم ينظرون إليكَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]: إن كان هذا من وصْفِ الأصنام فهو مجاز، وقوله: ﴿لا يُبْصِرون﴾ [الأعراف: ١٩٨] حقيقة؛ لأَن لهم صورة الأَعين وهم لا يبصرون شيئاً. وإن كان مِنْ وَصْف الكفار فينظرون حقيقة، ولا يبصرون مجازاً على وَجْه المبالغة، كما وصفهم بأنهم لا يسمعون.

﴿وإخْوانُهم يَمُدُّونهم في الغيِّ ثم لا يُقْصِرون﴾ [الأعراف: ٢٠٢]

الضمير في الجميع للشيطان وأريد بقوله: ﴿طائِف من الشيطان﴾ [الأعراف: ٢٠١] الجنس؛ فلذلك أعيد عليه ضمير الجماعة. وإخوانهم هم الكفار، ومعنى ﴿يمدّونهم﴾ يكونون مَدّاً لهم؛ أي يعضدونهم. وضمير المفعول في ﴿يَمُدُّونهم﴾ للكفار، وضمير الفاعل للشياطين. ويحتَمل أن يريد بالإخوان الشياطين، ويكون الضمير في إخوانهم للكفار.

والمعنى على الوجهين أنّ الكفار يمدُّهم الشيطان. وقرىء يمدونهم - بفتح الياء وضمها. والمعنى واحد و ﴿في الغي﴾ يتعلق بيمدونهم. وقيل يتعلق بإخوانهم، كما تقول: أخوه في الله أو في الشيطان.

﴿وإذَا لَمْ تَأْتِهم بآيَة قالوا لولا اجْتَبَيْتَها﴾ [الأعراف: ٢٠٣]: في معناها قولان: أحدهما اخترعتها من قِبَل نفسك: فالآية على هذا من القرآن. وكان النبيّ ﷺ يتأخر عنه الوَحْيُ أحياناً، فتقول الكفار: هلا جئت بقرآن من قولك؟ والاجتباء معناه طلبتها من الله وتخيرتها عليه، فالآية على هذا معجزةٌ أي يقولون اطلب من الله المعجزة.

﴿وإذا قُرِىء القرآنُ فاستَمِعوا له﴾ [الأعراف: ٢٠٤]: كانوا إذا سمعوا القرآن اشتغلوا عنه؛ فأمر اللهُ بالإنصات لقراءته على الإطلاق، ولا معنى لمن قال: إن معناها الإنصات لقراءة الإمام أو الخطبة؛ لأن الآية مَكّية، والخطبة إنما شُرِعت بالمدينة. وأيضاً اللفظ عام، ولا دليلَ على تخصيصه.

﴿وَجِلَتْ قلوبُهم﴾ [الأنفال: ٢] أي خافت. وقرأ أبيّ بن كعب فزعت. ومنه: لا توجلي، ووجلون.

فاعْرِضْ نفسك على هذا الميزان؛ هل تجدُ لذِكْرِ الله وجلاً في قلبك؛ فأنْتَ مؤمن حقّاً، وحينئذ فلا تَنْسَ نفسك وإخوانك من الدعاء، وإلا فابْكِ على نفسك لحرمانك بخطيئتك، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات.

﴿وإنَّ فريقاً من المؤمنين لكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥]؛ أي لقتل العدو؛

وذلك أنّ عير قريش أقبلَتْ من الشام فيها أموال عظيمة، ومعها أربعون راكباً؛ فخرج رسولُ الله ﷺ بالمسلمين، فسمع بذلك أَهْلُ مكة، فاجتمعوا وخرجوا في عَدَدٍ كثير ليمنعوا عيرهم، فنزل جبريل، وقال: يا محمد، إنَّ الله يَعِدُكم إحْدَى الطائفتين؛ إما العير وإما قريشا؛ فاستشارهم ﷺ؛ فقالوا: العير أحبُّ إلينا من لقاء العدو؛ فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل؛ فقال له سعد بن عبادة: امضِ لما شئت، فإنا متبعوك. وقال سعد بن معاذ: والذي بعثك بالحق لو خضْتَ هذا البحر لخضناه معك.

﴿ولِيَرْبِطَ على قلوبكم ويثَبِّتَ به الأَقْدام﴾ [الأنفال: ١١]: لما عدم الصحابة الماء قبل وصولهم إلى بَدْر أنزل الله عليهم الماءَ فتطهَّرُوا به، وثبتت قلوبهم بزوال ما وَسْوس لها الشيطان من عدم الماء لوضوئهم وغسلهم، وأزال عنها الكسل، وكانوا في رملة دَهسَة لا يثبت بها قَدم، فلما نزل المطر تلبَّدَت، ولبّدَت الطريق، وسهل المشي والوقوف. وروي أنَّ ذلك المطر صعب الطريق على المشركين، فكان فيه لطف من الله؛ فلذلك عدَّدَه من نعمه عليهم.

﴿وإنْ تعودوا نَعُدْ﴾ [الأنفال: ١٩]؛ أي إنْ تعودوا إلى الاستفتاح والقتال نعد لقتلكم والنصر عليكم.

﴿ولا تَوَلَّوْا عنه وأَنْتم تسمعون﴾ [الأنفال: ٢٠]؛ أي القرآن والمواعظ.

﴿وإذ يَمْكر بكَ الذين كفَروا...﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية: عطف على ﴿إذ أنْتم قَليل﴾ [الأنفال: ٢٦]، أو استئناف، وفيها إشارةٌ إلى اجتماع قريش بدار النّدْوة.

قال الثعلبي: كانوا اثني عشر رجلاً دخلوا الدارَ، ودخل معهم إبليس لعنه الله على صورةِ شيخٍ في يده عصاه؛ فقال له أبو جهل: إنّا قد اجتمعنا في تدبير أمْرٍ خفيّ، فارجع أنْتَ يا شيخ. فقال إبليس: إني شيخ من أرض نَجْد رأيت الدهور، وكرَّت الأمور عليَّ، أنا أعلم مصالح التدبير وموافقة التأويل والتفسير، فأَدخلوني معكم لعلي أُنبئكم بتأويله. وإنما نسَب نَفْسَه لنَجْد، لأنهم قالوا: لا

تدْخِلوا معكم أحداً من أهل تهامة لمحبتهم في محمد، فلما دخلوا قال لهم عتبة: إن الموت حق، فاصبروا حتى يقضيَ الله على محمد فتَنْجوا من شره. فقال له إبليس: أفّ لك! أين أنْتَ عن التدبير، أنت لا تصلح إلا لرَعْي المواشي، فلو صبرتم حتى يموتَ محمد يظهر دِينه في مشارق الأرض ومغاربها، فتجتمع عنده عساكر عظيمة لمحاربتكم، فيهلككم. فقالوا: صدق الشيخ النجدي. ثم قال شيبة: إني أرى أَنْ نَحْبِسه في بيتٍ ونغلق أبوابه حتى يموت فيه جوعاً وعطشا. فقال إبليس: وهذا أيضاً ليس بصوابٍ؛ فإنَّ بني هاشم يجتمعون ويأخذونه من أَيديكم، ويخلون سبيله، ويقع بينكم وبين أقربائه عداوة عظيمة. فقالوا: صدق الشيخ النَّجْدي. فقال عامر بن وائل: نعضد محمداً على بَعير ونَسوقه في البادية ليهلك فيها. فقال إبليس: ليس بصواب؛ لأن محمداً فصيح اللسان، مَليح الجنان، قويم القامة، صبيح الوَجْه، كلٌّ مَن رآه أحبه؛ وربما لقِيَه أَحدٌ وهداه إلى البلاد، فيصدقه كلٌّ من يسمع كلامه، ويجتمع عنده جمع عظيم، فيرجع إليكم، ويحاربكم؛ فصاحوا جميعاً: صدق الشيخ النجدي.

فقال أبو جهل لعنه الله: إني أرى أنْ نُخْرِجَ من كل قبيلة شابّاً فيهجمون على محمد في ليلة فيضربه كلٌّ واحد منهم ضربةً جميعاً بالأسلحة حتى لا يعْلم قاتِله بعينه؛ فإذا طَلَب أقارِبُه الديةَ نجمَع الأموال من القبائل ونعْطيهم وننجو من شره. فقال إبليس: أحسنْتَ وأصبْتَ، لرَأْيك أحسن الرأي، وتدبيرك أحسن التدبير؛ فاتفقوا عى قَتْله ﷺ، وتفرقوا من دار الندوة، فنزل جبريل بهذه الآية، ثم قال: إن الله يقول لكَ: اخرج من مكة. فأتى إلى أبي بَكْر، وكان يأتيه كلّ يوم طرفي النهار، فأتاه في الظَّهيرة؛ فقال أبو بكر: ما جاء بك في هذا الوقت؟ فِداك أبي وأمي! فقال لي: أَخرِج مَنْ معك. فقال: وهل هُمْ إلا أهلـك. فقال: أما شعرت أنّ الله أَمرني بالخروج، وكان يقول لأبي بكر: لا تهاجر حتى أَجدَ لك رفيقاً، فقال له: الصحبة يا رسول الله، فقال: الصحبة. فقال: خُذْ إحدى هاتين الناقتين. فقال له: لا آخُذها إلا بالثمن، ليكون مُهَاجراً بنفسه وماله.

ثم قال لأصحابه: أيكم يبيت على فِراشي أَضمن له على الله الجنة؟ فقال عليّ: أنا يا رسول الله، وأَجعل نفسي فداك. فبات عَلِيٌّ عَلَى فراش رسول الله ﷺ، وجاء الكفار يحرسونه ويرتقبون خروجَه، وإبليسُ معهم، فسلط اللهُ عليهم الْغَفْلَةَ والنومَ، ونام إبليس لعنه الله، ويقال: إنه لم ينم قط إلا في تلك الليلة، ولا ينام بعدها أبداً؛ فخرج ﷺ مع أبي بكر ورآهم نائمين؛ فأخذ التُّرَابَ وحَثَى على رؤوسهم. وقرأ سورة يس حين قَصد المرور، فلم يره أحَد ببركة يس.

وفي الحديث: إن الله أوحى إلى جبريل، وميكائيل عند رجليه، وجبريل يقول: مَنْ يقتلك يا بن أبي طالب باهى اللهُ بك الملائكة، فأنزل الله عليه: ﴿ومن الناس مَنْ يَشْرِي نَفْسَه ابتغاءَ مرضاةِ الله واللهُ رؤوف بالعباد﴾ [البقرة: ٢٠٧].

﴿وَلِيجةً﴾ [التوبة: ١٦]: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وَلِيجة فيه، والرجل يكون في القوم وليس منهم فهو وَلِيجة.

﴿وقيل اقْعدوا مع القَاعِدين﴾ [التوبة: ٤٦]: يحتمل أن يكون القائل الله تعالى، أو يكون ذلك من قول بعضهم لبعض، وعلى الأول فهو عبارة عن قضائه عليهم بالقعود.

﴿والسابقون الأَوَّلون﴾ [التوبة: ١٠٠]: قيل هم مَنْ صلى القِبْلَتين، وقيل مَنْ شهد بدراً. وقيل مَنْ حضر بيعةَ الرضوان. وقيل: مَنْ أسلم قبل الهجرة. وقيل: مَن اشتغل بمعادِه عن معاشه. وقيل: الذي غلبَ عقْله على شهوته.

﴿والذين اتَّبَعوهم﴾ [التوبة: ١٠٠]: سائر الصحابة، ويدخل في ذلك الباقون، ومَنْ بعدهم إلى القيامة بشرط الإحسان.

﴿ورَضوا بالحياة الدنيا واطمأنُّوا بها﴾ [يونس: ٧]: الضمير عائد على الكفار؛ لأن هذا شأنهم؛ قنعوا بالدنيا، وسكنَتْ نفوسهم عن ذكر الانتقال منها؛ فإياكَ والاتصاف بهذا الوصف، وهو حالُ أكثرنا؛ لأنا نفرح بالزيادة منها، ونحزن لفقدانها، فيوشك أخْذنا منها بغتةً.

﴿ويَعْبدونَ مِنْ دون الله ما لا يَضُرّهم ولا يَنْفَعهم﴾ [يونس: ١٨]: الضمير عائد على الكفار من قريش الذين تقدمَتْ محاورتهم، فأخبر الله أنّ أصنامهم لا تضر ولا تنفع. وردّ على مَنْ زعم نَفْعَهم لهم.

وقدم الضر هنا لتناسب الوارِدَ مِنْ متصل قوله: «ولا ينفعهم» بقوله: ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨].

﴿ومنهم من يؤْمِن به...﴾ [يونس: ٤٠] الآية: أخبر الله فيها بما يكون منهم في المستقبل. وقيل: إنّ بعضهم يؤمن وهو يَكْتم إيمانه، ومنهم من يكذب.

﴿ومنهم مَنْ يَنْظر إليكَ أفأَنْتَ تَهْدِي العُمْيَ﴾ [يونس: ٤٣]: المعنى أتريد أن تهدي العُمي؛ وذلك لا يكون.

فإن قلت: ما الفرقُ بين ﴿من﴾ في الاستماع وبين هذه؛ لأنه جاء أولاً بلفظ الجمع وهنا بلفظ الإفراد؟

فالجواب: أن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبيّ ﷺ بخلاف النظر، فكان في المستمعين كثرة؛ فجمع ليطابق اللفظ المعنى، ووَحّد ينظر حملاً على اللفظ؛ إذ لم يكثروا كَثْرَتهم.

وقد قدمنا أنه إذا جاء الفعل على لفظ «من» فجائز أن يعطف عليه آخر على معناها، وإذا جاء أَولاً على معناها فلا يجوز أن يعطف بآخر على اللفظ؛ لأن الكلام يلتبس حينئذ، وكأنه قال: ومنهم من يَنْظر إليك ببصره، لكنه لا يعتبر، ولا ينظر ببصيرته، فهو لذلك كالأعمى فسلاه الله بهذه الآية؛ والهدايةُ إنما هي بيد الله، ولو شاء الله لجمعهم على الْهُدَى.

﴿ولكل أُمَّة رسولٌ فإذا جاء رسولهم قضِيَ بينهم بالقِسْطِ وهم لا يظْلَمون﴾ [يونس: ٤٧]: قال مجاهد: المعنى فإذا جاء رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم صُيِّرَ قَوْم للجنة وقوم للنار؛ فذلك القضاءُ بينهم بالقسط. وقيل: المعنى فإذا جاء رسولهم في الدنيا وبُعث صاروا ممن ختم اللهُ بالعذاب لقومٍ والمغفرة لآخرين

لغاياتهم؛ فذلك قضاء القِسْطِ بينهم، وقرر بعض المتأولين هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ومَا كنّا مُعَذِّبين حتى نَبْعَثَ رسولاً﴾ [الإسراء: ١٠]؛ وذلك يتفق بأن يجعل معذبين في الآخرة، وإما بأن يجعل القضاء بينهم في الدنيا بحيث يصحُّ اشتباه الآيتين؛ وإنما ورد في سورة يونس بالقسط في الموضعين؛ لأنه بمعنى العدل والتسوية في الحكم بمظنة وروده حيثُ يُراد موازنة الجزاء بالأعمال من غير زيادة.

﴿وأُمِرْتُ أَنْ أَكونَ من المؤمنين﴾ [يونس: ١٠٤]: هذه مخاطبة من الله لنبيّه، ويدخل تحته جميعُ المكلفين من أُمَّته، وهذه الآية قبلها يتسق معناها بمحذوفات يدلُّ عليها هذا الظاهر الوجيز. والمعنى إن كنتم من ديني فأنتم لا تعبدون الله، فاقتضت فصاحة الكلام وإيجازه اختصار هذا كله. وأمره هنا بالإيمان بخلاف آخر النمل؛ لأنه تقدم قبلها: ﴿ولَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأرض كلهم جميعاً﴾ [يونس: ٩٩]. ﴿وما كان لنَفْس أنْ تؤمن إلا بإذْن الله﴾ [يونس: ١٠٠]. وبعد هذا: ﴿وما تغْنِي الآيات والنُّذُر عن قَوْمٍ لاَ يؤمنون﴾ [يونس: ١٠١]. وبعد هذا كله: ﴿كذلك حقًّا علينا ننْج المؤْمنين﴾ [يونس: ١٠٣]. وآما آية النمل فإن قبلها قوله: ﴿إنما أُمِرْت أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذه البلدَةِ الَّذي حرَّمَها ولَهُ كلُّ شيء﴾ [النمل: ٩١]. وهذا يقتضي تسليم كل شيء له والتبري من توهّم شريك أو نظير، فناسب هذا قوله: ﴿وأُمِرْتُ أَنْ أكونَ من المسلمين﴾ [النمل: ٩١].

﴿وأَن أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس: ١٠٥]، أي قَصْدَك ودينك.

﴿واصْبِرْ حتى يَحْكمَ اللهُ وهو خَيْرُ الحاكمين﴾ [يونس: ١٠٩]: وعد بالنصر والظهور على الكفار، وإنما زاد في الأعراف ﴿بيننا﴾ [الأعراف: ٨٧]، لأنه من خطاب الله لشعيب، فناسبه البسط في الكلام.

﴿ويَتْلوه شَاهِدٌ منه﴾ [هود: ١٧]: الضمير في ﴿يتلوه﴾ للبرهان، وهو البينة، أو لمن كان على بينة من رَبّه، والضميرُ في ﴿منه﴾ للرب تعالى. ويتلو هنا بمعنى يتبع، والشاهد يراد به القرآن. والمعنى يتبع ذلك البرهانَ شاهدٌ من الله،

وهو القرآن فيزيد وضوحه وتعظيم دلالته. وقيل: إن الشاهد المذكور هنا هو عليّ بن أبي طالب، فيالها من فضيلة! كرر ذِكْرَه في مواضع، ولذلك قال له ﷺ: الناس في شجر شتّى وأنتَ في شجرةٍ واحدة. وشبّهه بسورة الإخلاص في قوله: مَنْ قرأ سورة الإخلاص مرة واحدة فله ثوابُ ثلث هذه الأمة، ومَنْ قرأها مرتين فله ثلثا ثواب هذه الأمة، ومن قرأها ثلاث مرات فله ثوابُ هذه الأمة. وقال: مَنْ أحبَّ عليًّا بقلبه فله ثلث ثواب هذه الأمة، ومن أحبه بقلبه ولسانه فله ثلثا ثواب هذه الأمة، ومن أحبّه بلسانه وقلبه وجوارحه فله ثوابُ جميع هذه الأمة.

وقال مجاهد: نزلت في عليّ سبع آيات، لأنه كانت له أربعة أشياء لم تكن لغيره: السخاوة، والشجاعة، والزهادة، والعلم. وله من جهة الرحمن امرأته أفضل النساء، وصهره أَفْضل الخلق، وشاهده جبريل، وولده الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

﴿ومِنْ قَبْلِهِ كتابُ موسى﴾ [هود: ١٧]، أي من قبل ذلك الشاهد كتابُ موسى يشهد بأنَّ هذا القرآن هو من عند الله. وقيل أقوال غير هذه، هذا أصحُّها.

﴿ويَقول الأَشْهَاد﴾ [هود: ١٨]: جمع شاهد كأصحاب. ويحتمل أن يكون من الشهادة، فيراد به الملائكة والأنبياء، أو من الشهود بمعنى الحضور، فيراد به مَنْ حضر الموقف.

﴿ومَنْ آمَنَ﴾ [هود: ٤٠]: معطوف على ﴿أَهلَكَ﴾، أي احمل أهلَك ومَنْ آمَنَ من غيرهم.

﴿وعلى أُمَم مِمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨]: يعني في السفينة. واختار الزمخشري أن يكون المعنى من ذرية مَنْ معك، ويعني به المؤمنين إلى يوم القيامة، فَـ﴿مِنْ﴾ على هذا لابتداء الغاية. والتقدير على أمم ناشئة ممن معك، وعلى الأول تكون مِنْ لبيان الجنس.

﴿وَأُمَم سنمتّعُهم﴾ [هود: ٤٨]، أي بمتاع الدنيا، وهم الكفار إلى يوم القيامة.

﴿ولما جاء أمْرُنا﴾ [هود: ٥٨]: الأمر واحد الأمور، ويحتمل أن يكونَ مصدر أمر يأمر، أي أمرنا للريح، أو لخزَنتها، ونحو ذلك.

فإن قلت: لِم قال هنا وفي قصة شعيب: ﴿ولما﴾ [هود: ٩٤] بالواو، وفي قصة صالح [هود: ٦٦] ولوط [هود: ٨٢]: ﴿فلما﴾ بالفاء؟

والجواب: على ما قال الزمخشري: إنه وقع ذلك في قصة صالح ولوط بعد الوعيد، فجيء بالفاء التي تقتضي التسبيب، كما تقول: وعدته، فلما جاء الميعاد، بخلاف قصة هود وشعيب فإنه لم يتقدم ذلك فيهما، فعطف بالواو. وقيل في الجواب غير هذا مما يطول ذكره.

﴿ونَجَّيْنَاهم من عَذَابٍ غَلِيظ﴾ [هود: ٥٨]: يحتمل أن يريد به عذابَ الآخرة ولذلك عطف على النجاة الأولى التي أراد بها النجاةَ من الريح. ويحتمل أن يريد بالثاني أيضاً الريح، وكرره إعلاماً بأنه عذابٌ غليظ وتعديد النعمة في نجاتهم.

﴿وأُتْبِعُوا في هذه الدنيا لَعْنَةً﴾ [هود: ٦٠]: حكم عليهم بهذا الحكم لكفرهم وإصرارهم حتى حلَّ العذابُ بهم، وقد تيقّن أَن هؤلاء وافوا على الكفر، فيلعن الكافر الموافي على كُفْره، ولا يلعن أحداً بعينه حتى البهيمة؛ لأَن معناها البعد من رحمة الله.

فإن قلت: لم جمع في قصة هود بين اسم الإشارة ولفظ الدنيا الجاري عليه وصفاً، واكتفى في قصة موسى [هود: ٩٩] باسم الإشارة دون التابع؟

والجواب أنّ قصة هود عليه السلام في هذه السورة أكثر استيفاء من قصة موسى عليه السلام بكثير؛ فناسب الطولُ الطولَ، والإيجازُ الإيجازَ، ولا يليق العكس.

﴿وإنَّنَا لَفِي شكٍّ مما تَدْعُونَا﴾ [هود : ٦٢]: هذا من قول قوم صالح، أخبروه أنهم في شك من أقاويله، وأن ذلك الشك يرتابون به زائداً إلى مرتبته من الشك؛ ولا فَرْق بين هذه الحال وحالة التصميم على الكفر، وإنما أثبتوا النونين الداخلين للتأكيد، وأفرد الضمير في تدعونا، وألحقه في سورة إبراهيم [٩]، لأنها واردة على الأصل في اتصال الضمير المنصوب بها. ثم يجوز حذفُ إحدى المضاعفين تخفيفاً، فتقول: إنا، فتكتفي بالضمير عن النون المحذوفة، وذلك من فصيح كلامهم. والأصل الأول.

﴿وأخذ الذين ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فأَصْبَحُوا في دِيَارهم جَاثِمين﴾ [هود : ٦٧]: إنما ذَكَّرَ الفعل المسند إلى الصيحة، لأنها بمعنى الصياح وتأنيثها غَيْرُ حقيقي. وقيل جاز ذلك وهي مؤنثة لما فُصل بين الفعل وبينها كما قالوا: حضر القاضي اليوم امرأة. والأول أصوب. وإنما أسقط تاء التأنيث من هذه القصة وأثبتها في قصة شُعيب؛ لأنه على ضربين: حقيقي، وغير حقيقي، فالحقيقي لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالباً إلا أن يَقَع فصل، نحو قام اليوم هند، وكلما كثر الفصل حسن الحذف. ومن كلامهم، كما قدمنا لو الإشارة مع الحقيقي ما لم يكن جَمْعاً.

وأما التأنيث غير الحقيقي فالحذْفُ فيه مع الفصل حسن؛ قال تعالى: ﴿فمَنْ جاءَهُ موعظةٌ من ربه﴾ [البقرة: ٢٧٥] وهو كثير؛ فإن زاد الفصل ازداد حسناً، والحذفُ والإثبات هنا جائزان؛ فجاء الفعل في هذه الآية على الوجه الأول، وفي قصة شعيب على الوجه الثاني، جَمْعاً بين الوجهين، إذ الآيتان في سورة واحدةٍ، وتقديماً للأَوْلى على ما ينبغي، وهذا ما لم يكن الفاعل ضمير مؤنث فله أحكام تخصه. والله أعلم.

﴿ولما جاءَتْ رسلُنا لوطاً﴾ [هود : ٧٧]: قد قدمنا أنه أعاد الضمير، لظَنّه أنهم من بني آدم وخوفه عليهم من قومه، وقوله لهم: ﴿لو أَن لي بكم قوةً﴾ [هود : ٨٠]. ولما قالها قالوا له: إنَّ رُكْنَكَ لشَدِيد.

فإن قلت: كيف ينطق بهذا وقد قال ﷺ: يرحم الله لوطاً، لقد كان يَأْوِي إلى رُكْنٍ شديد؟ وفي الحديث: لم يبعث الله نبيئاً إلا في مَنَعَة وعزة؟

والجواب: أنه خشي عليه السلام أنْ يمهل الله أولئك العصابة حتى يعصوه في الأضياف، كما أمهلهم فيما قبل ذلك من معاصيهم، فتمنى رِكْناً من البشر يعاجِلهم، وهو يعلم أنَّ اللهَ تعالى مِنْ وراء عقابهم، وأيضاً فإنَّ قَوْمَه إنما يمنعونه هو لو أَرادوه بضرّ، وقد كان المطيع فيهم قليلاً.

ولقد أُصيب نبيُّنا محمد ﷺ في غير ما موطن مِنْ شَجِّ رأسه، وكَسْرِ رباعيته، وطَرح سلا الجزور على ظَهْره، ولم ينطق بشيء من ذلك عزامة منه ونجدة.

فإن قلت: لِمَ حذف من هذه الآية إن الزائدة في العنكبوت [٣٣] ؟

والجواب: أنها كثيراً ما تُزَاد، ولما وردت هذه الآية بلفظها مرتين، وردت الثانية بزيادتها ليحصلَ بين التَّوَارُدين ما يرفع تثاقل اللفظ المتكرر.

فإن قلت: فإنه قد تباعد ما بين الآيتين، ومِثْلُ هذا لا يلحظ فيه ما ذَكَرْت.

فأقول: لما كان اللفظُ اللفظَ، وكان زيادة « إن » وعدم زيادتها هنا مقيس فصيح جيء بالجائزين معاً، وتأخرت الزيادة، إذ هي غير الأصل إلى المتأخر من الآيتين.

فإن قلت: إن قوله تعالى: ﴿فلَمَّا أنْ جاء البَشير﴾ [يوسف: ٩٦] لم يقع فيه تكرار، فلِم زيد ﴿أن﴾ ولم يأت على الأصل؟

قلت: لما كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الزمن، وتَبَاعُد المدة، ناسب ذلك زيادة ﴿أن﴾ لما في مقتضى وَصْفِها من التراخي، فورَد كلٌّ من هذا على ما يجب.

﴿ولقد أرْسَلْنَا مُوسى بآيَاتِنَا وسُلْطَانٍ مُبين﴾ [هود: ٩٦]: قيل هو مشتق من السليط الذي يستضاء به. وقيل: إنه مسلط على كل منّا ومخاصم، وزاد السلطان في هذه الآية وفي سورة غافر زيادة قوله: ﴿وسلطان مبين﴾ [غافر: ٢٣]، وورد في سورة يونس [٦٨] والمؤمنين [٤٥] ذكر تأييد موسى بأخيه هارون عليهما السلام، ولم يرد ذلك في غيرهما. وانفردت سورة المؤمنين بالْجَمع بين تأييده عليه السلام بأخيه وسلطان مبين، لأنه حيث يذكر سورة المرسل إليهم وقُبْح جوابهم يقال أبداً بتأييده بأخيه أو عضده بالآيات مما يقتضي القَهْرَ والإرغام، وهو المعبَّرُ عنه بالسلطان المبين، فيكون ذلك في مقابلة شَنِيع مجاوبتهم وسوء رَدّهم.

وبالجملة فإنه إذا اجتمع إفصاحُهم بالتكذيب واستكبارُهم جمع في التمهيد المتقدم بين التأييد بهارون والسلطان المبين، وحيث يصرح بالتكذيب أو ما يعطيه بينا، كقوله: ﴿ فاتَّبَعُوا أمْرَ فِرْعون﴾ [هود: ٩٧].

﴿وما كان رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بظلْمٍ﴾ [هود: ١١٧]: هذا المجرور في موضع الحال من ﴿ربك﴾ ويحتمل أن يريد بظلمٍ منه تعالى لهم. قال الطبري: وقيل يحتمل أن يريد بشرك منهم، وهم مصلحون في أعمالهم وسيرهم وعَدْل بعضهم في بعض، أي أنهم لا بد من معصية تقترن بكفْرهم. وهذا ضعيف، وإنما ذهب قائله إلى نحو ما قيل إن الله تعالى يُمْهِل الدُّوَل على الكفر، ولا يُمْهِلهَا على الظلم والجور، ولو عكس لكان ذلك متَّجِهاً، أي ما كان الله ليعذِّبَ أُمةً بظلم في معاصيهم وهم مصلحون في الإيمان. والاحتمال الأول أصحُّ إن شاء الله.

وجيء بالفعل هنا ﴿ليهلك﴾ إشارة إلى التكرر بحسب ما يكون منهم؛ فلو كان في كل أُمة وقَرْن مَنْ يَنْهَى عن الفساد والظلم لما أُخذوا بذوي الظلم منهم ولكن الله تعالى يدفَعُ ببعضهم عن بعض، ولكن تكرر الفساد، وعَمّ كل قَرْن؛ فتكرر عليهم الجزاء والأَخذ؛ فأشار بالفعل إلى التكرر، ولم يكن قوله: ﴿مهلك﴾ في سورة الشعراء ليعطي ذلك وهنا كقوله تعالى: ﴿أو لم يَرَوْا إلى

الطير فوقهم صافَّات ويقبضن﴾ [الملك: ١٩] ولم يقل وقابضات لما قصد من معنى التكرر.

﴿ولا يَزَالُون مُخْتَلفين. إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبكَ ولذلكَ خَلَقهم﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]؛ الإشارة إلى الاختلاف في المذاهب والأديان والملل. وقيل الإشارة إلى الرحمن، وقيل إليهما.

﴿وكُلاًّ نَقُصُّ عليكَ مِنْ أنباءِ الرُّسُل﴾ [هود: ١٢٠]: انتصب كُلاًّ بنقصّ و﴿ما﴾ بدل من كلاً، والإشارة في: ﴿وجاءَكَ في هذه﴾ [هود: ١٢٠] إلى السورة.

﴿وإن كُنْتَ مِنْ قَبْلِه لَمِنَ الْغَافِلين﴾ [يوسف: ٣]؛ أي من قبل القصص غافلاً عن معرفته، وفي هذا احتجاج على أنه من عند الله، لكونه جاء به من غير تعليم.

﴿وكَذلكَ يَجْتَبِيك رَبُّكَ ويُعلِّمكَ من تأْوِيل الأَحَاديث﴾ [يوسف: ٦]: قيل هي عبارة الرؤيا، واللفظ أعمُّ من ذلك.

﴿والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتهم لي ساجِدِين﴾ [يوسف: ٤]: كرر الفعل لطول الكلام، وأجرى الكواكبَ والشمس والقمر مجرى العقلاء في ضمير الجماعة لَمّا وصفها بفعل مَنْ يعقل.

هذا يوسف أنجاه عِلْمُه من ذلِّ السجن والبلوى، وأنتَ يا محمدي عَلّمك الله عِلْمَ كتابه، أفلا ينْجيك علمك به من ذل الذنب، ويوصلك إلى جوار الرب، وقد اجتباك بقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكم﴾ [الحج: ٧٨]. هذه رؤيا وافق تعبيره على ما رأى، وعصمه الله، ووصل إلى الملك؛ وكيف لا يعدّ لك الملكَ الأعظم، ويحفظك من مكايد إبليس ونزعاته عند الموت؟

﴿وَارِدَهُم﴾ [يوسف: ١٩]: الوارد هو الذي يستقي الماءَ، وكان سيِّدَ القافلة مالك بن ذعر من العرب العاربة، فلما رأى يوسفَ تَفرَّس فيه الصلوحية،

فطلب من يوسف الدعاء، فدعا له بالنسل؛ لأنه لم يكن له، فدعا له فرزقه اللهُ اثني عشر ولداً، أعقب كلٌّ واحد منهم قبيلة.

﴿وأَسَرُّوهُ بِضَاعة﴾ [يوسف: ١٩]: الضمير للسيارة، والمفعول ليوسف؛ أي أخفوه من الرُّفْقَة، وقالوا: دفعه لنا قومٌ لنبيعه بمصر.

﴿واللهُ غالِبٌ على أمْرِه﴾ [يوسف: ٢١]: في عودة الضمير وجهان: أحدهما أن يعود على الله. والمعنى أنه يفعل ما يشاء لا رادَّ لحكمه. والثاني أنه يعود على يوسف؛ أي يدبِّر اللهُ أمره بحفظه وكرامته؛ ألا ترى أنه لما كان يوسف بحضرة والده وبِعَيْنِه حمله إخوته على أعناقهم، فلما غاب عن بصره توجَّهت إليه المحنُ، وقاسى الشدائد، وكانت عاقبته الملك.

وأنت يا محمدي، مالك لا تخاف من نظر اللهِ إليك، فيراكَ على مخالفته، ويحرمك من رحمته.

﴿وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبر فكذَبَتْ وهو من الصادقين﴾ [يوسف: ٢٧]، لأنها جبذته إلى نفسها حين فَرَّ منها، ولهذا يحكم القاضي بالقرائن المغلِّبة للظن غالباً.

وقد قدمنا أن هذا الصبيَّ كان من أقرباء زليخا وصل وزارة يوسف بشهادته له.

وأنْتَ تشهد لخالقك بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، أتراه لا يوصلك للملك الكبير، وهو على كل شيء قدير!

اللهم إني أشهدك بما شهدت به لنفسك، وثَنَّيْت بملائكة قدسك، وثلثت بأولي العلم من جِنِّكَ وإنسك؛ إنك أنْتَ الله لا إله إلا أنت وحْدَكَ لا شريك لك. وإن محمداً عبدك ورسولك، وأستودعك هذه الشهادة وأنْتَ تحفظ الودائع، ولا تخيب من استودعك، فرُدَّها علينا وقْتَ احتياجِنا إليها.

﴿ولج﴾ يلج، أي دخل، ومنه ما يلج في الأرض. وأولج يولج، ومنه: ﴿يُولج الليلَ في النهار﴾ [الحج: ٦١].

﴿وابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ من الحزْن﴾ [يوسف: ٨٤]، أي من البكاء الذي هو ثمرة الحزن، فقيل: إنه عمي. وقيل: كان يدرك إدراكاً ضعيفاً. وفي الحديث: إن يعقوب حزن حُزْنَ سبعين ثَكْلَى. وما ساء ظَنُّه بالله قطّ، فلذا أُعطي أجْرَ مائة شهيد.

﴿وأعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمون﴾ [يوسف: ٨٦]: هذا من قول يعقوب، يعني إني أعلم من لطفه ورحمته ما يوجِب حسْنَ ظني به وقوة رجائي فيه.

﴿وَلِكلِّ قَوْمٍ هاد﴾ [الرعد: ٧]: روي أنها لما نزلت قال عليه السلام: أنا المنذِر، وأنْتَ يا عليّ الهادي. وقيل: معناها إنما أنت نبيء منذر، ولكل قوم هاد من الأنبياء ينذرهم، فليس قولك بمبْدَع ولا مستَنْكر. وقيل المعنى: إنما عليكَ الإنذار، والله هو الهادي لمن شاء إذا شاء.

﴿وجَعَل فيها رَوَاسِيَ وأنهاراً﴾ [الرعد: ١]: قد قدمنا أنَّ الرواسي الجبال، وقدمنا فائدة جَمْع الأنهار جمع قلة، والرواسي جمع كثرة.

﴿ومِنْ كلّ الثمرات جَعَلَ فيها زَوْجَيْن اثْنَين﴾ [الرعد: ١]: قيل إنه معطوف على قوله: ﴿رَوَاسي﴾، فيكون متعلقاً بجعل الأول. وقيل: إنه متعلق بجعل الثاني.

ورَدَّه بعض النحويين بأنّ فيه الفصل بين حرف العطف والمعطوف. وقد قال ابن عصفور في شرحه الكبير: ولا يجوز فصل حرف العطف والمعطوف إلا بالقسم أو بالظرف والمجرور، بشرط أن يكون حرف العطف على أزيد من حرف واحد. « وجعل » هنا معطوف على ﴿جعل﴾ الأول، ففصل بين الواو وبينه بالمجرور، وهذا جيد إلا أنْ يُجاب بأنه من حرف الجمل، فهو استئناف.

فإن قلت: هل المراد بالزوجين اثنين الذكر والأنثى، كقوله: ﴿ومِنْ كلّ شيءٍ خلَقْنَا زَوْجين﴾ [الذاريات: ٤٩]؟

فالجواب: أنّ المراد بالزوجين النوعين، قال الزمخشري: كالأسْوَد والأبيض،

والحلو والحامض، والصغير والكبير، فإنها في أصلها كانت زوجين ثم تفرَّعت منها أنواعٌ، فصارت أزواجاً.

﴿وإنْ تَعْجَبْ فعَجب قولُهم﴾ [الرعد: ٥]: انظر هل هذا أمر تقريري، أو هو استدعاء له ليعجب؟

فإن قلت: إذا لا تدخل إلا على المحقَّق الوقوع، وإن تدخل على المشكوك فيه، والتعجبُ من هؤلاء محقَّقٌ وقوعه؛ لأنهم أنكروا البَعْثَ، وخالفوا، مع علمهم أنَّ اللهَ خلقهم وأوجدهم؛ ومَنْ أوجد المخلوقات من عدمٍ قادرٌ على إعادتها؛ قال: وعادتُهم يجيبون بأنَّ التعجبَ إنما يكون مما خَفِي بسببٍ، فما يَتَعَّجب إلا مَنْ يخفى عليه السبب؛ والنبي ﷺ عالم بأنّ ذلك الواقع منهم، أَمْرٌ قَدَّره الله، وأراده منهم؛ فهو في خاصته لا يَتعجَّب منهم، فضلاً على أن يكون تعجُّبه منهم محققاً؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْر الله رحمةُ الله وبركاتُه﴾ قال أبو حيان: فعَجب مبتدأ وخبره قولهم إذا.

ورُدَّ بوجهين: الأول أن قولهم في رتبة العلم، وعَجب نكرة. والثاني أن محل الفائدة في عجب؛ لأنه المجهول؛ وقولهم: أإذا كنَّا تُراباً ـ هو المعلوم. وقولهم: ﴿لفي خَلْقٍ جديد﴾ يحتمل أنْ يريد بالجديد ما سبقه عدَمٌ، ويحتمل أنْ يريدَ به ما لم يُسْبَق بوجود. وهذا هو الأظهر، لأجل تعنُّتهم، فهم يجعلون الإعادة كأنها خَلْقٌ آخر لم يسبق بوجود البتّة، فلذا نفَوْها.

ومذهبُ أهل السنة أنّ الإعادةَ ممكنة عقلاً واقعةٌ سَمْعاً، وهل تُعَادُ الأجساد أم لا؟ مذهبُ أهلِ السنة أنها تُعَاد، لأنَّ الوجود قسمان: إما متحيز أو قائم بالمتحيز، فالأرواح إن كانت متحيزة فهي أجسام، وإن لم تكن متحيزة فلا تستقلّ بنفسها، ولا بُدّ لها من أجسام تحلُّ فيها، فلا بُدَّ من إعادة الأجسام خلافاً للحكماء وغيرهم.

﴿ويَسْتَعْجِلونَكَ بالسيِّئةِ قَبْلَ الحسنةِ وقد خَلَتْ من قبلهم الْمَثُلاَت﴾ [الرعد: ٦]: انظر هل المراد أنهم طلبوا الأَمْرَيْن، أو طلبوا السيئة فقط، وهو

الظاهر، لأن الحسنةَ بعدها، فما تأتيهم إلا وهم قد هلكوا. ويحتمل أن يهلكوا من غير استئصال، والمراد بالْمَثلاَت القرون، لأنه وقع بها من العذاب ما صيَّرها يُضْرب بها الْمَثَل.

﴿وإنَّ ربَّكَ لذُو مَغْفِرةٍ للناس على ظلْمهم﴾ [الرعد: ٦]: قال ابن عبد السلام: هذه الآية نزلت على ترجيح جانبِ الخوف على جانب الرجاء، لقوله: ﴿ذو مغفرة﴾، وهو للتقليل، وإنما أخذه من كون المغفرة مصدراً محدوداً بالتاء الدالة على الواحدة، على العقاب، مصدر مبهم يقع على القليل والكثير، فلو قال: إن ربك لغفار للناس لأَفاد المبالغة.

قال ابن عطية: والظاهر في معنى المغفرة هنا إنما هو سَتْره وإمهاله للكفرة، أَلاَ ترى التيسير في لفظ المغفرة، وأنها منكرة مقللة، وليس فيها مبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿وإنّي لغفّار لِمَنْ تاب﴾ [طه: ٨٢]. وذكر الزمخشري في سورة غافر في قوله تعالى: ﴿إنّ اللهَ لذو فَضْلٍ على الناس﴾ [غافر: ٦١] أن إدخال ﴿ذو﴾ يدلّ على عِظَم فَضْله وكثرته، ونحوه لابن عطية في سورة الروم في قوله: ﴿فآتِ ذَا القُرْبى حَقّه﴾ [الروم: ٣٨]، ونحوه للقاضي عياض في الإكمال في حديث سعد بن أبي وقّاص في الوصية حيث قال: قد بلغ بي من الوجع ما ترى، وإني ذو مال، ولا يرثني إلا ابنةٌ لي.

﴿وكلّ شيء عنده بمقدار﴾ [الرعد: ٨]: انظر هل المرادُ به القدرة وهي الإبراز من العدمَ إلى الوجود، أو الإرادة وهي التخصيص، أو العلم وهو الكَشف والاطلاع. والظاهر أَنَّ المراد به الإرادة وأن كل شيء عنده مقدَّر مراد، لأنه أَتى به عُقَيب قوله: ﴿وما تَغِيضُ الأَرْحام وما تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨]، فثَمَّ حمل ناقص، وحمل زائد، وحمل معتدل، فقال: كلٌّ ذلك مقدَّر مُرَاد له، لأن تخصيص الناقص بالنقص، والزائد بالزيادة، إنما هو راجع للإرادة، والظاهر أنه من العمومات الغير مخصصة، كقوله تعالى: واللهُ بكلّ شيء عليم.

﴿وإذا أَراد اللهُ بقَوْمٍ سوءاً فلا مَرَدَّ له﴾ [الرعد: ١١]: هذا احتراس،

إشارة إلى أنّ ﴿الْمُعَقِّبات﴾ [الرعد : ١١] إنما يحفظونه مما أراد الله عدمَ وقوعه. وأهل السنة يعمِّمون لفظَ « القَوْمِ » في الطائع والعاصي، والمعتزلة يخصصونه بالعاصي بناءً على قاعدةِ التحسين والتقبيح عندهم.

ولا مردَّ له، أي لا دافع عنه ابتداءً قبل وقوعه بهم، ولا ناصر لهم برفعه عنهم بعد وقوعه.

﴿ويُنْشِئُ السَّحَابَ الثقَال﴾ [الرعد : ١٢] : اختلفوا في ماء المطر، هل هو من السماء، أو من البحار يتصعّد منها بخارٌ وتكسبه الأهوية رِقّة وعذوبةً فيتكوّن في السحاب ثم ينزل مطراً.

وقيل بالوقف؛ وهو اختيارُ ابْنِ رشد في البيان. وذكر بعضهم أنه إذا سُخن ماء البحر وجُعلت على القِدْرنشّافة فإنه يَعْذب. وقيل: بل تنكسر حدَّته ويشربه المضطر إليه.

﴿ويُسَبِّحُ الرَّعْد بحمده والملائكة مِنْ خِيفَتِه﴾ [الرعد : ١٣] : قيل: إنّ الرعد اسم ملك؛ وردَّه بعضهم لقوله تعالى: ﴿فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق﴾ [البقرة: ١٩]. فقد نكّره، فإن كان لفظ الرعد هو العلَم على الملك لم يَجُزْ حذف الألف واللام منه، كما لا يُحْذَف من القاسم والعباس، وإن كان العلم عليْه الرعد لزم إدخال الألف واللام هنا على الاسم العلم، وهو جائز. ويحتمل أن يكون الألف واللام لِلَمح الصفة، فإن لَمحتَها أَدخلتها وإلا فلا.

وقيل الرعد صوت ملك. وقال الحكماء: اصطكاك الأجرام.

فإن قلت: لم أسند الحمد للرعد والخوف للملائكة؟

فالجواب إن كان الرعد اسم ملك فأَسند الحمد إليه إما لأنه جرْمٌ أعظم من سائر أجرام الملائكة، فهو في مقام الحمد لا في مقام الْخَوف، وإمّا ليدل اللفظُ دَلالتين: دلالة مطابقة والتزام؛ فأسند التحميد إليه مع الملائكة لدخوله فيهم، أو يكون حذَفَ من الأول لدلالة الثاني، ومن الثاني لدلالة الأول، أي ويسبِّحُ الرعْدُ من خيفته بحمده والملائكة بحمده من خيفته.

وإن أريد بالرعد السحاب فالمعنى أنه سبَّح اللهَ وحمده على إبرازه إياه من العدم إلى الوجود بلسان الحال لا بالقول، إذ لا عقل له، فلذلك لم يُسنِد الخوف إليه، بخلاف التسبيح، لقوله: ﴿وإنْ من شيء إلاَّ يسبِّحُ بحَمْده﴾ [الإسراء: ٤٤]. والخوف إنما يقعُ من العاقل.

﴿والذين يَدْعُون مِن دونه﴾ [الرعد: ١٤]: لم يَدْعُوهم مِنْ دون الله: لكن الجزء الذي شركوهم فيه مع الله في العبادة دعوهم فيه من دونه. ﴿يستجيبون﴾ [الرعد: ١٤]: ليس هو من استفعل بمعنى طلب الفعل، وإنما هو كقول الشاعر:

وداعٍ دعا يَا مَنْ يُجيب إلى النَّدا فلم يَسْتَجِبْه عند ذلك مُجِيب

فعلى هذا لا سؤال، وإن لم يكن بمعنى أجاب يرد فيه بأن استجاب خاصة بمن أجاب بما يوافق غَرَض السائل. وأجاب علامة في المجيب بالموافق والمخالف؛ فيقال لهم نفي جوابهم بالموافق، مع أنهم لا يجيبون بشيء على الإطلاق، فيجاب بأن مطلوبهم من الآلهة إنما هو حصولُ غَرضهم، فنفاه. وأما غيره فليس مطلوباً لهم، فلم يحتج إلى نفيه؛ قاله الزمخشري.

وقولِه: ﴿كباسطِ كَفَّيه﴾ [الرعد: ١٤]: يحتمل أن يريد به إلا استجابة كاستجابة باسط، أي كاستجابة الماء من بسط كفيهِ إليه يطلب أَنْ يبلغه فاه، والماء جماد لا يشعر بعطشه ولا بدعائه له. وشَبَّه باسطَ كفيه للماء دون فاتح فيه للماء؛ لأنه داعٍ، وشأنُ الداعي أن يبسط يديه.

﴿وما هو بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد: ١٤]: الفعل يقتضي التجدد، والاسم يقتضي الثبوت؛ فإذا أريد المبالغة عبّر في الثبوت بالاسم، وفي النفي بالفعل؛ لأنه يلزمُ من نفي ثبوت الصفة وقتاً ما نَفْيُ ثبوتها دائماً، ولا يلزم من نفي ثبوتها دائماً نفي ثبوتها وقتاً ما، وكذلك يؤتى في الأعم بالنفي، وفي الأخص بالثبوت؛ لأن نفي الأعم يستلزم نفي الأخص، وثبوت الأعم يستلزم نَفْي ثبوت الأعم، ونحوه

للزمخشري في قوله: ﴿فلما أضَاءَتْ ما حَوْلَه ذهب الله بنورهم﴾ [البقرة: ١٧]. وجاءت هذه الآية على العكس في قوله: ﴿ليَبلُغَ فَاهُ. وما هو ببالغه﴾؛ فعبَّر بالثبوت في الفعل، وفي النفي بالاسم، فنفى عنه البلوغ الثابت دائماً، ولا يلزم منه في البلوغ المتجدد الثابت وقتاً ما.

والجواب أنَّ القرينةَ هنا تنفي هذا المفهوم المتوهّم، وتُعيِّن أنَّ المراد نَفْيُ البلوغ على الإطلاق كيفما كانت.

﴿ومِمَّا يُوقدون عليه في النار ابتغاءَ حِلْيَةٍ أو مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه﴾ [الرعد: ١٧]: الزمخشري: هو كل ما يلين من المعادن، فإذا برد اشتد وتبين، كالذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص. والحلية: كل ما يتحلَّى به من الذهب والفضة وغيرها.

﴿والذين يَنْقُضُون عهدَ الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر اللهُ به أن يوصَل﴾ [الرعد: ٢٥]: هذا دليل على أن العهد يطلق على الوعد، وعلى الأمْرِ المشقّ الْمُلْتَزَم، ولو كان العهد هنا الميثاق لما كان لقوله: ﴿من بَعْد ميثاقه﴾ [الرعد: ٢٥] فائدة. وقيل هي مباينة لم قبلها، ووقعت المبالغة فيما قبلها بتسعة أوصاف؛ وفي هذه بثلاثة أوصاف: لأن الأولى في معرض الجزاء على الطاعة، وهذه في معرض العقوبة على المعصية، فناسب المبالغة في الأولى، تأكيداً على المثابرة على الطاعة، وعدم المبالغة في هذه تنفيراً عن المعاصي، وأن العقاب يقع على أدنى شيء من المعصية. ووجْه ثان: وهو أن نقض العهد إشارةٌ إلى العهد المأخوذ على الخلائق يوم: ﴿ألَسْتُ بربكم﴾، فهو راجع إلى التوحيد.

وقطع ما أمر الله بوصله: راجع إلى الإيمان بالرسول؛ لأن تكذيبه قطع له مِن مرسله، والإيمان به إقرار بصلته مع مرسله.

والفساد في الأرض راجعٌ إلى المعاصي. وفي الآية حجةٌ لمن يقول: إن المندوب غير مأمور به، لأنها في معرض الذم لفاعل ذلك، فلو كان مأموراً به لما

تناوَلَهُ الذمُّ، وليس المراد مَنْ جَمعَ هذه الأوصاف؛ بل من اتصف بواحدٍ منها فقط.

فإن قلت: هل قوله تعالى: ﴿لهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار﴾ [الرعد: ٢٥] لمن اتصف بها، سواء كان مؤمناً أو كافراً؟

والجواب: أنّ اللعنةَ للكفار وسوء الدار للعُصَاة، فهو لفٌّ ونشر؛ وإدخال اللام تهكم بهم وإشارة إلى أن اللعنةَ أمرٌ ملائم لهم ومناسبٌ لفعلهم؛ فليَحْذَر العاقلُ هذا الوعيد الهائل ولا يستحقر المعاصي.

﴿وفَرِحُوا بالحياةِ الدنيا....﴾ [الرعد: ٢٦] الآية: هذا يرجع إلى الكفار الذين جعلوا الدنيا دَارَهم، وهل هي إلا سجنُ المؤمن إن عقل، لِمَا يَسْتَوْلي عليه فيها من الهموم والبلايا والحيات والقمل.

ووَجْهُ المناسبة بينها وبين السجن ظاهرة؛ فانظر ما أَغْفَلَنا عن الآخرة مع مشاهدتنا لهذه الأمور! ولهذا تجد الكفار يوسَّع عليهم في الدنيا ليزدادُوا كفْراً وفِسقاً، وكذلك الموسَّع عليه منا أكثر ترفّهاً وعصياناً؛ ولهذا قال في حديث: أولئك قوم عجلت لهم طيباتُهم في الدنيا.

﴿ويقول الذين كفروا لولا أُنْزل عليه آيةٌ من ربّه﴾ [الرعد: ٢٧]: لولا للتحضيض، كقول الفقير للغني: لولا أَحسنْتَ إليّ. فأجابهم الله بأن يقول لهم: إنما أَنا عبد، والعبدُ ليس له مع سيده اختيارٌ، وسيِّدُه أعلمُ بأموره، إما أَنْ يضلّه أو يهدي إليه مَنْ أناب.

فإن قلت: لم جعل فعْلَ المشيئة مضارعاً والإنابة ماضياً، والمناسب العكس، لأن مشيئة الله قديمة وإنابة العبد حادثة، وفي غافر: ﴿وما يَتَذَكَّرُ إلا مَنْ يُنيب﴾ [غافر: ١٣]؟

فالجواب، أن فعل المشيئة أتى مضارعاً باعتبار متعلّقها، وهو من فعل العبد وغير مطلوب لأَن أصلها من الله؛ فلم يحتَجْ إلى طلب متعلّقها. والإنابة من فعل

السيد ؛ فجاء فعلها ماضياً إشارة إلى تأكد طلبها حتى كأنها واقعة. وأيضاً مشيئة الله دائمة مستمرة، وإنابة العبد منقطعة؛ فهو إشارة إلى أن مَنْ أَناب ليس على وثوق مِنْ بقاء إنابته واستمرارها في المستقبل إلا بهداية الله وتوفيقه.

والآية عندي صريحةٌ في مذهب أهل السنة؛ لقوله: ﴿يَهْدي إليه﴾ [الرعد: ٢٧]؛ أي يخلق في قلبه الهدايةَ ويُرشده إليها. وأناب إشارة إلى ماله في ذلك من الكسب. ثم ذكر حالهم أنهم آمَنُوا به واطمأَنَّت قلوبهم بذكره.

فإن قلت: كيف تطمئنُّ قلوبُهم بذِكْرِه وقد ذكرهم الله في آية أخرى: ﴿الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قلوبُهم﴾ [الحج: ٣٥]؛ فهذه اقتضت أَنَّ ذكر الله موجب خَوْفه والوَجَلَ منه، والأولى اقتضت طمأنينة قلوبهم.

والجواب: أنهم لما سمعوا ذكره تعالى حدث لهم خَوْف منه ووَجَل، ثم تعقبه طمأنينة وسكون، كما قال القائل.

وإنّـي لتَعْـرُوني لــذِكْــرَاك فَترة كما انتفـض العصفـورُ بلَّلَـه القَطَـر

وقال ابن عبد السلام: معنى الأولى أنهم إذا أخبروا أنّ الله تعالى ذكرهم اطمأَنَّـت قلـوبُهـم وسكنَـتْ؛ لأنهم يعلمـون أنّ ذلـك رحمة منـه بهم واعتنـاء بذكرهم؛ وجاء قولهم: ﴿إذا ذُكِر الله وجلَتْ قُلوبهم﴾ [الأنفال: ٢، والحج: ٣٥] على الأصل من حالهم؛ لأن حالهم الخوف؛ فإذا ذكر الله ازداد وَجَلُهُم وخوفهم من عقابه. وهذا جوابٌ حسن. وهذه أمور ذوقية لسنا من ذلك على ذوق، فلا القلب يطمئن ولا يوجل، اللهم أَقِل العَثْرَة واغفر الزلَّة.

﴿ولو أنَّ قرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ...﴾ [الرعد: ٣١] الآية، وجوابها مقدر؛ أي لما آمنوا به، والقضية الشرطية تقتضي نفيَ الأول لانتفاء الثاني؛ نحو: لو كان هذا إنساناً لكان حيواناً، لكنه ليس بحيوان فليس بإنسان. وتارة تقتضي ثبوتَه لثبوته؛ نحو: لو لم يكن هذا حيواناً لما كان إنساناً، لكنه إنسان فهو حيوان. وتارة تقتضي مجردَ الملازمة والارتباط؛ نحو: لو حضر زيد لحضر ثوبه؛ والآية

من هذا القسم، والعطف فيها تدلّ؛ لأن تسيير الجبال أقرب وأعجب لعظم جرمها وكونها جماداً لا يقبل الاتصاف بصفة الحيوان، والسير من صفة الحيوان، ولم يقع ذلك فيها بوجه، ثم يليه تقطيعُ الأرض لكثرة وقوعه، لاسيما ما قاله ابن عطية من أنه تفجير أنهارها. ويليه تكليم الموتى؛ لأنه قد وقع لعيسى عليه السلام وغيره.

﴿ولقد استُهْزِئَ برسُلٍ من قبلك...﴾ ﴿الرعد: ٣٢] الآية: فيها دليلٌ على أنه لا أثر للاستهزاء على الكفر مع الكفر؛ لأن الاستهزاء كفر وزيادة، وتعليقُ الحكم على الوصف المناسب يُشعر بغلبته له؛ والاستهزاءُ هو عَيْنُ الكفر؛ وهؤلاء لم يكونوا في زمن الفترة؛ بل كانوا مؤمنين بغيره، وما عُلِم كفرُهم به إلا من لفظ الاستهزاء؛ وفيها دليل على صحة العمل بالقياس؛ لأن الآيةَ سيقت مساق التخويف للكفار، والتسلية لنبينا ﷺ، وما وَجْه التخويف إلا من ناحية أنّ المشاركة في الوصف توجب التسوية في الحكم الناشيء له، والكفار المعاصرون لنبينا مشاركون لمن سبقهم في الاستهزاء. واقتضت الآيةُ أنّ مَنْ سبقهم عُوقب، فكذلك هؤلاء. ولا معنى للقياس إلا إثباتُ حُكْم الأصل للفرع لعلة جامعة. وتنكير لفظ ﴿رسل﴾ للتشريع، ولا يناسب التعظيم، ولا يحصل به التخويف؛ لأنهم يقولون: إنما عُوقبوا أولئك على استهزائهم بعظماء الرسل فما يلزم منه عقابنا نحن.

فإن قلت: كيف أكد هذا القسم باللام وقد مع أن الماضي بعيد عن زمن الحال؟

والجواب: تنزيلاً له منزلةَ القريب؛ ليحصل كمال التخويف. ولما أخبرهم بالإملاء فعلم العاقل منهم أنّ الإمـلاء أشد من الإهمال بكثير، لأنه يتضاعف به العذاب، فأسرع إلى الدخول في الإسلام، وعَلم أن تيسير أسبابِ الوقوع من موجبات عذابٍ آخر، والأمر كذلك؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إنّما نُمْلِي لهم ليَزْدَادُوا إثْماً﴾ [آل عمران: ١٧٨]. ويحكون في مثل هذا أنَّ صبيّاً مسلماً

صفع يهودياً في الحمام، فأعطاه اليهوديُّ ديناراً مكيدةً منه للصبي، فدخل ذو هيئة فصفَعه الطفلُ ظانًّا أنه يأخذ منه أكثر، فقطعت يده. فافْهَمْ يا محمدي ما تَحت الإمهال والإملاء من الأهوال، ولا تحسبنّ إمهاله إهمالاً.

﴿وجعَلُوا لله شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهم....﴾ [الرعد: ٣٣] الآية: تارة تبطل الدعوى ببيان بطلان مدلول دليلها، وأبطل عليهم بهذه مدلولهم السمعي. وهو قوله: ﴿أم بظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾، وهو قولهم: ﴿ما نَعْبُدهم إلاَّ ليُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقولهم: ﴿هؤلاء شفعاؤُنا عِنْدَ الله﴾ [يونس: ١٨]؛ فقيل لهم: هل بلغكم ذلك عن الله على ألسنة الرسل أم لا؟ وقد خلط الزمخشري في قوله: ﴿شركاء﴾ على عادته في خَلْط لفظ القرآن بكلامه.

وأما العقلي فبطلَ لِبُطلان مدلوله، وهو قوله: ﴿قل سَمُّوهم أم تُنَبِّئُونه بما لا يَعْلَمُ في الأرض﴾ [الرعد: ٣٣] فهو غَيْرُ معلوم لله، وكلُّ ما ليس بمعلوم لله فليس بموجود ولا معدوم إن قلنا إنَّ المعدوم الممكن معلوم؛ فدل على أنه محال.

فإن قلت: كيف قال: ﴿قل سَمُّوهم﴾ وهم سمّوهم، فقالوا: اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى؟ وفي آية يونس: ﴿قل أَتُنبِّئُونَ اللهَ بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ [يونس: ١٨]. وفي هذه السورة: ﴿بما لا يعلم في الأرض﴾. وفي سورة إبراهيم: ﴿وما يَخْفَى على الله من شيءٍ في الأرض ولا في السماء﴾ [إبراهيم: ٣٨]؟

والجواب: ليس المراد مجرد التسمية؛ بل تعيينهم. والمعنى أنه إنما يستحقُّ اسْمَ الإله مَن اتّصفَ بالاستغناء والكمال، وتنزَّه عن العجز والاحتياج، فعيِّنوا لنا شركاء مُتَّصفين بذلك، فإنهم لا يجدونهم. وإنما خصّ الأرض بالذكر لأنّها المشاهَدَة القريبة، وإلاّ فقد عبدوا الشِّعْرَى والعَبور، وعَبدُوا الشمس إلى غير ذلك. ونَفْيُ علم الشيء عن الله يستلزمُ عدمَ ذلك الشيء، وفيه دليل على أَنَّ العدم غير معلوم. وفي المسألة ثلاثة مذاهب: مذهب الجمهور إلى أنه معلوم، وقيل إنه غير معلوم. وقيل المستحيل غير معلوم، والممكن معلوم.

﴿وإمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهم...﴾ [الرعد: ٤٠] الآية: تسلية للنبيّ ﷺ ووَعْدٌ له بتعذيبهم. ومعناها إمّا نُرِيَنَّكَ بعضَ ما ينزل بهم من العذاب فلا تَتوهم أنّ عليك في ذلك شيئاً؛ لأنك إنما عليكَ البلاغ، وقد بلَّغْتَ، أوْ نَتَوفّاكَ قبل رؤيتك ذلك فعلينا حسابُهم؛ لأنهم إذا عذّبوا بعد وفاته انتفى التوَهُّم.

فإن قلت: هل هذا وعْد له ﷺ بتعذيبهم أو وَعيد، فأطلق الوعد على الوعيد؟

والجواب أنهما اجتمعا في هذه الآية [الرعد: ٤٠]، وآيةُ الزخرف [٤٢] أبلغُ لأن قوله تعالى: ﴿أوْ نرينّكَ الذي وَعَدْناهم﴾ [الزخرف: ٤٣] اقتضت رؤيته بعض عذابهم. وهو ماينزل بهم في الدنيا قَبْل وفاته، وكان بعضهم يقول: الوعد بالإحسان أو بالنصرة على الأعداء من السلطان أو الرجل ذي الهيبة ليس كالوَعْد ممن دونه، لأنَّ الأول يحصل منه كمالُ الطمأنينة والركون.

فإن قلت: ما الفائدةُ في تأكيد الآيتين بالنون مع أن أحدهما محقّق الوقوعِ لا شكَّ فيه، وإنما المُهِمّ تعيين الواقع منهما؟

والجواب: أَنَّ التأكيد راجع للجزاء لا للشرط.

فإن قلت: إنما هو في الشرط فقط، فاعلم أنَّ الشرط والجزاء مرتبطان؛ ألا تَرى أنّ القائل: إنْ قام زيد فأنا أكرمه ـ يحسن أن يقال له صدقت أو كذبت، والتصديقُ والتكذيبُ إنما هو للجزاء لا للشرط.

﴿وهُوَ سَرِيعُ الحساب﴾ [الرعد: ٤١]: سرعة حسابه إما باعتبار قُرْب أوانه أو قِصر زمانه وقلة مكثه. وقال ابن عطية في سورة آل عمران [١٩] عن مجاهد: يحتمل أنّ المرادَ بسرعة الحساب أنّ الله تعالى لإحاطته بكل شيء علماً لا يحتاج إلى عدول أو فكرة. ويستدلّ بها أنَّ الله سبحانه يحاسب آلاف آلاف في وقتٍ واحد من غير علم أَحدهم بالآخر، وهذا مشاهَدٌ في رؤيته ﷺ في أقطار شتى على هيئات مختلفة، ورؤية أموات في أقطار الأرض لمنكر ونكير في وقتٍ واحد هذا يقع له التبشير بقولهم، وآخر يضربانه ضربةً يشتعل منها قَبْرُه ناراً.

﴿وقد مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهم﴾ [الرعد: ٤٢]: قد قدمنا صفةَ مكرهم، ولذلك أجابهم بقوله: ﴿فلِلَّهِ المَكْرُ جميعاً﴾ [الرعد: ٤٢]؛ لأن مكرهم من غير قدرة، وقُدْرَتُه تعالى على الفعل، وهو عالم بهم، لا يخفاه شيء من أمرهم.

فإن قلت: «من» لابتداء الغاية. فيقتضي أول أزمنة القبلية، وقد يقرب الماضي من زمن الحال، فكيف صحَّ الجمع بينهما؟

والجواب المراد أوَّل أزمنة هذا المكر القريب، وهو الزمنُ القريب مِن وقتك.

﴿ويقولُ الذين كفَرُوا لسْتَ مُرْسَلاً﴾ [الرعد: ٤٣]: هذا تصريح بإنكارهم وقبح مقالهم، وكيف لا وقد رأوا ظهورَ الخوارق المعلوم صِدْق من ظهرت على يديه بالضرورة، وكان الواجب عليهم النظر؛ لأنه واجب بالشرع خلافاً للمعتزلة؛ فإنهم قالوا بالعقل، ولو كان واجباً بالشرع للزم عليه إفْحامُ الرسل؛ لأنه يقول: ما ننظُرُ في معجزتك حتى يجب ذلك عليّ، ولا يجب عليّ إلا بقولك، وأنَا لا أصدقك.

وأجاب أهلُ السنة على ذلك بأن المعجزات والخوارق من الأمر الغريب، والنفوسُ مجبولةٌ على النظر في غرائب الأمور، وأيضاً إن قلنا: إن النظر بتكليف ما لا يُطاق، فنقول: إنه واجب؛ ولا يلزم ما ذكروه، وإن لم نقل بذلك فنقول: إنه متوقف على تمكُّن العلم بنبوءةِ الرسل لا على حصول العلم بنبوءته. ونقول له: إنك متمكّن من العلم؛ فانْظُر النظر الذي يوصلك إلى ذلك العلم.

فإن قلت: مقالَتُهم ماضية، فلم قال؛ ﴿ويقول الَّذين كَفرُوا﴾ [الرعد: ٤٣]؟.

فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أتى به مستقبلاً للتعجيب، كقوله: ﴿أَلم ترَ أنَّ الله أنزلَ من السماء ماءً فتُصْبِحُ الأرضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، ولم يقل فأصبحت. والثاني للتصوير، كأنها لم تزل واقعة مشاهدة. والثالث ليتناول اللفظ مَنْ قالها ومَنْ سيقول مثلها في المستقبل.

فإن قلت: هَلاَّ قال: لست نبيئاً، فينتفي الأعَم؛ لأن نَفْيَ الأعم يستلزم نَفْيَ الأخَص؟

والجواب أنّ نفي الأخص هنا يستلزم نَفْيَ الأعم؛ لأنه قال لهم: ﴿يا أيها الناسُ، إنّي رسولُ الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فكذَّبوه في هذه المقالة، فإذا كذّبوه فيها فهم لا يصدّقونه في نبوءته؛ لأن النبي لا يَكْذِب.

﴿وما أَرْسلْنَا من رسولٍ إلا بلسان قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]: فيها دليل على أنّ واضعَ اللغة هو الله تعالى. واختلف هل الكتب المنَزَّلة نزلت بلغاتهم أو بالعربية، وكلّ رسول يعبِّر لهم بلغتهم. وقد قدمنا ذلك. وفي قوله: ﴿فيُضِلُّ الله مَنْ يشاء ويَهْدِي مَنْ يشاء﴾ [إبراهيم: ٤] دليلٌ على أَنَّ حصولَ العلم عقيب النظر عاديٌّ، وليس بعقلي؛ إذ لو كان عَقْلياً للزم من البيان الهداية. ويحتمل أن يقال لا يلزم ذلك؛ لأن المخاطب قد لا ينظر النَّظَر الموصِّل للعلم.

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أَنْ أَخرِجْ قَوْمَكَ من الظلماتِ إلى النُّور...﴾ [إبراهيم: ٥] الآية. الظاهر أن ﴿أَنْ﴾ هنا تفسيرية. وقال بعض النحاة: إن النحويين يمنعون وصلَ ﴿أن﴾ بالجملة غير الخبرية. وذكر ابن العطار في شرح الجزولية جوازَ ذلك.

فإن قلت: هلا قال: أن أَخرج قومك من الظلمات إلى النور بإذن الله، كما قال أوَّلاً: ﴿لتُخْرِجَ الناسَ من الظُّلُمات إلى النور بإذْن ربِّهم﴾ [إبراهيم: ١]؟.

والجواب أنَّ الأول خطاب للنبي ﷺ، وشَرِيعَتُه من أسهل الشرائع؛ فناسب فيها ذِكْر الإذْن ليُفِيد معنى السهولة واللين المأذون فيها، وهذه الآية الثانية خطابٌ لموسى، وقد كانت شريعته صعبةً؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فتُوبُوا إلى بارئكم فاقْتُلُوا أَنْفُسكم﴾ [البقرة: ٥٤]. وأيضاً «أخْرِج» فعل أمر؛ فهو بنفسه دليل على الإذن، فلم يحتج إلى ذكره معه، بخلاف قوله: ﴿لِتُخْرِج الناس﴾، فإنه جملة خبرية لا تدل على الإذْن، فلذلك قيدت به.

﴿وذَكِّرْهُم بأيَّامِ الله﴾ [إبراهيم: ٥]: التذكير لقوم موسى سببٌ في إخراجهم من الظلمات إلى النور؛ واللفظُ يعمُّ النعمَ والنِّقَمَ، فإذا علموا عقوبتَه تعالى للأمم المتقدمة حرَّكوا أنفسهم للإخراج من الكفر.

فإن قلت: كان حقه أنْ يقدم السببَ على المسبب، فَلِمَ أخَّرَه عنه؟ وما الفائدة في تعبيره عنه بالأيام؟

والجواب: أن التذكير هو الموعظة؛ والدعاءُ إلى الإسلام متقدِّمٌ عليها، والموعظةُ إنما تكون بعد ذلك؛ لأنه يُريهم المعجزةَ ابتداءً، فإذا آمنوا وعظَهم ليدومُوا على إيمانهم. وعبَّرَ عنه بالأيام؛ لأن العقوبةَ كانت في أيام، وذلك تعظيم لها، كقولهم: يوم كذا.

﴿ويَسْتَحْيُون نساءكم﴾ [إبراهيم: ٦]: لما أخبر فرعون أنه يولد من بني إسرائيل مولود يكون سببَ هلاكه صار يَذْبَحُ الذكور، ويَسْتَحْيِي النساء كما قدمنا.

فإن قلت: هَلاَّ قال: يستحيون بناتكم؛ ليوافق أبناءكم؟

والجواب: أن البنات في حالِ صغرهنَّ لا مؤونة منهنّ ولا مشقة، وإنما يلحق آباءهم المؤونة والمشقة إذا كبرن وصِرْنَ نساء، وفيها إشارةٌ إلى الوصف الذي لأجله أحيوا البنات وهو بقاؤهن حتى يكبرن فيحتقروهن ويذلّوهن لبقائهن بغير رجال.

فإن قلت: هذا العطف بيذَبِّحُون ويستحيون على يسومونكم مشكل؛ لأن العطفَ يقتضي المغايرة؛ فإن كان السوم هو الذبح لزم عطْفُ الشيء على نفسه، وإن كان غيره لزم تفسير الشيء بغيره.

والجواب: أنه غيره. لكنه أعَمّ منه؛ فالسَّوْمُ هو أوائل العذاب ومقدماته، والذبح أخصُّ منه.

فإن قلت: ما الفرقُ بين هذه الآية وآية البقرة [٤٩] في عطفه هنا بالواو.

والجواب: أن المَنَّةَ في آية البقرة وقعت من الله تعالى؛ لأنه قال فيها: ﴿وإذ نَجَّيْناكم من آل فِرْعون﴾ [البقرة: ٤٩]، فأسند الفِعْلَ إلى نفسه، والملك كلّ الأشياء عنده حقير؛ فلهذا أتى بالجملة الثانية غير معطوفة لتكونَ مفسِّرة للأولى وكأنهما شيء واحد، لأنه لا يَسْتَعْظِم الأشياءَ إلا مَنْ لا قدرةَ له، فالمائة دينار لا قَدْرَ لها عند الغني، وهي عند الفقير مال معتبر؛ وأما في هذه السورة فالمِنَّةُ فيها من موسى عليه السلام؛ لأن أولها: ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾، فناسب فيها المبالغةُ في العطف بالواو التي تقتضي المغايرةَ والتباين، لتكثر أسباب المنّ.

وأجاب صاحب درة التنزيل بأنّ آيةَ إبراهيم وقعت في خبر عطف على خبر آخر قبله: وهو قوله: ﴿ولقد أرسلنا﴾ [إبراهيم: ٥] - ﴿وإذ قال موسى﴾ [إبراهيم: ٦]، فتضمَّن الأول الإخبار عن إرسال موسى بالآيات، والثاني تنبيهه لقومه على نِعم الله، فيقوى معنى العطف في يُذَبِّحُون؛ لأنه هو وما عطف عليه داخلٌ في جملة معطوفة على غيرها، فالمقام مقام الفصل؛ بخلاف آيةِ البقرة؛ فإنه أخبر فيها بخبر واحد، وهو إخباره عن نفسه بإنجاء بني إسرائيل؛ فلذلك لم يعطف، وأخبر في إبراهيم بخبرين معطوفين، فلذلك عطف؛ يريد والجملة المتقدمة في سورة البقرة إنما هي طلبية؛ وهي قوله: ﴿اذكروا نِعْمَتِي التي أنْعَمتُ عليكم...﴾ [البقرة: ٤٧] الآية، والمشاكلة تقتضي الإخبارَ، وتُجرَى مَجْرًى واحداً في الفصل والوصل، بخلاف الخبر والطلب؛ فإنه لا يعامل أحدهما معاملةَ الآخر، ألاَ ترى أنّ المشهور عند النحويين أنه لا يجوز عطفُ الجملة الخبرية على الطلبية ولا العكس.

﴿وإذ تأذَّنَ ربُّكم﴾ [إبراهيم: ٧]: قيل أَذَّنَ ربُّك، ونظيره توعّد وأوعد، وتفضل وأفضل، ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ تأذَّن ربّكم إيذاناً بليغاً ينفي عنه الشكوك، ولأجل أن تفعّل يقتضي التكلّف والمشقة حمله الزمخشري - والله أعلم - على أنّ التضعيف للتأكيد والمبالغة في الإذن.

فإن قلت: لأي شيء أضاف الربّ للمخاطب، والأصل إضافته إلى المتكلم، فيقال: ربّنا؟

والجواب: أنه لما طلب منهم الشكر أتاهم بأحد موجباته، وهو اللفظُ الدالّ على الترقي والحنان، وأضافَهُ إليهم ليكونَ آكدَ في الشكر. وأما هو فشكْره حاصل، ومعرفته بذلك مستقرةٌ ثابتة.

﴿وإنّا لَفِي شَكٍّ﴾ [إبراهيم: ٩]: قد قدمنا في قصة صالح أنّ الشك هو التردد بين أمرين.

فإن قلت: قد قال في سورة هود: ﴿قالوا يا صَالحُ قد كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا﴾ [هود: ٦٢]، فلم حذفه هنا؟

والجواب: لتكرارها في تدعوننا، ولم يحذفها لعدم تكرارها في تدعوننا؛ لأنه خطاب لصالحٍ وحْدَه، فهو ضمير مفرد.

فإن قلت: كيف جزموا أولاً بالكفر، ثم قالوا: ﴿وإنا لفي شَكّ﴾ [إبراهيم: ٩]، والشاكُّ غير حاكم بشيء فضلاً عن أن يكونَ جازِماً به؟

والجواب: أنّ بعضهم قالوا: إنا كفَرْنَا، وبعضهم قالوا: إنا لفي شك. أو يجاب باحتمال أَنْ يريدوا بالأول قسم التوحيد، وبالثاني قسم الشرائع والأحكام. أو باحتمال العكس. أو يُراد إنَّا كفرنا بما أرسلتم به من حيث الجملة. وإننا لفي شكٍّ في الرسل بدليل قوله: ﴿أفِي اللهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فهم كفروا باللهِ وكفروا بما جاءت به الرسلُ من عنده. وقد قدمنا أنَّ قَوْلَ الرسل: ﴿أفي اللهِ شَكٌّ﴾ إشارة إلى تقليل الشكِّ؛ أي لا يتصور أن يقعَ شكٌّ في الله بوَجْه وإن قلَّ؛ فإذا أنكروا أنْ يكونَ أمر الله حيِّزاً للشك مع قلَّته فأَحْرَى أَنْ يكون الشكُّ حيِّزاً مع كثرته.

﴿ولكنَّ اللهَ يَمُنُّ على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عباده﴾ [إبراهيم: ١١]: لما كان وجود اللهِ أمْراً نظريًّا ليس بضروري، وكون الرسل مثلهم أمراً ضرورياً لا يحتاج إلى

نظر لظهوره قالوا لهم هذا لا لغيرهم. ومعناه يمنّ على مَنْ يشاء بالإيمان والخروج عن دين آبائه، فلما سمعوا هذا منهم آذَوْهم فقالوا لهم:

﴿ولنصبرنَّ على ما آذَيْتُمونَا﴾ [إبراهيم: ١٢]: وما موصولة بمعنى الذي، أو مصدرية، والعائد محذوف تقديره آذيتموناه أو آذيتمونا به.

﴿وقال الذين كفروا لرسُلهم...﴾ [إبراهيم: ١٣] الآية: قد قدمنا في حرف الكاف أَنَّ الرسل لم يكونوا في ملَّة قومِهم قبل الرسالة.

﴿وما ذلِكَ على اللهِ بِعَزيز﴾ [إبراهيم: ٢٠]؛ أي بمتعذر ولا صَعْب، وأَحسن منه بمتعسِّر؛ لأن قوله: ﴿إنْ يَشَأْ يُذْهبكم﴾ [إبراهيم: ١٩] أفاد إمكانه، فإنه غير متعذر.

﴿وبَرَزُوا للهِ جميعاً﴾ [إبراهيم: ٢١]: قد قدمنا معنى البروز في حرف الباء، وحينئذ فيقول الضعفاء...

فإن قلت: لِمَ عَبَّر هنا وفي غافر [٤٧] بالاسم، وفي سبأ [٣١]: ﴿يقولُ الذين استُضعفوا لِلَّذِين استكبروا﴾؟

والجواب: أن الاسم يقتضي الثبوتَ، وكلما ثبت الأخصُّ ثبت الأَعَم؛ فإذا كان مطلق الاستكبار يمنع من إيمان مَن اتَّصفَ بأَخصّ الضعف فأَحْرى أَنْ يمنع من إيمان من اتصف بأَعَمِّه. وأما سورة سبأ فالمرادُ فيها تبعيّة مَنِ اتّصف بمطلق الضعف لمن اتصف بمطلق الكفر، فإذا كان وجودُ مطلق الاستكبار لا ينفع لمن اتصف بمطلق الضعف فأَحرى أَلا ينفع لمن اتصف بأخصه ولا ينعكس.

﴿وأُدْخِلَ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات جناتٍ﴾ [إبراهيم: ٢٣]: هذا إما على التوزيع، فلكلٍّ واحد جنَّة أو لكل واحد جنات، و﴿خالدين فيها﴾ [إبراهيم: ٢٣] حال من الذين آمَنُوا مقدَّرة؛ لأن الدخول غَيْر مقارن لزمن الدخول.

فإن قلت: ما فائدةُ ذِكْر الأنهار في كل موضع يذكر فيه الجنة مع أنّ الجنة معلومة بالماء.

والجواب: أنَّ التمدح بالماء معلوم عند الناس؛ لأنه أصل كلِّ شيء.

وحُكي أنَّ بعض ملوك الروم كان يُهْدِي لمعاوية ويُهاديه معاوية، فطلب مرة من معاوية أن يبعثَ له بأصل كل شيء، فاستشار معاوية خواصَّه، فأشار إليه عبدالله بن عباس بأَنْ يبعثَ له قارورة مملوءة بالماء، فلما بعثها له قال له الرومي: ما أشار عليكَ بهذا الأمر إلا مَنْ فيه عضو من النبوءة.

﴿واستفتحوا﴾ [إبراهيم: ١٥]: الضمير للرسل؛ أي استنصروا بالله. وأَصْلُه طلب الفتح، وهو الحكم.

﴿ويُسْقَى من ماءٍ صَدِيد﴾ [إبراهيم: ١٦]: معطوف على محذوف، تقديره من ورائه جهنم يُلْقَى فيها ويُسْقى، وإنما ذكر السقي تجريداً بعد ذكر جهنم؛ لأنه من أشدّ عذابها؛ ألا ترى كيف علّله بقوله: ﴿ويَأتيه الـمَوْتُ من كلِّ مكانٍ وما هُوَ بميِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]؛ لأنَّ اللهَ قضى عليهم ألاّ يموتوا، فسبحان من حبس أرواحهم مع هذه الكربات.

﴿وفَرْعُها في السماء﴾ [إبراهيم: ٢٤]: الضمير يعود على الشجرة التي أَصْلُها ثابت. وقرىء: ثابت أصلُها، والقراءة المشهورة أبلَغ؛ لأن «ثَابتٌ أَصْلُهَا» صفة رفعت الفاعل، فهي في معنى الفعل، وأَصلها ثابت مبتدأ وخَبر؛ فليس في معنى الفعل؛ والإخبارُ بالاسم عندهم أَبْلَغُ من الإخبار بالفعل، فلذلك كان زيد أبوه قائم أبلغ من زيد قائم أبوه.

فإن قلت: كيف عَبَّر عن الكلمة الطيبة بالفعل، وعبَّر عن الكلمة الخبيثة بالاسم فرفع؟

والجواب: المؤمنُ له حالتان: انتقل مِن الكفر إلى الإيمان، والكافرُ له حالة واحدة ثبت عليها، ولم ينتقل عنها؛ فلذلك عَبَّر عن مثله بالاسم. وقد قدمنا أنّ أصحاب الشجرة أربعة.

﴿وأنزل من السماء ماء﴾ [إبراهيم: ٣٢]: كلُّ ما علاَكَ يسمى سماء، وسمي

السحاب سحاباً لعلوّه، وهذا جارٍ على الخلاف في المياه على ما قدمنا؛ هل هي من السماء؟ أو هي من بخارٍ لطيف يصعَد من البحار فيتكوّن منه السحاب؟ والصحيح الوقف.

﴿وسَخَّر لكم الفُلْكَ لتَجْرِيَ في البحر بأمْرِه﴾ [إبراهيم: ٣٢]: هذا مثل: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾؛ لأن جَرْيَها ليس إلا في البحر، وجَرْيُها في البحر لا يقع إلا بإذن الله.

فإن قلت: ما فائدةُ قوله: ﴿بأمره﴾ مع أنه معلوم؟

والجواب: لما كان لجَرْيِها أسبابٌ في محاولة البحر وخدمة النواتية ربما يُتَوَهم أنّ جَرْيَها بسبب ذلك، فاحترس منه بقوله: ﴿بأمره﴾، وبهذا تفهم الحكمةَ في إدخال اللام في قوله في الواقعة: ﴿لو نشاء لـجَعَلْنَاهُ حُطَاماً﴾ [الواقعة: ٦٥] دون إدخالها في قوله: ﴿لو نشاء جعلناه أُجَاجاً﴾ [الواقعة: ٧٠]؛ لأن الأول فيه لابن آدم تسبّب ومحاولة؛ فقد يتوهّم أن ذلك من فعلهم؛ بخلاف الماء فإنهم لا تسبّب لهم في كونه حُلْواً.

﴿وآتاكُمْ مِنْ كلِّ ما سَأَلْتُموه﴾ [إبراهيم: ٣٤]: مِنْ للتبعيض، و ﴿كلّ﴾ للعموم، ومتعلقها مختلف؛ فالعمومُ في الأنواع، والتبعيض في أنواع تلك الأشخاص؛ أي وآتاكم بَعْضَ كلِّ نوع مما سألتموه.

﴿وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوها﴾ [إبراهيم: ٣٤]: إفراد النعمة من باب التنبيه بالأدْنى على الأعلى، بمعنى أَنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ إحاطة جزئيات النعمة الواحدة، فأحرى ما هو أكثر. و ﴿نعمة﴾ مصدر محدود بالتاء، فليس المراد به الجنس؛ بل هو مفرد حقيقة، بدليل أَنَّ المصدر المحدود بالتاء يجوز تَثْنيته وجَمْعه، بخلاف المبهم.

فإن قلت: الشرطُ لا يكون مناقِضاً للجزاء؛ فلا تقول: إن قام زيد لم يقدر على القيام، والعدُّ هو عين الإحصاء؟

والجواب: معناه إنْ أردتم أنْ تعدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها، مثل: فإذا قرأت القرآن فاستَعِذْ بالله من الشيطان الرجيم.

وانظر كيف وصف الإنسان بالظلم وجحد النعمة، والمراد به العموم، إلا إن استثنى؛ كقوله تعالى: ﴿والعَصْرِ. إنَّ الإنسانَ لفي خُسْر. إلا الذين آمنوا﴾ [العصر: ١، ٢، ٣].

﴿وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَر إسماعيلَ وإسحاق﴾ [إبراهيم: ٣٩]: حمد إبراهيم ربَّه على أنْ وُلِد له إسماعيل وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً. والحمد مشتق من التثنية؛ فهو إنما يصدق على مَنْ حمد مرةً بعد أُخرى، وكذلك هذا، لأن وجود إسماعيل مقدم على إسحاق؛ فقد صدق أنه حمد مرتين. قال الزمخشري: على بمعنى مع، أو بمعنى في؛ والأول أولى، لإفادتها زَمَن الكبر كلّه على الجملة.

﴿ولا تحسبَنَّ الله غافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظالمون﴾ [إبراهيم: ٤٢]: هذه الآيةُ بجملتها فيها وَعِيدٌ للظالمين وتسليةٌ للمظلومين. والخطابُ لنبينا ﷺ.

فإن قلت: هو ﷺ غير غافل، وعطف هنا بالواو وفيما بعدها بالفاء.

والجواب: أنَّ معْناها الثبوت على علمك يا محمد، ومن اعتبر من أمتك وغيرهم أن الله لا يُنْجِز ميعادَه في أخْذِ الظالم حين ظُلْمه، فإن الله يمهله؛ ولذا عطف الآية بعدها بالفاء، وقد يعجل العقوبة على بعض الظالمين لرحمته بهم، وإن أخَّرهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار فسيعلمون ما يلحقهم.

فإن قلت: لِـمَ تَعلَّق النفْيُ هنا بالأخص، ونفي الأخصّ لا يستلزم نَفْيَ الأعم؛ لأنَّ الحسبان المنفي مؤكَّد بالنون الشديدة؛ فهو أخصٌّ من مطلق الحسبان؟

والجواب: بأن النون دخلت على الفعل المنفي، فأكَّدتْه؛ لأنَّ النَّفْيَ دخل على الفعل المؤكد فنفاه، فهو تأكيد للنفي لا نفي للفعل المؤكد؛ فهو نَفْي أخصّ لا نفي أعم.

فإن قلت: ما فائدة شدة الوعيد على الظالم؟

فالجواب: أن الله لما ذكر الإنسان أنه ظلوم جحود لنعمةِ الله لا يستغني بما أُحِلَّ له عما حُرِّم عليه، وكان الواجب في حقه أنْ يشكرَ اللهَ على ما آتاه، ولو لم يشكره على نعمه كلّها فالواجبُ عليه الشكر على بعضها؛ إذ لا يقدر أحدٌ على إحصائها، كما قال تعالى، فلما كفر نِعَمَ اللهِ عليه وتَعدَّى كفره إلى ظلم أخيه الضعيف بالغ بهذا التهديد العظيم، لعله يرجع؛ كما جرى لبعضهم لما ظلم، فقال له المظلوم: أشكوكَ إلى السلطان. فقال له: السلطانُ يعرفني؟ فقال أشكوك إلى الله، فلما لقِيَه بعد أيام قال له كالمستهزىء به: ما قال لك الله؟ فقرأ عليه الآية، فاسترجع الظالم وأناب. وهكذا حال من أراد الله هدايته.

فإن قلت: ما مناسبة هذه الآية لقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وختم آية النحل بقوله: ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ [النحل: ١٨]؟

والجواب: أنه تقدم آية إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِين بَدَّلُوا نعمةَ اللهِ كُفْراً...﴾ إلى قوله: ﴿وآتاكُمْ من كلِّ ما سَأَلْتُموه﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٣٤]، فناسبه ما ذكره تعالى من توالي إنعامه وذرور إحسانه، ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل، وجعل الأنداد ـ وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار. وأما آيةُ النحل فلم يتقدمها غير ما نبّه سبحانه لعباده المؤمنين من تَوَالي آلائه وإحسانه وما ابتدأهم به من نِعَمه من لَدن قوله: ﴿خلَقَ الإنسانَ من نُطفة﴾ [النحل: ٤]؛ فذكر بضعاً وعشرين من أُمهات النعم إلى قوله ـ منبهاً وموقظاً من الغفلة والنسيان: ﴿أفَمَنْ يَخْلُق كَمَنْ لا يَخْلُق﴾ [النحل: ١٧]، فناسب ختام: ﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصوها﴾ [النحل: ١٨] بالغفران. فانظر هذا اللطف الجميل بعباده والتناسب الواضح.

﴿وتَبَيَّنَ لكم كيف فَعَلْنَا بهم﴾ [إبراهيم: ٤٥]: يفهم من هذه الآية أنَّ التواتر يُفيد العلم؛ لأنهم لم يتبيَّنْ لهم ذلك إلا بالإخبار عن الأمم السابقة.

﴿وليَعْلَمُوا أنما هـو إلـهٌ وَاحـد ...﴾ [إبـراهيم: ٥٢] الآيـة: تفيـد أَنَّ الوحدانية تثبت بالسمع، وهو أَحَدُ القولين عند الأصوليين، وأَتَتْ هذه الآية بالتعري من تاء التفعل لتقدّمهـا قـولـه تعـالى: ﴿ولِيُنْـذَرُوا بـه ولِيَعْلَمُـوا﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقد عريت الكلمتـان مـن حـروف الشـدة، فعطـف عليـه: ﴿ولِيَذَّكَّرَ﴾؛ لأن جميعها مـن الرخـوة بخلاف آيـة ص [٢٩]، فـإن قبلهـا وليدبروا، وفيه حرفان من حروف الشدة، فناسبها: «وليتذكر». والتناسب واضح.

﴿وما بكم من نِعْمةٍ فمِنَ اللهِ﴾ [النحل: ٥٣]: نَبَّه اللهُ عبادَه بهذه الآية مؤمنهم وكافرهم على أَنْ يشكروه ويتأَدَّبُوا معه. ويؤخذ منها أنّ الكافر منْعَمٌ عليـه، وقيـل غير منعـم عليـه، للآيـة: ﴿أَنَّمَـا نُمْلِـي لهم ليَـزْدَادُوا إثْماً﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقيل منعم عليه في ظاهر حاله في الدنيا، وغير مُنْعم عليه في عاقبته ومآله؛ وتنكير ﴿نعمة﴾ للعموم لا للتقليل؛ إذ لا يوصف عطاءُ الله بالقلة، وقوله: ﴿ثم إذا مَسَّكم الضُّرُّ فإليه تجأرون﴾ [النحل: ٥٣] - المهلةُ معاوية، لبعد ما بين غفلة الإنسان وذهوله من النعمة، وما بين تضرُّعه وذلته زمَن الضر؛ كقوله:

وما يكشف الغمـراء إلا ابـن حُـرَّة ... يـرى غمـرات الموت ثم يـزورهـا

ويحتمل أن تكون الواو للاستئناف أو للحال؛ فيكون الكلامُ متصلاً بما قبله؛ أي كيف تتّقُون غَيْرَ الله وما بكم من نِعْمةٍ فمنه وحْدَه، وبهذا يظهر لك تناسب الآيات.

﴿واتّبعْ أدبارهم﴾ [الحجر: ٦٥]؛ أي كن خَلْفَهم وفي ساقتهم حتى لا يبقى منهم أحد، وليكونوا قُدّامه؛ فلا يشتغل قَلْبُه بهم، ولو كانوا وراءَه لاشتغل لِخَوْفِه عليهم؛ وبهذا يَظْهَرُ لك رحمةُ لوط بقومه الذين آمنوا معه.

﴿واللهُ يعلمُ ما تُسِرُّون وما تُعْلِنون﴾ [النحل: ١٩]: لما تقدم هذه الآية:

إن الله لا يؤاخذ عباده بعدم القيام بشكر النعم لذكره المغفرة والرحمة عقب قوله بهذه الآية؛ أي ما تحدِّثون به أنفُسكم، وليس المراد السر في اصطلاح الفقهاء، وتضمنت الآية الإشعار باتصاف الله تعالى بالقدرة والعلم؛ فالقدرة بقوله: ﴿أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُق﴾ [النحل: ١٧]، وهذا للعلم. وعطف ما يسرون وما يعلنون للتسوية؛ فهو أمر استأثر اللهُ به، كما قال: ﴿إنَّ الله عنده عِلْمُ الساعة﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿وإنَّ لكم في الأنْعام لَعِبْرَةً﴾ [النحل: ٦٦]: لما كان التفكر منفعة عامة في العاقل وغيره أعقبه بالمنفعة الخاصة بالعاقل، وأكّده بأنّ واللام لغفلة المخاطب عن الاعتبار والتذكر، لا لكونه منكراً لذلك. وقد قدمنا في حرف الفاء أن زيادة لكم تنبيه على العبرة، والعبرة يُرَاد بها الاتّعاظ؛ لقوله: ﴿فاعتبروا يَا أولِي الأبصار﴾ [الحشر: ٢].

﴿ومما يَعْرِشُون﴾ [النحل: ٦٨]: قد قدَّمنا أن الله تعالى أوحى إلى النحل أَنْ تتخذ البيوت في الجبال والشجرِ وبيوتِ الناس حيث يعرشون؛ أي يبنون العروش، فلا ترى للنحل بيوتاً في غير هذه الثلاثة البتة.

وتأمل كيف كان أكثر بيوتها في الجبال، وهو المتقدم في الآية، وفي الأشجار وهي دون ذلك، ومما يعرش الناس؛ وهي أقلُّ بيوتها.

وانظُرْ كيف رآها حسنة الامتثال إلى أن اتّخَذَت البيوتَ قبل المرعى فهي تَتّخذها أولاً، فإذا استقرَّ لها بيتٌ خرجت منه وَرَعَتْ، فأكلت من كلِّ الثمرات، ثم أوت إلى بيوتها؛ لأن ربَّها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً، ثم بالأكل بعد ذلك.

قال في عجائب المخلوقات: يقال ليوم عيد الفطر يوم الرحمة؛ إذ فيه أوحى الله إلى النحل صنعةَ العسل. قال الغزالي: لوْ تأملت عجائبَ أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها من النجاسات والأقذار وطاعتها لواحدٍ من جملتها، وهو أكبرها شخصاً، وهو أميرها، ثم ما سخّر اللهُ له من أمرها من العدل

والإنصاف بينها حتى إنه ليقتل منها على باب المنفذ كلّ ما وقع على نجاسة لقضيْتَ من ذلك العجب إنْ كنْتَ بصيراً في نفسك، وفارغاً من هَمّ بطنك وفَرجِك وشهوات نفسك في مُعَاداة أقرانك وموالاة إخوانك، ثم دَعْ عنك جميعَ ذلك وانظر إلى بنيانها من الشمع، واختيارها من جميع الأشكال المسدس، فلا تبني بيتها مستديراً ولا مُرَبّعاً ولا مخمَّساً، بل مسدساً لخاصية في ميل المسدس يقصر فَهم المهندسين عن دَرك ذلك؛ وهو أنّ أوسع الأشكال وأحْوَاها المستدير، وما يقرب منه؛ فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة، وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المُرَبّع حتى لا تبقى الزوايا فارغة؛ ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارجَ البيوت فُرَجٌ ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصَّة، ولا شكل من الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فُرْجة إلا المسدس وهذه خاصية هذا الشكل.

فانظر كيف ألهم اللهُ تعالى هذا النحل على صِغَر جرمه لُطْفاً به وعنايةً بوجوده فيما هو محتاج إليه ليتهنّأ عيشه؛ فسبحانه! ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه!

ولو ذكرنا منافع النحل، وما أَوْدَع فيها لاحتاج إلى مجلد؛ ولذلك مثّل ﷺ المؤمن بالنحلة إن صاحَبْتَه نفعك، وإن سارَرته نفعك، وإن جالسته نفعك. وكذلك النحلة على ما فيها من منافع.

قال ابن الأثير: وجه المشابهة من المؤمن في النحلة حِذْق النحل في فِطنته وقلة أذاه وحقارته ومنفعته وقناعته وسَعْيه في الليل وتنزهه عن الأقذار، وطيب أَكْله؛ لأنه لا يأكل من كسب غيره، وتحوله وطاعته لأميره، وإنّ للنحل آفات تقطعه عن عمله؛ منها الظلمة، والغيم، والريح، والدخان، والماء، والنار؛ وكذلك المؤمن له آفات تفتره عن عمله ظُلمة الغفلة، وغَيْم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، وماء السعية، ونار الهوى.

وفي مسند الدارمي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ قال: كونُوا في الناس كالنحلة في الطير، إنه ليس في الطير شيء إلاّ وهو يستَضْعفها، ولو تعلم الطّيْرُ ما في أجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها، خالطوا الناسَ بألسنتكم وأجسادكم، وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم، فإنَّ للمرء ما اكتسب، وهو يومُ القيامة مع من أحبَّ.

والمعروف من قول علي بن أبي طالب أنه قال: إنما الدنيا ستة أشياء: مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومركوب، ومنكوح، ومشموم. فأشرَفُ المطعوم العسل، وهو قيء ذباب، وأشرف المشروبات الماء يستوي فيه البرُّ والفاجر. وأشرفُ الملبوسات الحرير، وهو نسج دودة. وأشرف المركوبات الخيل، وعليها يقتل الرجال. وأشرف المشمومات المسك وهو دَمُ حيوان. وأشرف المنكوحات المرأة وهو مبال في مبال.

وروى الكواشي في تفسيره الأوسط: أن العسلَ ينزل من السماء فينبت في أَماكن، فتأتي النحلُ فتشربه، ثم تلقيه في الشمع المهيَّأ للعسل في الخلية، لا كما يتوهمه بعض الناس أنَّ العسل من فُضيلات الغذاء وأنه قد استحال في المعدة عسلاً، هذه عبارته.

ومما يدلُّك على كمال قُدْرته سبحانه أنه جمع في النحلة السمّ والعَسل، دليل على كَمالِ قدرته، وأخرج منها العسل ممزوجاً بالشمع، كذلك عمل المؤمن ممزوج بالْخَوْف والرجاء.

وفي العسل ثلاثة أشياء: الشفاء، والحلاوة، واللين؛ كذلك المؤمن، قال تعالى: ﴿ثم تَلِينُ جُلودُهم وقلوبهم إلى ذِكْرِ الله﴾ [الزمر: ٢٣]، يخرج من الشاب خلاف ما يخرج من الكهل والشيخ، كذلك حال المقتصد والسابق؛ أمرها الله تعالى بأمرٍ حتى صار لُعابها شفاء، ودواء الأطباء مرّ، ودواء الله حُلوٌ، وهو العَسَلُ، وهي تأكل من كلّ الشجر، ولا يخرج منها إلا حُلْو، ولا يعتريها اختلافٌ بأكلها. والبلدُ الطيب يخرج نباته بإذن ربه.

﴿وشارِكْهم في الأمْوَالِ﴾ [الإسراء: ٦٤]: بكسبهم للربا والحرام، وإنفاقها في المعاصي، وغير ذلك، والأولاد باستيلاد أولاد الزنى، وتسمية الولد عبد شمس وعبد الحارث وشبه ذلك.

﴿وعِدْهم﴾ [الإسراء: ٦٤]: من المواعدة الكاذبة من شفاعة الأصنام وغير ذلك.

﴿وكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥]: قدمنا أن الوكيل هو القائم بالأمور الكافي.

﴿وَصيد﴾ [الكهف: ١٨]: باب الكهف. وقيل عتبته.

﴿ولْيَتَلَطَّف﴾ [الكهف: ١٩]؛ أي في اخْتِفائه، وتحيّله؛ لأنهم خافوا على أنفسهم في بَعْث أحدهم إلى المدينة، وكانت الورق التي أعطوها فضَّة تزوَّدوها حين خروجهم إلى الكهف، وأخذ من قضيتهم: تزوّد المسافر أفضل مِن تركه.

فإن قلت: كيف اتصل بعث أحدهم بتذكر مدة لبثهم؟

فالجواب كأنهم قالوا: ﴿ربُّكم أعلم بما لَبِثْتُم﴾ [الكهف: ١٩]، ولا سبيلَ لكم إلى العلم بذلك، فخُذوا فيما هو أهم من هذا وأنفَعُ لكم، فابعثوا أحدكم إلى المدينة. قيل إنها طرسوس.

﴿وَلبِثُوا في كَهفِهم ثلاثَ مائةٍ سِنينَ وازْدَادُوا تِسْعاً﴾ [الكهف: ٢٥]: في هذه الآية قولان: أحدهما أنه حكاية حالٍ عن أهل الكهف، يدل على ذلك ما في قراءة ابْنِ مسعود: وقالوا لبثوا في كهفهم، وهو معطوف على قوله: ﴿سيقولون ثلاثةٌ رابِعُهم كَلْبُهم﴾ [الكهف: ٢٢]، فقوله: ﴿قُل الله أعْلَمُ بما لَبِثُوا﴾ [الكهف: ٢٦]. ردٌّ عليهم في هذا العدد المحكي عنهم.

والقول الثاني أنه من كلام الله تعالى وأنه بيان لما أجمل في قوله: ﴿فضرَبْنَا على آذَانِهم في الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ [الكهف: ١١] ومعنى قوله ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ [الكهف: ٢٦]، أي أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم. وقد أخبر بمدة لبثهم؛ فإخباره هو الحق؛ لأنه أعلم من الناس، فكان قوله: ﴿قُل الله أعلم﴾

احتجاج على صحة ذلك الإخبار، وانتصب ﴿سنين﴾ على البدل، أو عطف البيان، أو على التمييز؛ وذلك على قراءة التنوين في ثلاث مائة. وقرىء بغير تنوين على الإضافة ووضع الجمع موضع المفرد.

﴿وأُحِيطَ بثَمره﴾ [الكهف: ٤٢]: عبارة عن هلاكه.

﴿وأعَزّ نَفَراً﴾ [الكهف: ٣٤]؛ يعني الأنصار والخدم.

﴿ودَخَل جَنَّتَه﴾ [الكهف: ٣٥]: أفرد الجنةَ هنا لأنـه إنما دخل الجنةَ الواحدة من الجنتين؛ إذ لا يمكن دخولها معاً في دَفْعَة واحدة.

﴿ويقول يا ليتني لم أُشْرِك بِرَبِّي أحَداً﴾ [الكهف: ٤٢] - قال ذلك على وجه التمني لما هلك بُسْتَانه، أو على وجه التّوْبة من الشِّرْك.

﴿وتَرَى الأرْضَ بارِزةً وحشَرْنَاهم﴾ [الكهف: ٤٧]؛ أي ظاهرة لزوالِ الجبال عنها.

﴿وتلْكَ القُرَى أهلَكْنَاهم لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف: ٥٩]: الإشارة إلى عاد وثمود وغيرهم من المتقدمين. والمرادُ أهل القرى، وفي ضمن هذا الإخبار تهديد لكفّار قريش.

﴿وَرَاءهم﴾ [الكهف: ٧٩]: قيل قدامهم. وقرأ ابنُ عباس أمامهم. وقال ابن عطية: إنّ وراءهم على بابه، ولكن روعي به الزمان، فالوراء هو المستقبل، والأمام هو الماضي.

﴿ويسأَلُونَكَ عن ذِي القَرْنَيْن﴾ [الكهف: ٨٣]: الإشارةُ إلى قريش بإشارة اليهود لهم على اختلاف الروايات، وذلك أنهم سألوه عن الروح، وفتية أهل الكهف، وذي القرنين، وقد ذكرنا أنَّ الله مَكن له في الأرض ودانت له ملوكها.

﴿وترَكْنَا بَعْضَهم يومئذٍ يَمُوجُ في بَعْض، ونُفِخ في الصُّورِ فجَمعْنَاهم جَمْعاً﴾ [الكهف: ٩٩]: المعنى أن الناس تموج يومَ القيامة كموج البحر.

وقيل: إنَّ الضمير يعود على يأجوج ومأجوج؛ والأول أرجح؛ لقوله بعد ذلك: ﴿ونُفخ في الصور فجمَعْنَاهم جَمعاً﴾.

﴿وهَنَ العَظْمُ مِنّي واشتعلَ الرأسُ شَيْباً﴾ [مريم: ٤]: قد قدمنا أن هذا استعارة للشيب، من اشتعال النار، وهذا القولُ من زكرياء حين ضعف فطلب من الله أَنْ يهبَ له الولد.

﴿ولم أكُنْ بدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]: أي قد سعدتُ بدعائي لكَ فيما مضى. فاستجِبْ لي في هذا؛ فتوسَّلَ إلى الله بإحسانه القديم إليه؛ ولذلك قيل:

إذا أثنى عليكَ المرء يوماً كفى من تعرّضه الثناء

﴿وإنّي خِفْتُ الموَاليَ مِنْ ورائي﴾ [مريم: ٥]؛ أي من بعدي. قيل: خاف أَن يرثه أَقاربُه دون نَسْله. وقيل: خاف أَنْ يضيِّعُوا الدِّينَ من بعده، فطلب من الله إقامةَ دينه؛ ولهذا قال: ﴿واجعله رَبّ رَضِياً﴾ [مريم: ٦]، فاستجاب الله دعاءه وبشّره بيحيي الذي لم يجعل له من قبل سمِيًّا.

﴿واهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ [مريم: ٤٦]: عطف ﴿اهجرني﴾ على محذوف تقديره: احذر رَجْمي لك حيناً طويلاً. وقال هذا لإبراهيم لما أَيِس من اتّباعه.

﴿وَفْداً﴾ [مريم: ٨٥]: قد قدمنا أنّ الوفد هو الراكب، وسرُّ تخصيص المتقين بالوفد لإكرامهم. وقد صح أنهم يُحْشرون ركباناً. وأما الكفار فعلى وجوههم عُمْياً وبُكْماً وصُمًّا مأْوَاهُم جهنّم.

﴿وَزِيراً﴾ [طه: ٢٩]؛ أي معيناً، وإنما طلب موسى أخاه ليشدَّ به أزْرَه، أي يقوِّيه. ويؤخذ منه الاستعانة على الأمور بمَنْ هو أقوى؛ ولذلك قال موسى ﴿وأخي هارونُ هو أفْصَحُ مني لساناً﴾ [القصص: ٣٤].

﴿وإنَّ لكَ موعداً لن تُخْلَفَه﴾ [طه: ٩٧]: يعني العذابَ في الآخرة زيادة على عذاب الدنيا، وكان عذابه في الدنيا كما قال: ﴿إنَّ لكَ في الحياةِ أنْ تقولَ

لا مِسَاس﴾ [طه : ٩٧]. والصحيح أنّ الله تاب على السامري وغفر له لسخائه.

﴿ورَضِيَ قوله قَوْلاً﴾ [طه : ١٠٩]: إن أُريد بمن أذن له الرحمن المشفوع له فاللامُ في له بمعنى من أجله؛ أي رضي من المنافع من أجل المشفوع فيه. وإنْ أراد الشافع فالمعنى رَضِيَ قولَه في الشفاعة.

﴿ولا يُحيطون به عِلْماً﴾ [طه : ١١٠]: قيل المعنى: لا يحيطون بمعلوماته؛ كقوله: ﴿ولا يُحيطون بشيء مِن عِلْمه إلا بما شاء﴾ [البقرة : ٢٥٥]. والصحيح عندي أن المعنى لايحيطون بمعرفةِ ذاته؛ إذ لا يَعْرِف الله على الحقيقة إلا الله، ولو أراد المعنى الأول لقال: ولا يحيطون بعلمه؛ ولذلك استثنى هناك إلا بما شاء، ولم يستثن هنا.

﴿ولولا كلمة سبقَتْ مِنْ رَبّك﴾ [طه : ١٢٩]: الكلمة هنا القضاء السابق بتأخير العذاب عنهم. ﴿لكَان لِزاماً﴾ [طه : ١٢٩]: أي واقعاً بهم.

﴿ولو أنّا أهلكْنَاهُم بعذاب مِن قَبْلِه﴾ [طه : ١٣٤]؛ أي قبل مبعثك يا محمد لاحتَجُّوا وقالوا: لولا أرسلْتَ إلينا رسولاً، فبعثتكَ لتكونَ لنا الحجةُ عليهم ببَعْثِك لهم.

﴿وأسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [الأنبياء : ٣]: الواو في أسروا ضمير فاعل يعود على ما قبله، ﴿والذين ظلموا﴾ [الأنبياء : ٣] بدل من الضمير.

﴿وَلا يَسْتَحْسِرون﴾ [الأنبياء : ١٩]؛ أي لا يعيون ولا يملّون. والضمير يعود على الملائكة، وكيف يملّون وقد أعانهم اللهُ وقوَّاهم على عبادته، فأين عبادتك منهم؟ وماذا يخطر ببالك من مُزَاحمتهم.

﴿ولا يشفَعُون إلاّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء : ٢٨]؛ أي لمن ارتضى الله بالشفاعة له ويحتمل أن تكون شفاعة الملائكة للعاصي في الدنيا بالاستغفار له أو في الآخرة.

﴿وَسْوَسَ﴾ [طه : ١٢٠]: قد قدمنا أنه يُقال لما يقع في النفوس وسواس،

ولما يقع من عمل الخير إلهام من الله. ولما يقع من التقدير الذي لا على الإنسان ولا له خاطر.

﴿ومَنْ يَقُل منهم إنّي إلهٌ مِنْ دونه﴾ [الأنبياء: ٢٩]؛ أي على فرض أن قالوا ذلك، ولكنهم لا يقولونها؛ وإنما مقصود الآية الردُّ على المشركين. وقيل: إن الذي قال إني إله إبليس.

﴿وهو الذي خلَقَ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾ [الأنبياء: ٣٣]: التنوين في كل عوض من الإضافة، أي كلهم في فلك يسبحون، يعني الشمس والقمر دون الليل والنهار؛ إذ لا يوصف الليل والنهار بالسبح في الفلك، فالجملةُ في موضع الحال من الشمس والقمر، أو مستأنفة.

فإن قيل لفظ كلّ ويسبحون جمع، يعني الشمس والقمر وهما اثنان؟

فالجواب أنه أراد جِنْسَ مطلعها كلّ يوم وليلة. وهي كثيرة؛ قاله الزمخشري وقال الغزنوي: أراد الشمسَ والقمرَ وسائِرَ الكواكب السيارة؛ وعبَّر عنها بضمير الجماعة العقلاء في قوله: يسبحون، لأنه وصفهم بفعل العقلاء، وهو السبح.

فإن قلت: كيف قال في فلكٍ وهي أفلاك كثيرة؟

والجواب أنه أراد كلّ واحد يسبح في فلكٍ، وذلك كقولك: كساهم الأمير حلةً، أي كسى كلَّ واحد منهم حلّة.

ومعنى الفلك جسمٌ مستدير. وقال بعض المفسرين: إنه مذموم، وذلك بعيد. ومعنى يسبحون؛ أي يَجْرُون أو يدورون، وهو مستعار من السبح بمعنى العَوْم في الماء. وقد قدمنا أن مجاري القمر ثمانية وعشرون؛ لأنه يقطع الفلك في شهر، ومجاري الشمس مائة وثمانون لأنها تقطع الفلك في سنة. ووجهه أنّ السنة ثلاثمائة وستون يوماً ونصفها مائة وثمانون فهي تقطع في نصف السنة ستة بروج، ثم ترجع صاعدة أو هابطة فتمشي في نظائر تلك البروج. فما مجاريها في الحقيقة إلا ستة بروج، فسبحان من دَبَّر الأشياء كيف شاء وأتقنها بحكمته، فلا يعلم أحد بحقيقتها إلاَّ من اطَّلَع عليها.

﴿وكنا لهم حافظين﴾ [الأنبياء : ٨٢] ؛ أي حفظنا أَمْرَ سليمان وما صنع من الفساد . وقيل معناه : عالمين بعددهم.

﴿وكذلك نُنْجِي الْمُؤْمِنين﴾ [الأنبياء : ٨٨] ؛ أي مطلقاً من همومهم، أي إذا دعوا بدعاء يونس: لا إلـه إلا أنْتَ سبحانك إني كنْتُ من الظالمين. وقد قدمنا في قصة الحديث: « دَعْوَةُ أَخي ذا النون ما دعا بها مكروب إلا استُجيب له ومن دَعَا بها في مرضه أربعين مرة فمات غُفر له ».

﴿والتي أحصَنَتْ فَرْجَهـا﴾ [الأنبيـاء : ٩١] : ضمير التـأنيـث يعـود على الصديقة المطهرة، لقولها : لم يَمْسَسْنِي بَشَر ، فأحصنَتْه عن الحلال والحرام، حتى أراد اللهُ فيها ما أَراد ، وقد قدمنا قصتها .

﴿وَحَرَامٌ على قرية أهلكناها أنهم لا يَرجعون﴾ [الأنبياء : ٩٥] : قرىء بكسر الحاء بمعنى حرم. واختلف في معنى الآية؛ فقيل حرام بمعنى ممتنع على قرية أَهلكها اللهُ أَن يرجعوا إلى الدنيا ، ولا زائدة في الوجهين. وقيل حرام بمعنى حتم لا محالة ، ويتصور فيـه الوجهـان ، وتكـون لا نـافيـة فيها ؛ أَي حتم عـدم رجوعهم إلى الله بالتّوْبة ، أَوْ حتم عدم رجوعهم إلى الدنيا . وقيل المعنى ممتنع على قرية أهلكها اللهُ أنهم لا يرجعون إليه في الآخـرة « ولا » على هذا نافية أيضاً؛ ففيه ردٌّ على من أنكر البَعْثَ.

﴿ولقد كَتَبْنَا في الزَّبُورِ من بعد الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] : فيه قولان: أحدهما أنه كتاب داود ، والذِّكْرُ هنا التوراة التي أنزل اللهُ على موسى، أو ما في الزبور من حكم الله تعالى. والقولُ الآخر أنَّ الزبور جنس الكتُب التي أنزلها اللهُ على جميع الأنبياء ؛ وذلك خمسين صحيفة على شيث ، وثلاثين لإدريس ، وعشرين لإبراهيم، والتوراة لموسى، والزبور لداود ، والإنجيل لعيسى، والفرقان لمحمد صلوات الله عليهم أجمعين. والذكر على هذا اللوح المحفوظ ؛ أي كتب اللهُ هذا في الكتاب الذي أفرد له بعد ما كتبه في اللوح المحفوظ ، حين كتب الأمور كلهـا . والأولُ أرجـح؛ لأن إطلاقَ الزبـور على كتـابٍ واحـدٍ أظهـر وأكثر

استعمالاً، ولأن الزَّبور مفرد فدلالَتُه على الواحد أرجَحُ من دلالته على الجمع، ولأن النصَّ قد ورد في زبور داود بأنَّ الأرض يَرِثُها الصالحون، والأرضُ على الإطلاق في مشارق الأرض ومغاربها. وقيل الأرض المقدسة. وقيل أرض الجنة: والأول أظهر.

والعبادُ الصالحون في الآية أُمَّة محمد ﷺ؛ ففي الآية ثناءٌ عليهم، وإخبارٌ بظهور غيب مصداقه في الوجود، إذ فتح اللهُ لهذه الأُمَّة مشارقَ الأرض ومغاربها.

﴿وأنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُريد﴾ [الحج: ١٦]: قال ابن عطية: أنَّ في موضع خبر الابتداء، والتقدير الأمرُ أنَّ الله، وهذا ضعيف، لأن فيه تكلفَ إضمارٍ وقطعاً للكلام عن المعنى الذي قبله. وقال الزمخشري: التقدير أن الله يهدي من يريد أَنزلناه كذلك آيات بينات، فجعل أن تعليلاً للإنزال، وهذا ضعيف للفصل بينهما بالواو، والصحيح عندي أنّ قوله: وأن الله معطوف على آيات بينات، لأنه مقدر بالمصدر، فالتقديرُ أنزلناه آيات بينات، وهذا لمن أراد الله أن يهديه.

﴿وكثير من الناس﴾ [الحج: ١٨]: إنْ جعلنا سجودَ مَنْ في السموات والأرض بمعنى الانقياد للطاعة فيكون ﴿كثير من الناس﴾ معطوف على ما قبله من الأشياء التي تسجد، ويكون قوله: ﴿وكثيرٌ حقَّ عليه العذَابُ﴾ [الحج: ١٨] مستأنف يُراد به الانقياد للطاعة، ويوقف على قوله: ﴿وكثير من الناس﴾؛ وهذا القولُ هو الصحيح. وإن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لقضاءِ الله وتدبيره فلا يصحُّ تفصيلُ الناس على ذلك إلى من يسجد ومن لا يسجد، لأنَّ جميعهم يسجد بذلك المعنى، وقيل: إن قوله: ﴿وكثير من الناس﴾ معطوف على ما قبله، ثم عطف عليه ﴿كثير حقّ عليه العذاب﴾، فالجميعُ على هذا يسجد، وهذا ضعيف؛ لأن قوله: حقَّ عليه العذاب يقتضي ظاهِرهُ أنه إنما حقَّ عليه العذاب بتَرْكِهِ السجود. وتأوّله الزمخشري على هذا المعنى بأن إعراب كثير من

الناس فاعل بفعل مضمر تقديره يسجد له كثير من الناس سجودَ طاعة، أو مرفوعاً بالابتداء وخبره محذوف تقديره مثاب، وهذا تكلُّف بَعِيد.

﴿وذُوقُوا﴾ [الحج: ٢٢]: التقدير يقال لهم: ذُوقوا.

﴿ولُؤْلؤا﴾ [الحج: ٢٣] - بالنصب - مفعول بفعل مضمر، أي يحلَّوْن لؤلؤاً أو معطوف على موضع من أساور؛ إذ هو مفعول، وبالخفض معطوف على أساور أو على ذهب.

﴿وَأَذِّنْ في الناسِ بالحَجّ﴾ [الحج: ٢٧]: خطاب لإبراهيم. وقيل لنبينا ﷺ، والأول أصح لوروده في الصحيح أنه لما بنى البيت أمره أنْ ينادِي الناس، فقال: يارب، وأين يبلغ أذَاني؟ فقال: يا إبراهيم، منك الأَذَان وعلينا الإبلاغ، فصعد على جبل أبي قُبيس، ونادى: أيها الناس، إنَّ اللهَ أمركم بحج هذا البيت، فحجُّوا، فسمعه كلّ مَنْ يحج إلى يوم القيامة، وهم في أصلاب آبائهم؛ وأجاب في ذلك الوقت كل شيء من جماد أو غيره: لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْك، فجرت التلبية على ذلك. وقيل: مَنْ لبى مرةً حجَّ مرة، ومن لبّى غير ذلك حجَّ على عدد التلبية.

﴿وجَبَتْ جُنوبُها﴾ [الحج: ٣٦]؛ أي سقطت إلى الأرض عند موتها، يقال وجب الحائط وغيره إذا سقط. وقد قدمنا أنّ هذه اللفظة تُطْلَق على معان كثيرة.

﴿وإن يَسْلُبْهُمُ الذبابُ شيئاً لا يستَنْقِذُوه منه﴾ [الحج: ٧٣] بيَّن الله في هذه الآية عَجْزَ الأصنام بحيث لو اختطف الذبابُ منهم شيئاً لم يقدروا على استنقاذِه حال ضعفه. وقد صَحَّ أنهم كانوا يجعلون على أصنامهم الطيب وغيره من ألوان الأطعمة، فيأتي الذبابُ فيخطفه، ولا يقدرون على خلاصه منه، وهو أقلّ الخلق.

وهذا المثل من أبلغ ما أنزل الله في تجهيل قريش ورَكاكة عقولهم، وكيف لا

وقد وصفوا آلِهتَهم بالقدرة والعلم، ولا يقدرون على هذا الخلق الضعيف، ولا يَنْتَبِهون لعمايتهم وضَلاَلهم، فهُمْ أضلُّ من البهائم؛ ولذا ورد الحديث: إذا وقع الذبابُ في إناء أحدكم فَلْيُلْقِه فإنَّ في أحد جناحيه داءً وفي الآخر شفاء، وإنه يتَّقي بجناحه الذي فيه الداء.

فإن قلت: كيف يجتمع الداءُ والشفاء في جناحي الذبابة؟ وكيف تعلم ذلك في نفسها حتى تقدِّمَ جناحَ الداء وتؤخِّر جناحَ الشفاء؟ وما حملها على ذلك؟

والجواب: أنّ هذا غير مُنْكر، لأَنا نجد في أنفسنا وفي أنفس عامَّةِ الحيوان قد جمع فيها بين الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، وهي أشياء متضادّة إذا تلاقَتْ تفاسدت، ثم إن الله تعالى قد ألّف بينها وقهرها على الاجتماع، وجعل منها قوى الحيوان التي فيها بقاؤها وصلاحها لجدير ألاَّ يذكر اجتماعَ الداء والشفاء في جزءين من حيوان واحد، وإن الذي ألهم النحلةَ لاتخاذ البيتِ العجيب الصنعة، وألْهَم الذرة أَنْ تَدَّخر قوتها، وتدخره لأوَان حاجتها إليه هو الذي خلق الذُّبابة وجعل لها الهدايةَ إلى أن تؤخِّر جناحاً وتقدِّمَ جناحاً لما أراد من الابتلاء الذي هو مَدْرجة التعبُّد، والامتحان الذي هو مِضْمَار التكليف، وله في كل شيء حكمة وعنوان. وما يتذكّر إلا أولو الألباب.

وقد تأملت الذباب فوجدته يتقِي بجناحه الأيسر، وهو مناسب للداء، كما أنَّ الأيمن موافق للدواء، واستفيد من الحديث أنه إذا وقع في المائع أنه يموت فيه ولا يتنجس، وفي ذلك يخرج أنَّ ما يعم وقوعهُ كالذباب والبعوض لا ينجس، وما لا يعمّ كالخنافس والعقارب تنجس، وهو متَّجِه لا محيد عنه.

﴿وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين﴾ [النور: ٣]؛ أي حرم الزنى. وقيل حرم تزوّج الزانية لغير الزاني، فإن قوماً منعوا أنْ يتزوجها أحد، وهذا على القول الثاني في الآية قبلها، وهو بعيد لجوازِ تزوّج الزانية. وروي كراهة تزوجها.

﴿وأنْكِحُوا الأَيَامَى مِنكم﴾ [النور: ٣٢]: معناه الذين لا أزواج لهم رجالاً كانوا أو نساء أبكاراً أو ثيبا. والخطاب هنا للأولياء والحكّام؛ أمرهم اللهُ بتزويج

الأَيَامى، فاقتضى ذلك النهي عن عَضْلهن من التزويج. وفي الآية دليلٌ على عدم استقلال النساء بالنكاح، واشتراط الولاية فيه، وهو مذهبُ الشافعي ومالك خلافاً لأبي حنيفة.

﴿والصالحين مِنْ عبادكم وإمَائِكم﴾ [النور : ٣٢]: يعني الذين يصلحون للتزويج من ذكور العبيد وإناثهم، والمخاطبون هنا ساداتهم. ومذهبُ الشافعي أنّ السيد يُجْبَر على تزويج عبيده لهذه الآية خلافاً لمالك. ومذهب مالك أنَّ السيد يُجْبِرُ أمته وعبده على النكاح خلافاً للشافعي.

﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ [الفرقان: ٤]؛ هذا من قول الكفار، ويعنون قوماً من العبيد منهم عدّاس ويسار وأبو فكيهة الرومي.

﴿وعْداً مَسْؤُولاً﴾ [الفرقان: ١٦]؛ أي سأله المؤمنون أو الملائكة في قولهم: وأدخلهم جنات عَدْن. وقيل معنى وَعْداً واجب الوقوع لأنه قد حتمه.

﴿ولكن مَتّعْتَهم وآباءَهم﴾ [الفرقان: ١٨]: معناه متعْتَهم بالنعم في الدنيا، وكان سبب نسيانهم لذكر الله وعبادته.

﴿ويَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ على يَدَيْه﴾ [الفرقان: ٢٧]: المراد بالظالم هنا عقبة بن أبي معيط، لأنه جنح إلى الإسلام، فنهاه أُبيُّ بن خلف. والآية تعمُّ كلّ ظالم سواء كان كافراً أو مؤمناً ظالماً، إذ كلّ عاص يعضّ على أنامله من الندم، وإذا كان المطيعُ يتحسَّر على ما فاته من زيادة الطاعة، فما بالك بالعاصي.

﴿وكان الشيطانُ للإنسان خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٩]: يحتمل أن يكونَ هذا من قول الظالم، أو ابتداء إخبار، من قول الله تعالى. ويحتمل أن يكونَ الشيطان إبليس، أو الخليل المذكور.

﴿وقال الرسول يارَبّ إنَّ قَوْمي اتّخَذُوا هذا القرآن مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠]: يحتمل أن يكون قال هذا في الدنيا أو في الآخرة أو مجموعها.

﴿وكذلك جعَلْنا لكل نبيّ عَدُوًّا مِنَ المجرمين﴾ [الفرقان: ٣١]: العدوُّ هنا جمع، والمراد تسلية النبيّ ﷺ بالتأسِّي بغيره من الأنبياء.

﴿وقُرُوناً بين ذلك كَثِيراً﴾ [الفرقان: ٣٨]: يقتضي التكثير والإبهام، والإشارةُ بذلك إلى أصحاب الرسّ وثمود وغيرهم.

﴿وجعل بينهما بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجُوراً﴾ [الفرقان: ٥٣]: قد قدمنا في حرف الباء والحاء أنّ معناه الحاجز، وضمير التثنية يعود على البحرين، لا يختلط أحدهما بالآخر، وأغربُ منه وجود اللبن مِنْ بين فَرْثٍ ودم، ووجود الشهد والسم في النحل، فالسمُّ سبَبُ هلاك الأحياء، والشّهْدُ سببُ شفاءِ المرضى، وجعل بينهما حاجزاً لا يختلطُ أحدهما بالآخر، وكذلك جعل في المؤمن النفس والْقَلْبَ، فالنّفْسُ تميلُ إلى الدنيا، والقلب يميلُ إلى العقبى، فأعطى له الدين مع الدنيا، وجعل بينهما حاجزاً، فلا تضر الدنيا مع الدين بفَضْلِه وكرمه.

﴿وتَوكّلْ على الحيِّ الذي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]؛ لأَنَّ ما سواه يموت، والاعتزاز بمن يموت لا يبقى؛ فكيف يعتزُّ مخلوقٌ بعد هذه الآية بمخلوق مثله، أفٍّ لقالب بلا قلب! لقد عميت بصيرتنا، وأظلمت سريرتُنا فظهرنا بالصلاح والتوكل للمخلوقين، وقَلْبُنا خَلِيٌّ عن رب العالمين.

﴿وسيَعْلَمُ الذين ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبون﴾ [الشعراء: ٢٢٧]: هذا وعيد لمن ظلم أحداً من خلق الله. وعمل ينقلبون في أي. وقيل إن العامل في ﴿أيّ﴾ سيعلم.

﴿وسبحانَ اللهِ رَبّ العالمين﴾ [النمل: ٨]: نَزّه الله نفسَه مما عسى يكون ببال السامع في معنى النداء، وفي قوله: ﴿بُورِكَ مَنْ في النار﴾ [النمل: ٨]؛ إذ قال بعض الناس فيه ما يجب تنزيه اللهِ عنه.

﴿وأُوتينا من كلِّ شيء﴾ [النمل: ١٦]: عموم معناه الخصوص. وقد قدمنا أن المرادَ بقول سليمان هذا التكثير؛ كقولك: فلان يَقْصِده كلُّ أحد. ويحتمل أن يريد نفسه وأباه، أو نفسه خاصة على وَجْه التعظيم؛ لأنه كان ملكاً.

﴿وحُشِرَ لسليمانَ جنوده من الجنِّ والإنْسِ ...﴾ [النمل: ١٧] الآية: اعتبر بما أعطِى اللهُ سليمانَ من الجند، واختلف في عسكره اختلافاً كثيراً؛ فقيل كان مائة فرسخ في مائة: خمسة وعشرون للأنسِ؛ وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية، وقد نسجت له الجنُّ فُسطاطاً من ذهب وإبريسم فرسخ في فرسخ، وكان يوضع منبره في وسطه، وهو من ذهب، فيقعد عليه وحَوْله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فيقعد الإنسُ والجن على الكراسي وحَوْلَهم الناسُ، وتظلُّهم الطير بأجنحتها، وترفع رِيحُ الصبا البساط، فتسير مسيرةَ شهر.

ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرُّخَاء تسيّره، فأوحى اللهُ إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إني قد زدت في مُلْكك، لا يتكلم أحد بشيء إلا أَلْقَتْه الريح في سمعك. فيحكى أنه مَرَّ بحرّاث، فقال: لقد أُوتي آلُ داود مُلْكاً عظيماً، فألقى الريحُ في أذنه، فنزل ومشى إلى الحرّاث، وقال: إنما مشيتُ إليك ليلاً؛ تتمنّى مالاً تقدر عليه! ثم قال: لتَسْبِيحةٌ واحدة يَقْبَلُها الله خير مما أوتي آل داود.

وروي أنه سمع قولَ النملة من ثلاثة فراسخ، وكان يفهم كلامَ الطيور ومعانيها وأغراضها، وهذا نحو ما كان نبينا ومولانا محمد ﷺ يسمعُ أصواتَ الحجارة بالسلام.

ويحكى أن سليمان مَرَّ على طائر في شجرةٍ يحرّكُ رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أَتَدْرُون ما يقول؟ قالوا: الله ونبيه أعلم. قال: يقول أكلْتُ نصفَ تمرة، فعلى الدنيا العفاء.

فإن قلت: الظاهر من قول نبينا ومولانا محمد ﷺ في خبر العفريت الذي عرض له في صلاته فأخذه وأراد أَنْ يُوثقه في سارية من سَوَاري المسجد، فقال:

ذكرت قولَ أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِر لي وَهَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأَحَدٍ مِن بَعْدي﴾ [ص: ٣٥]؛ فأرسلته، أنه لم يبلغ هذا الملك.

فالجواب أن لفظة ينبغي إنما هي لفظة محتملة ليست بقَطْع في أنه لا يُعْطي اللهُ عز وجل نحو ذلك الملك لأحد؛ ونَبيِّنا ومولانا محمد ﷺ لو ربط الجني لم يكن ذلك نَقْصاً لما أُوتيه سليمان عليه السلام، لكن لما كان فيه بَعْضُ الشبهة تركه جَرْياً منه ﷺ على اختياره أبداً أيسر الأمرين وأقربهما إلى التواضع؛ ألا ترى لما عرض عليه أن يكون نبيئاً عبداً أو نبيئاً ملكاً فاختار العبودية، وقال: إنما أنا عَبْدٌ آكل كما يَأْكُلُ العبد؛ فعوَّضَه الله بتواضعه الشفاعة العظمى، والوسيلَة التي لا ينالها غيره. وهذا مع ما كان عليه من تسخير الكونين والثقلين.

وقد ألف بعضُ العلماء في موازاة معجزاته عليه السلام لمعجزات الأنبياء على جميعهم السلام تأليفاً عجيباً، وكذلك نظم بعضهم قصيدةً في معجزاته عليه السلام موازياً لمعجزاتهم.

فإن قلت: كيف يتعرض الشيطان لرسول الله ﷺ يريد إفسادَ صلاتهِ، ويفرّ من لقاء عمر، كما قال ﷺ: «لو سلك عُمر فَجًّا لسلك الشيطانُ فجًّا غير فَجّ عمر».

والجواب أنه ليس بمنكر أَنْ يتعرَّضَ العفريت له إظهاراً لمعجزته وغلبته له، وأيضاً فأين يَفرُّ منه ﷺ وهو مالكُ الأرض كلّها، بل والآخرة بأَسْرِها؛ فإلى أين يفر من ملاقاته؟ وعُمَرُ لا يملك إلا الفجَّ الذي هو فيه، فكان يفرُّ منه لغير ملكه، ولقد علم اللعين أنه لو ظفر به لقتله لشدّةِ عمر وغِلْظَتِه في الله ونصرة دينه؛ ونبيُّنا ومولانا محمد ﷺ في غاية الشفقة والرحمة على من يُؤذيه.

وقد حكى ولي الله أبو محمد المهدوي أن أبا مدين قال لتلامذته يوماً: أيّما أفضل أمة محمد ﷺ أو أمة سليمـان؟ فأجيب بأن الفضل بينهما معروف. فقال لهم: ما بالُ آصف أُوتي علماً من الكتاب تمكَّنَ به من الإتيان بعرش بلقيس؛ وأنت يا محمدي أُوتيت عِلْمَ الكتاب، ولم تتمكن من الإتيان برغيـف؛ قـال: فلم

يذكر أحد جواباً عن هذا. قال: فألقي عليّ في النوم، فرأيتُ قائلاً يقول لي: لو خصّ أحد بسرّ الخفاء، لعُدّ في حق غيره خفاء، وأمةُ محمد من أهل الصفاء والاصطفاء، وحين استيقظتُ لاح لي سرٌّ ما رأيتهُ، وعلمتُ أنّ آصف خُصّ بمزية عن كل أمة سليمان عليه السلام لرفْعَةِ مرتبته، وليس لتلك الأمة من العناية ما لهذه الأمة، فلو عَمّ ما هم محتاجون إليه لبطلت حكمةُ الله في طلب الجد والسعي الذي عليه يُثَابون، فلو خُصّ واحد من هذه الأمة بدرجة قالوا: إن مَنْ سواه منحطٌّ عن حصول الاعتناء به في تناول معاشه دون سبب لهم. بهذا الاعتبار قد تساووا في الكسب، لا فَضْلَ لواحدٍ منهم عن صاحبه في تطلّبه؛ فهم متحدون في الاقتداء، فما شرفوا إلا من أجله صلوات اللهِ وسلامه عليه.

﴿ولو يُؤَاخِذُ اللهُ الناسَ بظُلْمهم﴾ [النحل: ٦١]؛ أي بظلمهم أنفسهم، أو بظلم بعضهم بعضاً، فهو للفاعل والمفعول؛ لأن الناس عام في الظالم والمظلوم، وإنما أضاف الظُّلْمَ إليهم لأجل الكسب الذي لهم فيه؛ ألا ترى أنك تقول عبد فلان، وثواب فلان، وليس لهم فيه إلا المنافع. وأما الأعيان فما يملكُها إلا الله.

وذكر الزمخشري هنا آثاراً عن أبي هريرة وابن عباس تقتضي عمومَ الهلاك في بني آدم وغيرهم بسبب شُؤْم ظلم الإنسان، وكذا نقل ابن عطية أنّ الطير والحوت يهلكان بسبب ظُلْم الإنسان؛ وهذا مما لا يَتمّ الاستدلال به إلا مع ضميمة ما قاله الأصوليون في أنَّ قول الصحابي إذا كان دليله مخالفاً للقياس فإنه يكون حجةً، لأنه حينئذ لم يكن قاله من عنده؛ بل يكون سمعه من رسول الله ﷺ. وأمّا إنْ وافق القياس فهو مذهبُ صحابي، فلا يحتج به. وهذا مخالفٌ للقياس. قال تعالى: ﴿ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧].

وأجاب ابنُ عطية بأَنَّ هلاك من لم يظلم إنما هو لكونه لم يغيِّرْ على الظالم، ويعضده ما تقدم في قوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذُكروا به أنجينا الذين يَنْهَوْن عن السوء﴾ [الأعراف: ١٦٥]؛ وفي قوله: ﴿كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عن مُنْكرٍ فعلوه﴾ [المائدة: ٧٩].

وأجاب بعضهم أن هلاك الظالم بظلمه وهلاكَ مَنْ لم يظلم إنما هو ابتلاء له ليصبر، فيعظم بذلك أَجْرُه ومثوبته، فهو رحمة به بهذا الاعتبار.

قال الفخر: واستدل بعضُهم بالآية على عدم عِصْمَةِ الأنبياء، واستدل بها مَنْ جوّز الردة على جميع الخلق لنسبة الظلم فيها لجميع الناس.

ورُدّ بأنَّ العمومَ في الآية إنما هو بالمؤاخذة وأمّا الظلم فإنما ذُكر على سبيل الفَرْض والتقدير؛ أي لو فرض وقوعُ الظلم من الجميع وأُوخذوا به لم يبق أحد؛ ولا يلزم من فرض الشيء وقوعُه، كما قال: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فإن قلت: يفهم من قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَأْخِرون ساعةً﴾ [النحل: ٦١] نَفْي تأخرهم عن أجلهم، لأنه كان متوهّماً، وأما تقدمهم على أجلهم إذا حضر بمستحيل إذ الماضي لا يعودُ، فلم احتيج إلى نَفْيه، وجُعل جواباً للشرط؟

والجواب أنه على معنى التأكيد لذلك، وإشارة إلى تسوية الأَمْرِ الضروري بالمشكوك فيه، لأنّ استحالَة تقدمهم عن أجلهم إذا حضر أَمْرٌ ضروري، وتأخرهم عنه مشكوك فيه؛ ألا تَرى مَنْ حلّ عليه دين مؤجل يمكن أن يؤخّره ربّه عنه، ولا يمكن أن يقدمه هو عن أجله بعد حلوله بوَجْه، فكأنه يقول: كما يستحيل تقدّمهم عن أجلهم إذا حلَّ كذلك يستحيل تأخُّرهم عنه، لأن ما علمه الله وقدَّره لا بُدّ من وقوعه.

﴿وقال رَبِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُر نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عليَّ وعلى والديّ﴾ [النمل: ١٩]: هذا من قول سليمان لَمّا أنعم الله تعالى عليه بالملك، وعلم أنه رخاء لا ينفعه عند الله إلا بإلْهَامِهِ الشكر.

وحقيقةُ ﴿أَوْزِعني﴾ اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأكفّه وأربطه، لا ينفلتُ عني، حتى لا أنفكّ شاكراً لك. وأدخل والديه في الدعاء، لأن النعمةَ عليهما للولد منها نصيب بالوراثة، فيجب شُكْرُ الوالد على ذلك؛ لأن موجبَ

الشكر مشترك بين الولد والوالدين، ومِنْ رؤية النعمة عند سليمان أنه أمر أن يعمل حولَ كرسيّه ألف محراب فيها أَلْفُ رجل عليهم المسوح يصرخون بالشكر دائماً ويقول لجنده إذا ركب: سَبّحُوا اللّهَ إلى ذلك العلم، فإذا بلغوه قال: هلّلوا إلى ذلك العلم، فإذا بلغوه قال: كبروا إلى ذلك العَلَم الآخر، فلج الجنود بالتسبيح والتهليل والتكبير لجةً واحدة، شكراً لما أعطاه الله، فاستعملوه من أجله. وقد صح أنَّ الله يحتجُّ على الأغنياء يوم القيامة بسليمان؛ لأنه لم يشغَلْه ما أعطاه اللهُ عن القيام بحقه، وعلى العبيد بيوسف، وعلى المرضى بأيوب، لما هلك جميع ما ملك دخل بَيْتَه وألقى ثيابه، وقال: هكذا خرجت إلى الدنيا، وعلى الفقراء بعيسى؛ كان له إناء يشرب فيه، ومُشط يمتشط به، فألقاهما وصار يتخلّل بأصابعه، ويشرب في يديه؛ فقال له قومه: ألا تتّخذُ لك حماراً تركبُ عليه إذا أعياك المشي؟ فقال: أنا أكرم على الله من أنْ يجعلني خادمَ حمار.

﴿وتَفَقَّدَ الطَّيرَ فقال مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠] ـ بضم الهاءين وإسكان الدال بينهما: طائر معروف ذُو خطوط وألوان. قال الجاحظ: وهو وفّاء حفوظ؛ وذلك أنه إذا غابت أُنثاه لم يأكل ولم يشرب ولم يَشْتَغِل بطلب طعم، ولا يقطع الصياح حتى تعودَ إليه، فإن حدث حدثٌ أعدمه إياها لم يسفد بعدها أنثى أبداً، ولم يزل صائحاً عليها ما عاش، ولم يشبع بعدها من طعم؛ بل ينال منه ما يمسك رمقه إلى أنْ يشرف على الموت، فعند ذلك ينال منه يسيراً.

فإن قلت: قد طلب سليمان الشُّكْرَ من الله تعالى على هذا الملك، وإنه لم يكن في باله ولا له به تعلّق، فما بالُه تفقَّد الْهُدْهُد حين كان يظلّه وتوعَّده بالعذاب الشديد أو بالذبح؛ وهذا الفعل يقتضي العنايةَ بالمملكة والتهمم بكل جزء منها؟

والجواب ما في الكامل وشعب الإيمان للبيهقي: أن نافعاً سأل ابْنَ عباس، فقال: سليمان عليه السلام، مع ما خَوّلَه اللهُ من الملك وأعطاه، كيف عني بالهدهد مع صغره؟ فقال له ابن عباس: إنه احتاج إلى الماء، والْهُدْهد كانت له الأرض كالزجاج. فقال ابن الأزرق لابن نافع: قِف يا وَقاف؛ كيف يُبصر الماء من تحت الأرض، ولا يرى الفخ إذا غُطّي له بقَدْر أصبع من تراب؟

فقال ابن عباس: إذا نزل القَدَر عَمِي البصر.

قال الزمخشري: وكان السبب في تخلّفه عن سليمان عليه السلام أنه حين نزل سليمانُ عليه السلام حلّق الهدهد، فرأى هُدْهداً واقعاً، فوصف له مُلكَ سليمان وما سخّر له، وذكر له ملك بلقيس، وأن تحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف، فذهب له لينظرَ فما رجع إلاّ بعد العصر، فدعا سليمان عريفَ الطير وهو النّسر، فلم يجد عنده عِلمه؛ ثم قال لسيد الطير ـ وهو العقاب: عليّ به، فارتفع ونظر فإذا هو مُقْبل، فقصده، فناشده وقال له: بالذي قوّاك عليَّ وأقدرك إلا رحمتني، فتركه، وقال: ثكلَتْكَ أمُّك؛ إنَّ نبيّ الله حلف ليعذبنك.

قال: وما استثنى؟ قال: بلى. قال: أوليأتِيَنّي بسلطان مبين. فلما قرب من سليمان أرْخَى ذنبَه وجناحيه يَجُرّهما على الأرض تواضعاً له، فلما دنا منه أخذَ رأسه فمدَّه إليه، فقال: يا نبي الله، اذكر وقوفَك بين يدي الله خاضعاً ذليلاً. فارتعد سليمان وعفَا عنه؛ ثم كان تعذيبه لمن خاف أمْرَه من الطير أن ينتف ريشه ويشمسه. وقيل يلقيه للنمل يأكله. وقيل إيداعه القفص. وقال الهدهد: يا نبي الله، بم كنت تعذّبني العذابَ الشديد؟ قال: أفَارقك من إلْفِكَ وأجعلك تعاشر الأضداد.

فإن قلت: لِمَ أُبيح له تعذيبُ الهدهد؟

قلت: يجوز أنْ يبيح الله له ذلك كما أباح ذَبْحَ البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع. قال عِكْرمةُ: إنما صرف سليمان عن ذَبْح الهدهد للخبر الذي أتى به من أمْر بلقيس.

وقيل: لأنه كان بارًّا بأبويْه ينقل الطعامَ إليهما فيزقّهما.

وحكى القزويني أنَّ الهدهد قال لسليمان: أريد أن تكونَ في ضيافتي. فقال: أنا وَحْدي؟ قال: لا، أنت وعسكرك في جزيرة كذا في يوم كذا، فحضر

سليمانُ وجنوده؛ وطار الهدهد؛ فاصطاد جرادةً وخَنقها ورَمَى بها في البحر، وقال: يا نبي الله، مَنْ فاته اللحم ناله المرق؛ فضحك سليمان من ذلك عاماً كاملاً.

﴿وَجَدْتُ امرأةً تملِكُهم﴾ [النمل: ٢٣]: هي بلقيس بنت شراحيل كان أبوها ملك اليمن، ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت بعده على الملك. والضمير يعود على قومها.

﴿ولها عَرْشٌ عظيم﴾ [النمل: ٢٣]: يعني سرير مُلكها، ووقف بعضهم على عرش، ثم ابتدأ: عظيم وجَدْتُها وقَوْمَها يسجدونَ للشمس. وهذا خطأ وغير منكر عليه وَصْف العرش بالعظمة.

﴿وأتُوني مُسْلمين﴾ [النمل: ٣١] يحتمل أن يكونَ من الانقياد، بمعنى مستسلمين، أو يكون من الدخول في الإسلام.

﴿وكذلك يفعلون﴾ [النمل: ٣٤]: من كلام الله تعالى، تصديقاً لقول بلقيس: إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قَرْيَةً أفسدوها؛ أو هو من قولها تأكيداً للمعنى الذي أرادَتْه، أو يعني كذلك يفعل هؤلاء بنا.

فإن قلت: كيف استعظم الْهُدْهدُ عَرْشها مع ما كان يرى من مُلك سليمان؟

فالجواب: أنه استعظم عَرْشَها بالنظر إلى حالها وأمثالها، وأنه وصفه بالعظم إغراء له عليها؛ ووصفه له بأنه ثمانين ذراعاً في ثمانين، وأنه مكلّل بأنواع الجواهر وأن قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودُرّ وزمرّد؛ وغرابة ما فيه من البناء، وفي ذلك تقويةٌ لعذره عن غيبته، ورفع للعقاب عنه، ولعظمه عندهم أراد سليمانُ أن يُريهم قدرةَ الله، وبعضَ ما خصَّه به من العجائب على يده، ويشهد بنبوءته.

﴿وكان في المدينة تسعةُ رَهْطٍ يُفْسدونَ في الأَرض﴾ [النمل: ٤٨]: يعني الفساد العام في كل ما فيه مضرةٌ لأبناء جنسهم. وقيل: كانوا يقرضون الدنانير والدراهم. والمراد بالمدينة مدينة ثمود؛ فانظر رحمةَ الله بعباده حيثُ لا يريد

مضرَّةَ أحدٍ منهم، وبعث الله إليهم صالحاً يَنْهاهم عن الفساد، فجرى لهم ما قدمناه.

﴿ويَوْم يُنْفَخُ في الصُّور فَفزع مَنْ في السموات...﴾ [النمل: ٨٧]: قد قدمنا أنّ إسرافيل عليه السلام ينفخ فيه ثلاث نفخات: نفخة الفزع وهو في الحياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر. ونفخة الصعق. ونفخة القيام من القبور.

وانظر كيف عَبّر هنا بينفخ وفزع، وهو أَمْرٌ لم يقع بَعْدُ إشعاراً بصحة وقُوعه. وخُصَّت هذه السورة بالفزع موافقةً لقوله تعالى: ﴿وهُمْ مِنْ فَزَعٍ يومئذٍ آمِنُون﴾ [النمل: ٨٩]. وخُصت سورة الزمر بالصعق موافقةً لما قبله؛ لأن معناه: مات وقد تقدم قوله: إنكَ ميّت وإنهم مَيِّتُون.

﴿وهم لا يَشْعُرون﴾ [القصص: ٩، ١١]؛ أي قوم فرعون لا يشعرون بأنّ إهلاكهم يكون على يَد موسى، أو لا يشعرون أنّ الذي دلَّت على إرضاعه أخته.

﴿وَكَزه﴾ [القصص: ١٥]؛ أي ضربه بأطراف الأصابع. وقيل بِجمْع الكف فقتله، ولم يرد أن يقتله، لكن وافقت وكْزته الأجل.

فإن قلت: لم يعمل عملاً يوجب له الاستغفار منه، لأَن المقتول كافر.

فالجواب أنَّ الله لم يأذن له في قَتْله، ألا تراه يقول يوم القيامة: قتلت نفساً لم آذن بقتلها.

﴿ولقد وَصَّلْنَا لهم القوْلَ لعلهم يَتَذَكَّرون﴾ [القصص: ١٥]: الضمير لقريش. وقيل لليهود. والأول أظهر؛ لأن الكلام من أوله معهم. والعمومُ أَحسن لهم ولغيرهم ممّن يأتي بعدهم، يعني بلّغْنَا لهم القرآن؛ وبيَّنَّا لهم الحلال والحرام، ووعظناهم بحكاية مَنْ تقدم من الأمم، لعلهم يتذكرون. وهذا مِثْلُ قوله: ﴿وَذكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المؤمنين﴾ [الذاريات: ٥٥]. فكيف يكون للعاصي حجة مع هذه المواعظ والحر من العبيد تكفيه الْمَلامة.

﴿وأكْثَرُ جَمْعاً﴾ [القصص: ٧٨]: معطوف على الهلاك. يعني مَنْ يرى إهلاك من كان أشدّ منه قوة وأكثر جمعاً للمال كيف يغترُّ بالدنيا وهذا حالها! نشاهد إهلاك قوم بعد قوم، ولا نَرْعَوِي عن قبيح، ولا نَزْدَجر من رذيلة.

﴿ولا يُسْأَلُ عن ذُنوبهم المجرمون﴾ [القصص: ٧٨]: يحتمل أن يكونَ متصلاً بما قبله، والضمير في ذنوبهم يعود على الأمم المتقدمة، والمجرمون من بعدهم؛ أي لا يسألُ المجرمون عن ذنوب مَنْ تقدمهم مِنَ الأمم الهالكة؛ لأن كل أحد إنما يسألُ عن ذنوبه خاصة.

ويحتمل أن يكون إخباراً عن حال المجرمين في الآخرة، وأنهم لا يسألون فيها عن ذنوبهم، لأنهم يدخلون النار من غير حساب.

ورُدّ بقوله تعالى: ﴿فوَرَبِّكَ لنسأَلَنّهم أجمعين﴾ [الحجر: ٩٢]. وأجاب بعضُهم عن هذا بأن السؤال المنفي على وَجْه الاستخبار وطلب التعريف، لأنه لا يحتاج إلى سؤالهم على هذا الوَجْه، ولكن يسألون على وَجْه التوبيخ، وحيثما ورد في القرآن إثبات القول في الآخرة فهو على معنى المحاسبة والتوبيخ، وحيثما ورد نَفْيه فهو على وَجْه الاستخبار والتعريف، ومنه قوله: ﴿فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنْسٌ ولا جانّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

﴿وادْعُ إلى رَبّك﴾ [القصص: ٨٧]: يحتمل أن يكون من الدُّعاء بمعنى الرغبة، أو من دعوة الناس إلى الإيمان بالله، فالمفعول محذوف على هذا، تقديره ادْعُ الناسَ. فانظر كيف أمر اللهُ رسولَه بدعاء الناس إليه، وخصص الهداية لإجابته، فالدعوةُ عامةٌ، والهدى خاص. وقد دعا الله عباده في الدنيا بقوله: ﴿واللهُ يَدْعو إلى دَارِ السلام﴾ [يونس: ٢٥]. ﴿يدعوكم ليَغْفِرَ لكم من ذنوبكم﴾ [إبراهيم: ١٠]. وفي الآخرة بقوله: ﴿يوم يَدْعُوكم فتستجيبون بحمدِه﴾ [الإسراء: ٥٢]. ﴿يوم نَدْعُو كُلَّ أُناسٍ بإمامِهِم﴾ [الإسراء: ٧١]. فما هذا التقاعس بعد هذا الدعاء إلا من العمى، وأعظم من العمى، وأعظم من المخالفة والاستجابة غَفْلَتُنا عن الاستغفار، والضحك والاغترار

والتهاون والاستكبار؛ قال تعالى: ﴿وكنْتُم منهم تَضْحكُون﴾ [المؤمنون: ١١٠]. ﴿وتَحْسَبُونَه هَيِّناً وهو عِنْد الله عظيم﴾ [النور: ١٥]. ﴿وغرتكم الأماني حتى جاء أَمْرُ الله وغَرّكم بالله الغرور﴾ [الحديد: ١٤]. وقد أخبر الله عن نوح أنه قال: ﴿وإني كلَّما دَعَوْتُهم لتغفِرَ لهم جعلوا أَصابعهم في آذانهم، واستَغْشَوْا ثيابهم وأَصرُّوا واستكبروا استكباراً﴾ [نوح: ٧].

وهذه كلها موجودة فينا، وما خفي عن الخلق أكثر، اللهم لا تؤاخذنا بذنوبنا.

﴿وما أُوتِيتُم من شيءٍ فمتَاعُ الحياةِ الدنيا وزينَتُها﴾ [القصص: ٦٠]: هذا الضمير لكفار قريش، لأنهم كانوا يفخرون بالأموال والأولاد على الضعفاء من المؤمنين، ويسخرون منهم لقلَّة ما أُعطوا من الدنيا، فأخبرهم اللهُ أنَّ ما أعطوا منها إنما هو متَاعٌ قليل وزينة وتفاخر يشغل بها كالصبي تُعْطيه أمُّه خشاشة تَشغله عنها، ولو علم الله فيهم خيراً لتَنبَّهوا لِمآلها، لكن الله طمس بصائرهم، وأكبُّوا عليها؛ وليس العجب منهم، وإنما العَجَبُ منكم، حَضَّ الله رسوله على الفرار منها، والإعراض عنها، فلم تزيدوا إلا طغياناً وكفراً، ولو لم يقع الحضّ على الفرار منها لكان الواجب عدم الالتفات إليها لما نرى من سرعة تقلُّبها؛ يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة: «طلبتُ من خَلْقي الطاعةَ لي، والزهادة في أعدائي، فلم يفعلوا؛ ثم طلبت منهم إعانةَ الزهاد من أهل طاعتي فلم يفعلوا، فقلت لهم: ارضوا عنهم فلم يفعلوا، فقلت لهم: لا تمنعوهم منها إذاً، فمنعوهم. فقلت لهم: لا تدعوهم إلى ما لا يُرضيني، ولا تعادوهم عليها، إن لم يتابعوكم، ففعلوا وصاروا عندهم أَنْتن من جيفة حمارٍ، فكيف أقدّس أمة هذه أفعالهم!» اللهم أعفُ عنّا بفضلك.

فإن قلت: ما وَجْه زيادة الزينة في هذه الآية على آية الشُّورى [٣٦]؟

والجواب لتقدم ذكرها في قوله تعالى: ﴿فخرج على قومه في زِينته﴾ [القصص: ٧٩]، فالتحمت الآية بتلك القصة، ولم يرد في سورة الشورى من

أولها إلى آخرها ذكر حال دنيوي لأحد، بل تضمَّنت حقارةَ الدنيا ونزارة رزقها، وأنه مقدور غير مبسوط، وتلك حالُ الأكثر. وقيل في الجواب غير هذا حذفناه لطوله.

﴿ويوم يناديهم فيقول أَيْن شُركائي الذين كنْتُم تَزْعمُون﴾ [القصص: ٦٢]: قد قدمنا أن هذا النداء من الله تعالى قديم متعلق بالذات القديمة، وإنما يسمعهم اللهُ ذلكَ الخطابَ من غير واسطة مبالغةً في توبيخهم وتعذيبهم؛ ولذلك أدخل فيه همزة الاستفهام ونَسب الشُّرَكاء تعالى إلى نَفْسه على زَعْمهم. والمجيبون بقولهم: ﴿قال الّذين حَقَّ عليهم القَوْلُ﴾ [القصص: ٦٣] هو كل مقولٍ داعٍ إلى الكفر من الجن والإنس، والنداء إنما وقع للتابعين والمتبوعين، لكن لما كان السؤال مُسكتاً لهم مُبْهِتاً فكأنه لا تعلّق لجمهور الكفرة إلا بالمغوين لهم والرؤوس والأعيان منهم؛ فلذلك سارعوا إلى الجواب طمعاً في التبري من متّبعيهم، وفي هذا الموطن صدر منهم الإقرار بربُوبيته تعالى، إذ هو موطن ظهورِ الحق وانكشافه.

فإن قلت: قد قلتم إنَّ دعاء الشركاء على جهة التعجيز، والمشركون يعلمون أنّ الشركاء لا يُجيبون، لأن الموطن ظهورُ الحق وانكشافُ الأمورِ فلم دَعَوا شركاءهم؟

والجواب: ليظهر عَجْزُهم عن إجابة الدعوة على رؤوسِ الأشهاد، وتقوم عليهم بذلك الحجةُ، فسبحانه ما أَعظمه من لطيف يحبُّ المعاذير وإظهار الحق، ينطق الجمادات والجوارح على المخلوقات حتى لا يجد الإنسان فراراً من قضائه وقيام الحجة عليه.

فإن قلت: كيف الجمع بين قولهم: ﴿أَغْوَيْنَاهم﴾ [القصص: ٦٣]، وبين قولهم: ﴿تبرَّأْنا إليك﴾ [القصص: ٦٣]؛ فإنهم اعترفوا بإغوائِهم وتبرَّأوا مع ذلك منهم؟

والجواب أنّ إغواءهم لهم هو أَمْرُهم لهم بالشرك. والمعنى أنا حملناهم على

الشرك كما حملنا أنفسنا عليه، ولكن لم يكونوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون الأصنام وغيرها، فتبرَّأنا إليك من عبادتهم لنا؛ فتَحصَّل من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم أغْوَوا الضعفاء وتبرَّءُوا من أن يكونوا هم آلهتهم، فلا تناقض في الكلام.

﴿ووَصَّيْنَا الإنسانَ بوالديه حُسْناً، وإنْ جاهداك لِتُشْرِكَ بي﴾ [العنكبوت: ٨] اختلف في سبب نزول هذه الآية على أقوال؛ والظاهر منها عمومها فيمن كان بمكة من المؤمنين يشْقَى بجهاد أبويه في شأن الإسلام أو الهجرة، فكان القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأبوين في مِثْلِ هذا لعظم الأمْر، وكثرة الخطر فيه، مع الله تعالى، ثم إنه لما كان بِرُّ الوالدين وطاعتهما من الأمر الذي قَررَتْهُ الشريعة، وأكّدت فيه، وكان من القوي عندهم الملتزم قدَّم الله تعالى النهي عن طاعتهما في قوله تعالى: ﴿ووصينا﴾ على معنى أنا لا نخلّ ببر الوالدين، لكنا لا نُسَلط على طاعة الله تعالى، لاسيما في معنى الإيمان والكفر. وحُسْناً: يحتمل أن ينتصبَ على المفعول، وفي ذلك تجوُّز، ويسهِّلُه كونه عامًّا لمعان، كما تقول: وصيتك خيراً، ووصيتك شرّاً؛ عَبّر بذلك عن جملة ما قلت له، ويحسن ذلك دون حرف الجر في قوله: بوالديه؛ لأن المعنى: ووصينا الإنسان بالحسنى في فِعله مع والديه. والجمهور على ضَمِّ الحاء وسكون السين. وقرىء إحساناً، ويحتمل أنْ يكونَ مصدراً من معنى وصَّيْنَا، أي وصينا وصية حسنة، وعَبّر عن أمر الوالدين بالجهاد مبالغةً، فمن أمره أَحَدُ أبويه بفعل شيء فيه رضا الله، فيقدم أمرهما إذا لم يخل بشيء من طاعة الله، فإن أَخَلَّ فأَمْرُ الله مقدم؛ إذ لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق.

وإنما قال في هذه السورة: ﴿لِتُشْرِكَ﴾ [العنكبوت: ٨]، لأنه وافَق ما قبله لفظاً، وهو قوله: ﴿ومَنْ جاهد فإنما يُجَاهِد لنفسه﴾ [العنكبوت: ٦]. وفي لقمان [١٥] محمول على المعنى؛ لأن التقدير وإن حملاك على أنْ تشرك.

وقيل: إن هذه الآية مبنية على الإيجاز؛ فناسب ذلك الاكتفاء باللام، وآية

لقمان مبنية على الإطالة، فناسب ذلك التعدية بعلى؛ وإنما أمره بالرفق في آية لقمان بقوله: ﴿وصَاحِبْهُما في الدنيا مَعْرُوفاً﴾ [لقمان: ١٥]؛ لأن مبنى الآية على الأمر بما يفعل بهما ومعهما من غير تقدّم مطلبٍ لهما، ووَجْه ختم هذه الآية بالرجوع إلى الله تحذير مِن طاعتهما في الشرك، وإبلاغٌ في النهي عن الصَّغْو إليهما في ذلك إلى الغاية لئلا يظَنّ أن ذلك كآية الإكراه كما تقدم، ولما لم يقع في آية الأحقاف [١٧] ذكر الشرك وكانت فيمن كان على الإيمان، وقد علم المؤمن رجوعه إلى ربّه، لم يَرِدْ فيها ذكر ذلك.

﴿وما يَجْحَدُ بآياتِنَا إلا الكافرون﴾ [العنكبوت: ٤٧]؛ أي الجاحدون من كلّ أمة قد أمن سلفها في القديم والحادث، وأسند الجَحْد في هذه إلى الكافرين وفيما بعدها إلى الظالمين، فقيل: ليعُمَّ لفظُها كلَّ مكذب بمحمد عليه الصلاة والسلام، ولكن عظم الإشارة بها إلى كفّار قريش، لأنهم الأهم.

فإن قلت: الظلم يصح إطلاقُه على ما دون الكفر فلو ورد وَسْمُهُم أولاً بالظلم، ثم ثانياً بالكفر لكان أنسب؟

والجواب: أنّ الظلم وإن كان يطلق على الكفر وعلى ما دُونَه؛ قال تعالى: ﴿والكافِرونَ همُ الظّالمون﴾ [البقرة: ٢٥٤] فإنه إذا ذُكر بعد الكفر وُصف به مَنْ وصف بالكفر لفَهْم زيادة تتركب على الكفر؛ قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وظَلَموا لم يكن الله ليَغْفِر لهم...﴾ [النساء: ١٦٨] الآية. وعلى هذا ورد في القرآن، فقد وضح ما وردت عليه هاتان الآيتان، وليس من المشكل في شيء.

﴿ولئن سألْتَهُم مَنْ خلق السمواتِ والأرض﴾ [العنكبوت: ٦١]؛ الضمير في الموضعين لأهل مكة والسؤال لإقامة الحجة على الكفار، لأنهم أقرُّوا بأنه سبحانه هو الخالق لهذه المخلوقات العظيمة كما قدمناه في غير ما موضع، ولذلك أنكر الله عليهم جَحْد عبادته بقوله: ﴿فأنَّى يؤفكون﴾ [العنكبوت: ٦١]؛ أي يُصْرَفون عن توحيده ومعرفته. ووَجْه تعقيب هذه الآية بالإفك، والثانية بعدها

بعدم العقل، وآية لقمان [١٥] بكثرة الجهل وقلةِ العلم؛ لأن المراد منها الاستدلالُ بهذا الْخَلق العظيم وما هو عليه من جليل التناسب، وإتقان الصنعة وإحكامها من غير تفاوت ولا فطور.

﴿والذين جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت: ٦٣] يعني جهاد الأنفس في الصبر على إذاية الكفار، واحتمال الخروج عن الأوطان، وغير ذلك. وقيل: يعني القتال؛ وذلك ضعيف؛ لأن القتال لم يكن مأموراً به حين نزول الآية.

﴿وإنَّ الله لَمَـع الْمُحْسنين﴾ [العنكبـوت: ٦٩]؛ أي بنصره ومعـونتـه، وانظر كيف أكّده بأن واللام ليعلمك أنه سبحانـه لا يسلمـه لمن أراده بسـوء؛ وكيف لا وقد أكرمه الله بالمحبة بقوله: إن الله يحب المحسنين، والأمن: ﴿ما عَلَى المحسنين مِنْ سبيل﴾ [التوبة: ٩١] وهو محسن. والرحمة: ﴿إن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦].

فإن قلت: ما معنى الإحسان؟

فالجواب أنَّ هذا المقام لم يحصل إلا لأرباب العقول. وفي الحديث: إن كتب الإحسان على كل شيء، والإحسان ثالث المقامات. وقد فسره ﷺ بقوله: أن تعبد الله كأنكَ تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فياليت شعري، هل بقي منهم في هذا الرَّبْع أنيس به أو ملجأ يسند إليه! ما أرى النفوس إلا قد ماتت بحبِّ الدنيا؛ وياليتنا نِلْناها؛ والقلبُ مات مِنْ حبّ المولى، فمتى يحيا أهلُ الإحسان أحيا الله قلوبَهم بحبه، وأماتوا نفوسهم من حبّ ضده، ونحن على الضد. قيـل لحاتم الأصم: ما علامةُ حياة القلب؟ قال: وجْدان اللذة من الطاعة، ووجدان الألم من المعصية؛ فَزِنْ بهذا الميزان نَفْسك وقَلْبك يتضح لك ما ذكرت. قال حاتم الأصم: نفس المؤمن ضيعته، وقلبه أرضه، والإخلاص ماؤه، والحكمة بذْره، والشهوات حشيشته التي تغيره، والعبودية غلّته، والدنيا سفَرُهُ، والأيام منازِلُه، والقيامة سوقه؛ والملك مشتراه، والجنةُ ثمنه؛ فنحن بِعْنا ونقضنا، ومَنْ نكث فإنَّما ينكثُ على نفسه. ومَنْ أوْفَى بما عاهدَ عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيماً.

أمَا علمْتَ أنَّ من أحبَّ شيئاً طلبه، ومن طلبه وجده، ومن خاف من شيء هرب منه، ومن أراد سفراً اهتَمَّ له، ومَنْ أحبّ اللحوقَ بقوم اقتدى بفعالهم، وسلك سَبِيلَهم؛ ومَنْ فَضل قوماً بالعلم يحق أن يَفْضُلهم بالعمل، ونحن لا عِلْمَ ولا عمل، فإن لله وإنا إليه راجعون! أَشْمَتْنا أهْلَ الآخرة من أحبابنا، وأرضينا الشيطانَ عدوّنا، فمن رأى مصرعي فليبك معي.

﴿وهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]: يعني كلما عظم خلق الإنسان في بطن أمه زادها ضَعْفاً على ضَعْفها.

﴿ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ [الروم: ٦٠]: الخطاب لرسول اللهِ ﷺ، أمره الله بعدم الاضطراب لكلام الكفار، وقولهم القبيح.

﴿وإذْ أخَذْنا مِن النَّبِيِّين ميثاقَهم﴾ [الأحزاب: ٧]: أي أخذْنا عليهم الميثاقَ بتبليغ الرسالة إلى الْخَلْق وتعليم الشرائع. وقيل أخذ الميثاق يوم: ﴿أَلَسْتُ بربكم﴾.

والأول أرجح، لأنه هو المختصُّ بالأنبياء.

﴿وَقُلْنَ قولاً مَعْروفاً﴾ [الأحزاب: ٣٢]: الخطاب لأمهاتنا وأزواج سيدنا ﷺ؛ نهاهنَّ اللهُ عن الكلام اللّين الذي يُعجب الرجال ويُميلهم إلى النساء، أو الذي ليس فيه شيء مما نهى عنه، ويعم جميع الأمة لأن اللهَ أمر بالاقتداء بهنَّ.

﴿وَطَراً﴾ [الأحزاب: ٣٧]: حاجة، يعني لمَّا لم يبق لزيد حاجةٌ في زينب زوَّجناكها. وقد قدمنا قِصّتها في حرف الزاي.

﴿وَلاَ بِالّذِي بَيْنَ يَدَيْه﴾ [سبأ: ٣١]: يعني الكتب المتقدمة، كالتوراة والإنجيل، وإنما قال هذه المقالة حين وقع الا جاجُ بما في التوراة من ذِكْرِ محمد ﷺ، ولا يلتفت لمن قال بين يديه يوم القيامة، لأن الذي بين يَدي الشيء هو ما يتقدمُ عليه.

﴿وجَعَلْنَا ذُرِّيته هم الباقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]: أهل الأرض كلهم من

ذرية نوح، لأن الله أمات مَنْ نجا معه في السفينة، وتناسلت الْخَلْق من سام وحام ويافث.

﴿وتَرَكْنَا عليه في الآخِرين﴾ [الصافات: ٧٨، ١٠٨]: معناه أبقَيْنَا له ثناءً جميلاً في الناس، فيقال له آدم الأصغر. وقد قدمنا أنّ اللهَ أمره بالدعوة إلى التوحيد؛ وأرسله إلى الناس كافّة، وعُمر ما لم يعمر غيره، وقرنه اللهُ بالذكر مع نبينا في قوله: ﴿ومنك ومن نوح﴾.

﴿ولا تُبْطِلُوا أعمالَكم﴾ [محمد: ٣٣]؛ أي بالكفر بعد الإيمان، وقيل بالرياء والعُجب. وقيل: لا تبطلوا أعمالكم بأن تقطعوها قبل تمامها. وبهذه الآية استدل الفقهاء على وجوب النافلة؛ وهو بعيد. وأبعد منه مَنْ قال لا تبطلوا حسناتكم بفعْلِ السيئات؛ وهذا مذهبُ معتزليّ؛ لأن السيئات لا تبطل الحسنات. والأول أظهر؛ لقوله قبل ذلك في الكفار والمنافقين: ﴿وسيُحْبِطُ أعمالَهم﴾ [محمد: ٣٢]، فكأنه قال: يا أيها المؤمنون لا تبطلوا أعمالكم مثْلَ هؤلاء الذين أحبط اللهُ أعمالَهم بكفرهم وصدِّهم عن سبيل الله، ومشاقّتهم للرسول.

﴿وأُخْرَى لم تَقْدِرُوا عليها قد أحاط اللهُ بها﴾ [محمد: ٢١]، يعني فتح مكة. وقيل بلاد فارس والروم. وقيل مغانم هوازن في حُنَيْن. والمعنى لم تقدروا أنتم عليها قد أحاط اللهُ بها ووهبها لكم وذكَّرَهم بالنعم ليشكروا عليها. وإعراب أخرى معطوف على ﴿عَجّل لكم هذه﴾ [محمد: ٢٠] أو مفعول بفعل مضمر تقديره أعطاكم أُخرى، أو مبتدأ.

﴿وبالأَسحارِ هم يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]: قد قدمنا أن الاستغفار يُطلق على الصلاة، والمراد هنا الاستغفارُ؛ هو طَلَبُ المغفرة للذنوب. وقد ذكرْنَا مراراً أَنّ الله يقول في هذا الوقت: هل من مستَغْفِرٍ؟ هل مِنْ دَاعٍ؟ هل من تائب؟ ولَمَّا أكرم اللهُ خمسة من الأنبياء بخمسٍ: ليلة نُودِي موسى من الشجرة، وليلة النجاة للوط، ﴿نجيناهم بسَحَر﴾ [القمر: ٣٤]، وليلة المغفرة

ليعقوب، ﴿سوفَ أستغْفِرُ لكم رَبّي﴾ [يوسف: ٩٨]. وليلة المعرفة للخليل: ﴿فلما جَنَّ عليهِ الليلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وليلة المؤانسة والمحبة: ليلة الإسراء: ﴿سبحان الذي أَسْرَى بعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] أكرمك الله يا محمديّ بسحر كلِّ ليلة تُنَاجِي فيها ربّك، فقُمْ على قدَمِ الاعتذار كاشفَ رأس الافتقار، مخاطباً بلسان المقرّ والاضطرار، ملقياً عن ظهرك حملَ السيئات والأوزار، مقنَّعاً بقناع الرجاء والندم والاستغفار: إن لم تغفر لي فمَنْ يغفر لي، إن لم تَتُبْ عليّ فمن يتوب علي؟ إن لم ترحمني فمن يرحمني إذا غضبتَ عليّ؟ ومَنْ يأويني إذا أعرضْتَ عني؟ أنتَ العزيزُ، وأنا الذليلُ؛ أنتَ الغنيُّ وأنا الفقير، وأنْتَ القويُّ وأنا الضعيف، وعزَّتِك ما يزيد في خزانتك ما منعتني، ولا ينقص منها ما أَعطيتني، إن تعفُ عني فأنْتَ أهلٌ لذلك، وإن تعاقِبْني فبِمَا قدمت يدايَ، وما أنت بظلام للعبيد. فيا أكرم مَنْ أُقِرّ له بذنب، ويا أعزّ مَنْ خُضِع له بذل، بكرمك أقررتُ لكَ بذنوبي، بعزّتك خضعْتُ لك بذُلّي، فلك الْمـنّة عليّ يا مَنْ قلّ له شكري فلم يحرمني، ويا مَنْ قل له صَبْري فلم يَخْذلني، ويا من تقويت بنعمته على المعاصي فلم يعاقبني، ويا مَنْ رآني على الخطايا فلم يَفْضَحْني؛ أَقِلْ عثرتي بِجَاهِ نبيك الكريم عليك صلّى الله عليه وسلم.

﴿وقِيْلِه يارَبِّ إنَّ هؤلاء قَوْمٌ لا يُؤْمنون﴾ [الزخرف: ٨٨]: هذا الضمير عائد عليه ﷺ. وقرىء بالخفض والنصب في السبع؛ فأما الخفضُ فهو معطوف على لفظ ﴿الساعة﴾ [الزخرف: ٨٥]؛ ويحتمل أن يكون معطوفاً على قوله ﴿بالحق﴾ [الزخرف: ٨٦]. وأمـا النصـب فهـو معطـوف على: ﴿سِـرَّهـم ونجْوَاهم﴾ [الزخرف: ٨٠]. وقيل هو معطوف على موضع الساعة، لأنها مفعول أُضيف إلى المصدر. وقيل معطوف على مفعول: ﴿يكتبون﴾ [الزخرف: ٨٠] وهو محذوف تقديرُه يكتبون أقوالهم، وقيله. وقرىء في غير السبع بالرفـع على أنه مبتدأ وخبره ما بعده. وضَعّفَ الزمخشري ذلك كلّه، وقال: إنه من باب القسم؛ فالنصبُ والخفض على إضمار حرف القسم، كقولك: الله لأضربنَّ زيداً، أو الرفع كقولهم: أيمن الله، ولعمْرُك، وجواب القسم قوله: ﴿إنَّ هؤلاء قومٌ لا

يؤمنون﴾ [الزخرف: ٨٨]، كأنه قال: اقسم بقيله يارب إنَّ هؤلاء قوم لا يؤمنون.

﴿وفي السماءِ رِزْقُكم وما توعَدُون﴾ [الذاريات: ٢٢] أي من الوعد أو الوعيد، أو الجنة أو النار. أو الخير أو الشر. قال ابن عباس: لا أعلم في السماء رِزْقاً غير المطر، وهو كذلك، لأن المطر أصلٌ للرزق، والماء الذي في الأرض منه، فلو انقطع المطر انقطع الرزْقُ.

﴿وفي أموالهم﴾: معطوف على قوله: ﴿في جنات﴾ [الذاريات: ١٥]، أو على ﴿آتاهُمْ رَبُّهم﴾ [الذاريات: ١٦]، أو تكون الواو للحال.

﴿وأنّ سَعْيَهُ سوفَ يُرَى﴾ [النجم: ٤٠] ـ بالبناء للمفعول، فعلى هذا يراه الْخَلْقُ يوم القيامة، أو يراه صاحبُه الذي فعله؛ وهو الأصح، لأن الله يضَع ستره عليه حين قراءته، لقوله بعد ذلك: ﴿ثم يُجْزَاهُ الجزاءَ الأَوْفى﴾ [النجم: ٤١].

﴿وَرْدَةً كالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] ذكر الجواليقي أنها غير عربية. ومعناه أحمر كالوردة، وقيل هو من الفرس الورد.

﴿ولِمَنْ خافَ مقامَ رَبِّه جنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ أي القيام بين يديه للحساب. ومنه: ﴿يَوْمَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين﴾ [المطففين: ٦]. وقيل قيامُ اللهِ بأعماله، ومنه: ﴿أفَمَنْ هو قائِمٌ على كل نَفْسٍ بما كسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. وأفهم المقام، كقولك: خفْتُ جانبَ فلان. واختلف هل الجنّتان لكل خائف على انفراد، أو لصنف الخائفين، وذلك مبنيٌّ على قوله: لمنْ خاف؛ هل يُراد به واحدٌ أو جماعة؟ وقال الزمخشري: إنما قال جنتان لأنه خطاب الثَّقَلَيْن، فكأنه قال جنة للإنس وجنّة للجن، والأَظهر هنا قول الصوفية: إنها جنَّة معجلة وهي التلذّذ بمناجاتهم مع مولاهم، وهي ألذّ عندهم من كل نعيم، وجنة مؤجّلة وهي المعلومة.

فإن قلت: ما معنى الحديث: إذا مات المؤمن أُعطي نصف الجنة؟ وهل هو موافق للآية؟

والجواب معناه نصف جنّته المدَّخرة له، فيفتح له في قبره مِنْ ريحها ونعيمها، والتلذّذ برؤيتها. وقد وافق الآية، ولا مضادة بينهما، وقد وصف الله الجِنَان في الواقعة، والرحمن، وهل أتاك حديث الغاشية، وهل أتى على الإنسان، وبَيَّن ذلك سيدنا ومولانا محمد ﷺ أَوْضَح بيان. قال ابن عباس ترجمان القرآن: الجنات سبع: دار الجلال، ودار السلام، وجنة عَدن، وجنة المأوى، وجنة الْخُلد، وجنة الفِرْدوس، وجنة النعيم.

وفي بعض الروايات ثمان. وذكر دار القرار.

وقيل الجنان أربع، لأنه ذكر أوّلاً جنتان، ثم قال بعد: ﴿ومِنْ دُونِهما جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]. ولم يذكر جنةً خامسة.

فإن قلت: قد قال تعالى: ﴿عندها جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: ١٥].

والجواب: أنَّ جنة المأوى اسم لجميع الجِنَان، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فلهم جَنَّاتُ الْمَأْوى نُـزُلاً بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٩].

والجنة اسم الجنس، فمرة يقال جنة، ومرة يقال جنات، فكذلك جنات عَدن، وجنة عدن.

﴿وقعت الواقِعَة﴾ [الواقِعة: ١]: اسم من أسماء القيامة، وقد قدمنا جملة أساميها، وهي الواقعة، الصيحة، وهي النفخة في الصور، وقيل الواقعة صخرة بيت المقدس تقعُ يومَ القيامة، وهذا بعيد.

﴿وما نحن بمَسْبُوقِين. على أَنْ نُبَدِّلَ أَمثالَكم﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] هو المغلوب عليه بحيث لا يقدر عليه. ونبدّل أمثالَكم معناه نهلككم ونستبدل قومـاً غيركم. وقيل نمسخكم قردة وخنازير.

﴿ونُنْشِئَكُم﴾ [الواقعة: ٦١]: معناه نبعثكم بعد هلاكِكم. ﴿في مَالاَ تَعْلمون﴾ [الواقعة: ٦١]، أي في خِلْقة لا تعلمونها على وَجْهٍ لا تصلُ عقولكم إلى فَهْمه. ومعنى الآية أن الله قادر على بَعْثهم بعد هلاكهم؛ ففيها تهديد واحتجاج على البعث.

﴿وكلاً وَعَد الله الحُسْنى﴾ [الحديد : ١٠] : أي كل واحد من الطائفتيْن الذين أَنْفَقُوا وقاتلوا قَبْل الفتح وبعده.

﴿وغَرَّتْكم الأمانِيُّ﴾ [الحديد : ١٤]. الإشارةُ إلى الكفار والمنافقين، وذلك أنهم كانوا يتمنَّوْنَ وفاةَ النبي ﷺ وأصحابه، أو هزيمتهم، إلى غير ذلك من الأمانيّ الكاذبة.

﴿وَلاَ يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قَبْلُ...﴾ [الحديد : ١٦] الآية: معطوفة على ﴿أن تخْشع﴾ [الحديد : ١٦]. ويحتمل أن يكون نَهْياً. والمرادُ بها تحذيرُ المؤمنين من أن يكونوا كالمتقدمين من اليهود والنصارى في طول أملهم وقسوة قلوبهم. وقد وقعنا فيما حذِّرنا منه، فلا يخفاك ذلك، وإن طول الأمل يُقَسّي القلب، ويُبْعد عن الآخرة، ويكثر الحرص، ويقلُّ القناعة، وهذه موجودة فينا ظاهراً وباطناً. قال ﷺ: «لتتبعنَّ سُنَن مَنْ قبلكم شِبْراً بشِبْرٍ وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لاتَّبعتموهم». وهل هذا كلّه إلا مِنْ خلطتهم والتقرب منهم، لأن المرء على دِين خَليله. وانظر حكاية المحمدي في زمان معاوية لما أن ألْقَتِ الريح مركبهم في جزيرة من جزائر... نزلوا في البر، فأتى ملكهم وعليه كساء ملبَّد ورجلاهُ حافيتان عاري الرأس، فنزل معهم، وقال: ما لكم أيها العرب تطَئُون القمح والشعير تحت أقدامكم، وتغلفون سيوفكم بالذهب والفضة، وتتزيّون بزي اليهود والنصارى في أواني الذهب والفضة؟ فقال أحدهم: هذا كله من مخالطتهم. فقال: اذهبوا عني لئلا يصيبني ما أصابكم، وزوّدَهم وأمرهم بالانصراف. فقال له أحدهم: أنْتَ ملك هذه الجزيرة، وأنت على هذه الهيئة؟ فقال: يحقُّ لمن رفعه الله بالنعمة أن يَزْدَاد تواضُعاً، وإني قد ملكني اللهُ أَهْلَ هذه الجزيرة فيحقُّ لي ألاّ أتكبّر عليهم، ثم انصرف عنهم وتركهم.

﴿وإذا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بما لم يُحَيِّكَ به الله﴾ [المجادلة : ٨] : ضمير الجمع

يعود على اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يحيّونه بقولهم: السامُ عليك يا محمد. فيرد عليهم بعليكم.

﴿ويقولون في أنفسهم لولا يُعَذِّبُنَا الله بما نَقول﴾ [المجادلة: ٨]: يعني قولهم: لو كان نبياً لعذَّبَنَا الله بإذايته، فقال الله: ﴿حَسْبُهم جهنّم يَصْلَوْنها، فبئْسَ الْمَصير﴾ [المجادلة: ٨].

﴿ولا نُطِيع فيكم أحداً أبداً﴾ [الحشر: ١١]؛ أي لا نسمع فيكم قول قائل، ولا نطيع من يَأْمرنا بخذْلاَنكم، ثم كذَّبهم الله في هذه المواعد التي وعدوا بها.

فإن قلت: كيف قال: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهم لَيُوَلُّنّ الأدبارَ﴾ [الحشر: ١٢] - بعد قوله: ﴿لا يَنْصرونَهمْ﴾ [الحشر: ١٢].

والجواب: يعني على الفرض والتقدير؛ أي لو فرضنا أن ينصروهم لوَلّوا الأدبار.

﴿وأحْصُوا العِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]: أمر بذلك لما يَنْبَني عليها من الأحكام في الرجعة والسكنى والميراث وغير ذلك.

﴿وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْل منكم﴾ [الطلاق: ٢]: هذا خطابٌ للأزواج، والإشهادُ المأمور به هو على الرجعةِ عند الجمهور وقد اختلف فيه: هل هو واجب أو مستحبّ على قولين في المذهب. وقال ابن عباس: هو الشهادة على الطلاق وعلى الرجعة؛ وذلك أظهر؛ لأن الإشهادَ يرفع الإشكال والنزاع، ولا فَرْق في هذا بين الرّجْعَة والطلاق. ويفْهم من الآية أنه لا يشهد إلا من المسلمين والرجال. وقيل من الأحرار، فيؤخذ من ذلك ردُّ شهادة العبيد.

﴿وأقيموا الشهادةَ لله﴾ [الطلاق: ٢]: يحتمل أن يريدَ به القيام بها، فإذا استُشْهد وجب عليه أنْ يَشهد، وهو فَرْض كفايةٍ، وإلى هذا المعنى أشار ابن الفرس. ويحتمل أن يريد إقامتها بالحق دون مَيْل ولا غَرض، وبهذا فسره

الزمخشري، وهو أظهر؛ لقوله: ﴿لله﴾، فهو كقوله: ﴿كونوا قَوَّامِين بالقِسْطِ شهَداء لله﴾ [النساء: ١٣٥].

واختلف في أخذ الأجرة عليها وعلى كتب الوثائق. والمشهور عدم الجواز، أما من انتصب لها وترك التسبّب المعتاد لأجلها فجائز له أَخْذ الأجرة عليها، وإلا لم يجد الإنسانُ مَنْ يشهد له بيسير، وأخذها ممن يحسن كتب الوثيقة كتاباً وعبارة على كتبه وشهادته لا يخْتَلف فيه ويكون له أَخْذ الأجرة بما اتَّفقا عليه مِن قبل.

وروي أن بعض الشيوخ أهدى له صِهْرُه أبو زوجته الفقيه أبو علي بن القداح لبناً فشَربه، ثم اجتمع به بعد ساعة من شربه فتحدَّثا، فأخبره صِهْرُه أنّ ذلك اللبن أَهداه له فلان بعضُ الشهود الذين يأخذون الأجْر في شهادتهم، فقام وقاء ذلك اللبن، هكذا كانت حالهم رضي الله عنهم، ونحن على الضدّ منهم، فأين حالنا من حالهم، نأخذ على كتب الوثائق ما لا يجوز، ونَدّعي أنه أجرة على الكتب، وهل هذا إلا مِن تحليل ما حرَّم الله؛ ورضي الله عن الشيخ الأجـلِّ أبي القاسم حيث قال: لأن تغزو على بلاد المسلمين، وتأخذ متاعهم ورقابهم وتبيعه خير من أخذ الأجرة على كتب الشهادة. وصدق لأن الغازي يعتقد التحريم فتجد قَلْبَه منكسراً، والله عند المنكسرة قلوبهم، والكاتب يدَّعي أنه حقّه، فصاحبُ المكس أفضل منه لما ذكرناه، فبالله أيها الأخ تعال نَنْدب على أنفسنا فيما وقع منا لعلنا تهبُّ علينا نفحات القبول، والله المعين على ما نقول.

﴿ويُدْعَوْن إلى السُّجُودِ﴾ [القلم: ٤٢]: قد قدمنا تفسيره.

﴿واهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]؛ أي مسترخية ساقطة القوة، ومنه قولهم: دار واهية، أي ضعيفة الْجُدْران.

﴿وَتِيـن﴾ [الحاقة: ٤٦] عِرْق متعلق بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

﴿وبيلا﴾ [المزمل: ١٦]: مفعول به، وناصِبُهُ ﴿تتقون﴾ [المزمل: ١٧]؛ أي كيف تتقون يوم القيامة وأهوالَـه إنْ كفرتُم. وقيل هو مفعول به على أن

يكون كفرتم بمعنى جحدتم. وقيل هو ظرف؛ أي كيف لكم بالتقوى يوم القيامة. ويحتمل أن يكون العاملُ فيه محذوفاً تقديره: اذكروا. وقوله: ﴿السماءُ منفطر به﴾ [المزمل: ١٨]؛ أي اليوم الذي تنفطر السماءُ بشدة هَوْلِه، ويحتمل أَنْ يعودَ على الله؛ أي تنفطر بأَمره وقُدْرته. والأول أظهر. والسماءُ مؤنثة، وجاء ﴿منفطر﴾ بالتذكير، لأن تأنيثها غير حقيقي أو على الإضافة.

﴿وَزَر﴾ [القيامة: ١١]: ملجأ، بالنبطية.

﴿وهَّاجاً﴾ [النبأ: ١٣]: وقاداً شديد الإضاءة. وقيل الحار الذي يضطرم من شدَّةِ لهبه.

﴿واجفة﴾ [النازعات: ٨]: شديدة الاضطراب. والوَجيف والوَجيب بمعنى واحد. وارتفع ﴿قلوب﴾ [النازعات: ٨] بالابتداء وواجفة خبره. وقال الزمخشري: واجفة صفة والخبر «أبصارها خاشعة».

﴿وأذِنَتْ لربِّها وحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٥]: هذه الآية مُخْبرة أنّ السموات في انقيادها لله حين يريدُ انشقاقَها تفعلُ فعْلَ الْمِطْوَاع الذي إذا ورد عليه الأمرُ من جهة المطاع أَنْصَتَ له وأذْعَن ولم يمتنع؛ كقوله: ﴿أتَيْنا طائعين﴾ [فصلت: ١١]؛ فجميعُ المخلوقات منقادَةٌ لخالقها إلا نحن؛ قال تعالى: أوحيت إلى البحر أن انفلق لموسى، فبات يضطرب من خَوْفي تلك الليلة، وأنتم خاطبْتُكم بكلامي وأمرتُكم بأَوامري فلم تمتثلوا، قلوبُكم كالحجارة أو أشدّ قسوة.

فإن قلت: ما فائدة تكرير هذه الآية في هذه السورة؟

فالجواب: أنّ كلَّ واحد من الإخبارَيْن معقباته غير ما أخبر به الآخر؛ فالأول إخبار عن السماء في طاعتها وانقيادِها، والآخر إخبار عن الأرض بمثل ذلك، وأنّ كلّ واحدة منها سمعَتْ وانقادت فانفطرت السماءُ وتشقّقت، وانتشرت نجومها، وانقادت وأُزيلت الجبالُ عن الأرض فامتدَّتْ وألقَتْ ما تحمله من الأموات، وغير ذلك مما استودعته من المعادن والكنوز، وتخلّتْ عنها

سامعةً مطيعة، وإن كان الإخبار الأول عن السماء والآخر عن الأرض فلا تكرار.

﴿والليلِ وما وَسَق﴾ [الانشقاق: ١٧]: أقسم اللهُ بالليل وما جمع فيه لأنه يضمُّ الأشياء ويسترها بظلامه. ومنه الوَسْق.

﴿والقمر إذا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٨]؛ أي امتلأ نوره، مشتق من الوَسْق.

﴿وَيَتَجَنَّبُها الأشْقَى. الذي يَصْلَى النارَ الكُبْرى﴾ [الأعلى: ١١، ١٢]: الضمير عائد على النار، يعني أنّ من تنفعه الذكرى وتُؤَثّر فيه لا تحرقه النار الكبرى، وسماها بذلك بالنظر إلى نار الدنيا وقيل بالنظر إلى غيرها من نار جهنم، فإنها تتفاضَلُ بالنظر إلى مَنْ فيها، وكِلاَ القولين صحيح، إلا أن الأَوَّل أظهر للحديث: ناركم هذه التي تُوقد جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم. ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة، أو عُتبة بن ربيعة، وضمير المفعول للذكرى.

﴿والفَجْرِ. وليالٍ عَشْر﴾ [الفجر: ١، ٢]: أقسم اللهُ بهذه المخلوقات، وقد أكثر علماؤنا رضي الله عنهم الأقوالَ فيها؛ فقيل: إن الفجر الصبح، وقيل بانفجار الماء من أصابع نبينا ومولانا محمد ﷺ، وقيل بانفجار الصخرة، وإخراج الناقةِ لقوم صالح، وقيل بانفجار دموع العاصين، وقيل بانفجار الموتى من القبور، وقيل بانفجار الملائكة من السماء في قوله: ﴿يَوْم تَشَقَّقُ السماءُ بالغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥] وقيل بانفجار المعرفة من قلوب المطيعين، لقوله: ﴿أفَمَنْ شَرحَ اللهُ صَدْرَه للإسْلاَم﴾ [الزمر: ٢٢]، وانفجار المعصية من قلوب العاصين، لقوله تعالى: ﴿يجْعَل صَدْرَه ضَيِّقاً حَرَجاً كأَنَّمَا يصَّعَّدُ في السماء﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وكذلك الليالي العشر؛ قيل: هي الليالي العشر من أول ذي الحجة، وقيل أوائل المحرم، وقيل أوائل رمضان، وقيل العشر المذكورة في قوله تعالى: ﴿وأتممناها بعَشْر﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وقيل بالعشر الآيات

المذكورة في قوله تعالى: ﴿فأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مثله مُفْتَرِيات﴾ [هود: ١٣].
وهذا بعيد لعدم دخول الليالي فيها.

﴿تواصَوْا بالصَّبْرِ وتواصَوْا بالْمَرْحمة﴾ [البلد: ١٧]؛ أي وصى بعضُهم بعضاً بالصبر على قضاء الله ورحمة المساكين وغيرهم من المخلوقات. وفي هذه الآية إشارةٌ إلى صبر المسلمين على إذايةِ الكفار؛ وعلى هذا فهي منسوخة بآية السيف. والظاهرُ أنها عامةٌ بالتحذير من الانزعاج والصبر على مَنْ أوذي من المسلمين، ورحمتهم بالدعاء لهم بالهداية والتوفيق.

﴿والشمس وضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]: بالفتح والمد ارتفاع الضوء وكماله إلى الزوال، وقيل الضحى النهار كلّه، والأول هو المعروف في اللغة.

﴿والقمر إذا تلاَهَا﴾ [الشمس: ٢]؛ أي تبعها، والضمير للشمس، واتباعه لها بكثرة ضَوْئه، لأنه أَضوأ الكواكب بعد الشمس ولا سيما ليلة البدر، أو يتبعها في طلوعه؛ لأنه يطلع بعد غروبها، وذلك في النصف الأول من الشهر، أو يتبعها في أخذه من نورها؛ لقوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمَحَوْنَا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهار مُبْصِرَةَ﴾ [الإسراء: ١٢]. وقد صح أن جبريل مسحها فأذهب بَعْضَ ضوئِها، وبهذا احتجت الشمس بتفضيلها على القمر.

﴿والنهارِ إذا جَلاَّها﴾ [الشمس: ٣]؛ أي كشفها وأَظهرها، وضميرُ المفعول للشمس، وضمير الفاعل للنهار؛ لأن الشمس تنجلي بالنهار، فكأنه هو جَلاّها. وقيل ضمير الفاعل لله. وقيل: الضمير المفعول للظلمة أو للأرض أو للدنيا، وهذا كله بعيد، لأنه لم يتقدم ما يعودُ الضمير إليه.

فإن قلت: النصب في إذا مُعْضل، لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواوات عاطفة فتنصب بها فتخير في العطف على عاملين، وفي نحو مررت أمس بزيد واليوم عمرو. وإما أن تجعلهن للقسم، فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه؟

والجواب فيه: أنَّ واو القسم مطرح معها إبراز الفعل اطراحاً كلّياً، فكان لها

شأن حيث أبرز معها الفعل، وأضمر، فكانت الواو قائمة مقام الفعل، والباء سادّة مسدّهما جميعاً، والواوات العواطف نوائِب عن هذه الواو، فحقيقته: أن تكون عوامل على الفعل والجار جميعاً، كما تقول: ضرب زيد عمراً وبكر خالداً، فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقامَ ضرب الذي هو عاملها.

﴿والتين والزيتون وطُورِ سِينين﴾ [التين: ١، ٢]: هذا من إضافة الموصوف إلى الصفة. وقال الزمخشري: يجوز أن يعرب إعرابَ الجمع المذكر بالواو والياء، وأن يلزم الياء ويحرك النون بحركات الإعراب، وهذه أقسام؛ أقسم اللهُ بالتين والزيتون وبجبل الطور الذي كلَّم عليه موسى. والبلد الأمين؛ من الأمانة أو الأمن، لقوله: ﴿اجْعَلْ هذا بلداً آمِناً﴾ [البقرة: ١٢٦]. وقد استجاب الله دُعَاءه فجعله آمِناً من كل شيء، لقوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنّا جعلنا حَرماً آمِناً ويُتخطّفُ الناسُ من حولهم﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿واسجُدْ واقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]. أي تقرَّبْ إلى الله بالسجود، وهذه الآية موضعُ سجدةٍ عندنا خلافاً لمالك.

﴿والعادياتِ ضَبْحاً﴾ [العاديات، ١]: اختلف في العاديات والْمُوريات والمغيرات؛ هل يرادُ بها الخيل؟ وعلى هذا فهل هي خيل الْمُجاهدين أقسم اللهُ بها، أو الخيل على الإطلاق. وعلى القول بأنها الإبل اختلف هل هي إبل غَزْوة بدر، أو إبل المجاهدين مطلقاً، أو إبل الحاج، أو الإبل على الإطلاق. ومعنى العاديات التي تعدو في مَشْيها.

والضَّبْح: هو تصويت جَهير عند العَدْوِ الشديد ليس بصَهيل، وهو مصدر منصوب على تقدير: يضبحن ضَبْحاً، أو هو مصدر في موضع الحال، تقديره العاديات في حال ضَبْحها. والمورِيات من قولك: أوريت النارَ، إذا أوقدتها. وقد قدمنا أن القدح صكُّ الحجارة فيخرج منها شعلة نار، وذلك عند ضَرْب الأرض بأرجل الخيل أو الإبل. وإعراب قَدْحاً كإعراب ضبحاً. والمغيرات من قولك: أغارت الخيل إذا خرجت للإغارة على أعدائها.

و﴿صُبْحاً﴾ [العاديات: ٣]: ظرف زمان، لأن عادةَ أهل الغارة في الأكثر أَنْ يخرجوا في الصباح.

﴿وَسَطْنَ به جَمْعاً﴾ [العاديات: ٥]؛ أي توسطن. واختلف هل المراد بالْجَمْع جَمْعُ الناس، أو المزدلفة؛ لأن اسمها جَمْع. والضمير المجرور للوقت، أو للمكان، أو للعدو، أو للنقع. وقد قدمنا معناه في حرف النون.

﴿وإنه على ذٰلك لَشَهيد﴾ [العاديات: ٧]: معطوف على الإنسان، يعني هو شهيد على نفسه بكنوده. وقيل: هو الله تعالى، على معنى التهديد.

والأَولُ أَرجح؛ لأنَّ الضمير الذي بعده للإنسان باتفاق، فيجري الكلام على نَسَقٍ واحد.

﴿وإنه لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشديد﴾ [العاديات: ٨]: المعنى إنَّ الإنسان شديدُ الحبّ للمال، فهو ذَمٌّ لحبّه والحضّ عليه. وقيل الشديد البخيل. والمعنى على هذا إنه لبخيل لأجل حبِّ المال. والأول أظهر.

﴿وحُصِّل ما في الصدور﴾ [العاديات: ١٠]؛ أي جمع في الصحف وأُظهر محصّلاً، أو ميّز خَيْرُهُ من شرِّهِ.

﴿وآمَنَهُمْ من خَوْف﴾ [قريش: ٤]؛ أي من خوف أصحاب الفيل، أو آمنَهم في بلدهم، أو في أسفارهم؛ لأنهم كانوا في رحلتهم آمنين لا يتعرَّضُ لهم أحَد بسوءٍ لبركة البيت، ويطلب منهم الدعاء لمجاورتهم له، وكان غيرهم تُؤخذ أموالهم وأنفسهم.

وقيل آمَنَهمُ من الجُذَام والطاعون والدجال. قال الزمخشري: التنكير في جوع وخوفٍ لشدتها، ولا ترى مجذوماً بمكة.

﴿وُسْعَها﴾ [البقرة: ٢٣٣ ، ٢٨٦]، بضم الواو: طاقتها، وهذا إخبار من الله أنه لا يكلِّفُ النفسَ إلا طاقتها؛ ورفع تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً عند الأشعرية محال عقلاً عند المعتزلة، واتفقوا على أنه لم يقَعْ في الشريعة.

﴿والْمُوسِعِ﴾ [البقرة: ٢٣٦]: الغني؛ أي واسع الحال، وهو ضد المقتر، ﴿وإنّا لَمُوسِعون﴾ [الذاريات: ٤٧]: قيل أغنياء، وقيل قادرون.

﴿وَارَى﴾ يُواري؛ أي ستر. ومنه: ﴿يُـوَارِي سَـوْءَة أخيـه﴾ [المائـدة: ٣١].

و ﴿ما وُورِيَ عنهما من سَوْءَاتِهِما﴾ [الأعراف: ٢٠] وتـوارّى، أي استتر واستخفى.

﴿وَعَى﴾ العلم يعني حفظه ومنه: ﴿وتَعِيَها أُذُنٌ وَاعِيةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]. قال ﷺ لما نزلت: اللهم اجعلها أُذُنَ عليّ، فاستجاب الله له، وجعله البابَ لمدينة العلم، كما قال ﷺ: «أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابها». هذا ما خُصَّ به من الفضائل، وقد شهد الله في كتابه بإبراهيم في قوله: ﴿وإبراهيم الذي وَفّى﴾ [النجم: ٣٧]، وقال فيه: ﴿يوفونَ بالنّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧] وبالخوف بالملائكة: ﴿يخافون ربّهم من فوقهم﴾ [النحل: ٥٠].

وقال فيه: ﴿ويخافون يوماً كان شَـرُّهُ مستطيراً﴾ [الإنسان: ٧]. وبالصبر بأيوب: ﴿إنّا وجَدْناه صابراً﴾ [ص: ٤٤]. وقال: ﴿وجَزَاهم بما صَبَروا جنّةً وحَرِيراً﴾ [الإنسـان: ١٢]. وذكـر الله أنـه يطعـم ولا يطعـم، وقـال فيـه: ﴿ويطعمون الطعامَ على حبِّه﴾ [الإنسان: ٨]. ولما نزلت: ﴿يا أيها الذين آمَنوا إذا ناجَيْتم الرسولَ فقدِّموا بين يدي نَجْوَاكم صدقة﴾ [المجادلة: ١٢] قال علي: كانت لي عشرة دراهم فتصدقت بها، وسألت النبي ﷺ عـن عشر كلمات، ولم يعمل بهذه الآية غيري، ورفق الله بالأمة. قلت: يا رسول الله، كيـف أدعـو؟ قال: بالصدق والوفاء. قلت: ما أسأل الله؟ قال: العافية في الدارين. قلت: ما أصنع لنجاتي؟ قال: كلْ حلالاً وقلْ صدقاً. قلت: فما الحيلة؟ قال: تَرك الحيلة. قلت: فما أمر الله ورسوله؟ قال: الحق. قلت: فما الحقّ؟ قال: الإسلام والقرآن وولاية من انتهى إليك. قلت: فأين الراحة؟ قال: في الجنة. قلت: فما السرور؟ قال: الرؤية. قلت: فما العبودية؟ قال: إظهار الوفاء. قلت: فما الوفاء؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله.

وأما أوعى بالألف يُوعي فجَمْعُ المال في وعاءٍ، ومنه: ﴿وجمع فأوْعَى﴾ [المعارج: ١٨].

﴿وجْـدِكُـم﴾ [الطلاق: ٦]، بضم الواو وفتحهـا: سعيكـم، والضمُّ أكثر وأشهر، وبكسر الواو لكنه قليل، ومعناه أَسْكنوا المرأة مسكناً تقدرون عليه. وإعرابه عطف بيان، لقوله: ﴿حيث سكنْتم﴾ [الطلاق: ٦] وقعت بالواو والألف بمعنى جمعت لوقتٍ، وهو يوم القيامة.

﴿وَجْه﴾: قد قدمنا تقسيم الوجه على أوجه، ووجه الله طلَب رضاه، وقدمنا أنه من المتشابه، ويراد به الجهة، ومنه: وجهة ترضاها [البقرة: ١٤٤]، ولم تحذف الواو لأنه ظرف مكان وقيل إنه مصدر ثبتت فيه الواو على غير قياس.

﴿وِرْداً﴾ [مريم: ٨٦]: مصدر: عطاشاً، لأن مَنْ يرد الماء لا يرده إلا لعطش.

﴿وِزْر﴾، بكسر الواو وإسكان الزاي له معنيان: الذنب، ومنه: ﴿لا تَزِرُ وازِرَة وِزر أُخرى﴾ [الأنعام: ١٦٤]. والحمل الأصل، ومنه: ﴿أَوْزَاراً مِنْ زينَةِ القَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]، أي أحمالاً.

﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدون﴾ [الواقعة: ١٧]: الولدان صغار الخدم. وقد قدمنا أن «المخلدون» الذين لا يموتون أو المقلّدون بالخَلَدات، وهي ضربٌ من الأقراط. وقد ورد في الحديث: إن الولـدان يطوفُون على أهل الجنة بكأس من مَعين، وهو الإناء الواسع الفَم الذي ليس له مقْبض سواء كان فيه خمر أم لا.

﴿الواو﴾: جارة وناصبة وغير عاملة:

فالجارةُ واو القسم، نحو: ﴿والله رَبِّنا ما كنّا مُشْركين﴾ [الأنعام: ٢٣].

والناصبة واو ﴿مع﴾ فتنصب المفعول معه في رأي قوم، نحو: ﴿فأجْمِعُـوا أَمْرَكُم وشركاءَكم﴾ [يونس: ٧١]. ولا ثاني له في القرآن. والمضارعَ في جواب النفي أو الطلب عند الكوفيين، نحو: ﴿ولَمَّا يَعْلم الله الذين جاهدُوا منكم ويَعْلَم

الصابرين﴾ [آل عمران: ١٤٢]. ﴿يا لَيْتَنا نردُّ ولا نكذِّبَ بآياتِ رَبِّنا ونكونَ من المؤمنين﴾ [الأنعام: ٢٧].

وواو الصرف عندهم، ومعناها أنَّ الفعل كان يقتضي إعراباً فصرفته عنه إلى النصب، نحو: ﴿أتَجْعَلُ فيها مَنْ يفسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدماءَ﴾ [البقرة: ٣٠] - في قراءة غير النصب.

وغير العاملة أنواع: واو العطف، وهي لمطلق الجمع، فتعطف الشيء على مصاحبه، نحو: ﴿فأنْجَيْنَاه وأصحابَ السفينةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وعلى سابقه، نحو: ﴿أرسَلنَا نوحاً وإبراهيم﴾ [الحديد: ٢٦]. ولاحقه، نحو: ﴿يُوحِي إليكَ وإلى الذينَ من قَبْلك﴾ [الشورى: ٣].

وتفارقُ سائر حروف العطف في اقترانها بإما، نحو: ﴿إمَّا شاكراً وإمّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣]. وبلا بعد نفي، نحو: ﴿وما أمْوَالكم ولا أولادكم بالتي تقَرِّبكم عندنا زلفى﴾ [سبأ: ٣٧]. و﴿لكن﴾، نحو: ﴿ولَكِنْ رسولَ الله وخاتم النبيين﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وتعطف العقد على النيِّف، والخاص على العام، وعكسه؛ نحو: ﴿وملائكَتِه ورُسله وجبريل﴾ [البقرة: ٩٨]. ﴿رب اغْفِر لي ولوَالِدَيّ ولمن دخل بَيْتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾ [نوح: ٢٨].

والشيء على مرادفه؛ نحو: ﴿صلواتٌ مِنْ ربهم ورَحْمة﴾ [البقرة: ١٥٧]. ﴿إنما أَشْكو بَثّي وحُزْني إلى الله﴾ [يوسف: ٨٦]. والمجرور على الجوار؛ نحو: ﴿برُؤوسكم وأرجلَكم﴾ [المائدة: ٦].

وقيل: وترد بمعنى أو، وحمل عليه مالك: ﴿إنما الصدقَاتُ للفقراء والمساكين...﴾ [التوبة: ٦٠] الآية. وللتعليل، وحمل عليه الخوارزمي الواو الداخلة على الأفعال المنصوبة.

ثانيها: واو الاستئناف؛ نحو: ﴿ثم قَضَى أجلاً وأجَلٌ مسمًّى عنده﴾ [الأنعام: ٢]، ﴿ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

﴿واتَّقوا الله ويعَلّمُكم الله﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ﴿مَنْ يضْلِلِ الله فلا هادِيَ له ويَذَرُهم﴾ [الأعراف: ١٨٦] - بالرفع؛ إذ لو كانت عاطفة لنصب ونقر. ولجزم ما بعده ونصب ﴿أجل﴾.

ثالثها: واو الحال الداخلة على الجملة الاسمية، نحو: ﴿ونحن نسبحُ بحمْدِك﴾ [البقرة: ٣٠]. ﴿يَغْشَى طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمَّتْهم أنْفسهم﴾ [آل عمران: ١٥٤]. ﴿لئِنْ أكَلَهُ الذِّئْب ونحن عصبة﴾ [يوسف: ١٤].

وزعم الزمخشري أنها تدخل على الجملة الواقعة صفة، لتأكيد ثبوت الصفة للموصوف، ولصوقها به، كما تدخل على الحالية، وجعل من ذلك: ﴿ويقولون سبعة وثامِنهم كَلْبهم﴾ [الكهف: ٢٢].

رابعها: واو الثمانية، ذكرها جماعة كالحريري وابن خالويه والثعلبي، وزعموا أن العرب إذا عدُّوا يدخلون الواو بعد السبعة إيذاناً بأنها عددٌ تام، وأنّ ما بعده مستأنف، وجعلوا من ذلك قوله: ﴿سيقولون ثلاثة رابِعهم كَلْبهم، ويقولون خمسة سادسهم كَلْبهم، رَجْماً بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كَلْبهم﴾ [الكهف: ٢٢]. وقوله: ﴿التائِبونَ العابِدون...﴾ [التوبة: ١١٢] إلى قوله: ﴿والناهون عن المنكر﴾؛ لأنه الوصف الثامن. وقوله: ﴿مسلماتٍ...﴾ [التحريم: ٥] إلى قوله: ﴿وأبكاراً﴾. والصواب عدم ثبوتها، وأنها في الجميع للعطف.

خامسها: الزائِدة، وخرج عليه واحدةٌ في قوله: ﴿وتَلَّهُ لِلْجَبين. ونَادَيْنَاه﴾ [الصافات: ١٠٣، ١٠٤].

سادسها: واو ضمير الذكور في اسم أو فعل؛ نحو: ﴿المؤمنون﴾. ﴿وإذا سمِعوا اللَّغْوَ أعرضوا عَنْه﴾ [القصص: ٥٥]. ﴿قل لعبادي الذين آمَنوا يقيموا الصَّلاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١].

سابعها: واو علامة الذكرين في لغة طيّ، وخُرّج عليه: ﴿وأَسَرُّوا النّجْوَى

الذين ظَلَموا﴾ [الأنبياء : ٣]. ﴿ثم عَموا وصَمُّوا كَثِيرٌ منهم﴾ [المائدة : ٧١].

ثامنها : الواو المبدلة من همزة الاستفهام المضموم ما قبلها ، كقراءة قنبل : « وإليه النُّشُور وأَمِنتم » [الملك : ١٥]. ﴿قال فرعون وآمنتم به﴾ [الأعراف : ١٢٣].

﴿وَيْكَأَنَّ﴾ : قال الكسائي : كلمة تندُّم وتعجُّب ، وأصله وَيْلك ، فالكاف ضمير مجرور. وقال الأخفش : وَيْ اسم فعل بمعنى أعجَب ، والكاف حرف خطاب ، وِأنَّ على إضمار اللام : والمعنى أعجب لأن الله. وقال الخليل : وَيْ وحدها ، وكأن كلمة مستقلة للتحقيق لا للتشبيه. وقال ابن الأنباري : يحتمل وَيْكأنّه ثلاثة أوجه : أن تكون ويك حرفاً ، وأنه حرف. والمعنى أَلم تر. وأَنْ تكونَ كذلك ، والمعنى ويلك. وأن تكون وي حرفاً للتعجب ، وكأنه حرف ، ووُصِلا خطًّا لكثرة الاستعمال ، كما وصل يبنؤمّ.

﴿وَيْل﴾ : قال الأصمعي : ويل تقبيح. قال تعالى :

﴿ولكم الْوَيلُ مما تَصِفُون﴾ [الأنبياء : ١٨]. وقد توضع موضع التحسر والتفجيع ، نحو ﴿يا ويلتنا﴾ [الكهف : ٤٩]. ﴿يا وَيْلَـتَى أَعجَزْتُ﴾ [المائدة : ٣١]. أخرج الحربي في فوائده من طريق إسماعيل بن عياش ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : قال لي رسولُ الله ﷺ : « ويحك » ، فجزعْتُ منها ، فقال لي : يا حُمَيْراء ، إنّ « ويحك » أو « وَيْسك » ، رحمة ، فلا تجزعي منها ، ولكن اجزعي من « الويل ».

حرف اللام ألف

﴿لأعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]: لضَيَّقَ عليكم بالمنع من مخالطتهم. ابن عباس: لأهلككم بما سبق من أكْلِكم لأموال اليتامى.

﴿لا تَنْكِحُوا﴾ [النساء: ٢٢]؛ أي لا تتزوجوا. والنكاحُ مشترك بين العقد والوطء لأَمَة، أي أمة الله، حرة كانت أو مملوكة. وقيل أَمة مملوكة مؤمنة خير من حرة مشركة.

﴿لأوْضَعُوا خلالَكم﴾ [التوبة: ٤٧]؛ أي أسرعوا السير. والإيضاعُ: سرعة السير. والمعنى أنهم يسرعون بالفساد والنميمة بينكم.

﴿لأحْتَنِكَنَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]: معناه لأميلنهم ولأقودنهم. وقيل: لأَسْتَأْصِلَنهم. يقال احتنكَ الجراد، إذا أكله كلّه.

﴿لاهِيةً قلوبُهم﴾ [الأنبياء: ٣]: الضمير للكفار، يعني أن قلوبهم غافلةٌ مشغولة عن الحق وتذكُّره، لأن القَلْب إذا اشتغل بشيء لم يكن لشيء آخر فيه محل؛ لقوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجُلٍ من قَلْبَيْنِ في جَوْفه﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿لا يَسْبِقُونَه بالقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧]: الضمير للملائكة؛ يعني أنهم لا يتكلمون بشيء حتى يكلمهم الله تأدُّباً معه، وخوفاً من سَطْوته، ولا يشفعون لأحد من عبادِ الله حتى يستأذِنُوا؛ فإن أُذن لهم شفعوا وإلاّ سكتوا.

﴿لازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] ولازم: بمعنى واحد، وهو الممتزج المتماسك

الذي يلزم بعضُه بعضاً، وأَمَر الله بهذه الآية سؤال المشركين عن خَلْق الله الملائكة والسموات والأرض والمشارق والكواكب: ﴿أهُمْ أشدُّ خَلْقاً أم من خلقنا﴾ [الصافات: ١١]، ومنْ لازم جوابهم بأنهم أشدُّ خلقاً منهم تقومُ عليهم به الحجة في إنكارهم البعث في الآخرة، كأنه سبحانه يقول: هذه المخلوقات أشدُّ خلقاً منكم، فكما قدرنا على خلقتكم كذلك نَقْدِرُ على إعادتكم بعد فَنَائكم؛ لأنكم أَضعف خَلْقه، وكيف لا وأنتم من طين لازِب!

﴿لا هُمْ عَنها ينزَفُون﴾ [الصافات: ٤٧]، عن هنا سببية؛ كقوله: فعلته عن أمرك. والنزف: السكر، يعني أنّ شاربَ خمر الآخرة لا يسكر منهـا، لأنها حُلْوة طيبة، بخلاف خمر الدنيا.

والعجب مَّنْ يكون في عقله ويذْهِبُه بشربها، وأقل ما فيه من الوعيد الحديث: منْ شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة.

فـإن قلت: هل هذا الوعيد يتناولُ مَنْ تاب مِن شُرْبها أم لا ؟

والجواب: أنَّ هذا فيمن لم يَتُب، وأما التائب فيبدِّل الله سيئاتِه حسنات، كما قدمنا في غير ما موضع.

﴿لا تَسْمَعُ فيها لاَغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]: هو من لَغْو الكلام، ومعناه الفحش وما يكره، فيحتمل أنْ يريد كلمة لاغية، أو جماعة لاغية.

﴿لإيلافِ قريش﴾ [قـريش: ١] لإيْلاَفِ: آلفـت إيلافـاً. وقيـل هـذه اللام موصولة بما قبلها. المعنى: ﴿فجعلهم كعَصْفٍ مأكول﴾ [الفيل: ٥] لإيلاف قريش، وكانت لهم رِحْلتان في كل عام: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام. وقيل: كانت الرحلتان جميعاً إلى الشام. وقيل: كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماءُ والظلّ فيقيمون بها، ويرحلون في الشتاء إلى مكـة لسُكْنَاهم بها. واختلف في تعلق قوله: ﴿لإيلاف قريش﴾ على أقوال قيل إنه متعلق بقوله: ﴿فلْيَعْبُدوا﴾ [قـريش: ٣]؛ والمعنـى فليعبـدوا الله مـن أَجـل

إيلافهم للرحلتين؛ فإن ذلك نعمة من الله عليهم. وقيل: إنه يتعلق بمحذوف تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش. وقيل: إنه يتعلق بسورة الفيل. والمعنى أن الله أَهْلك أصحابَ الفيل لإيلاف قريش؛ فهو يتعلق بقوله: ﴿فجعلهم﴾ [الفيل: ٥] كما قدمنا. ويؤيِّد هذا أَنَّ السورتين في مصحف أُبَيّ بن كعب سورة واحدة لا فَصْلَ بينهما، وقد قرأهما في ركعة واحدة في المغرب، وذكر الله الإيلاف أولاً مطلقاً، ثم أبدَل منه الإيلافَ المقيد بالرحلتين تعظيماً للأمر؛ ونصب ﴿رحلة﴾ لأنه مفعول بإيلافهم، وقال: ﴿رحلةَ﴾ وأراد رحلتين، فهو كقول الشاعر: « كلُوا في بعض بطنكم تعفّوا ».

وقد قدمنا من هذا الحرف أشياء عند حرف اللام، والحرف الذي قبل هذا فلا فائدة في الإعادة.

حرف الياء

﴿يحي﴾ بن زكرياء عليهما السلام، وُلد قبل عيسى بستة أشهر، ونُبيء صغيراً، وهو اسْمٌ أعجمـي، وقيـل عـربي. قـال الواحـدي: وعلى القـولين لا ينصرف. قال الكرماني: وعلى الثاني أنه سمي به لأنه أحياه الله بالإيمان؛ وقيل لأنه حي به رحم أمه، وقيل لأنه استشهد، والشهداءأحياء، وسَبَبُه أنّ ملك زمانه كان له زوجة ولها بنت من غيره، فأرادت المرأةُ تزويجها منه غيرةً وخوفاً من تزويج غيرها، فزينتها وعرضتها عليه، وقالت له: أتريد أحسن منها؟ فقال لها: لا أحبّ غيرها. فاتخذت وليمةً، ودعت إليها يحي، وعرضت عليه الأمر، فقال: معاذ الله في ذلك، فسقَتْ زوجها الخمر، وقالت: أما علمت أنّ يحي يَأبَى من زواجك لهذه الشابة، فدعا به وقتله بين يديها، فبكت الملائكةُ في السموات، وقالت: إلهي، بأيّ ذنب قتلوا يحي؟ فقال تعالى: لم يذنب، ولم يُهمّ بذنب، ولكن أحبَّني فأحببتُه، ولا بد في الحب من القتل، وسلَّط الله على قاتله بخت نصر فقتله، وأخرب ملكه، وسبَا حَرِيمَه، وملك رعيته.

فاسْمَعْ يا مدَّعِي الحب، أما علمْتَ أن المحبةَ أولها فكرية وآخرها بَلِيّة، وإذا كان الحبُّ بين الخلق يذهب النفوس فكيف بمحبة الله! ولذلك قال تعالى: ﴿والذين آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾ [البقرة: ١٦٥]. ولذلك قال الجُنيد: كم تقتل من الأحباب؟ وكم تريق من دَم الأصحاب؟ فسمع هاتفاً يقول: أقتل النفس، وأعطي دِيَتها. فقال: يا رب، ما دِيتها؟ فقال: دِية مقتول الخَلْق الدنيا ودية مقتولِ الحق رُؤية الجبّار.

﴿يوسف﴾ بن يعقوب بن إبراهيم خليل الرحمن، ألقي في الجب وهو ابنُ

ثنتي عشرة سنة، ولقي أباه بعد الثمانين، وتوفي وله مائة وعشرون سنة. وفي الصحيح أنه أُعطِيَ شَطْرَ الحسن؛ قال بعضهم: وهو من المرسلين، لقول موسى: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قَبْلُ بالبينات﴾ [غافر: ٣٤]. وقيل: ليس هو يوسف ابن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب.

ويشبه هذا ما في العجائب للكرماني في قوله: ﴿وَيرِثُ مِنْ آلِ يعقوب﴾ [مريم: ٦] إن الجمهور على أنه يعقوب بن ماثان، وإن امرأةَ زكرياء كانت أُخْتَ مريم بنت عمران؛ قال: والقول بأنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم غريب. وما ذكره أنه غريب هو المشهور، والغريب الأول؛ ونظيره في الغرابة قول نَوْف البِكاليِّ إن موسى المذكور في سورة الكهف في قصة الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل بل موسى بن مَنشا بن يوسف. وقيل ابن إفرائيم بن يوسف، وقد كذّبه ابن عباس في ذلك. وأشدُّ من ذلك غرابة ما حكاه النقّاش والماوردي أن يوسف المذكور في سورة غافر من الجن، بعثَهُ الله رَسُولاً إليهم، وما حكاه ابن عسكر أن عمران المذكور في آل عمران هو والدُ موسى لا والد مريم. وفي يوسف من اللغات تثليث السين مع الياء والهمزة وبتركه، والصواب أنه أعجمي لا اشتقاق له.

فإن قلت: أين يوسف من فرعون في مخاطبة موسى له؟

والجواب: ما قدمناه لك من أنّ ملك مصر يسمى فرعون، وإنكارهم لبعث الرسالة لا يدلُّ على أنهم مؤمنون برسالة يوسف، وإنما مُرادُهم أن يأتي أحد يدَّعي الرسالة بعد يوسف؛ قاله ابن عطية. وقال الزمخشري: إنما هو تكذيب لرسالةِ مَنْ بعده مضموم إلى تكذيب رسالته.

﴿يونس﴾ بن مَتّى، بفتح الميم وتشديد التاء الفوقية مقصور. ووقع في تفسير عبد الرزاق أنه اسم أمّه. قال ابن حجر: وهو مردود بما في حديث ابن عباس في الصحيح، ونسبه إلى أبيه؛ قال: فهذ أصحُّ. قال: ولم أَقِفْ في شَيءٍ من الأخبار على اتصال نسبه، وقد قيل: إنه كان في زمان ملوك الطوائف من الفرس، فبعثه

الله إلى أحدهم فأعرضوا عنه، ووعدهم بالعذاب، فخاف منهم وهرب فالتقمه الحوتُ كما قدمنا أنه مكث في جوفه أربعين يوماً. وقيل الْتَقَمَهُ ضحى ولفَظَه عشية. وفي يونس ست لغات: تثليث النون مع الياء والهمزة، والقراءة المشهورة بضم الياء مع النون قال أبو حيان: وقرأ طلحة بن مصرّف بكسر يونِس ويوسِف، أراد أن يجعلها عربيين مشتقين من أنِس وأسِف وهو شاذّ.

﴿يسومُونَكم سُوءَ العذابِ يذَبِّحونَ أبناءكم...﴾ [البقرة: ٤٩] الآية: قد قدمنا أنّ الخطاب لبني إسرائيل قبل هذا الحرف.

فإن قلت: أي فائدة لخطاب المعاصرين بهذا؟ وتعبيره في سورة الأعراف [١٤١] بالقَتْل؟

والجواب: لأنهم من ذُرّيتهم وعلى دينهم ومُتّبعون لهم، وهم راضُون بذلك؛ فعدّد عليهم بما مَنَّ على آبائهم وهم عالمون بذلك. وورد في آية البقرة مضعّفاً؛ لأن المقصود فيها كما قدمنا تعديدُ وجوهِ الإنعام عَليهم، وبيانُ المنَّة، ومقابلتهم لهذه النعمة بالكُفْر من الأمر الشنيع، ألاَ ترى أنه لما ذكر دعوة الناسِ عموماً، وذكر مبدأهم دعا بني إسرائيل خصوصاً. وأيضاً لما كان الذبح منبىء عن القَتْل وصِفَته، ولا يُفهم من القتل غير إعدام الحياة بتناولٍ من غير المقتول في الغالب عَبَّر هنا بما يوفي المقصود من الإخبار بالقتل وصِفته، مع إحراز الإيجاز؛ إذ لو ذكر القتل وأُتبع بالصفة لما كان إيجازاً، فعدل إلى ما يحصلُ منه المقصودُ مع إيجاز، فقال يُذَبّحون. وعَبَّر في سورة الأعراف بالقتل؛ لأنه أوجز من لَفْظِ يذبحون، لأجل التضعيف؛ إذ لفظ يذبحون أثقل لتضعيفه. وقد حصلت صفةُ الفعل في سورة البقرة.

﴿يَهْبِطُ مِنْ خشيةِ الله﴾ [البقرة: ٧٤]: صفة للحجر، وذلك أنَّ الله تعالى جعل خَوْفَه في المتحرك والساكن، فكلُّ حجر يُرمى من علو إلى سفل فمِنْ خشية الله، ومنهم من يتفجَّرُ منه الأنهار؛ كما قال تعالى، هذا مع أنهم غَيْر مخاطبين ولا مكلفين؛ وأنْتَ يا محمديّ مكلّف مخاطب، وقد قسا قَلْبك؛ فهل هذا

إلا من مخالفة أَمْرِ ربك؛ تَلين الأحجارُ، ولا تلين القلوبُ! وأعظم من ذلك عدمُ الانكسار والخشوع! لو تُليت هذه الآيات على الجماد لمادَ، كما قال تعالى: ﴿لو أَنْزَلْنا هذا القرآنَ على جبَلٍ لرأَيْتَه خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِن خشية الله﴾ [الحشر: ٢١]. فلا حيلةَ لنا يا رب إلا إلقاء نفوسنا بين يديك، والتفويض لما أردْتَ بنا، وإلاّ الصبر لنا على عذابك، وكيف يصبر الجسم الضعيف على العذاب المقيم، فصبِّرْنا إنْ قضيتَ علينا، واجعلنا كالإسرائيلي الذي عبدك سبعمائة سنة، فأوحيت إلى نبيء ذلك الزمان: قلْ لعَبْدي فلان تعبَّدْ ما شئْتَ، فأنْتَ من أهل النار. فلما بلغه وَحْيُك قال: مرحباً بحُكْم ربي! ثم قال: إلهي، عَبَدْتك، وأنا لا أظنُّ أني لا أَزِنُ عندك قليلاً ولا كثيراً، فإذا أَنا أُصْلح لنارِك، وعزَّتك ما زادني هذا إلا حُبًّا وتلهّفاً فيك؛ فأوحى الله إلى دانيال عليه السلام: قل لعَبْدي المستحق لِوَلاَئِي بالصبر والرضا: رضيت عني بأصعب حكم وقضاء، وعِزَّتي وجلالي لو ملأَتْ ذنوبك الأرضَ والسماء لغفرتها لك، ولا أبالي. وأنت تعلم غربتي وذِلَّتي وشدةَ محنتي بذنوب اقترفْتها وعظائم ارتكبتها، وأنتَ تعلمُ أنه ليس لي مَنْ يتفقَّدني عند الموقف بين يديك غير رحمتـك الواسعـة التي أَخْبَرتنـا بها، فقيِّضْ لي مَنْ يشفع عندك، أُقسم عليك بجاهِ نبيّك الكريم، واسمك العظيم، وعمْدَتنا على لسان نبيك أنه أَعدَّ شفاعته لكبائر أمته، فأْذَنْ له فينا، ولا تخَيِّبنا من فَضْلك العظيم وإحسانك العميم، وأسألك أَنْ تصلِّي على نبيك الكريم، وتَرْضَى عن أصحابه ذوي الفضل والتكريم.

﴿يَسْتَفْتِحون﴾ [البقرة: ٨٩]: يستنصرون على المشركين إذا قاتلوهم؛ فَالسِّينُ على هذا للطلب، يعني أنهم كانوا يقولون: اللهم انْصرنا بالنبيّ المبعوث في آخر الزمان؛ ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أَظلّ زمانُ نبيٍّ يخرج نقاتِلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرم. وقيل يستفتحون أي يعرفون الناس بالنبي ﷺ، فالسينُ على هذا للمبالغة، كالسين في استعجب واستسخر، وعلى كلِّ قولٍ فبغْضهم واجب وقَتْلهم جائز لجحدهم ما عرفوا في كتبهم؛ ولذلك قال الله فيهم: ﴿فَلعْنَة الله على الكافرين﴾ [البقرة: ٨٩].

﴿يتَمَنَّوه أبداً﴾[البقرة: ٩٥]: الضمير يعود على الموت، وذلك أنّ الله أمرهم أن يتمنَّوا الموتَ إن كانوا صادقين في قولهم على وَجْه التعجيز والتبكيت؛ لأنّ مَنْ علم أنه من أهل الجنة اشتاق إليها، ولو تمنَّوه لماتوا من ساعتهم؛ ولمَّا علموا ذلك لم يتمنوه لذنوبهم، لأنهم أرادوا الحياةَ الدنيوية.

فإن قلت: لم عَبَّر في آية البقرة بلن بخلاف الجمعة [٧]؟

والجواب: أنه لما كان الشَّرط فيها مستقبلاً، وهو قوله تعالى:

﴿وإنْ كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً﴾ [البقرة: ٩٤] الآية ـ جاء جوابه بإن التي تخلِّص الفعل للاستقبال. ولما كان الشرط في الجمعة حالاً، وهو قوله: ﴿إنْ زَعمْتم أنكم أولياء لِله﴾ [الجمعة: ٦] جاء جوابه بلا التي تدخل على الحال، وقد تدخل على المستقبل.

فإن قلت: ما النافية أخصّ بالحال فهي أنسب؟

قلت: قد يفهم من « ما » نَفْي مجرد الحال دون ما يتصل به، فقد يقول القائل: ما يقوم زيد ـ يريد ما يقوم اليوم، ولا يريد أنه ما يقوم غداً، وما صالحة لهذه المعنى، وهم إنما أرادوا أنهم أولياء مستمرون على ذلك، وأنَّ تلكَ صِفَتهم على الحال وما يليه إلى آخر حياتهم؛ إذ ذاك هو الموجب أن تكون لهم الدار الآخرة خالصةً من دون الناس كما زعموا، فلما كان زَعْمهم هذا ناسبه نَفْي دَعْوَاهم وتكذيب زعمهم بحرف نص في نَفْي ذلك، وأنه لا يقع منهم التمني في حالهم ولا فيما بعده أبداً.

فإن قلت: إن قوله: « أبداً » قد أحرز هذا؟

قلت: تأكيد ذلك أبلغ، فنفى بلا وأكّد بالتوكيد. فجاء على أعلى البلاغة.

﴿يَتْلُونَ الكِتابَ﴾ [البقرة: ١١٣]؛ أي يقرأونه، والضمير عائد على اليهود والنصارى، وهذا تقبيحٌ لقولهم وذَمّهم لرسول الله ﷺ، ولِمَا جاءَ به، مع تلاوتهم كتابهم.

﴿يَلْعَنهم اللاعِنون﴾ [البقرة: ١٥٩]: قد قدمنا أنهم جميع مَنْ تقَع منه اللعنة، وإذا تلاعَن اثنان، وكان أحدهما غير مستحق للعن رجعت اللعنة على المستحق لها، فإن لم يستحقها أحد منهما رجعَت على اليهود.

﴿يَنْعِق﴾ [البقرة: ١٧١]؛ أي يصيح بالغنم فلا تدري ما يقول لها إلا أنها تنْزَجر بالصوت، وشبَّه الله الكفار بالبهائم في قلّة فَهْمِهم وعدم استجابتهم لمن يَدْعوهم، أو يكون تشبيهاً للكفار في دعائهم وعبادتهم لأصنامهم بمن يَنْعِق بما لا يسمع؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً؛ وفيه تفصيلٌ قدمنا ذكره.

﴿يَطْهُرْن﴾ [البقرة: ٢٢٢]: من الدم، ويتطهَّرن بالماء، وقرىء حتى يطهرن بالتشديد، وهو حجة لمالك.

﴿يَتَسنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ومعناه يتغير، واللفظ يحتمل أن يكون مشتقاً من السنة، لأن لامها هاء فتكون الهاء في «تسنَّه» أصلية؛ أي لم تغيره السنون. ويحتمل أن يكون مشتقاً من قولك: تسنّنَ الشيءُ إذا فسد، ومنه الْحَمَأُ المسنون، ثم قُلبت النون حَرْفَ علة، كقولهم: قَصّيت أظفاري، ثم حذفَ حَرْفُ العلة للجزم؛ والهاء على هذا هاءُ السكت.

وقيل إن طعامَه كان تيناً وعِنباً، وإن شرابه كان عصيراً ولبناً، فأراه اللهُ أُعجوبة في بقائه هذه المدة الطويلة على حالته.

﴿يَؤُودُه﴾ [البقرة: ٢٥٥]: يثقله؛ من قولهم: ما آدَكَ فهو بمُوئد؛ أي ما أثقلك فهو لي مُثقل.

﴿يمحق الله الرِّبا﴾ [البقرة: ٢٧٦]؛ أي يذهبه في الدنيا بضياعه، وفي الآخرة بالعقوبة. وقد قدمنا أنَّ عقوبتَه في الآخرة بقيامه من القَبْر كالمجنون يعرفُه أَهْلُ المحشر بتلك العلامة؛ وأيُّ عقوبةٍ أكبر من هذا. وحكى القاضي عياض في مَدَاركه: أنَّ ترك رُبع دانق مما حرم الله أَفضلُ من سبعين ألْف حجة، وأفضل من سبعين ألف غزوة، وسبعين ألف بدنة مقلّدة أُهديت إلى بَيْتِ اللهِ

الحرام؛ قال: فبلغ ذلك عبدالجبار، فقال: نعم، وأفضل مِنْ ملء الأرض إلى عنان السماء ذهباً وفضة اكتسبْنَ من حلال وأنفقن في سبيل الله، تَرْكُ ربع دانق مما حرم أَفْضل من ذلك كله.

﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهم بالكتاب﴾ [آل عمران: ٧٨]: الضمير عائد على أهل الكتاب، يعني يحرِّفُونَ لَفظَه أو معناه.

﴿يَضُرُّكم﴾ [آل عمران: ١٢٠]: من الضير، بمعنى الضرر.

﴿يَكْبِتَهم﴾ [آل عمران: ١٢٧]: يَغيظهم ويُخْزيهم. وقيل يصرعهم لوجوههم.

﴿يمين﴾: له أربعة معان: اليد اليمنى، والجهة اليمنى، وبمعنى القوة، وبمعنى الحلف. وأيمن الإنسان جهة يمينه.

﴿يسير﴾: له معنيان: قليل، ومنه كيل يسير. وهين، ومنه: ﴿وذلك على الله يسير﴾ [التغابن: ٧]. واليسر ضد العُسر.

﴿يئس﴾ [المائدة: ٣] من الأمر ييأس؛ أي انقطع رجاؤه، ومنه: ﴿لا تَيْأَسُوا مِنْ روح الله﴾ [يوسف: ٨٧]، وإنه ليئوس. وأما: ﴿أفلم يَيْأَس الذين آمَنُوا﴾ [الرعد: ٣١] فمعناه أفلم يعلم، وهي لغة هوازن، وقرىء: أفلم يَتَبَيّن.

﴿يستبشرون﴾ [آل عمران: ١٧، ١٧١]: يفرحون: والضمير عائد على قوم لوط لَما سمعوا بذكر الأضياف أسرعوا إليه فرحين ببغْيتهم ونكاية للوط عليه السلام، وكرره في آل عمران [١٧، ١٧١]، ليذكر له من النعمة والفضل.

﴿يَميزَ الخبيثَ مِنَ الطيّب﴾ [آل عمران: ١٧٩]؛ أي ما كان الله ليدَعَ المؤمنين مختلطين بالمنافقين، ولكنه ميّز هؤلاء من هؤلاء بما ظهر في غَزوة أحد من الأقوال والأفعال التي تدلُّ على الإيمان أو على النفاق، «وما كان الله

لِيُطْلعكم على ما في القلوب من الإيمان أو النفاق، أو يُطْلعكم على ألاّ تغلبون أو تُغْلبون».

﴿يَفْقَهُون﴾ [النساء: ٨٧]: يفهمون، ولذا سمي الفقيه فقيهاً. وفي الحديث: ما أعطي المرءُ أفضل من حُسْنِ سَمْتٍ وفِقْهٍ في الدين. وانظر كيف عَبّر عنهم تارة بالفهم، وتارة بالعقل، وتارة بالهداية، وعن الكفار بضِدِّها؛ وكلّها ألفاظٌ بمعنى واحد.

﴿يَشْتَرُون الضَّلالَة﴾ [النساء: ٤٤]: عبارة عن إيثارهم الكفْرَ على الإيمان، فالشراءُ مجاز، كقوله تعالى: ﴿اشْتَرُوا الضلالَة بالهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]. وفي تكرار قوله: ﴿وكفى بالله وليًّا، وكفى بالله نصيراً﴾ [النساء: ٤٥] ـ مبالغة.

﴿يَشْرُونَ﴾ [النساء: ٧٤]: يبيعون، ومنه: ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَه﴾ [البقرة: ٢٠٧].

﴿يَسْتَنبِطُونَه منهم﴾ [النساء: ٨٣]؛ أي من المسلمين. والمعنى لو ترك هؤلاء القوم الكلامَ بذلك الأَمْرِ الذي بلغهم وردُّوه إلى رسول الله ﷺ وأولي الأمر منهم؛ فمنهم على هذا لابتداءِ الغاية، وهو يتعلق بالفعل؛ والضمير المجرور يعود على الرسول وأولي الأمر. وقيل: إن الذين يستنبطونه هم أولو الأمر؛ كما جاء في الحديث عن عمر رضي الله عنه ـ أنه سمع أن رسول الله ﷺ طلق نساءه فدخل عليه؛ فقال: أطَلَّقْتَ نساءَك؟ قال: لا؛ فقام على باب المسجد، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ لم يُطَلِّق نساءه، فأنزل اللهُ هذه القصة؛ قال: وأنا الذي استنبطته، فعلى هذا الذين يستنبطونه هم أولو الأمر. والضمير المجرور عائد عليهم، ومنهم لبيان الجنس، واستنباطُهم على هذا هو سؤالهم عنه النبيّ ﷺ أو بالنظر والبَحْث، واستنباطه على التأويل الأول هو سؤال الذين أذَاعوه للرسول ﷺ ولأولي الأمر.

﴿يَألَمُون﴾ [النساء: ١٠٤]؛ أي يصيبهم أَلَمٌ مِنْ قتالكم، ومعناها

التحريض على قتالهم، لأنهم يتألمون من مُلاَقاتكم، ومع ذلك فإنكم تَرْجُون إذا قاتلتموهم النصر في الدنيا والأَجْرَ في الآخرة؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ هل تَربَّصُون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نَتَربَّصُ بكم أَنْ يُصيبَكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا﴾ [التوبة: ٥٢].

﴿يَتِيهُونَ في الأرض﴾ [المائدة: ٢٦]؛ أي في أرض التِّيه، وقد قدمنا أنها بين مصر والشام، وكانوا يسيرون النهارَ والليل، ويجدون أنفسهم في الموضع الذي ارتحلُوا منه مساءً وصباحاً عقوبةً لهم على ما صدر منهم.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ [النساء: ١٢٧]؛ أي يسألونكَ عن الحكم الشرعي على وَجْه النظر. والمستفتي هو المستَخْبِرُ عن الحكْم الشرعي على غير وَجه النظر، فكلُّ مستفتٍ مستخبر، وليس كل مستَخْبر مستفتياً؛ لأن السائل على وَجْه النظر مستخبر، وليس بمستفتٍ في عُرف الفقهاء.

﴿يَعْصِمُكَ من الناس﴾ [المائدة: ٦٧]؛ أي يحفظك؛ وفي هذا وعْدٌ وضمان لعصمةِ رسول الله ﷺ؛ لأنه كان يحترس من أعدائه، فلما نزلَتْ أخرج رَأْسَه من البيت الذي كان فيه، وقال: اذهبوا فقد عصمني الله، فكلُّ ما أصيب به قبل نزول الآية، وأما بعد نزولها فلا؛ فالعصمةُ للأنبياء، والحفظ للأولياء.

﴿يأَهْلَ الكتابِ لسْتم على شيء﴾ [المائدة: ٦٨]: من فَضْلِ هذه الأمة المحمدية أنَّ اللهَ خاطبهم بالإيمان، وخاطب أهْلَ الكتاب بكتابهم؛ ففي الأولى جَمَعَ الله أوصافَ المؤمنين ونعوتهم ومعانيهم في هذا النداء، لأنه لم تَبْقَ حسنةٌ إلا دخلت تحته، وفي الثاني إهانة وتوبيخ؛ ألا ترى أنه قال لهم: ﴿لَسْتم على شيء﴾ [المائدة: ٦٨]؛ أي على دين يعتدُّ به حتى تقيموا التوراةَ والإنجيل، ومن إقامتها الإيمانُ بمحمد ﷺ، وقوله: ﴿وما أُنْزلَ إليكم﴾ [المائدة: ٦٨] قال ابن عباس: يعني القرآن، ونزلت الآية بسبب رافع بن حارثة، ورافع بن حريملة، وسلام بن مشْكَم، وغيرهم من اليهود؛ جاءوا إلى رسولِ ﷺ، فقالوا: إنا نتبع التوراةَ ولا نتبع غيرها، ولا نؤمن بك ولا نتبعك.

﴿يَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]؛ أي يَنْضَج وَيطيب، والمعنى انظروا إلى ثمره أوّل ما يخرج ضعيفاً لا مَنْفَعة فيه، ثم ينقل من حال إلى حال حتى يَيْنع.

﴿يَقْتَرِفون﴾ [الأنعام: ١٢٠]: يكتسبون.

﴿**يَصَّعَّد** في السماء﴾ [الأنعام: ١٢٥]: أصله يتَصَعَّد، ومعناه أن مَنْ يريد الله ضلالَه كأنما يحاول الصعود في السماء، وذلك غَيْر ممكن، فكذلك يصعب عليه الإيمان. وقرىء بالتخفيف. وأما: ﴿إلَيهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّب﴾ [فاطر: ١٠] ـ فمعناه لا إله إلا الله، واللفظُ يعمُّ كلَّ ذكْر ودعاء وتعليم علمٍ، فإنّ الله يقبله ويثيب عليه بفضله وكرمه، وهذا معنى قوله: ﴿والعمَل الصالح يَرْفَعُه﴾ [فاطر: ١٠].

وقيل: إن ضمير الفاعل للكَلِم الطيب، وضمير المفعول للعمل الصالح. والمعنى على هذا أنه لا يقبل العملَ إلا مِنْ موحّد. وقيل: إن ضمير الفاعل للعمل الصالح وضمير المفعول للكلم الطيب. والمعنى على هذا أنَّ العمل الصالح هو الذي يقبلُ الكلام الطيب، فلا يقبل الكلام إلا مَنْ له عمل صالح. روي هذا المعنى عن ابن عباس، واستبعده ابنُ عطية ولم يصحّ عنه، لأن اعتقادَ أهلِ السنة أنّ اللهَ يتقبَّلُ مِنْ كل مسلم؛ قال: وقد يستقيم بأَن يتناول أَن يزيد في رفعه وحسن رفعه.

فإن قلت: آية قوله تعالى: ﴿إنما يتَقبَّلُ اللهُ من المتقين﴾ [المائدة: ٢٧] ـ تدل على قول ابن عباس.

والجواب: أنّ معنى المتقين يعني الذين اتَّقوا الشركَ؛ لأَن التقوى على درجات، كما قدمناه مراراً. فلا نطيل بذكره. وقد قال: ﴿مَن يعمل مثقالَ ذَرّة خيراً يره، ومَنْ يعمل مثقال ذَرَّة شَرًّا يره﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فلا السيئة تُبْطل الحسنة، ولا العكس، على هذا يكونُ اعتقادُك لا على غيره.

﴿يَخُوضونَ في آياتِنا﴾ [الأنعام: ٦٨]: الضمير للكفار، وذلك أنهم كانوا

إذا سمعوا القرآن طعنوا فيه واستهزءوا به، فأمَرَ اللهُ نبيه بالإعراض عنهم حتى يحكمَ اللهُ فيهم بعدْله.

﴿يَغْنَوْا فيها﴾ [الأعراف: ٩٢]: يقيموا فيها، أو ينزلوا مستغنين. والمغاني: المنازل، واحدها مَغْنى.

﴿يَذَرَك وَآلِهَتَك﴾ [الأعراف: ١٢٧]: معطوف على، ﴿ليفسدوا﴾ [الأعراف: ١٢٧]، أو منصوب بإضمار أن بعد الواو. وقيل كان فرعون جعل للناس أصناماً يعبدونها، وجعل نَفْسَه الإله الأكبر، ولذلك قال: ﴿أنا ربُّكم الأعلى﴾، فآلهتك على هذا هي تلك الأصنام. وقرأ عليّ بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس: إلاَهتك؛ أي عبادتك، والتذلل لكَ.

﴿يُسْتَضْعَفُون﴾ [الأعراف: ١٣٧]: هم بنو إسرائيل استضعفوهم قوم فرعون، فجعلوهم خدماً يمتهنونهم في الخدمة ويُتْعبونهم في المناولة.

﴿يَعْرِشُون﴾ [الأعراف: ١٣٧]؛ أي يبنون. وقيل الكروم وشبهها.

﴿يَعْدُون في السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، يعني يتجاوزون حد الله فيهم باصْطِيادهم الحوتَ.

﴿يَسْبِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، يَدَعُون العمل فيه. وبضم الياء يدخلون في السبت.

﴿يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]: اللهث: تنفّس بسرعة، وتحريك أعضاء الفم، وخروج اللسان؛ وأكثَرُ ما يَعْتَرِي ذلك الحيوانات مع الحَرِّ والتَّعَبِ، وهو حالة دائمة للكلب، ومَثَّل الله الذي انسلخ من آياته بالكلب؛ لأنه لا يعرفُ قَدْرَ اللؤلؤ والياقوت، بل يعرف الجِيفَ والقذرات الْمُنْتنة، وبلعام لم يعرف قَدْرَ ما أعطاه الله، فسُلب؛ وفي هذا من الإشارة لك يا محمدي ما يُذْهِل العقول في كونك أكرمك الله بآياته، وفضَّلك على كثير من مخلوقاته، فأعرضْتَ عنها، واشتغلت بالجيفة المنتنة الذي قال فيها الصادقُ الصدوق: الدنيا جيفة وطُلاَّبها

كلاب؛ وإن أعرضت عنها في بعض أوقاتك فما أسرع نَكْث العهد في رجوعك إليها، أما سمعتَ قول الصادق المصدوق: نحن أمةٌ ليس لنا مثل السوء العابد في هيبته كالكلب يعود في قيئه. فافهم إن كنت ذا فَهْم. والسلام.

ووَجْهُ تشبيه ذلك الرجل به أنه إنْ وعظْتَه فهو ضالّ، وإن لم تَعظْه فهو ضالّ، فضلاَلَتُه على كل حال، كما أن لهث الكلب على كل حال.

وقيل: إن ذلك الرجل خرج لسانُه على صدره، فصار مِثْلَ الكلب في صورته ولهثه حقيقة؛ وهذه حالُنا لولا أَنْ مَنّ الله علينا بنبيّ عظيم يشفع فينا لكنّا أعظم من هذا، وكيف لا وفِعْلُنا أعظم، وجرائمنا أجسم، لكن سيئات المحبوب حسنات، اللهم كما سترتها علينا بجاهه عندك استُرْها علينا في الآخرة.

﴿يمشون بها﴾ [الأعراف: ١٩٥]: أخبر اللهُ بهذه الآية عن اعتراف المشركين أنّ أصنامَهم لا تمشي ولا تَبْطش ولا تسمع ولا تُبْصر؛ فقال لهم: كيف تعبدونها، وبين بها كفرهم وإعراضهم عن عبادة المتصف بالسمع والبصر والقدرة والإرادة، فتعالى الله الملك الحقُّ لا إله إلا هو.

﴿يَتَولى الصَّالِحين﴾ [الأعراف: ١٩٦] في أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم، ومَنْ كان لله كان الله له، ومَنْ راقب يراقب، ومَنْ غفل غفل عنه. أنْتَ تريد وهو يريد، فإنْ تركتَ مرادَك لمراده أَنَالَكَ ما تريد، كيف تطلب خرق العوائد وأنتَ لم تخرق من نفسك العوائِد.

﴿يَنْزَغَنَّكَ من الشيطان نَزْغٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]: قد قدمنا أَنّ الخطاب بهذا لأمته، إذ الإجماعُ على عصمته، ونَزْغ الشيطان: وَسْوسته، والأمر بالمعاصي، وتحريك الغضب؛ وفي هذا من التعليم لأمته بوجوده ﷺ ما يعجزُ اللسانُ عن شكره، وكيف لا وقد بَين لنا ﷺ كيفيَة الفعل إذا اعْتَرَانا هذا اللعين بقوله: إن كان قائماً فليجلس، وإن كان جالساً فليضطجع، ويستعيذ بالله من شره. وفي حديث آخر لما رأى رجلاً اشتدّ غَضَبُه، فقال ﷺ: «إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يَجِدُ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وقد وَفّق اللهُ

بَعْض هذه الأمة لكَظْم الغيظ، وعَفْوهم عمن ظلمهم، لو ذكرنا ذلك لطال ذكرهم، كالذي كان يناول طعاماً لسيده فعثر ووقعَت الصحْفَة من يده، فقتل ابْنَ سيده، فدهش، فقال له السيد: لا رَوْع عليك! فقال الغلام: ﴿والكاظِمين الغَيظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال: قد كظَمْتُه. فقال الغلام: ﴿والْعَافِين عن الناس﴾ [آل عمران: ١٣٤]. فقال: قد عفوت. قال الغلام: ﴿والله يحبُّ الْمُحْسنين﴾ [آل عمران:١٣٤] فقال: قد أحسنتُ إليك. إذهب فقد زوّجتك ابنتي.

وآخر دخل على فرسه الذي كان يركبه؛ فوجده على ثلاث قوائم؛ فقال: مَنْ فعل هذا؟ فقال له الغلام: أنا. قال: ما الذي حملكَ على ذلك؟ قال: أردت أن أغمّك. فقال: لأغمنَّ الذي أمركَ بذلك. اذهب فأنْتَ حُرٌّ لوجه الله.

هكذا فلتكن حالُك إن أردْتَ اللحوقَ بهم، وإلا ظنَّ مباينَة حالك لحالهم، هؤلاء يملأ اللهُ قبورهم نوراً، كما ملأها في الدنيا إيماناً؛ وأما نحن فلا ندري ما نصير إليه لما نحن فيه من غَلَبة النفس والهوى والشيطان.

﴿يَمُدُّونَهم في الْغَيِّ ثم لا يُقْصِرُون﴾ [الأعراف: ٢٠٢]: قرىء بضم الياء وفتحها، ومعناها لا يقصر الشيطان على إمداد إخوانهم من الكفار، أو لا يقصر الكفار عن غيِّهم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عن الأنفال﴾ [الأنفال: ١]: يعني أن الصحابة يوم بَدْر كانوا على ثلاث فرق: فرقة مع النبي ﷺ تَحْرسُه وتُؤْنسه، وفرقة تبعت المشركين تقاتلهم، وفرقة أحاطوا بأسلاب العدوّ وعسكره لما انهزموا، فلما انجلت الحَرْبُ ونَصرَ الله نبيه رأت كلُّ فرقة أنها أحق بالغنيمة من غيرها، واختلفوا فيما بينهم، فنزلت الآية: إن الأنفال، وهي الغنيمة، للهِ ورسوله. وقيل الأنفال هنا ما ينفله الإمام لبعض الجيش من الغنيمة زيادة على حظه، فأعطاهم الرسولُ ﷺ ما غنموا وقَسمها بينهم، وفي بعض الغزوات قال لهم: لي معكم الخُمس، وهو مردود عليكم لزُهْدِهِ ﷺ وإيثارِه الصحابة عليه. وقد اختلف الفقهاء: هل

يكون هذا النفل الذي يُعطيه الإمام من الخمس، وهو قول مالك، أو من الأربعة أخماس، أو من رأس الغنيمة قَبْل إخراج الخمس.

﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وقَلْبِه﴾ [الأنفال: ٢٤]: قيل يُميته. وقيل يصرفُ قَلْبَه حيث شاء، فينقلب من الإيمان إلى الكفر، وشبه ذلك، ولذلك كان المعصوم ﷺ يقول في كل صباح ومساء: اللهم يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك، ولهذا كان ﷺ يتقلَّب ويدعو لأمته ويسأله ثَباتَهم. وفي الحديث: القلبُ بين أصبعين من أصابع الرحمن يقَلّبه كيف يشاء، يعني أصابع القدرة والإرادة لا أصابع الجارحة. وقيل لبعضهم: بِمَ عرفْتَ ربَّك؟ قال: بنقض العزائِم، عزمت فنقض عَزْمي، وهممت فنقض همي، فعلمت أنّ لي ربًّا يدبِّر أمري.

﴿يُرِيدُون أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأفواههم ويَأْبَى اللهُ إلاّ أَنْ يُتِمَّ نورَه﴾ [التوبة، ٣٢]: نورُ الله هُداه الصادر عن القرآن والشرع المنبث في قلوب الناس، فمن حيث سمَّاه نُوراً سمّى محاولة إفساده والصدّ في وجهه إطفاء. وقالت فرقة: النور القرآن. وقوله: «بأفواههم» عبارة عن قلّةِ حيلتهم وضَعْفها، أخبر عنهم أنهم يحاولون مقاومةَ أمر جسيم بعمل ضعيف، فكان الإطفاء بنفخ الأفواه.

ويحتمل أن يُراد بأقوال لا برهان عليها، فهي لا تتجاوز الأفواه إلى فَهْم سامع. وقوله: ﴿ويأبى﴾ إيجاب يقَعُ بعده أحياناً ﴿إلاّ﴾، وذلك لوقوعه هو موقع الفعل المنفي؛ لأن التقدير ولا يريد الله إلا أَنْ يُتِمّ نورَه. وقال الفراء: هو إيجاب فيه ضرب من النفي. وردّ الزجاج على هذه العبارة؛ وبيانُه ما قلناه.

فإن قلت: ما حكمةُ زيادة آية براءة على آية الصفّ، واختلاف العبارتين؟

والجواب: ناسب زيادة براءة ما ورد من الطول المحكيّ فيها من قَوْل الطائفتين من اليهود والنصارى: ﴿وقالت اليهودُ عُزَير ابْنُ الله، وقالت النصارَى المسيحُ ابنُ الله﴾ [التوبة: ٣٠]. وأما آيةُ الصف فمقابل بها قول عيسى عليه السلام: ﴿يا بني إسرائيل إنّي رسولُ الله إليكم مُصَدِّقاً﴾ [الصف: ٦]، ثم قال تعالى: ﴿فلما جاءهم بالبيِّناتِ قالوا هذا سِحرٌ مبين﴾ [الصف: ٦]، وليس هذا

في الطول وعِدَّة الكلم كالمحكيّ في سورة براءة؛ ألا ترى أنَّ الواقع في براءة ست كلمات، وفي الصف ثلاث كلمات، والقائِل طائفةٌ واحدة. وهذا مراعى.

﴿يعلَمُ إنّهُمْ لكاذِبون﴾ [التوبة: ٤٢]: ضمير الجماعة يعود على المنافقين الذين يحلفون: ﴿لو استَطَعْنَا لخرَجْنَا معكم﴾ [التوبة: ٤٢]؛ فأخبر الله رسولَه بكذبهم، وأنهم كانوا يستطيعون الخروج، ولكن تركوه كفـراً ونفاقاً؛ وهذا كلُّه في الجملة لا بتعيّن شخص، ولو عُيِّن لقُتِل بالشرع. وانظر كيف عَبَّر هنا بالعلم بخلاف الآية بعدها. وفي الحشر والمنافقين لأنَّ الاستطاعةَ وعدمها حكمٌ لا يطَّلع عليه في الغالب، بل ينفرد كلٌّ بحاله في ذلك، إلا أنْ يعلم ذلك بقرينة، فقول المنافقين في إخبار الله تعالى عنهم: ﴿لو استَطَعْنَا لخرَجْنَا معكم﴾ [التوبة: ٤٢] غير مشاهد من ظاهرهم، فقد كان يمكن صدقهم أو صدق بعضهم لوْلا أنّه سبحانه أعلم بحالهم، فناسب التعين بالعلم.

﴿يَرْكُمَهُ جميعاً﴾ [الأنفال: ٣٧]؛ أي يضمُّه ويجعل بعضه فوق بعض.

﴿يوم يُحْمَى عليها﴾ [التوبة: ٣٥]: الضمير يعود على ما يعود عليه ضمير ﴿ينفقونها﴾ [التوبة: ٣٤]، والعاملُ في الظرف ﴿أليم﴾ [التوبة: ٣٤]، أو محذوف. فانظر ما أوعد الله للمُمْسك مالَـه ولا ينفقه. وقد أخبرنا اللهُ بعذابه في آياتٍ من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]. ﴿وأمَّا مَنْ أُوتي كتابه بشماله...﴾ إلى قوله: ﴿ولا يَحُضُّ على طَعَامِ المِسْكين﴾ [الحاقة: ٢٥، ٣٤]. ﴿ما سلَكَكم في سَقَر! قالوا لم نَكُ من المصَلِّين. ولم نَكُ نُطْعِمُ المسكين﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٤]. ﴿كلا إنها لَظى. نَزّاعةً للشّوَى...﴾ إلى قوله: ﴿جمع فأوعى﴾ [المعارج: ١٥، ١٨]. وأكرم الله الْمُنْفق بخمس كرامات: جعل الصدقَة تقعُ في يده قبل وقوعها في يد السَّائل، فيربيها له كما يربِّي أحدكم فِلْوَه أو فَصِيله، وتكون وقايته من المكاره، كما صحَّ أن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء، يعني في الدنيا والآخرة، لقوله عليه السلام: دَاوُوا مرضاكم بالصدقة. وتحرس المال، للحديث: حَصِّنُوا أموالكم بالزكاة. وتطهِّره

لقوله سبحانه: ﴿خُذْ من أَمْوالِهِم صدَقَةً تطهِّرُهم وتُزَكيهم﴾ [التوبة: ١٠٣]. هذا مع ما فيها من الخلف والبركة، والكلام عليها طويل جداً.

﴿يُحِلُّونَهُ عاماً ويُحَرِّمُونه عاماً﴾ [التوبة: ٣٧]؛ أي تارة يحلّون وتارة يحرمون ولم يُرِد العامَ حقيقة؛ إذ كانت أحوالُهُم مختلفة.

﴿يُهْلِكون أَنْفسهم﴾ [التوبة: ٤٢]: الضمير يعود على المنافقين، لأنهم كانوا يستعذرون بالأعذار الكاذبة والأيمان الباطلة.

﴿يَفْرَقونَ﴾ [التوبة: ٥٦]: من الفَرَق وهو الخوف.

﴿يَجِدُون مَلْجأً﴾ [التوبة: ٥٧]؛ أي يلجئون إلى موضع من المواضع التي تمنعهم من رؤية رسول الله ﷺ وأصحابه.

﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤]: ورد في الحديث: «كل ما أُدِّيت زكاته فليس بكنز، وما لم تؤدّ زكاته فهو كنز». وقال أبو ذر وجماعة من الزهاد: كلّ ما فضَلَ عن حاجةِ الإنسان فهو كنز. وقوله هذا أفضى به إلى الخروج من الشام ومن المدينة حتى لحق بالرَّبَذة، فمات بها؛ ولهذا قال ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى زُهد عيسى فلينظر إلى أبي ذَر رضي الله عنه».

﴿يضَاهِئُونَ قَوْلَ الذين كَفرُوا من قَبْل﴾ [التوبة: ٣٠]؛ أي يشابهون، فإنْ كان الضمير لليهود والنصارى فالإشارة بقوله: ﴿الذين كفروا من قَبْل﴾ للمشركين من العرب؛ إذ قالوا: الملائكة بنات الله، وهم أول كافر. وإن كان الضمير للمعاصرين للنبي ﷺ من اليهود والنصارى فالذين كفروا من قبل هم أسلافهم المتقدمون.

﴿يَلْمِزكَ في الصّدقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]؛ أي يَعِيبك على قسمتها، وذلك أنَّ المنافقين كانوا يقولون: يعْطِي مَنْ أحبَّ من أصحابه، ويمنعنا. وقيل هي في الذي قال: اعدل يا محمد؛ فإنكَ لم تعدل.

﴿يُؤْمِنُ بالله ويؤْمِن للمؤمنين﴾ [التوبة: ٦١]، هذا من أوصافه ﷺ،

يقال: أمنت لك إذا صدقتك، ولذلك تعدّى هذا الفعل بإلى، وتعدّى يؤمن بالله بالباء.

﴿يَحْذَرُ المنافقُون أن تُنَزَّلَ عليهم سورةٌ تنبِّئهم بما في قلوبهم﴾ [التوبة: ٦٤]: الضمير في عليهم وتُنَبِّئُهم وقلوبهم عائد على المنافقين، يعني أنهم كانوا يخافون أن ينزَّل في شأنهم سورةٌ على النبي ﷺ تُخْبره بما في ضمائرهم من النقص لرسول الله ﷺ ولأصحابه، وذلك على جهة الاستهزاء والسخرية. وقال الزمخشري: إن الضمائر في عليهم وتنبئهم للمؤمنين، وفي قلوبهم للمنافقين؛ والأول أظهر.

﴿فإنْ يَتُوبُوا يكُ خَيْراً لهم﴾ [التوبة: ٧٤]: فتح الله في هذه الآية بابَ التوبة للمنافقين، فتاب منهم الجُلاَس. وحَسُنَ إسلامه بفَضْل الله عليه.

﴿يَسْخَرُون منهم﴾ [التوبة: ٧٩]: الضمير للمنافقين، وذلك أنهم كانوا يستخفّون بالمسلمين الذين يتصدَّقون بما يجدون ويقولون: إن الله غنيّ عن صدقةِ هذا.

﴿يُؤْذونَ النبيَّ ويقولون هو أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]: يعني أنهم كانوا يؤذون رسولَ الله ﷺ بقولهم: إنه يسمعُ فيهم أصحابَه إذا أخبروه بعداوتهم لهم. فردَّ الله بقوله: ﴿قل أُذُنُ خَيْرٍ لكم﴾ [التوبة: ٦١]، لأنه يصفح عنكم ولا يؤاخذكم بأقوالكم، ولو لم يسمع فيكم لأستأصلكم. وقد كان بعضُ الصحابة يستأذن في قَتْل بعضهم، فيقول: أو يتحدث أنّ محمداً يقتلُ أصحابه.

﴿يَقْبِضُونَ أيديهم﴾ [التوبة: ٦٧]: كناية عن بُخْلهم وعدم إنفاقهم، في طاعةِ الله ورسوله.

﴿يُفْتَنُون في كلِّ عام مرة أو مرتين﴾ [التوبة: ١٢٦]؛ أي يُمْتَحنون بالأمراض والجوع. وقيل بالأمر بالجهاد. واختار ابنُ عطية أن يكون المعنى: يفضحون بما يكشف من سَرَائرهم.

﴿يَرَاكُم مِنْ أَحَدٍ﴾ [التوبة: ١٢٧]: كان سبب خوفهم أنْ ينقل عنهم كذبُهم، فكان ينظر بعضُهم إلى بعض، ويقول: إياكم أن يُنْقَل عنكم هذا الاستخفَافُ. وقيل: كان ينظر بعضهم إلى بعض على وجه التعجّب ومِمَّا ينزل في القرآن مِنْ كشْف أسرارهم.

﴿ويَهْدي مَنْ يشاء﴾ [إبراهيم: ٤، النحل: ٩٣]: قد قدمنا أنّ الله تعالى عَمَّ الدعوة وخَصَّ الهداية؛ إذ ما كلُّ مدعوٍّ داخلٌ، ولا كل مُضِلّ مقيم، واحد قاعد عند الباب ينتظر الدخول ولم يدخل، وآخر وجد الباب مفتوحاً فدخل.

﴿يَبْدأُ الخَلْقَ ثم يُعِيده﴾ [يونس: ٤]: في هذه الآية احتجاجٌ على الكفار بأنَّ شركاءهم لا يقدرون على بدء الخَلْق ولا عَوْده.

فإن قلت: كيف يحتجّ عليهم بإعادة الخَلْق وهم غير معترفين به؟

فالجواب أنهم معترفون أنّ شركاءهم لا يقدرون على الابتداء ولا على الإعادة، ففي ذلك إبطال لهم ولربوبيّتهم، فوضعت الإعادة عليه موضع المتفق عليه لوضوح بُرْهانها.

﴿يَهِدِّي﴾ [يونس: ٣٥]، بتشديد الدال: معناه لا يهتدي في نفسه، فكيف يهدي غيره. وقرىء بالتخفيف بمعنى يهدي غيره. والقراءةُ الأولى أَبْلَغ في الاحتجاج.

﴿يَأْتِهم تأويلُه﴾ [يونس: ٣٩]: الوعيد الذي في القرآن لهم.

﴿يلبثوا إلا ساعةً من النهَار﴾ [يونس: ٤٥]: تقليل لمدة بقائِهم في الدنيا أو في القبور.

﴿يتعارَفُون بينهم﴾ [يونس: ٤٥]: يعني يوم الحشر، فهو على هذا حالٌ من الضمير في يلبثوا.

﴿يستَنْبِئُونك﴾ [يونس: ٥٣]؛ أي يسألونك عن الوعيد والدين والشرع:

أحقٌّ هو؟ فأمره الله بأن يقول: ﴿إيْ وربّي إنه لحقٌّ وما أنْتم بمُعْجِزين﴾ [يونس: ٥٣].

﴿يَرْهَق﴾ [يونس: ٢٦]: يغشى.

﴿يوم القيامة﴾ [يونس: ٦٠] ظرف منصوب بالظرف. والمعنى أي شيء يظنون أن يُفعل بهم في ذلك اليوم.

﴿يَعْزُبُ عن ربّك مِنْ مثقالِ ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السماء﴾ [يونس: ٦١]؛ أي لا يَغيب عن علم الله مثقال ذرة. وقد قدمنا أن الذرة صغار النمل أو بيضها.

فإن قلت: ما فائدة تقديم الأرض على السماء في آية يونس بخلاف سبأ [٣]؟

والجواب لأن الشهادة على أهل الأرض، وقُدمت السماء في سبأ لأنّ حقَّها التقديم، لأنها مصعد الأمر، ومحلّ العلو، ومسكن الملائكة، وهي مشاهدة لهم، ومستقبل الداعين، ومنها ينزل الأمر، ورزق العباد، وفيها الخزَنَة من الملائِكة، وإليها يُصعد بأرواح المؤمنين، وتعرج الملائكة السياحون في الأرض المسؤولون عن أعمال العباد؛ فكان العلمُ بما فيها أجلى وأظهر، وكان العلم بما في الأرض أخفى، وهذا بالنظر إلينا، وبحسب متعارَفِ أحوالنا، وإلا فعِلْم بارئنا سبحانه بما في الأرض وما في السماء على حدّ سواء، كما أن علمه بالسر والجهر مستوٍ: ﴿سواءٌ منكم مَنْ أَسَرَّ القوْلَ ومَنْ جَهَر به﴾ [الرعد: ١٠].

﴿يُمَتِّعْكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمّى، ويُؤْتِ كلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْله﴾ [هود: ٣]؛ أي ينفعكم في الدنيا بالأرزاق والنعم والخيرات. وقيل: هو طيب عيش المؤمن برجائه في الله ورضاه بقضائِه؛ لأن الكافر يمتَّعُ في الدنيا بالأرزاق؛ والضمير في « فَضْله » يحتمل أن يعود على الله تعالى أو على ذِي فَضل.

﴿يَثْنُون صدُورَهم ليستَخْفوا منه ألاَ حين...﴾ [هود: ٥] الضمير

للكفار؛ وذلك أنهم كانوا إذا لقيهم رسولُ الله ﷺ يردون إليه ظهورهم لئلا يَرونَه من شدة البغض والعداوة. والضمير في «منه» على هذا يعود على رسول الله ﷺ. وقيل: إن ذلك عبارة على ما تَنْطَوِي عليه صدورهم من البُغْض والغل. وقيل: هو عبارة عن إعراضهم؛ لأن من أعرض عن شيء أتى عليه الخوف. والضمير في ﴿منه﴾ على هذا يعود على الله تعالى، أي يريدون أن يستخفوا على الله، فلا يطلع رسوله والمؤمنون على ما في قلوبهم.

﴿يستَغْشُونَ ثيابَهم﴾ [هود: ٥]؛ أي يجعلونها أغشيةً وأغطية، كراهةً لاستماع القرآن. والعاملُ في ﴿حين﴾ ﴿يَعْلَم ما يُسِرُّونَ وما يعلنون﴾ [هود: ٥]. وقيل: المعنى يريدون أن يستخفوا حين يستغشون ثيابَهم، فيوقف عليه على ﴿هذا﴾، ويكون ﴿يعلم﴾ استئنافاً.

﴿يكونوا مُعْجزين﴾ [هود: ٢٠]؛ أي مُفْلتين.

﴿يضاعف لهم العَذَابُ﴾ [هود: ٢٠]: إخبار عن تشديد عذابهم، وليس بصفة لأولياء.

﴿يَئُوس﴾ [هود: ٩]: فعول، من يئستُ، وأخبر الله في هذه الآية أن الإنسان يَقْنَط عند الشدائد، ويفخر ويتكبَّر عند النعم.

﴿يُجَادِلنا في قَوْمِ لوط﴾ [هود: ٧٤]: معنى جدال إبراهيم مع الملائِكة في رَفْع العذاب عن قوم لوط، لأن الله وصفه بالحلم والرحمة.

﴿يا إبراهيمُ أَعْرِضْ عن هذا﴾ [هود: ٧٦]: الضمير للجدال. أمره الله أن يسكتَ عنهم، لأن القضاء نفذ بعذابهم.

﴿يَقْدُمُ قومَه يَوْمَ القيامة﴾ [هود: ٩٨]: الضمير لفرعون، يعني أنه يتقدمهم إلى النار، وقد قدمنا أنّ كل طائِفة تتبعُ ما كانت تعبد، ويعقد لكل صاحب خصلة لواء فيتبعونه مَنْ كان يفعل فِعْلَه في الدنيا.

﴿يَوْمٌ مجموعٌ له الناسُ؛ وذلك يومٌ مشهود﴾ [هود: ١٠٣]؛ أي يحضره

الأوّلون والآخرون، ويجمعون الحسنات والثواب والعقاب، وإنما عَبَّر باسْمِ المفعول دون الفعل ليدلَّ على ثبوت الجمع ذلك اليوم، لأنّ لفْظ مجموع من لفظ يجمع.

﴿يوم يأت﴾ [هود: ١٠٥]: العامل في الظرف «لا تَكلّم» أو مضمر، وفاعل يَأتِ ضمير يعود على يوم مشهود. وقال الزمخشري: يعود على الله تعالى كقوله: ﴿أو يأتي ربُّك﴾. ويعضده عَوْد الضمير عليه في قوله: ﴿بإذنه﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يا أبَتِ﴾ [يوسف: ٤]؛ أي يا أَبي، والتاء للمبالغة. وقيل للتأنيث. وكُسرت دلالة على ياء المتكلم، والتاء عوض من ياء المتكلم. ودَعَا يوسف أباه باسم الأبوة ولم يَدْعُه باسمه؛ لأن مَنْ دعا أباه باسمه غلط، فكيف بمن جفاه، وقد أمرك الله أنْ تعاملَ أباك بمعاملتك مع الرسول؛ قال تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دعَاءَ الرسولِ بينكم كدعاءِ بعْضِكم بعضاً...﴾ [النور: ٦٣] الآية. وقال: ﴿لا تَرْفَعُوا أصواتَكم فَوْقَ صوتِ النبي﴾ [الحجرات: ٢]؛ وهو كان أباك في الدين، وكذلك علمك مع أبي النسب، كما علمك المعاملة مع أبي الدين. ويوسف قال: يا أبت ـ اقتدى فيه بجدِّه إبراهيم؛ لأنه دعا أباه الكافر باسم الأبوة، والله تعالى أعطاك أبوين مؤمنين، أنت أولى بتحليتهما؛ فإن الله تعالى أعطى خليله وحبيبه أبوين كافرين، وكان يتحلاَّهما وأنْتَ يا عَبْدَ الله تلحق بأبويك وتدخل معهما الفردوس الأعلى؛ قال تعالى: ﴿ومَن صَلَحَ من أبائِهم وأزواجهم وذرّياتهم﴾ [الرعد: ٢٣].

﴿يَخْلُ لكم وَجْه أبيكم﴾ [يوسف: ٩]: إخوة يوسف طلبوا ألاَّ يشاركهم أحد في محبته لهم وإقباله عليهم، فلما رأوه مال إلى يوسف دونهم وصلتهم الغيرة، والحبيب يغير على حبيبه، وأنْتَ يا عبدالله إن طلبت الخَلْوَة مع غير مولاك تضيق عليك المسالك؛ لأنه سبحانه غيور لا يطلع على عبده، فيجد فيه غيرة. قال تعالى: إن طلبتني أخدمتك المكونات، وإن طلبت غيري أعوزتها عليك، ولا يكون لكَ إلا ما أُريد.

﴿يلتَقطْهُ بَعض السيَّارة﴾ [يوسف: ١٠]: السيارة جمع. وهم القوم الذين يسيرون في الأرض للتجارة وغيرها، ومنه قولهم: لقيته التقاطاً ووردت الماء التقاطاً: إذا لم ترده.

﴿يَعْصِرون﴾ [يوسف: ٤٩]؛ أي يعصرون الزيتون والعِنَب والسمسم وغير ذلك مما يعْصر.

﴿يا بَنِيَّ لا تدخُلوا من بابٍ واحدٍ﴾ [يوسف: ٦٧]: خاف يعقوب على أولاده من العين إن دخلوا مجتمعين؛ إذ كانوا أهْل جَمَال وهَيْبة، ويؤخذ من هذا الحذر، والحذَر لا يُغني من القدر، ولكن الله أمر بالتحرز مما يخاف منه، ولذلك قال ﷺ: «المؤمن كَيِّس حذر». وفي رواية: الحَزْم سوءُ الظن.

﴿يدَبِّر الأَمْرَ يفصِّلُ الآياتِ﴾ [الرعد: ٢]: يعني أمر الملكوت وآيات كتبه.

﴿يُغْشِي الليلَ النَّهارَ﴾ [الرعد: ٣]؛ أي يلبسه فيصير له كالغشاء، فيصير أسود مظلماً، كما كان أبيض مشرقاً.

والأَول فاعل في المعنى، وهو على إضمار فِعْل؛ أي ويغشي النهار الليل. ويحتمل أَنْ يراد في الآية الزمان الذي بين الفجر وطلوع الشمس على القول بأنه من النهار؛ فهو إشارةٌ إلى أن الليل يخالط النهار في ذلك الزمان، ولذلك اختلفوا هل من الليل أو من النهار أو قسم ثالث قائم بنفسه؟ فقيل الكلام في ذلك الزمان باعتبار الشرع، وفي الآية باعتبار اللغة.

﴿يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بحمده والملائكةُ من خيفته، ويُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ [الرعد: ١١٣]: قد قدمنا تسبيحَ الرعد وأنه يسبح الرعد من خيفته بحمده، والملائكة بحمده من خيفته، والصواعق النازلة من السماء عذاباً لله شعلة يصيب بها من يشاء من عباده وخَلْقه.

﴿يُريكم البَرْقَ خَوْفاً وطَمعاً﴾ [الرعد: ١٢]: نسب الرؤيَة للبرق والإنشاء

للسحاب، لأن الأشياء المرئية أسهلها على البصر السواد والخضرة، وأصعبُها البياض الساطع، فنحن نعجز عن مداوَمَةِ النظر إليه. وانظر قوله: ﴿يكادُ سَنَا بَرْقِهِ يذهَب بالأبصار﴾ [النور: ٤٣]. وأما السحاب فجِرْم يقبل حدّاً، فالنعمة التي فيه هي إبرازهُ من العدم إلى الوجود. وخوفاً وطمعاً حالان، ويحتمل أن يكونا مفعولاً من أجلها؛ إذْ ليسا عنده فعلين لفاعل الفعل المعلّل في أن الله لم يخلق الشر ولا أراده، ونحن نجيز ذلك، ونقول: أراده وخلق في قلوب بَعْضِنا الخوفَ منه، وفي قلوب آخرين الطمعَ فيه، والفَرْقُ بين إرادة الخوف وبين الخوف أنكَ تريد من زيد أن يخاف منك ولا تقدر على إيقاع ذلك به. الزمخشري: يخاف المطر مَنْ يضرّه كالمسافر، ومن في جَرِينه التمر والزَّبيب، ومَن له بيت يقطر عليه، ومن البلاد من يتضرَّرُ أهلُها بالمطر كأَهْل مصر، فإنه يفسد عليهم أبنيتهم ونزولُ المطر فيها قليل جداً.

﴿يَضْرِبُ الله الأمثالَ. للذين استجابُوا لربِّهم الحُسْنى﴾ [الرعد: ١٧، ١٨]: انظر هل تارك الصلاة مستجيب لنُطْقِه بالشهادتين والظاهرُ أنه مستجيب بالشهادتين فقط لا مطلقاً.

﴿يَسْتَحِبُّون الحياةَ الدنيا﴾ [إبراهيم: ٣]؛ أي يختارونها على الآخرة. والضمير عائد على الكفار، ومَنْ تشبَّه بهم في فعلهم يخاف عليه من اللحوق بهم في حُبّه للدنيا وتفضيلها على الآخرة.

﴿يتَجَرَّعُه ولا يَكادُ يُسِيغُه﴾ [إبراهيم: ١٧]: الضمير يعود على مَنْ أُدخل النار، يعني أنه يتكلف جرعه، وتصعبُ عليه إساغته، يعني بَلْعه، ونَفْي ﴿كاد﴾ يقتضي وقوعَ الإساغة بعد جهد.

﴿يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبّه إلا الضّالُّون﴾ [الحجر: ٥٦]: قرىء بفتح النون وكسرها، وهما لغتان. وفي هذه الآية دليل على تحريم القُنوط، ووصف القانط في هذه الآية بالضلال، وفي سورة يوسف بالكفر؛ وكلاهما بمعنى واحد؛ لأن سببه

تكذيبُ الربوبية، وجهل بصفات الله وقدرته، وماذا يزيد في ملكه أو ينقص تعذيب الخلق كلّهم أو رحمتهم.

﴿يَتَفَيَّأُ ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّداً لله﴾ [النحل: ٤٨]: المقصود بهذه الآية الاعتبارُ والنظر؛ ولذلك ابتدأها بقوله تعالى: ﴿أو لَمْ يَرَوْا إلى ما خَلَقَ الله من شيء﴾. والرؤية بصرية بسبب تعدِّيها بإلى، كما قال تعالى: ﴿أفلاَ ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت﴾ [الغاشية: ١٧]، والإنكارُ ليس هو لنفس الرؤية، بل للازمها. وانظر هل وقع التوقيف بمجموع تفيُّؤ الظلال وكونها سجَّداً لله، أو بكونها سجَّداً لله فقط؟ وهل قوله: يتفيأ ظلاله حال أو صفة، ونظيره قولك: ألم آتِكَ بزيد العالم راكباً، وقوله: ألم آتك بزيد عالماً راكباً. والصوابُ الأول، لأنَّ نفيها أمر حسّي مشاهد، وكونها سجداً للهِ لا يُدْرَك بالمشاهدة، بل بالدليل العقلي. وعلى هذا التأويل تكون الآية حجة لمن يقول: إنّ العرض لا وجود له. والمشهورُ عند المتكلمين أنه أمر وجودي، حكى القولين المقترح.

ووجهُ الدليل أَنّ الآية دلّت على أنّ كل شيء مخلوق لله تعالى؛ وأن ظله متفيّأ ساجد لله تعالى، والتفيّـؤ من صفات الأجرام والذوات، والعَرض ليس بذات، فليس بمخلوق لله تعالى، وهذا كفْر؛ وإذا جعلنا يتفيأ صفة لشيء يكون المعنى أن كلَّ شيء موصوفٌ بالتفيؤ، فهو مخلوق لله، فأنكر عليهم عدمَ الاعتبار به حالَ سجوده، وقوله يتفيأ؛ أي يرجـع إلى اليمين؛ أي يريد يمين الناظر إليه لأن الناظر إلى الظل أو النهار ينظرُ إلى جهةِ القبلة، حيث محلّ طلوع الشمس، فيكون الظلّ حينئذ عن يمينه، فلذلك بدأ باليمين، فالظلُّ يرجع عن جهة اليمين إلى جهة الشمال؛ لأن «عن» تقتضي المجاوزة، فالمراد مجاوزَتُه جهةَ اليمين إلى جهة الشمال، والعكس.

فإن قلت: لم أفرد اليمين وجمع الشمال؟

فالجواب: بوجهين: الأول أنّ الظلَّ حالة كونه عن يمين الناظر، وذلك أول النهار، يَأخذ في النقص، فكانت له جهة واحدة نقص عنها، وفي آخر النهار

يأخذ في الزيادة إلى الشمال والجهة التي طال ظلّه إليها لم تكن له قبل ذلك، وكلما زاد بعد إلى جهة يسار الناظر، فكأنّ تلك الزيادة بتكثرها واختلافها شمائل، بخلاف أول النهار فإنه لم يزدْ، بل نقص عن حدّه الذي كان، فصار كأنه بعْض اليمين، فضلاً عن أن يكون أيمان.

الوجه الثاني أنَّ اليمين مأخوذ من اليمـن؛ وذلك راجع إلى طريق الحق؛ والشمال راجع إلى طريق الباطل بدليل قوله تعالى: ﴿أصحابُ اليمين ما أَصحابُ اليمينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]. ﴿وأصحابُ الشمالِ ما أَصحابُ الشمال﴾ [الواقعة: ٤١]. وطريقُ الحقّ واحدةٌ وطرقُ الباطل متعددة، والآية دالَّةٌ على كمال التوحيد لله عزّ وجل؛ لأن مذهبنا أنّ الأعراضَ لا تبقى زمانين، فما مِنْ جوهر إلا وهو مفتقرٌ في كلّ زمن إلى أعراض يستمد بها؛ ولا بد لذلك مِنْ فاعل، ولا يصح تعدُّد ذلك الفاعل لما تقرَّرَ في دلالة التمانع.

فإن قلْتَ: هلا قيل: أو لم يَرَوْا إلى ما خلق من شيء ـ فقط، ويكفي هذا في الاعتبار؛ فإنَّ العبرةَ بالتفكر بالنظر إلى لقاح الشجرة التي في رؤية العين: عود يابس؛ وبروزُ الثمر منها والورق أقوى من العبرة بالنظر إلى ظلالها.

والجواب: أَنَّ الظلال إنما تنشأ عن ملاقاة نور جرم الشمس جرم الشجر الكثيف المظلم.

ومذهبنا أنّ الأجسامَ متسـاويـةٌ في الحد والحقيقـة، فلا فَـرْقَ بين الشمس والشجرة، فحجبت الشجرة بكثـافتهـا وظلمتهـا نـورَ الشمس، ومـا ذاكَ إلا لتخصيص أَوْجبه الله تعالى. ولا بدّ لذلك من مخصِّص، ويستحيل تعدُّده، فدلّ ذلك على أنه واحد.

قال الزمخشري: والسجودُ هنا الانقياد، وجعله مُتَنَاوِلاً للعاقل وغيره، لأنه قال: أي يرجع الظلال من جانب إلى جانبٍ منقادة لله غير ممتنعة عليه فيها سخَّرَها له من التفيؤ، والأجرامُ في نفسها صاغـرةٌ منقـادة لأفعـال الله فيهـا،

وهذا مما يردُّ به على من قال: إن صيغة أفعل للقَدْرِ المشترك بين الوجوب والندب. ويقول: إن القَدْرَ المشترك لا وجودَ له في كلام العرب، مع أن الزمخشري أثبته هنا، واستعار هنا الأيمان والشمائل لأنهما في الحقيقة للإنسان.

﴿يدُسُّه في التُّراب﴾ [النحل: ٥٩]: المعنى يريد وينظر هل يمسكُ الأنثى التي بُشّر بها على هوَانٍ وذُل، أو يدفنها في التراب حيَّةً، وهي الموءودة المذكورة في: ﴿إذا الشَّمْسُ كُوِّرَت﴾ [التكوير: ١].

﴿يَجْحَدونَ﴾ [النحل: ٧١]: يعني أن هؤلاء الكفار يُنْكرون نِعَم اللهِ عليهم في جَعْلهم أزواجاً من أنفسهم زيادة في لذّاتهم، وجعل للأنثى ما للذكر من الشهوة، ليكـمُلَ مرادُهم، ورزقهم من الطيبات، فهل يُنْكِرُ هذا إلا مَنْ طُبع على قلبه، لأنه يشاهدها.

فإن قلت: لم جمعت حواء في قوله تعالى: ﴿والله جعل لكم مِنْ أنفسكم أَزواجاً﴾ [النحل: ٧٢]؟

والجواب اعتباراً بنسلها، وأَطلق عليهم أزواجاً مجازاً، استعمالاً للفظ في حقيقته ومجازه.

﴿يَكْبُرُ في صدُوركم﴾ [الإسراء: ٥١]: يعني السموات والأرض والجبال، وقيل: بل أَحال فكرتهم على ما هو كبير عندهم؛ أي لو كنتم حجارةً أو حديداً أو شيئاً أكبر عندكم من ذلك وأبعد عن الحياة لقَدَرْنَا على بعثكم.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكم فتَسْتجيبُون بحمْدِه﴾ [الإسراء: ٥٢]: الدعاء هنا عبارة عن النَّفْخ في الصور للبعث، والاستجابة عبارة عـن قيـامهـم مـن القبـور طـائعين منقادين. وبحمده في موضع الحال؛ أي حامدين له. وقيل معنى بحمده أي بأمره.

﴿يَنْقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]: وزنه ينفعل. وقيل يفعل بالتشديد كيَحْمَرّ.

ومعناه يسقط، وإسناد الإرادة إلى الجدار مجاز. ومثلُ ذلك كثير في كلام العرب، وحقيقته أنه قارب أنْ ينقضّ.

﴿يَظْهَرُوه﴾ [الكهف: ٩٧]: الضمير يعود على السد، ومعناه يعلوه.

﴿يَفْرُط﴾ [طه: ٤٥]: يُعَجّل بالشر.

﴿يُخَيَّلُ إليه مِنْ سِحْرِهم أنها تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]: استدلّ بعضهم بهذه الآية على أنَّ السِّحْر تَخْييل لا حقيقة. وقال بعضهم: إن حِيَل السحرة في سَعْيِ الحبال والعصيّ هي أنها حشَوْها بالزئبق، وأوقدوا تحتها ناراً، وغطّوا النارَ لئلا يراها الناس، ثم وضعوا عليها الحبال والعصيَّ. وقيل جعلوها معرضة للشمس، فلما أحس الزئبق بحرِّ النار أو الشمس سالَ وهو في حَشْو الحبال والعصي فحملها، فيُخيّل للناس أنّها تمشي. فألقى موسى عصاه فصارت ثعباناً ابتلعت ذلك كلّه.

﴿يَبَساً﴾ [طه: ٧٧]: أي يابساً، وهو مصدر وُصِفَ به، وإنما كان يابساً ليستطيعوا المرور عليه ويسرعوا فيه، فيذهب روعهم مِنْ لحوقِ فرعون لهم. وأعظمُ من ذلك أنَّ الله فتح لهم في البحر طاقاتٍ ليرى مَنْ في هذا الطريق من في هذا، فيتأنّسُونَ لأنها كانت اثني عشر طريقاً، فسبحان مَنْ لا يُعْجزه شيء.

﴿يَتَخَافَتُون بَيْنَهم إن لبثْتُم إلاّ عَشْراً﴾ [طه: ١٠٣]: يعني عشر ليال. والضميرُ يعود على أهل القيامة فيُسِرُّ بعضُهم إلى بعض ويقول: هل لبثم إلا يوماً. وقيل: يعني الْمُكْثَ في القبور. والذي قال: إن لبثْتُم إلا يوماً أَعلمهم بقلةِ الْمُكْثِ فيها. وفي الحقيقة فالدنيا والْمُكْث في القبور كلَمْحِ البصر أو هو أَقرب، ولذلك يقول تعالى في آية أخرى: ﴿كأنهم يَوْمَ يَرَوْنَ ما يوعَدُون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار﴾ [الأحقاف: ٣٥]. فإنّا لله وإنا إليه راجعون على غَفْلتنا على ما يُراد بنا. الدنيا كلُّها ساعة، وليس لك منها إلا النَّفَس الذي أنْتَ فيه، إذ كم مَنْ تنفَّس نَفساً فَفَجَأَهُ الموت قبل النفس الآخر. وسيظهر لك تحقيقُ ذلك إذا انْجَلَى الغبار.

﴿يَنْسِفها رَبّي نَسفاً﴾ [طه: ١٠٥]؛ أي يجعل الجبالَ كالغبار ثم يفرقها.

﴿يَمّ﴾ [طه: ٣٩]: قد قدمنا أَنَّ المرادَ به البَحْر بالسريانية. وقال ابن الجوزي بالعبرانية. وقال شيذلة بالقِبطية.

﴿يَرْكُضون﴾ [الأنبياء: ١٢]: الضمير يعود على الكفار، والمعنى أنهم يوم القيامة يَرْكضُون على أرجلهم تشبيهاً لهم بمَنْ يركض الدابّة.

فإن قلت: قد قدمتم أنهم يحشَرون على وجوههم؟

فالجواب أنَّ الملائِكة تسوقُهم بعصيٍّ من نار، فإذا رأوهم قاموا على أقدامهم يركضون فراراً منهم، فتقول لهم الملائكة على وَجْه التهكم: لا تركضوا اليوم.

﴿يَدْمَغُه﴾ [الأنبياء: ١٨]؛ أي يَقْمَعه ويُبطله. وأَصله من إصابة الدماغ بالضرب، وهو مقتل.

﴿يُنْشِرُون﴾ [الأنبياء: ٢١]: يعني أنّ الآلهة التي اتخذها المشركون لا يقدرون أَنْ يَنْشُروا الموتى من الأرض، فكيف تدعونها بالآلهة. والإله مَنْ له القدرةُ على الإحياء والإماتة.

﴿يَغوصونَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]: يعني أن الشياطين كانت تدخل في الماء لاستخراج الجَوْهر من البحار.

﴿يَنْسِلون﴾ [الأنبياء: ٩٦]: أي يسرعون. ويقال مر الذئب ينسل ويعسل.

والضمير ليأجوج ومأجوج؛ أي يخرجون في كل طريق لكثرتهم. وقيل لجميع الناس.

﴿يُصْهَرُ بهِ ما في بُطُونِهم والجلودُ﴾ [الحج: ٢٠]؛ أي يُذَاب؛ وذلك أنّ الحمِيمَ إذا صُبَّ على رؤوسهم وصَلَ حَرُّه إلى بطونهم، فأذاب ما فيها. وقيل: معنى يُصْهَر ينضج بلسان أهل المغرب، حكاه شيذلة.

﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥]: يعني يوم بَدْر، لأنهم كانوا يظنون استئصالَ المسلمين؛ لأنّ الله قلّلهم في أعين الكفار. وقد حضر فيها صناديدُ المشركين وشُجْعانهم فأمكن الله منهم المسلمين، وكان يوماً عظيماً؛ لأنها كانت أول غزوة أرعب الله بها الكفار وأرغمهم.

﴿يكادون يَسْطُون﴾ [الحج: ٧٢]: من السطوة، وهي سرعة البَطْش.

والضمير يعود على الذين كفروا. ويُعْرَف ذلك في وجوههم بعبوسها وإعراضها.

﴿يَجْأرون﴾ [المؤمنون: ٦٤]؛ أي يستغيثون ويصيحون. والضمير راجع على المأخوذين بالعذاب، فإن أراد بهم قتالَ المتحرفين يوم بَدْر فالضميرُ في يجأرون لسائر قريش؛ أي ناحوا على القتلى. وإن أراد بالعذاب شدائد الدنيا أو عذاب الآخرة فالضميرُ لجميعهم.

﴿يأْتَلِ﴾ [النور: ٢٢]؛ أي يحلف، فهو من قولك: آليتُ إذا حلفتُ. وقيل معناه: يقصر، فهو من قولك: ألوت، أي قصرت، ومنه: ﴿لا يَألُونكم خَبَالاً﴾ [آل عمران: ١١٨].

ونزلت الآية بسبب مِسْطح، فإن أبا بكر كان يُنْفِق عليه، فلما وقع في عائشة حلف ألاَّ يُنْفِقَ عليه، فعاتبه الله على عدم النفقة، وأمره بردِّها. وهذه أَرْجَى آية في كتاب الله؛ لأن الله عاتب حبيبه على عدوّه، وأمره بالعفو عنه.

﴿يكاد زَيْتها يضِيء ولو لم تَمْسَسْه نارٌ﴾ [النور: ٣٥]: مبالغة في وصف صفائه وحسنه.

﴿يهدي الله لنُورِه مَنْ يَشَاء﴾ [النور: ٣٥]، أي يوفِّق الله مَنْ يشاء لإصابة الحق. فهنيئاً لكَ يا محمدي على هدايتك وتوفيقك. وكيف لا وقد سمّى الله الإيمانَ في كتابه بنحو الثلاثين اسماً؟ وهل ذلك إلا لعظمه؛ قال تعالى: ﴿اهْدِنا

الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦]. ﴿ذلك الدِّين القيِّم﴾ [التوبة: ٣٦]. ﴿إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيّب﴾ [فاطر: ١٠]. الكلمة الطيبة: مثل كلمةٍ طيبة، ﴿قولاً سديداً﴾. ﴿العُرْوة الوثقى﴾. وكلمة الله هي العليا. وجعلها كلمة باقية في عقبِه، وألزمهم كلمةَ التَّقوى، وقال صواباً، ﴿إنّ الدِّين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩]. ﴿إن الله يَأمُر بالعدل والإحسان﴾ [النحل: ٩٠]. ﴿ولكن البِرَّ من اتَّقَى﴾ [البقرة: ١٨٩]. ﴿من جاء بالحسنةِ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. ﴿هل جَزَاءُ الإحسانِ إلا الإحسان﴾ [الرحمن: ٦٠]. ﴿قُلْ أمر ربّي بالقِسط﴾ [الأعراف: ٢٩]. ﴿هو الذي أرسل رسولَه بالهدى، ودِين الحق﴾ [التوبة: ٣٣]. ﴿فِطْرَةَ الله التي فَطَر الناسَ عليها﴾ [الروم: ٣٠]. ﴿صبغة الله﴾ [البقرة: ١٣٨]. ﴿ملّة أبيكم إبراهيم﴾ [الحج: ٧٨]. شهد الله.

﴿يخافُون أنْ يَحِيفَ الله عليهم﴾ [النور: ٥٠]: ضمير الفاعل يعود على الذين في قلوبهم مرض. وضمير المفرد يعود على الله؛ وإنما أسنده إلى الرسول، لأنه يحكم بأمره وشَرْعه.

﴿يَتَسلّلُون﴾ [النور: ٦٣]: يخرجون من الجماعة واحداً واحداً، كقولك: سللت كذا من كذا إذا أخرجته منه.

﴿يقول: أأنتم أَضْلَلْتُم عبادِي هؤلاء أَمْ هُمْ ضَلّوا السبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]: القائِل لذلك هو الله عزّ وجل، والمخاطب المعبودون مع الله على العموم، وقيل الأصنام خاصة.

والأول أرجح لقوله: ﴿ثم يقولُ للملائكة أهؤلاءِ إياكم كانوا يعبدون﴾ [سبأ: ٤٠]. وقوله: ﴿أأنْتَ قُلْتَ للناسِ اتَّخِذُوني وأمي إلهين من دون الله﴾ [المائدة: ١١٦]. و«أم» هنا معادلة لما قبلها. والمعنى أن الله تعالى يقول للمعبودين: «أأنتم أضْلَلْتُمُوهُمْ أم هم ضلُّوا السبيل مِنْ تِلْقَاء أنفسهم

باختيارهم، ولم تضلوهم أنتم» ولأجل ذلك بَيّن هذا المعنى بقوله: ﴿هم﴾ ليتحقق إسناد الضلال إليهم، وإنما سألهم الله تعالى هذا السؤال مع عِلْمِهِ بالأمور ليوبخ الكفارَ الذين عبدوهم.

﴿يكون لِزَاماً﴾ [الفرقان: ٧٧]؛ أي يكون العذاب ثابتاً، وإنما أضمره وهو اسْمُ كان، لأنه جزاء التكذيب المتقدم. واختلف هل يكون العذاب هنا القَتْل يوم بَدْر، أو عذاب الآخرة؟

﴿يَضِيقُ صَدْرِي﴾ [الشعراء: ١٣]: بالرفع عطفاً على أخاف، أو استئناف. وقرىء بالنصب عطفاً على يكذبون.

﴿يوم لا يَنْفَعُ﴾ [الشعراء: ٨٨] وما بعده منقطع عن كلام إبراهيم، وهو من كلام الله تعالى. ويحتمل أن يكون من كلام إبراهيم.

﴿يَنْبغي لهم وما يَسْتطِيعون﴾ [الشعراء: ٢١١]؛ أي لا يستطيعون من الكهانة، لأنهم منعوا من استراق السمع مُذْ بعث نبينا ﷺ ولا يقدرون عليه، فكيف يقولون إن هذا القرآن كهانة تنزلَتْ به الشياطين. ولفظة ﴿ينبغي﴾ تارة تستعمل بمعنى لا يمكن، وبمعنى لا يليق.

﴿يَهيمون﴾ [الشعراء: ٢٢٥]؛ استعارة وتمثيل. والمعنى أن الشعراء يذهبون في كل واد من الكلام الحقّ والباطل، ويفرطون في التجوّز حتى يخرجوا إلى الكذب.

﴿يَسْتَصرخه﴾ [القصص: ١٨]؛ أي يستغيث بموسى. وذلك أنه لقيه قاتلُ القبطي بالأمس يقاتلُ رجلاً آخر من القبط، فاستغاث بموسى لينصره كما نصره بالأمس، فعَظُم ذلك على موسى، وقال له: ﴿إنك لَغَوِيٌّ مُبين﴾ [القصص: ١٨].

﴿يترَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨، ٢١]؛ أي يتجسس هل يطلبه أحد، لأنه شاع خبره من الإسرائيلي الذي قال له: أتريد أنْ تَقْتُلني كما قتلْتَ نفساً بالأمس، فلما

سمع القبطي ما قال الإسرائيلي انطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون بقَتْل موسى، ولهذا قيل: عدوّ عاقل خير من صديق جاهل، والإشارة فيه أن موسى عليه السلام كان كريماً، والإسرائيلي لئيماً، فلم ينظر موسى إلى لؤمه، ولكن عاملَه بكرمه.

وأنْتَ يا محمديّ كيف يعاملك ربُّك، وقد أقررْتَ له بالوحدانية ولنبيِّه بالرسالة، وقد أعطاء واصْطَفاك من غير سؤال منك؛ أحبَّك وأقرضك، وأسبغ عليك نِعَمَه ظاهرةً وباطنة، وأعذر إليك بقوله: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبَغَوْا في الأرض﴾ [الشورى: ٢٧]، ووَعدكَ بإجابتك. فمَنْ أولى منك بالكرامة؟

فإنْ قلت: كيف يستغيثُ الإسرائيلي بموسى وقد أراد موسى أن يبطش بالقبطي الذي هو عدوٌّ لهما، ثم قال له: أتريد أنْ تَقْتلني؟

والجواب: يحتمل أن الإسرائيلي لما رأى موسى يَبْطش بالقبطي وهو غضبان كغضبه بالأمس خاف أن يكونَ أراده، ولم يُرِده موسى. أو لما رأى عَجْزَ موسى عن استصراخه لما صدر منه بالأمس مِن القتل فضَحه الإسرائيلي.

﴿يأتَمِرُون بكَ ليقتلوك﴾ [القصص: ٢٠]: لما أمر فرعون بقَتْلِ موسى أخبره مَنْ حضر عند فرعون، أو أخبره من سمع الخبر، وقال له: سمعتهم يتآمرون بك لما قتلت القبطي. وخصت آيةُ القصص بتقديم الرجل في قوله تعالى: ﴿وجاء رجل﴾؛ لأن قبله: فوجد فيها رجلين يَقْتَتِلان. وخصت سورة يس بالتأخير؛ لأنه كان يعبد الله في جبل، فلما سمع خَبرَ الرجل سَعى مستعجلاً.

وقد قدمنا أنَّ السعي من أوصاف الإسراع في قوله تعالى: ﴿يأتِيْنَكَ سَعْياً﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فانظره هناك.

﴿يُصْدِرَ الرِّعَاء﴾ [القصص: ٢٣]، بضم الياء وكسر الدال فعل متعدّ، والمفعول محذوف تقديره يصدر الرعاء مواشِيَهم. وقرىء بفتح الياء وضمّ الدال؛ أي ينصرفون عن الماء.

﴿يومئذ يفرح المؤمنون. بنَصْرِ الله﴾ [الروم: ٤، ٥]: روي أنّ غلب الروم لفارس وقع يوم بَدْر. وقيل يوم الحُدَيبية؛ ففرح المسلمون بنَصْر الله لهم على قريش. وقيل: فرح المؤمنون بنصر الله لهم على الفرس؛ لأن الروم أهْلُ كتاب، فهم أقرب إلى الإسلام، وكذلك فرح الكفّارُ من قريش بنَصْر الفرس على الروم؛ لأن الفرس ليسوا بأهل كتاب، فهم أقرَبُ إلى كفار قريش. وروي أنه لما فرح الكفّار بذلك خرج إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: إن نبيَّنا ﷺ قد أخبرنا عن الله أنهم سيغلبون، وراهنهم عشر قِلاَص إلى ثلاث سنين، وذلك قبل أن يُحَرَّم القمار، فقال ﷺ: «زِدهم في الرهن واستَزِدْهم في الأجَل»، فجعل القلاص مائة والأجَل تسعة أعوام، وجعل معه أُبَيّ بن خلف مثل ذلك فلما وقع الأمر على ما أخبر الله به أخذ أبو بكر القلاص من ذُرية أبيّ بن خلف؛ إذ كان قد مات، وجاء إلى النبي ﷺ فتصدّق بها.

﴿يَرْبو﴾ [الروم: ٣٩]: يزيد. وقدمنا أن عقوبة الربا مَحْق المال، ومحاربة الله والكفر، والخلود في النار. وقيل: إن شُرب الخمر، وأكل الربا، وأموال اليتامى، وتَرْك الصلاة، والزنى يُخَاف على صاحبها من سوء الخاتمة. وهذا كلّه موجود في كتاب الله. اللهم إني أعوذُ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رَبّ أن يحضرون.

﴿يومئذٍ يصّدَّعُون﴾ [الروم: ٤٣]: من الصدع، وهو الفرقة؛ أي يتفرقون: فريقٌ في الجنة وفريق في السَّعِير.

﴿يَمْهَدون﴾ [الروم: ٤٤]: يوطئون، وهو استعارةٌ من تمهيد الفِرَاش ونحوه. والمعنى أنهم يفعلون ما ينتفعون به في الآخرة.

﴿يخرج من خِلاَله﴾ [الروم: ٤٨]؛ أي يخرج المطر من شقاق السحاب الذي بَيْنَ بعضه وبعض، لأنه متخلّل الأجزاء.

﴿يؤفكون﴾ [الروم: ٥٥]؛ أي مثل هذا الصرف كانوا يُصرفون في الدنيا عن الحق. والتحقيق حتى يروا الأشياء على غير ما هي عليه.

﴿يوم البَعْث﴾ [الروم: ٥٦]: تقرير لهم، وهو في المعنى جوابُ الشرط مقدر، تقديره إنْ كنتم تنكرون البَعْثَ فهذا يومُ البعث.

﴿يستَخِفَّنك﴾ [الروم: ٦٠]: من الخفة؛ أي لا تضطرب لكلامهم، واصبر، ما وعدك الله به من النصر فعن قريب يكون.

﴿يستَعْتَبون﴾ [الروم: ٥٧]؛ من الْعُتْبى، بمعنى الرضا؛ أي لا يرضون، وليس استفعل هذا للطلب، ويفهم من هذا أن المؤمن يستعتب، أي يطلب منه الْعُتْبى، وقد قدمنا أَنَّ الله قال: لولا أَني أُحبُّ العتابَ ما حاسبْتُ أمتك. وقال بعضهم:

تَبَادَلْنَ العتابَ على ارتيابٍ وصَفْوُ الوُدِّ يُعْرَفُ بالعتابِ

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس: ٣، ٣١، والرعد: ٢، والسجدة، ٥]؛ أي واحد الأمور. وقيل: المأمور به من الطاعات. والأول أصح.

﴿يَعْرُجُ إليه في يومٍ كان مِقْدارُه أَلفَ سَنةٍ مما تَعُدُّون﴾ [السجدة: ٥]: قال ابن عباس: المعنى ينفِّذُ الله قضاءَه من السماء إلى الأرض، ثم يَعْرُج إليه خَبَرُ ذلك في يومٍ من أيام الدنيا مقدارُه، لو سِير فيه السيرُ المعروف من البشر، أَلفُ سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة، فألف ما بين نزول الأمر إلى الأرض وعروجه إلى السماء وقيل: إنَّ الله يُلقي إلى الملائكة أمورَ أَلفِ سنة من أعوام البشر، وهو يَوْمٌ من أيام الله، فإذا فرغَتْ أَلقى إليهم مِثْلَها، فالمعنى أنَّ الأمور تنفذ عنده لهذه المدة، ثم تصير إليه آخراً؛ لأن عاقبةَ الأمورِ إليه، فالعروج على هذا عبارة عن مصير الأمورِ إليه.

﴿يتوَفَّاكم مَلَكُ الموتِ الذي وكِّلَ بكم﴾ [السجدة: ١١]: قد قدمنا أنّ اسمه عزرابيل، وبين يديه ملائكةٌ، مِنْ تَوَفِّي العدد واستيفائِه. والتوفي من الله الإذن في قبض الأرواح، ومن الملائكة نَزْع الروح، ومن ملك الموت القبض، ومن الرسل معاونة ملَك الموت، وبهذا يتَّضِحُ لك الْجَمْعُ بين الآيات الثلاث.

﴿يَثْرِبَ﴾ [الأحزاب: ١٣]: مدينة الرسولِ ﷺ؛ وسُمّيَتْ به حكاية عن المنافقين، وكان اسمها في الجاهلية، فقيل لأنها اسم أَرْضٍ هي في ناحيتها.

وقيل سُمّيَتْ بِيَثْرب بن مهلائيل من بني إرم بن سام بن نوح، لأنه أول مَنْ نزلها. وقد صحَّ النَّهْيُ عن تسميتها به، لأنه ﷺ كان يكره الاسْمَ الخبيث، وهو يُشعر بالتثريب، وهو الفساد؛ أو التثريب، وهو التوبيخ. ومنه: ﴿لا تَثْرِيبَ عليكمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ الله لكم﴾ [يوسف: ٩٢] وقوله: ﴿اليوم﴾ راجع إلى ما قبله، فيوقف عليه. وهو يتعلق بالتثريب أو بالمقدر في ﴿عليكم﴾ من معنى الاستقرار. وقيل: إنه يتعلق بيَغْفر؛ وذلك بعيد، لأنه تحكُّم على الله؛ وإنما يغفر دعاء، فكأنه أَسقط حقَّ نفسه بقوله: ﴿لا تَثْريب عليكم اليوم﴾، ثم دعا إلى الله أَنْ يغفر لهم حقَّه.

﴿يَقْنُت﴾ [الأحزاب: ٣١]: بالياء حملاً على لفظ من. وقرىء بالتاء حملاً على المعنى وكذلك ﴿تعمل﴾ [الأحزاب: ٣١]. والقنوت هنا بمعنى الطاعة.

﴿يومَ تُقَلَّبُ وجوهُهم في النار﴾ [الأحزاب: ٣١]: العامل في ﴿يوم﴾ قوله: ﴿يقولون﴾ [الأحزاب: ٦٦] أو ﴿لا يجدون﴾ [الأحزاب: ٦٥]، أو محذوف.

وتقليبُ وجوههم تصريفُها في جهاتِ النار كما تدورُ البضعة في القلب إذا غلَتْ من جهة إلى جهة، أو تغيرها عن أحوالها.

﴿يُنَبِّئُكم إذا مُزِّقْتُم كلَّ مُمَزَّق﴾ [سبأ: ٧]: معنى مُزِّقتم أي بَليتم في القبور وتقطعت أَوصالكم، ﴿وكلَّ ممزَّق﴾ مصدر. ﴿والخلق الجديد﴾ [سبأ: ٧]: هو الْحَشْر في يوم القيامة والعامل في « إذا » معنى إنكم لفي خَلْق جديد معمول يُنبئكم، وكسرت إن للاَّم التي في خبرها؛ ومعنى الآية أنَّ ذلك الرجل يخبركم أنكم تُبْعَثون بعد أنْ بَليتم في الأرض، ومرادهم استبعاد الحشر.

﴿يَرَوْا إلى ما بين أيديهم وما خَلْفَهم من السماء والأرْض﴾ [سبأ: ٩]:

الضمير للكفار المنكرين للبعث، وجعل السماء والأرض بين أيديهم وخَلْفهم، لأنها محيطتان بهم. والمعنى ألم يَرَوْا إلى السماء والأرض فيعلموا أن الذي خلقها قادر على بَعْث الناس بعد موتهم. ويحتمل أن يكون المعنى تهديداً لهم، لأنه فسره بقوله: ﴿ إنْ نَشَأ نَخْسِفْ بهم الأرض، أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء ﴾ [سبأ: ٩].

﴿يا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَه والطَّيْرَ وأَلَنَّا لَه الْحَدِيد﴾ [سبأ: ١٠]: الضمير لداود، تقديره: قلنا يا جبال. والجملة تفسير للفضل. ومعنى أَوِّبي سبِّحي، وأصلُه من التّأويب بمعنى السَّير بالنهار، وقيل كان ينوح فتسعده الجبال بصَدَاها. والطير بالرفع عطف على لفظ يا جبال، وبالنصب عطف على موضع يا جبال. وقيل: هو مفعول معه. وقيل عطف على ﴿ فضلاً ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿يَبْسطُ الرزْقَ لمن يشاء ويَقْدر...﴾ [سبأ: ٣٦] الآية: أخبار تتضمن الردَّ على قولهم: ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ [سبأ: ٣٥]، لأنَّ بَسْطَ الرزق وقَبْضه في الدنيا متعلق بمشيئة الله، فقد يوسِّع الله على الكافر والعاصي، ويضيِّقُ على المؤمن والمطيع، وبالعكس.

وقد حكي أن مدينة ببلاد السودان إذا ملكها المسلمون صار أرْضها تراباً، وإذا ملكها الكفار صار أرضها تِبْراً، فأسلمها المسلمون للكفار على إعطاء الجزية، وهذا ليس بعَجب؛ إذ لو كانت الدنيا تزنُ عند الله جناحَ بعوضة ما سقي كافرٌ جَرْعة ماء. والمقصودُ منها التقوّت لما يوصل إلى الآخرة.

وحكى وهب بن منبه أنَّ ملكين التقيا في السماء الرابعة يهبطان إلى الأرض، فقال أحدهما للآخر: إن الله أمرني أنْ أوصل الحوتَ الفلانيّ لليهوديّ الفلاني لأنه اشتهاه. فقال الآخر: وإن العابد الفلاني يصوم وأراد إفطاره على الخبز والزيتون، وأمرني أن أهْبِط له. فانظر هذا؛ فإنّ تيسير الشهوات ليس من أسباب السعادة، وإن الله ليذود وليَّه عن الدنيا ويحميه عنها لئلا يشتغل بها،

﴿ولولا أَنْ يكونَ الناسُ أُمَّةً واحدة...﴾ [الزخرف: ٣٣] الآية. ونحن قد بُسط لنا فيها، وتمتّعْنَا بها، فانظر عاقبتَنا بِمَ تكون!

فإن قلت: ما فائدة تكرار هذه الآية، وإبراز «من عباده» في الثانية من سورة سبأ [٣٩]؟

والجواب: أنّ الله كرّرها لاختلافِ المقاصدِ، والردِّ على الكفّار في أقوالهم، وترغيب المؤمنين في الإعراض عنها والرجوع إلى مَنْ بيده مقاليدُها. وأبرز الضمير في ثانية سبأ ترغيباً لعباده في إنفاقها والخروج منها، وسلاّهم بوعده بالخلف، وأنهم إن خرجوا عنها يخلفه لهم؛ ووَعْدُه حقٌّ؛ ولهذا أشار عليه السلام بقوله: ما نقص مالٌ من صدقة.

فإن قلت: قد وجدناه ينقص في العَدد؟

والجواب أنه ليس بنقص؛ لأنه لا يأتي عليه إلا أيام قلائِل فيعود أكثر مما كان، وهذا مشاهدٌ. وقد يكون الخلف من حيث لا يظنّ. وقد يكون بالثواب المدَّخر أو بتكفير السيئات، كما قال تعالى: ﴿إن تبْدُوا الصدقات...﴾ [البقرة: ٢٧١] الآية. أو بالطهارة، كما قال: ﴿خُذْ مِنْ أموالهم صدقة تُطَهِّرهم﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ والإضعاف؛ قال تعالى: ﴿الذين يُنْفِقُون أموالَهم في سبيلِ الله﴾ [البقرة: ٢٦٢]. والقَبول: ﴿هو يَقْبَلُ التوبةَ عن عباده ويأخذ الصدقات﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقد جعل اللهُ جميعَ الطاعات على ثلاثة أقسام: جعل على اللسان التوحيد والذِّكْر والاستغفار والدعاء، وثوابُها عشر أمثالها. وعلى المال الصدقة والزكاة والنفقة، وثوابُها واحد لسبعمائة. وعلى القلب الصبر والقناعة والشكر والرضا، وثوابُها بغير حساب.

﴿يَقْذِفُ بالحق﴾ [سبأ: ٤٨]: القذف: الرَّمْي، ويستعارُ للإلقاء؛ فالمعنى يلقي الحقَّ إلى أنبيائه، أو يرمي الباطلَ بالحق فيذهب، ولذلك قال: ﴿وما

يُبْدِيءُ الباطلُ وما يُعِيد﴾ [سبأ : ٤٩]؛ فنفيُ الإبداء والإعادة عبارة عن أنه لا يفعل شيئاً ولا يكون له ظهور، أو عبارة عن ذهابه.

﴿يَقْذِفُون بالغيْبِ مِنْ مكانٍ بَعيدٍ﴾ [سبأ : ٥٣]: معطوف على ﴿كفرُوا﴾ [سبأ : ٥٣]. والمعنى أنهم يرمون بظنونهم في الأمور المغيبة، فيقولون: لا بعث ولا جنّة ولا نار. ويقولون في الرسول عليه الصلاة والسلام: شاعر أو ساحر، والمكان البعيد هنا عبارة عن بُطْلان ظنونهم وبُعْد أقوالهم عن الحق.

﴿يَزِيدُ في الْخَلقِ ما يشاءُ﴾ [فاطر : ١]: قيل حسن الصوت. وقيل حسن الوجه. وقيل حسن الخطِّ. والأظهر أنه يرجع إلى أَجنحة الملائكةِ، أو يكون على الإطلاق في كل زيادةٍ في المخلوقين.

﴿يسر﴾، بفتح الياء والسين: الرجل الذي يشتغل بالميسر، وجمعه أيسار، وهو القِمَار في النَرْدِ والشطرنج وغير ذلك. وهو مأخوذ من يسر لي كذا إذا وجب. وقد قدمنا أن مَيْسر العرب عشرة أقداح؛ وهي الأزلام لكل واحد نصيبِ معلوم من ناقة يُجَزّئُونَها عشرة أجزاءٍ، ثم يدخلون الأزلام في خريطة ويضَعونها على يدي عدل، ثم يدخل يده فيها، فيخرج باسم كل رجل قدحاً، فمن خرج له قدح له نصيب أخذ ذلكَ النصيب، ومن خرج له قدح لا نصيبَ له غرم ثمنَ الناقةِ كلِّها.

﴿يَحِيقُ﴾ [فاطر : ٤٣]: يحيط.

﴿يس﴾: من أسمائه ﷺ، ومعناه يا إنسان، بلسان الحبشة، قاله ابن عباس. وقال سعيد بن جُبير: يا رجل، بلغة الحبشة.

﴿يَخِصِّمُون﴾ [يس: ٤٩]: أصلُه يختصمون ثم أدغم؛ ومعناه يتكلمون في أمورهم. وقرىء بفتح الخاء وكسرها واختلاس حركتها.

﴿يَحِقَّ القَوْلُ على الكافرين﴾ [يس : ٧٠]؛ أي يجبُ عليهم العذاب.

﴿يَسْتَسْخِرُون﴾ [الصافات: ١٤]: معناه يسخرون، فيكون فعل واستفعل بمعنى واحد. وقيل معناه يستدعي بعضُهم بعضاً لأَنْ يسخر. وقيل: يبالغون في السُّخْرِية.

﴿يَقْطين﴾ [الصافات: ١٤٦]: كل شجر لا يقوم على ساق كالقرع والبطيخ ونحوهما. والمعنى أنّ الله أنبتَ على يونس لما خرج من بَطْن الحوت القرع يظله من حَرِّ الشمس. وقد كان رقَّ جِلْدُه، وكانت الذباب تؤذيه. والسرُّ فيه أن ورقَه كبير، ومسّه فيه لين، والذباب لا يقربه؛ ولذلك قال النقاش: إن من رش بمائه البيت لم يقربه الذباب.

فهذه شجرةٌ منَعَتْ يونس من الإذاية، أفلا تمنَعُ يا محمدي شجرةُ الإيمان من إذاية الشيطان، وينجيك بركتها من الدخول في النيران؟ وفي الخبر: لما صَحّ يونس، ورجع إلى قومه، وجد الشجرة قد جفّتْ فاغْتَمّ لذلك، فأوحى الله إليه: اغتممْت على شجرة يبست ولم تغْتَمَّ على هلاك مائة ألف أو يزيدون! فلذلك أمر الله نبيّه بالصبر على أمته، والدعاء لهم، فقال: اللهم اغفر لهم فإنهم لا يعلمون. هؤلاء دعا لهم، واعتذر عنهم، وقد عصوه، وكسروا رباعيته، وشَجُّوا وجهه، كيف لا يغتم للمصلّي عليه وذاكره في كل ساعة بالسلام عليه.

وقد أمره الله بألاَّ يكون كصاحب الحوت في الفرار من قومه، يعني تفارق أمتك حين ينزل العذابُ عليهم، فقال: رب عامِلْهم بخلاف ما تعامل به الأمم، فأنزل الله تعالى: ﴿قل هو القادِرُ على أن يَبْعَث عليكم عذاباً من فَوْقكم أو مِنْ تحت أَرْجُلكم﴾ [الأنعام: ٦٥] بالْخَسف والمسخ، والريح والصواعق، فقال: اللهم إني أعوذُ بوجهك من ذلك، فرفع اللهُ عنهم العذابَ وهم كفّار ومنافقون؛ أفَلا يرفَعُه عنك يا محمديّ وأنتَ مؤمن به ومصدِّق له! اللهم بحرمته لدَيْكَ لا تحرمنا رؤيته في الدنيا والآخرة.

﴿يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤]؛ أي يسرعون. وقرىء بضم الياء ونصب الزاي، أي يصيرون إلى الزفيف.

﴿يستَمِعُون القولَ فيتّبعُون أَحْسَنَه﴾ [الزمر: ١٨]: يعني يستمعون القولَ على العموم فيتبعون بأعمالهم أحسنَه، من العفو الذي هو أحسنُ من الانتصار، وشِبْه ذلك. وقيل: هو الذي يسمع حديثاً فيه حسَنٌ وقبيح، فيحدّث بالحسن ويكفّ عما سواه.

وهذا قولُ ابن عباس؛ وهو الأظهر. وقال ابن عطية: هو عامّ في جميع الأقوال. والقَصْدُ الثناء على هؤلاء ببَصَرٍ ونظر سدِيد يفرِّقُون به بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، فيتبعون الأحسن من ذلك.

﴿ينابيع﴾ [الزمر: ٢]: جمع ينبوع، وهو العين.

﴿يَهِيجُ﴾ [الزمر: ٢]: ييبس، لقوله: ﴿فتراهُ مُصْفَرًّا﴾ [الزمر: ٢].

﴿يُرِيكم آياتِه﴾ [غافر: ١٣]: يعني العلامات الدّالة على مخلوقاته ومعجزات رسُله.

﴿يُسَبِّحُون بحَمْدِ ربِّهم ويُؤْمنون به ويستغفرون للّذين آمَنُوا...﴾ [غافر: ٧] الآية: من أعظم آيات الرجاء؛ لسؤال الملائِكة لهم بالرحمة والجنّة.

فإن قلت: حَمَلَةُ العرش والملائكة كلهم مؤمنون به سبحانه، فما فائدة الإخبار بقوله: ﴿يؤمنون به﴾؟

والجواب: إظهاراً لفضيلة الإيمان وشرَفه، والترغيب فيه، كما وصف الأنبياءَ في غير ما موضع من كتَابِهِ بالصلاح؛ كقوله: ﴿ونَبِيًّا من الصالحين﴾. ومعلوم أن الأنبياء من أهل الإيمان والصلاح، وكما أعقب أعمالَ الخير بقوله: ﴿ثم كان مِنَ الذين آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧]، فأبانَ بذلك فَضْلَ الإيمان. وقد ذكر الزمخشري أن فيه فائدةً أخرى؛ وهي أنّ معرفة حملة العرش بالله تعالى من طريق النظر والاستدلال كسائرِ الخلق لا بالرؤية، وهذه نزعةٌ منه إلى مذهب المعتزلة في استحالة رُؤْية الله تعالى.

وتأمَّلْ يا محمديّ إلى عظيم التناسب المرعيّ بين قوله: ﴿يؤمنون به﴾،

﴿ويستغفرون للذين آمَنُوا﴾ تجد فيه تنبيهاً على أنَّ الاشتراكَ في الإيمان يجبُ أن يكون أَدْعى شيءٍ إلى النصيحة، وأبعثه على إمْحَاض الشفقة، وإن تفاوتت الأجناسُ، وتباعدت الأماكن؛ فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان، ولا بين سماويّ وأرضيّ قطّ، ولما جمع الإيمان جاء معه التجانس الحقيقي، والتناسب الكلّي، حتى استغفر مَنْ حَوْلَ العرش لمَنْ في الأرض مع عظم أجرامهم وقُوّتهم؛ قال ﷺ: أُذِنَ لي أن أحدِّث عن ملك من حَمَلة العرش بين شحمة أُذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة سنة.

فانظر يا محمديّ ما أعظم قيمتك! الأنبياء والملائكة يستغفرون، ونبيُّك أمر إخوانك بالاستغفار لكَ؛ قال: من استغفر لوالديه وللمؤمنين والمؤمنات كلَّ يوم خمساً وعشرين مرَّة أو سبْعاً وعشرين ـ أحد العدديْن ـ كان من الذين يُسْتجَاب دعاؤهم، ويرزق بهم أَهْلُ الأرض. ودعاء الأبدال أَنْ تقول بعد كلِّ صلاة: اللهم أَصْلح أمَّةَ محمد، اللهم ارحم أمةَ محمد، اللهم فَرِّج عن أُمة محمد، اللهم اغفر لأمَّة محمد، ولجميع مَنْ آمن بك.

ولما دحا الله مبسوطَ بساطِ الأرض، ومهَّدَ مِهَادَها لترتيب المكونات فَخَرتْ عليها السموات، فنكست رأس الانكسار، ومدَّت يدَ الاستعطافِ إلى عين الجود، فجادلها بقَطْعِ حجة مَنْ جادلها:

﴿يا سماء﴾ [هود: ٤٤]: إنْ كنت فخرتِ بالشمس لظهور الموجودات، فأين مثل شريعةِ نبينا ومولانا محمد ﷺ في ظهور الغَيْب، شَمْسُ السماء لها أفول، وشمسُ شريعةِ محمدٍ ليس لها أفول.

وإن افتخرت بحسن القمر ونوره فأينك من حسن سُنَنِه المشرق ونوره إذا كُسِفت شمسك، وخسف قمرك؛ فالشفاعة من أهل الأرض، والشافعُ أفضلُ من المشفوع فيه.

وإن افتخرتِ بالنجوم للاهتداء فنجومُ الصحابة معلومة للاقتداء على مقعد

صدقٍ، إن كان من النجوم رجوم للشياطين؛ فعُمر فقأ عين الرئيس إبليس، وشهب إيمانه توفيه فترميه فلا يسلك عمر فَجًّا إلاَّ هرب منه إبليس.

وإن فخرتِ باللوح المحفوظ فَلَوْح الغيب يكتب بيد الخالق، كتب في قلوبهم الإيمان.

وإن فخرت بسعة الكرسيّ فأين هو من سعةِ: وسعني قَلْبُ عبدي المؤمن.

وإن فخرت بنفخ إسرافيل للأرواح لإحياء الأجساد فأين أنْتِ من نفخةٍ حَيِيت بها القلوبُ إلى يوم التَّنَاد.

وإنْ فخرت بعلو مَنْ في العلو من الأملاك فقصيدةُ الاقتصاد أشهر من « قِفَا نَبْكِ». هذا عزرائيل كان إمام المقربين فتنفَّس بنفس فسقي كأس أسف. هاروت وماروت، استعير لهما شهرة الشهرة فجرى ما جرى، وعند جهينة الخبر اليقين؛ فكيف بمن عجنت بها طينة تركيبه، وعقل عَقْله بعقال الهدى!

وإن فخرت بالصافّين المسبحين، فكم على أرض الدُّجَا من أمة قائمة؟ كم في رواشن الأسحار من سمّار المستغفرين.

وإن فخرت بشفقة ميكائيل وحيائِه، فكم حيي أحياءٌ بشفقة أبي بكر وأحبائه.

وإن فخرت بقوَّةِ جبريل وإقدامه فأينك من قوة عُمر وإقدامه يوم قال: والله لا يُعْبَد الله سرًّا بعد اليوم، فسرى نحو الكعبة، فسُرِّي عن الإسلام غُمة الغم.

وإن فخرتِ بنزول القَطْرِ لإحياء مَوَات النبات، فأين أنْتِ من سواكب العبرات لإحياء القلوب الموات، فكم صدرٍ شُرح للإسلام؛ فهو أوسع من سِدْرَة المنتهى.

وإن افتخرتِ بأنَّ الجنة فيك فقد اشتاقت إلى تسليم سلمان إذا تمهد ملك

الجنة للساكن، فالملائكةُ خدّام يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم ليحظَوْا بحظ الردّ، إنما علا قَدر الْمُقربين لما أطلق لهم من ديوان الخاص والعام، ويستغفرون للذين آمَنُوا.

وإنْ فخرْتِ بالعرش والطائِفين؛ فأين أنتِ من البيت والطائفين ما في زاوية العَرْشِ حَجَر سوّد بالسودد أدرج في درجة درج الميثاق. يوم السبت لما أهبط آدم بمنشور الولاية إلى الأرض مُهِّدت له دار المملكة قبل الوصولِ، وزينت حرمةُ الحرم للحرمة والإحرام باب الاستغاثة، وعرفات باب دخول المسائل لنيل الوسائل، فلما بُني البيتُ أَذِن الله لخليله عليه السلام بالأذان على صَوْمعة أبي قُبيس بتأذين، وأذّن قال: يا ربّ، وأين يبلغُ أذاني؟ قيـل: يـا إبـراهيم منـك الأذان وعلينا البلاغ.

فلما دنا النداءُ من باطن الحجر أوقع من وقع له يوم: «ألستُ بربكم» بفيض المبلّغ، فتزاحموا على باب الإجابة، شعارُهم لبَّيْكَ اللهم لبّيك!

فإن قلت: كيف يصح أن يقال: وسع كل شيء؟

فالجواب أنَّ الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى، والأصل وسع كلَّ شيء رحمتُك وعلمك، ولكن أُزيلَ الكلامُ عن أصله بأن أُسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم، وأخرجا منصوبين على التمييز، لا إغراق في وصفه بالرحمة والعلم، كأنَّ ذاته رِحمة وعلم ويسعان كل شيء؛ وهذا نحو قولهم: تفقأت شحماً، وتصببت عَرقاً.

فإن قلت: قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أَنْ يكونَ ما بعد الفاء مشتملاً على حديثهما جميعاً، وما ذكر إلا الغفران وَحْده؟

والجواب: فاغفر للذين علمْتَ منهم التوبة، واتباعَ سبيلك.

فإن قلت: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائِبون صالحون مَوعودون بالمغفرة، والله لا يُخْلفُ الميعاد؟

قلت: هذا بمنزلة الشفاعة، وفائدتُه زيادةُ الكرامةِ والثواب.

فإن قلت: هل قيدت هذه الآية الآية المطلقة في حم عسق، وهي قوله: ﴿ويستَغْفِـرُون لمنْ في الأَرض﴾ [الشـورى: ٥]، لأنـه معلـوم أنّ الملائِكـة صلوات الله وسلامه عليهم لا يستغفرون لكافر؟

والجواب: يحتمل أن يكون استغفارهم لهم بمعنى طلب هدايتهم والمغفرة لهم بعد ذلك، كما استغفر إبراهيم عليه السلام لأَبيه، واستغفار نبينا للمنافقين، ولما تقدم هذه الآية: ﴿غافِرِ الذَّنْبِ وقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] ناسب استغفارَ الملائكة للمؤمنين منهم، يَشْهدُ لهذا قوله بعده: ﴿فاغْفِرْ للذين تَابُوا﴾ [غافر: ٧]، ولما تقدم آية الشورى: ﴿تكاد السمواتُ يَتَفَطَّرْن من فوقِهنّ﴾ [الشورى: ٥] ناسب استغفارَ الملائكة لمن في الأرض لإبقاء الستر؛ إذ لا يفوتونه. وقد يُؤْمن مَنْ سبقت له السعادة منهم.

﴿يُرِيكم آياتِه﴾ [غافر: ١٣]: هذا عمـوم بعـد مـا قـدم مـن الآيـات المخصوصة، ولذلك وبَّخهم بقوله: ﴿فأيَّ آياتِ اللهِ تُنْكرون﴾ [غافر: ٨١].

﴿تكاد السموات يَتَفَطَّرْنَ من فَوْقهن﴾ [الشورى: ٥]؛ أي يتشقَّقْن من خوف الله وتعظيم جلاله. وقيل من قول الكفار: ﴿اتَّخذَ الله ولداً﴾ [البقرة: ١١٦]؛ فهي كالآية التي في مريم [٨١].

قال ابن عطية: وما وقع للمفسرين من ذكر الثقل هنا مردود، لأنَّ الله تعالى لا يوصَف به.

فإن قلت: لو أراد تشقّق السماء من قوْلِ الكفار لقال مِنْ فوقهم، وما وجْه اتصال التسبيح والاستغفار من الملائكة بهذه الآية؟

والجواب: أن المعنى تشقّق السموات من أعلاهن، وذلك مبالغة في التهويل. وقيل الضمير للأرضين؛ وهذا بعيد. وقيل للكفار، كأنه قال من فوق الجماعات الكافرة التي من أجل أقوالها تكاد السموات تتَفَطرْن. وهذا أيضاً بعيد.

ووَجْه تسبيح الملائكة تعظيم لله تعالى من تشقق السموات من عظمته وجلاله، أو مِنْ كفْر بني آدم فينزهون الله من ذلك.

﴿يوم الجَمْعِ﴾ [الشورى: ٧]: قد قدمنا أنّ هذا من أسماء يوم القيامة، لأنه يوم يجمعون فيه الأولون والآخرون في صَعِيدٍ واحد.

﴿يَذْرَؤُكم فيه﴾ [الشورى: ١١]؛ أي يخلقُكم نسلاً بعد نَسل، وقَرْناً بعد قرن. وضمير المجرور يعود على الجعل الذي تضمّنه قوله: ﴿جعل لكم﴾ [الشورى: ١١]، وهذا كما تقول: كلمت زيداً كلاماً أكرمتُه فيه. وقيل الضمير للتزويج الذي دلّ عليه قوله: ﴿أزواجاً﴾. وقال الزمخشري: تقديره يَذْرَؤكم في هذا التدبير، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً، غلب فيه العقلاء على غيرهم.

فإن قيل: لِمَ لمْ يقل يذرؤكم به؟

فالجواب أنَّ هذا التدبير جعل كالمنبع والمعدن للبث والتكثير.

﴿يُحَاجُّونَ في الله﴾ [الشورى: ١٦]: أي يجادلون المؤمنين في دِين الله، يعني كفَّارَ قريش. وقيل اليهود.

﴿يَسْتَعْجِلُ بها﴾ [الشورى: ١٨]؛ أي يطلبون تعجيلَها استهزاءً بها، وتعجيزاً للمؤمنين.

﴿يُمَارُونَ﴾ [الشورى: ١٨]: يجادلون ويخافون.

﴿يَرْزُق مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: ١٩]؛ أي الرزق المضمون الزائد لكل حيوان، فإنَّ الرزقَ الذي تقوم به الحياة على العموم لكل حيوان طولَ عمره، والزائد خاصٌّ بمن شاء الله.

﴿يَخْتِمْ على قَلْبِك﴾ [الشورى: ٢٤]: في المقصد بهذا قولان: أحدهما أنه ردٌّ على الكفّار في قولهم: ﴿افْتَرى عَلَى الله كَذِباً﴾ [الشورى: ٢٤]، أي لو

افتريت على الله كذباً، يَختم على قلبك، لكنّك لم تفتر عليه كذباً فقد هداك وسدّدك؛ والآخر أنَّ المرادَ إنْ يَشأ الله يختم على قلبك بالصبر على أقوال الكفار واحتمالِ أذاهم.

﴿يَمْحُ الله الباطل﴾ [الشورى: ٢٤]: هذا فعل مستَأْنَف غير معطوف على ما قبله؛ لأن الذي قبله مجزوم، وهذا مرفوع فيوقف على ما قبله، ويبتدأ به؛ وفي المراد به وجهان: أحدهما أنه مِنْ تمام ما قبله؛ أي لو افتريت على الله كذباً بالْخَتْم على قلبك ومَحْو الباطل الذي كنْتَ تفتريه لو افتريته. والآخر أنه وَعْدٌ لرسول الله ﷺ بأن يمحو الله الباطلَ وهو الكفر، ويحقّ الحق وهو الإسلام.

﴿يَقْبَلُ التوبةَ عن عباده﴾ [الشورى: ٢٥]: أي من عباده. وقبولُ التوبة من الكفر مقطوع بها، ومِن مظالم العباد فهي متوقّفة حتى يردَّها لأهلها أو يستحلّ منها، ومن المعاصي التي بين العبد وبين الله فيُرْجى أنها مقبولة لهذه الآية. وقيل هي في المشيئة، وهو أكرمُ أنْ يقول له العبد: رجعت، فلا يقول له: قبِلْت. وقد قدمنا مِراراً شرطَ التوبة وصحةَ قبولها.

وفي بعض كتُبِ الله المنزلة: وعزَّتي وجلالي، وارتفاعي في علوّ مكاني، لأقطعنَّ أمَل كلِّ مُؤَمِّل أمّل غيري باليأس، ولألْبِسنَّه أثوابَ المذلة بين النـاس، ولأقصِيَنه من قُرْبي، ولأباعِدَنّه مـن حـوضي، أيـؤمّـل غيري في الشـدائـد، والشدائدُ بيدي؟ وأنا الحيُّ ويرجو سوائي، ويطرق بالذكر باب الغير ومفاتحُ الأبواب بيدي، وبابي مفتوح لمَنْ دَعاني؛ من الذي دعاني فلم أُجبه؟ مَنِ الذي استغفرني فلم أغفر له؟ من الذي رجع إليّ فلم أَقبله؟ مَن الذي دعاني لنوائِبه فقطعتُ به دونها؟ مَنِ الذي رجاني لعظيم جرمه فأَقطع رجاءَ له؟ من الذي قرع بابي ولم أَفْتَح له؟ جعلتُ آمالَ عبادي متصلة بي فقطعوها، وجعلت أرجاءهم مذخورةً عندي فلم يرضوا بحفْظِي، وملأت سمائي ممَّنْ لا يملّون من ذكري، وأمرتُهم ألاّ يُغْلِقُوا الأبوابَ بيني وبين عبادي فلم يثق الآدميون بقولي! ألا يعلم من طرقَتْه نائبةٌ من نوائِبي أنه لا يملكُ كَشْفَها إلا من بعد إذني! مالي أرى

عَبْدي مُعْرِضاً عني أُعطيه بجودٍ فلم يسألني، ثم انتزعْتُه منه فلم يسألني ردّه! أفتراني أبتدىء بالعطية قبل المسألة، ثم أُسأل فلا أجيب! يا سائلاً غيري، أبخيل أنا فيبخِّلني عَبدي! أليست الدنيا والآخرة لي؟ أليس الكرم والجود لي؟ أليس الرحمة والفضل لي؟ أنا محلُّ الآمال، من يُعْطيها دوني؟ وما عسى أن يؤمل المؤملون لو جمعتُ أهْلَ سمائي وأرضي، ثم أعطيتُ كلَّ واحد منهم ما أمل الجميع ما نقص مِنْ ملكي، وكيف ينقص ملك أنا فيه! فيابُؤْسَ للقانطين مِنْ رحمتي، ويابؤس لمَنْ عصاني، وتوثّب على محارمي، ولم يَسْتَحِ مني! اللهم إني لم أسْتحِ منك، وبارزتُ بالعظائم، لكن رجائي فيك قويٌّ، وتوسلتُ إليك بجاهِ النبيِّ الأميّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿يَعْفُو عن السيئات﴾ [الشورى: ٢٥]: العفو مع التوبة على حسب ما ذكرنا. وأما العفو دون تَوْبة فهو على أربعة أقسام: الأول: العَفْوُ عن الكفر، فلا يكون أصلاً، وعن مظالم العباد فلا يكون إلا لبعض خواصِّ عباده، وعن الصغائِر إذا اجتنبت الكبائر، فهو حاصلٌ بحسب وَعْده الصادق. وعن الكبائرِ فأهلُ السنّة أنه في المشيئة، وأهل البدعة على عدم غُفْرانها؛ وقد أخطأوا لنصِّ الآية والحديث.

﴿يَسْتَجِيبُ الذين آمَنُوا﴾ [الشورى: ٢٦]: قيل يجيب. و﴿الذين آمنوا﴾ [الشورى: ٢٦] مفعول، والفاعل ضمير يعود على الله؛ أي يجيبهم فيما يطلبون منه. وقال الزمخشري: أصله يستجيب للذين آمنوا، فحذفت اللام.

وقيل إن معناه يجيب. والذين آمنوا فاعل، أي يستجيب المؤمنون لربهم باتِّباع دينه. وقيل إن معناه يطلب المؤمنون الإجابةَ من ربهم، واستفعل على هذا على بابه من الطلب.

والاول أرجح؛ لدلالة قوله: ﴿ويَزِيدُهم منْ فَضْلِه﴾ [الشورى: ٢٦]؛ أي يزيدهم ما لم يطلبوا زيادة على الاستجابة فيما طلبوا، وهذه الزيادةُ صَحّ عنه ﷺ أنها الشفاعةُ والرضوان.

﴿يُنَزِّلُ الغَيْثَ من بَعْدِ ما قَنَطوا﴾ [الشورى: ٢٨]: قيل لعمر رضي الله عنه: اشتدَّ القَحْط، وقنط الناس، فقال: الآن يُمْطرون. وأخذ ذلك من هذه الآية. ومنه الحديث: اشتَدِّي أزْمَةُ تنفرجي. وقال تعالى: ﴿إنَّ مَعَ العُسْر يُسْراً﴾ [الشرح: ٥]. وكان ﷺ إذا كان وقت الشدائد والمخاوف رُئي عليه أثر السرور، وإذا كان وقت السرور رئي عليه أثَرُ الخوف، لعلمه بربه. يَنْشُر رحمته، يعني المطر؛ فهو تكرار للمعنى الأول بلفظٍ آخر. وقيل يعني الشمس. وقيل بالعموم؛ وهو أظهر، إذْ رحمته سبحانه تعمُّ جمع الموجودات.

﴿يَعْلَم الذين يُجَادلون في آياتِنا﴾ [الشورى: ٣٥]؛ أي يعلمون أنهم لا مهرب لهم من الله. وقرىء يعلم بالرفع على الاستئناف؛ وبالنصب، واختلف في إعرابه على قولين: أحدهما أنه نصب بإضمار أنْ بعد الواو لما وقعت بعد الشرط والجزاء، لأنه غير واجب. وأنكر الزمخشري ذلك، وقال: إنه شاذّ، فلا ينبغي أن يُحْمل القرآن عليه. والثاني قول الزمخشري: إنه معطوف على تعليل محذوف لينتقم منه؛ ويعلم؛ قال: ونحوه من المعطوف على التعليل المحذوف كثير في القرآن، ومنه قوله: ﴿ولِنَجْعَلَه آيةً للناس﴾ [مريم: ٢١].

﴿يا بُشراي﴾ [يوسف: ١٩]: نادى البشرى، كقوله: يا حسرتى، وأضافها إلى نفسه. وقرىء يا بشرى، بحذف ياء المتكلم. والمعنى كذلك. وقيل على هذه القراءة نادى رجل منهم اسْمُه بشرى، وهذا بعيد؛ لأنه لما أدْلَى الدَّلْوَ في الجبّ تعلّق به يوسف، فحينئذ قال: يا بشراي، هذا غلام.

﴿يُرْسِلَ﴾ [الشورى: ٥١]: قرىء بالرفع على تقدير: أو هو يرسل، وبالنصب عطفاً على ﴿وحياً﴾ [الشورى: ٥١]؛ لأن تقديره أن يوحي؛ فعطفت أن على أن المقدرة.

﴿يُنَشَّأُ في الحِلْيَة﴾ [الزخرف: ١٨]؛ أي يكبر ويَنْبت في استعمال الحلي من الذهب والفضة، والمراد بهم النساء. وقريء يَنشأ بضم الياء وتشديد الشين، بمعنى يُرَبّى فيها. والمقصد الرد على الذين قالوا: الملائِكة بناتُ الله، كأنه قال: أجعلتم

لله من ينشأ في الحلية؛ وذلك صفة النّقْص ، ثم أتبعها بصفة نقصٍ أخرى وهي أنَّ الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أنْ تبيّن حجَّتَها لنَقْص عقلها ، وقلما تَجِد امرأةً لا تفسد الكلام وتخلط المعاني، فكيف يُنْسب لكاملٍ من اتصف بنقصٍ . وأغربُ من ذلك أنهم يجعلون لأنفسهم الذكور ، ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يَشْتَهُون﴾ [النحل: ٥٧]. وإعراب « من ينشأ » مفعول بفعل مضمر ، تقديره: أجعلْتُم لله مَنْ ينشأ في الحلية ، أو مبتدأ وخبره محذوف ، تقديره: أو من ينشأ في الحلية خَصَصْتُم به الله .

﴿يَسْتَغِيثانِ الله ، وَيْلَكَ آمِنْ﴾ [الأحقاف: ١٧]: ضمير التثنية يعود على الوالدين اللذين يستغيثان بالله مِن كراهتهما لما يقول ابْنُهما من الكفر ، فيقولان له: وَيْلك آمِنْ ، ثم يأمرانه بالإيمان فيقول: ﴿ما هذا إلا أساطِيرُ الأولين﴾ [الأحقاف: ١٧]؛ أي قد سطّره الأوَّلون في كتبهم ، وذلك تكذيبٌ بالبَعْث والشريعة .

واختلف فيمن نزلت هذه الآية؛ فقيل في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق حين كُفْرِه ، كان أبوه وأمّه يدعُوانِه إلى الإيمان فيأبى ، ويقول لهما: أُفّ لكما . وأنكرته عائشةُ رضي الله عنها ، وقالت: والله ما نزل في آلِ أبي بكر شيء من القرآن إلا براءتي. وكان عبد الرحمن بن أبي بكر من خِيَار المسلمين ، وكان له في الجهاد غناء عظيم .

وقال السدّي: ما رأيت أعبد منه . والصحيحُ أنها على الإطلاق فيمن كان على هذه الصفة من الكفْر والعقوق لوالديه ، ويدل على أنها نزلت على العموم قوله: ﴿أولئِكَ الذين حَقَّ عليهم الْقَوْل في أُمَمٍ﴾ [الأحقاف: ١٨]، بصيغة الجمع ، ولو أراد واحداً بعينه لقال ذلك الذي حقَّ عليه القول .

﴿يَتَدَبَّرُون القرآنَ﴾ [محمد: ٢٤]؛ أي يتفكرون في معانيه ، لتظهرَ أدِلَّتُه وبراهينه ، وفيها حضٌّ على التدبر والتفكّر فيه . وقد كان ﷺ يقرؤه بخشوع من غير هَذْرَمَة .

﴿يَبْخَلُ﴾ [محمد: ٣٨]: البخل هو الغمّ بالإعطاء والفرح بتَرْكه، وأما البخيل فهو الذي يغتمُّ بالإعطاء ويذمُّ عليه، ويفرح بتركه؛ وهذا من صفات البخل كما قدمنا: ﴿وأُحْضِرت الأَنْفُس الشحَّ﴾ [النساء: ١٣٨].

﴿يَتِرَكُمْ أعمالكم﴾ [محمد: ٣٥]؛ أي ينقصكم، يقال وترت الرجل ترةً، إذا نقصته شيئاً. وكيف ينقص السيد عَبْده، هذا في مخلوق فكيف بالغني على الإطلاق، ولما نزلت: ﴿فمَنْ يعْمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَه. ومَنْ يعمَلْ مثقالَ ذَرَّة شرًّا يَره﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] - شقَّ ذلك على الصحابة. وقالوا: يا رسولَ الله، إذا جازانا الله بأعمالنا هلكنا، فأنزل الله المضاعفة لأعمالهم، والمضاعفة في الحسنة لا حَصْرَ لها ولا مضاعفة للسيئة.

﴿يُطِيعكم في كثير من الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]: إنما لم يقلْ أطاعكم، للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرارَ طاعتِه عليه السلام لهم. والحقّ خلاف ذلك؛ وإنما الواجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم، وذلك أنّ رأيه عليه الصلاة والسلام خير وأصوب مِن رأي غيره، ولو أطاع الناسَ في آرائِهم لهلكوا؛ فالواجب على الناس الانقياد إليه والطاعة لأمره.

﴿يَسْخرْ قوْمٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خَيْراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أنْ يَكنَّ خيراً منهنَّ﴾ [الحجرات: ١١]: نهى الله في هذه الآية عن الاستهزاء بالناس واحتقارهم.

ولما كان « القوم » لا يقَع إلا على الذكران عطف النساء عليهم، فالسخريةُ بالنساء من أعظم العيوب عند علاّم الغيوب. ولعلَّ المسخور منه خَيْرٌ من السّاخر عند الله، والأعمال بالخواتم، ولا تقعُ هذه الخصلة الذميمة إلا من جاهل بنفسه راضٍ عنها، فيتكبَّر ويعجب، ولو رأى نفسه أقلَّ خَلْقِ الله لم يسخر ممَّنْ هو عند الله أعلى منه، ولذلك قيل: مَنْ ظنَّ أنه خير من الكلب فالكلب خير منه. فالعاقل يرى الصغير أفْضَلَ منه، ويقول: أنا عصيت الله، وهذا لم يعصه، والكبير يقول: هذا عبَد الله أكثر مني، فهو أفضل؛ لأن مَنْ

زادك في العبادة فَضَلَك، والذي هو مثله يقول: لم يَعْصِ الله، وربما له خَبِيّة من عمَل صالح لم أطلع عليها، وأنا ليس لي شيء، وبالجملة فلم يصدر هذا إلا مِنْ معْجب بعمله، متكبِّر، وكم أهلكا من عالم وعابد وزاهد.

﴿يغْتَبْ بعضكم بعْضاً﴾ [الحجرات: ١٢]: الغيبة: ما يكره الإنسان ذِكْرَه من خَلْقه أو خُلُقه أو دِينه أو أفعاله أو غير ذلك. وفي الحديث: قيل: يا رسول الله؛ وإن كان حقًّا؟ قال: إذا قلتَ غَيْرَ الحق فذلكَ البهْتان.

وقد رخّص في التجريح في الشهادة والرواية وفي النكاح وشبْهه، وفي التحذير من أهل الضلال؛ ولا غيبةَ في فاسقٍ أو مجاهر بالكبائر، وسامِعها شريكه ما لم ينكرها بلسانه، ومع خوْفه فَبِقَلْبه، وعليه قطعها بكلامٍ، وإلا ينصرف؛ فإنْ عجز لزمه شغل قَلْبه ولسانه عنْها.

روي: مَنْ أذلّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره أذلّه الله على رؤوس الخلائق.

وروي: من حَمَى مؤمناً مِن منافق يغتابه بعث الله له ملكاً يَحمِي لَحْمَه يوم القيامة مِنْ نار جهنم، ولو ردت كلمة سفيه في فيه لسعد بها رادّها، كما سعد بها قائلها.

وبواعثُ الغيبة التشكي، وموافقة ونحوها لذاكرها، أو رفعة لنفسه أو حسد أو لعب، ومتى رأى عَيْباً حرم التصديق ما احتمل تأويلاً، ومتى تحقَّق نَصَح حتماً، وسكت سَتْراً للنهي عن المتلفظ به، فاعلاً أو مفعولاً حيث قال: ﴿بعضكم بَعْضاً﴾.

وتشبيه المغتاب بآكلِ الميتة وهو منفِّرٌ طبعاً وشَرْعاً، والإتيانُ بهمزة الإنكار، ثم بلفظ المحبة، ثم بقوله: ﴿أحَدكم﴾ كأنه يقول: هل يوجد في العالم أحدٌ يحب أكْلَ الميتة؛ ثم المبالغة بلَحْمِ الأخ، ثم بأكله. وجه المناسبة إدارة حنكه؛ فالغيبةُ كالأكل، ثم بقوله: ميتاً؛ فإنه أبلغ في النفرة، ثم التأكيد بقوله:

فكرِهْتموه، ثم التعريف بأن من التقوى تَرْكَ ذلك، ثم التحريض على التوبة بقوله: ﴿واتَّقوا الله إنَّ الله توّابٌ رحيم﴾ [الحجرات: ١٢].

قال أبو علي الفارسي: كراهة هذا اللحم يدعو إليها الطبع، وكراهة الغيبة يدعو إليها العقل، وهو أحقُّ أن يجاب؛ لأنه بصير عالم، والطبع أعمى جاهل. وصَحَّ أنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، ونواهيها مشهورة جدًّا، فما ظنّكَ بكلمة لا تسلم منها بتوبةٍ للمظلمة حتى تبرأ؛ فهي أشدُّ على النفس من الربا والزنى، وتنقل حسناتك لغيرك، وتعذَّب بذنوبه التي تحملتها بغيبته، وعرّضتك لسخْطِ الله ومَقْته، وكان تعالى فيها خصيمك.

ويقال ليتكَ استحيَيْتَ من الله كاستحيائك من مخلوق لا تغتابه بحضرته، فإنَّا لله وإنّا إليه راجعون من خصلةٍ نحن فيها ليلاً ونهاراً ولا ازدجار منها، ولا تَوْبَة، ونتهاون بها، ونعظم الربا، مع أنها أعظم كما تقدم ويظهر لك بالحديث: الربّا اثنان وسبعون باباً أدناها مثل أنْ يطأ الرجل أُمّه. وفي حديث آخر: إن من أَربى الربا استطالَة المسلم في عِرْض أخيه بغير حق. فانظر بُعْد ما بينهما يَلُحْ لك عظيم ما ارتكبناه، إلا أن يعفو الله بإرضاء خصمائنا وإلاّ هلكنا. ﴿ربَّنَا ظلمْنَا أنفُسنا وإنْ لم تَغْفِرْ لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾ [الأعراف: ٢٣]. وكان الواجبُ علينا ألاّ نخاطب ربّنا بهذا الخطاب إلاّ بعد التوبة النصوح، وحُسن الارتجاع؛ لكنّا نرجو من كرم الكريم العفْوَ عن اللئيم بجاهِ نبيه الكريم.

﴿يَرْتابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]: يشكُّوا.

﴿يَمُنُّون عليكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧]: نزلت في بني أسد من خزيمة، وهي قبيلةٌ كانت تجاورُ المدينة، وكانوا مسلمين ظاهراً ويحبون المغانم وعَرَضَ الدنيا، فقالوا: يا رسول اللهِ؛ إنّا آمنّا بكَ وصدقناك، ولم نحارِبْك كما فعلَتْ هوازنُ وغطفان وغيرهم. فَردَّ الله عليهم بقوله: ﴿بل الله يَمُنُّ عليكم﴾ [الحجرات: ١٥]: يحتمل أن يكون بمعنى ينعم عليكم، أو بمعنى يذكر إنعامَه. وهذا أحسن؛ لأنه في مقابلة: يمنّون عليك.

﴿يَلِتْكم﴾ [الحجرات: ١٤]: ويألتكم بهمزة قبل اللام ـ قراءتان، بمعنى ينقصكم. والخطابُ لمن أطاع الله ورسوله.

فإن قلت: هذا الخطابُ وقع في بني أسد، فكيف يعطيهم أُجُورَ أعمالهم؟ وقال: إنهم لم يؤمنوا، ولا تقبل الأعمال إلا من مؤمن؟

والجواب: أن طاعةَ الله ورسوله تجمَعُ صِدْقَ الإيمان وصلاح الأعمال؛ فالمعنى إن رجعْتُم عما أنْتُم عليه من الإيمان بألسنتكم دون قلوبكم، وعملتم أعمالاً صالحة، فإنَّ الله لا ينقصكم منها شيئاً.

﴿يوم يُنَادِ الْمُنَادي من مكانٍ قريب﴾ [ق: ٤١]: المنادي هنا إسرافيل الذي ينفخُ في الصور. وقيل: إنما وصفه بالقُرْب، لأنه يسمعُ جميعَ الخلق. وقيل: المكان صخرة بيت المقدس، وإنما وصفها بالقُرْب لقربها من مكة. وقيل لقُرْبها من السماء، لأنها أقرَبُ الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً؛ وهذا ضعيف.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِرَاعاً﴾ [ق: ٤٤]: العامل في هذا الظرف معنى قوله: ﴿حَشْرٌ علينا يَسير﴾ [ق: ٤٤]. وهو بَدَلٌ مما قبله.

﴿يُسْراً﴾ [الذاريات: ٣]: صفة لمصدر محذوف، ومعناه أَنّ السفن تجري في البحر بسهولة.

﴿يُؤْفَكُ عنه مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩]؛ أي يصرف. والضمير في ﴿عنه﴾ يحتمل أن يكون للنبي ﷺ، أو للقرآن، أو للإسلام. والمعنى يُصرف عن الإيمان به مَنْ صُرِف؛ أي مَن سبَقَ في عِلْم الله أنه مصروف.

وقيل: إن الضمير لما ﴿توعدون﴾ [الذاريات: ٥]، أو للدين المذكور. والمعنى يصرف عن الإيمان به من صُرف. وقيل: إنّ الضمير للقول المختلف.

والمعنى يصرف عن ذلك القول إلى الإسلام مَنْ قَضَى الله بسعادته؛ وهذا القولُ حسن، إلا أَنَّ عُرْفَ الاستعمال في أفك يؤفك إنما هو في الصَّرْف مِنْ خيرٍ

إلى شر، ومن شر إلى خير. وقيل: إن الضمير للقول المختلف، وتكون ﴿عن﴾ سببية. والمعنى يصْرَف عن ذلك القول مَنْ صرِف عن الإيمان.

﴿يسألونَ أيَّانَ يَوْمَ الدين. يَوْمَ هُمْ على النارِ يفْتَنُون﴾ [الذاريات: ١٢، ١٣]: يحرقون ويعذَّبون. ومنه قيل للحَرَّة فَتِين، كأنه الشمسَ أحرقَتْ حجارتها. ويحتمل أن يكون ﴿يوم هم﴾ معرباً، والعامل فيه مضمر، تقديره يقع ذلك ﴿يَوْمَ هم﴾ على النار يُفْتنون، وأن يكون مبنياً لإضافته إلى متى؛ وعلى هذا يجوز أن يكون في موضع نصب بالفعل المضمر حسبما ذكرنا؛ أو في موضع رفع؛ والتقدير هم يوم هم على النار يفْتنون.

﴿يهْجَعُون﴾ [الذاريات: ١٧]: في معنى هذه الآية قولان: أحدهما - وهو الصحيح: كانوا ينامون قليلاً من الليل، ويقطعون أكْثَرَ الليلِ بالسهر في الصلاة والتضَرُّع والدعاء. والآخر أنهم كانوا لا ينامون بالليل لا قليلاً ولا كثيراً، ويختلف الإعراب باختلاف المعنيين؛ فأما على القول الأول ففي الإعراب أربعة أوجه:

الأول أن يكون ﴿قليلاً﴾ خبر كانوا، و﴿ما يَهْجَعون﴾ فاعل بقليل؛ لأن ﴿قليلاً﴾ صفة مشبَّهة باسم الفاعل، وتكون ﴿ما﴾ مصدرية؛ والتقدير كانوا قليلاً هجوعهم من الليل.

والثاني مثل هذا إلا أنّ ما موصولة، والتقدير كانوا قليلاً الذين يهجعون فيه من الليل.

والثالث أن تكون ما زائدة وقليلاً ظَرْف، والعامل فيه يَهْجَعون؛ والتقدير كانوا يهجعون وقتاً قليلاً من الليل.

والرابع مثل هذا إلا أن ﴿قليلاً﴾ صفة لمصدر محذوف؛ والتقدير كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً.

وأما على القول الثاني ففي الإعراب وجهان:

أحدهما أَنْ تكونَ ﴿ما﴾ نافية، وقليلاً ظرف، والعامل فيه يَهْجَعون؛ والتقدير: كانوا ما يهجعون قليلاً من الليل.

والآخر أن تكونَ ما نافية وقليلاً خبر كان؛ والمعنى كانوا قليلاً في الناس، ثم ابتدأ بقوله: من الليل ما يَهجَعون؛ وكلا الوجهين باطل عند أهل العربية، لأَن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها؛ فظهر ضعْف هذا المعنى ببطلان إعرابه.

﴿يَوْمَهم الذي فيه يصْعَقُون﴾ [الطور: ٤٥]: يعني يوم القيامة، وذلك لشدة هَوْلِه.

﴿يلتقيان﴾ [الرحمن: ١٩]: ضمير التثنية يعود على البَحْرَين المذكورين في قوله: ﴿هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ﴿وهذا مِلْحٌ أُجَاج﴾؛ أي يلتقي ماءُ هذا وماء هذا، وإذا نزل المطر في البحر على القول بأَنَّ البحر العذب هو المطر، وأما على القول بأَنَّ البحر العذب هو الأنهار والعيون، فالتقاؤهما بانصباب الأنهار في البحر، وأما قول القائل بأَن البحرين بحر فارس والروم وبحر القلزم واليمن فضعيف.

﴿يَسأَلُه مَنْ في السموات والأَرض﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ أي يسألونه حوائجهم، فمنهم من يسأله بلسان المقال، ومنهم من يسأله بلسان الحال؛ لأنَّ جميعهم مفتقر لفَضْله ونَوَاله وإمداده. وقد قدمنا أنّ المراتبَ السبع من جماد ونامٍ وحيوان، وناطق وممتحن ومؤمن ومحب، جميعُهم متضرعون مقبلين أو مدبرين. فسبحان من وسع سَمْعُه أصواتَهم وحركاتهم وسكَنَاتهم.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُون بِسِيمَاهم﴾ [الرحمن: ٤١]: يعني بعلامتهم، وهي سوادُ الوجه وغير ذلك، وقد قال في آية أخرى: ﴿هذه جهَنّمُ التي يكذِّبُ بها المجرمون. يطوفون بينها وبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. يعني أنّ الكفارَ يتقلَّبُون من الزمهرير إلى الحر، ومن الحرّ إلى الزمهرير، رجاء الاستراحة

مما هم فيه؛ فلا يجدون إلا أشدَّ من منازلهم، فهم في عذابِ جهنم مخلّدون: ﴿لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مُبْلِسُون﴾ [الزخرف: ٧٥].

﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤]: المعنى أنهن أبكار لم يطمثْهُنَّ... بخروج الدم. وقيل: الطمث الجماع، سواء كان لبكر أو غيرها، أو نفي أَنْ يطمثهن إنس أو جانّ مبالغة، وقَصْداً للعموم، فكأنه لم يطمثْهُنَّ شيء. وقيل: أراد لم يطمث نساءَ الإنس إنس، ولا نساء الجن جن.

وهذا على القول بأَنَّ الجن يدخلون الجنة، ويتلذّذون فيها بما يتلذَّذُ البشر. وقد قدمنا أنهم في رَبَض الجنة لا يسكنون مع الإنسان، وأن رؤيةَ الله خاصةٌ بالإنس على المشهور. وقد صحَّ أن الله تعالى إذا خلق الجاريةَ من الحُور العين خلق عليها خيمة من الدُّرّ سِتْراً لها وغيرة على مَنْ خلقها له ألاَّ يراها غيره.

فما لَكَ يا محمدي لا تغير أَنْتَ عليه إنْ كنت تحبُّه، ولا أرى لكَ ذلك؛ لأنك تقول رضيت بالله ربًّا ولم ترض بقضائِه.

وتقول تحبه، وأنْتَ تحب غيره وتقول وجّهْتُ وجْهِيَ له، وقد وجّهْته لدنيا وأهلٍ ومالٍ وولَدٍ. أما علمْتَ أن حقيقةَ العبودية الإقرار لمعبودها، لا رَاعَى الله من لا يراعي الذمم. ربُّك يعاملك بكل ما تريد ولا تَفْعل له ما يريد، كلُّ ذلك لكَ لا له؛ إذ هو غني عن العالمين.

﴿ياقوت﴾ [الرحمن: ٥٨]: هو حجر عزيز يضيء أعلاه كالقمر، وهو قليلُ الوجود، وهو أنواع. وذكر الجواليقي والثعالبي أنه فارسي، وشبَّهَ الله نساءَ الجنة بالياقوت، وأين الياقوتُ منهن؟ ولكن خاطب عبادَه بما يفهمونه. وقد قدمنا أنَّ أحوالَ الدنيا إنما هي أنموذج على ما في الآخرة لا مِثْلها.

﴿يُصِرُّونَ﴾ [الواقعة: ٤٦]؛ أي يدومون من غير إقلاع. قال ابنُ الجوزي: معناه يضجّون بالحبشية.

﴿يُنَزِّلُ على عَبْده آياتٍ بَيِّنَات﴾ [الحديد: ٩]: المراد به سيدنا ونبينا

ومولانا محمد ﷺ للتشريف والتكريم. وقد قدمنا أنّ هذه الإضافة خاصة به، كقوله تعالى: ﴿وأنه لما قام عَبْدُ الله﴾ [الجن: ١٩]. ﴿سبحان الذي أسْرَى بعبده﴾ [الإسراء: ١]. فما أشرفها من إضافة! وما ألذّه من خطاب!

﴿يَسْعَى بين أَيديهم وبأَيْمَانهم﴾ [التحريم: ٨]: الضمير للمؤمنين، يعني أنهم يكون لهم نور يوم القيامة أمامهم ومِنْ خلفهم على قَدْر إيمانهم؛ منهم مَنْ يكون نوره كالنخلة السَّحُوق، ومنهم ما قرب من قدميه، ومنهم مَنْ يضيء مرة وينطفئ أخرى كالشمعة. والكافرون والمنافقون لا نُورَ لهم، فيرون المؤمنون الأنوار محدقة فيقولون: ﴿انْظُرونَا نَقْتَبِس مِنْ نُورِكم. قيل ارجعوا وراءَكم فالتمسوا نوراً...﴾ [الحديد: ١٣] الآية. وقيل: إن هذا النور استعارة يرادُ به الهُدَى والرضوان.

والأول أصح، لوروده في الصحيح.

﴿يَأْنِ للَّذينَ آمَنوا أنْ تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْرِ الله﴾ [الحديد: ١٦]: أنى الأمْر إذا حان وقْتُه، «وذِكْـر الله» يحتمل أن يريد به القرآن، أو الذّكر، أو التذكير، أو المواعظ. وهذه آيةُ موعظةٍ وتـذكير؛ قـال ابـن عبـاس: عُـوتِـب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، وسمع الفُضَيل بن عياض هذه الآية فكانت سببَ رجوعِه.

وحكي أن عبدالله بن المبارك أخذ العود في صباه ليضربه فنطق بهذه الآية فكسره ابْنُ المبارك وتاب.

وحكي أنه كان في غار السودان عابد فأتى بعض الشباب بعود وكوز من الخمر، فجلس بأعلى الغار من غير عِلْم بالعابد، فلما شرع في ضَرْبِ العود والسكْر قرأ العابد: ﴿أَلَمْ يأن للذين آمَنوا...﴾ الآية، فسمعه الشابُّ فقال: بلى، آنَ، وكسر العود والكوز، وخرج فارًّا بنفسه، فتبعه العابد، فعرضت له برْكة السودان فمشى على الماء. قال العابد: فتبعتُه فغرقت. ولم أقدر على اتباعه،

فرفعت رأسي؛ وقلت: إلهي لي على بابك أربعون سنة، ولم أَنَلْ ما نال هذا في ساعة، فسمعت هاتفاً يقول: ذلك فَضْلي أُوتِيه من أشَاء.

وأنت يا محمديّ تتلوها كلّ ساعة ولا ترجع إلى ربك! أهكذا شأن مَنْ يريد الرجوعَ إلى الله! كلاّ والله، ليس ثَمَّ رجوع ولا ندم، وإنما هو انهماك في المعاصي وقلةُ الخضوع، إلهي لا التوبة تدوم لي، ولا المعصية تنصرف عني، ولا أدري بِمَ يختم لي، غير أنّ سابقة الحسنى أوجبت لي حسْنَ الظنِّ، وقد قلتَ: أنا عند حُسْن ظَنِّ عَبْدِي بي فليظنَّ بي ما شاء، فهَبْ لي توبةً منك باقية، واصرف أزمةَ الشهوات عني، وامْح زينتها من قلبي بزينة الإيمان بجاه سيد الثقلين عليه أفضل صلاةٍ وأزكى تسليم، ما اختلف الْمَلَوَان.

﴿ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتابَ من قَبْل فطال عليهم الأمد﴾ [الحديد: ١٦]: عطف: ﴿ولا يكونوا﴾ على ﴿أنْ تخشع﴾ [الحديد: ١٦]. ويحتمل أن يكون نَهْياً، والمراد التحذير من أن يكون المؤمنون كأهلِ الكتب المتقدمة، وهم اليهود والنصارى، في حِرْصهم على الدنيا وصرف هممهم إليها، فكم خوَّفَنا سبحانه ونهانا قولاً وفعلاً؛ أدّب الملائكة بإبليس: بعد عبادة ثمانين ألف سنة ترك سجدةً طُرِد. أبونا آدم عليه السلام بأكلة لم يُؤْذَن له فيها، أهْبِط إلى الأرض وبكى مائتي سنة؛ وأتعب ذريته. نوح عليه السلام بكلمة ﴿إني أعِظك﴾ لم يرفع رَأسَه حياءً أربعين سنة، فالحذَر مِنْ مَيْلٍ إلى دُنْيَا تعدك بمال؛ فإنه مهلك، كبلعام سلب ولم يقبل أبدا، وكان يعلم الاسْمَ الأعظم.

وبرصيص العابد بعد عبادة مائةِ سنة قرنه الله مع إبليس في قوله تعالى مثَله ﴿كمَثَلِ الشيطانِ إذْ قال للإنسانِ اكفُر، فلما كفر قال إني بريءٌ منكَ﴾ [الحشر: ١٦]. وتأمّل الحدودَ المرتبة على الذنوب مِن حدّ قطع عضو فِي خمسة دراهم. ولو لم يكن من التخويف إلا قوله تعالى: ﴿إن عذابَ رَبِّهم غَيْرُ مأمون﴾ [المعارج: ٢٨] وإذا سأل الصادقين عن صدقهم فكيف بمن عصى؟

قال بعضهم: الصدق على ثلاث مقامات: صدق في العزم، وصدق في

اللسان، وصدق في الأعمال؛ فصدق العَزْم تجديد الإرادة، وصدق اللسان محاسبة النفسِ قَبْلِ إطلاق القول، وصدق الأعمال ركوبُ الجهد بترك العادة النفسية.

فآفَةُ صدقِ العزم العجز، وآفة صدق اللسان المعارضة؛ قال تعالى في بعض كتبه: إذا استوَتْ أقدامُ الأنبياء في الآخرة في صفّها أسأل الصادقين عن صدقهم، فتحتاج إذ ذاك الأنبياء إلى عفوي، وأقدم حبيبي أمامَهم بخطوة الصدق الذي أتى به بارزاً على جميع الأنبياء، وهو مقام الوسيلة الذي وعدتُه بنَيْلِه، ولا سؤالَ أعظم من سؤال الصادقين عن صدقهم، لأني أطالبهم بصدق الصدق، وقد عجز المخلوقون أَجْمَعُ عن الصدق، فكيف يجيبون عن صِدْقِ الصدق.

اللهم لا حيلةَ لنا في الوصول إلى منزلِ الصدق عندك إلا باطِّراح أنفسنا قولاً وفِعْلاً، لأنكَ أنْتَ أنت ونحن نحن، ولا بدّ لنا منك، فارحم ذلَّنَا بين يديك يا أَرْحمَ الراحمين.

﴿يظَاهِرُون منكم مِنْ نَسائِهم﴾ [المجادلة: ٢]: بالتشديد والتخفيف بحذف الألف وإثباتها مع التخفيف، ومعناهما واحد، وهو أن يقول الرجل لامرأته: أنْتِ عليَّ كظهْرِ أمّي، ويجري مجرى ذلك عند مالك تشبيه الزوجة بكل امرأةٍ محرَّمةٍ على التأبيد، كالبنت والأخت وسائر المحرمات بالنسب والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، سواء ذكر لفْظَ الظَّهْر أو لم يذكره، كقوله: أنتِ عليّ كأمي، أو كبطن أمي، أو يدها أو رجلها؛ خلافاً للشافعي؛ فإنَّ ذلك كلَّه ليس عنده بظِهَار، لأنه وقف عند لفظ الآية. وقاس مالك عليه، لأنه رأى أن القصد تشبيه حلالٍ بحرام.

﴿يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: ٣، ٤]: المراد بالمسيس هنا الوطء، وما دونه من اللمس، والتقبيل؛ فلا يجوزُ للمظاهر أنْ يفعلَ شيئاً من ذلك حتى يكفّر.

وقال الحسن والثوري: أراد الوطء خاصة، فأباحوا ما دونه قبل الكفّارة. وذكر الله قوله: ﴿قبل أن يتماسَّا﴾ في التحرير والصوم، ولم يذكره في الإطعام.

واختلف العلماء في ذلك، فحمل مالك والشافعي الإطعام على ما قبله، ورأى أنه لا يكونُ إلا قبل المسيس، وجعل ذلك من المطلق الذي يُحْمَل على المقيد. وقال أبو حنيفة: يجوز للمظاهر إذا كان من أهل الإطعام أن يطأَ قبل الكفّارة، لأنَّ الله لم ينصّ في الإطعام أنه قبل المَسِيس.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهم بأيديهم وأيْدِي الْمُؤْمنين﴾ [الحشر: ٢]: أمّا إخرابُ المؤمنين فهو هَدْمُ أسوارِ الحصون ليدخلوها؛ وأسند ذلك إلى الكفار في قوله: ﴿يُخرِبون﴾؛ لأنه كان بسبب كفرهم وغَدْرِهم؛ وأما إخرابُ الكفار لبيوتهم فلثلاثةِ مقاصد: أحدها حاجتُهم إلى الخشب والحجارة ليسدُّوا بها أفواهَ الأزقّة ويحصِّنوا ما أَخْرَبه المسلمون من الأسوار. والآخر ليحملوا معهم ما أعجبهم من الخشب والسَّواري وغير ذلك. والثالث ألاّ تَبقى مساكنهم مبنيّة للمسلمين؛ فهدَمُوها شُحًّا عليها.

﴿يُسَلِّطُ رُسُلَه على مَنْ يشاء﴾ [الحشر: ٦]: بالقتل والفيء والأَسْرِ وغيرها.

﴿يَثْقَفُوكم﴾ [الممتحنة: ٢]: يظفروا بكم.

﴿يَنْهَاكُم اللهُ عن الذين قاتَلُوكم في الدِّين﴾ [الممتحنة: ٩]: هم كفار قريش، والآية في النهي عن الإحسان إليهم والتحبُّب إليهم. وأما مَنْ لم يقاتل فقد قدمنا في حرف اللام أنّ الله رَخَّص للمسلمين في صلتهم. وقد صحَّ أن أسماء بنت أبي بكر قالت: يا رسولَ الله، إنّ أُمّي قدمَتْ عليّ وهي مشركة أفأَصِلُها؟ قال: صِلِي أُمّك.

﴿يَئِسُوا من الآخِرَة﴾ [الممتحنة: ١٣]، أي من خيرها والسعادة فيها.

﴿يا بني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مصدّقاً﴾ [الصف: ٦]: هذا القولُ من عيسى عليه السلام تعريضٌ لهم واستدعاءٌ لهم أن يتديَّنُوا بدينه، وأن يُصدقُوا بما صدَّقَ به. «ومصدقاً» حال مؤكدة، «ومبشراً» عطف عليه.

والمعنى أُرسلتُ إليكم في حال تصديقي بما تقدمني من التوراةِ وفي حال

تبشيري برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، وأن ديني التصديق بكتاب الله وأنبيائه جميعاً ممَّنْ تقدّم أو تأخّر.

فإن قلت: لـمَ لـمْ يقل: «يا قوم»، كقول موسى عليه السلام: ﴿يا قومِ لِمَ تُؤْذُونَني﴾ [الصف: ٥]؟

والجواب أنّ عيسى عليه السلام لا نسبَ له فيهم، فيكونوا قومه، إذ لم يكن له فيهم أب.

فإن قلت: لم جاء قولُ عيسى عليه السلام فيما يرجع إلى التوراة بلفظ التصديق، وفيما يرجع إلى النبي عليه السلام بلفظ البشارةِ، ولِمَ قال: «مصدقاً» بالتوراة ولم يقل بموسى؟

قلت: المراد أنْ يخبر عليه السلام بأنه مصدّق بمَنْ تقدم وتأخر من رُسله وكتبه، فجاء لفظُ التصديق بالتوراةِ على الأمر المقصود، والتصديق بالتوراة يستلزمُ التصديقَ بمَنْ جاء بها، وكأنه نزَّهَ الرسولَ الذي جاء بها عن أن يُسْتَراب برسالته حتى يحتاج إلى مَنْ يصدقه ممن هو مثله.

ولما كان مجيء محمدٍ ﷺ أمراً منتظراً حَسُنَ التبشير به، والبشارةُ به تتضمَّن تصديقَه سيما وقد سمَّاه رسولاً وعرفه بأحمد، الاسم المسمَّى به في السماء عند الملأ الأعلى، وهو أفخم للمسمى، وأبلغ في تفخيمه.

وهنا نكتة لطيفة؛ وهي أنَّ المبشَّر به يشعر بأن البشارة به تقتضي بأنه يأتي بأمور فيها البشرى لمَنْ جاءهم بها وقبلوها منه. قال ابن عطية: وهو في هذه الآية الكلمة لا الشخص، وليست على حدِّ قولك: جاءنا أحمد؛ لأنك ها هنا أوقعْتَ الاسْمَ على مسمَّاه، والآية إنما أراد فيها باسمه هذه الكلمة. ووقع للفخر في سورة الحمد مناسبة اشتقاق اسمه أحمد ومحمد من الحمد، لأنه أول ما خلق الله العقل، فكان أول ما نطق به الحمد، وكان آخر الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، فناسب الـخَتْم أن يكونَ من نوع المبدأ، فاشتقَّ له من الحمد اسمان: محمـد وأحمد، فأهل السماء هو أحمدهم، وأهل الأرض هو محمدهم.

فإن قلت: لِمَ أَخَّرَه ﷺ وهو أفضل الخلْق؟

والجواب لخصائصه وخصائص أُمته؛ منها أن مَنْ تقدم ظهرت فيهم الصناعة المحتاج إليها، فظهرت الحراثةُ من آدم، والخياطة من إدريس، والنجارة من نوح، والقيانة من داود، والخرازة من إلياس، وغير ذلك من الصنائع التي احتيج إليها، فجاءت إليهم مهذَّبة، ومنها لئلا يطلع على مساويهم أحدٌ من الأمم. ومنها لئلا يطول مكثهم في التراب. ومنها ليكونوا شهداءَ على مَنْ تقدّم، وغير ذلك من الخصائص التي نالوها بسببه ﷺ ويطول ذكرها.

فإن قلت: هل لتسميته في الأحزاب حكمةٌ، لأنها مخالفة لتسمية عيسى؟

فالجواب: أنهم كانوا لا يعرفون في الكتب الماضية إلا هذا الاسم، وسِرّ تسميته به أنه أشار إليهم فيها بأنه أحمدهم، وهذا الاسم لـمْ تغيره ألسنةُ العامـة، لأنهم يقولون محمّد بفتح أوله أو بضم أوله، ويستعظمون ذِكْره على وجهه للمواطأة فيه، وقد جعل النبيُّ ﷺ للتغيير نسبة؛ إذ قال: إنّ الله صرف عني إيذاءَ قريش وسبَّهم، يسبّون ويذمُّون مذمّما، وأنا محمد، ولما اتصف نبينا ومولانا محمد ﷺ بكونه أباً للمؤمنين في سورة الأحزاب، لأنهم كانوا لا ينادونه إلا بهذا الاسم تجد المؤمن إذا دهمه أَمْرٌ أو حدث له حادث لا يفزع إلا لهذا الاسم الشريف، إذ لا أَحسن للإنسان من أَبيه عند الفَزَع. وبهذا يندفع ما نحا إليه النووي في الأذكار حيث يزعم أنه لا يذكر اسمه عند العشرة فما فوقها، ولعلَّ السرَّ في هذه الآية هو من ناحية نَفْيِ أبوَّة الأشباح، وصحة كونه أباً للأرواح مع كونها مقتضية للرسالة، وختم النبوءة. وفي شرح البخاري لابن بطال أنّ الأبوة أشهر من الأمومة، بدليل: ادْعُوهُم لآبائِهم؛ وللحديث: ينصب للغادر لواءٌ يوم القيامة ثم يقال: هذا لواء فلان ابن فلان، وإنما فرع من قال بالنسبة للأم، لأنه رأى الستر يوم القيامة أدْخَل في باب الإغضاء؛ وفيما قاله نظر؛ إذ الأبوة نسبة ظنّية والأخرى يقينية.

وفي حديث القاضي المعافي: إنما الإشكال في دعوى ولد الزنى يوم القيامة لأبيه، مع أنه ليس بأب شرعي.

وأجاب باحتمال دَعْوىَ المجاز كأبي الأرامل، أو أنَّ أحوال الآخرة على خلاف أحوال الدنيا يُدْعَى إلى الإسلام الداعي إليه نبينا ومولانا محمد ﷺ.

﴿يَغْفِرْ لكُمْ﴾ [الصف: ١٢]: جزم في جواب ﴿تؤمنون﴾ [الصف: ١١]، لأنه بمعنى الأمر؛ فقد قرأ ابن مسعود: آمِنُوا وجَاهِدُوا - على الأمر. وقال الفراء: هو جواب ﴿هل أدُلُّكم﴾ [الصف: ١٠]؛ لأنه يقتضي التحضيض.

﴿يَتْلُو عليهم آياتِه ويُزَكِّيهم ويعلِّمُهم الكتابَ والحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]: منّ الله على عباده ببَعْثِ رسولٍ منهم وإليهم يعلِّمُهم بيانَ الشرائع والفهم؛ ويُزَكيهم: يطهرهم، ونسب التعليم إليه، لأنه يعلم ما في الكتب وطرق النظر بما يلقيه جبريل إليه، فأعرضوا عنه، وقالوا: هل بعث الله ملكاً.

وقد قدمنا سِرَّ بَعْثِ الرسل من البشر؛ إذ البشريةُ لا تطيق مباشرةَ الروحانية. ألاَ ترى جبريل؛ كان يخرجه ﷺ من البشرية حين يُلقى إليه الوَحْي.

فإن قلت: ما فائدة تقديم العلم في البقرة، وتأخيره في الصف وآل عمران؟

والجواب: لأنه لما كانت دعوةُ إبراهيم عليه السلام قبل وجود الضلال في الذرّية المدعوّ لها، وإنما تحصل لهم تزكيتهم ورَفْع ضلالهم المتوقّع لوقوعه بما يمنحونه من التعليم وما يُتْلى عليهم من الآيات؛ لأن ذلك هو السبب في حصول التزكية والسلامة من الضلال إذا وفِّقوا للانقياد له؛ ألا ترى ارتباطَ التزكية بأعمال الطاعات؛ قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أموالِهم صدَقَةً تطهِّرهم وتُزَكّيهم بها﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ وإنما كان تزكيةً لهم لانقيادهم بالطاعة فيما يطلبهم به من ذلك ويأخذه منهم، فتأخَّر ذكرُ التزكية المسبّبة عما به تحصل، وذلك بعد هدايتهم للإيمان؛ فجاء على الترتيب من بناء المسبَّب على سببه.

ولما كان مقصود الآيتين الأخيرتين إنما هو ذِكْرُ الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذي كان وُجِد منهم والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام أخَّر ذِكْرَ تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم؛ ليكونَ تلوهم ذِكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علمهم وأعطاهم وامْتَنَّ عليهم، وهو ثاني المسببين؛ فكان الكلام في قوةِ أن لو قيل: ويعلمهم ما به زوَالُ ضَلاَلِهم.

وأخَّر في هاتين الآيتين ذكْرَ السبب ليوصل بذكر مسببه الأكيد هنا الذي قد كان وقع، وهو رفع ضلالهم وانقيادهم من عظم مِحْنته، ولو أخَّر ذِكْرَ التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا، فاختلافُ الترتيب إنما هو بحسب اختلافِ القصدين ودَفْع ما ذكر، فورد على ما يجبُ.

﴿يَلْحَقُوا بهم﴾ [الجمعة: ٣]: معطوف على آخرين؛ أي لم يلحقوا بهم. واختلف مَنْ هم الآخرون؟ والصحيح الذي ورد في الصحاح أنهم أهلُ فارس؛ لأنه ﷺ سُئل عنهم، فأخذ بيدِ سلمان، وقال: لو كان العلم بالثريا لناله رجالٌ من هؤلاء، يعني فارس. وقيل: هم الروم، و﴿منهم﴾ على هذين القولين يريد في البشرية وفي الدين لا في النسب. وقيل: هم أهلُ اليمن وقيل هم التابعون وقيل هم سائر المسلمين.

﴿يحْسَبُون كُلَّ صَيْحةٍ عليهم هم العَدُوّ﴾ [المنافقون: ٤]: عبارة عن شدة خوفهم من المسلمين، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا صياحاً ظنوا أنه ﷺ أمر بقتلهم؛ وفي هذا دليل على أنه كان يعلمهم.

﴿يستَغْفِرْ لكم رسولُ الله لوَّوْا رؤُوسَهم﴾ [المنافقون: ٥]: الضمير يعود على المنافقين، يعني أنهم يميلونها إعراضاً واستكباراً.

وسببُ نزولِ هذه السورةِ ما جرى في غَزْوَة بني الْمُصْطلق بين جَهْجاه بن سعيد أجير عمر بن الخطاب وبين سنان الجُهني حليف لعبدالله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين على الماء الذي وقع الزحام فيه، فلطم جَهْجَاه سناناً فغضب سنان، ودعا بالأنصار، ودعا الجَهْجَاه بالمهاجرين؛ فقال عبدالله بن أُبَيّ: والله ما مثلنا

ومثل المهاجرين إلا كما قال الأول: سمِّنْ كلبك يأكلك. ثم قال: ﴿لئن رجَعْنَا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، يعني بالأعزّ نفسه وأتباعه، ويعني بالأذَلّ رسولَ الله ﷺ؛ ثم قال لقومه: إنما يقيم هؤلاء بالمدينة بسبب مَعُونتكم وإنفاقكم عليهم، ولو قطعْتُم عنهم ذلك لفَرُّوا عن مدينتكم؛ فسمعه زيد بن أرقم، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك عبْدَ الله بن أبيّ، فحلف لرسول الله أنه ما قال شيئاً من ذلك وكذب زيداً، فنزلت السورة عند ذلك، فبعث رسولُ الله ﷺ لزيد، وقال له: صدقك الله يا زيد، فخزي عبدالله بن أُبَيّ ومقتَهُ الناس، فقيل له امْضِ إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فإنه رحيم بالأمة، فلوَى رأسه استكباراً، وقال: أمَرْتموني بالإسلام فأسلمْتُ، وبأداء الزكاة ففعلت، ولم يبق لكم إلا أنْ تأمروني بالسجود لمحمد؛ فعاش قليلاً ومات؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

لا حيلة في القدر: جمع الحبس والتعذيبُ بين بلال وعمار على نبذ الدين، فزوّر على عمار على خط قلبه، فلم يعرف التزوير، وأسر بلال على دعوى الإبلاس فسلموه إلى صبيانهم في حديدة يصرونه في حَرِّ مكة، ويضعون على صدره وقت الرمضاء صَخْرَةً، ولسانُ محبته يقول:

بعينك ما يلقى الفـؤاد وما لقـي   وللشوق ما لم يبْقَ مني وما بقـي

وجيء بأبي جَنْدَل يجرُّ قيودَه، فردّه ﷺ إليهم ودموعُه تسيل على صدره؛ وأنشد أبياتاً آخرها:

وعلى مـا صفحـوا أو نقمـوا   لأرَى يـا طيبـة منـك يـدا

وكذلك أبو سهيل وغيره حبسوهم عنه ﷺ، فجرى القَدَر بِلقْياه، والإيمان به؛ وهؤلاء لم تسبق لهم سابقة سَبْق.

من أنْتَ يا بلال حتى عرج بك على براق العناية إلى حضرة القرب للقرب، وخلف عن نَيْل المطالب أبو طالب، جئتَ يا سلمان من فارس حتى نظمتك يدُ

العناية في سِلْكِ سلمان مِنا أهْل البيت. يا صهيب، ما الذي سمعتَ من الأخبار حتى تنعلت، ولبسْتَ سربالَ الهموم حتى سبقْتَ. يا ابْنَ أدهم، مَنْ أنت حتى طرَّزْت حلَل المنابر برقوم مدحتك. يا عتبة، مَنْ أنْتَ حتى تزيَّنَتْ مجالِس الأذكار بحديثك. يا رابعة، مَنْ أنْتِ حتى لبيت المنادي، وحلَلْتِ من القرب في النادي، وقيل لك: مِن أجلك قبلت مَنْ أتى إليك، اللهم إنك نبَّهْتَ قلوباً نائمة، وأيقظت أسماعاً ساهية، وأقمتَ بالمواعظ إلى بابك قلوباً ناسية حتى سمعوا الإشارةَ، فأسرعوا وصفَتْ قلوبهم لمحبتك فيهم؛ فإنهم لم يحبوك حتى أحبَبْتَهم، ولم يقربوا منك حتى أوصلْتَهم، ارحمنا بذكرهم واقْبَلْنَا كما قبِلْتَهم؛ فإنه لا مانعَ لما أعطيْتَ، ولا مُعْطِيَ لما منَعْتَ، ولا تحرم مَنْ نظر في كتابي هذا وقال: اللهم ارْحَم المحرومَ برحمتك، وإن كان غَيْرَ مستأهل القبول، فضلك الكريم لا يرد الطفيليَّ والمتعلق.

فإن قلت: ما فائدة الجمع في قوله: ﴿وإذا قيل لهم تعالَوْا يستغْفِر لكُمْ رسولُ الله﴾ [المنافقون: ٥] مع أن الخطاب لواحد؟

والجواب: أن الإسناد للتحقير وإبقاء الستر على العُصَاة حيث لم يعيّن القائِل. وقد كان له أتباع من المنافقين يوافقونه على ما قال، فالخطابُ لهم.

﴿يأتِينَ بفاحشَة مُبَيِّنَة﴾ [الطلاق: ١]: ضمير الإناثِ يرجعُ إلى المطلقات. والمعنى أن الله نهى عن أن يُخْرِج الرجلُ المطلقةَ من المسكن الذي طلَّقها فيه، ونهاها هي أنْ تخرجَ باختيارها إلا أن تأتي بفاحشة.

واختلف في هذه الفاحشة التي أباحَتْ خروجَ المعتدَّة على خمسة أقوال:

الأول أنها الزنى، فتخرج لإقامة الحدّ؛ قاله الليث بن سعد، والشعبي.

والثاني أنه سؤال وكلام مع الأصهار، فتخرج ويسقط حقها من السكنى، ويلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب، قاله ابن عباس. ويؤيّده قراءة أبيّ بن كعب: إلا أنْ يفحشن عليكم.

والثالث أنه جميعُ المعاصي من القَذْف والزنى والسرقة وغير ذلك، فمهما فعلَتْ شيئاً من ذلك سقط حقُّها في السكنى؛ قاله ابن عباس أيضاً، وإليه مال الطبري.

والرابع أنه الخروج من بيتها خروج انتقالٍ، فمهما فعلَتْ ذلك سقط حقُّها في السكنى؛ قال ابن الفرس: وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزَتْ في العدّة.

الخامس أنه النشوز قبل الطلاق، فإذا طلَّقها بسبب نشوزها فلا يكون عليه سكنى؛ قاله قتادة.

﴿يُحْدِثُ بعْدَ ذلكَ أَمْراً﴾ [الطلاق: ١]: المرادُ به الرجعة عند الجمهور؛ أي أحْصُوا العدَّة وامتثلوا ما أمرتم به لعلَّ الله يُحْدثُ الرجعةَ لنسائكم.

وقيل المعنى: لعل الله يحدِث أمراً من نسخ هذه الأحكام؛ وهذا بعيد. وقيل: إنّ سببَ الرجعة المذكورة في الآية تطليقُ النبي ﷺ لحفصة بنت عمر، فأمره الله بمراجعتها.

﴿يتَنَزَّلُ الأَمْرُ بينهنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ أي بين السماء والأرض. وقد قدمنا آنِفاً أن المراد بالأمر الوحي أو إحكام الله وتدبيره لخَلْقِه.

﴿يَفْعَلُون ما يُؤْمَرُون﴾ [التحريم: ٦]: الضمير يعود على الملائكة الغلاظ، لقساوة قلوبهم على مَنْ عصاه، ويتقربون بتعنيف بني آدم وتعذيبهم كما هو مشاهدٌ في حَرَس ملوكِ الدنيا كلما ازدادوا عُنْفاً على المأمور به ازدادوا محبةً عند الأمير.

فإن قلت: قوله ﴿لا يَعْصُونَ الله ما أَمرهم﴾ [التحريم: ٦] يُغْني عن قوله: ﴿ويَفْعَلون ما يؤْمَرون﴾؟

والجواب: أنه أكَّدَه بذلك، ليزداد خوْفُ المخاطب. أو معنى يفعلون ما يؤمرون بنشاط وجدّ فيما أمروا به من عذاب الناس. اللهم أعِذْنَا من عذابك.

﴿يوم لا يُخْزِي الله النبيَّ﴾ [التحريم :٨]: العامل في يوم يحتمل أنْ يكونَ ما قبله أو ما بعده أو محذوفاً، تقديره اذكر، والوقف والابتداء يختلف على ذلك.

﴿يَسْطرونَ﴾ [القلم: ١]: الضمير للملائكة على قول من قال: القلم هو الذي يُكتب به في اللوح المحفوظ. وعلى مَنْ قال إنه القلم المعروف عند الناس يكون الضمير لبني آدم.

﴿يبْدِلَنا خيراً منها﴾ [القلم: ٣٢]: الضمير لأهل الجنة التي رأوها كالصَّرِيم، وقصتهم معروفة. فطلب المؤمنون منهم البدَل في الدنيا أو في الآخرة، وهكذا المؤمن يرجعُ إلى الله في نوائبِه ولا يضجر بما يناله.

﴿يبصرونهم...﴾ [المعارج: ١١] الآية: يعود ضمِير ﴿بنيه﴾ فيها إلى الحميم، لأنها في معنى الجمع. والمعنى أن كل حميم يبصر حمِيمه يوم القيامة، فيراه ولكنه لا يسأله؛ لأنه مشغول بنفسه، وأيّ شغل وهو يودّ حينئذ أن يفدي نفسه ببنيه الذين هم أحبُّ إليه من نفسه، ولا يجد ذلك، ولذلك عطفه بثم، ﴿ينْجِيهِ﴾ [المعارج: ١٤] لبعْد النجاة وامتناعها. والفاعل الذي يقتضيه: ﴿لو يَفْتَدِي﴾، وهذا الفعل معطوف على لو يفتدي، ولذلك زجرهُ عن ذلك بقوله: ﴿كلاّ﴾ [المعارج: ١٥].

﴿يَوْمَهم الذي يوعَدون﴾ [المعارج: ٤٢]: قد قدمنا مراراً أنه يوم القيامة، بدليل أنه أبدل منه: ﴿يوم يَخْرجونَ من الأَجداث﴾ [المعارج: ٤٣]، وهي القبور.

﴿يَغْفِرْ لكم من ذنوبكم ويؤَخّرْكم إلى أجَل مسمّى﴾ [نوح: ٤]: هذا من قول نوح، وعَدَهم أن يغفر لهم ما قبل إسلامهم لا بَعده، لأن ذلك في مشيئة الله، فمِنْ هنا للتبعيض، وقيل لبيان الجنس، وقيل لابتداء الغاية؛ وهذان ضعيفان، والأول أولى؛ لأن التبعيضَ فيها متَّجه. وتعلّق المعتزلة بهذا؛ فقالوا

بالأجَلين. وردَّ تعلقهم؛ لأن المعنى أنّ نوحاً عليه السلام لم يعلم هل هم مِمَّنْ يؤخر أو ممن يعاجل، ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قد جاء، لكن سبق في الأزَل أنهم إما ممن قضِي له بالإيمان والتأخير أو ممن قضِي له وعليه بالكفر والمعاجلة، فكان الاحتمال يقتضيه ظاهر الآية إنما هو يبرزه الغَيْب من حالهم؛ إذ يمكن أن يبرز إما الإيمان والتأخير وإما الكفر والمعاجلة، وأمَّا ما عند الله فالحال الذي يكون منهم معلوم مقدَّر محتوم، وأجلهم كذلك معلوم مقدَّرٌ محتوم.

فإن قلت: ما المانع من كون ﴿من﴾ للغاية، أعني الابتداء والانتهاء؛ كقولك: أخذت المالَ من الصندوق؟

والجواب لا يصح هنا، لأنَّ الصندوق غير مأخوذ، بل مأخوذ منه، فيلزم هنا أن تكونَ الذنوب غير مغفورة، ونقل عن أبي الربيع أنه إشارةٌ إلى أنَّ الإسلامَ يحبط ما قبله. وردّ بأنه يلزم صدق الذنوب على الماضي والمستقبل، لأن الخطابَ للكفار، فيلزم المجاز؛ لأن الآتي لم يعملوه، فكيف يصدق عليه أنه ذنوب قبل الفِعْل. ونقل عن ابن عصفور أنه قال: يغفر لكم جملةً من ذنوبكم. ورد بأن تلك الجملة بعضَ الذنوب، فلا حاجةَ إلى تقديرها، ولفظة من النائبة مناب بعض يغني عنها.

فتأمل يا محمديّ هذه العناية الربّانية بكَ حيث خاطب هذه الأمّة؛ قال في حقهم: يَغْفِرْ لكم ذنوبكم، وحيث خاطب الأمم المتقدمة أنبياؤهم خاطبوهم بالبعض، لتعلم الفَرْقَ بين خطاب المولى الكريم من خطاب عبيده.

﴿يقـول سَفِيهُنَا على الله شَطَطاً﴾ [الجن: ٤]: هذا من كلام الجنّ، والمراد بالسفيهِ أبوهم إبليس. وقيل هو اسْمُ جنسٍ لكلّ سفيهٍ منهم، وهو المختارُ عند ابْن عطية.

﴿يَعُوذُونَ برجالٍ مِنَ الجِنّ﴾ [الجن: ٦]: الضمير يعود على العرب، لأنهم كانوا إذا حلَّ أحدهم بوادٍ صاح بأَعْلَى صوته: يا عزيز هذا الوادي؛ إني أعوذُ

بك من السفهاء الذين في طاعتك، ويعتقد أن ذلك الجني الذي بالوادي يحميه، وهذا جهلٌ منهم وإنكار للربوبية، ولـذلـك قـال الله: ﴿فـزادوهـم رهَقـاً﴾ [الجن: ٦].

﴿يَدْعُوه﴾ [الجن: ١٩]: الضمير لعبدالله المتقدم. وقد قدمنا مراراً أنّ الله سمّـاه هذا لإضافته للتشريف والتكريم. وقال الزمخشري: إنما لم يقل الرسول أو النبي لأن هذا وقع في كلام رسولِ الله عن نفسه، لأنه مما أوحي إليه، فذكر النبي ﷺ نَفْسَه على ما يقتضيه التواضُع والتذلل؛ وهذا بعيد مع أنه إنما يتمكن على قراءة أنه لما قام بفتح الهمزة فيكون عطفاً على أُوحِي إليّ أنه استمع. وأمّـا على القراءة بالكسر على الاستئناف فيكون إخباراً من الله، ومن جملة كلام الجن، فيبطل ما قاله.

﴿يكونون عليهِ لِبَداً﴾ [الجن: ١٩]: يحتمل أن يكون الضمير للكفار من الناس، أيْ كادوا يجتمعون على الردِّ إليه وإبطال أمْرِه، أو يكون للجن الذين استمعوا؛ أي كادوا يجتمعون عليه لاستماعِ القرآن للتبرُّك به.

﴿يَجعلُ له ربِّي أَمَداً﴾ [الجن: ٢٥]؛ أي لا أدري أقريب ما توعدون مِن قتلكم يوم بَدْر أو موتكم بعد، ولذلك قال: ﴿عالم الغيب﴾ [الجن: ٢٦]، يعني هذا أمر مغيب.

﴿يوم تَرْجُفُ﴾ [المزمل: ١٤]: العامل في يوم معنى الكلام المتقدم، وهو ﴿إنَّ لدينا أَنْكالاً﴾ [المزمل: ١٢].

﴿يجعَلُ الوِلْدَان شِيباً﴾ [المزمل: ١٧]: يعني أن الأطفال يشيبون يوم القيامة من شدَّة الهول، فقيل إن ذلك حقيقة، وقيل إنه عبارة عن هَوْلِ ذلك اليوم، وأخذ من الآية أنّ الهمَّ يُسرع الشيب، وهذا مشاهَدٌ في كثير من الأشخاص في كل عصر. وقد رأينا مَنْ شاب من هَمِّ ساعة، ورأينا حكايات شتّى أنهم شابوا من ذلك، فإذا كان هذا في الدنيا المنْقَرِضة همومها، لا خيرها

يدومُ ولا شرها يبقى، فما لك بيومٍ تذهلُ فيه كلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعت، ويفرُّ المَرْءُ من أخيه! اللهم لا محيص من هَوْله إلاّ بك، ولا مَفَرّ منه إلا بعفوك، فاجعله لنا يوم رحمةٍ لا يوم نِقْمة، إليك المُشْتَكى، وبكَ المستغاث، وعليك التكلان، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك.

﴿يَطْمَعُ أَنْ أَزِيد﴾ [المدثر: ١٥]: أي يطمع في الزيادة على ما أعطاه الله، ويظنّ أنّ حِرْصَه واجتهاده يوصّله لمراده، وهذا غايةُ الجهل، ولذلك قال مهدّداً له: ﴿كلا إنه كان لآياتنا عَنِيداً﴾ [المدثر: ١٦].

﴿يقول الذين في قلوبهم مَرَضٌ والكافرون﴾ [المدثر: ٣١]: المراد بالأولين المنافقون؛ لأنه وصفهم بمرض قلوبهم.

فإن قلت: ذلك في البقرة، وهذه الآية مكية، فكيف يصحُّ اطلاقُها عليهم وليسوا بها؟

والجواب: أن معناه يقول المنافقون إذا حدثوا، ففيه إخبار بالغيب، أو يريد مَنْ كان بمكة من أهل الشك.

﴿يَفْجُرَ أمَامَه﴾ [القيامة: ٥]؛ أي يفعل أفعالَ الفجور. وفي معنى «أمامه» ثلاثة أقوال: أحدها أنه عبارة عما يستقبل من الزمان، أي يفجر بقيةَ عمره. الثاني أنه عبارة عن اتباع أغراضه وشهواته؛ يقال: مشى فلان قُدَّامه إذا لم يرجع عن شيء يريده، والضمير على هذين القولين يعودُ على الإنسان. الثالث أن الضمير يعود على يوم القيامة. والمعنى يريد الإنسانُ أن يَفْجُرَ قبل يوم القيامة.

﴿يَسْأَلُ أَيّانَ يَوْمُ القيامةِ﴾ [القيامة: ٦]؛ أي يسأل الإنسان على وجه الاستخفاف والاستهزاء متى يوم القيامة. وهذا لِجَهْلِه إما على أنَّ من مات فقد قامت قيامتُه وهو يشاهد الموت بَغْتة، فكيف يستبعدها وليس الخبر كالمعاينة، لكن الجاهل أعمى، ولا يقال لهذا جاهل بل أحمق.

﴿ينبّأ الإنسان يوْمَئِذٍ بما قدّم وأخّر﴾ [القيامة: ١٣]؛ أي بجميع أعماله المقدمة في عمره، وما أُخر منها بعد مماته، هل سنّ سنَّةً حسنة أو سيئة أو صلة أَوصى بها تضره أو تنفعه، أو ما قدم من المعاصي وأخّر من الطاعات؛ أو ما قدم لنفسه من ماله وما أخّره منه. أَو ما قدم في أول عمره وما أخّر في آخره ويحتمل أنه ينبَّأ عن مجموعها. وفي الحديث: يدنُو أحدكم من ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فيقول عبدي خلقْتكَ بتدبيري، وصوّرْتك بحكمتي، وأتممت عليك نعمتي، فلِمَ عصيتني؟ فأيُّ جوابٍ لك أيها العبد؟ وفي حديث آخر: لا تزول قَدَمَا عَبْد حتى يسأل عن خمس: عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن علمه ما عمل فيه؛ أتدرون مَنِ الـمُفْلس؟ قالوا: لا، يا رسولَ الله. قال المفلس من يأتي يوم القيامة وله أمثال الجبال من الحسنات، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وضرب هذا، وأكل مالَ هذا، فهذا يأخذ من حسناته وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته طرحت عليه سيئاتهم، ثم طرح في النار. اللهم ارحمنا إذا صِرْنَا إليك، والطف بنا يوْمَ الوقوفِ بين يديك، أقسمتُ عليك بأكرم الخَلْق عليك وأرْفعهم مكانة لديك محمد ﷺ.

﴿يومئِذٍ الـمَسَاق﴾ [القيامة: ٣٠]: مصدر من السوق، كقوله تعالى: ﴿إلى اللهِ الـمَصِير﴾.

﴿يَتَمَطَّى﴾ [القيامة: ٣٣]: الضمير يعود على أبي جهل، وذلكَ أنه كان يتبختر في مشيته ويتعجّبُ من نسمته، ويرى أنه أَفضل قومه؛ فردّ الله عليه بقوله: ﴿ألم يكُ نُطْفةً مِنْ مَنيٍّ يُمْنَى...﴾ [القيامة: ٣٧] الآية؛ أي مَنْ كانت هذه حاله كيف يتبختر، وكانت هذه المشية معروفة في بني مخزوم، وختم هذه الآية بقدرته تعالى على إحياء الموتى، لأن مِنْ لازِم خَلْقِ الإنسان وتصويره على هذه الهيئة المشاهدة القدرةَ على إحياء الموتى من باب أولى.

﴿يَتيماً﴾: قد قدمنا أنَّ اليتيمَ مَنْ فقد أباه من الآدميين؛ ومنَ الحيوان مَنْ فقد أمّــه، وسَلّـى اللهُ نبيـه بقـولـه تعـالى: ﴿ألَـم يَجِـدْكَ يتيماً فـآوى...﴾

[الضحى : ٦] إلى آخرها . وذلك أنه قال ليلةَ الإسراء : يا رب ، اصطفيتَ آدم ، وسلمت على نوح ، ورفعتَ إدريس ، وكلمتَ موسى ، فقال له : ﴿ألم يَجِدْكَ يتيماً فآوَى...﴾ [الضحى : ٦] إلى آخر ألم نشرح .

وهذا الاستفهام على ذكر المنة والتسلية بما أعطاه الله وفَضّله على سائر الرسل ، هذا ما أعطاه الله في الدنيا والآخرة وأعظمها قوله : ﴿ولسوف يُعْطِيكَ ربُّكَ فترْضَى﴾ [الضحى : ٥] ؛ ففي إبهام هذا العطاء ما لا يُوصف .

﴿يَوْمَا عَبُوساً﴾ [الإنسان : ١٠] : قد قدمنا أنه عبوس على الكافر ، لأنه يعبس يومئذ حتى يسيلَ الدم من عينيه ، مثل القطران ، وأما المؤمنُ فيسرّ بما يَلْقَى من الرحمة الخاصة به ، جعلنا الله منهم .

﴿يا ليتني كنْتُ تُرَاباً﴾ [النبأ : ٤٠] : هذا من قول الكافر لما يرى مِنَ اقتصاص البهائم بعضها من بعض ، ثم ترجع تراباً فيقوله ليسلم من العذاب كما سلمتِ الحيوانات ، وأنّى له ذلك ! وقيل المرادُ به إبليس ، لأنه احتقر الترابَ في قوله : ﴿خلَقْتَنِي من نارٍ وخلقْتَهُ من طين﴾ [الأعراف : ١٢] ، فيتمنى حينئذ أن يكونَ مثل آدم وأولاده لما رأى ما أنعم الله على المؤمنين منهم .

﴿يوم تَرْجُفُ الراجفَةُ . تَتْبَعُها الرادِفَةُ﴾ [النازعات : ٦ ، ٧] : العامل في « يوم » محذوف ، وهو الجوابُ المقدر ، تقديره لتبعثن يوم تَرْجُف الراجفة ... وإن جعلنا يوم ترجف الجواب فالعاملُ في يوم معنى قوله : ﴿قلوبٌ يومئذ وَاجِفة﴾ [النازعات : ٨] ؛ أي شديدة الاضطراب كما قدمنا في حرف الواو ، ويكون تتبعها الرادفة في موضع الحال .

ويحتمل أن يكون العاملُ فيه تتبعها ، وقد قدمنا أن هذين الاسمين من أسماء القيامة ، فقيل الراجفة النفخة الأولى في الصُّور ، والرادفة الثانية لأنها تتبعها ، وبينهما أربعون عاماً . وقد قدمنا في حرف الثاء أنّ الراجفةَ الأرض ، والرادفة السماء ؛ لأنها تنشقّ يومئذ . وقيل الراجفة الموت ، والرادفة القيامة . وقد قدمنا أنّ

النَّفْخَ على ستة أوجه: لآدم، ﴿فإذا سَوَّيْتُه ونفخْتُ فيه مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]. ولذي القرنين: ﴿قال انْفُخوا﴾ [الكهف: ٩٦]. ولمريم: ﴿فنَفَخْنا فيها مِن رُوحِنا﴾ [الأنبياء: ٩١]. ولعيسى عليه السلام: ﴿فانفخ فيه﴾ [آل عمران: ٤٩]. وفي هاتين النفختين: ﴿يقولون: أئنَّا لَمَرْدودونَ في الحَافِرَة﴾ [النازعات: ١٠].

هذه حكايةُ قول الكفار في الدنيا، ومعناه على الجملة إنكارُ البعث، فالهمزةُ في قولهم أَئِنّا لمردودون للإنكار؛ ولذلك اتفق القُرّاء على قراءته بهمزتين إلا أنَّ منهم من سهّل الثانية، ومنهم مَن حقّقها. واختلفوا في ﴿أإذا كُنّا عظَاماً﴾ [الإسراء: ٤٩، ٩٨]؛ فمنهم من قرأه بهمزةٍ واحدة، لأنه ليس موضع استفهام ولا إنكار، ومنهم من قرأه بهمزتين تأكيداً للإنكار المتقدم.

﴿يَقْضِ ما أَمَرَه﴾ [عبس: ٢٣]: مجزوم بلما، ومعناه أنه لا يقضي الإنسان على تطاوُل عمره ما أمره الله؛ إذ لا بُدَّ للعبد من تفريط، وإذا كانت الأنبياءُ والرسل والملائكة المقرّبون يقولون يوم القيامة: سبحانك ما عبدناك حَقّ عبادتك، فكيف يقضي العاصي لربه حَقّه؟ أو كيف تقضي العبودية حقّ الربوبية!

﴿يَوْمَ يقومُ الناس لرب العالمين﴾ [المطففين: ٦]: الظرف منصوب بقوله: ﴿مبعوثون﴾. وقيل بفعل مضمر، أو بدل من ﴿يوم عظيم﴾.

وقيامُ الناسِ يوم القيامة على حسب اختلافهم؛ فمنهم مَن يقوم خمسين ألف سنة وأقل من ذلك على حسب أعمالهم، ومنهم مَن يقوم من قبورهم إلى قصورهم، ومنهم على قَدْر صلاة مَكتوبة.

﴿يَشْهَدُهُ المقَرَّبون﴾ [المطففين: ٢١]: يعني الملائكة لقربهم من الله.

﴿يَشْرَب بها﴾ [المطففين: ٢٨]: يعني يشربها، فالباء زائدة. ويحتمل أن تكونَ بمعنى يشرب منها، أو كقولك: شربت الماءَ بالعسل.

﴿يَحُور﴾ [الانشقاق: ١٤]؛ أي يرجع بلغة الحبشة؛ قاله ابن عباس.

﴿يخرج من بين الصُّلْبِ والتَّرَائبِ﴾ [الطارق: ٧]: الضمير للماء. وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون للإنسان، وهذا بعيد جداً.

﴿يوم تُبْلَى السَّرَائِر﴾ [الطارق: ٩]: يعني تنكشف سرائر العبد التي كانت في قلبه من عقائد ونيّات، وتالله لا يجد فيها في هذا الزمان إلا ضغائن وحقائد وخبث طويّات. وروي عن النبي ﷺ: إن السرائِر الإيمان والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة.

وهذه معظَمُها؛ ولذلك خَصّها بالذكر، والعامل في ﴿يوم﴾ قوله ﴿رَجْعه﴾، أي يرجعه ﴿يوم تُبلَى السرائِر﴾. واعترض بالفصل بينهما. وأجيب بقوةِ المصدر في العمل. وقيل: العامل قادر. واعترض: بتخصيص القدرة بذلك اليوم، وهذا لا يلزم؛ لأَن القدرة وإن كانت مطلقةً فقد أخبر الله أن البعث إنما يقَعُ في ذلك اليوم.

﴿يومئذ يتذَكَّرُ الإنسانُ وأَنّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣]: يعني كيف تنفعه حينئذ الذكرى، وقد انقطعت علائقه. والإنسان جنس يشمل جميعه، وتذكره إنما هو بنَدمه على تفريطه، ويومئذ بدل من دكّت، ويتذكر هو العامل، وهو جواب دُكت.

﴿يقولُ يا ليتني قدَّمْتُ لحيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]؛ أي قدمتُ عملاً صالحاً وقْتَ حياتي، فاللامُ على هذا كقولك: كتبت لعشر من الشهر.

وقيل الحياة في الآخرة. والمعنى: يا لَيْتَني قدمتُ عملاً صالحاً للآخرة.

وكيف ينفَعه هذا القول وقد أخبر الله بعذابه ووثاقه؟

﴿يا أيَتُها النّفْسُ المطمئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]: قد قدمنا أنّ النفوس ثلاثة: لوّامة، وأمّارة، ومطمئنة، وهي المرادة هنا بالخطاب، لأنها المُوقِنة بحيث لا

يتطرق إليها شكّ في الإيمان. وقيل المطمئنة التي لا تخاف حينئذ. ويؤيِّدُ هذا قراءة أبيّ بن كعب: يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة.

﴿يقولُ أهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾ [البلد: ٦]: بضم اللام وكسرها. بمعنى الكثرة. والقائل لهذا عند قوم الوليد بن المغيرة، لأنه أنفق أموالاً في إفساد أمرِ رسول الله ﷺ.

﴿يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٨]: من أداء الزكاة، أو من الزكاء، أي يصير زاكياً عند الله، أو يتطهر من ذنوبه. وهذا الفعلُ بدل من ﴿يؤتي ماله﴾ [الليل: ١٨]، أو حال من الضمير. والمراد به أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، ولو لم يكن له من الفضيلة إلا نزول هذه السورة فيه لكان فيها كفاية، فكيف وقد شبّهه رسولُ الله ﷺ بآصف لما أُتي ببركة من مكة إلى المدينة. وسمي صدِّيقاً لأنه صدَّق النبي ﷺ حين كذبه الناس، وعتيقاً لقول النبي ﷺ: أنت عتيق من النار.

ولما نزلت: ﴿ولسوف يَرْضَى﴾ [الليل: ٢١] ـ قال: يا رسول الله، لا يرضيني أنّ أحداً مِنْ أُمَّتك يدخل النار. فتبسّم ﷺ وقال: إن الله يقول لك: إن شئت وقفت في يوم القيامة تشفَع فيمن أحببت وإن شئت مضيْت.

وقد ألّفت تأليفاً سميته الوثيق في نصرة الصديق. وبالجملة فالصحابة كلهم عدول لا يجحد عدالتهم إلا منافق مبتدع، وكيف لا والله يقول: ﴿محمدٌ رسولُ الله والذين مَعَهُ أشِدَّاءُ على الكفار...﴾ [الفتح: ٢٩] الآية، فرضي الله عنهم وعمَّن رضي عنهم وأحبّهم.

﴿يُعْطِيكَ رَبُّك فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]: الخطاب لنبينا ﷺ. ولما نزلت قال: لا أَرْضَى أَنْ يَبْقَى أحدٌ من أُمّتي في النار. فقال الله له: لا بدّ من نفاذ الوعيد على طائِفةٍ. فطلب فيهم الشفاعة. والصحيح أنّ هذا وعْدٌ يعمُّ كلَّ ما أعطاه الله في الدنيا من النصر، والفتوح، وكثرة المسلمين، وغير ذلك؛ وفي الآخرة من الوسيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود الذي لا ينَالُه أحد.

فإن قلت: ما فائدة الامتنان عليه باليتم؟

والجواب: لئلا يكون عليه حقٌّ لمخلوق، ولما مات أبوه تركه في بَطْنِ مولاتنا آمنة، ثم ماتت وهو ابْنُ خمسة أعوام، وقيل ثمانية، فكفله جدُّه عبد المطلب، ثم مات وتركه ابْنَ اثنتي عشرة سنة، فكفله عمُّه أبو طالب، ورام المعاندون قَتْله وخموده فلم يَقْدروا عليه لِحِفْظِ الله له صبياً وكَهْلاً، فلهذا عدّد نِعَمَه عليه سبحانه كما قدمنا.

﴿يتلو صُحُفاً مُطهَّرة﴾ [البينة: ٢]: الضمير لرسولِ الله ﷺ، وذلك أنه يتلو القرآن في صحُف مطهرة. وقد قدمنا معناها.

﴿يومئذ تُحَدِّثُ أخبارَها﴾ [الزلزلة: ٤]: هذه عبارة عما يحْدث الله فيها من الأهوال، فهو مجازٌ وحديث بلسان الحال. وقيل: هو شهادتها على الناس بما عملوا على ظَهرها، فهو حقيقة. وتحدّث يتعدَّى إلى مفعولين، حذف الأول منها. والتقدير تحدث الـخَلْقَ أخبارها. وانتزع بعض المحدثين من قوله: تحدث أخبارها أن قول المحدث: حدثنا، وأخبرنا سواء. وهذه الجملة في جواب: ﴿إذا زلزلت الأرض﴾، وتحدث هو العامل في إذا، ويومئذ بدل من إذا، ويجوز أن يكونَ العامل في إذا مضمر وتحدث عامل في يومئذ.

﴿يَوْمئذ يَصْدر الناس أشتاتاً ليُرَوْا أعمالَهم﴾ [الزلزلة: ٦]؛ أي مختلفين في أحوالهم، وصدر الناس هو انصرافهم من موضع وردهم. فقيل الورد هو الدفن في القبور والصدر هو القيام للبعث. وقيل الورد القيام للمحشر، والصدر الانصراف إلى الجنة أو النار، وهذا أظهر. وفيه يَعْظم التفاوت بين أحوال الناس، فيظهر كونهم أشتاتاً.

﴿يوم يكون الناس﴾ [القارعة: ٤]: العامل في الظرف محذوف دلَّ عليه القارعة. تقديره في يوم.

﴿يحسب أنَّ ماله أخلده﴾ [الهمزة: ٣]؛ أي يظنُّ بفَرْطِ جَهْله واغتراره أنّ مالَه يخلّده في الدنيا. وقيل: يظن أنَّ ماله يوصِّله إلى دار الخلد.

واختلف على من يعود الضمير من الكفار على أقوال.

﴿يدعّ اليَتِيم﴾ [الماعون: ٢]؛ أي يدفَعُه بعُنْف، وهذا يحتمل أن يكونَ عن إطعامه والإحسان إليه، وعن ماله وحقوقه، وهذا أشدّ.

﴿يَحُضُّ على طعامِ المسكين﴾ [الماعون: ٣]: هذه الجملةُ في جواب ﴿أرأيت﴾ [الماعون: ١]؛ لأنّ معناها أخبرني، فكأنه سؤالٌ وجواب.

والمعنى انظر الذي يكذب بالدين تجد فيه هذه الأخلاق القبيحة والأعمال السيئة؛ وإنما ذلك لأنّ الدين يحمل صاحِبه على الحسنات، وترك السيئات، فمقصود الكلام ذَمُّ الفاعل لذلك. قال الجنيد: عرضت نفسي ليلة على هذه السورة، فلم أجد فيها ذلك، ثم عرضت عليها ﴿قد أَفْلَحَ الـمُؤْمِنُون﴾ إلى قوله: أولئكَ في جنات مكرمون، فقلت: سبحانك لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، فسمعتُ هاتفاً يقول: من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أَنْ يتوبَ عليهم. هذا الجنيد فكيف حالك يا خويْد.

﴿يُرَاءُونَ﴾ الناس [الماعون: ٦]، فكانت صلاتهم للناس لا لله، فلذلك ذمَّهم الله في الدنيا وعذّبهم في الآخرة، وفي هذا تحذير لمن اتَّصفَ بصفتهم، فالأَحْمَقُ مَنْ يعمل لرضا الناس، وهو لا يُدرك، وأجهلُ الناس مَنْ طلب ما لا يُدرك، وعن قريب يظهر له فِعله. وهذا يختلف باختلاف المقاصد، لأن مَنْ عمل لإظهار الله جميله وستره قبيحه، أو لأنه يفعل به ذلك في الآخرة، أَو لقُدْوتهم به أذلَّه مثل أجورهم أَو فرح بثنائهم لحبهم الطاعة والمطيع وسلامتهم من أضدادها، أو ليعرف حبَّ ربه تعالى إذا أحبه حَبَّبَهُ إلى عباده، أو لئلا يشغله ذمهم ونحوه فحسن.

﴿يَمْنَعُون الـمَاعُون﴾ [الماعون: ٧]: قد قدمنا في حرف الميم أن هذا وصف لهم بالبخل وقلّة المنفعة للناس، ومَنْ لا ينفع الناس لا ينفعه الله، وأنفَعُ الناسِ عند الله أنفَعُهم للناس إلا إن أوجب الله طردهم وبعدهم وهجرانهم،

فالبغضُ في الله أوجب؛ ولذلك اختلف الفقهاء في التصدق على تارِك الصلاة؛ قال بعضهم: الحمد لله الذي قال: «عن صَلاَتهم»، ولم يقل في صلاتهم.

﴿يا أيُّها الكافِرُون. لا أعْبُد ما تَعْبُدون﴾ [الكافرون: ١، ٢]: سببُ نزول هذه السورة أنّ قوماً من قريش منهم الوليدُ بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاصي بن وائِل، وأبو جهل ونظراؤهم ـ قالوا: يا محمد، اتَّبع ديننا ونَتَّبع دينك، اعبُدْ آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة. فقال: معاذ الله أن نشرك بالله شيئاً.

ونزلت السورة في معنى البراءة من آلهتهم؛ ولذلك قال ﷺ: مَنْ قرأها فقد برىء من الشرك. وفي هذا المعنى الذي عرضت عليه قريش نزل قوله: ﴿أفغير الله تأمُرونِّي أَعْبُدُ أيها الجاهلون﴾ [الزمر: ٦٤]، ولرسول الله ﷺ نزلت السّورة بسببها.

فإن قلت: لِمَ كرر قوله تعالى: ﴿ولا أنا عابِدٌ ما عبدْتُم﴾ [الكافرون: ٤]؟

فالجواب: في تكرار هذه الآيات أقوال جَمَّة ومعانٍ كثيرة، وتلخيصها أنَّ الله تعالى نفى عن نبيه عبادةَ الأصنام في الماضي والحال والاستقبال، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضاً، فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ستَّ مرات، فذكر لفظ الحال؛ لأن الحال هو الزمان الموجود، واسم الفاعل واقعٌ موقعَ الحال وهو صالح للأزمنة الثلاثة، واقتصر من الماضي على المسند إليهم، فقال: ولا أنا عابد ما عَبَدْتُم، وكان اسم الفاعل بمعنى الماضي فعمل على مذهب الكوفيين. واقتصر من المستقبل على المسند إليه، فقال: ولا أنتم عابدون ما أَعبد، وكان اسم الفاعلين بمعنى المستقبل.

﴿يُشْعِرُكم﴾ [الأنعام: ١٠٩]؛ أي يُدريكم، وهو من الشعور بالشيء.

﴿يُلْحِدُون في أسمائه﴾ [الأعراف: ١٨٠]: أي يجورون في أسمائه ويشتقّون اللات من الإله، والعزّى من العزيز، وقيل تسميته بما لا يليق به، ولما قال أبو جهل ما قال نزلت الآية.

﴿يوم حُنين﴾ [التوبة: ٢٥]: عطف على ﴿مواطن﴾ [التوبة: ٢٥]، أو منصوب بفعل مضمر. وهذا أحسنُ لوجهين: أحدهما أن قوله: ﴿إذ أعجبتكم كَثْرَتُكم﴾ [التوبة: ٢٥]: مختص بحُنين، ولا يصح في غيره من المواطن، فيضعف عطف أحدهما على الآخر، إلا إن أريد بالمواطن الأوقات. وحُنين اسم علم لموضع عُرف باسم رجل اسمه حُنين، وانصرف لأنه مذكر، وهي قرية قرب الطائف.

﴿يُحَادِدِ الله ورسولَه﴾ [التوبة: ٦٣]؛ أي يخالفهما ويعاديهما. وقيل: اشتقاقه من الحد، كقولك: يكون الله ورسوله في حدّ، وهو في حدّ.

﴿يُغَاثُ الناسُ﴾ [يوسف: ٤٩]: يحتمل أن يكون من الغيث، أي يمطرون، أو من الغوث؛ أي يفرج الله عنهم.

﴿يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٤]؛ أي يراجعه في الكلام.

﴿يقَلِّبُ كَفَّيْه﴾ [الكهف: ٤٢]: يصفّق بالواحدة على الأخرى كما يفعل المتندم المتأسّف على ما فاته.

﴿يُغادِر﴾ [الكهف: ٤٩]: يخلف ويترك.

﴿يُضَيِّفوهمَا﴾ [الكهف: ٧٧]: ينزلوهما منزلةَ الأضياف في إطعامهما والإحسان إليهما.

﴿يعقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]: يرجع على عَقبِه إلى خلف. وقيل يلتفت.

﴿يوزَعون﴾ [النمل: ١٧]: يكفّون ويحبسون. وجاء في التفسير يحبس أولهم على آخرهم حتى يدخلوا النار. ومنه قول الحسن رضي الله عنه لما تولّى القضاء وكَثر الناس عليه: لا بدّ للناس من وزيعة، أي من شرطة يكفّون الناسَ عند القاضي.

﴿يُؤْتون ما آتَوْا﴾ [المؤمنون: ٦٠]: من الزكاة والصدقة. وقيل إنه عامّ في جميع أعمال البر؛ أي يفعلون وهم يخافون ألاّ تقبل منهم.

وقد روت عائشة هذا المعنى عن النبي ﷺ إلا أنها قرأت يأتون ما أتوا بالقصر، فيحتمل أَنْ يكون الحديث تفسيراً لهذه القراءة، وقيل: إنه عام في الحسنات والسيئات؛ أي يفعلونها وهم خائفون من الرجوع إلى الله.

فإن قلت: ما فائدة حذف الضمير في هذه الآية المثبت في الآيتين قبلها؟

فالجواب: أنه أكد في الأولين بالضمير، وفي هذه بقوله: وقلوبهم وَجِلَـة؛ أي خائفة.

﴿يكوِّر اللّيْلَ على النهار﴾ [الزمر: ٥]؛ أي يلف هذا على هذا، ككور العمامة، وهو هنا استعارةٌ على ما قال ابْن عطية يعيد من هذا على هذا، فكأنّ الذي يطول من النهار أو الليل يصير منه جزءٌ على الآخر فيستره، وكأن الذي يقصر يدخل في الذي يطول فَيْستَتِر فيه. ويحتمل أن يكون المعنى أنَّ كلَّ واحد منهما يغيّب الآخر إذا طرأ عليه. فشبّه في ستره له بثوبٍ يلف على آخر.

﴿يوبِقْهنَّ بِمَا كسبوا﴾ [الشورى: ٣٤]: ضمير التأنيث يعود على السفن، يعني يهلكها بما يكسب أهلها. وهذا عطف على ﴿يسْكِنِ الريحَ﴾ [الشورى: ٣٣]، ومعناه لو شاء اللهُ أغرق السفن من شدة الرياح العاصفة، أو يسكنها فيظْلَلْنَ رَوَاكد على ظهره لا يتحركْنَ بالجري.

﴿يُزْلِقونَك بأَبْصارِهم﴾ [القلم: ٥١]؛ أي يزيلونك بعيونهم، لأنهم غاروا من فصاحته؛ فقال له قائل منهم: ما أفصحك! وقصد أَخْذَه بالعين؛ لأنه أعياهم أمره، فلم يَبْقَ لهم من الحِيَل إلا هذا، فأنزل الله عليه هذه الآية، وحفظه منهم؛ فلذلك لا تجد أنفع رُقْية منها لمن أصابه العين، وقرِئت ليُزلقونك بضم الياء؛ أي يستأصلونك من قولهم: أزلق رأسه إذا حلقه.

﴿يُوفِضُون﴾ [المعارج: ٤٣]: يسرعون الخروجَ من القبور إلى المحشر، كما يسرعون الْمَشْي إلى أصنامهم في الدنيا، لكنه خلاف إسراعهم إليها؛ لأن

الدنيا دارُ مُهْلة وتَنَعُّم، وهناك كما وصف الله حالَهم ﴿خاشعةً أبصارهم تَرهقهم ذِلّةٌ﴾ [القلم: ٤٣]. ووجوههم مغبرة ترهقها قَتَرة.

﴿يُوعُون﴾ [الانشقاق: ٢٣]؛ أي يجمعون في صدورهم من الكُفْر والتكذيب، أو هو سبحانه عالم بما يجمعون في صحائِفهم من الأعمال، يقال: أوعيت المالَ وغيره إذا جمعته.

ولنختم معاني هذه الحروف بذكر دخول مَنْ أورثه الله هذا الكتاب العظيم من الظالم والمقتصد والسابق، وأن الله وعدهم بجنةِ عَدْن يدخلونها، والضمير راجع إلى الثلاثة؛ قال تعالى: ﴿ثمّ أورَثْنا الكتابَ الذين اصطَفَيْنا من عبادنا، فمنهم ظالمٌ لنَفْسه، ومنهم مُقْتَصِدٌ، ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذْنِ الله ذلك هو الفضْلُ الكبير. جنّاتُ عَدْنٍ يدخلونها﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٣].

قالت عائِشة رضي الله عنها: لو علموا ما تحت واو الجماعة لماتُوا فَرَحاً. وقال ﷺ: سابقُنا سابق، ومقتصدنا لاحق، وظالمنا مغفور له.

فإن قلت: ما فائدة تقديم الظالم؟ وهلاّ جاءِت الآيةُ مثل الحديث؟

فالجواب: عادةُ المخلوق يقَدّمُ الأفضل، فخاطبهم ﷺ على عوائدهم، ألا ترى قوله: زُرْغِبًّا تَزْدَد حُبًّا. وقال الله: ﴿واعْبُدْ رَبَّك حتّى يَأتِيَك اليَقِين﴾ [الحجر: ٩٩]. ويقولون: لا تعير فتبلى. وقول الله: ﴿فاعْتَرَفُوا بذَنْبهم﴾ [الملك: ١١١]: ويقولون: أَحْسِن إلى مَنْ أحسن إليك.

ولما كان السابق قريباً، والظالم بعيداً، والقريب يحتمل ما لا يحتمل البعيد، والظالم منكسر الرأس من حياء جُرْمه ومعصيته، فلما نكس رأسه رفعه الله كما أنّ الجوديّ وطور زيتا لمّا لم يرفعا رؤوسهما أكرمهما الله كما قدمنا، والظالم ضعيف، والسابق قويّ، والعادة في القافلة تقديم الضعيف والرجالة، ألا تراه ﷺ كان يقدم الضعفة إلى مِنى قبل الفجر، فقدم الظالم لئلا يفتضح ولا يُعَاب، وأيضاً الظالم غير مدع والسابق مدع، ولو قدم السّابق وأخّر الظالم لبان منه

العَدْل، والظالم رفع قصته إلى الله فوقع له توقع الرحمة في قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفُوا على أَنْفُسهم﴾ [الزمر: ٥٣]، وللمقتصد توقع التوبة في قوله تعالى: ﴿آخَرون اعْتَرَفُوا بذُنُوبهم خَلطوا عَمَلاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ [التوبة: ١٠٢]. وللسابق توقع الرضوان، قال تعالى: ﴿والسابقون الأوّلُون من المهاجرين والأنصار﴾ [التوبة: ١٠٠].

فالمقاماتُ على ثلاثة أسماء: الله الرّحمن الرَّحيم، فانظر كيف اصطفاهم كما قال في إبراهيم: ﴿ولقد اصْطَفَينَاهُ في الدُّنيا وإنه في الآخرةِ لَمِنَ الصَّالِحين﴾ [البقرة: ١٣٠].

فإن قلت: ما الفرق بين الاصطفاء والإفضال؟ ولِمَ لَمْ يقل فضّلنا؟

والجواب: أن الاصْطِفاء كلّي بجميع الأشياء، والإفضال بعض لبعضٍ دون بعض، والاصطفاء أُخروي؛ ﴿الله يَصْطَفِي من الملائكة رُسُلاً، ومِنَ الناسِ﴾ [الحج: ٧٥]. والإفضال دنيوي، ﴿والله فَضَّل بَعْضَكم على بَعْضٍ في الرِّزْق﴾ [النحل: ٧١]، والإفضال عام، ﴿وأني فَضَّلْتكم على العالَمين﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢]؛ أي على عالمي زمانهم، والاصطفاء خاصٌّ، والخاص مقدَّم على العام.

فإن قلت: ما الحكمةُ في أنّ الله أعطى القرآن بلفظ الميراث؟

والجواب: لأنه ليس شيء أطيب وألذّ وأجلَّ من الميراث، فذِكْرهُ بلفظ الميراث أحلى وأطيب وأشهى. وأيضاً الميراث لا يُنْزَع من يَدِ الوارث بخلافِ العطايا والهبات، فذكره بلفظ الميراث ليعلم أنه لا يريد أن ينزعه عنك. وأيضاً الميراث يعمُّ الأولاد عصاة أو مطيعين، كذلك القرآن. وإذا أكرم الله المؤمن على الجملة باثنتي عشرة كرامة فكيف بمن اصطفاه بهذا القرآن؛ قال تعالى: ﴿الذين آمَنُوا ولم يُلْبِسُوا إيمانَهم بظُلْم﴾ [الأنعام: ٨٢]. وإن الله لَهَادِي الذين آمنوا. يثبِّتُ الله الذين آمنوا. ﴿وبَشّر الذين آمَنوا﴾. وبشِّر المؤمنين. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات. يومئذ لا تنفعُ الشفاعةُ إلا مَنْ أذِنَ له الرحمن ورَضِيَ له قَولاً.

وكذلك ننجي المؤمنين. ﴿ربّنا آمَنّا فاكتُبنَا مع الشاهدين﴾. وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات. ﴿للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة﴾. ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سدِيداً يُصْلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم﴾ [الأحزاب: ٧٠].

فإن قلت: قد ذكرت لنا فضيلةَ الثلاثة فميِّز لنا مَنْ هم؟

والجواب: قد قدمنا مَنْ هم، وكثرت أقاويلُ الناسِ فيهم حتى أنهاه بعضهم إلى عشرين قولاً، وتلخيصهم أن السابق الذي يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، والمقتصد الذي يدخلها بفضل الله. والظالم الذي يدخلها بشفاعةِ رسولِ الله ﷺ.

وقيل السابق المحافظ على الجماعة. والمقتصد الحافظ للوقت، والظالم الغافل عنهما جميعاً.

وقيل الظالم الذي خلط عمَلاً صالحاً وآخر سيئاً. والمقتصد الذي لم يخلط. والسابق الذي لم تقع منه هفوة.

وقيل الظالم أهل الكبائر. والمقتصد أهل الصغائر. والسابق المجتنب لهما جميعاً.

فإن قلت: لم وقعت الإشارة ﴿ذلك هو الفَضل الكبير﴾ [فاطر: ٣٢]؟

فالجواب أنه قد كثرت الأقاويل أيضاً في ذلك؛ فقيل إشارة إلى الإرْث والاصطفاء أو الظالم، أو إلى إذْنه، أو إلى دخول الجنة أو إلى الله، أي ذلك الذي فعل هذا هو الفَضْلُ الكبير.

اللهم بَلِّغنا هذا الفَضْلَ، ولا تعاملنا بالعدل، وقد ابتدأنا بالفضل، وفعلك مبنيٌّ على الابتداء كما بدأكم تَعودون.

﴿يا﴾: حرف لنداءِ البعيد حقيقة أو حكماً، وهي أكثر حروفه استعمالاً، ولهذا لا يقدر عند الحذف سوَاها نحو: ﴿رَبّ اغْفِر لي﴾. ﴿يوسف أعرض عن

هذا﴾. ولا ينادي اسم الله، وأيتها، إلا بها. قال الزمخشري: وتفيد التأكيد الْمُؤْذِن بأنّ الخطاب الذي تتلوه معتنىً به جداً. وترد للتنبيه، فتدخل على الفعل والحرف، نحو: ﴿ألا يا اسْجُدُوا﴾ [النمل: ٢٥]. ﴿ياليت قَوْمي يعلمون بما غَفرَ لي رَبّي﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

وقد ختمْتُ الكلام على هذه الحروف ومعاني أدواتها على وَجْه مُوجز مفيد محصِّل للمقصود منه، يكظم غيْظَ حبيب النجار، وحَطّه عن قومه، والترأف بهم في حياته بالتشمّر في هوايتهم والتلطف معهم في دعائهم إلى الإيمان، وفي موته بعدم الدعاء لقتلته والباغين له الغوائِل وهم كفرةٌ عبدةُ أصنام، بل تمنى لهم علمهم بأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزاً وسعادة، راجياً من الله أنْ يعاملني بما عامل به قومه مع كفرهم وطُغيانهم، وهو عبد مثلهم، فكيف بأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

فأسألك اللهم أن تحنّن عليّ قلوباً تفكرت في هذه الفوائِد التي جعلْتَ لهم قلوباً يفقهون بها، وأعيناً يبصرون بها، فيتذكروني إذا وصلوا إلى حضرتك بذكري عندك، لأنك عالم أني لسْتُ بأهلٍ أن أكون دليلاً إليكَ، لكني أَدُلُّ المنقطعين عليك، فاهْدِ الدليلَ، ولا تردّ المدلول، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك.

فصل

في أقوال كلّية محتوية على ألفاظ قرآنية

قال ابن فارس في كتاب الأفراد: كلُّ ما في القرآن من ذِكْر الأسف فمعناه الحزن إلا: ﴿فلمّا آسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥]، فمعناه أغضبونا.

وكلُّ ما فيه مِنْ ذكر ﴿البروج﴾ فهي الكواكبُ إلا: ﴿ولَوْ كُنْتُم في بُروج مشيّدةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فهي القصورُ الطوال الْحَصينة.

وكلُّ ما فيه من ذكر البَرّ والبحر فالمرادُ بالبحر الماء، وبالبر التراب اليابس،

إلا قوله: ﴿ظهر الفَسادُ في البَرِّ والبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١]، فالمرادُ به البرية والعمران.

وكلُّ ما فيه من ﴿بَخْس﴾ فهو النقص إلا: ﴿بثمن بَخْس﴾ [يوسف: ٢٠] أي حرام.

وكلُّ ما فيه من ﴿البَعل﴾، فهو الزوج إلا: ﴿أتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ [الصافات: ١٢٥]؛ فهو الصنم.

وكلّ ما فيه من ﴿البكم﴾ فالخرس عن الكلام بالإيمان إلا: ﴿عُمْياً وبُكْماً وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] - في الإسراء. ﴿وأَحَدُهُمَا أَبْكَم﴾ [النحل: ٧٦] - في النحل، فالمرادُ عدمُ القدرةِ على الكلام مطلقاً.

وكلُّ ما فيه ﴿جِثِيّاً﴾ فمعناه جميعاً، إلا: ﴿وتَـرَى كُـلَّ أُمَّـةٍ جـاثِيـة﴾ [الجاثية: ٢٨]. فمعناه تَجْثُو على رُكبها.

وكلُّ ما فيه من ﴿حُسْبان﴾ فمـن العـدَدِ، إلا: ﴿حُسْبـانـاً مـن السّماء﴾ [الكهف: ٤٠] - في الكهف، فهو العذابُ.

وكلُّ ما فيه من ﴿حسرة﴾ فالندامةُ إلا: ﴿ليَجْعَلَ الله ذلكَ حسْرَةً في قُلوبِهم﴾ [آل عمران: ١٥٦]، فمعناه الحزن.

وكلُّ ما فيه من ﴿الدحض﴾ فالباطل، إلاّ: ﴿فكان من الْمُدْحضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، فمعناه من المغلوبين.

وكلُّ ما فيه من رجز فالعذاب، إلا: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، فالمرادُ به الصنم.

وكلُّ ما فيه من ﴿رَيْب﴾ فالشكّ، إلا: ﴿رَيْبَ الْمَنُون﴾ [الطور: ٣٠]، يعني حوادثَ الدهر.

وكلٌّ ما فيه من ﴿الرجم﴾ فالقتل، إلا: ﴿لرَجَمْنَاك﴾ [هود: ٩١]: لشتمناك، و﴿رَجْماً بالغيب﴾ [الكهف: ٢٢]؛ أي ظنًّا.

وكلٌّ ما فيه من ﴿الزور﴾ فالكذب مع الشِّرْك، إلا: ﴿مُنْكَرًا مِنَ القَوْلِ وَزُوراً﴾ [المجادلة: ٢]، فإنه كذب غير شرك.

وكلٌّ ما فيه من ﴿زكاة﴾ فالمالُ، إلاّ ﴿وحَنَاناً مِنْ لَدُنّا وزَكاةً﴾ [مريم: ١٣]، أي طهرة.

وكلٌّ ما فيه من ﴿الزيغ﴾ فالميلُ، إلا: ﴿وإذْ زاغَتِ الأبصار﴾ [الأحزاب: ١٠] أي شخصت.

وكلّ ما فيه من سخر فالاستهزاء، إلا: ﴿سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] في الزخرف فهو من التسخير والاستخدام.

وكلّ ﴿سكينة﴾ [البقرة: ٢٤٨] فيه طمأنينة، إلا التي في قصة لوط فهو شيء كرأس الهرة له جناحان.

وكلٌّ سعيرٍ فيه فهو النار والوقود، إلا ﴿في ضَلاَلٍ وسُعُر﴾ [القمر: ٤٧]، فهو العناء.

وكلٌّ ﴿شيطان﴾ فيه فإبليس، أي الشيطان وجنوده، إلا: ﴿وإذا خَلَوْا إلى شَيَاطينهم﴾ [البقرة: ١٤].

وكلٌّ شهيدٍ فيه غير القتلى فمَنْ يشهد في أمور الناس، إلا: ﴿وادْعُوا شهَداءَكم﴾ [البقرة: ٢٣]، فهو شركاءهم.

وكلٌّ ما فيه من ﴿أصحاب النار﴾ فأهلها، إلا: ﴿وما جعَلْنا أصحاب النارِ إلاّ مَلاَئكةً﴾ [المدثر: ٣١]، فالمرادُ خزَنَتُها.

وكلٌّ صلاة فيه عبادة ورحمة إلا: ﴿وصَلَواتٌ ومساجِد﴾ [الحج: ٤٠]، فهي الأماكن.

وكلُّ ﴿صمم﴾ فيه ففي سماع الإيمان والقرآن خاصة، إلا الذي في الإسراء [٩٧].

وكلُّ عذاب فيه فالتعذيب إلا: ﴿ولْيَشْهَدْ عذابَهما﴾ [النور: ٢]، فهو الضَّرْب.

وكلُّ قُنوت فيه طاعة، إلا: ﴿كلٌّ لَهُ قانِتُون﴾ [البقرة: ١١٦، الروم: ٢٦]، فمعناه مُقِرون.

وكلُّ ﴿كنز﴾ فيه مال إلا الذي في سورة الكهف [٨٢]، فهو صحيفة علم.

وَكُلُّ ﴿مصباح﴾ فيه كوكب إلا الذي في النور [٣٥] فالسراج.

وكلُّ نكاح فيه تزوُّج إلا: ﴿حتى إذا بَلغُوا النِّكاح﴾ [النساء: ٦]. فهو الحلم.

وكلُّ نَبأ فيه خبر، إلا: ﴿فعَمِيَتْ عليهم الأنباء﴾ [القصص: ٦٦]، فهي الحجج.

وكلُّ ﴿ورد﴾ فيه دخول إلا: ﴿وَلَمّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَن﴾ [القصص: ٢٣]، يعني هجم عليه ولم يدخله.

وكلُّ ما فيه من: ﴿لا يُكَلِّف الله نَفْساً﴾ فالمراد منه العمل، إلا التي في الطلاق [٧] فالمرادُ منه النفقة.

وكل إياس فيه قنوط إلا الذي في الرعد [٣١] فمن العلم.

وكل « صبر » فيه محمود، إلا: ﴿لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عليها﴾ [الفرقان: ٤٢]. [واصْبِرُوا عَلَى آلِهتكم﴾ [ص: ٦]. هذا آخِرُ ما ذكره ابن فارس.

وقال السجستاني: ليس في كلام العرب كلمة أولها ياء مكسورة إلا قولهم يِسار ويَسار ـ بالفتح والكسر: اليد. والله أعلم.

وقال بعضهم: كلّ صوم فيه فمن العبادة، إلا: ﴿نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً﴾ [مريم: ٢٦]؛ أي صَمْتاً.

وكلّ ما فيه من ﴿الظلمات والنور﴾ فالمرادُ الكفر والإيمان إلا التي في أول الأنعام فالمرادُ ظلمة الليل ونور النهار.

وكلّ ﴿إنفاق﴾ فيه فهو الصدقَةُ إلا: ﴿فآتُوا الذين ذهَبتْ أزواجُهم مثْلَ ما أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة: ١١]، فالمراد به الْمَهْر.

وقال الداني: كلّ ما فيه من ﴿الحضور﴾ فهو بالضاد من المشاهدة إلا موضعاً واحداً فإنه بالظاء من الاحتظار، وهو قوله: ﴿كهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

وقال ابن خالويه: ليس في القرآن ﴿بعد﴾ بمعنى قَبْل إلا حرفاً واحداً: ﴿ولقد كتَبْنَا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْد الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وقال غيره: قد وجدنا حرفاً آخر، وهو قوله: ﴿والأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]. قال أبو موسى في كتاب المغيث: معناه هنا ﴿قبل﴾، لأنه تعالى خلق الأَرض في يومين ثم استوى إلى السماء، فعلى هذا خلق الأَرْضَ قبل خَلْق السماء.

قُلت: قد تعرض النبيُّ ﷺ والصحابة والتابعون لشيء من هذا النوع، فأخرج الإمامُ أحمد في مسنده، وابنُ أبي حاتم وغيرهما من طريق درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدْري، عن رسول الله ﷺ: «كلُّ حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة». هذا إسناد جيد، وابن حبّان يصحّحهُ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، من طريق عكرمة؛ عن ابن عباس، قال: كلُّ شيء في القرآن ﴿أليم﴾ فهو الموجع.

وأخرج من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ قال: كلُّ شيء في القرآن ﴿قتل﴾ فهو لعن.

وأخرج من طريق الضحاك، عن ابن عباس؛ كلُّ شيء في كتاب الله من الرجز، يعني به العذاب.

وقال الفِرْيابي: حدثنا قبس عن عمّار الدُّهني، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس؛ قال: كلُّ تسبيح في القرآن صلاة؛ وكل سلطان في القرآن حجة.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، عن ابن عباس، قال: كل شيء في القرآن ﴿الدين﴾ فالحساب.

وأخرج ابنُ الأنباري في كتاب الوقف والابتداء من طريق السُّدِّي، عن أبي مالك، عن ابن عباس؛ قال: كل ريب شك إلا مكاناً واحداً في الطور: ﴿رَيْبَ الْمَنُون﴾ [الطور: ٣٠]، يعني حوادثَ الأمور.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، عن أُبيّ بن كعب؛ قال: كلُّ شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب.

وأخرج عن الضحاك قال: كلّ ﴿كأس﴾ في القرآن إنما عني به الخمر.

وأخرج عنه؛ قال: كل شيء في القرآن ﴿فاطر﴾ فهو خالق.

وأخرج عن سعيد بن جُبير؛ قال: كل شيء في القرآن ﴿إفْك﴾ فهو كذب.

وأخرج عن أبي العالية؛ قال: كلُّ آية في القرآن في الأمر بالمعروف فهو الإسلام، والنهي عن المنكر فهو عبادة الأوثان.

وأخرج عن أبي العالية أيضاً؛ قال: كل آيةٍ في القرآن يذكر فيها حفظ الفَرْج فهو من الزنى، إلا قوله تعالى: ﴿قلْ للْمُؤْمِنين يَغضُّوا مِنْ أَبْصارِهم ويَحْفَظوا فروجَهم﴾ [النور: ٣٠]، فالمرادُ أَلاَّ يراها أَحد.

وأخرج عن مجاهد، قال: كل شيء في القرآن: إن الإنسان كفور إنما يعني به الكفار.

وأخرج عن عمر بن عبد العزيز؛ قال: كل شيء في القرآن ﴿خلود﴾ فإنه لا أوْبة له.

وأخرج عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ قال: كلُّ شيء في القرآن «يقدر» فمعناه يقلّ.

وأخرج عنه؛ قال: ﴿التزكي﴾ في القرآن كلّه الإسلام.

وأخرج عن أبي مالك؛ قال: ﴿وراء﴾ في القرآن كلّه أمام، غير حرفين: ﴿فمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [المؤمنون: ٧]، يعني سِوَى ذلك. ﴿وأُحِلَّ لكُمْ ما وَرَاءَ ذلكم﴾ [النساء: ٢٤]، يعني سِوَى ذلكم.

وأخرج عن أبي بكر بن عياش؛ قال: ما كان ﴿كِسْفاً﴾ فهو عذاب، وما كان كِسَفاً فهو قطع السحاب.

وأخرج عن مجاهد، قال: ﴿المباشرة﴾ في كلّ كتابِ الله الجماع.

وأخرج عن ابن زيد، قال: كل ما في القرآن ﴿فاسق﴾ فهو كاذب، إلا قليلاً.

وأخرج ابن المنذر عن السدّي؛ قال: ما كان في القرآن ﴿حنيفاً مسلماً﴾، وما كان في القرآن حنفاء مسلمين: حجاجاً.

وأخرج عن سعيد بن جُبير؛ قال: ﴿العفو﴾ في القرآن على ثلاثة أنحاء، نَحْوٌ تجاوزٌ عن الذنب، ونحو في القصد في النفقة: ﴿ويسألونك ماذا يُنْفِقُون قُلِ العَفْو﴾ [البقرة: ٢١٩]. ونحوٌ في الإحسان فيما بين الناس: ﴿إلا أن يَعْفُونَ أو يَعْفُو الذي بيده عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وفي صحيح البخاري؛ قال سفيان بن عُيينة: ما سمّى الله المطر في القرآن إلا عذاباً، وتسمِّيه العرب الغيث.

قلت: استثني من ذلك: ﴿إنْ كَانَ بكُمْ أذًى مِنْ مَطرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]،

فإن المرادَ به الغيث مطلقاً. وقال أبو عبيدة: إذا كان من العذاب فهو أمطرت، وإذا كان من الرحمة فهو مطرت.

وأخرج أبو الشيخ، عن الضحاك؛ قال: قال لي ابنُ عباس: احفظ عني: كل شيء في القرآن: ﴿وما لَهُم في الأرضِ مِنْ وَليٍّ ولا نَصير﴾ [التوبة: ٧٤] فهو للمشركين. فأما المؤمنون فما أكثر أنصارهم وشفعاءهم.

وأخرج سعيد بن منصور، عن مجاهد؛ قال: كلّ طعام في القرآن فهو نصف صاع.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن وهب بن مُنَبه؛ قال: كل شيء في القرآن ﴿قليل﴾، «وإلا قَليل» فهو دون العشرة.

وأخرج عن مسروق؛ قال: ما كان في القرآن: ﴿على صلاتهم يحافظون﴾. ﴿حافظوا على الصلوات﴾ فهو على مواقيتها.

وأخرج عن سفيان بن عُيينة؛ قال: كل شيء في القرآن: ﴿وما يُدْرِيك﴾ فلم يخبر به. وما أدراك فقد أخبر به.

وأخرج عنه، قال: كلّ ﴿مكرٍ﴾ في القرآن فهو عمل.

وأخرج عن مجاهد؛ قال: ما كان في القرآن قتل ولُعن، فإنما عُني به الكافر.

وقال الراغب في مفرداته: قيل كل شيء ذكره الله في كتابه ﴿وما أدراك﴾ فسّره. وكل شيء ذكره بقوله: وما يدريك تركه.

وقد ذكر: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ما سِجّين﴾ [المطففين: ٨]. ﴿وما أَدْراكَ ما عِلِّيّون﴾ [المطففين: ١٩] ثم فَسر الكتاب لا السّجّين، ولا العلّيون. وفي ذلك نكتة لطيفة.

قال بعضهم: ليس في القرآن على كثرة منصوباته مفعول معه.

والصواب أنّ فيه عدةَ مواضع أُعرب كل منها مفعولاً معه:

أحدها: ﴿فأَجْمِعُوا أَمْرَكم وشركاءَكم﴾ [يونس: ٧١]؛ أي أجمعوا أنتم مع شركائكم أمركم.

الثاني: ﴿قُوا أَنْفُسكم وأَهْلِيكم نَاراً﴾ [التحريم: ٦]. قال الكرماني في غرائب التفسير: هو مفعول معه؛ أي مع أهليكم.

الثالث: ﴿لم يَكُنِ الَّذين كفَرُوا من أَهْلِ الكتاب والْمُشْرِكين﴾ [البينة: ١]. قال الكرماني: يحتمل أن يكون قوله: «والمشركين» مفعولاً معه من الذين، أو من الواو في كفروا.

فائدة

فيما قرىء بثلاثة أوجه: الإعراب أو البناء أو نحو ذلك.

وقد رأيت تأليفاً لطيفاً لأحمد بن يوسف بن مالك الرُّعيني، سماه تحفة الأقران فيما قرىء بالثلاثة من حروف القرآن:

﴿الحمدُ لله﴾ [الفاتحة: ١]: قرىء بالرفع على الابتداء، والنصب على المصدر، والكسر على إتباع الدال للام في حركتها.

﴿رَبّ العالمين﴾ [الفاتحة: ٢]: قرىء بالجر على أنه نعت، وبالرفع على القطع بإضمار مبتدأ، وبالنصب عليه بإضمار فعْل، أو على النداء.

﴿الرحمن الرحيم﴾ [الفاتحة: ٣] قرىء بالثلاثة.

﴿اثنتا عَشْرَة عَيْناً﴾ [البقرة: ٦٠]: قرىء بسكون الشين، وهي لغة الحجاز، وكسرها وهي لغة تميم، وفتحها وهي لغة هوازن.

﴿بين المرء﴾ [البقرة: ١٠٢]: قرىء بتثليث الميم، لغات فيه.

﴿فبُهتَ الذي كفَر﴾ [البقرة: ٢٥٨]: قراءة الجماعة بالبناء للمفعول، وقرىء بالبناء للفاعل بوزن: ضَرَب، وحَسُن، وعَلِم.

﴿ذُرِّيَّة بعْضها مِنْ بَعْض﴾ [آل عمران: ٣٤]: قرىء بتثليث الذال.

﴿واتَّقوا الله الذي تَساءَلونَ بهِ والأرْحام﴾ [النساء: ١]: قرىء بالنصب عطْفاً على لفظ الجلالة، وبالخفض عطفاً على ضمير به، وبالرفع على الابتداء، والخبر محذوف؛ أي والأرحام مما يجبُ أنْ تَتَّقوه، وأن تحتاطوا لأنفسكم فيه.

﴿لا يَسْتَوِي القاعِدُون مِنَ الْمُؤْمنين غَيْرُ أُولِي الضَّرَر﴾ [النساء: ٥٩]: قرىء بالرفع صفة للقاعدون، وبالجر صفة للمؤمنين، وبالنصب على الاستثناء.

﴿امْسَحُوا برؤُوسِكم وأَرْجُلَكم﴾ [المائدة: ٦]: قرىء بالنصب عطفاً على الأيدي، وبالجر على الجوار أو غيره، وبالرفع على الابتداء، والخبر محذوف دَلّ عليه ما قبله.

﴿فجزَاء مِثْلُ ما قَتَلَ من النَّعَم﴾ [المائدة: ٩٥]: قرىء بجر ﴿مثل﴾ بإضافة « جزاء » إليه؛ وبرفعه وتنوين ﴿مثل﴾ صفة له، وبنصبه مفعول لجزاء.

﴿والله رَبِّنا﴾ [الأنعام: ٢٣]: قرىء بجر ﴿ربنا﴾ نعتاً أو بدلاً، وبنصبه على النداء، أو بإضمار أمدح، وبرفعه ورفع لفظ الجلالة مبتدأ وخبر.

﴿ويَذَرَكَ وآلِهَتَك﴾ [الأعراف: ١٢٧]: قُرىء برفع ﴿يذرك﴾، ونصبه، وجزمه للخفّة.

﴿فأجْمِعُوا أَمْرَكم وشُرَكاءَكم﴾ [يونس: ٧١]: قرىء بنصب ﴿شركاءكم﴾ مفعولاً معه، أو معطوفاً، أو بتقدير: وادعوا؛ وبرفعه عطفاً على ضمير ﴿فأَجْمعوا﴾، أو مبتدأ خبره محذوف، وبجره عطفاً على « كم » في « أمركم ».

﴿وكأَيِّنْ مِنْ آيةٍ في السمواتِ والأَرْضِ يَمُرُّون عليها﴾ [يوسف: ١٠٥]: قرىء بجر ﴿الأرض﴾ عطفاً على ما قبله، وبنصبها من باب الاشتغال، وبرفعها على الابتداء، والْخَبَرُ ما بعدها.

﴿موْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [طه : ٨٧] : قرىء بتثليث الميم.

﴿وحرامٌ على قرية أَهْلَكْنَاها﴾ [الأنبياء : ٩٥] : قرىء بلفظ الماضي بفتح الراء وكسرها ، وبلفظ الوصف بكسر الراء وسكونها مع فتح الحاء ، وبسكونها مع كسر الحاء وحرام بالفتح وألف ، هذه سبع قراءات.

﴿كوكبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور : ٣٥] : قرىء بتثليث الدال.

﴿يس﴾ : القراءة المشهورة بسكون النون. وقرىء شاذاً بالفتح للتخفيف، والكسر لالتقاء الساكنين، وبالضم على النداء.

﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص : ٣] : قرىء بنصب حين ورَفْعه وجره.

﴿سَوَاءً للسائلين﴾ [فصلت : ١٠] : قرىء بالنصب على الحال، وشاذّاً بالرفع ؛ أي هو ، وبالجر حَمْلاً على الأيام.

﴿وقِيله يا ربِّ﴾ [الزخرف : ٨٨] : قرىء بالنصب على المصدر ، وبالجر ، تقدم توجيهه ، وشاذاً بالرفع عطفاً على ﴿عِلْمُ الساعةِ﴾ [الزخرف : ٨٥].

﴿ق﴾ : القراءة بالسكون. وقرىء شاذّا بالفتح والكسر لِمَا مرَّ.

﴿الحُبُكِ﴾ [الذاريات : ٧] : فيه سبع قراءات: ضم الحاء والباء ، وكسرهما ، وفتحهما ، وضم الحاء وسكون الباء وضمها ، وفتح الباء وكسرها ، وسكون الباء وكسرها ، وضم الباء.

﴿والحبُّ ذُو العَصْفِ والرَّيْحان﴾ [الرحمن : ١٢] : قرىء برفع الثلاثة ونصبها وجرها.

﴿وحُور عِين. كأَمْثَال اللُّؤْلُؤ﴾ [الواقعة : ٢٢ ، ٢٣] : قرىء برفعها وجرها ، وبنصبها بفعل مضمر ؛ أي يُزَوَّجُونَ.

فصل

في قواعد مُهمّة يحتاج المفسّر إلى معرفتها

أولها: قاعدة في الضمائر:

أَلّف ابن الأنباري في بيان الضمائر الواقعة في القرآن مجلدين، وأَصْلُ وضع الضمائرِ للاختصار، ولهذا قام قوله: ﴿أَعَدّ الله لهم مَغْفِرَةً وأجراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥] مقام خمسة وعشرين كلمة، لو أتى بها مظهرة. وكذلك قوله: ﴿وقُل للْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ من أبصارهنَّ﴾ [النور: ٣١]: قال مكي: ليس في كتاب الله آية اشتملت على ضمائر أكثر منها، فإنّ فيها خمسة وعشرين ضميراً؛ ومِنْ ثَمَّ لا يعدل إلى المنفصل إلاّ بعد تعذر المتصل، بأن يقعَ في الابتداء؛ نحو: ﴿إياك نعبد﴾ [الفاتحة: ٥]، أو بعد ﴿إلا﴾: نحو: ﴿أمر ألاَّ تَعْبُدوا إلاّ إيّاه﴾ [يوسف: ٤٠].

مرجع الضمير

لا بد له من مرجع يعودُ إليه ملفوظاً به سابقاً مطابقاً؛ نحو: ﴿ونادَى نوح ابْنَه﴾ [هود: ٤٢] ﴿وعَصَى آدم رَبّه﴾ [طه: ١٢١]. ﴿إذا أَخْرجَ يدَهُ لم يَكَدْ يَرَاها﴾ [النور: ٤٠]. أو متضمناً له؛ نحو: ﴿اعْدِلُوا هو أقرب للتَّقْوى﴾ [المائدة: ٨] فإنه عائد على العَدْل المتضمّن له ﴿اعدلوا﴾. ﴿وإذا حضرَ القسمةَ أُولُو القُربَى واليتامَى والمساكِينُ فارْزُقوهم منه﴾ [النساء: ٨]؛ أي المقسوم، لدلالة القسمة عليه؛ أو دالاًّ عليه بالالتزام، نحو: ﴿إنّا أنزلناه في لَيْلَةِ القَدْر﴾ [القدر: ١]؛ أي القرآن؛ لأن الإنزال يدلّ عليه التزاماً. ﴿فمن عُفِيَ له من أخيه شيء فاتِّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ [البقرة: ١٧٨]. فعُفي يستلزم عافياً أُعِيد عليه الهاء من ﴿إليه﴾. أو متأخر لفْظاً ورتبةً مطابقاً، نحو: ﴿فأَوْجَس في نفسهِ خِيفةً موسى﴾ [طه: ٦٧]. ﴿ولا يُسْأَلُ عن ذنوبهم المجرمون﴾ [القصص: ٧٨]. ﴿فيومئذٍ لا يُسأل عن ذَنْبِه إنْس ولا جانّ﴾

[الرحمن: ٣٩]. أو رتبة أيضاً في باب ضمير الشأن والقصة، ونعم، وبئس، والتنازع، أو متأخراً دالاً بالالتزام؛ نحو: ﴿فلولا إذا بلغَتِ الْحُلْقوم﴾ [الواقعة: ٨٣]. ﴿كلا إذا بَلَغتِ التَّرَاقي﴾ [القيامة: ٢٦]: أضمر الروح أو النفس، لدلالة الحلقوم والتراقي عليها. ﴿حتى توارَتْ بالحجاب﴾ [ص: ٣٢]، أي الشمس لدلالة الحجاب عليها.

وقد يدلُّ عليه السياق فيضمر ثِقة بفَهْمِ السامع؛ نحو: ﴿كل مَنْ عليها فانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. ﴿ما ترك على ظَهْرِها﴾ [فاطر: ٤٥]؛ أي الدنيا. ﴿ولأَبَوَيْه﴾ [النساء: ١١]؛ أي الميت، ولم يتقدم له ذِكر.

وقد يعود على لفظِ المذكور دونَ معناه، نحو: ﴿وما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَص من عُمْرِه إلا في كتاب﴾ [فاطر: ١١]؛ أي معمّر آخر.

وقد يعود على بعض ما تقدم؛ نحو: ﴿يوصيكم الله في أولادكم...﴾ [النساء: ١١] إلى قوله: ﴿فإن كُنّ نساءً﴾ [النساء: ١١]. ﴿وبُعُولَتهنَّ أحق بردِّهن﴾ [البقرة: ٢٢٨] بعد قوله: ﴿والمطلقات﴾، فإنه خاصٌّ بالرجعيات، والعائد عليه عامٌّ فيهنَّ وفي غيرهن.

وقد يعود على المعنى، كقوله في آية الكَلاَلَة: ﴿فإنْ كانتَا اثنتين﴾ [النساء: ١٧٦]، ولم يتقدم لفظ مثنى يعود عليه. قال الأخفش: لأن الكَلاَلَة تَقعُ على الواحد والاثنين والجمع، فثنّى الضمير الراجعَ إليها حَمْلاً على المعنى، كما يعود الضمير جَمْعاً على « من » حمْلاً على معناها.

وقد يعود على لفظ شيء، والمراد به الجنس من ذلك الشيء. قال الزمخشري كقوله: ﴿إنْ يكن غنيًّا أو فَقيراً فالله أَوْلَى﴾ [النساء: ١٣٥]؛ أي بِجنْس الفقير والغني، لدلالة غنياً أو فقيراً على الجنسين، ولو رجع إلى المتكلم به لوحّده.

وقد يذكر شيئان ويعَاد الضمير إلى أحدهما، والغالب كونه الثاني؛ نحو: ﴿واستَعِينوا بالصَّبْر والصلاة وإنها لَكَبِيرة إلا على الْخَاشِعين﴾ [البقرة: ٤٥]؛

فأعِيد الضمير للصلاة، وقيل للاستعانة المفهومة من ﴿استعينوا﴾. و﴿جعل الشمْسَ ضياءً والْقَمر نُوراً وقَدَّرَهُ منازِلَ﴾ [يونس: ٥]؛ أي القمر؛ لأنه الذي يعلم به الشهور. ﴿واللهُ ورَسُولُه أَحَقُّ أَن يُرْضُوه﴾ [التوبة: ٦٢]؛ أي يرضوهما، فأفرد؛ لأن داعِيَ الرسول هو دَاعِي العباد، والمخاطب لهم شفاهاً، ويلزم من رِضاه رضا ربِّه تعالى.

وقد يثنَّى الضمير ويعود على أحد المذكورين، نحو: ﴿يَخْرُجُ منهما اللُّؤْلُؤُ والمرْجَان﴾ [الرحمن: ٢٢]؛ وإنما يخرج من أحدهما.

وقد يجيء الضمير متصلاً بشيء، وهو لغيره؛ نحو: ﴿ولقد خلَقْنَا الإنسانَ من سُلاَلَةٍ من طين﴾ [المؤمنون: ١٢]، يعني آدَم، ثم قال: ﴿ثم جعَلْنَاهُ نُطفَةً﴾ [المؤمنون: ١٣]، فهذا لولده؛ لأن آدَم لم يخلق من نُطْفَة.

قلت: هذا هو باب الاستخدام، وقد قدّمْنَاه، ومنه: ﴿لا تَسْأَلُوا عن أَشياءَ إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكم﴾ [المائدة: ١٠١]، ثم قال: ﴿قد سألها﴾ [المائدة: ١٠٢]؛ أي أشياء أُخر مفهومة من لفظ أشياء السابقة.

وقد يعود الضمير على مُلاَبس ما هو له؛ نحو: ﴿إلاَّ عَشِيَّة أو ضُحَاها﴾ [النازعات: ٤٦]؛ أي ضحى يومها لاضحي العشيّة نفسها، لأنه لاضُحى لها.

وقد يعود على غير مشاهَدٍ محسوس، والأصلُ خلافه؛ نحو: ﴿إذا قَضى أمراً فإنّما يَقُولُ له كُن فيَكون﴾ [البقرة: ١١٧]، فضمير له عائد على الأمر، وهو إذ ذاك غَيْرُ موجود؛ لأنه لما كان سابقاً في عِلْمِ الله كونه، كان بمنزلة المشاهد الموجود.

قاعدة
[في عود الضمير]

الأصلُ عَوْده على أقرب مذكور، ومِنْ ثَمّ أَخّرَ المفعول الأول في قوله: ﴿وكذلكَ جعلْنَا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا شَيَاطِينَ الإنْسِ والجِنِّ يُوحِي بعضُهم إلى

بَعْض﴾ [الأنعام: ١١٢]، ليعودَ الضمير عليه لقرْبِهِ، إلا أَنْ يكونَ مضافاً ومضافاً إليه، فالأصلُ عَوْدُه للمضاف، لأنه المحدَّث عنه؛ نحو: ﴿وإنْ تَعدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوها﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد يعودُ على المضاف إليه؛ نحو: ﴿إلى إلهِ موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ [غافر: ٣٧].

واختلف في: ﴿أو لَحْمَ خِنْزيرٍ فإنّه رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]؛ فمنهم مَنْ أعاده على المضاف، ومنهم مَنْ أعاده إلى المضاف إليه.

قاعدة

الأصلُ توافُق الضمائر في المرجع حذَراً من التشتّت؛ ولهذا لما جوَّزَ بعضُهم في: ﴿أنِ اقْذِفِيه في التابُوتِ فاقْذفيه في الْيَمِّ﴾ [طه: ٣٩]، أنّ الضمير في الثاني للتابوت وفي الأول لموسى عابه الزمخشري؛ وجعله تنافُراً مُخْرِجاً للقرآن عن إعجازه، فقال: والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوعُ بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة لما تؤدي إليه من تنافُرِ النظْمِ الذي هو أُمّ إعجاز القرآن، ومراعاتُه أهم ما يجب على المفسر.

وقال في: ﴿لِتؤْمِنوا بالله ورسولِه وتُعَزِّروه وتوَقِّروه وتسَبِّحوه بكْرةً وأَصيلا﴾ [الفتح: ٩]: الضمائر لله، والمراد بتعزيره تعزير دينه ورسله، ومَنْ فرّق الضمائر فقد أبعد.

وقد يخرج عن هذا الأصل؛ كما في قوله: ﴿ولا تسْتَفْتِ فيهم منهم أَحَداً﴾ [الكهف: ٢٢]، فإنَّ ضمير ﴿فيهم﴾ لأصحاب الكهف. ﴿ومنهم﴾ لليهود؛ قاله ثعلب والمبرد. ومثله: ﴿ولما جاءَتْ رسلنا لوطاً سِيء بهم وضاقَ بهم ذَرْعاً﴾ [هود: ٧٧]: قال ابن عباس: ساء ظَنًّا بقومه وضاق ذَرْعاً بأضيافه. وقوله: ﴿إلاَّ تَنْصروه...﴾ [التوبة: ٤٠] الآية فيها اثنا عشر ضميراً كلها

للنبي ﷺ إلا ضمير: «عليه» فلصاحِبه، كما نقله السهيلي عن الأكثرين، لأنه ﷺ لم تنزل عليه السكينة، وضمير ﴿جعل﴾ له تعالى.

وقد يخالَف بين الضمائر حذَراً من التنافر؛ نحو: ﴿منها أربعةٌ حُرُم﴾ [التوبة: ٣٦]؛ الضمير للاثني عشر، ثم قال: ﴿فلا تظلِموا فيهنَّ أَنْفُسَكم﴾ [التوبة: ٣٦]: أتى بصيغة ضمير الجمع مخالفاً لعَوْدِه على الأربعة.

ضمير الفصل

ضمير بصيغة المرفوع مطابق لما قبله، تكلّماً وخطاباً وغيبةً، إفراداً وغيره، وإنما يقَع بعد مبتدأ أو ما أَصلُه المبتدأ وقَبْلَ خبرٍ كذلك، اسماً؛ نحو: ﴿وأولئكَ هم الْمُفْلحون﴾ [البقرة: ٥]. ﴿وإنَّا لنَحْن الصَّافون﴾ [الصافات: ١٦٥]. ﴿كنْتَ أَنْتَ الرقيبَ عليهم﴾ [المائدة: ١١٧]. ﴿تَجِدوه عِنْد الله هو خَيْراً﴾ [المزمل: ٢٠]. ﴿إنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ منكَ مالاً﴾ [الكهف: ٣٩]. ﴿هؤلاء بناتي هُنَّ أَطْهَرُ لكم﴾ [هود: ٧٨].

وجوَّز الأخفش وقوعَه بين الحال وصاحبها، وخرَّج عليه قراءة: ﴿هنَّ أَطهَر لكم﴾ ـ بالنصب. وجوَّز الجرجاني وقوعَه قبل مضارع؛ وجعل منه: ﴿إنّه هو يبْدِيء ويعِيد﴾ [البروج: ١٣]. وجعل منه أبو البقاء: ﴿ومَكْر أُولئكَ هو يَبور﴾ [فاطر: ١٠].

ولا محلَّ لضمير الفصل من الإعراب.

وله ثلاث فوائد: الإعلام بأنَّ ما بعده خبر لا تابع. والتأكيد؛ ولهذا سماه الكوفيون دعامة، لأنه يدْعَم به الكلام؛ أي يَقْوَى ويؤكد، وبَنَى عليه بعضهم أنه لا يجمع بينه وبينه، فلا يقال زيد نفسه هو الفاضل. والاختصاص.

وذكر الزمخشري الثلاثة في: ﴿وأولئك المفلحون﴾ [البقرة: ٥]، فقال: فائدته الدلالة على أنّ ما بعده خبر لا صِفَة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دونَ غيره.

ضمير الشأن والقصة

ويسمى ضمير المجهول؛ قال في المغني: خالف القياس من خمسة أوجه: أحدها عَوْده على ما بعده لزوماً؛ إذ لا يجوز للجملة المفسّرة له أن تتقدَّم عليه، ولا شيء منها.

والثاني أنَّ مفسّره لا يكون إلا جملة. والثالث أنه لا يتبع بتابعٍ فلا يؤكد، ولا يُعطف عليه، ولا يبْدَل منه. والرابع أنه لا يعمل فيه إلا الابتداء أو ناسخ. والخامس أنه ملازمٌ للإفراد؛ ومن أمثلته: ﴿قلْ هو الله أحَد﴾ [الإخلاص: ١]. ﴿فإذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبصارُ الذين كفروا﴾ [الأنبياء: ٩٧]. ﴿فإنّها لا تَعْمَى الأبصارُ﴾ [الحج: ٤٦]. وفائِدته الدلالةُ على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه، بأن يذكر أولاً مُبْهَماً ثم يُفَسر.

تنبيه

قال ابن هشام: متى أمكن الحَمْلُ على غير ضمير الشأن فلا ينبغي أَنْ يُحْملَ عليه، ومِنْ ثَمَّ ضعف قول الزمخشري في: ﴿إنَّهُ يَرَاكُم هُوَ وقَبيلهُ﴾ [الأعراف: ٢٧]: إن اسم ﴿إن﴾ ضمير الشأن، والأَوْلى كونه ضمير الشيطان، ويؤيده قراءة: ﴿وقَبِيلَه﴾ بالنصب، وضمير الشأن لا يعطف عليه.

قاعدة

جمع العاقلات لا يعودُ عليه الضمير غالباً إلا بصيغة الجَمْع، سواء كان للقلَّة أو للكثرة؛ نحو: ﴿والوالِدَاتُ يُرْضِعنَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ﴿والمطلّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ وورد الإفراد في قوله: ﴿وأَزْوَاجٌ مُطَهَّرة﴾ [آل عمران: ١٥]، ولم يقل مطهرات.

وأما غَيْر العاقل فالغالب في جمع الكثرة الإفراد، وفي القلَّة الجمع. وقد

اجتمعا في قوله: ﴿إنَّ عِدَّةَ الشّهُورِ عند الله اثْنَا عشَر شَهْراً في كتاب الله﴾ [التوبة: ٣٦]... إلى أن قال: ﴿منها أَرْبَعَة حُرُم﴾، فأعاد ﴿منها﴾ بصيغة الإفراد على الشهور وهي للكثرة، ثم قال: ﴿فلا تَظْلموا فِيهنَّ أَنْفُسَكم﴾ [التوبة: ٣٦] فأعاده جمعاً على ﴿أربعة حُرُم﴾ وهي للقلّة.

وذكر الفراء لهذه القاعدة سرًّا لطيفاً؛ وهو أنّ المميّز مع جمع الكثرة ـ وهو ما زاد على العشرة ـ لما كان واحداً وحّد الضمير، ومع القلّة، وهو العشرة وما دونها، لمّا كان جمعاً جمع الضمير.

قاعدة

إذا اجتمع في الضمائر مراعاة اللَّفْظِ والمعنى بُدِيءَ باللفظ ثُمَّ بالمعنى، هذا هو الجادّة في القرآن؛ قال تعالى: ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يَقول﴾ [البقرة: ٨]، ثم قال: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ [البقرة: ٨]. أفرد أوّلاً باعتبار اللفظ، ثم جمع باعتبار المعنى. وكذا: ﴿ومِنْهمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إليكَ، وجَعلْنَا على قلوبهم أكِنةً﴾ [الأنعام: ٢٥]. ﴿ومنهم مَنْ يَقُول ائْذَنْ لي ولا تَفْتِنّي ألا في الفتنة سقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]. قال الشيخ علم الدين العراقي: ولم يجيء في القرآن البداءة بالحمل على المعنى إلا في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿وقالوا ما في بطونِ هذه الأنعام خالصة لذُكورنا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، فأنَّثَ خالصة حَمْلاً على معنى ما ثم راعى اللفظَ فذكّر فقال: ﴿ومحرم﴾.

قال ابن الحاجب في أماليه: إذا حمل على اللفظ جاز الحمل بعده على المعنى، وإذا حمل على المعنى ضعف الحَمْل بعده على اللفظ؛ لأن المعنى أقوى، فلا يبعد الرجوع إليه بعد اعتبار اللفظ، ويضعف بعد اعتبار المعنى القويّ الرجوع إلى الأضعف. وقال ابن جنّي في المحتسب: لا تجوز مراجعةُ اللفظ بعد انصرافه عنه إلى المعنى، وأورد عليه قوله تعالى: ﴿ومَنْ يَعْشُ عن ذكْر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطاناً...﴾ [الزخرف: ٣٦] إلى قوله: ﴿حتى إذا جاءنا﴾ [الزخرف: ٣٨]، فقد راجع اللفظَ بعد الانصراف عنه إلى المعنى.

وقال محمود بن حمزة في كتاب العجائب: ذهب بعض النحويين إلى أنه لا يجوز الحَمْل على اللفظ بعد الحَمْل على المعنى، وقد جاء في القرآن بخلاف ذلك، وهو قوله: ﴿خالدِين فيها أبَداً، قد أَحسنَ الله له رِزْقاً﴾ [الطلاق: ١١].

وقال ابن خالويه في كتاب «ليس»: القاعدة في ﴿من﴾ ونحوه الرجوع من اللفظ إلى المعنى، ومن الواحد إلى الجمع، ومن المذكر إلى المؤنث؛ نحو: ﴿ومَنْ يَقْنتْ مِنْكنَّ لله ورَسولِه وتَعْمَلْ صالِحاً﴾ [الأحزاب: ٣١]. و﴿مَنْ أَسْلَم وجْهَه للهِ وهو محسن...﴾ [البقرة: ١١٢] إلى قوله: ﴿ولا خَوْف عليهم ولا هم يحزنون﴾، أجمع على هذا النحويون.

قال: وليس في كلام العرب ولا في شيء من العربية الرجوع من المعنى إلى إلى اللفظ، إلا في حرف واحد استخرجه ابْن مجاهد؛ وهو قوله تعالى: ﴿ومَنْ يؤْمِنْ بالله ويَعْمَلْ صالحاً يدْخِلْه جناتٍ...﴾ [الطلاق: ١١] الآية: وَحَّد في ﴿يؤمن﴾ و﴿يعمل﴾ و﴿يدخله﴾، وجمع في قوله: ﴿خالدين﴾ [الطلاق: ١١]، ثم وَحَّدَ في قوله: ﴿أحسن الله له رِزْقاً﴾ [الطلاق: ١١]، فرجع بعد الجمع إلى التوحيد.

قاعدة

التذكير والتأنيث

التأنيث ضربان: حقيقي وغيره، فالحقيقيُّ لا تُحذَفُ تاء التأنيث من فعله غالباً إلا إنْ وقع فَصْلٌ، وكلما كثر الفصل حسنَ الحذف، والإثبات مع الحقيقي أولى، ما لم يكن جمعاً. وأما غَيْر الحقيقي فالحذفُ فيه مع الفَصْل أَحسن؛ نحو: ﴿فمنْ جاءَه موعِظة مِنْ ربِّه﴾ [البقرة: ٢٧٥]. ﴿قد كانَ لكمْ آية﴾ [آل عمران: ١٣]، فإن كثر الفَصْل ازداد حسناً؛ نحو: ﴿وأَخذ الَّذِين ظَلَموا الصَّيحةُ﴾ [هود: ٦٧] والإثبات أيضاً حسن، نحو: ﴿وأخذت الذين ظَلَموا الصَّيحة...﴾ [هود: ٩٤]؛ فجمع بينهما في سورةِ هود.

وأشار بعضهم إلى ترجيح الحَذْفِ؛ واستدلّ عليه بأنَّ الله قدّمه على الإثبات حيث جمع بينهما.

ويجوز الحذف أيضاً مع عدم الفَصْل حيث الإسناد إلى ظاهره؛ فإن كان إلى ضميره امتنع. وحيث وقع ضميرٌ أو إشارة بين مبتدأ وخبر أحدهما مذكَّر والآخر مؤنث، جاز في الضمير والإشارة التذكير والتأنيث؛ كقوله تعالى: ﴿هَذَا رَحْمَة مِنْ رَبّي﴾ [الكهف: ٩٨]، فذكّر والخبر مؤنث لتقدم السد وهو مذكّر. وقوله تعالى: ﴿فذَانِكَ بُرْهَانَان مِنْ رَبّكَ﴾ [القصص: ٣٢] ذكَّر والمشار إليه اليد والعصا، وهما مؤنّثان لتذكير الخبر وهو برهانان.

وكلُّ أسماء الأجناس يجوز فيها التذكيرُ والتأنيث حَمْلاً على الجماعة؛ كقوله: ﴿أعْجازُ نَخْلٍ خاوية﴾ [الحاقة: ٧]. و﴿أعجاز نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، ﴿إنَّ البَقَرَ تشابَه علينا﴾ [البقرة: ٧٠]. وقرىء: تشابهت. ﴿السماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]. ﴿إذا السماءُ انفطرَتْ﴾ [الانفطار: ١٠]. وجعل منه بعضُهم: ﴿جاءَتْها رِيح عاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]. ﴿ولسليمان الرِّيح عاصفةً﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقد سئُل: ما الفرقُ بين قوله: ﴿فمنْهُمْ مَنْ هَدَى الله ومنهم مَنْ حقت عليه الضلاَلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله: ﴿فَريقاً هَدَى وفريقاً حَقَّ عليهم الضلالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وأجيب بأنّ ذلك لوجهين: لفظي، وهو كثرةُ حروف الفاصل في الثاني، والحذف مع كثرة الحواجز أكثر.

ومعنويّ، وهو أن «مَنْ» في قوله: ﴿مَنْ حقَّتْ﴾ راجعة إلى الجماعة، وهي مؤنثةٌ لفظاً، بدليل: ﴿ولقد بَعثْنَا﴾ في كلّ أُمةٍ رسولاً [النحل: ٣٦]، ثم قال: ﴿ومنهم من حقَّتْ عليه الضلالة﴾ [النحل: ٣٦]: أي من تلك الأمم، ولو قال: ضلّت لتعيَّنتِ التاء، والكلامان واحد؛ وإذا كان معناهما واحداً كان إثباتُ التاءِ أَحسن مِنْ تَرْكها، لأنها ثابتة فيما هو من معناه.

وأما: ﴿فريقاً هَدى...﴾ الآية فالفريقُ مذكّر، ولو قال: فريقاً ضلّوا لكان بغير تاء، وقوله: ﴿حَقَّ عليهم الضلالةُ﴾ في معناه، فجاء بغير تاء؛ وهذا أسلوب لطيف من أساليب العرب أن يَدَعُوا حُكْمَ اللفظِ الواجب في قياس لغتهم إذا كان في مرتبةِ كلمةٍ لا يجب لها ذلك الحكم.

قاعدة

في التّعريف والتّنكير

اعلم أنّ لكل منهما مقاماً لا يليقُ بالآخر. أما التنكير فله أسباب:

أحدها: إرادةُ الوحدة، نحو: ﴿وجاء رَجُل مِنْ أقصى المدينة يَسْعَى﴾ [القصص: ٢٠] أي رجل واحد. و﴿ضرب الله مثلاً رجُلاً فيه شركاء متشَاكِسون ورَجلاً سلَماً لرَجُل﴾ [الزمر: ٢٩].

الثاني: إرادة النوع، نحو: ﴿هذا ذِكْر﴾ [ص: ٤٩]؛ أي نوع من الذكر، ﴿وعلى أبصارِهم غشاوَة﴾ [البقرة: ٧]؛ أي نوع غريب من الغِشَاوة لا يتعارفه الناس، بحيث غطّى ما لا يُغَطيه شيء من الغشاوات. ﴿ولَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناسِ على حياةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]؛ أي نوع منها، وهو الازدياد في المستقبل؛ لأنّ الحِرْص لا يكون على الماضي ولا على الحاضر. ويحتمل الوحدة والنوعية معاً قَوْلُه تعالى: ﴿والله خَلَقَ كُلَّ دابَّة مِنْ ماءٍ﴾ [النور: ٤٥]؛ أي كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء، وكلّ فردٍ من أفراد الدواب من فرد من أفراد النّطف.

الثالث: التعظيم، بمعنى أنه أعظم من أنْ يعيّنَ ويُعرف، نحو: ﴿فأذَنُوا بِحَرْبٍ من الله﴾ [البقرة: ٢٧٩] ﴿ولهم عَذَاب أليم﴾ [البقرة: ١٠]. ﴿وَسَلاَم علَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ [مريم: ١٥].

﴿سلاَم على إبراهيم﴾ [الصافات: ١٠٩]. ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥].

الرابع: التكثير؛ نحو: ﴿أئنَّ لَنَا لأَجْراً﴾ [الشعراء: ٤١]؛ أي وافراً جزيلاً. ويحتمل التعظيم والتكثير معاً: ﴿وإنْ يكذِّبوكَ فقد كُذِّبَتْ رُسل من قبلكَ﴾ [فاطر: ٤]؛ أي رسل عظام ذَوو عدَد كثير.

الخامس: التحقير، بمعنى انحطاط شأنه إلى حَدٍّ لا يمكن أن يعرف؛ نحو: ﴿إنْ نَظنُّ إلاّ ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢]، أي ظنًّا حقيراً لا يُعبَأ به، وإلا اتبعوه؛ لأن ذلك دَيْدَنهم، بدليل: ﴿إنْ يَتّبِعونَ إلا الظَّنّ﴾ [الأنعام: ١١٦]. ﴿مِنْ أَيِّ شيءٍ خَلَقه﴾ [عبس: ١٨]؛ أي من شيء حقير مهين، ثم بيَّنَه بقوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقه﴾ [عبس: ١٩].

السادس: التقليل؛ نحو ﴿ورِضْوان من الله أكبر﴾ [التوبة: ٧٢]؛ أي رضوان قليل منه أكبر من الجنّات؛ لأنه رأس كل سعادة:

قليـل منـك يكفيني ولكـن　　　قَلِيلُـك لا يُقـالُ لـه قليـل

وجعل منه الزمخشري: ﴿سبحان الذي أَسْرَى بعَبْدِه ليلاً﴾ [الإسراء: ١]؛ أي بعض ليل.

وأُورِد عليه أَنَّ التقليل ردّ الجنس إلى فردٍ من أفراده، لا تنقيص فرد إلى جزء من أجزائه. وأَجاب في عروس الأفراح بأنا لا نُسلّم أن الليلَ حقيقة في جميع الليلة، بل كل جزء من أجزائها يسمّى ليلاً.

وعدّ السكاكي من الأسباب ألا يعرف من حقيقته إلا ذلك، وجعل منه أنْ تقصدَ التجاهُلَ وأنكَ لا تعرف شخصه؛ كقوله: هل لكم في حيوان على صورة إنسان يعمل كذا؟ وعليه من تجاهل الكفار: ﴿هَل نَدُلُّكُمْ على رجل ينَبِّئكم إذَا مُزّقْتم﴾ [سبأ: ٧]؛ كأنهم لا يعرفونه.

وعدّ غيره منها قَصْد العموم بأن كانت في سياق النفي؛ نحو: ﴿لا رَيْبَ فيه﴾ [البقرة: ٢]. ﴿فلا رَفَثَ﴾ [البقرة: ١٩٧]... الآية أو الشرط؛ نحو:

﴿وإنْ أحـد مِـنَ المشركين استجـارَكَ﴾ [التـوبـة : ٦] ، والامتنـان ، نحو : ﴿وأنْزَلْنَا مِنَ السماءِ ماءً طَهُوراً﴾ [الفرقان : ٤٨] .

وأمّا التّعريف فله أسباب ، فبالإضمار ؛ لأنّ المقام مقام التكلم أو الخطاب أو الغيبة .

وبالعَلمية لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداءً باسم مختصّ به ؛ نحو : ﴿قل هو الله أحد﴾ [الإخلاص : ١] . ﴿محمد رسولُ الله﴾ [الفتح : ٢٩] . أو لتعظيم أو إهانة حيث علمه يقتضي ذلك ، فمن التعظيم ذكر يعقوب بلقبه إسرائيل لما فيه من المدح والتعظيم ، ولكونه صفوة الله ، أوْ سريّ الله ، كما قدمنا في حرف الألف .

ومن الإهانة قوله : ﴿تَبّتْ يَدَا أبي لَهَب﴾ [تبت : ١] ، وفيه أيضاً نكتة أخرى ؛ وهي الكناية به عن كونه جهنمياً .

وبالإشارة لتمييزه أكملَ تمييزٍ بإحضارِه في ذهن السامع حسًّا ، نحو : ﴿هذا خَلْقُ الله فأَرونِي ماذا خلَق الذين مِنْ دُونه﴾ [لقمان : ١١] .

وللتعريض بغباوة السامع ، حتى إنه لا يتميز له الشيء إلا بإشارة الحسّ ، وهذه الآية تصلح لذلك .

ولبيان حاله في القرب والبعد ، فيؤْتَى بالأول بنحو هذا ، وفي الثاني بنحو ذلك وأولئك . ولقَصْـد تحقيره بـالقُـرب : ﴿أهَـذَا الذِي يَـذْكُـرُ آلِهَتَكُـم﴾ [الأنبياء : ٣٦] . ﴿أهذَا الذي بعَثَ الله رسولاً﴾ [الفرقان : ٤١] . ﴿ماذا أَرادَ الله بهذَا مَثَلاً﴾ [البقرة : ٢٦] ؛ وكقوله تعالى : ﴿وما هَذِهِ الحياةُ الدُّنْيَا إلا لَهْو ولَعِب﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

ولقصد تعظيمه بالبُعْد ؛ نحو : ﴿ذلك الكتاب لا رَيْبَ فيه﴾ [البقرة : ٢] ، ذهاباً إلى بُعْدِ دَرجته .

وللتنبيه بعد ذِكْر المشارِ إليه بأوصافٍ قبله على أنه جدير بما يرد بعده من أَجلها، نحو: ﴿أولئكَ على هُدًى من ربهم؛ وأولئكَ هم المفلحون﴾ [البقرة: ٧].

وبالموصولة لكراهةِ ذِكْرِه بخاصّ اسمه، إمّا سَتْراً عليه، أو إهانة، أو لغير ذلك، فيُؤْتَى بالذي ونحوها موصولة بما صدر منه من فعل أو قول؛ نحو: ﴿والَّذِي قال لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لكما﴾ [الأحقاف: ١٧]. ﴿وراوَدَتْه التي هو في بيتها﴾ [يوسف: ٢٣].

وقد تكون لإرادةِ العموم، نحو: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرون عن عبادتي...﴾ [غافر: ٦٠] الآية.

وللاختصار؛ نحو: ﴿لا تكونُوا كالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ الله ممّا قالوا﴾ [الأحزاب: ٦٩]؛ أي قولهم إنه آدر، إذ لو عدّد أسماء القائلين لطال، وليس للعموم، لأن بني إسرائيل كلّهم لم يقولوا في حقه ذلك.

وبالألف واللام إشارة إلى معهودٍ خارجيّ أو ذِهني أو حضوريّ.

وللاستغراق حقيقة أو مجازاً، أو لتعريف الماهية. وقد مرّتْ أمثلتُها في حروف المعجم.

وبالإضافة لكونها أخصر طريقٍ.

ولتعظيم المضافِ، نحو: ﴿إنَّ عِبَادِي ليس لكَ عليهم سُلْطان﴾ [الحجر: ٤٢]. ﴿ولا يَرْضَى لعِبَادِه الكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]؛ أي الأصفياء في الآيتين، كما قال ابن عباس وغيره.

ولقصد العموم نحو: ﴿فلْيَحْذَرِ الذين يُخَالفون عن أمْرِه﴾ [النور: ٦٣]، أي كل أمر لله.

فائدة

سئلتُ عن الحكمة في تنكير «أحد» وتعريف الصمد في قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحَد. الله الصَّمَد﴾ [الإخلاص: ١، ٢]. وألّفت في جوابه تأليفاً مودَعاً في الفتاوى، وحاصلُه أن في ذلك أجوبة:

أحدها: أنه نكّر للتعظيم، والإشارة إلى أنَّ مدلوله - وهو الذات المقدسة - غير ممكن تعريفها والإحاطة بها.

الثاني: أنه لا يجوز إدخال (أل)، كغير وكل وبعض، وهو فاسد، فقد قرىء: قل هو الله الواحد الصمد. حكى هذه القراءة أبو حاتم في كتاب الزينة عن جعفر بن محمد.

الثالث: مما خطر لي أنّ هو مبتدأ والله خبر، وكلاهما معرفة، فاقتضى الـحَصْر، فعُرِّفَ الجزآن في: الله الصمد؛ لإفادة الْحَصْر ليطابقَ الجملة الأولى، واستغني عن تعريف أحد لإفادة الحصر دونه، فأتي به على أصله من التنكير، على أنه خبر ثان. وإن جعل الاسْمُ الكريم مبتدأ و «أحد» خبر ففيه من ضمير الشأن ما فيه من التفخيم والتعظيم، فأتي بالجملة الثانية على نحو الأولى، بتعريف الجزأين للحَصْر تفخيماً وتعظيماً.

قاعدة أخرى

تتعلق بالتعريف والتنكير

إذا ذُكر الاسْمُ مرتين فله أربعة أحوال: لأنه إمَّا أنْ يكونا معرفتين، أو نكرتين، أو الأولى نكرة والثاني معرفة، أو بالعكس؛ فإنْ كانا معرفتين فالثاني هو الأوّلُ غالباً، دلالة على المعهود الذي هو الأصلُ في اللام أو الإضافة؛ نحو: ﴿اهْدِنا الصِّرَاطَ المستقيم. صِرَاطَ الذين أنْعَمْتَ عليهم﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] ﴿فاعبُدِ اللهَ مُخْلِصاً له الديـن. ألا لله الدِّيـنُ الخالِـصُ﴾ [الزمـر: ٢، ٣].

﴿وجعَلُوا بينــه وبين الجِنّــةِ نَسَبــاً ، ولقــد علمــت الجِنَّــةُ إنّهُــم لمحْضَــرُون﴾ [الصافات: ١٥٨]. ﴿وقِهِمُ السيئاتِ ومن تَقِ السيئَاتِ﴾ [غافر: ٩]. ﴿لعلي أبْلغُ الأسبابَ. أسبابَ السمواتِ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. وإن كانا نكرتين، فالثاني غَيْرُ الأول غالباً، وإلا لكان المناسب هو التعريف بناء على كونه معهوداً سابقاً، نحو: ﴿الذي خلقكمْ من ضَعْف، ثم جعل من بَعدِ ضَعْفٍ قوةً ثم جعل مِنْ بعد قُوَّةٍ ضَعْفاً وشَيْبَةً يخلق ما يشاء﴾ [الروم: ٥٤]، فإن المرادَ بالضعف الأول النطفة، وبالثاني الطفولية، وبالثالث الشيخوخية.

وقال ابنُ الحاجب ـ في قوله تعالى: ﴿غُدُوُّها شَهر ورَوَاحُها شَهْر﴾ [سبأ: ١٢] الفائدة في إعادةِ لفْظِ الشهر الإعلام بمقدار زَمَنِ الغدوّ وزمن الرواح، والألفاظ التي تأتي مبيّنة للمقادير لا يحسنُ فيها الإضمار، ولو أُضْمِر فالضميرُ إنما يكونُ لما تقدّم باعتبار خصوصيته، فإذا لم يكن له وجب العدولُ عن المضمر إلى الظاهر. وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى: ﴿فإنّ معَ العُسْرِ يُسْراً، إنَّ مع العُسْر يُسْراً﴾ [الشرح: ٥، ٦]؛ فالعُسْرُ الثاني هو الأول، واليُسر الثاني غير الأول؛ ولهذا قال ﷺ في الآية: لن يغلب عُسْر يُسرَين.

وإن كان الأول نكرة والثاني معرفة؛ فالثاني هو الأولُ حَمْلاً على العهد؛ نحو: ﴿أرْسلْنَا إلى فرعونَ رسولاً. فعصى فرعونُ الرسول﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]. ﴿فيها مِصباحٌ، المِصْبَاحُ في زُجَاجةٍ، الزُّجَاجة﴾ [النور: ٣٥] إلى ﴿صِرَاطٍ مستقيم. صِرَاطِ الله﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]. ﴿مِنْ سَبِيل. إنّمَا السبِيلُ﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢].

وإن كان الأول معرفة والثاني نكرة، فلا يُطلَق القول، بل يتوقف على القرائن؛ فتارة تقوم قرينة على التغاير؛ نحو: ﴿وَيَوْمَ تَقوم الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لبِثُوا غَيْرَ ساعةٍ﴾ [الروم: ٥٥]. ﴿يسألكَ أَهْلُ الكتابِ أنْ تُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء﴾ [النساء: ١٥٣]. ﴿ولقد آتَيْنَا مُوسى الهُدَى وَأَوْرَثْنَا

بني إسرائيلَ الكتابَ. هُدى﴾ [غافر : ٥٣ ، ٥٤]. قال الزمخشري : المراد بالهدى جميع ما آتاه الله من الدين والمعجزات والشرائع ، وهدى الإرشاد .

وتارة تقوم قرينةٌ على الاتحاد : نحو : ﴿ولقد ضرَبْنَا للنَّاسِ في هذا القرآن من كلِّ مثَلٍ لعلهم يتذكرُون. قرآناً عربيًّا﴾ [الزمر : ٢٧ ، ٢٨].

تنبيه

قال الشيخ بهاء الدين في عروس الأفراح وغيره : الظاهر أنَّ هذه القاعدة غَيْرُ محرَّرة ، فإنها منتَقَضةٌ بآيات كثيرة ، منها في القِسْم الأول : ﴿هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ﴾ [الرحمن : ٦٠] ؛ فإنهما معرفتان. والثاني غير الأول ، فإنَّ الأول العمل والثاني الثواب. ﴿أنَّ النَّفْس بالنفس﴾ [المائدة : ٤٥] ؛ أي القاتلة بالمقتولة . وكذا سائر الآيات : ﴿الحرُّ بالحُرِّ...﴾ [البقرة : ١٧٨] الآية . ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدَّهْر...﴾ ، ثم قال : ﴿إنَّا خلقْنَا الإنسانَ من نُطْفَة﴾ [الإنسان : ١ ، ٢] ؛ فإن الأول آدم ، والثاني ولده. ﴿وكذلِكَ أنْـزَلْنـا إليـك الكتاب فالذين آتَيْنَاهم الكتابَ يُؤْمِنُون به﴾ [العنكبوت : ٤٧]. فإنَّ الأولَ القرآن ، والثاني التوراة والإنجيل .

ومنهـا في القسم الثـاني : ﴿وهـوَ الَّذي في السماء إلـهٌ وفي الأَرضِ إلــه﴾ [الزخرف : ٨٤] ﴿يسألونكَ عن الشَّهْرِ الحرامِ قتالٍ فيه قُلْ قِتَال فيه كبِير﴾ [البقرة : ٢١٧] ، فإنَّ الثاني فيهما هو الأول وهما نَكرتان .

ومنها في القسم الثالث : ﴿أن يُصْلِحا بينهما صُلْحاً والصُّلْحُ خير﴾ [النساء : ١٢٨]. ﴿ويُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْل فَضْلَه﴾ [هود : ٣]. ﴿ويَزِدْكم قوة إلى قُوَّتكـم﴾ [هـود : ٥٢]. ﴿ليـزْدَادُوا إيمانـاً مـع إيمانِهـم﴾ [الفتـح : ٤]. ﴿زِدْنَاهم عذاباً فَوْقَ العذَابِ﴾ [النحل : ٨٨]. ﴿وما يتَّبعُ أكثرُهم إلاّ ظَنًّا ،

إنّ الظنَّ لا يُغْني من الحق شيئاً﴾ [يونس: ٣٦]. فإن الثاني فيهما غير الأول.

وأقول لا انتقاضَ بشيء من ذلك عند التأمل؛ فإنَّ اللام في الإحسان للجنس فيما يظهر، وحينئذ يكون في المعنى كالنكرة، وكذا آية النّفْس والحر، بخلاف آية العسر، فإنّ «أل» فيها إما للعَهْد أو للاستغراق كما يفيد الحديث، وكذا آية الظن لا نسلم أنَّ الثاني فيها غير الأول، بل هو عينه قطعاً؛ إذ ليس كلُّ ظن مذموماً، كيف وأحكام الشريعة ظنّية؛ وكذا آية الصلح لا مانع من أن يكونَ المرادُ منها الصلح المذكور، وهو الذي بين الزّوجين. واستحباب الصلح في سائرِ الأمور، ويكون مأخوذاً من السنّة أو من الآية بطريق القياس، بل لا يجوز القولُ بعموم الآية، وأنّ كلّ صلح خير، لأنّ ما أحلّ حراماً من الصلح، أو حرَّم حلالاً فهو ممنوع، وكذا آية القتالِ ليس الثاني فيها عَيْن الأول بلا شك، لأن المراد بالأول المسؤول عن القتال الذي وقع في سَرِيّة ابن الحضرمي سنة اثنتين من الهجرة، لأنه سببُ نزول الآية. والمراد بالثاني جنسُ القتال لا ذاك بعينه.

وأما آية: ﴿وهو الَّذي في السماء إله وفي الأرضِ إله﴾ [الزخرف: ٨٤] فقد أجاب عنها الطيبي بأنها من باب التكرير لإفادة أَمْر زائد، بدليل تكرير ذكر الرب فيما قبله من قوله: ﴿سبحانَ رَبِّ السموات والأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ﴾ [الزخرف: ٨٢]. ووجهُه الإطناب في تنزيهه سبحانه عن نِسبةِ الولد إليه. وشرطُ القاعدة ألاّ يقصد التكرير.

وقد ذكر الشيخ بهاء الدين في آخر كلامه: أن المراد بذكر الاسم مرتين كونه مذكوراً في كلامٍ واحد أو كلامين بينهما تواصل بأن يكون أحدُهما معطوفاً على الآخر، أو لَهُ به تعلّق ظاهر وتناسب واضح، وأن يكون من متكلم واحد، ودفع بذلك إيراد آية القتال؛ لأن الأول فيها محكيّ عن قول السائل، والثاني محكيّ من كلام النبي ﷺ.

قاعدة

في الإفراد والجمع

من ذلك السماء والأرض: حيث وقع في القرآنِ ذكر الأرض فإنها مفردة ولم تجمَعْ بخلاف السموات، لثقل جمعها وهو أرَضون؛ ولهذا لما أُريد ذِكْر جميع الأرض قال: ﴿ومِنَ الأرْضِ مِثْلَهنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. وأما السماء فذُكرت تارةً بصيغة الجمع، وتارةً بصيغة الإفراد لنُكتةٍ تليقُ بذلك المحلّ، كما أوضحتُه في أسرار التنزيل. والحاصل أنه حيث أُريد العدد أُتيَ بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة؛ نحو: ﴿سَبَّحَ لله ما في السموات﴾ [الصف: ١]؛ أي جميع سكانها على كثرتهم، ﴿تُسَبِّحُ له السمواتُ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ أي كلّ واحدة على اختلاف عددها. ﴿قل لا يَعْلَمُ مَنْ في السمواتِ والأرْضِ الغَيْبَ إلاّ الله﴾ [النمل: ٦٥]؛ إذ المراد نَفْيُ علم الغيب عن كلِّ مَنْ هو في واحدة من السموات.

وحيث أُريد الجهة أُتي بصيغة الإفراد، نحو: ﴿وفي السماء رِزْقُكم﴾ [الذاريات: ٢٢]. ﴿أَأَمِنْتُم مَنْ في السماءِ أَنْ يَخْسفَ بكم الأرض﴾ [الملك: ١٦]؛ أي من فوقكم.

ومن ذلك الريح حيث ذكرت مجموعة ومفردة، فحيث ذُكِرت في سياقِ الرحمة جُمعت، أو في سياق العذاب أُفردت.

وأخرج ابنُ أبي حاتم وغيره عن أُبيّ بن كعب، قال: كلُّ شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة، وكلّ شيء فيه من الريح فهو عذاب.

ولهذا ورد في الحديث: «اللهم اجعلها رِيَاحاً ولا تجعلها رِيحاً». وذكر في حكمةِ ذلك أنّ رِياحَ الرحمة مختلفة الصفات والمهبّات والمنافع، وإذا هاجَتْ منها رِيح أُثير لها من مقابلها ما يكسر سَوْرتها، فينشأ من بينهما ريحٌ لطيفة تنفَعُ الحيوان والنبات، فكانت في الرحمة رياحاً، وأما في العذاب فإنها تأتي من وَجْهٍ واحد، ولا معارض لها ولا دافع.

وقد خرَج عن هذه القاعدة قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيح طيِّبَة﴾ [يونس: ٢٢]؛ وذلك لوجهين: لفظي، وهو المقابلة بقوله: ﴿جاءتها ريحٌ عاصف﴾ [يونس: ٢٢]. ورُبَّ شيء يجوزُ في المقابلة، ولا يجوز استقلالاً؛ نحو: ﴿ومَكَروا ومَكَر الله﴾ [آل عمران: ٥٤].

ومعنوي؛ وهو أنّ تمامَ الرحمةِ هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها؛ فإنَّ السفينةَ لا تسير إلا بريح واحدة من وجْهٍ واحد، فإذا اختلفت عليها الرياح كان سبب الهلاك، والمطلوب هنا ريح واحدة، ولهذا أكّد هذا المعنى بوصفها بالطيب؛ وعلى ذلك أيضاً جرى قوله: ﴿إن يَشَأْ يُسْكِنِ الريحَ فيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْره﴾ [الشورى: ٣٣]. وقال ابن المنير: إنه على القاعدة لأنَّ سكونَ الريح عذابٌ وشدة على أصحاب السفن.

ومن ذلك إفراد النور وجَمْعُ الظلمات، وإفراد سبيل الحق وجمع سبيل الباطل، في قوله: ﴿ولا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فتَفرَّقَ بكم عن سبيله﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ لأنَّ طريق الحقّ واحدة، وطرق الباطل متشعبة متعددة، والظلمات بمنزلة طرق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق؛ بل هما هما؛ ولهذا وحّد وَلِيّ المؤمنين، وجمع أولياءَ الكفار لتعدّدهم في قوله: ﴿الله وَلِي الذين آمَنُوا يُخْرِجُهُم من الظلماتِ إلى النّور، والذين كفروا أولياؤُهم...﴾ [البقرة: ٢٥٧] الآية.

ومن ذلك إفراد النار حيث وقعت والجنة حيث وقعت مجموعةً ومفردة؛ لأن الجنان مختلفة الأنواع، فحَسُنَ جمعها، والنار مادة واحدة، ولأن الجنة رحمة والنار عذاب، فناسب جَمْعَ الأولى وإفراد الثانية على حدّ الرياح والريح.

ومن ذلك إفراد السمع وجمع البَصر؛ لأنّ السمْعَ غلب عليه المصدرية، فأفرد، بخلاف البصَر، فإنه اشتهر في الجارحة، ولأن متعلّق السمع الأصوات، وهي حقيقة واحدة، ومتعلق البصر الألوان والأكوان وهي حقائق مختلفة، فأشار في كل منهما إلى متعلقه.

ومن ذلك إفرادُ الصديق وجمع الشافعين في قوله: ﴿فما لنا مِنْ شافعين. ولا

صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]. وحكمتُهُ كثْرَةُ الشفعاءِ في العادة وقلّةُ الصديق.

قال الزمخشري: ألاَ ترى أنَّ الرجل إذا امتُحن بإرهاقِ ظالم نهضت جماعةٌ وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأما الصديق فأعزّ من بَيْضِ الأَنُوق.

ومن ذلك الألباب لم يقع إلا مجموعاً، لأن مفرده ثقيل لفظاً.

ومن ذلك مجيء المشرق والمغرب بالإفراد وبالتثنية وبالجمع؛ فحيث أُفردا، فاعتباراً للجهة، وحيث ثُنّيا فاعتباراً لمشرق الصيف والشتاء ومغربهما، وحيث جُمِعَا فاعتبار لتعدُّد المطالع في كل فصل من فصول السنة.

وأما وَجْهُ اختصاص كلّ موضع بما وقع فيه، ففي سورة الرحمن ورد بالتثنية؛ لأَنَّ سياقَ السورة سياق المزدوجين، فإنه سبحانه ذكَر أولاً نَوْعَي الإيجاد وهما الـخَلق والتعليم، ثم ذكر سراجي العالم: الشمس والقمر، ثم نَوْعي النبات: ما كان على ساق وما لا ساق له، وهما النّجم والشّجَر، ثم نوعي السماء والأرض، ثم نوعي العدل والظلم، ثم نَوْعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والرياحين، ثم نوعي المكلّفين وهما الإنس والجان، ثم نوعي البحر: العذب والملح، فلهذا حَسُن تثنيةُ المشرق والمغرب في هذه السورة وجمعا في قوله: ﴿فلا أُقسِمُ بِرَبِّ الـمَشَارِق والمغارب. إنّا لقادِرُون﴾ [المعارج: ٤٠]. وفي سورة الصافات للدلالة على سعة القدرة والعظمة.

فائدة

حيث ورد البارّ مجموعاً في صفة الآدميين قيل: أبرار، وفي صفة الملائكة قيل بررَة؛ ذكره الراغب، ووجَّهه بأن الثاني أبلغ؛ لأنه جَمْع بارّ، وهو أبلغُ من « بر » مفرد الأول.

وحيث ورد الأخ مجموعاً في النَّسَب قيل إخوة، وفي الصداقة قيل إخوان؛

قاله ابن فارس وغيره. وأُورِد عليه في الصداقة: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠]، وفي النسب: ﴿أو إخْوانِهِنَّ أوْ بَني إخْوَانهنَّ أَوْ بني أخواتِهنَّ﴾ [النور: ٣١].

فائدة

أَلَّف أبو الحسن الأخفش كتاباً في الإفراد والجمع في القرآن ذكر فيه جَمْعَ ما وقع في القرآن مفرداً، ومفرد ما وقع فيه جمعاً، وأكثره من الواضحات؛ وهذه أَمثلةٌ مِنْ خَفِيّ ذلك:

الـمَنُّ جمع لا واحد له. **والسَّلْوَى** لم يُسمع له بواحد. **النصارى** قيل جمع نصراني، وقيل نصير كنديم، وقَبيل. **العَوَان** جمعه عُون. **الهُدَى** لا واحدَ له. **الإعصار** جمعه أعاصير. **الأنصار** واحده نَصير، كشريف وأشراف. **الأزلام** واحدها زلَم، ويقال زُلَم، بالضم. **مِدْرار** جمعه مَدَارير. **أساطير** واحدها أسطورة، وقيل أسطار جمع سَطْر. **الصُّور** قيل جمع صورة، وقيل واحد الأصوار. **فُرَادى** جمع أَفراد، جمع فرد. **وقِنْوان** جمع قِنْو. **وصِنْوان** جمع صِنْو، وليس في القرآن جمع ومثنى بصيغةٍ واحدة إلا هذان ولفظ ثالث لم يقع في القرآن، قاله ابن خالويه في كتاب ليس: **الحوايا** جمع حاوية، وقيل حاوياء. **نشر** جمع نَشُور. **عِضين** وعِزين جمع عِضه وعِزه. **المثاني** جمع مثنى. **تارة** جمعها تارات، وتِيَر. **أيقاظ** جمع يَقظ. **الأرائك** جمع أُريكة. **سريّ** جمعه سِريان، كخصي وخصيان. **آناء الليل** جمع إنَا، بالقصر كمِعَى. وقيل إنى كقرد، وقيل إنوة كفِرْقة. **الصَّيَاصي** جمع صِيصية. **مِنْسأة** جمع مناسي. **الـحَرور** جمعه حُرور بالضم. **غَرَابيب** جمعه غِربيب. **أتراب** جمع ترب. **الآلاء**: جمع إلَى كمِعَى، وقيل أَلَى كقَفَا، وقيل إلْي كقِرْد، وقيل ألو. **التراقي** جمع تَرْقُوة بفتح أوله. **الأمشاج** جمع مَشِج. **ألفافاً** جمع لِفّ ـ بالكسر. **العِشار** جمع عُشر. **الـخُنَّس** جمع خانسة، وكذا **الكنّس**. **الزبانية** جمع زبنية، وقيل زابن، وقيل زبانى. **أشتاتاً** جمع شتّ وشتيت. **أبابيل** لا واحد له، وقيل واحده إبّوْل مثل عِجّول. وقيل إبّيل مثل إكليل.

فائدة

ليس في القرآن من الألفاظ المعدولة إلا ألفاظ العدد: مثنى، وثلاث ورُباع، ومن غيرها طُوى فيما ذكره الأخفش في الكتاب المذكور. ومن الصفات أُخر. قال تعالى: ﴿وأُخَرُ مُتَشابِهات﴾ [آل عمران: ٧]. قال الراغب وغيره: هي معدولة عن تقدير ما فيه الألف واللام؛ وليس له نظير في كلامهم؛ فإن «أفعل» إما أن يذكر معه «من» لفظاً أو تقديراً، فلا يُثَنَّى ولا يجمع، ولا يؤنث، أو يحذف منه «من» فتدخل عليه الألف واللام ويثنى ويجمع، وهذه اللفظة من بين أخواتها جُوز فيها ذلك من غير الألف واللام.

وقال الكرماني في الآية المذكورة: لا يمنع كونها معدولة من الألف واللام كونها وصفاً لنكرة؛ لأن ذلك مقدر من وَجْه غير مقدر من وَجْه.

قاعدة

مقابلة الْجَمع بالجمع تارة تقتضي مقابلةَ كلّ فرد من هذا بكل فرد من هذا، كقوله: ﴿واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهم﴾ [نوح: ٧]، أي استغشى كلٌّ منهم ثَوبَه. ﴿حُرِّمَتْ عليكم أُمَّهاتُكم﴾ [النساء: ٢٣]؛ أي على كل من المخاطبين أمّه. ﴿يُوصيكم الله في أَوْلادكم﴾ [النساء: ١١]؛ أي كل في أولاده. ﴿والوِلدَاتُ يُرْضِعْنَ أولادهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]؛ أي كلّ واحدة تُرضع ولدها.

وتارة يقتضي ثبوتَ الجمع لكل فرد من أفراد المحكوم عليه؛ نحو: ﴿فاجْلدُوهم ثمانين جَلْدَة﴾ [النور: ٤]. وجعل منه الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ﴿وبَشِّرِ الّذين آمنُوا وعَمِلوا الصالحات أَنَّ لهم جنّات﴾ [البقرة: ٢٥].

وتارة يحتمل الأمرين، فيحتاج إلى دليل يعيِّنُ أحدهما.

وأما مقابلة الجمع بالمفرد فالغالبُ أَلا يقتضي تعميم المفرد، وقد يقتضيه كما في قوله: ﴿وعَلى الّذين يُطيقونه فِدْية طعامُ مِسْكِين﴾ [البقرة: ١٨٤]. المعنى

على كلّ واحدٍ لكل يوم طعام مسكين. ﴿والّذين يرْمُون الْمُحْصَنَاتِ ثمّ لم يأْتُوا بأربعةِ شُهَداءَ فاجْلِدُوهم ثمانين جَلْدةً﴾ [النور : ٤]؛ لأنه على كل واحد منهم ذلك.

قاعدة

ألفاظ يظن بها الترادف وليست منه

من ذلك الخوف والخشية؛ لا يكادُ اللغوي يفرِّقُ بينهما، ولا شكَّ أنّ الخشية أَعْلَى منه، وهي أَشدُّ الخوف، فإنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية؛ أي يابسة، وهو فَوات بالكلية. والخوف من قولهم ناقة خَوْفاء؛ أي بها داء وهو نَقْص، وليست بفوات؛ ولذلك خصت الخشيةُ بالله في قوله: ﴿يَخْشَوْن رَبَّهم ويَخَافُونَ سوءَ الحسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وفُرق بينهما أيضاً بأنَّ الخشية تكون من عظم المختشى، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمراً يسيراً. ويدلُّ لذلك أنّ الخاء والشين والياء في تقاليبها تدُلُّ على العظمة، نحو: شيخ للسيد الكبير. وخيش لما غَلُظ من اللباس، ولذا وردت الخشية غالباً في حقِّ الله؛ ﴿مِنْ خَشْيةِ الله﴾ [البقرة: ٧٤]. ﴿إنما يَخْشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨]. وأما ﴿يخافُون رَبهم مِنْ فَوْقهم﴾ [النحل: ٥٠]- ففيه نكتة لطيفة، لأنه وصف الملائكة، ولما ذكر قوتهم وشدة خلقهم عبَّر عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظاً شداداً فهم بين يديه تعالى ضعفاء؛ ثم أردفهُ بالفوقية الدالة على العظمة، فجمع بين الأمرين. ولما كان ضَعْف البشر معلوماً لم يحتج إلى التنبيه عليه.

ومن ذلك الشح والبخل. والشحُّ هو أَشدُّ البخل. قال الراغب: الشح: بخل مع حِرْص. وفرَّقَ العسكريُّ بين البخل والضَّنّ بأن الضن أصله أن يكون

بالعَوَاري، والبُخْل بالهبات، ولهذا يقال: هو ضنين بعلمه، ولا يقال بخيل؛ لأنَّ العلم بالعارية أشبه بالهِبة؛ لأن الواهب إذا وهب شيئاً خرج عن مِلْكه، بخلاف العارية، ولهذا قال تعالى: ﴿وما هو على الغَيْبِ بضنِين﴾ [التكوير: ٢٤]، ولم يَقُل ببخيل.

ومن ذلك السبيل والطريق، والأولُ أغلب وقوعاً في الخير، ولا يكاد اسمُ الطريق يُرَادُ به الخير إلا مقترناً بوصْفٍ أو إضافة تخلِّصُه لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهْدِي إلى الحق وإلى طريقٍ مُستقيم﴾ [الأحقاف: ٣٠]. وقال الراغب: السبيل الطريق التي فيها سهولة، فهو أخص.

ومن ذلك جاء وأتى؛ فالأول يقال في الجواهر والأعيان. والثاني في المعاني والأزمان، ولهذا ورد في قوله: ﴿ولمنْ جاءَ بهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢]. ﴿وجاءوا على قَميصه بدَمٍ كذِب﴾ [يوسف: ١٨]. ﴿وجِيء يومئذ بجهنّم﴾ [الفجر: ٢٣]. وأتى في: ﴿أَتَى أَمْرُ الله﴾ [النحل: ١] ﴿أتَاهَا أَمْرُنَا﴾ [يونس: ٢٤]: وأما ﴿وجاء ربك﴾ [الفجر: ٢٢]؛ أي أمره، فإن المراد به أهوالُ القيامة والمشاهدة وكذا ﴿فإذا جاءَ أجَلهم﴾ [الأعراف: ٣٤]، لأن الأجل كالمشاهد، ولهذا عُبِّر عنه بالحضور في قوله: حضره الموت؛ ولهذا فرّق بينهما في قوله: ﴿جئْنَاكَ بما كانوا فيه يَمْتَرُونَ. وأتيناكَ بالحق﴾؛ [الحجر: ٦٣، ٦٤]؛ لأنَّ الأول العذاب، وهو مشاهد مرئيّ بخلاف الحق. وقال الراغب: الإتيان: مجيء بسهولة؛ فهو أخصُّ من مطلق المجيء. ومنه قيل للسيل المارّ على وجهه أتاويّ، وأتيّ..

ومن ذلك مدّ وأمدّ؛ قال الراغب: أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب؛ نحو: ﴿وأَمْدَدْناهم بفاكهة﴾ [الطور: ٢٢]. والمدّ في المكروه؛ نحو: ﴿ونَمُدُّ لهُ مِنَ العذَاب مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩].

ومن ذلك سقى وأسقى؛ فالأول لما لا كُلفَة فيه، ولهذا ذكر في شراب الجنة؛ نحو: ﴿وسقَاهُمْ رَبُّهم شَرَاباً طَهُوراً﴾ [الإنسان: ٢١]. والثاني لما فيه

كلفة، ولهذا ذُكر في الدنيا، نحو: ﴿لأَسْقَيْنَاهم ماء غَدَقا﴾ [الجن: ١٦]. وقال الراغب: الإسقاء أبلغ من السقي؛ لأَنّ الإسقاء أَنْ يجعل له ما يستقي منه، ويشرب. والسقي أن يعطيه ما يشرب.

ومن ذلك عمل وفعل؛ فالأول لما كان مع امتداد زمان؛ نحو: ﴿يَعْمَلُون له ما يشَاء﴾ [سبأ: ١٣]. ﴿مما عمِلَتْ أيدينا﴾ [يس: ٧١]؛ لأنَّ خلق الأنعام والثمارِ والزروع بامتداد. والثاني بخلافه؛ نحو: ﴿كيف فعـل ربُّـكَ بـأصحـاب الفيل﴾ [الفيل: ١]. ﴿كيف فَعَلَ رَبُّكَ بعَاد﴾ [الفجر: ٦]. ﴿فَعَلْنَا بهم﴾ [إبـراهيم: ٤٥]؛ لأنها إهلاكـات وقعـت مـن غير بـطء. ﴿ويَفْعَلُـون مـا يُؤْمَرُون﴾ [النحل: ٥٠]؛ أي في طرفة عين. ولهذا عبر بالأول في قوله: ﴿وعَمِلوا الصالحاتِ﴾ [البقرة: ٢٥] حيثُ كان المقصود المثابرة عليها لا الإتيان بها مرة أو بسرعة. وبالثاني في قوله: ﴿وافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧] حيث كان بمعنى سارعوا، كما قال: ﴿فاسْتَبِقوا الخيراتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]. وقوله: ﴿والذين هم للزكاة فاعِلون﴾ [المؤمنون: ٤] حيث كان القَصْد يأتون بها على سرعة من غير توانٍ.

ومن ذلك القعود والجلوس؛ فالأوّل لما فيه لبث، بخلاف الثاني، ولهذا يقال قواعد البيت، ولا يقال جوَالسه للزومها ولبثها، ويقال جليس الملك ولا يقال قَعيده؛ لأن مجالس الملوك يستحبُّ فيها التخفيف؛ ولهذا استُعمل الأول في قوله: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥] للإشارة إلى أنه لا زوَالَ له، بخلاف: ﴿تَفَسَّحُوا في المجالِس﴾ [المجادلة: ١١]؛ لأنه يجلس فيه زماناً يسيراً.

ومن ذلك التمام والكمال، وقد اجتمعا في قوله: ﴿أَكْمَلْتُ لكم دِينَكم وأَتمَمْتُ عليكم نِعْمتي﴾ [المائدة: ٣]؛ فقيل الإتمام لإزالة نقصان الأصل، والإكمال لإزالة نُقْصان العوارض بعد تمام الأصل؛ ولهذا كان قوله تعالى: ﴿تلك عَشَرَةٌ كامِلة﴾ [البقرة: ١٩٦] أحسن من «تامة»؛ لأنّ التمام من العدد قد عُلم؛ وإنما نفى احتمال نَقْص في صفاتها. وقيل: تَمَّ يشعر بحصول نقْص قبله،

وكمل لا يشْعر بذلك. وقال العسكري: الكمال اسم لاجتماع أبعاض الموصوف به. والتمامُ اسم للجزء الذي يتم به الموصوف، ولهذا يقالُ للقافية تمام البيت، ولا يقل كماله. ويقولون البيت بكماله أي باجتماعه.

ومن ذلك الإعطاء والإيتاء؛ قال الخويي: لا يكاد اللغويون يفرّقون بينهما، وظهر لي بينهما فرق ينبيء عن بلاغةِ كتاب الله؛ وهو أنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنّ الإعطاء له مطاوع، تقول: أعطاني فعطوتُ، ولا يقال في الإيتاء: أتاني فأتيت؛ وإنما يقال آتاني فأخذت. والفعل الذي له مطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله من الذي لا مُطَاوع له، لأنك تقول: قطعته فانقطع، فيدلُّ على أنَّ فعل الفاعل كان موقوفاً على قبولٍ في المحل، لولاه ما ثبت المفعول. ولهذا يصح قطعته فما انقطع. ولا يصح فيما لا مطاوعَ له ذلك؛ فلا يجوز ضربته فانضرب، أو فما انضرب، ولا قتلته فانقتل ولا فما انقتل؛ لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعولُ في المحل، والفاعلُ مستقلّ بالأفعال التي لا مطاوعَ لها، فالإيتاء أقوى من الإعطاء.

قال: وقد تفكرت في مواضع من القرآن فوجدتُ ذلك مراعى؛ قال تعالى: ﴿تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تشاءُ وتَنزعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاء﴾ [آل عمران: ٧٦]؛ لأن الملك شيء عظيم لا يعطاه إلا مَنْ له قوة، وكذا قوله: ﴿يُؤْتِي الحكمةَ مَنْ يشاء﴾ [البقرة: ٢٦٩] ﴿آتيناك سبْعاً من الْمَثَاني﴾ [الحجر: ٨٧]؛ لعظم القرآن وشأنه: وقال: ﴿إنّا أعطيناكَ الكوثر﴾؛ [الكوثر: ١]؛ لأنه مورود في الموقف مُرْتحل عنه قريباً إلى منازل العزّ في الجنة، فعبَّر فيه بالإعطاء؛ لأنهُ يُترك عن قرب، وينتقل إلى ما هو أعظم منه. وكذا ﴿يعْطيكَ رَبُّكَ فَترْضَى﴾ [الضحى: ٥]، لما فيه من تكرر الإعطاء والزيادة إلى أن يرضى كلَّ الرضا، وهو مفسر أيضاً بالشفاعة، وهي نظير الكوثر في الانتقال بعد قضاء الحاجة منه. وكذا ﴿أعْطَى كلَّ شيء خَلْقه﴾ [طه: ٥]، لتكرّر حدوثِ ذلك باعتبار الموجودات. حتى يعطوا الجِزْية، لأنها موقوفة على قبولٍ منا، وإنما يعطونها عن كُرْه.

فائدة

قال الراغب: خص دفع الصدقة في القرآن بالإيتاء، نحو: ﴿أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاة﴾ [البقرة: ٢٧٧]. ﴿وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاة﴾ [البقرة: ١٧٧]: قال: وكل موضع ذكر في وصف الكتاب «آتينا» فهو أبلغ من كل موضع ذكر فيه «أوتوا»، لأن أوتوا قد يقال إذا أُوتيَ من لم يكن منه قبول، وآتيناهم يقال فيمَنْ كان منه قبول.

ومن ذلك السَّنَة والعام؛ قال الراغب: الغالب استعمال السَّنَة في الحَوْلِ الذي فيه الشدَّة والجَدب، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة. والعام ما فيه الرخاء والخصب؛ وبهذا تظهر النكتة في قوله: ﴿ألْفَ سَنة إلا خمسين عاماً﴾ [العنكبوت: ١٤]. حيث عبر عن المستثنى بالعام، وعن المستثنى منه بالسنة.

قاعدة

في السؤال والجواب

الأصل في الجواب أن يكونَ مطابقاً للسؤال إذا كان السؤال متوجّهاً. وقد يعْدَل في الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيهاً على أنه كان مِنْ حقّ السؤال أن يكونَ كذلك، ويسميه السكاكي الأسلوب الحكيم. وقد يجيء الجواب أعمّ من السؤال للحاجة إليه في السؤال. وقد يجيء أنْقَص لاقتضاء الحال ذلك.

مثال ما عدل عنه قوله تعالى: ﴿يَسألونَك عن الأهِلَّة قلْ هي مَوَاقِيت للناس والحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. سألوا عن الهلال لِمَ يَبْدو رقيقاً مثل الخيط، ثم يتزايَد قليلاً قليلاً حتى يمتلىء ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ؟ فأجيبوا ببيان حكمةِ ذلك تنبيهاً على أن الأهمَّ السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه. كذا قال السكاكي ومَنْ أتى بعده، واسترسل التفتازاني في الكلام إلى أن قال: ليسوا ممّن يطلع على دقائق الهيئة بسهولة.

وأقول: ليت شعري من أَيْنَ لهم أنّ السؤال وقع عن غير ما حصل الجوابُ به! وما المانعُ من أن يكون إنما وقع عن حكمةِ ذلك ليعلموها، فإنَّ نَظْمَ الآية محتمل لذلك، كما أنه محتمل لما قالوه. والجواب ببيان الحكمة دليلٌ على ترجيح الاحتمال الذي قُلْناه، وقرينةٌ تُرْشِد إلى ذلك؛ إذ الأَصلُ في الجواب المطابقة للسؤال، والخروج عن الأصْلِ يحتاج إلى دليل، ولم يرد بإسنادٍ لا صحيح ولا غيره أَنّ السؤال وقع عما ذكروه؛ بل ورد ما يؤيد ما قلناه، فأخرج ابن جرير، عن أبي العالية، قال: بلغنا أنهم قالوا: يا رسولَ الله، لم خلقت الأهِلة؟ فأنزل الله ﴿يسألونك عن الأهِلّة﴾، فهذا صريح في أنهم سألوه عن حكمة ذلك لا عَنْ كيفيته من جهة الهيئة، ولا يظنّ ذو دِين بالصحابة الذي هم أدقّ فهماً، وأغزر علماً، أنهم ليسوا ممن يطّلع على دقائق الهيئة بسهولة، وقد اطلع عليها آحاد العجم الذي أطبق الناس على أنهم أبلد أذهاناً من العرب بكثير. هذا لو كان للهيئة أصل معتبر، فكيف وأكثرها فاسد لا دليل عليه.

وقد صنَّفْت كتاباً في نَقْض أكثر مسائلها بالأدلة الثابتة عن رسول الله ﷺ الذي صعد إلى السماء ورآها عياناً، وعلم ما حوَتْه من عجائب الملكوت بالمشاهدة، وأتاه الوَحْي مِنْ خالقها، ولو كان السؤال وقع عمّا ذكروه لم يمتنع أنْ يجابوا عنه بلفظ يصل إلى أفهامهم، كما وقع ذلك لما سألوا عن المجرة وغيرها من الملكوتيات.

نعم المثال الصحيح لهذا القسم جواب موسى لفرعون حيث قال: ﴿ومَا رَبُّ العالمين. قال رَب السمواتِ والأرض وما بينهما﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]؛ لأنه سؤال عن الماهية أو الجِنس. ولما كان هذا السؤال في حقِّ الباري تعالى خطأ لأنه لا جنس له، فيذكر ولا تدرك ذاته، عدل إلى الجواب بالصواب ببيان الوصف المرشد إلى معرفته؛ ولهذا تعجَّبَ فرعون من عدم مطابقته للسؤال؛ فقال ﴿ألاَ تستمعُون﴾ [الشعراء: ٢٥]: أي جوابه الذي لم يطابق السؤال، فأجاب موسى: ﴿ربُّكم ورب آبائكم الأَولين﴾ [الشعراء: ٢٦] المتضمّن إبطال ما يعتقدونه من

ربوبية فرعون نصًّا، وإن كان دخل في الأول ضمناً إغلاظاً؛ زاد فرعون في الاستهزاء به، فلما رآهم موسى لم يتفطنوا أغلظَ في الثالث بقوله: ﴿إنْ كنْتم تعقلون﴾ [الشعراء: ٢٨].

ومثال الزيادة في الجواب قوله تعالى: ﴿قُلِ الله ينَجيكم منها ومن كل كرب﴾ [الأنعام: ٦٤] في جواب ﴿مَنْ يُنَجِّيكم من ظُلُماتِ البرِّ والبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣]. وقول موسى: ﴿هي عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عليها وَأَهش بها على غَنمي﴾ [طه: ١٨] في جواب: ﴿وما تلكَ بيمينك يا موسى﴾ [طه: ١٧]. زاد في الجواب استلذاذاً بخطاب الله.

وقول قوم إبراهيم: ﴿نَعْبُدُ أصناماً فنَظل لها عاكفين﴾ [الشعراء: ٧١] في جواب: ﴿ما تَعْبدون﴾ [الشعراء: ٧٠]؟ زادوا في الجواب إظهاراً للابتهاج بعبادتها والاستمرارِ على مواظبتها ليزداد غيْظ السائل.

ومثال النقص منه قوله تعالى: ﴿قلْ ما يَكونُ لي أنْ أبدِّله﴾ [يونس: ١٥] في جواب: ﴿ائْتِ بقرآن غَيْر هذا أو بدِّله﴾ [يونس: ١٥]، أجاب عن التبديل دونَ الاختراع. قال الزمخشري: لأن التبديلَ في إمكان البشر دون الاختراع، فطوَى ذكْرَه للتنبيه على أنه سؤال محال. وقال غيره: التبديل أسهل من الاختراع، وقد نفى إمكانَه فالاختراع أولى.

تنبيه

قد يُعْدَل عن الجواب أصلاً إذا كان السائل قَصْده التعنيت؛ نحو: ﴿ويسألونَك عن الروح﴾ [الإسراء: ٨٥] ـ قال صاحب الإيضاح: إنما سأل اليهود تعجيزاً أو تغليظاً إذْ كان الروح يقال بالاشتراك على روح الإنسان، والقرآن، وعيسى وجبريل، وملك آخر، وصنف من الملائكة، فقصد اليهودُ أَنْ يسألوه، فبأيّ مسمّى أجابهم قالوا: ليس هو، فجاءهم الجواب مجملاً، وكان هذا الإجمال كَيْداً يردُّ به كيدهم.

قاعدة

قيل أصل الجواب أنْ يُعَادَ فيه نَفسُ السؤال، ليكون وفْقَه؛ نحو: ﴿أإنَّكَ لأنْتَ يوسف؟ قال أنا يوسف﴾ [يوسف: ٩٠]؛ فأنا في جوابه هو «أنت» في سؤالهم، وكذا ﴿أأقْرَرْتُم وأخذْتُم على ذَلكم إصْري، قالوا أقْرَرْنَا﴾ [آل عمران: ٨١]؛ فهذا أصله؛ ثم إنهم أتوا عِوَض ذلك بحروف الجواب اختصاراً وترك التكرار.

وقد يحذف السؤال ثقةً بفهم السامع بتقديره؛ نحو: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شرَكائِكم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ قل الله يَبدَأ الْخَلْق ثم يعيده﴾ [يونس: ٣٤]. فإنه لا يستقيم أن يكونَ السؤال والجواب من واحد، فتعيَّن أن يكون ﴿قل الله﴾ جوابَ سؤال، فكأنهم سألوا لمّا سمعوا ذلك: مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده؟

قاعدة

الأصل في الجواب أن يكون مشَاكِلاً للسؤال؛ فإن كان جملة اسمية فينبغي أن يكون الجواب كذلك، ويجيء كذلك في الجوابِ المقدَّر، إلا ابن مالك قال: قولك زيد ـ في جواب مَنْ قرأ: إنه من باب حَذْف الفعل، على جَعْل الجواب جملة فعلية. قال: وإنما قدرته كذلك لا مبتدأ مع احتماله، جَرْياً على عادتهم في الأجوبة إذا قصدوا تمامها؛ قال تعالى ﴿مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وهي رَميم. قُلْ يُحيِيها الذي أنشأها﴾ [يس: ٧٨ : ٧٩]. ﴿ولئن سألْتَهم مَنْ خَلَقَ السموات والأرضَ ليقولنَّ خَلَقهنّ العزيز العليم﴾ [الزخرف: ٩]. ﴿يسألونك ماذا أُحلَّ لهم؟ قل أحِل لكم الطيبات﴾ [المائدة: ٤]. فلما أتى بالجملة الفعلية مع فواتِ مشاكلة السؤال عُلم أنَّ تقدير الفِعل أولى.

قال ابن الزَّمْلَكَاني في البرهان: أطلق النحويون القولَ بأن زيداً في جواب مَنْ قام؟ فاعل على تقدير قام زيد، والذي توجبه صناعة علم البيان أنه مبتدأ، لوجهين:

أحدهما: أنه يطَابق الجملةَ المسؤول بها في الاسمية، كما وقع التطابق في قوله: ﴿وقيل للذين اتّقَوْا ماذَا أنْزَلَ ربكم قالوا خَيْراً﴾ [النحل: ٣٠] في الفعلية، وإنما لم يَقَع التطابقُ في قوله: ﴿ماذَا أَنْزَل رَبُّكم؟ قالوا أَسَاطِيرُ الأوَّلين﴾ [النحل: ٢٤]؛ لأنهم لو طابقوا لكانوا مقرين بالإنزال وهم من الإذعان به على مفاوز.

الثاني: أن اللَّبْس لم يقع عند السائل إلا فيمن فعل الفعل، فوجب أن يتقدم الفاعل في المعنى، لأنه متعلق غرَض السائل. وأما الفعلُ فمعلوم عنده، ولا حاجة به إلى السؤال عنه، **فحريّ** أنْ يقعَ في الأواخر التي هي محل التكملات والفَضَلات.

وأُشكل على هذا: ﴿بلْ فعلَهُ كبيرهم هذا﴾ [الأنبياء: ٦٣] ـ في جواب ﴿أأنْت فعلْتَ هذا﴾ [الأنبياء: ٦٢]؟ فإن السؤال وقع عن الفاعل لا عن الفعل، فإنهم لم يستفهموه عن الكسر، بل عن الكاسر، ومع ذلك صدر الجواب بالفعل.

وأجيب بأن الجوابَ مقدرٌ دلَّ عليه السياق، إذ «بل» لا يصلح أن يصدر بها الكلام، والتقدير: ما فعلته، بل فعله.

قال الشيخ عبد القاهر: وحيث كان السؤال ملفوظاً به فالأكثرُ تَرْكُ الفعل في الجواب والاقتصارُ على الاسم وحده، وحيث كان مضمراً فالأكثر التصريح به لضعف الدلالة عليه. ومن غير الأكثر: ﴿يسبَّحُ له فيها بالغدوِّ والآصال. رجال﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] ـ في قراءة البناء للمفعول.

قاعدة

أَخرج البزار عن ابن عباس، قال: ما رأيتُ قوماً خيراً من أصحابِ محمد، ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة، كلُّها في القرآن.

وأورده الإمام الرازي بلفظ أربعة عشر حرفاً. وقال: منها ثمانية في البقرة:

﴿وإذا سألكَ عِبَادي عَني﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿يسألونكَ عن الأهلّة﴾ [البقرة: ١٨٩]. ﴿يسألونكَ ما ينفِقُون؛ قل ما أَنْفَقْتُم﴾ [البقرة: ٢١٥]. ﴿يسألونك عن الشّهْرِ الحرام﴾ [البقرة: ٢١٧]. ﴿يسألونك عن الخَمْر والمَيْسر﴾ [البقرة: ٢١٩]. ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ﴿ويسألونك ماذا ينْفقون؟ قل العَفْو﴾ [البقرة: ٢١٩]. ﴿ويسألونك عن المحِيض﴾ [البقرة: ٢٢٢]. قال: والتاسع: ﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم﴾ في المائدة [٤]. والعاشر: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ [الأنفال: ١] والحادي عشر: ﴿ويسألونك عن الساعة أيان مُرساها﴾ [النازعات: ٤٢] والثاني عشر: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ [طه: ١٠٥]. والثالث عشر: ﴿ويسألونك عن الرُّوح﴾ [الإسراء: ٨٥]. والرابع عشر: ﴿ويسألونك عن ذي القَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣].

قلت: السائلُ عن الروح وذي القَرْنين مشركو مكة أو اليهود، كما في أسباب النزول لا الصحابة، فالخالص اثنا عشر كما صحت به الرواية.

فائدة

قال الراغب: السؤال إذا كان للتعريف تعدَّى إلى المفعول الثاني؛ تارةً بنفسه، وتارة بعن، وهو أكثر، نحو ﴿ويسألونكَ عن الروح﴾ [الإسراء: ٨٥] وإذا كان لاسْتدعاء مالٍ فإنه يعدَّى بنفسه أو بمِن، وبنفسه أكثر؛ نحو: ﴿وإذا سألتموهنَّ متَاعاً فاسألُوهُنَّ مِنْ وَراء حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. ﴿واسألوا ما أَنْفَقْتُم﴾ [الممتحنة: ١٠]. ﴿واسْألوا الله مِنْ فضله﴾ [النساء: ٣٢].

قاعدة

في الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل

الاسمُ يدلُّ على الثبوت والاستمرار، والفعلُ يدلُّ على التجدد والحدوث، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر؛ فمن ذلك: قوله: ﴿وكلبُهم باسطٌ ذراعَيهِ

بِالوَصيد﴾ [الكهف: ١٨]، لو قيل «يبسط» لم يؤد الغرض، لأنه يؤذن بمزاولة الكلب البَسْط، وأنه يتجدد له شيئاً بعد شيء، فباسط أشعر بثبوت الصفة. وقوله: ﴿هل مِنْ خالقٍ غَيْرُ الله يرْزُقكم﴾ [فاطر: ٣]، لو قيل: رازقكم لفات ما أفاده الفعل من تجدد الرزق شيئاً بعد شيء؛ ولهذا جاء الفعل في صورة المضارع مع أنَّ العامل الذي يفيده ماضٍ، نحو: ﴿وجاءُوا أَبَاهم عشَاءً يبْكون﴾ [يوسف: ١٦]؛ إذ المراد أنْ يفيد صورة ما هم عليه وقْتَ المجيء، وأنهم آخذون في البكاء يجدِّدونه شيئاً بعد شيء، وهو المسمّى حكاية الحال الماضية، وهذا هو سر الإعراضِ عن اسم الفاعل والمفعول؛ ولهذا أيضاً عبَّر بالذين ينفقون، ولم يقل المنفقون، كما قيل المؤمنون والمتّقون؛ لأنَّ النفقةَ أمر فِعْليّ شأنه الانقطاع والتجدد، بخلاف الإيمان، فإن له حقيقةً تقوم بالقلب يدومُ مقتضاها. وكذلك التقوى والإسلام، والصبر والشكر، والهدى والضلال، والعمى والبصر، كلُّها لها مسمَّياتٌ حقيقية أو مجازية تستمرُّ، وآثار تتجدد وتنقطع، فجاءت بالاستعمالين.

وقال تعالى في آية الأنعام: ﴿يخرجُ الحيَّ من الميِّت ومخرجُ الميتِ من الحيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥]. قال الإمام فخر الدين: لما كان الاعتناء بإخراج الحيّ من الميت أشدّ أتى فيه بالمضارع ليدلَّ على التجدد، كما في قوله: ﴿اللهُ يَسْتَهزِئُ بِهِم﴾ [البقرة: ١٥].

تنبيهات

الأول: المراد بالتجدد في الماضي الحصول، وفي المضارع أنّ من شأنه أنْ يتكرر ويقع مرةً بعد أخرى، صرح بذلك جماعة منهم الزمخشري في قوله: ﴿الله يستهزىء بهم﴾.

قال الشيخ بهاء الدين السبكي: وبهذا يتَّضِح الجواب عما يذكر من نحو: علم الله كذا؛ فإنَّ علم الله لا يتجدد، وكذا سائر الصفات الدائمة التي يستعمل فيها الفعل.

وجوابُه أنّ معنى علم الله كذا وقع عِلْمُه في الزمن الماضي، ولا يلزم أنه لم يكُنْ قَبْل ذلك؛ فإن العلم في زمن ماض أعمّ من المستمر على الدوام قبل ذلك الزمن وبعده وغيره؛ ولهذا قال تعالى ـ حكاية عن إبراهيم: ﴿الذي خلقني فهو يَهْدين. والذي هو يطْعمني ويسقين...﴾ [الشعراء: ٧٨، ٧٩] الآيات، فأتى بالماضي في الخلق، لأنه مفروغ منه، وبالمضارع في الهداية والإطعام والإسقاء والشفاء، لأنها متكررةٌ متجدّدة تَقَعُ مرةً بعد أخرى.

الثاني: مضمر الفعل فيما ذُكر كمظْهره، ولهذا قالوا: إنَّ سلام الخليل أبلغُ من سلام الملائكة حيث: ﴿قالوا سلاماً. قال سلامٌ﴾ [هود: ٦٩]؛ فإن نصب سلاماً إنما يكون على إرادة الفعل؛ أي سَلَّمنا سلاماً. وهذه العبارةُ مؤْذنة بحدوث التسليم منهم؛ إذ الفعلُ متأخرٌ عن وجود الفاعل، بخلاف سلام إبراهيم، فإنه مرتفع بالابتداء؛ فاقتضى الثبوتَ على الإطلاق، وهو أولى مما يعرض له الثبوت، فكأنه قَصد أن يحييهم بأحسن مما حيَّوه به.

الثالث: ما ذكرناه من دلالة الاسْم على الثبوت والفعل على التجدد والحدوث هو المشهورُ عند أهلِ البيان، وقد أنكره أبو المطرف بن عميرة في كتاب التمويهات على التبيان لابن الزَّمْلَكاني، وقال: إنه غريب لا مستَند له؛ فإنَّ الاسْمَ إنما يدل على معناه فقط، أما كونُه يثبت المعنى للشيء فلا؛ ثم أورد قوله تعالى: ﴿ثمّ إنّكم بَعدَ ذلك لميّتون. ثم إنكم يومَ القيامة تُبْعثون﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]. وقوله: ﴿إنّ الّذينَ هم منْ خَشْيَة رَبِّهم مُشْفِقون. والذين هم بآياتِ رَبِّهم يُؤْمنون﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٥٨].

وقال ابن المنير: طريقةُ العربية تلوين الكلام، ومجيء الفعلية تارة والاسمية أخرى من غير تكلف لما ذكروه، وقد رأينا الجملةَ الفعلية تصدر من الأقوياء الخلص اعتماداً على أن المقصود حاصل بدون التأكيد، نحو: ﴿ربَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران: ٥٣] ولا شيء بعد ﴿آمَنَ الرسولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقد جاء التأكيد في كلام المنافقين، فقالوا: ﴿إنَّما نحنُ مُصْلِحون﴾ [البقرة: ١١].

قاعدة

في المصدر

قال ابن عطية: سبيلُ الواجباتِ الإتيانُ بالمصدر مرفوعاً؛ كقوله: ﴿فإمْسَاكٌ بمعروف أو تَسْرِيح بإحْسان﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ﴿فاتِّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ [البقرة: ١٧٨]. وسبيلُ المندوبات الإتيانُ به منصوباً؛ كقوله: ﴿فَضَرْب الرِّقابِ﴾ [محمد: ٤]؛ ولهذا اختلفوا: هل كانت الوصية للزوجات واجبة لاختلاف القراءة في قوله تعالى: ﴿وصِيةً لأزْوَاجهم﴾ [البقرة: ٢٤٠] - بالرفع والنصب؟

قال أبو حيان: والأَصلُ في هذه التفرقة قوله تعالى: ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ [هود: ٦٩]؛ فإنَّ الأول مندوب، والثاني واجب؛ والنكتةُ في ذلك أنّ الجملة الاسمية أَوْكد وأثبت من الفعلية.

قاعدة

في العطف

هو ثلاثة أقسام: عطف على اللفظ، وهو الأصل؛ وشَرْطُه إمكانُ توجّه العامل إلى المعطوف.

وعطف على المحل، وله شروط ثلاثة:

أحدها: إمكانُ ظهورِ ذلك المحلّ في الفصيح؛ فلا يجوز مررتُ بزيد وعمراً، لأنه لا يجوز مررت زيداً.

الثاني: أن يكونَ الموضع بحقّ الأصالة، فلا يجوز: هذا الضارب زيداً وأخيه؛ لأن الأصل المستوفي لشروط العمل، والأصل إعماله لا إضافته.

الثالث: وجود المحرز، أي الطالب لذلك المحل، فلا يجوز إن زيداً وعمراً قاعدان؛ لأن الطالب لرفع عمرو هو الابتداء، وقد زال بدخول «إن».

وخالف في الشرط الكسائي مستدلاً بقوله تعالى: ﴿إنَّ الذين آمَنوا والذين هَادُوا والصَّابِئُون...﴾ [المائدة: ٦٩] الآية. وأُجيب بأن خبر ﴿إن﴾ فيها محذوف، أي مأجورون، أو آمنون، ولا تختص مراعاةُ الموضع بأن يكون عامل اللفظ زائداً. وقد أجاز الفارسي في قوله: ﴿وأُتْبِعوا في هذه الدنيا لعنةً ويَوْمَ القيامة﴾ [هود: ٦٠] أن يكون يوم القيامة عطفاً على محل هذه.

وعطف التوهم؛ نحو: ليس زيد قائماً ولا قاعدٍ ـ بالخفض، على تَوهُّم دخول الباء في الخبر. وشرطُ جوازِه صحةُ دخولِ ذلك العامل المتوهم، وشرط حُسْنِه كثرةُ دخوله هناك. وقد وقع هذا العطف في المجرور في قول زهير:

بدَا لِيَ أَني لسْتُ مُـدْرِكَ مـا مضى ... ولا سابـق شيئـاً إذا كـان جـائيـا

وفي المجزوم في قراءة غير أبي عمرو: ﴿لولا أَخَّرْتَني إلى أجلٍ قريب فأَصَّدقَ وأكنْ﴾ [المنافقون: ١٠]، خرجه الخليلُ وسيبويه على أنه عطف على التوهم، لأن معنى ﴿لولا أخرتني فأصدّق﴾ ومعنى أخرني أصدّق واحد. وقراءة قنبل: ﴿إنه مَنْ يتَّقي ويصبر﴾ [يوسف: ٩٠]. خرجه الفارسي عليه؛ لأن من الموصولة فيها معنى الشرط. وفي المنصوب في قراءة حمزة وابن عامر: ﴿ومِنْ وَرَاءِ إسحاقَ يَعقُوب﴾ [هود: ٧١]. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿وحِفْظاً مِنْ كلِّ شيطانٍ﴾ [الصافات: ٧]: إنه عطف على معنى ﴿إنا زَيَنَّا السماء الدنيا﴾ [الصافات: ٦]؛ وهو إنا خلقنا الكواكبَ في السماء الدنيا زينة للسماء.

وقال بعضهم في قراءة: «وَدُّوا لو تُدْهِنُ فيـدهنـوا» [القلم: ٩]. إنـه على معنى ودُّوا أنْ تدهن.

وقيل في قراءة حفص: ﴿لعلّي أَبْلغُ الأسبابَ. أسبابَ السموات فأَطلعَ﴾

[غافر: ٣٦ ، ٣٧]- بالنصب: إنه عطفٌ على معنى لعلِّي أن أبلغ؛ لأن خبر لعل يقترن بأن كثيراً. وقيل في قوله تعالى: ﴿ومِنْ آياتِه أنْ يُرْسلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وليُذِيقكم﴾ [الروم: ٤٦]: إنه على تقدير ليبشركم وليذيقكم.

تنبيه

ظن ابنُ مالك أن المراد التوهم الغلط، وليس كذلك، كما نَبّه عليه أبو حيان وابن هشام، بل هو مقصود صواب، والمراد منه عطف على المعنى، أي جوّز العربيُّ في ذهنه ملاحظةَ ذلك المعنى في المعطوف عليه، لا أنه غلط في ذلك؛ ولهذا كان الأدب أنْ يقال في مثل ذلك في القرآن: إنه عطف على المعنى.

مسألة

اختلف في جواز عطْفِ الخبر على الإنشاء وعكسه، فمنعه البيانيُّون وابنُ مالك وابنُ عصفور، ونقله عن الأكثرين، وأجازه الصفّار وجماعةٌ مستدلين بقوله تعالى: ﴿وبَشِّرِ الذين آمَنُوا﴾ في سورة البقرة [٢٥]. ﴿وبَشِّرِ الْمُؤْمنين﴾ في سورة الصف [١٣]. وقال الزمخشري في الأولى: ليس المعتمد بالعطف الأمر حتى يطلب له مشاكل، بل المرادُ عطف جملة ثوابِ المؤمنين على جملة ثوابْ الكافرين. وفي الثانية - أن العطف على تؤمنون؛ لأنه بمعنى آمنوا. ورُدَّ بأن الخطاب به للمؤمنين وبـ﴿بَشِّر﴾ للنبي ﷺ، وبأنَّ الظاهر في ﴿يؤمنون﴾ أنه تفسير للتجارة لا طلب.

وقال السكاكي: الأمران معطوفان على «قل» مقدرة قبل يا أيها، وحَذْف القولِ كثير.

مسألة

اختلف في جواز عطف الاسمية على الفعلية وعكسه؛ فالجمهور على الجواز، وبعضُهم على المنع؛ ولقد لهج به الرازي في تفسيره كثيراً، وردَّ به على الحنفية

القائلين بتحريم أكل متروك التسمية أخْذاً من قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مِمَّا لم يذْكر اسْمُ الله عليه وإنه لفِسْق﴾ [الأنعام: ١٢١]. فقال: هي حجةٌ للجواز لا للحرْمة؛ وذلك أن الواو ليست عاطفة لتخالُف الجملتين بالاسمية والفعلية، ولا للاستئناف؛ لأن أصلَ الواوِ أن تربط ما بعدها بما قبلها، فبقي أن تكونَ للحال، فتكون جملةُ الحال مقيدة للنهي. والمعنى: لا تأكلوا منه في حال كونه فسقاً. ومفهومه جوازُ الأكلِ إذا لم يكن فسقاً، والفسقُ قد فسَّره الله تعالى بقوله: ﴿أو فِسْقاً أُهِلَّ لغير الله به﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فالمعنى لا تأكلوا منه إذا سُمِّيَ عليه غَيْرُ الله. ومفهومه: فكلوا منه إذا لم يسمّ عليه غَيْرُ الله تعالى. قال ابن هشام: ولو أبطل العطف بتخالف الجملتين بالإنشاء والخبر لكان صواباً.

مسألة

اختلف في جواز العطف على معمولي عاملين؛ فالمشهور عن سيبويه المنع، وبه قال المبرد وابن السراج وابن هشام. وجوَّزَه الأخفش والكسائي والزجاج. وخرج عليه قوله تعالى: ﴿إن في السمواتِ والأرضِ لآياتٍ للمؤمنين. وفي خَلْقِكم وما يَبُثُّ من دابَّة آيات لقوم يوقنون...﴾ إلى قوله: ﴿وتصريِف الرياح آيات لقومٍ يَعْقِلون﴾ [الجاثية: ٣، ٥]ـ فيمن نصب آياتٍ الأخيرة.

مسألة

اختلف في جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار؛ فالجمهورُ من البصريين على الْمَنْع، وبعضهم والكوفيون على الجواز؛ وخرج عليه قراءة حمزة: ﴿واتَّقُوا الله الذي تَساءلون به والأرْحام﴾ [النساء: ١]. وقال أبو حيان في قوله: ﴿وصَدٌّ عَنْ سبيلِ الله وكُفْرٌ به والمسجدِ الحرام﴾ [البقرة: ٢١٧]: إنّ المسجد معطوف على ضمير به، وإن لم يُعَد الجار. قال: والذي نختاره جوازُ ذلك، لوروده في كلام العرب كثيراً نظماً ونثراً، قال: ولسنا متعبّدين باتباع جمهور البصريين؛ بل نتبع الدليل. والله الموفق.

فصل

في أحاديث نبويّة

تفسِّرُ آيات قرآنية منقولة محذوفة الأسانِيد من صحيح البخاري راجياً من الله حُسْن الخاتمة للناقل والقارىء :

﴿غير الْمَغْضُوبِ عليهم﴾ [الفاتحة : ٧] : اليهود .

﴿ولا الضالِّين﴾ [الفاتحة : ٧] : النصارى .

﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَة﴾ [البقرة : ٢٥] : من الحيض والغائط والنُّخامة والبصاق .

﴿عَدْل﴾ [البقرة : ٤٨] : فدية .

﴿سُجَّداً﴾ [البقرة : ٥٨ ، ٥٩] : على وجوههم، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا حبة في شعرة .

﴿وَيْل﴾ [البقرة : ٧٩] : وادٍ في جهنم يهوي به الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغَ قَعْرَه .

﴿يتْلُونَه حَقَّ تِلاَوَتِه﴾ [البقرة : ١٢١] : يتّبعونه حقّ اتباعه .

﴿لا ينَالُ عَهْدِي الظَّالمين﴾ [البقرة : ١٢٤] : لا طاعةَ إلا في المعروف، وليس لظالم عليك عهد أنْ تطيعه في معصية الله .

﴿فاذْكروني أَذْكُرْكم﴾ [البقرة : ١٥٢] : اذكروني يا معشر العباد بطاعتي أذكركم بمغفرتي .

﴿الذين إذا أَصابَتْهم مُصِيبةٌ﴾ [البقرة : ١٥٦] : ما أصاب المؤمن مما يكره فهو مصيبة .

﴿يَلْعَنُهم اللاَّعِنون﴾ [البقرة : ١٥٩] : يُضرب الكافر ضربة بين عينيه فيسمعه كلُّ دابة إلا الثقلين، فتلعنه كلّ دابة سمعَتْ صوتَه ؛ فذلك قوله : ﴿أولئكَ يَلعَنُهم الله ويلعَنُهم اللاّعنون﴾ [البقرة : ١٥٩] : يعني دوابَّ الأرض .

﴿الحجُّ أَشْهُرٌ معلومـات﴾ [البقـرة: ١٩٧]: شـوال، وذو القعـدة، وذو الحجة.

﴿فلا رَفَثَ ولا فسوقَ ولا جِدالَ في الحجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]: الرفَثُ: التعرض للنساء بالجماع، والفسوق المعاصي، والجدال: جدال الرجل صاحبه.

﴿لا يُؤَاخِذكُم الله باللَّغْوِ في أيمانكم﴾ [البقرة: ٢٢٥]: هو كلام الرجل في بيته كلا والله، وبلى والله.

﴿الطّلاَقُ مرَّتان﴾ [البقرة: ٢٢٩] والثالثة تسريح بإحسان.

﴿الذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النّكاح﴾ [البقرة: ٢٣٧]: الزوج.

﴿الصَّلاَةِ الوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]: صلاة العصر.

﴿سَكِينة﴾ [البقرة: ٢٤٨]: ريح خَجُوج.

﴿يُؤْتِي الحكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٦٩]؛ أي القرآن والعمل به، لأنه قد قرأه البَرُّ والفاجر.

﴿فيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ منه﴾ [آل عمران: ٧]: هم الخوارج. وهم الذين تسوَدُّ وجوههم.

﴿الرَّاسِخُون في العِلْم﴾ [آل عمران: ٧]: من بَرَّت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، وعفّ بطنه وفرجه؛ فذلك من الراسخين في العلم.

﴿القَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرة﴾ [آل عمران: ١٤]: القنطار ألف أوقية.

﴿ولَهُ أَسْلَم مَنْ في السموات والأرْضِ طوْعاً وَكَرْهاً﴾ [آل عمران: ٨٣]؛ أما من في السموات فالملائكة، وأما من في الأرض فمن وُلد على الإسلام، وأما كَرْهاً فمن أُتي به من سبايا الأمم في السلاسل والأغلال يُقَادُون إلى الجنة وهم كارهون.

﴿مَنِ استطاعَ إليه سبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]: الزاد والراحلة.

﴿ومَنْ كفَر فإنَّ الله غَنِيٌّ عن العالَمين﴾ [آل عمران: ٩٧]: مَنْ تركه يخاف عقوبته ولا يرجو ثوابَه.

﴿اتّقوا الله حَقَّ تُقَاتِه﴾ [آل عمران: ١٠٢]: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا يُنسى.

﴿ولتكنْ منكمْ أُمَّةٌ يَدْعونَ إلى الخير﴾ [آل عمران: ١٠٤]: الخير اتباع القرآن وسنّتي.

﴿مسوِّمين﴾ [آل عمران: ١٢٥]: معلمين، وكانت سيما الملائكة يوم بَدْر عمائم سود، ويوم أحد عمائم حمر.

﴿ولا يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلون بما آتاهم الله مِنْ فَضْله﴾ [آل عمران: ١٨٠]: مَنْ آتاه الله مالاً فلم يؤَدِّ زكاته، مُثِّل له شجاع أَقْرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمَيْهِ يقول: أنا مالك، أنا كنْزُك.

﴿ألاَّ تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]: ألاّ تَجُوروا.

﴿بَدَّلْنَاهم جلوداً غيرها﴾ [النساء: ٥٦]: تبدل في ساعةٍ مائة مرة.

﴿فجزَاؤهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]: إن جازاه.

﴿فيُوَفِّيهم أُجُورَهم ويَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْله﴾ [النساء: ١٧٣]: الشفاعةُ فيمن وجبت له النار ممَّنْ خرج إليهم المعروف في الدنيا.

﴿الكلاَلَة﴾ [النساء: ١٧٦]: ما خلا الولد والوالد.

﴿مُلُوكاً﴾ [المائدة: ٢٠]: كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً.

﴿فسوف يَأتي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهم﴾ [المائدة: ٥٤]: أبو موسى الأشعري منهم.

﴿أو كِسْوَتهم﴾ [المائدة: ٨٩]: عباءة لكل مسكين.

﴿لا يَضُرُّكم مَنْ ضَلَّ إذا اهتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]: إذا رأيت شُحًّا مُطاعاً، وهوًى مَتّبعاً، ودُنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصّة

نفسك، ودَع العوام. وفي حديث آخر: لا يضركم من ضَلَّ من الكفار إذا اهتديتم.

﴿يَتَوَفَّاكُمْ بالليل﴾ [الأنعام: ٦٠]: مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذُ نفسه، فإن أَذن الله بقَبْض روحه قبضه وإلا ردّه إليه؛ فذلك قوله تعالى: ﴿يتوفّاكُم بالليل﴾.

﴿ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]: ليس الذي تعنون من الظلم، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إنَّ الشركَ لظلْمٌ عظيم﴾ [لقمان: ١٣]، إنما هو الشرك.

﴿لا تُدْرِكهُ الأبصارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]: لو أَنّ الجنّ والإنسَ والملائكة والشياطين منذ خُلقوا إلى أَنْ فنوا صُفُّوا صفًّا واحداً ما أَحاطوا بالله أبداً.

﴿فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيه يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلام﴾ [الأنعام: ١٢٥]: قالوا كيف يشرح صَدْرَه، يا رسولَ الله؟ قال: نور يقذف به فينشرح له وينفسح. قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ قال: الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قَبْل لقاء الموت.

﴿وآتُوا حَقّه يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]: ما سقط من السنبل.

﴿لا نُكلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَها﴾ [الأنعام: ١٥٢]: من أربى على نفسه في الكيل والميزان، والله يعلم صحةَ نيّته بالوفاء فيهما لم يؤاخذ، وذلك تأويل وسعها.

﴿يَوْمَ يأتي بَعْضُ آياتِ رَبِّك لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها﴾ [الأنعام: ١٥٨]: طلوع الشمس من مغربها.

﴿إنّ الذين فرَّقُوا دِينَهم وكانوا شِيَعاً﴾ [الأنعام: ١٥٩]: هم أصحابُ البِدَع وأَصحاب الأهواء.

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عند كلِّ مَسْجد﴾ [الأعراف: ٣١]: صلوا في نِعَالكم.

﴿لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماء﴾ [الأعراف: ٤٠]: إذا قُبضت روح العبدِ الكافر يُصعد بها إلى السماء فلا يمرون بها على مَلأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفْتح له، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سِجّين في الأرض السّفْلى، فتطرح روحه طرْحاً، اقرأوا إنْ شئتُم: ﴿ومَنْ يُشْرِكْ بالله فكأنّما خَرَّ من السماء فتخطَفُهُ الطّيْرُ أو تَهْوِي به الريحُ في مكانٍ سَحِيق﴾ [الحج: ٣١].

﴿ونَادَى أَصحابُ الأعرافِ﴾ [الأعراف: ٤٨]: هم من استوت حسناته وسيئاته. وفي حديث آخر: هم ناس قُتلوا في سبيل الله. وفي حديث آخر: إنهم مؤمنو الجنّ.

﴿الطُّوفَان﴾ [الأعراف: ١٣٣]: الموت.

﴿تجلّى رَبُّه لِلْجَبَلِ جعله دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]: أشار ﷺ بطرف إبْهامه على أنملة أصبعه اليمنى فساح الجبَل وخَرَّ موسى صَعِقاً فمن نورها جعله دَكًّا.

﴿وكتبنا له في الألواح﴾ [الأعراف: ١٤٥]: كانت من سِدْرَة المنتهى، طولُ كلّ لوح اثنا عشر ذراعاً.

﴿وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِنْ بني آدمَ من ظُهورهم ذُرِّيَّتَهُم﴾ [الأعراف: ١٧٢]: إن الله أخذ الميثاقَ من ظَهْر آدم يوم عرفة، فأخرج من صُلْبه كلّ ذرية ذرّاها فنثرها بين يديه ثم كلّمهم، فقال: أَلَسْتُ بربكم؟ قالوا: بلى. وفي رواية: أخذ من ظهره كما يؤخذ بالْمُشط من الرأس، فقال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. قالت الملائكة: شهدنا.

﴿فلما آتاهُمَا صالحاً جَعَلاَ له شُرَكاء﴾ [الأعراف: ١٩٠]: لما ولدت حوّاء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال لها: سمِّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمَّتْه عبد الحارث، فعاش، فكان ذلك من وَحْيِ الشيطان وأمْرِه.

﴿خُذِ العَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]: هو أن تَعْفُو عمن ظلمك، وتُعْطِي مَنْ حرمك، وتَصِل مَنْ قطعك.

﴿تخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُم الناسُ﴾ [الأنفال: ٢٦]: هم أَهْل فارس.

﴿وهم يَسْتَغْفِرُون﴾ [الأنفال: ٣٣]: أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: وما كان الله ليعذِّبهم وأنْتَ فيهم، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.

﴿وَأَعِدُّوا لهم ما استَطَعْتُم من قوة﴾ [الأنفال: ٦٠]: ألاَ إن القوةَ الرَّمْي.

﴿وآخرين مِنْ دُونهم لا تَعلَمُونهم﴾ [الأنفال: ٦٠]: هم الجن.

﴿يَوْمَ الحجِّ الأكبر﴾ [التوبة: ٣]: يوم النحر، وقيل: يوم عرفة.

﴿إنما يَعْمُرُ مَساجدَ الله﴾ [التوبة: ١٨]: إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشْهدُوا له بالإيمان.

﴿ومَساكِنَ طَيِّبَةً في جنات عَدْن﴾ [التوبة: ٧٢]: قال: قصر من لؤلؤ، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء، في كل بيت سرير، على كلِّ سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش زوجة من الحورِ العين، في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كل بيت سبعون وصيفاً ووَصِيفة، ويعطى المؤْمن في كل غداةٍ من القوة ما يأتي على ذلك كله أجمع.

﴿أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه على تَقْوَى مِنَ اللهِ﴾ [التوبة: ١٠٩]: هو مسجدي.

﴿يحبون أَنْ يتطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨]: هو الاستنجاء بالماء.

﴿السائحون﴾ [التوبة: ١١٢]: هم الصائمون.

﴿للَّذِينَ أحسنُوا الحُسْنَى وزِيادة﴾ [يونس: ٢٦]: الحسنى الجنة، والزيادة: النَّظَرُ إلى ربهم.

﴿قل بفَضْلِ الله﴾ [يونس: ٥٨]: القرآن، ﴿وبرحمته﴾: أن جعلكم من أهله.

﴿ألاَ إنَّ أَولياءَ الله لا خَوْفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُون﴾ [يونس: ٦٢]: إن من عباد الله ناساً يَغبطهم الأنبياء والشهداء. قيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: قوم تحابُّوا في الله من غير أموال ولا أنساب، لا يفزعون إذا فزع الناسُ، ولا يحزنون إذا حزنوا.

﴿لهم البُشْرَى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة﴾ [يونس: ٦٤]: هي الرؤيا الصالحة يراها الرجلُ الصالح أو تُرى له، فهي بشراهُ في الحياة الدنيا، وبُشْراه في الآخرة الجنة.

﴿إلاّ قَوْمَ يونس لما آمَنُوا﴾ [يونس: ٩٨]: لما دعوا.

﴿ليَبْلُوَكُمْ أيُّكمْ أحسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧]: أحسنكم عقلاً، وأحسنكُم عقلاً أورعكم عن محارم الله. وأعملكم بطاعة الله، لم أرَ شيئاً أحسن طلباً ولا أحسن إدراكاً من حسنةٍ حديثة لسيئة قديمة، إن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئات.

﴿وما كانَ رَبُّك لِيُهْلِكَ القُرَى بظُلْمٍ وأَهْلُها مُصْلحون﴾ [هود: ١١٧]؛ أي يُنْصف بعضهم بعضاً.

﴿إني رأيتُ أحدَ عشر كوكباً﴾ [يوسف: ٤]: خرثان، وطارق، والذيال، وذو الكنعان، وذو الفزع، ووثاب، وعمودان، وقابس، والذروح، والمصبح، والفيلق، والضياء، والضوء، والنور، يعني أباه وأمه رآها في أفق السماء ساجدة له، فلما قصّ رؤياه على أبيه قال: أرى أمْراً مشتتاً يجمعه الله.

﴿أني لم أَخُنْهُ بالغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢]: لما قالها يوسف قال له جبريل: اذكر همَّك. قال: ﴿وما أُبَرِّىء نَفْسي﴾ [يوسف: ٥٣].

﴿ونُفَضِّلُ بَعْضَها على بَعْضٍ في الأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]: الدقل، والفارسي، والحلو والحامض.

﴿ويُسَبِّح الرَّعْد﴾ [الرعد: ١٣]: هو ملك من ملائكةِ الله موكَّل

بالسحاب يسوقُه حيث أمره الله، وهذا الصوت الذي يسمع صوتُه. وفي رواية: الرعد يزجر السحاب، والبرقُ طرف ملك يقال له روفيل. وفي حديث آخر: إن ملكاً موكّلٌ بالسحاب يلـمّ القاصية ويلحم الرابية، في يده مخراق، فإذا رفع برقَتْ، وإذا زجر رعدت، وإذا ضرب صعقت.

﴿طُوبَى لهم﴾ [الرعد: ٢٩]: هي شجرة في الجنة، مسيرة مائةِ عام.

﴿يمحو الله ما يشاءُ ويُثْبِت﴾ [الرعد: ٣٩] من المحو، ويزيد فيه. وفي رواية: كلُّ ذلك في ليلة القدر؛ يرفع ويجبر، ويرزق غير الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإن ذلك لا يبدَّل. وفي رواية عن علي: أنه سأل النبيَّ ﷺ عن هذه الآية، فقال: لأقِرنَّ عينكَ بتفسيرها، ولأقِرّنَّ عين أمتي من بعدي بتفسيرها: الصدقة على وجهها، وبرّ الوالدين، واصْطناع المعروف يحوِّل الشقاء سعادة، ويزيد في العمر.

﴿لئنْ شَكرْتُمْ لأزِيدنَّكـم﴾ [إبـراهيم: ٧]: مـن أعطـي الشكـر لم يحرم الزيادة.

﴿ويُسْقَى مِنْ ماء صَدِيد يتَجرَّعُه﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧]: يقربه الله منه فيتكرهه، فإذا أُدني منه شوَى وَجْهَه، ووقع فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، يقول الله: ﴿وسُقُوا مَاء حَمِيماً فقَطع أمْعَاءهم﴾ [محمد: ١٥]. وقـال: ﴿وإنْ يَسْتَغِيثُـوا يُغَـاثـوا بماء كـالْمُهْـلِ يَشْـوِي الوُجـوه﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿سواء علينا أجَزعْنا أم صَبرنَا ما لنا مِنْ مَحِيص﴾ [إبراهيم: ٢١]: يقول أهلُ النار: هَلُموا فلنصبر، فيصبرون خمسمائة عام، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: هلُمُّوا فلنجزع فيبكون خمسمائةِ عام؛ فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سواء علينا أجزِعْنَا أم صَبَرْنَا ما لنا مِنْ مَحِيص﴾.

﴿مَثَلاً كلمةً طيبة كشجرةٍ طَيِّبة﴾ [إبراهيم: ٢٤]: هي النخلة. ﴿ومَثَلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ [إبراهيم: ٢٦]: هي الحنظل.

﴿يثبِّتُ الله الذين آمَنُوا بالقَوْلِ الثابت﴾ [إبراهيم: ٢٧]: إذا سُئِل المسلم في القبر ويشهد أنْ لا إله إلا الله وأَنَّ محمداً رسول الله، فذلك هو التثبيت.

﴿يَوْمَ تبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] يكون الناس يومئذ على الصراط.

وفي رواية: أرض بيضاء كأنها فضّة لم يسفَكْ فيها دَمٌ حرام، ولم يُعمل فيها خطيئة.

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الذين كفَرُوا لو كانُوا مُسْلِمين﴾ [الحجر: ٢]: يخرج الله ناساً من المؤمنين من النار بعد ما يأخذ نقْمَته منهم لما أدخلهم النار مع المشركين؛ قال لهم المشركون: تدّعون أنكم أولياءُ الله في الدنيا، فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك أذِنَ الله في الشفاعة لهم فتشفَعُ الملائكةُ والنبيئون والمؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: يا ليتنا كُنّا مثْلهم، فتدركنا الشفاعة، فنخرج معهم، فذلك قول الله: ﴿رُبَّما يوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾.

﴿لكل بابٍ منهم جُزْءٌ مَقْسوم﴾ [الحجر: ٤٤]: جزء أشركوا في الله، وجزء شكّوا في الله، وجزء غفلوا عن الله.

﴿كما أنزلنا على الْمُقْتَسِمين﴾ [الحجر: ٩٠]: اليهود والنصارى.

﴿الذين جعلوا القرآن عِضِين﴾ [الحجر: ٩١]: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض.

﴿فوربِّك لنسألنَّهم أجمعين﴾ [الحجر: ٩٢]: عن قول لا إله إلا الله.

﴿زِدْنَاهُمْ عذَاباً فَوْقَ العذابِ﴾ [النحل: ٨٨]: عقارب مثل النخل الطوال ينهشونهم في جُنوبهم.

﴿جعلنا الليلَ والنهار آيتين﴾ [الإسراء: ١٢]: كانا شمْسين.

﴿فمَحَوْنَا آيةَ الليلِ﴾ [الإسراء: ١٢]: فالسواد الذي رأيت هو المحوُ.

﴿ولقد كَرّمْنَا بني آدم﴾ [الإسراء : ٧٠] : بالأكل بالأصابع .

﴿يوم نَدْعُو كلَّ أُناسٍ بإمَامِهم﴾ [الإسراء : ٧١] : يُدْعَى كلٌّ قوم بأصنام لهم ، وكتاب ربهم .

﴿أَقِم الصلاةَ لدُلوكِ الشَّمْسِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] : هو زوالها .

﴿إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كان مشهوداً﴾ [الإسراء : ٧٨] : تشهده ملائكة الليل وملائِكة النهار .

﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مقاماً محموداً﴾ [الإسراء : ٧٩] : هو المقام المحمود أشفع فيه لأمتي . وفي لفظ : هي الشفاعة .

﴿ونَحْشُرهم يَوْمَ القيامة على وجوههم﴾ [الإسراء : ٩٧] : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشرون على وجوههم؟ قال : الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ أن يُمشيهم على وجوههم .

﴿سُرَادِقُها﴾ [الكهف : ٢٩] : لسرادق النار أربعة أجدر ، كثافة كل جدار مثل مسافة أربعين سنة .

﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كالْمُهْلِ﴾ [الكهف : ٢٩] : كعَكر الزيت ، فإذا قرّبه إليه سقطت فروةُ وجْهه فيه .

﴿الباقِيَاتُ الصالحات﴾ [الكهف : ٤٦] : التهليل والتكبير ، والتسبيح والحمد لله ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله . وفي لفظ آخر : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر هي الباقياتُ الصالحات .

﴿فظَنُّوا أنهم مُوَاقِعوها﴾ [الكهف : ٥٣] فينصب الكافر مقدار خمسين ألف سنة كما لم يعمل في الدنيا ، وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة .

﴿وكان تحته كَنْزٌ﴾ [الكهف : ٨٢] : هو لوح من ذهب مصمت عجبت

لمن أيقن بالقَدر كيف ينصب، وعجبت لمن ذكر النار كيف يضحك، وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

﴿جناتُ الفردوس نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]: إذا سألْتُم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تُفجَّرُ أنهار الجنة.

﴿تحْتَك سريًّا﴾ [مريم: ٢٤]: نهراً، أخرجه الله لتشربَ منه.

﴿يا أُخت هارون﴾ [مريم: ٢٨]: كانوا يسمّون بالأنبياء والصالحين قبلهم.

﴿وأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩]: هو يوم يدخلُ أَهلُ الجنةِ الجنةَ وأهل النار النار، ويجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة؛ هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبُّون وينظرون، فيقولون: نعم، هذا الموت، فيؤمَر به فيذبح ويقال: يا أهل الجنة، خلود لا موتَ، ويا أهل النار، خلود لا موت، ثم أشار بيده، وقال: أهل الدنيا في غفلة، غَيّ وأَثام بئران في أسفل جهنم يسيل فيهما صديدُ أهلِ النار.

﴿وإنْ منكُمْ إلاّ وارِدُها﴾ [مريم: ٧١]: لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بَرْداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم يُنَجِّي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًّا.

﴿ولا يُفْلحُ الساحِرُ حيث أتى﴾ [طه: ٦٩]: إذا وجَدْتم الساحر فاقتلوه، ولا يُؤمَنُ حيث وُجد.

﴿مَعيشةً ضَنْكاً﴾ [طه: ١٢٤]: عذاب القبر.

﴿وجعلنا من الماء كلَّ شيء حَيّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]: كل شيء خلق من الماء.

﴿ومَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلْم﴾ [الحج: ٢٥]: احتكار الطعام بمكة إلحاد.

﴿البيت العَتيق﴾ [الحج: ٢٩]: إنما سمّي البيت العتيق، لأنه لم يظهر عليه جبّار.

﴿واجتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]: عدلت شهادة الزورِ بالإشراك.

﴿والذِين يُؤْتُون ما آتَوا وقلوبُهم وَجِلةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]: هو الذي يصلّي ويصوم ويتصدق ويخاف الله.

﴿وهم فيها كالِحون﴾ [المؤمنون: ١٠٤]: تشويه النار فتقلص شفَتُه العليا حتى تبلغَ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفْلَى حتى تضرب سُرَّته.

﴿حتى تَسْتأنِسوا﴾ [النور: ٢٧]: يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة، ويتنَحْنَح فيؤذِن أهلَ البيت.

﴿وإذا أُلْقُوا منها مكاناً ضَيقاً مُقَرَّنين﴾ [الفرقان: ١٣]: والذي نفسي بيده إنهم ليُستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط.

﴿أيَّمَا الأَجلَيْنِ قضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨]: قضى أوفاهما وأبرهما، وتزوّج الصغرى من البنتين.

﴿وتَأتُون في نادِيكم المنْكر﴾ [العنكبوت: ٢٩]: كانوا يخوّفون أهْلَ الطريق، ويستخرجون منهم؛ فهو المنْكَر الذي كانوا يأتون.

﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحديثِ﴾ [لقمان: ٦]: لا تبيعوا القينات ولا تشتروهنّ ولا تعلمونهن، ولا خير في تجارة فيهنّ، وثمنهن حرام في مثل هذا أنزلت: ﴿ومن الناس...﴾ الآية.

﴿أَحْسَنَ كلَّ شيء خلقَهُ﴾ [السجدة: ٧]: أما إن است القردة ليست بحسنة، ولكنه أحكم خَلْقها.

﴿تتجَافَى جُنُوبُهم عن المضاجع﴾ [السجدة: ١٦]: قيام العبد من الليل.

﴿وجعلناهُ هدى لبني إسرائيل﴾ [السجدة: ٢٣]، قال: جُعل موسى هدى لبني إسرائيل.

﴿فلا تَكُنْ في مِرْيَةٍ مِنْ لقائه﴾ [السجدة: ٢٣]: من لقاء موسى ربه.

﴿ فمنهم مَنْ قَضَى نَحْبَه﴾ [الأحزاب: ٢٣]: طلحة ممن قضى نَحْبه.

﴿ إنّما يُرِيدُ الله لِيُذهِبَ عنكُم الرِّجْسَ أَهْلَ البيت﴾ [الأحزاب: ٣٣]: دعا فاطمة وعليّاً وحسناً وحُسيناً، فجلّلهم بكساءٍ، وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ وطهِّرهم تطهيراً.

﴿ لقد كان لسبأ﴾ [سبأ: ١٥]: هو رجل ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستةٌ، وبالشام منهم أربعة.

﴿ ثم أوْرَثْنَا الكتابَ الذين اصطفَيْنَا مِنْ عِبَادنا...﴾ [فاطر: ٣٢] الآية. أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنةَ بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً. وأما الذين ظلموا أَنْفُسهم فأولئِك الذين يُحْبَسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، وهم الذين يقولون الحمدُ لله الذي أَذْهَب عنا الحزنَ... الآية.

﴿ أوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يتَذَكَّر فيه مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]: إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستين، وهو العمر الذي قال الله: « أولم نعمركم ما يتذَكَّرُ فيه مَنْ تذكر ».

﴿ والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: ٣٨]: مستقرُّها تحت العرش. وفي لفظ آخر: إنها تسجد تحت العرش.

﴿ حُورٌ عِين﴾ [الواقعة: ٢٢]: العِين: الضخام العيون، شُفْر الحوراء، مثل جناح النسر، وهو بالفاء مضاف إلى الحوراء، وهو هدب العين، وإنما ضبطتُه وإن كان واضحاً لأني رأيتُ بعْضَ المهملين من أهل عصرنا صحّفه بالقاف، وقال: الحوراء مثل جناح النّسر مبتدأ وخبر، يعني في الخفة والسرعة، وهذا كذبٌ وجَهل وإلحاد في الدين وجرأة على الله ورسوله.

﴿ كأنهن بَيْضٌ مَكْنُون﴾ [الصافات: ٤٩]: رقتهن كرقة الجلدة التي داخل البيضة التي تلي القِشر.

﴿وجعلنا ذرِّيَّتَه هم الباقين﴾ [الصافات: ٧٧]: حام، وسام، ويافث. وأخرج من طريق آخر؛ قال: سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم.

﴿وأرسلناهُ إلى مائة أَلْف أو يَزيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]: قال: يزيدون عشرين ألفاً.

﴿وإنا لنَحْنُ الصافُّون﴾ [الصافات: ١٦٥]: أطّت السماء وحقّ لها أن تئطّ، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد لله.

﴿له مَقَالِيدُ السمواتِ والأَرض﴾ [الزمر: ٦٣]: تفسيرها لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، أستغفر الله، ولا حوْلَ ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيدهِ الخير، يحيي ويميت... الحديث غريب، وفيه نكارة شديدة.

﴿فصَعِقَ مَنْ في السموات ومَن في الأرض إلا مَنْ شاءَ الله﴾ [الزمر: ٦٨]: هم الشهداء.

﴿إنَّ الَّذِين يستَكْبِرُون عن عِبَادتي﴾ [غافر: ٦٠]؛ أي دعائي.

﴿إنَّ الذين قالُوا ربُّنا الله ثم استقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]: قد قالها ناس من الناس، ثم كفر أكثَرُهم، فمن قالها حتى يموت فهو من استقام عليها.

﴿ما أصابَكُم مِن مُصِيبة﴾ [الشورى: ٣٠]؛ أي من مرض، أو عقوبة، أو بلاء في الدنيا فبما كسبَتْ أيديكم، والله أحلم مِنْ أن يثنّي عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فاللهُ أكرمُ من أن يعودَ بعد عفوه.

﴿ما ضَرَبُوه لكَ إلا جَدَلاً﴾ [الزخرف: ٥٨]: ما ضلَّ قوم بعد هُدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدَل.

﴿وتِلْكَ الجنّةُ التي أُورِثْتُموها بما كنْتُم تَعْمَلون﴾ [الزخرف: ٧٢]: كلّ

أهل النارِ يرى منزلته في الجنة حسرةً، فيقول: لو أن الله هداني لكنتُ من المتقين، وكلّ أهل الجنة يرى منزلته من النار فيقول: ﴿وما كُنّا لنَهْتَدِيَ لولا أنْ هَدانا الله﴾ [الأعراف: ٤٣]، فيكون له شكر. وما مِنْ أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافرُ يرِثُ المؤمنُ منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تأتي السماءُ بدُخَانٍ مُبين﴾ [الدخان: ١٠]: إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه. والثانية الدابة. والثالثة الدجّال.

﴿فما بَكَتْ عليهم السماءُ والأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩]: ما من عَبْدٍ إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رِزْقُه، وباب يدخل فيه عمله وكلامه، فإذا مات فقَداه وبَكيَا عليه. وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على وَجْهِ الأرضِ عملاً صالحاً تبكي عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلامٌ طيب ولا عَمَلٌ صالح، فتفقدهم فتبكي عليهم. وفي رواية: ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكَتْ عليه السماء والأرض.

﴿أو أَثَارةٍ مِنْ عِلْم﴾ [الأحقاف: ٤]: الخط.

﴿وألزمَهُمْ كَلِمةَ التَّقْوى﴾ [الفتح: ٢٦]: لا إله إلا الله.

﴿ولا يغْتَبْ بَعْضُكم بَعْضاً﴾ [الحجرات: ١٢]: إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتَبْتَه، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّهُ.

﴿هل مِنْ مَزِيد﴾ [ق: ٣٠]: لا يزال يلقي في النار، وتقول: هل مِنْ مَزِيد؟ حتى يضعَ قَدمه فيها، فتقول: قط قط.

﴿والذّارِيات ذَرْواً﴾ [الذاريات: ١]: هـي الرياح.

﴿فالجاريات يُسْراً﴾ [الذاريات: ٣]: هي السفن.

﴿فالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ [الذاريات: ٤]: هي الملائكة.

﴿واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتهُمْ بإيمانٍ ألحقْنَا بهم ذُرِّيَّتهم﴾ [الطور : ٢١] : إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار .

﴿وإبراهِيم الذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] : وفّى عَمَلَ يومِهِ بأربع ركعات من أول النهار . وفي رواية : كان يقـولُ كلما أصبح وأمسى : ﴿فسبحان الله حين تُمْسُونَ وحين تُصبحون...﴾ حتى ختم الآية .

﴿وأنَّ إلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى﴾ [النجم: ٤٢] : تفكروا في مخلوقاتِ الله، ولا تفكروا في ذاتِ الله .

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأن﴾ [الرحمن: ٢٩] : من شأنه أَنْ يغفِرَ ذَنْباً ، ويكشف كَرْباً ، ويرفع قوماً ، ويضَع آخرين .

﴿ومِنْ دُونِهما جَنَّتان﴾ [الرحمن : ٦٢] : جنتان من فضةٍ آنيتهما وما فيهما . وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما .

﴿هَلْ جزَاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ﴾ [الرحمن : ٦٠] : هل تدرون ما قال ربُّكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : يقول هل جَزَاءُ مَنْ أَنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنة .

﴿في سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ [الواقعة : ٢٨] : خضد الله شوكه ، فجعل مكانَ كلِّ شوكة ثمرة .

﴿وظِلّ مَمْدُود﴾ [الواقعة : ٣٠] : إن في الجنة شجرة يسير الراكبُ في ظلّها مائةَ عام لا يقطعها : اقرؤوا إن شئتم : ﴿وظِلّ ممدود﴾ .

﴿وفُرُشٍ مَرْفُوعَة﴾ [الواقعة : ٣٤] : ارتفاعُها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام .

﴿إنَّا أَنْشأنَاهُنَّ إنشاءً﴾ [الواقعة : ٣٥] : كنّ في الدنيا عجائز عُمْشاً رُمصاً .

﴿أبكاراً. عُرُباً أتْراباً﴾ [الواقعة: ٣٦، ٣٧]: قالت أم سلمة: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله: حور عين؟ قال: حور عين بيض ضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر. قلت: أخبرني عن قوله: ﴿كأمْثَالِ اللؤْلؤ المكنون﴾ [الواقعة: ٢٣]؟ قال: صفاؤهنَّ كصفاءِ الدُّرِّ الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي. قلت: أخبرني عن قوله: ﴿فيهَنَّ خيراتٌ حسَان﴾ [الرحمن: ٧٠]؛ قال: خَيرات الأخلاق، حِسان الوجوه. قلت: أخبرني عن قوله: « كأنهنَّ بَيْضٌ مكنون »؟ قال: رِقتهنَّ كرقّة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القِشرة قلت: أخبرني عن قوله: ﴿عُرُباً أتراباً﴾ [الواقعة: ٣٧]؟ قال: هن اللواتِي قُبِضْنَ في الدنيا عجائز رُمصاً شُمْطاً، خلقهُنَّ الله بعد الكبر فجعلهنّ عذَارى عرُباً متعشقات محببات. أتراباً على ميلادٍ واحد كلامهنَّ عربي.

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأولين. وثُلَّةٌ مِنَ الآخرين﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠]: هما جميعاً من أمتي.

﴿ولا يَعْصِينَكَ في مَعْرُوف﴾ [الممتحنة: ١٢]: هو النوح.

﴿ن والْقَلم﴾ [القلم: ١]: لوح من نور، وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة. وفي لفظ آخر: أول ما خلق الله القلم والحوتَ قال: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: كلّ شيء كائن إلى يوم القيامة.

﴿عُتُلّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]: تبكي السماء من عبد أصحَّ الله جسمه، وأَرْحَبَ جَوْفَه، وأعطاه من الدنيا مقضماً، فكان للناس ظلوماً؛ فذلك العتُلُّ الزنيم.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]: عن نور عظيم، يخرُّون له سجَّداً.

﴿كان مِقْدَارُهُ خمسين ألْفَ سنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]: والذي نفسي بيده ليخفّف عن المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاةٍ مكتوبة يصليها في الدنيا.

﴿فاقرأوا ما تَيَسَّر مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]: قال: مائةُ آية.

﴿سأُرْهِقُه صَعُوداً﴾ [المدثر : ١٧] : هو جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفاً ، ثم يَهْوِي به كذلك .

﴿هو أَهْلُ التَّقْوَى وأَهْلُ المغفرة﴾ [المدثر : ٥٦] : قال ربكم : أنا أهلٌ أن أتقى ، فلا يجعل معي إله ، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أنْ أَغْفِر له .

﴿لابثين فيها أحْقَاباً﴾ [النبأ : ٢٣] : الْحُقب بضع وثمانون سنة ، كلّ سنة ثلاثمائةٍ وستون يوماً مما تعدُّون .

﴿إذا الشمسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير : ١] : تكويرها وانكدارها في جهنم .

﴿وإذا النفوسُ زُوِّجَت﴾ [التكوير : ٧] : القرناء كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله .

﴿في أيِّ صُورَةٍ ما شاء ركَّبَكَ﴾ [الانفطار : ٨] : قال ﷺ لأحد الصحابة : ما وُلِدَ لك ؟ قال : ما عسى أن يولَد لي ، إمّا غلام أو جارية . قال : فمَنْ يشبه ؟ قال : ما عسى أن يشبه إمّا أباه أو أمه . فقال ﷺ : مَهْ ، لا تقولنَّ هذا ، إن النطفة إذا استقرَّتْ في الرحم أحضرها الله كلَّ نسبٍ بينها وبين آدم ؛ أما قرأت : ﴿في أيِّ صورة ما شاءَ رَكّبك﴾ . قال : سلَكَكَ .

﴿الأبرار﴾ [الانفطار : ١٣] : إنما سماهم الأبرار ، لأنهم بَرّوا الآباء والأبناء .

﴿يوم يَقُومُ الناسُ لربِّ العالمين﴾ [المطففين : ٦] : حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أُذنيه .

﴿كلا ، بَلْ رانَ على قلوبهم ما كانوا يَكْسبُون﴾ [المطففين : ١٤] إذا أَذْنب ذنباً كانت نكْتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صقل قَلْبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله في القرآن .

﴿فسوف يحَاسَبُ حِساباً يسيراً﴾ [الانشقاق : ٨] : قالت عائشة : قلت : يا

رسول الله، ما الحسابُ اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه مَنْ نوقش الحساب يومئذ هلك.

﴿واليوم الموْعُود﴾ [البروج: ٢]: يوم القيامة.

﴿وشاهد﴾ [البروج: ٣] يوم الجمعة. ﴿ومشهود﴾ [البروج: ٣]: يوم عرفة.

﴿في لوح محفوظ﴾ [البروج: ٢٢]إن الله خلق لَوْحاً محفوظاً من دُرّة بيضاً صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمهُ نور، وكتابُه نور، لله فيه كلّ يوم ستون وثلاثمائة لحظة، يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعزٌ ويذل، ويفعل ما يشاء.

﴿قد أَفْلح مَنْ تَزَكّى﴾ [الأعلى: ١٤]: من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله.

﴿وذكر اسْمَ رَبِّه فصلّى﴾ [الأعلى: ١٥]: هي الصلوات الخمس، والمحافظة عليها، والاهتمام بها.

﴿وليالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ٢]: عشر الأضحى، و(الوتر) يوم عرفة.

﴿والشّفع﴾ [الفجر: ٣]: يوم النحر. وفي رواية: الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر.

﴿فكّ رَقبة﴾ [البلد: ١٣]: هو الإعانة في عِتْقها، وعتقها أن تنفرد في عِتقها.

﴿قد أفْلح مَنْ زكاها﴾ [الشمس: ٩]: أفلحت نَفْسٌ زكاها الله.

﴿ورفَعْنَا لك ذِكْرَك﴾ [الشرح: ٤]: أتاني جبريل، فقال: إنَّ ربك يقول: أتَدْري كيف رُفِع ذكرك؟ قلت: الله أعلم. قال: إذا ذُكِرتُ ذكرتَ معي.

﴿يومئذ تُحدِّثُ أخبارَها﴾ [الزلزلة: ٤]: قال: أتَدْرُونَ ما أخبارها؟

قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ان تشهدَ على كل عبد أو أمة بما عمل على ظَهْرها بأن تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا.

﴿إنّ الإنسانَ لربه لكَنُود﴾ [العاديات: ٦]: الذي يأكل وحْدَه، ويضرب عَبْده، ويمنع رِفْده.

﴿ثم لتُسألُنَّ يومئذ عن النعيم﴾ [التكاثر: ٨]: الأمن والصحة والماء البارد.

﴿مؤْصَدَة﴾ [الهمزة: ٨]: مطبقة.

﴿عَنْ صلاتهم ساهُون﴾ [الماعون: ٥]: الذين يؤخرونها عن وَقْتِها.

﴿الكوثر﴾ [الكوثر: ١]: نهر أعطانيه ربي في الجنة، له طرق لا تحصى.

﴿إذا جاء نَصْرُ الله والفَتْح﴾ [النصر: ١]: لما نزلت قال ﷺ: نُعيت إليّ نفسي.

﴿الصَّمَد﴾ [الإخلاص: ٢] الذي لا جَوْفَ له.

﴿الفَلَق﴾ [الفلق: ١]: جُبّ في جهنم مغَطى.

﴿ومن شَرِّ غاسقٍ إذا وَقَب﴾ [الفلق: ٣]: النجم الغاسق. وفي رواية عائشة قالت: أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي فأراني القَمر حين طلع، وقال: تعوَّذِي بالله من شر هذا، هذا الغاسق إذا وَقَب.

﴿الوسواس الخَنّاس﴾ [الناس: ٤]: إن الشيطان واضع خطمه على قَلْب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نَسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخنّاس.

★ ★ ★

فهذا ما حضرني من التفاسير المرفوعة المصرح برفعها صحيحها وحسنها، ولم أعوِّل على الموضوعات والأباطيل، واختصرت فيها وفي كلّ هذا الكتاب للتحريض عليه، ولعل عبدة الناس تَهْوي إليه؛ إذ العمْرُ قصير، وفي العمل تقصير، فأسأل من الناقد أن يكونَ غير بصير؛ لأنه إن بصرَ رأى من المعايب ما لا يخطر ببال، كما قال ﷺ: «أَنا من غير الدجال أخوفُ عليكم من الدجال».

فقيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: العلماء السوء. وهذا لأنّ الدَّجال غايتُه الإضلال، ونحن نصرفُ الناس عن الدنيا بألسنتنا ومقالنا، وندعوهم إليها بأفعالنا وأعمالنا، ولسانُ الحال أنطقُ من لسان المقال، وطباعُ النظر إلى المساعدة في الأعمال أميلُ منها إلى المتابعة في الأقوال، فما أَفْسَدْنَا بأعمالنا أكثر مما أصلحنا بأقوالنا؛ إذ لا يستجريء الجاهل إلا باستجرائنا، ولو اشتغلت بإصلاح نفسي كان أولى بها وأعظم من هذا، إنه يخيل لنا أنا خير من كثير من عباد الله، وهذا هو أعظم من كل ضلال.

فإن قلت: قد أخرج البزار عن عائشة، قالت: ما كان رسول الله ﷺ يُفَسِّر شيئاً من القرآن إلا آياً بعد تعليمه إياهن من جبريل.

والجواب: أنَّ الصحيح عند ابن تيمية وغيره أنه ﷺ بيّن لأصحابه جميعَ تفسير القرآن أو غالبه.

ويؤيد هذا ما أخرجه أحمد وابن ماجة، عن عمر ـ أنه قال: مِنْ آخر ما أنزل الله آية الربا، وإن كان رسول الله ﷺ قُبض قبل أنْ يفسرها. دَلَّ فَحْوى الكلام على أنه كان يفسر لهم كلّ ما أُنزل، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية لسرعة مَوْته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وَجْه.

وقد أَوَّل ابن جرير وغيره حديث عائشة أنه إشارات إلى آياتٍ مشكلات أشكلن عليه، فسأل الله عِلْمهن، فأنزله الله على لسان جبريل.

فإن قلت: قد صح أنّ آخر آية نزلت: ﴿يستفتونك قل الله يُفْتيكم في الكَلاَلَة﴾ [النساء: ١٧٦]. وآخر سورة نزلت: براءة. وفي رواية: آخر آية نزلت: ﴿واتَّقُوا يوماً تُرْجَعُون فيه إلى الله﴾ [البقرة: ٢٨١]. وعاش ﷺ بعد نزول هذه الآية سبع ليال. وفي رواية سعيد بن المسيب أَنَّ أَحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدَّيْن؛ لأن الظاهر أَنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، ولأنها في قصة واحدة، فكيف يجمع بين هذه الأحاديث؟

والجواب: أن إخبار بعضهم بآية الربا بأنها ختام الآيات المنزّلة في الربا، إذ هي معطوفة عليها والآخرية في آخر النساء مقيّدة بما يتعلق بالمواريث بخلاف آية البقرة، ويحتمل عكسه. والأول أرجح لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول.

قال البيهقي: يَجْمعُ بين هذه الاختلافات إن صحّت الرواية أن كل واحد أَجاب بما عنده.

وقال القاضي أبو بكر في الانتصار: هذه الأقوالُ ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ، وكلّ قاله عن الاجتهاد وغلبة الظن. ويحتمل أنّ كلاًّ منهم أَخبر عن آخر ما سمع من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه. ويحتمل أيضاً أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسولُ ﷺ مع آياتٍ نزلت معها فيأمر برَسْمِ ما نزل معها بعد رَسْمِ تلك، فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب.

ومن غريب ما ورد في ذلك ما أخرجه ابن جرير عن معاوية بن أبي سفيان أنه تلى هذه الآية: ﴿فمَنْ كان يَرْجُو لِقَاءَ ربه...﴾ [الكهف: ١١٠] الآية، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن. قال ابن كثير: هذا آخر مشكل، ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغيّر حكمها، بل هي مثبتة محكمة.

ولنختم هذا الكتاب بما ختم اللهُ كتابَه آمِراً لنبيه بالاستعاذة من شَرِّ الحاسد الذي غلب عليه الجهْلُ وطمّه، وأعماه حبّ الرياسة وصَمَّهُ لحَمْلِه على الاعتراض عليّ، وينسب ما يرى فيه من التكرار والنقص إليّ. ولعمري لو علم ما أنا فيه من شغل البال، وتغيّر البلبال لالْتَمس لي عُذْراً، وصفح عما يرى فيه من التقصير ستراً. لكن الواجب على مَنْ كان في زمانٍ يتلاعب به الجهال والصبيان، والكامل عندهم مذموم داخل في كفّةِ النقصان، أن يلزَم فيه السكوت، ويصير حلْساً من أحلاس البيوت، ويردّ العلم إلى العمل، ولا يتقاعس في القعود مع أهْل الكسل، لكن أرْقُب ممن مَنَّ عليَّ بتلخيص هذا التفسير مع بعض زيادات

شريفة، ونوادر لطيفة، أن يجعله نافعاً ولا يذهب ضَبعاً لَبْعاً، وأن يعصمنا والناظر فيه، ومَنْ دعا لنا من شرور أنفسنا، ومِنْ سيئات أعمالنا بجاهِ سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ما دامت أشهراً وجُمعاً.

[تم الكتاب المبارك الميمون المسمى بمعترك الأقران، في إعجاز القرآن للإمام الحافظ السيوطي نفعنا الله به وبعلومه وسائرِ العلماء بجاهِ المفضّل على أهل الأرض والسماء سيدنا ونبينا ومولانا محمد ﷺ، على يَدِ كاتبه لنفسه ثم لمن شاء المولى بعده. الحاج أحمد بن محمد المستغانمي منشأ، الجزائري وطناً، أصلح الله أحوالَه، وسدَّد أقوالَه وأفعاله وَعقبه إلى يوم القيامة بجاه المدفون في تهامة، لثمانية وعشرين يوماً مضت من شهر الله المعظم ذي القعدة عام ١١٠٦ هـ. والحمد لله رب العالمين عرفنا الله خيره، ووقانا شره.

اللهم اغفر لكاتبه ووالديه وأشياخه وأزواجه وذرّياته وأحبابه والناظرين فيه، وكل مَنْ دعا لنا بالرحمة ولجميع المسلمين. وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين عدد ما ذكره الذاكرون وغَفَل عن ذِكره الغافلون].



فهرس موضوعات الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة

فهرس الألفاظ المشتركة التي أوردها المصنف في المتن(*)

حرف الألف

(*) أشرنا في المقدمة إلى أن المؤلف لم يوفق في ترتيب الألفاظ التي جعلها تحت عنوان: «ألفاظ مشتركة» فوضعنا هذا الفهرس للألفاظ والآيات التي استشهد بها في المتن، واعتمدنا في ذلك الجذر للفظة القرآنية الواردة بمفردها أو ضمن آية. واعتمدنا من الآيات الواردة واحداً من ألفاظها فقط لوضعها في الفهرس الأبجدي، إلا في بعض الحالات حيث أدرجنا نفس الآية في موضعين أو أكثر، وذلك باختيارنا منها لفظين أو أكثر، وذلك تسهيلاً على القاريء عند البحث عنها. كما نشير إلى أننا اعتبرنا بعض الألفاظ ذاتَ أصلٍ أعجمي فلم نردها إلى الجذر العربي، مثال ذلك: «إبراهيم» و«يوسف» وضعناهما في حرف الألف والياء على التوالي، و«أباريق» و«إستبرق» في حرف الألف. عسى أن يكون عملنا هذا مساعداً للقاريء والباحث، والله الموفق.

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء